جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
الدراسات العليا (قسم الأدب والنقد)



فن السخرية في أدب الجاحظ

إشراف
الدكتور/ محمد سرحان عليه رحمة الله



الرسالة التي تقدم بها للحصول على الدكتوراه
السيد نشأت محمود المنائسي
عام ١٩٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

أحمدك اللهم على جميل إنعامك ، وأشكرك شكر المعترف بمنتك وأفضالك ، وأستلهمك العون والرشاد ، والتوفيق والسداد ، سبحانك ، لاعلم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .. وأصلى وأسلم على صفوة خلقك ، وأكرم أنبيائك محمد عليه الصلاة والسلام ، ماخط قلم فى قرطاس ، وما ظهرت الفصاحة والبلاغة بين الناس ، وما بقى من يتحدث بلغة القرآن ويعمل على سموها .. وسموقها ..

أما بعد

فقد حفل أدبنا العربى بالموضوعات الجادة فى شتى نواحيه ، ومختلف اتجاهاته وكانت له القدم الراسخة ، واليد الطولى ، والعقل الرصين ، الذى جلى الغوامض وكشف العميات ، ولم يترك أمرا من الأمور إلا وقد ضوءه بضيائه ، تهد ظلماته وأبرز مخبئاته .

وقد عمرت المكتبة العربية ، وبخاصة المكتبات الجامعية بالعديد من الرسائل العلمية والأدبية والفنية ، التى ألقت الضوء على الجوانب المظلمة فى العلم ، وأزاحت النقاب عن النواحى المجهولة فى الأدب والفن ، فأثرت اللغة العربية ، والفكر الإنسانى ، بما أضافته من جديد الأفكار ، ورصين الآراء ، وجاد الموضوعات .

ولكن صرامة الجد ، وثقل الدرس ، وعمق الموضوعات ، وبعد أغوارها ، وسمت الأدب العربى بالجدية والوقار ، مما جعل كثيرا من دارسيه ونقاده يخلعون عليه بأجمعه صفات الخشونة والجفاف ، والثقل والإرهاق ، والجمود والتصلب ، ويصفونه بالعبوس والتقطيب .

فأحببت أن أثبت أن أدبنا العربي باسم الثغر، باش الوجه، وضاح الجبين، تزيد بشاشته وهشاشته وبسماته، في كثير من الحالات، وفي العديد من الموضوعات فتتحول إلى ضحكات وقهقهات، تعلو أصواتها، وترتفع نبراتها .. فعقدت العزم على أن أجعل ذلك موضوع بحثي، ومحور دراستي.

وأصرح بأن هذا الموضوع صادف هوى في قلبي، وإقبالا من نفسي، لما عرفته من أصحاب الظرفاء الضاحكين، والأدباء الهازلين، طمعا فيما عندهم، وطربـــا وإعجابا بما يكون فيهم من الفكاهة، وحضور بديهة، وسرعة جواب، وحسن تخلص في أضيق المآزق، وأحلك المسالك، مما يضفي على نفسي بهجة، وعلى روحي تألقا، ثم أعكس ذلك على نفوس قرائي سرورا وانشراحا.

وقد وقع اختياري على أرقى العصور علما وأدبا، وترجمة ونقلا، وفكرا وثقافة، وتأليفا وإنتاجا، وتفننا وابتكارا، وهو العصر العباسي، الذي تدين له الأمة العربية والمجتمعات الإنسانية، في شتى بقاع الأرض بالفضل والأستاذية، حتى يومنا هذا .. لأثبت أن النهضة والتقدم، والرقي العلمي والأدبي والفني في دولة قدست العلم وبجلت الأدب والفن، لم يمنعها من المرح والمزح، والفكاهة والضحك، وأن انغماسها في بناء الأمة، ورفع صرح حضارتها، والإغراق في العلوم والفنون والآداب، لم يصرفها من الفكاهة والهزل والسخرية رغبة في إذهاب الملل، وطرد السأم، والتخفف مــن عناء الدرس، وثقل الجد، بل إن العباسيين اعتبروها فنونا أدبية راقية، فيها الراحة والمتعة، وفيها التعليم والتثقيف، والنقد والتوجيه، كالفنون الجادة تماما، بل تفوقها بالإمتاع والترويح ... وإذا استطاع المرء أن يعلم وهو يضحك ويمرح، وأن

يعلم وهو يلهو ويعبث ، فقد بلغ التعليم قمته ، وحقق أسمى ما يطلبه علماء النفس والتربية والاجتماع ، وتلك غاية بعيدة المنال ، لا يصل إليها غير الأفذاذ من الرجال .

فما أردت أن أبين أن الضحك في أدبنا موجود وغزير منذ عصوره البعيدة وقبل أن يعرفه الناس في آدابهم ، بل قبل أن يرجعوا عن اعتقادهم الفاسد أنه عيب ونقص وخلق وتفه ، وسقوط للهيبة ، وإسقاط للمروءة .

على أن هذا العصر العباسي كان أقدر من غيره على امتلاك عنان الكلمة الضاحكة والقبض على زمام السخرية اللاذعة ، بما حباه الله من العيش الرخي ، والتباين الطبقي والشذوذ الاجتماعي ، والتفوق الأدبي .

وكل هذا جذبني إلى العصر العباسي ، فيممت وجهي شطر منهله العذب ، ووردة النائرة ورجعت إلى الوراء اثني عشر قرنا من الزمان ، لأرى ذلك المجتمع الحافل بالمرح والدعابة ، ولأجلس إلى الأدباء الدابهين في الضحك ، النابغين في الفكاهة والظرف والملح ، فجلست مع أبي دلامة ، وأبي العيناء ، وأبي العبر ، وأبي نواس ، وثمامة بن الأشرس ، والنظام ، وبشار بن برد ، وابن الرومي … وغيرهم من الفكهين المرحين ، فتمتعت بفكاهاتهم ، وطربت لحضور بديهتهم ، وحدة أذهانهم ، ولكن جلستي طالت ، وصحبتي امتدت مع شيخ الفكهين ، وزعيم الضاحكين المضحكين أبي عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ ، إذ كان يعلمني وأنا أضحك ، ويضحكني وأنا أتعلم ، وكانت لأماليه وأفاكيهه طعوم خاصة ، ونكهات محببة ، وانتعاشات تطرد كل هم ، وتذيب ما يجثم على الصدر من كرب وغم ، ورأيته الرائد في هذا الفن ، والسابق في تلك الحلبة ، والمقدم في هذا الباب ، فأعجبت به ، وأغريت بحديثه واتخذته الهدف ، ومحور البحث وهو لذلك أهل ، وصاحب جدارة وسبق .

ومن كأبي عثمان : أديبا لعربية المطلق ، وشيخ المعتزلين ، وزعيم الطائفة الجاحظية التي تسمت باسمه ، وكونت مدرسة ، وجليس الوزراء والخلفاء ، وخبير المجتمع

الذى سيرغوره ، وكشف دخائله ، وغاص فى أغواره ، ورائد فن الضحك والسخر ، ومؤلف كتاب البخلاء ، ورسالة التربيع والتدوير ، ومفاخرة المرجان والبرصان والقرعان ، ومفاخرة الحول والعور ، ومفاخرة السودان والبيضان ، والذى تمنى كل من أتى بعده أن يكونه ، فلما عز عليه ذلك وتأبى ، ألصق نفسه به ، ونسب عقليته إليه ، وتسمى بالجاحظ الثانى ....

وأستطيع أن أقول دون تحيز ، إنه يندر أن تجد موضوعا من الموضوعات لم يطرقه ابن بحر ولم يخض بحره ، فيصيد الدرة ويقتنص اللؤلؤ ، وتكون طريقته أحسن الطرق ، وفكرته أرقى الفكر ، حتى الصناعات اليدوية كان له بها خبرة وحذق ، ويكفينا ما روى أن مؤلفاته قاربت الأربعمائة كتاب ، لنعرف سيولة قلمه ، وفيض قريحته ، وغزارة إنتاجه ، ويكفينا ما وصل إلينا من أخبار كتبه التى تمدح الشئ ثم تذمه ، وتصفه وصفا محببا ، يجعل النفس تهش له ، وتقبل عليه ، وتتمنى حيازته ، ثم يصفه وصفا منفرا ، محددا مساوئه ، مقبحا ما فيه ، مما يجعل المرء يزور عنه ، ويلوى جيده نفورا منه ، وهربا من بشاعته ، لنعرف كيفية إنتاجه ، واستيلائه على العقول ، وامتلاكه نواصى القلوب .

ولكنى لم أشأ أن أجعل الفكاهة موضوعا لرسالتى ، لأنى أحب أن أبحث فى دائرة أضيق ، وأعتقد أن الرسائل الجامعية يحسن فيها أن تتناول نقطة صغيرة ، وفكرة ضئيلة ، ثم لاتزال توسعها وتنميها ، وتنظمها وتقسمها ، مستعينة بالأدلة وضرب الأمثلة ، حتى تجعلها موضوعا تام الخلق ، مبسوط الأجزاء ، وكلما ضؤل موضوع البحث ، وصغرت فكرته كان البحث فيه مفيدا مجديا ، وبخاصة فى عصرنا العلمى ، عصر التخصص والتدقيق ، وبذلك يخلق الباحث موضوعا ، ويسوى من الذرة خلقا جديدا شامخا ، فيه معالم الحياة ، وصفات الأحياء ، كما ينظر العالم فى مجهره ، فيرى قطرة الماء عالما شاسعا ، وبحرا لجيا ، مليئا بالأحياء والصراع ، فيخبرنا بما يراه ويشعر به ، ويطلعنا على عالم لاندرك تفاصيله

ولا تحيط بدقائقه ، ومن هنا تكون الفائدة ، ويكون الابتكار والاكتشاف ، والإحاطه بكل ما يتطلبه البحث والدرس .

فلما تفرست أدب الجاحظ الضاحك وفتشته ، أعجبني منه لون جذبني بريقه ، وبهرني ضياؤه وراعني تفننه وتأنقه ، وبراعة صوغه ، ودقة صنعه ، ذلك اللون هو السخرية ، فرأيته حريـــا بالبحث ، خليقا بالدرس ، محتاجا إلى تجلية قيمته ، وإبراز فوقه ، وتوضيح افتنانه وروعته ، وآنست من نفسي القدرة على إيفائه حقه ، وإبرازه في صورة تروقني وتعجبني ، فحصرت بحثي فيه ، وقصرته عليه ، وأخذت على عاتقي إبرازه في إطار يرفع قيمته ، ويخلع عليه أهميته وفنيته وينقب قلبه ليخرج كنوزه ودفائنه ، وأنا مقتنع بما أفعل ، واثق من دقة المدخل ، ووعورة المسلك ، والتعرض لمباحث علم الاجتماع ، ومتاهات علم النفس ، ونظريات الفلاسفة المعقدة ، فاستخرت الله تعالى في كتابة هذا البحث ، وشحذت ذهني ، وجمعت شتات فكري ، وبدأت مرحلة شاقة من البحث والدرس ، والغوص وراء المعاني التي قصدها أبو عثمان ، والغمزات التي كانت تصدر عنه ، في نعومة وملاسة ، ودقة ورقة ، لا ينتبه لها إلا الفطن اللقن ، والمنقب البحاث ، وصرت أتفرس كلماته ، وأستبطن تلميحاته وإشاراته ، وأتعمق مراميه ، وهو رجل بعيد الغور ، خفي اللذع ، يحتاج في فهم مقاصده ووخزاته إلى مقدرة خاصة ، وتمرس بأدبـــه ومعرفة بوجوه كلامه .... على أن من تحدثوا عن سخره لم يتجاوزوا عدة صفحات ، لا تشفي الغليل ، بل لا تبل اللهاة ، فلم يقسموا وينظموا ، ولم يفصلوا ويبينوا ، بل كان حديثهـــم عارضا ، وكلامهم مقتضبا ، مما ألقى على العبء كاملا ، وجعل المراجع لا تغني إلا بقدر ضئيل أما اعتمادي الكامل فكان على المصادر نفسها ، والقدرة على الاستنباط منها ، والاستدلال بما فيها ، ولقد بحثت ونقبت ، واستنبطت واستدللت ، وأرجو أن أكون قد وفقت ، وأعطيت الموضوع حقه ووفيت .

ثم عرضت لكلمة فن ، وأوضحت مؤداها ، ومدى ارتباط الرسالة بها ، كما بينت ما أعنيه بأدب الجاحظ ، وهذا هو الفصل الأول الذى سلطت فيه الضوء على عنوان الرسالة ، وأظهرت اتجاهى فيما سأتناوله من كلمة فن وكلمة السخرية وكلمة أدب الجاحظ ، التى تكون العنوان وتحوى المضمون .

الفصل الثانى : وفيه تأملت فى مقومات السخرية ومكونات بنيانها ، والمواد التى بتآزرها وتعاضدها يتحقق السخر ، ويوجد الطنز ، كما بينت الأهداف التى ترمى إليها ، والغايات التى تحققها ، وأنها نبيلة هادفة ، وجادة باسمة .

الفصل الثالث : وقد أوضحت فيه الدوافع التى تثير النفس ، وتهيج الوجدان ، حتى يظهر السخر على لسان الساخر ، ويبدو فى حركاته وسكناته ، كما عددت العناصر اللازمة لنجاح السخرية حتى تحقق أهدافها ، وتصل إلى غاياتها .

والسخرية ذلك الفن الأدبى الراقى لها مكانتها الرفيعة بين سائر الألوان الأدبية ، وهى أرقى الألوان الفكهة الهازلة ، وهى فى الوقت نفسه فيها الجد والحزم ، وليست بمحجوجة ولا تافهة إن قصد بها الإصلاح والتقويم وللفقهاء فى ذلك أسانيد وللمفسرين والمتصوفين والأدباء حجج وبراهين وذلك مبحث الفصل الرابع .

الباب الثانى : الجاحظ الأديب الساخر :

الفصل الأول : يتناول حياة الجاحظ فى عجالة ويلقى بصيصا من الضوء على أدبه الراقى وإنتاجه الغزير .

الفصل الثانى : يبحث عن العوامل العديدة التى كانت وراء سخره والتى دفعته إلى هذا النوع من التأليف ، والتى ارتقت بهذا اللون من أدبه حتى وصل به إلى الصدارة والرياسة بين معاصريه ، والتقدم والتفوق على من سبقه ومن لحقه ، حتى عد أبو هذا الفن النقدى الضاحك .

الفصل الثالث : وكان حديثي فيه عن علاقات الجاحظ الاجتماعية وأثرها في سخريته كثرة وعمقا وتنوعا وإتقانا .

الفصل الرابع : بينت فيه وضع الجاحظ الثقافي والأدبي بين معاصريه من علماء وأدباء وفنانين وخلفاء ، وكيف كان لهذا الوضع أوثق الصلات بسخريته ونموها ورقيها ، وطرقها وافتنانه فيها .

الباب الثالث : الجوانب الفنية في سخريات الجاحظ :

وفيه تظهر عبقرية الجاحظ الساخرة ، ومقدرته الأدبية والفنية ، وطاقاته المتعددة ، وتنوع ثقافته وكثرة معارفه ، وتفننه وإبداعه ، مما يشهد له بالحذق والابتكار .

الفصل الأول : تحدثت فيه عن التصوير الهزلي " الكاريكاتور " وكيف ارتقى به ، وولع منه وأبدع فيه ، وكيف سما وارتقى عن المصور والرسام والنحات والمثال ، وكيف وصلت براعته في المسخ والتشويه حدا فنيا لا ينال ، أساسه إظهار شعور الساخر ، وشعور التهكم به ، وكشف باطنه ، وإبراز ما استكن في حناياه من عيوب ، مشوها مجسما مضخما .

الفصل الثاني : عمدت فيه إلى السخر الذي استدعته المواقف ، واستوجبه المقام ، ودفعته إليه الأمور العارضة ، والمناظر التي جذبته بسرعة لشذوذها وشرودها .

الفصل الثالث : سخرية التضاد ، وهي أس السخر ، ومبعث الهزء ، لوجود التناقض ، وحدوث عكس المألوف المعهود ، فيسارع أبو عثمان إلى عدسة سخره ، يلقط بها المناظر ثم يخرجها محرفة ، متعرجة الخطوط ، مشوهة الملامح ، مشوهة القسمات .

الفصل الرابع : سخرية الحركة ، وللحركات المستمرة ، والتقلبات المتكررة شذوذها ، وللتصلب والجمود شذوذ وانحراف ، يثير السخر ، ويبعث على الهزء ، والجاحظ يتخذ من الحركة أداة للسخر من هؤلاء وأولئك ، في عبارة خلابة ، وصور مقلوبة رجراجة .

الباب الأول

التجربة في المجال الأدبي



الفصل الأول

مفهوم السخرية وموضوعاتها

مفهوم السخرية :
يختلف مفهوم السخرية باختلاف المباحث اللغوية ، والبلاغة والأدبية ،

أ- عند اللغويين :

السخرية : معناها الاستهزاء ، يقال سخر منه وبه سخرية أى هزىء ، منه هزؤا ، وفى الحديث : " أتسخر منى وأنا الملك " أى أتستهزئ بى (١) والسخرة بفتح الخاء كهمزة من يسخر من الناس (٢) وبسكون الخاء من يسخر منه (٣).

وفى اللغة ألفاظ تحمل فى طياتها معنى السخرية منها :

هزئ هزؤا بسكون الزاى وضمها ، ورجل هزأة بالتسكين يهزأ به ، وهزأة بالتحريك يهزأ بالناس (٤)

ويقال زرى عليه فعله عابه ، والزارى على الإنسان الذى لا يعده شيئا وينكر عليه فعله (٥) وأزريت به قصرت به وحقرته ، وزريت عليه فعله عبته وعنفته (٦) والتهكم : الزراية والعبث والاستهزاء (٧) وتهكم به تهزأ به وقال ذلك على سبيل التهكم (٨).

الطنز : السخرية فهو طناز (٩) وفلان يطنز بالناس يسخر منهم وطانزوا وتطانزوا (١٠).

---

١) لسان العرب ج ٦ ص ١٧ ابن منظور .
٢) القاموس المحيط ج ٢ ص ٤٦ ، المعجم الوسيط ج ١ ص ٤٢٣ ، لسان العرب ج ٦ ص ١٧ المنجد ص ٣٢٥ .
٣) المنجد ص ٣٢٥
٤) مختار الصحاح للرازى ط ٧ المطبعة الأميرية ص ٦٩٥
٥) مختار الصحاح ص ٢٧١
٦) أساس البلاغة للزمخشرى ص ١٩١ تحقيق عبد الرحيم محمود طبعة أولاد اورفاند
٧) لسان العرب ج ١٦ ص ١٠٠
٨) أساس البلاغة ص ٤٨٦
٩) مختار الصحاح صفحة ٣٩٨ .
١٠) أساس البلاغة صفحة ٣٨٥ .

ب — عند البلاغـــيين :

للبلاغيين مصطلحات تستعمل فى السخرية ، وتدل عليها ، وتحمل فى حناياها الهـــزء والاستخفاف منها :

١) التهكم : (وهو إخراج الكلام على ضد مقتضى الحال استهزاء ، ومعناه الزراية والعبث)(١) (كالإتيان بلفظ البشارة فى موضع الإنذار ، والوعد فى مكان الوعيد والمدح فى معرض الاستهزاء قال ابن الرومى :

فيا لـه من عمـــل صالــــح يرفعه الله إلى أسفل (٢)

قال تعالى : (فبشرهم بعذاب أليم)(٣) وقال الجاحظ للمكى بعد أن تبين جهله وقد كان يدعى البصر بالبراذين (قد كنت أشك فى بصرك بالدواب فأما بعد هذا فلست أشك فيه)(٤)

وقريب من السخرية وإن لم يكن من صميمها :

٢) الهزل المراد به الجد : (وهو أن يقصد المتكلم مدح إنسان أو ذمه ليخرج من ذلك المقصد مخرج الهزل والمجون اللائق بالحال ، كما فعل أصحاب النوادر مثل أشعب وأبى دلامة وأبى العيناء ...

حكى عن أشعب أنه حضر وليمة لبعض ولاة المدينة وكان رجلا بخيلا فعاش الناس ثلاثة أيام ، وهو يجمعهم على ما لذ من طعام ... ليجمعهم على مشوى ، فيحضر الناس حوله ولا يمسه أحد منهم لعلمهم ببخله ، وأشعب كان يحضر مع الناس على الجدى ، فقال فى اليوم الثالث : زوجته طالق إن لم يكن عمر هـــذا الجدى بعد أن ذبح وشوى أطول من عمره قبل ذلك)(٥)

وهذا اللون ظاهره الهزل وباطنه الجد بخلاف التهكم فإن ظاهره الجـــد وباطنه الاستهزاء .

---

١) لسان العرب لابن منظور ج ١٦ ص١٠٠ .
٢) خزانة الأدب لابن حجة الحموى ص١٢٣ .
٣) سورة آل عمران الآية ٢١.
٤) الحيوان ج ٣ ص٢٢٦ .
٥) خزانة الأدب ص ٦٦ .

٣) الهجو في معرض المدح ، (أن يقصد المتكلم هجاء إنسان فيأتى بألفاظ موجهة ظاهرها المدح وباطنها القدح فيوهم أنه يمدحه وهو يهجوه كقول الحماسى ،

يجزون عن ظلم أهل الظلم مغفرة ... ومن إساءة أهل السوء إحسانا

كأن ربك لم يخلق لخشيته ... سواهم من جميع الناس إنسانا

فظاهر هذا الكلام المدح بالحلم والعفاء والخشية والتقوى ، وباطنه المقصود أنهم فى غاية الذل وعدم المنعة .

ومنه قول بعضهم فى الشريف ابن الشجرى ،

ياسيدى والذى يعيذك من ... نظم قريض يصدى به الفكر

ما فيك من جدك النبى سوى ... أنك لا ينبغى لك الشعر

والفرق بين الهجاء فى معرض المدح وبين التهكم ، أن التهكم لا تخلو ألفاظه من اللفظ الدال على نوع من أنواع الذم ، أو لفظة توهم من فحواها الهجو ، وألفاظ (الهجو فى معرض المدح[١]) لا يقع فيها شىء من ذلك ولا تزال تدل على ظاهر المدح حتى يقترن بها ما يصرفها عنه [٢].

والهجاء فى معرض المدح ، والمدح فى معرض الهجاء ، لونان من ألوان السخر اللاذع ، والتهكم المرير ، يقول العلامة " إيجيه " (" إن إيفالوس الماروسى كان موهوبا فى ابتداعه للمدائح والأهاجى غير المباشرة وهما صورتان من السخرية التى تقوم على الهجاء الذى يشبه أن يكون مديحا ، والمدح الذى يشبه أن يكون هجاء " وهذا بعينه هو ما يمكن أن توصف به بعض أساليب الجاحظ الساخرة كالذى نراه فى رسالة التربيع والتدوير مثلا [٣].

---

١) التعبير فى الخزانة (المدح فى معرض الذم) والصواب ما ذكرت لأنه المناسب للمعنى ولفكرة المؤلف .

٢) خزانة الأدب ، للحموى ص ١٤٦ ، ١٤٧

٣) البخلاء للجاحظ ، تحقيق طه الحاجرى ، ط دار المعارف ، مقدمة طه الحاجرى ص ٢٩ .

٤) التوجيه : (وهو إيراد الكلام محتملا لوجهين متضادين كالمدح والذم ، كقول بشار بن برد ، لأمور بعين عمرو ، وقد أعطاه قبا ليخيطه ، فأراد عمرو السخرية منه ، فقال لبشار : لأخيطنه بحيث لا تعلم أقباء هو أم غيره ، فقال بشار : لئن فعلت ذلك لأقولن فيك شعرا لا يدرى أهجاء أم غيره . فلما خاطه قال فيه :

خاط لى عمرو قباء — ليت عينيه سواء

فاسأل الناس جميعا — أمديح أم هجاء) (١)

٥) تجاهل العارف : (وهو عبارة عن سؤال المتكلم عما يعلم سؤال من لا يعلم ليوهم أن شدة التشبيه الواقع بين المتناسبين أحدث عنده التباس المشبه بالمشبه به)(٢).

ومنه قول زهير فى التحقير :

وما أدرى ولست إخال أدرى — أقوم آل حصن أم نساء

وكقوله تعالى فى التعريض " وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين "(٣)

٦) التعريض : وهو أن تذكر شيئا يدل على شئ لم تذكره ، وأصله التلويح من عرض الشئ ، أى جانبه كقوله عليه السلام " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده " فهو تعريض بنفى صفة الإسلام عن من لم يسلم المسلمون من لسانه ويده)(٤)

(وكان بالرقة رجل يحدث الناس عن بنى إسرائيل ، وكان يكنى أبا عقيل ، فقال له الحجاج بن حنتمة : ما كان اسم بقرة إسرائيل ؟؟ قال : حنتمة ! فقال له

---

١) شرح المختصر ، ص ١٨٤ سعد الدين التفتازانى ، تعليق عبد المتعال الصعيدى عام ١٩٥٦ .

٢) خزانة الأدب ، للحموى ، ص ١٥٣ .

٣) سورة سبأ الآية ٢٤ .

٤) البيان العربى ، بدوى طبانه ط ٢ سنة ١٩٥٨ ص ٣٥٢ مكتبة الانجلو .

موضوعات السخرية

إن الأوضاع الشاذة ، والسلوك المعوج ، والفهم السقيم ، والمناظر التي تجافي الأشكال المألوفة ، والحدود المرسومة ، والذوق العام ،

تكون موضوعاً يستلفت النظر ، ويدعو إلى الاستغراب والدهش ، ويبعث الرغبة في التهكم والاستهزاء ، ويستثير فينا السخر والاستهجان ، فسرعان ما تنطلق الألسنة على كل مخالف ، عابثة هازلة ، وتتحرك العيون والأصابع ، ساخرة لاذعة لأنها عثرت على موضوع للسخرية ، وجدت فيه مادة تدفعها إلى الاستنكار مؤتجنبا على الطنز والازدراء ، فتندفع النفس بما جبلت عليه من أريحية وبغريزة السخرية الكامنة فيها ، وحب النقد الراسخ في أغوارها ، إلى وضع الأصابع على أماكن الضعف ، ولفت النظر لمواضع النقص ، بلاذع التعليقات ، وقارص الكلمات ومرامي الإشارات .

فالنفس تهزأ من كل ما شذ عن الإلف ، وجرى على خلاف العرف .

تهزأ من الذي يجهل قدره ، ويتعدى طوره ، ويدعي ما ليس له .

تسخر من الأحمق المغرور ، والجاهل المتعالم ، والعيي المتفاصح ، والمتقعر المتشدق .

وتتهكم بالبخيل النفلج ، والهرم المتصابي ، والرجل المخنث والمرأة المسترجلة

وتضحك من الجبان الذي يتكلف الشجاعة ، والمتطفل الذي يدعي القناعة والمائع الذي يظهر في سمت العلماء ، والمغفل الذي يريد أن يخادع الناس فإذا هو واقع في حبائلهم .

وتسخر من القبيح الشكل ، المتنافر الأعضاء ، الذي يدل بوجاهته ، ويتيه بجمال طلعته ، ومن الآلس المتصلب والنحرير المتقلب .

إن من يجاوز قدره ، ويتعدى طوره ، ويلبس غير إهابه ، ويخترق حدود الإنسان

العادى فى موقفه ، أو كلامه أو تصرفه ، أو شكله ، يكون موضوعاً للسخرية ، ومعرضاً للهزء ، ومجالا للضحك .

يقول الأستاذ العقاد ، (المرء إنما يضحك من كل شئ يوضع فى غير موضعه ويظهر بغير المظهر الواجب له ، وفى غير الصورة اللائقة به .

يضحك من الشيخ المتصابى ، ومن الصبى المتشايخ ، ومن الريفى الجلف ، الذى يتخايل فى زى أهل الحضر ، والوضيع المهين ، الذى يولع بسمت الأعزاء من أصحاب الشأن والخطر .

يضحك ممن يصول صولة الشجاع المقتحم ، حتى إذا لاحت له بارقة من الوهم هرب هروب الجبان المذعور .

وممن يتغنى بالسماحة والجود ، حتى إذا دعى إلى البذل ظهر منه البخل وحار كيف يتخلص من مأزقه ، ويفلت من الشرك الذى وقع فيه بسوء رأيه .

وممن يتصدى لقتل الناس ، فإذا هو مقتول من أهون سبيل ، أو يتقدم للعيسه بمن يظن فيه الغفلة والحمق ، فإذا هو هزأة لذلك الغافل الأحمق فى نظره)(١)

وموضوع السخرية يجب ألا يكون مشيناً يهز النفس هزاً ، لأن ذلك ينقلها عن السخرية التى هى جرثومة الانبساط والمرح النفسى ، إلى الرثاء والاشفاق . لذلك فإننا لا نسخر ممن يخالفون القانون بما تضمن الشريعة ، لأن القانون يتولى تأديبهم ، والشريعة تتكفل بعقابهم ، والسخرية بأسلوبها اللين ، وطبعها الهادئ لا تقوى هنا على الردع ، ولا تنهض بمهمة العقوبة .

ولا نسخر من الإصابات البالغة ، والحوادث الفاجعة ، والكوارث الفادحة لأنها تثير فينا الشفقة والرحمة ، وتبعث فى حنايانا الألم والحزن ، وتثير معها

(١) مطالعات فى الكتب والحياة ، عباس محمود العقاد ص ٦٦ ط ٢ مطبعة الاستقامة .

الفصل الثاني

مقومات السخرية وأهدافها

مقومات السخرية :

السخرية في المجال الأدبي فن ، له مقومات ، التي تتجمع وتتآزر وتتساند وتتعاضد ، لتعطي لهذا الفن حبكته ، وتحقق له لذعه وحيويته .. ومقومات فن السخرية :

مادته : التي يجمع منها أساسه ، وترتفع بها عمده ، ويتكون منها سقفه .

وفنانه : الذي يراعي هيئه وصبه ، وتهذيبه وصقله ، ويلحظ التناسب بين أجزائه ، والتلاؤم في ظلاله وألوانه .

وأسلوبه : الذي يختلف في تركيبه عن سائر فنون الأدب في التناول والأداء ، والمذاق والرواء .

وحافزه : الذي يحرك ذلك الفنان ، ويثير عاطفته ، ويهيج شعوره ويدفعه الى أن يسخر ويهزأ ، ويتهكم ويطنز .

وهدفه : الذي يسعى له الساخر ، ويرمي إلى تحقيقه ، ويجشم نفسه العناء من أجله ، ويركب الوعر للوصول إليه .

فإذا ما توافرت هذه المقومات : المادة والفنان والأسلوب والحافز والهدف ، وكان كل منها جيداً في نفسه ، جيداً في اتصاله بالعناصر الأخرى ، واتحاده بها ، تولد عن ذلك حركة وتفاعل ، ونتجت شرارة السخرية التي تبهر العيون ، وتحرق الخصوم ، وتضحك الثكلى وتخلد على مر الدهور .

١ — المادة : وهي موضوع السخرية الذي تنصب عليه ، وتدور حوله ، ويجب أن يكون مخالفاً لما ألفه الناس في حياتهم ، مجافياً لنظمهم وتقاليدهم ، بعيداً عن زيهم وسمتهم ، وأفكارهم وعاداتهم ، وإن دعا إلى إصلاح ، ونعى على إفساد (فالمجتمع يضحك على المصلحين الذين يحاولون الثورة على تقاليده ، فيصور ما يدعون إليه من إصلاح

تصويبا ساخرا حتى يلزمهم حدوده ، كما يضحك على المعتوهين والسفهاء سواء بسواء لأن الأساس في الحالين واحد ، هو عدم اعتراف مجموع الناس بما يشذ عن سلوكهم دون اقتناع أو ايمان أو موافقة) (١)

ويجب ألا يحرك موضوع السخرية فينا رحمة أو شفقة (ولست أريد بهـــذا أننا لا نضحك من امرئ يبعث فينا الشفقة مثلا ، أو يثير فينا المحبة ، ولكنا حينذاك ننسى هذه المحبة ، ونسكت تلك الشفقة بضع لحظات) (٢)

ولما كان عماد السخرية هدوء العاطفة ، والميل الى الضحك والابتسام والشعور بالتفوق والارتقاء ، اشترطنا فى موضوع السخرية ألا يثير فينا فزعا ولا خوفا ، لما يصاحبهما من تهيج واضطراب ، وميل الى الصراخ والاستنجاد ، وشعور بالضعف والهزال .

كما يجب أن تكون العيوب التى نتخذها موضوعا لسخرياتنا مما يقتصر ضـــرره على صاحبه ، وأن يكون ضررا هينا ، فإن أصاب غيره فليكن مسارقها غير مباشر .

٢ ـ الفنان : مقومات الفنان الساخر تتركز فى : خفة روحه ، ومرح نفسه ، والمحيته وسرعة التقاطه لما شذ فى مجتمعه ، يتخذ منه موضوعا لسخرياته ، ومادة يلمسح منها تهكمه ، مستعينا بما فطر عليه من حب للفكاهة ، مستهديا بخبرته بأحوال الناس ، وفهمه العميق لنفسياتهم وأهوائهم ، وبقدرته اللغوية والذهنيــــة والمنطقية ، التى بها يستطيع اللعب بالألفاظ والعقول ، معتمدا على ما فُطر عليه من استهانة بما يأخذ الناس به أنفسهم ، واستخفاف بما يتواضعــــون

---

١) سيكولوجية الضحك : أحمد عطية الله ص٧٩ ط ٢ سنة ١٩٦٤ : المطبعة العالمية .

٢) الضحك : هنرى برجسون : ترجمة سامى الدروبى وعبد الله عبد الدائم ط دمشق عام ١٩٦٤ ص٧ .

وقد يمد في الصورة ، ويمط في أطوالها ، ويباعد بين أطرافها ، ويوسعها ما شاء له الخيال ، وما أسعفه بيانه حتى ليجعلها رسالة قائمة بذاتها ، أو موضوعا مستقلا بشخصيته .

وقد يمزج خطوطها ، ويبعثر أجزاءها ، ويقلب هندستها ويشوه أعضاءها ليخرج منها المسخ الهزلي " الكاريكاتور " .

وقد تكون الصورة الجامدة المتصلبة ، أو الكثيرة الحركة المتقلبة ، أو التي تتصرف كالآلة هي أسلوبه الساخر .

إلى غير ذلك من أساليب يفتن فيها ويبدع ، ما شاءت له عبقريته ، وما واتته قريحته ، وما اتسعت مجالات أدبه .

وهو لا يقف عند أسلوب معين ، وإنما يتنقل بينها حسب مقتضيات الأحوال ليتخذ لكل موقف ما يناسبه ، ولكل سخرية ما يلائمها ، وقد يمزجها مزجا خاصا ، قائما على أسس مدروسة لينتج من ذلك المزج عصارة مرة ، ونقيعا مؤلما ، وسما ناقعا يجرعه المسخور فيقتله كما يقول فولتير : إذا أردت أن تقتل خصمك فاجعله هُزْأَة .

المصدر؟ مكرر ص ١١

ب- الحافز : وهو الذي يدفع الأديب إلى أن يسخر ، ويحرك كوا من نفسه إلى أن يثور ، أو يصلح وضعا فاسدا ، وخلقا معوجا ، أو يهرب به أن يروح عن نفسه عناء العمل ، وأرزاء الحياة ، أو يخفف آلام نفسه ، وحقد قلبه ، وثورته على الناس والأيام ، أو يحافظ على كيان جماعته والاندماج فيها ، أو يحركه نحو المال والجاه ليكتسب الغنى والشهرة .

يدفع الأديب الى السخرية : اعتداده بنفسه ، واستعلاؤه على غيره ، وإحساسه بالتفوق ، أو رؤيته لمظاهر متناقضة ، ومواقف شاذة ، خارجة على التقاليد ، مجافية للعادة والعرف ، فلا يستطيع الوقوف تجاه هذه الحوافز ساكنا ، كابتا لانفعالاته المتأججة في صدره ، فيندفع إلى السخرية يرمي عن قوسها ، ويرمي بسهامها حتى تهدأ ثورته ، ويخف انفعاله .

وقد يلجأ إليها تبكيتا لخصمه ، واستهزاء برأيه ، واحتقارا لعمله ، فتكون سلاحا يطعنه به ، وأداة تزرى بهيئته وتفكيره ، وتجعله أضحوكة الناس، يتوارى خجلا ، ويذوب ألما مما يرميه به الساخر الذى قد يكون حاقدا أو نافسا .

وكثيرا ما يقصد بها الإصلاح ، وإقامة المعوج ، والإرشاد إلى السلوك السوى ، بإطلاع المخطىء على خطئه ، وتجسيم هذا الخطأ ، وتهويله ، وتمثيله أمامه ، ليراه بعينى رأسه فى مرآة نفسه ، أو يجسمه فى غيره ، ويبرزه فى معرض من معرضه ، ليرى السخرية قبائحه فى سواه ، فيعيبه بها ، ثم يعود إلى نفسه فيعيبها بها ، فإن المرء إذا رأى ما فى غيره من عيوب نقدها ، وأدرك مدى قبحها ، فإذا عرف أنها فيه أسرع يتداركها ، ويتخفف من أوضارها .

وأحيانا يريد بسخرياته الضحك ، والمرح النفسى ، وإذهاب الملل ، وتنشيط الهمم ، لتقبل النفس على عملها ، وتتمكن من أداء واجبها ، وهو فى سبيل ذلك لا يبالى أن تنصب السخرية عليه فيكون محورها ومركزها ، أو يكون غيره الهدف الذى ينال شواظها وهو فى هذا وذاك يضحك ويقهقه ، ومع كل ضحكة يذهب ألم ويزول تعب ، ويبقى للنفس بعد ذلك صفاؤها وإشراقها ، وللجميع سرورهم وهناؤهم .

وقد تهدف السخرية إلى المحافظة على كيان الجماعة ، وصون تماسكها وتعديل سلوكها ، وجعلها تسير فى خط واحد ، دون اضطراب أو انحراف وتقريب بين أفرادها إن تباعدوا ، وتأليف وحدتهم القوية التى تعمل على بقائها وعاداتها ، بتنبيههم إلى أخطائهم إن شذوا ، والأخذ بيدهم إلى ملتقى الجماعة إن تفردوا أو انحرفوا ليظلوا مجموعة متحدة فى خلقها وسلوكها ، وعاداتها ونظمها .

ومن الأهداف الهامة التى يعمد إليها الساخرون بسخرياتهم : كسب المال والجاه ، ومن أجل ذلك اهتموا بالسخرية ودرسوها ، وجعلوها فنا أدبيا له مقوماته وغاياته ، واستعداداته ومؤهلاته ، وخصصوا لها أماكن بالصحف والمجلات ووجدت لها مجالا فى الإذاعة والمسرح ، رغبة فى الكسب المادى والأدبى ، فعلى

قدر الإجادة والإتقان يكون العطاء والسخاء ، وتلقى الجمهور كل ذلك برحابة صدر ورضى نفس، وتقدير وإعجاب ،يبذل فى سبيله مختلف الأموال ، ورفيع الألقاب •

∴ ∴ ∴

أ — تخفيف آلام النفس:

كثيرا ما تمتلىء النفس بالغيظ المرير ، والحقد الأسود ، والألم الممض ولا يستطيع الإنسان لأسباب دينية ، أو لأوضاع اجتماعية ، أو لعوامل سياسية ، أو لتقاليد موروثة أن يظهر غيظه ،ويصرح بحقده ، ويفصح عن دفين ألمه ، وهو مع ذلك غير قادر على حبس آلامه ، ولا يستطيع كبح لسانه ، ولا تهدئة وجدانه ،فهو بين عاملين :

عامل يدفعه إلى الثورة والانتقام ،إنصافا للحق ،وثأرا للكرامة ،وإراحة للنفس وعامل يمنعه من ذلك ، مراعاة للتقاليد والعرف ، أو الدين والخلق ، أو الحكمة والرشد ، فيتولد الصراع النفسى ، وتنشأ الحيرة ويخيم الاكتئاب ،ولكن العقل المدبر، والفكر الراجح ، يقود إلى تنفيس ما يحتبس فى النفس من حقد أو غل ، أو غضب أو يأس بغية فى شفاء حزازات القلوب ، وانفساح ضيق الصدور ، دون تحمل عبء التصريح وتبعته ، ودون تعرض لعقاب أوملام ، وذلك عن طريق السخرية التى تكون حلا وسطا يخفف آلامه ، ويهدهد وجدانه ، ويستطيع به أن يتخلص من اللوم والتقريع ، بادعاء أنه أراد حقيقة كلامه ، وظاهر معناه •

وهذا السلوك فى طبيعة الإنسان وجبلته ، من طفولته إلى كهولته ، فإننا نرى الطفل الذى لا يستطيع النيل ممن يكبره ،يعمد إلى تقليده فى جلسته أوحركته ، وفى ألفاظه أو عباراته ،تقليدا مضحكا ، فيه عبث ، وفيه خبث ، فيمط شفتيه ،أو يوسع حدقتيه أو يقوس ظهره ،أو يلوى شدقه ،ويقتصر فى ألفاظه ،مخففا بذلك بعض لواعج صدره ،ومنفسا عن مكبوت حقده وكرهه ، مما اختبأ فى ثناياها نفسه ، ويقسى فيها بذرة فساد ، وهو آمن ألا ينال بضر ،أويتهم بفساد خلق ، وسوء أدب •

فالسخرية منهج الأقوياء فى الحياة ، يتخذونها وسيلة للتنفيس عن نفوسهم ، حتى لا تضعف أمام شرور الناس وحماقاتهم ، فتمتلئ بكراهيتهم والحقد عليهم ، ثم تمتلئ بكراهية الحياة ، والرغبة فى الخلاص منها . يقول أناتول فرانس: (لا أزداد تفكيرا فى حياة البشر إلا ازددت اعتقادا أن من الواجب علينا أن تجعل شهود هذه الحياة أو قضاتها التهكم والشفقة ، فالتهكم بابتسامة يحبب إلينا الحياة ، والشفقة بدموعها تقدس هذه الحياة ، والتهكم الذى أرغب فيه ليس فيه شيء من القساوة إنه لا يستهزئ بالحب والجمال ، فهو رقيق ، وفيه عطف ... وهذا التهكم هو الذى يعلمنا أن نسخر من الأشرار والحمقى ، ولولاه لأفضى بنا الضعف إلى كراهيتهم)(١)

فإذا دربنا أنفسنا على السخرية من كل شرير ، ومن كل أحمق ، بدلا من أن نعبأ بهذا الشرير ، وذاك الأحمق ، فنناصبه العداء ، ونقف فى وجهه موقف العراك ، أو نحتجز ذلك العداء والغضب فى نفوسنا ، أمكننا التخفيف من أعباء هذه الحياة ، وتقبل ثقلها فى كثير من الراحة والاستخفاف ، واستطعنا أن نبعد عن أنفسنا بعضا من هذه الآلام التى تخلق الضيق ، وتعصف بالنفس ، كما يمكننا أن نحول نظرتنا الحاقدة ، ونفسيتنا الهائجة ، إلى حال من الأمن والاتزان ، ونضعها فى مكان وسط بين الحقد والكراهية من ناحية ، وبين الشفقة والرثاء من ناحية أخرى ، فتكون سخريتنا أداة تطهيرية ، تبدد هواجس نفوسنا المغيظة ، وتطرد عنها أشباح الفشل والحقد والحرمان ، كما تكون وسيلة لإعادة التكيف مع الناس والحياة حتى نتلاءم مع الوضع الجديد .

فالسخرية إذن أداة دفاعية ، نواجه بها ما فى الحياة من شدة واكتئاب ، وصمام أمان نلجأ إليه لتخفيف الضغط الهائل على عصبنا وعواطفنا حتى لا تصاب بالتحطم والانفجار ، ووسيلة للهروب من تبعات الحياة ، ومنح النفس الهدوء والراحة (فأجهزتنا العصبية تحتاج إلى قدر معين من الهرب ، كما نحتاج نحن إلى

---

١) الجاحظ معلم العقل والأدب : ص ٢٠٠ شفيق جبرى ، النثر الفنى وأثر الجاحظ فيه : عبد الحكيم بلبع ص ٢٦٣

إجازات سنوية تريح فيها أجسادنا من التعب والمسئوليات القديمة) (٢).

وطاقتنا الانفعالية المكبوتة في حاجة إلى عملية انطلاق للتنفيس عنها ، والتخلص من العناصر الضارة التي تسبب القلق العصبي والاضطراب النفسي .

٢ـ النكاية بالخصم :

وقد يلجأ الأديب إلى السخرية رغبة في النكاية بخصمه ، والتهوين من شأنه ، وتحقيره بين الناس باطلاعهم على عوراته ، ومخبئات نفسه في زكاء ودهاء وتخابث ، مستخدما البراعة الكلامية ، بدل استخدام القوة الجسمية ، والاعتماد على القدرة العضلية ، فتكون السخرية أكثر إيلاما وأعنف فتكا ، لذلك اتخذها الفلاسفة والكتاب أداة فعالة ، وسلاحا بتارا يصوبونها إلى قلوب خصومهم فتصميها ، وإلى شخصياتهم فتكاد تزهقها وترديها ، وفي ذلك يقول فولتير : إذا أردت أن تقتل خصمك فاجعله هزأة .

(والواقع أن الضحك هو السيف المصلت الذي تسلطه الجماعة على رقاب الخارجين على معاييرها الجمعية ، وآدابها العامة ، وكل من تحدثه نفسه بالخروج على قوانين الجماعة ، وأساليب سلوكها ، فلا بد له أن يستهدف لسخريتها اللاذعة وضحكها الموجع) (٣) فالسخرية من المعارك الدفاعية الهجومية التي لا تستعمل الدماء ، ولا تطوح بالرقاب ، ولا تميت السخرة جسما ، وإن كانت تقتله وتفتك به معنويا ونفسيا وأدبيا ، معركة أدواتها الكلمات والإشارات والتلميحات ، معركة حربية ولكنها " حرب نفسية " هي أشد فتكا من الهجاء ، وأدق منه في إصابة الهدف .

---

٢) الضحك وفن الاضحاك : الحسيني على فرعون ص٠١ مطبعة الدار المصرية للطباعة والنشر والتوزيع .

٣) سيكلوجية الفكاهة والضحك : زكريا إبراهيم : دار مصر للطباعة ص٦٨ ، ٦٩ .

إن الهاجى قد يتهم بالكذب والتزوير ، والبغض والتحامل ، وجفاء الطبع ، وخشونة القول ، لأن ألفاظه فى السب صريحة ، وأهدافه من نيل الخصم بينة لائحة ، ولذلك يقلل قيمة هجائه ، ويخفف أثره على النفس ، بل ربما أحدث أثرا عكسيا فى نفوس سامعيه ، فأرجعوا العيب إليه ، ونسبوا النقص له ، واتهموه بسوء الخلق ، ومجافاة الأدب ، وتعاطفوا مع السخرية ، وكانوا عونا له ، ودرعا يقيه الهجمات .

لكن الساخر لفظه رقيق ، وأسلوبه لين شفيق ، وكلامه يلبس إهاب النصح والإرشاد ، ويحمل طابع الإخلاص والسداد ، فلا يتهم بعيب ، ولا ينسب إليه التحامل أو الغلظة ، وإن كان خلف كلامه الإذلال ، وداخل حلاوة لفظه السم النقيع ، وأمامه بعد ذلك الفرصة سانحة للفكاك من تبعة ما أراد ، إذ ليس فى كلامه نص صريح عليه .

ومن هنا كانت السخرية أشد نكاية من الهجاء ، رغم أنه نص صريح فى الشتم ، وسب واضح بالمهجو ، يقول " سلى " (ولكن الضحك هو الثأر الملمس العادل لجماعة الضعفاء من أطفال ونساء وعمال ، لأنه فى أيديهم كأمضى سلاح) (٤)

٭ ٭ ٭

٣ـ التقويم والتهذيب :

إن إبراز الخطأ ، وتفخيم العيب فى الشخص ، قصدا إلى تهذيبه وإصلاحه عن طريق السخرية منه . ليخاف ذلك العيب إن لم يكن فيه ، وليبرأ منه كله أو بعضه إن وجد فيه — نوع من الزجر والردع ، شبيه بالعقوبة ، ولكنه أخف منها وقعا ، وإن اتفق معها فى الغاية ، وهى إصلاح المجتمع ، وهداية الضال ، فالسخرية من الأشرار والحمقى والمغرورين والمعوجين ، هى التى تنبههم إلى عيوبهم ، وتظهر لهم حكم المجتمع عليهم ، وشذوذهم عنه ، فتدفعهم إلى الاعتدال ، والسلوك القويم .

---

٤) سيكلوجية الفكاهة والضحك : زكريا إبراهيم : دار مصر للطباعة ص ٧٠

وقد استخدمت السخرية استخداما بعيد الأثر في تسفيه الآراء الباطلة ، ومناهضة التقاليد البالية ، وإبراز العيوب الاجتماعية والخلقية المنافية للمبادئ السامية ، والمجافية للذوق العام ، كما استخدمها المجتمع في تأديب المارقين من أفراده ، واستخدمها الأفراد سلاحا ضد المجتمع لتقويمه إن شذ ، وتهذيبه إن حاد واستخدمها المصلحون ضد الرأى العام الفاسد ، وضد الثائرين على المثل العليا ، والقيم الفضلى .

وهناك الوان من العيوب ، وأنماط من السلوك لا ينهض بمقاومتها ، ولا يردعها إلا السخرية فإن (من أنواع السلوك الإنساني ما يتفرعه الضمير والعقل والذوق ، ومع ذلك فليس من وسيلة لمحاربته والقضاء عليه مع هذا الإجماع كله ، فلا القانون الوضعى ، ولا الدين ، ولا العرف ، بقادر على استئصال هذه العيوب فالسارق قد يردعه وعظ أو إرشاد أو عقاب محكم ولكن ماذا يفعل المجتمع في تأديب البليد أو الثرثار ؟ إذ البلادة والثرثرة ليست جرائم يعاقب عليها القانون ، وليست من الذنوب التي خصتها الشرائع السماوية بالذكر ، وليست من العيوب التي تلحق الضرر بأحد حتى يحاول الانتقام لنفسه ، فيرد على الفعل بمثله ، إذ ليس من المعقول أن أستعدى القانون على ثرثار ، ولا من الجائز أن أستخدم العنف في منعه ، وليس من المقبول أن أكيل له الصاع صاعين فأنافسه في ثرثرته) (٥)

ولمناهضة هذه الأنواع من السلوك تستخدم السخرية لتحقق التقويم والتهذيب الذى لا تطيقه وسائل النقد والتأديب الأخرى ، أو الذى لا تعده داخلا في اختصاصاتها وواقعا تحت سيطرتها ، فتقوم السخرية بأداء واجبها ، وشرع أسلحتها ، ترد المارقين وتجذبهم إلى الخلق الفاضل ، والتقاليد المألوفة ، وتبتر بشفرتها كل عوج وتشذب كل ميل وانحراف .

---

٥) سيكلوجية الضحك ، أحمد عطية الله ص ١٧٢ ط ٢ تكبير سنة ١٩٦٤ المطبعة العالمية .

إن (كل من تسول له نفسه الخروج عن مألوف التقاليد ، يكون عرضـــــة لسخرية المجتمع ، وهذه الظاهرة لها أهمية كبرى في المحافظة على كيان المجتمع ، لأنه بهــذا التمسخر يحمى التقاليد والعرف السائد من العبث به أو الثورة عليها) (٦)

ولقد كان التهكم من جملة أساليب سقراط في تقرير فلسفته مع السوفسطائيين ، فكان في تهكمه يرمى إلى مناقضة خصمه ، فتراه يتطلف في سؤاله ، وينتقل به مــــن سؤال إلى سؤال ، حتى يفضى به إلى التناقض في قوله ، والتضارب في آرائه ، فيقع في ورطة ، فيجعله يسخر من نفسه ، ويسلم قياده ، ويطلب إيضاح الحقيقة ، فيأخذ سقراط بيده ، ليصلح معوجه ، ويصوب خطأه .

(إننا نضحك من غفلة بعض الناس ، أو شدة نسيانهم أو شرود أذهانهم فـــــى أمور أخرى ، وإننا لنفعل ذلك بغية أن يتدارك هذا الغافل عيبه فيقلع عنه) (٧) . فالسخرية فن من فنون النقد ، تقصد إلى إبراز الخطأ ، ووضع اليد عليه ، وتجسيمـــه وتشخيصه ، وتدعو بأسلوبها الخاص إلى تركه وتجنبه بما لا يثير السخط ، أو يجرح المشاعر أو يثير سخطا يعقبه هدوء وراحة ، فجرح المشاعر التى سرعان ما تندمل بعد أن ينظف قيحها ، ويزول ضررها .

والأديب حين يسخر يربط بين الأمور الواقعة وبين ما يجب أن تكون عليـــه من كمال أى أنه يقابل الواقع على ما فيه من تخلف أو نقص أو فساد بالكمـــال الذى يراه الهدف والغاية قاصدا بذلك النقد البناء ، الذى يقوم السلوك ، ويهذب الطباع ، (ولقد كان لوسيان وأرستوفانيز يتعقبان سقراط بالنكات القاسية ، ولـــم يكن غرضهما أن يمزحا فحسب ، بل كانا يريدان أن ينتقما للحقيقة من المغسطيــة فى رأسيهما ، وأن يبرزا إلى المكان الأول ما يلقى به الناس وراء ظهورهم من المثل العليا) (٨) يقول العقاد : (إن أجمل ما نحن كاسبوه من تسليط الضحك علـــى الطباع هو أن ننبهها إلى النقص تنبيه عطف ورعاية ، وأن ننظر منها الجــــد

---

٦) سيكولوجية الضحك . أحمد عطية الله ص ٧٦ .

٧) سيكولوجية الضحك : أحمد عطيه الله ص ١٧٣ .

٨) حصاد الهشيم : إبراهيم عبد القادر المازنى ص ٣٠٦ طبعة دار الشعب الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٩ .

فى معالجتها بما يقع فى الطاقة ويجئ منه التحسن فى ناحية أخرى من النفس، فإن لم يكن ذلك محصورا فى الناحية المضحوك منها ، فقلما طلب الكمال إنسان ورجع منه بغير نتيجة مرضية فى الباب الذى طلبه أو فى باب سواه) (٩)

∴ ∴ ∴

٤ — الفكاهة والمرح :

تمتلئ الحياة بالأعمال الجادة التي تشغل الإنسان ، وتستهلك وقته ونشاطه ، وللعقل طاقة فى الاحتمال ، وللنفس البشرية ضيق بالجد ، وتبرم بالكد .

والحياة العابسة ، المقطبة الجبين ، التى يلتزم فيها الإنسان بالجد والصرامة والوقار والتزمت ، لا تحتمل ، ولا يمكن أن تستمر ، ومن عاش فى هذه الحياة فترة مثقلا بتلك القيود ، فلا بد أن يهرب منها إلى أوهامه ورؤاه ، أو إلى أحلام اليقظة عن طريق التخيل والتمثل ، أو إلى عقد نفسية نتيجة الصراع وكبت الرغبات ، والضغط الهائل على الطاقة الكامنة فى النفس التى تبحث لها عن متنفس فلا تجده ، ومتنفسها الضحك الذى يعيد للجسم نشاطه ، وللنفس بهجتها ، وينقل الإنسان من جحيم الواقع إلى لحظات يهنأ فيها ، ويحقق راحته وأمنه ..

ذاك رأى علماء النفس ، وعلم الطب يؤيد ذلك ، ويقرر أن كثيرا من الأمراض يتوالد نتيجة الهموم والأحزان ، وأن الضحك يزيل الكثير منها ، وأن الشرايين والعضلات تنقبض وتتقلص عند الحزن والاكتئاب ، وتنبسط وتنشط عند الفرح والسرور ، وقد جعلوا شعارهم : اضحك .. اضحك .. اضحك ، واضحك حتى تضحك .

ولما كان الضحك غريزة فى الإنسان ، ودليلا عليه ، وتعريفا به عرفوا له قيمته وتأثيره فى النفس والجسم والروح والمجتمع ، فأنشئوا المجلات للسخرية المضحكة وأقاموا المسارح الهزلية ، واصطفى الخلفاء والملوك من بطانتهم أفرادا امتازوا بالسخر والظرف ،

---

(٩) ساعات بين الكتب : عباس محمود العقاد صفحة : ٣٦٨

النحو إلى ما يحتاج إليه حتى يتعلم ما لا يحتاج إليه . قال أبو شمر : إذا كان لا يتوصل إلى ما يحتاج إليه إلا بما لا يحتاج إليه ، فقد صار ما لا يحتاج إليه يحتاج إليه) (١١)

وقد يكون المرح والضحك غرضين أصليين من الأغراض الجادة للسخرية ، وهدفين من أهدافها لإراحة النفس من أثقالها — كما قدمت — وهو ما يعبرعنه حديثا : "الضحك للضحك " .

∴ ∴ ∴

هـ المحافظة على كيان الجماعة :

ومن الأهداف التي تسعى السخرية إلى تحقيقها : المحافظة على كيان الجماعة وحماية ما داتها وتقاليدها ، ومعاقبة الخارج على قوانينها ، وخلق جو من الألفة والتفاهم يسودها ، فبالألفة والمحبة يتنازل الساخر عن شئ من وقاره ، وتطرح الحشمة ، ويظل الجميع لون من الود ، فتقارب فيه الأفهام ، وتسود الروح الجماعية ، فإذا ضحك الناس على نادرة ، أو سروا من فكاهة ، أو اغتبطوا لسخرية ، فإن ذلك دليل تقاربهم في الميول واتفاقهم في المبادئ والقيم ، واتفاقهم عندما يستحسن وما يستهجن .. يقول الدكتور زكريا إبراهيم : (إنه حينما تسخر الجماعة الواحدة من غيرها من الجماعات باعتبارها جماعة مغايرة لها ، فإنها تحافظ بهذه السخرية نفسها على صميم كيانها الاجتماعي) (١٢)

وكما أن في السخرية إعلاء للساخر ، وإحساسا منه بالتفوق ، ففيها أخذ بيد المسخور ، وإعلاء له عما هو فيه ، وإبعاده عن النقائص التي يسخر منه من أجلها ، ورفعه إلى مصاف الإنسان الكامل محافظا على كيانه الاجتماعي ، واحتراما لجنسه الإنساني (والواقع أن الجماعة حينما تسخر من الشخص الذي يبدو بمظهر الآلة الميكانيكية ، أو الجهاز الكتاتي ، أو الشئ الجامد ، فإنها إنما تتخذ من الضحك سلاحا تسعى به إلى المحافظة على المرتبة التي وصلت إليها الإنسانية فوق الجماد والحيوان) (١٣)

---

(١٢) سيكولوجيه الفكاهة والضحك : الدكتور زكريا إبراهيم ص٦٩ : دار مصر للطباعة .

(١٣) سيكولوجيه الفكاهة والضحك : الدكتور زكريا إبراهيم ص٧١ : دار مصر للطباعة .

وإذا وجدت مجموعة من المجموعات تتبادل السخريات ويظهر فيها الساخر الماهر استجد الباقي مجتمعا منفصلا ، وستجد الروح الجماعية التي تخلقه السخرية يتحقق لها ، وستلاحظ الألفة والمودة التي سادت الجماعة ، وعملت على تقاربها وارتباطها .

فالسخرية تقارب الجماعة ، وتمنع اندماجها ، كما تحافظ على تقاليدها وعاداتها وتماسكها ، والسخرية يرتدع الشاذ المخالف ، فيعود مرة أخرى إلى حظيرة الجماعة ، وبها ترسي المبادئ والقيم التي تعتنقها الجماعة فلا تعدل ، ولا تحيد ، وتبقى لها وحدتها وترابطها .

∴ ∴ ∴

٦ـ كسب المال والجاه :

وقد تكون السخرية وسيلة لكسب لقمة العيش ، ووصلة لمقاومة أسباب الحياة ، وتنايدر المال ، ويحقق الجاه ، وصناعة وحرفة ، يتقنها صاحبها ، ويفتن في إبداعها ، ويتنوع في أشكالها وضروبها حتى تشيع وتروج ، وتصير بضاعة يقبل الناس على شرائها ، ويرفع الساخر قدرها ويغلي ثمنها ، بمقدار ما يبذله فيها من جهد ، وعلى قدر ما تزاحم المشترين عليها .

وقد كان ذلك هدفا لها منذ القدم حين اتخذ الخلفاء والأمراء والحكام ، ووجهاء الدولة وسراتها المضحكين والساخرين والظرفاء ، فحفلت بهم مجالسهم التي تخفف الأعباء وتشرح الصدور وتمتع النفوس ، واصطحبوهم معهم في حلهم وترحالهم ، وسيدهم وحربهم يقدمون لهم غذاء النفس : من ضحك وسخر ، وينالون عليه غذاء البدن : من مأكل وملبس ومال .

وفي عصرنا الحديث تعددت مجالات السخرية ، وهدفت في جل ما هدفت إلى نيل المال ، والوصول إلى الجاه ، فكثرت المجلات الهزلية ، والصحف الساخرة ، والمقالات اللاذعة ، وشاعت المسارح التي تتخذ السخر مادة لها ، للتقويم والإصلاح حينا ، وللتفكه والضحك أحيانا ، وهي في هذا وذاك لا تستهدف إلا الربح ، ولا تفتح أبوابها إلا لتحصيل المال ، كما كان للمذياع نصيب كبير في برامجه المتعددة التي يلقي فيها الأدباء

[illegible] ، ويهتم بها الممثلون وكتابهم اللاذعة ، وكلهم يبغى الربح ، ويطلب المال وانتشار الذكر ، قبل أن يطلب هدفا آخر.

وللصحف فى ذلك نصيب كبير بما ينشر فيها يوميا من سخريات أعدت لها ، وخصصت مساحات من أوراقها للتهكم الذى أتخذ مكانا مميزا من الصحيفة يعرفه القراء ، ويقلبون الصفحات للوصول إليه كل صباح ، على أنه لا تخلو اليوم صحيفة يومية أو مجلة أسبوعية أو شهرية من صور كاريكاتورية علق عليها أصحابها بعبارات ساخرة ، علاوة على كتب تعد للسخرية وحدها ويكثر تداولها بين قرائها.

وليس الهدف من كل ما يكتبه الساخرون فى هذه الصحف أو ينشرونه فى تلك الكتب إلا الحصول على المال أجرا لما يكتبون وفى ذلك الدليل الحاسم على أن للسخرية عشاقها ، ممن أرهفت مشاعرهم ، ونضجت عقولهم ، ورقت أحاسيسهم ، وارتقى ذوقهم الأدبى ، إذ السخرية تحتاج فى فهمها والتمتع بها إلى كل هذه المواهب والاستعدادات.

وبما كان للسخرية اليوم صولة وهيبة تعادل صولة الهجاء فى العصر الجاهلى وهيبته ، وتحاكى فرق الناس منه كما كانوا يفرقون من الهجاء ويتحاشون سمومه ، ويهابون سوطه بكل ما فى اقتدارهم ، وهذا ما حدا بكثير من الكتاب والمؤلفين والمغنين والممثلين إلى التخصص فى هذا اللون الذى صارت له فى المجتمع هيبة وشأن ، طلبا للربح وطمعا فى المجد.

فالمسرحيات الساخرة ، والأغانى المتهكمة ، والكتابات الهازلة الناقدة : ماذا يهدف بها أصحابها غير الكسب المادى وتحقيق الجاه والشهرة من وراء تقديمهم هذه الفنون النقدية الساخرة ، التى يعجب بها الجمهور ، ويصغى إليها ، ويقبل عليها ؟!

أما ما يفيده المجتمع من صلاح أو درء فساد فيأتى فى المرتبة الثانية.

* * *

وتمهيداً للبحث أعرض آراء الفلاسفة وعلماء النفس ونظرياتهم في الأهداف التي ترمي إليها الضحك، وفي عرضي لأهداف الضحك عرض لأهداف السخرية، إذ السخرية لون من ألوان الضحك، وفرع منه .(١٤)

١ ـ نظرية سلامة العقل : يرى الفيلسوف الألماني "فريدريك نيتشة" أن الإنسان قد اخترع الضحك كي يحافظ على سلامة عقله، ويتقي خطر الجنون لأنه أكثر الحيوانات عرضة للآلام والأوجاع، فلو لم يخترع الضحك لحطمته آلامه، وقضت عليه، ولكنه يضحك يعيد إلى روحه المرح الذي به يحفظ توازن عقله، ويسلمه إلى شاطئ الأمان .

٢ ـ نظرية التنفيس لصاحبها "سيجموند فرويد" يقول : إنك إذا نجحت في حمل أحد الأشخاص على الضحك فإنك في الواقع تتخذه وسيلة لإثارة الضحك عندك، حتى تجلب إلى نفسك السرور، وتنفس عما بداخلك من آلام .

٣ ـ نظرية الطاقة الفائضة : يقول "هربرت سبنسر" صاحب هذه النظرية : إن الضحك ما هو إلا مظهر للطاقة حيوية فائضة، فهو لون من ألوان اللعب كالتصفيق، وهز السيقان بالقفز، فإذا اكتشف الإنسان أن ما حسبه خطر قد أعد نفسه له، ليس إلا مجرد وهم سخر من نفسه لهذا الخطأ، كما أنه يسخر من نفسه إذا اكتشف أن المجهود الذي يبذله في تحقيق أمل من آماله لا يستحق هذا البذل لتفاهته .

---

١٤) استقيت هذه الآراء من كتاب :

أ) سيكلوجية الضحك : أحمد عطية الله .

ب) سيكلوجية الفكاهة والضحك : د. زكريا إبراهيم .

جـ) الضحك وفن الإضحاك : الحسيني علي فرعكين .

د) في علم النفس : حامد عبد القادر وآخرين .

هـ) الضحك : هنري برجسون : ترجمة سامي الدروبي .

٤ـ النظرية الدفاعية : وهي لعالم هندي يدعى " جيا لاسواس " : يرى أن الضاحك يحاول الدفاع عن نفسه ضد عزيمة بهذه الأصوات التي يحدثها ليدخل في روعة أنه كفء له ، وقادر على منازلته ، والتغلب عليه . فالضحك في نظره والتهكم ستار يحتمي وراءه ، ودرع يواجه به خصمه ، ونوع من الدفاع السلبي الذي قد يضطر المهاجم في بعض الحالات إلى الانسحاب من المعركة" .

٥ ـ نظرية التعاطف : ويرجع الفضل فيها إلى العالم الأمريكي " وليام ماك وجل " الذي لاحظ استعداد الإنسان للمشاركة الوجدانية ، وأنه لو استمر في هذه المشاركة لقضت عليه الآلام ، وقد هيأت له الطبيعة سبيلا للتخلص من هذا الضيق بإحداث الضحك الذي هو محاولة للتخلص من مشاركة الغير متاعبهم إذا كانت غير ذات خطر شديد ، فيستغل الفرد مصائب ومشكلات الغير التافهة مصادر لضحكه وسخرياته .

٦ـ النظرية الاجتماعية : وصاحبها الفيلسوف الفرنسي " هنري برجسون " القائل : إن وظيفة الضحك اجتماعية بحتة ، فالمجتمع يحاول حماية تقاليده ونظمه بالسخرية ممن يناهض من هذه النظم ، حتى يتم الإصلاح والتقويم .

على أن هذه النظريات على تنوعها ، وتعدد وجهاتها ، لا تكفي واحدة منها لتفسير الضحك والسخرية ، لأن كل واحدة منها تتناول مظهرا وهدفا ، ولا تتناول جميع المظاهر والأهداف ، والصواب أن تتمم هذه النظريات بعضها ، لنصل منها إلى السخرية بكافة صورها ، وشتى أهدافها ، ونتجنب القصور الناجم عن تفسير الضحك بواحدة من هذه النظريات .

يقول أحمد عطية الله في كتابه سيكلوجية الضحك :

(إن تعدد نظريات الضحك ترجع إلى أن كل نظرية من هذه النظريات تفسر ناحية من هذه الظاهرة النفسية ـ وتضيق عن تفسير أنواعه الأخرى) (١٥)

---

١٥) سيكلوجية الضحك ـ أحمد عطية الله ص٣٤٧ .

الفصل الثالث

دوافع السخرية وعناصر نجاحها

دافع السخرية :

لكي ينتج الأديب أدبه عملاقاً قوياً ، يجب أن يكون صادراً من أعماقه ، ولهذا خبرة وتجربة ، وثورة نفسية ، وانفعال بالموضوع الذي يعالجه ، والأسلوب الذي يتناوله ، والدافع الذي يقوده إلى الكتابة ، واختيار لون دون لون وتفضيل تعبير على تعبير .

هذا الدافع هو المحرك الأول والأخير لكل عمل ، والشرارة التي تبعث الحرارة في النفس ، والرؤية في العين ، والأنفاظ في اللسان ، والقوة في الأعضاء ، فتتيح للمؤلف حماسته وفاعليته ، وتحوله من رغبة كامنة في الوجدان ، إلى حقيقة بارزة للعيان .
والدوافع كثيرة متعددة ، تختلف قوة وضعفاً ، وسطحية وعمقاً ، وباختلافها يختلف الأثر الناجم عنها ، وحينما تكثر الدوافع إلى الهدف الواحد يأتي قوياً ضخماً ، متين البنيان وطيد الأركان .

وللسخرية – ذلك اللون الأدبي النقدي – دوافعها التي تغري الساخر بخوض غمارها ، وممارستها ومعاناتها ، والتلطف في أدائها ، والتفنن في صوغها وإبداعها يؤثرها على غيرها ، ويراها أعون في أداء غرضه ، وتحقيق هدفه .

قد يشعر الإنسان بنقائصه وعيوبه ، ونواحي ضعفه ، فيحاول إخفاءها والتغلب عليها ، سواء أكانت هذه العيوب جسمية أم عقلية ، اقتصادية أم اجتماعية حقيقية أم وهمية وهذا ما يسميه علماء النفس "التعويض" وأساسه شعور المرء بالنقص أو العجز أو الخسوف من الإخفاق فيحاول إخفاءها ، وقد يدفعه ذلك إلى السخرية يتخذها أداة منقذة ، ودواء مهدئاً ، وشاغلاً يصرفه عن التفكير المؤلم في عيوبه إلى التفكير المرح في

عيوب غيره ، وتناسى عيوبه ، فيكون التعويض من دوافع ظهور فن السخرية ومثيراتها .

وقد (تنسب ما في نفسك من صفات غير معقولة إلى غيرك من الناس، بقصد أن تجسمها ، وتضاعف من شأنها ، وبذلك تبدو تصرفاتك منطقية معقولة)[1] وهذا ما يدعوه علم النفس" الإسقاط " فتعزو إلى العالم الخارجي العمليات النفسية المكبوتة في داخلك تهربا من الاعتراف بها ، وتخفيفا لما تشعر به ، وهذه (ظاهرة نفسية من شأنها أن يلقى الإنسان ما يكتمه في نفسه الباطنية من عيوب على البيئة الخارجية ، فيرى صورتها معكوسة على مرآة غيره)[2] . فالعمليات النفسية المكبوتة تتحرك داخل النفس، وتهتاج ، وتفور ، ولا يستطيع صاحبها مداومة حبسها ، فتخرج إلى الوجود في لون من الألوان ، والسخرية إحدى هذه الألوان التي يلقى فيها الساخر عيوبه على غيره ، ويتهمه بها ، ويلبسها إياه ، كما نرى في سخرية البخيل من غيره واتهامه إياه بالشح والتقتير ، وفي سخرية الجبان من غيره حين يدعي جبنهم وبذلك يخفف التوتر النفسي ، والقلق والانفعال ، لأن الطاقة قد أفرغت شحنتها ، وصرفت ما احتبس في داخلها ، وكأن صاحبها ، حين دفعت بالسخرية إلى تنفس آلامها وتهدئة انفعالاتها .

والمفارقات ، والأوضاع الشاذة ، وغرابة العادات والتقاليد ، ووجود الشيء على خلاف الإلف ، كشذوذ السلوك ، وشذوذ الخلق ، وشذوذ الخلقة ، مما يثير النفس، ويحرك فيها ملكة النقد اللاذع ، ويجعلها تسخر منها بذلك تصلح المعوج ، وتردع الشاذ ، وتدخل المارق إلى حصن الجماعة وتقاليدها .

ومصائب الغير إذا كانت تافهة ، لا تحرك الشفقة والرحمة ولا تبعث على الرثاء والاكتئاب ، أكبر دافع للسخر ، حيث تكون مادته وموضوعه ومداه ولحمته ،

---

1) الصحة النفسية : د . مصطفى فهمي ص ٢١٨ مطبعة التقدم .

2) معجم مصطلحات علم النفس، منير وهيبة الخازن ص ١٠٩ — دار النشر للجامعيين . مطابع سميا : بيروت .

وبقية التي تغذيه وتمده ، ونواته التي تدور في فلكها وتحوم حولها ، وتستمد منهما دوافع سلوكها .

وتنمو ملكة النقد في الساخر فتجعله يلتقط الأشياء مهما دقت ويلاحظ الفروق وإن ضؤلت ويعقد المقارنات بين الناس وإن تأت وبعدت موضوع حاسة النقد عنده إلى السخرية من الأشياء والأشخاص لتعدل سلوكهم بتلك الآلة الدقيقة التي لها فعل السحر في النفوس، وقوة التأثير في امتلاك القلوب " آلة السخر ") .

وقد يشعر المرء أنه أمام شخص تافه ، يحنق عليه ، ويريد عقابه وتأديبه وتحقير شأنه ، دون أن يرفعه إلى مرتبة الندية عن طريق العراك واستخدام القوة العضلية أو الخصام ، أو الهجاء والسب المباشر ، لأنه لا يستأهل في نظره الخصومة السافرة ولأن الخصومة السافرة مع أمثاله من التافهين ترفعهم ، وتعلي أقدارهم لاقترانهم بشخصية الساخر المرموقة ، وفي ذلك دلالة المساواة التي لا يرتضيها ، فيندفع إلى السخرية عقابا لخصمه ، وتحقيرا له ، واستهانة بشخصه .

وقد يكون الأمر على عكس ذلك ، فيكون المتهكم به رفيع الشأن خطير القدر ، ويريد الساخر أن يحط من كرامته ، ويرغم أنفه ، لعداوة بينهما ، ولكنه لا يمكنه المجاهرة بعداوته لعلو منصبه ، وخوف غضبه ، واحتراسا من بطشه ، فيلجأ إلى استخدام الحيلة ، فيسعى ليهد أركانه وكسر شوكته ، وإذلال هيبته ، والسخرية أبرع حيلة ، لما فيها من رمز وإيماء ، وغمز خفي ، وتعريض وتلويح ، مع البعد عن خطر الإفصاح ومغبة التصريح .

ويزهو المرء بنفسه ، ويعجب بخيره (بابان من أبواب السخر ، بل هما جماع أبوابه كافة ، وكل ما أضحك من أعمال الناس فإنما هو لون من ألوان الغرور ، أو ضرب من ضروب العبث ، وكثيرا ما يلتقيان ، فإن الغرور هو تجاوز الإنسان قدره ، والعبث هو المضي في غير جدوى ، ولا يكون هذا في أكثر الأحيان إلا من اغترار المرء بنفسه ، وتعديه لطوره (٣)) فيدفع الغرور والعبث صاحبهما إلى السخرية من الناس ، والتهكم بهم .

---

(٣) جحا الضاحك المضحك : عباس محمود العقاد ص٢٩ طبعة مؤسسة دار الهلال .

وفي كتاب مطالعات في الكتب والحياة : عباس محمود العقاد ص٨٩ طبعة ٢ مطبعة الاستقامة .

عناصر نجاحها

إن السخرية لا تحدث أثرها المرجو ، من تخفيف لواعج الإنسان ، وتنفيس ما يكبته فى صدره من حفيظة وموجدة ، وما ينفعل به قلبه من حقد وكراهية .

ولا تحقق غايتها المنشودة . من إصلاح المعوج بالتنبيه عليه ، وإظهار عواره وتجسيمه فى صورة ضخمة هائلة ، تروع وتفزع ، فتكون أداة للزجر ، وسوطا للردع .

ولا تعمل عملها الفتاك ، فى النكاية بالخصم ، والحط من قدره ، وتحقيره وإذلاله ، وجعله صورة مشوهة ، وخلقا مقيتا ، ومسخا منفرا .

ولا تترك فى نفوس سامعيها بطرها وهشاشة ، ومرحا ونشوة ، وارتياحا وسعادة ، تجديدا للنشاط ، ودفعا للسأم والكلال .

ولا تؤلف الجماعة المتفرقة ، وتأخذ على يد العابث بوحدتها ، وتخلق جوا من المودة والإخاء بينها ، وتشيع فى أرجائها الوحدة والتعاضد .

ولا تدر المال فى يد الساخر ، وتغدق عليه بالجاه والشهرة ، وتسهل له سبل الحياة الرغدة ، والمعيشة الراضية ، والترف والصولة .

إن السخرية لا تحقق هذه الأهداف كلها أو بعضها ، مالم يتح لها كثير من العوامل التى تؤدى إلى إنجاحها ، وتسير بها نحو تحقيق غايتها وبقدر ما تجتمع هذه العوامل وتتآزر ، وتتعاون وتتساند ، يكون حظ السخرية من الإجادة والإتقان ، أو الخمول والخذلان .

• • • • • •

ومن عناصر نتاج السخرية ، وعوامل تفوقها وسموها :

١- أن يكون الساخر ذا طبيعة تعشق السخرية ،وتولع بالنقد ،تجرى السخرية في عروقه ، وتختلط بدمائه ، فهو سريع التفاعل مع المواقف والحوادث ، يجعل من عقله حكما في كل ما يراه ، أو يسمعه ، أو يحس به ، فينبه عليه إن جاوز الحد تنبيها لطيفا حذرا ، معتمدا على التعريض والتلميح ، فلا يفوته منظر دون أن يمتزه ، ولا تندعه شاردة دون أن تجتذب انتباهه ، ويمر تفكيره فسي هذه المواقف دائما بميزان دقيق حساس تنطلق منه الإشارات ، وردود الأفعال لكل ما يحدث أمامه ، أو يجري في مجتمعه ،مهما كان دقيقا خفيا ، فيتناوله في براعة ، ويصوغه في مهارة ، فإذا هو شيء بعد أن لم يكن شيئا وإذا به يرينا درة غالية أخرجها من صدفة اجتذبها من الأعماق ، فيبهرنا وميضها ، ويسحرنا رواؤها .

٠٠٠

٢- أن يكون منطلق النفس ، خفيف الروح ، بعيدا عن التعقيد والتزمت مرحا ، هاشا ، مبتسما دائما ، مستخفا بالحياة وأعبائها (نفسه هادئة تملم الصدر منبسطة كل الانبساط ، تعدم المبالاة وسطه الطبيعي ، والد أعدائه الانفعال)(١) وأن يكون لديه مقدار غير قليل من الشفافية واللماحية تهديه سريعا إلــى العلاقات وإن بعدت ، والصلات والروابط وإن قلت ونأت .

٠٠٠

٣- أن يكون رقيق الإحساس ، قوي الشعور بالواجب ، فإن (الطبع الساخــر هو الطبع العارف بواجبه ، المحتفظ بكرامته)(٢) يعرف الحدود والرسوم ،

---

١) الضحك ، هنري برجسون ص٧ ترجمة سامي الدروبي وعبدالله عبد الدائم

٢) مطالعات في الكتب والحياة ، عباس محمود العقاد ص ٩٦ .

فيتزلى نفسه أن تهمل أو تحقره يصل إلى الإنصاف ويقضى فى وضع كل شئ إلى مكانــه

ينفر من الإخلال بالنظام ، والآداب العامة ، والذوق السائد (ومن هنا يغلب أن تكون

السخرية باعثا قويا على فعل الواجب ، ومراعاة اللياقة ، والوقوف على حد الكرامة) (٣)

ء— أن يكون بارعا فى التصوير ، متقنا للأداء ، بالكلمة والحركة والإشارة واللمحة ، والتصوير

الكلى الذى يتناول الجسم فيشوهه ويمسخه حتى لتكاد تراه أمامك ، وتلمسه بيدك ،

فإن الحركات والإشارات وتمثيل معانى الكلمات لها من الأثر فى إنجاز السخرية وتحقيق

أهدافها فضل لا يجحد ، من تأكيد المعنى ، وتقريبه إلى الأذهان فى صورة محسـسة

وتجسيمه ، وتشخيصه أمام العيون .

هـ— أن يجيد الساخر المقارنات والموازنات ، وعقد الصلات والروابط بين أشياء قد تبدو

متباعدة ، فيكون لعنصر المفاجأة أثره ، وللمخاطرة لمحة فى الذهن ، وفى توقع تضامـــنا

وتوثيقها ، وبذلك تحدث الهزة والنشوة إذا حل ما لم يكن متوقعا ، وجمع ما ليس فـى

الحسبان ، وظهر نبوغ الساخر ، وحسن تأتيه ، ودقة تسلله واحتياله (فالضحك علـى

هذا مقارنة سريعة مفاجئة بين حالة نراها ، وحالة نتخيلها ، حالة كائنة ، وأخرى واجبة

ولا يقوى على هذه المقارنة فى سرعة وفطنة غير الذهن المطبوع على تصور الأشياء فـى

صورها الحقيقة المثلى) (٤).

هـ— أن يطلع كل من الساخر والسامع على أحوال السخرة ، ويعرف صفاته وأخلاقـــه

وطرفا من ماضى حياته ، ومكانته بين أهله ورفاقه ، وكلما كثرت المعلومات عنه ، والمعرفـة

به ، أدت السخرية دورها ، وانفسح مجالها ، فقد يكون موضوع السخرية اسمه أو كنيتـه

---

٣) المرجع المذكور صفحة ٩٥ .

٤) المرجع السابق صفحة ٩٥ .

أو اسم أبيه أو أسرته ، أو عمله ومهنته ، أو سنه وهيئته أو حوادث كانت له في ماضي أيامه ، والسخرية لن تحقق غرضها إلا بمعرفة هذه الأشياء ، بل إنها لا تكون سخرية إلا إذا لوحظت ، وأدخلت في الاعتبار لأنها العماد والمحور .

يقول الجاحظ (وليس يتوافر أبدا حسنها ، إلا بأن تعرف أهلها ، وحتى تتصل بمستحقها وبمعادنها ، واللائقين بها ، وفي قطع ما بينها وبين عناصرها ومعانيها ، سقوط نصف الملحة وذهاب شطر النادرة) (٥)

∴ ∴ ∴

٧ــ أن يكون الساخر خبيرا بالمجتمع ، عالما ببواطن الناس ، مطلعا على ما يخالج نفوسهم ويجيش في حياتهم ، وما يثير نفوسهم ، ويهز مشاعرهم ، ممارسا لألوان الحياة ممارسة تجعله أدنى إلى فهمها ، والوقوف على دخائلها ، وأبعد من الافتتان بتلك الظواهر التي تتبرج للناس ، فتصرف هؤلاء الذين يعبرون الحياة دون أن يستبطنوها ويتعمقوها من أن ينفذوا إلى ما وراءها .

∴ ∴ ∴

٨ــ أن تحتاج السخرية في فهمها إلى تأمل وتدقيق ، وتلطف وإعمال فكر ثم تلتمع في الفكر ، وتضيء في جنبات النفس ، فإن السخرية إذا كانت واضحة صارخة سمج معناها وسخف مغزاها ، وضعف تأثيرها ، ودلت على سطحية قائلها ، والنفس تكلف بالدقيق ، والعقل ينتعش بالفكرة لاحت له بعد طول احتجاب ، والقلب يطرب للنادرة هبطت لسمعه من حالق .

٩ــ أن تجرى مع الطبع ، وتقترب من الواقع ، فلا تكون مجة ، ولا متكلفة ولا مبالغا فيها فإنها إن بدا فيها التكلف والغلو خرجت عن طبعها وسقطت قيمتها ، وغلو الدعابة ربما انقلبت إلى ضدها ، ونبا دعابة فاترة بعد أن كانت حارة .

---

(٥) كتاب البخلاء ، الجاحظ : تصحيح وشرح أحمد العوامرى وعلى الجارم الجزء الأول ص ٣

وقد رويت قصة للجاحظ ذكر فيها أن رجلا مات فاستولى ابنه على ماله وداره ثم سأل (ما كان أدم أبي؟ فإن أكثر الفساد إنما يكون في الإدام. قالوا: كان يأتدم بجبنة كانت عنده. قال: أرونيها. فإذا فيها حز كالجدول من أثر مسح اللقمة. قال: وما هذه الحفرة؟ قالوا: كان لا يقطع الجبن وإنما كان يمسح على ظهره فيحفر كما ترى. قال: فبهذا أهلكني، وبهذا أقعدني هذا المقعد، لو علمت ذلك ما صليت عليه. قالوا: فأنت كيف تريد أن تصنع؟ قال: أضعها من بعيد فأشير إليها باللقمة)(٦). ويعقب الجاحظ على هذه القصة التي تبدو فيها المبالغة والغلو بقوله: (ولا يعجبني هذا الحرف الأخير لأن الإفراط لا غاية له، وإنما نحكي ما كان في الناس وما يجوز أن يكون فيهم مثله أو حجة أو طريقة، فأما مثل هذا الحرف فليس مما نذكره)(٧).

٥ - أن يعلو فيها صوت العقل ويخبو صوت العاطفة، فلا شفقة ولا رحمة ولا مشاركة في آلام الغير (فلكي يحدث المضحك ما يحدثه من تأثير يجب أن يتوقف القلب برهة عن الشعور)(٨). وأن تعرض علينا العيوب عرضا ينوم عواطفنا، ويوقظ عقولنا، لأن عواطفنا إن لم تكن مستريحة أحسسنا بآلام الناس، وتأثرنا لهم، وحزنا وبكينا من أجلهم، وذلك ما يجمد السخر ويبدده، لأنه وليد الضحك والمرح عدو الحزن والاكتئاب.

∴ ∴ ∴

٦ - ملاءمتها للبيئة التي تقال فيها، والمجتمع الذي تلقى إليه، فللعامة سخرياتهم وللخاصة سخرياتهم، وللأدباء سخريات لا يستسيغها غيرهم، وللعلماء سخريات تعتمد على المصطلحات والإشارات وألوان من المعلومات، مما يجهل غيرهم فكرها، ولا يفهم

---

٦) كتاب البخلاء للجاحظ ضبط وشرح أحمد العوامري وعلي الجارم ج ٢ ص ٨٥ طبعة دار الكتب سنة ١٩٤٠ وفي كتاب البخلاء للجاحظ تحقيق طه الحاجري ص ١٣١، ١٣٢ طبعة دار المعارف - ذخائر العرب.
٧) المصدر السابق، نفس الصفحات.
٨) الضحك: هنري برجسون ص ٨ ترجمة سامي الدروبي وزميله.

مرماها ، وما يكون من تهكم وسخرية فى مجتمع من المجتمعات أو بيئة من البيئات قد يفقد الكثير من لذعه ، وإيلامه إذا استعمل فى غير بيئته وأطلق فى غير مجتمعه ذلك بأن السخرية تعتمد على الدقة ، وفهم ما وراء المعانى ، ولن يتحقق ذلك على أكمل وجه إلا إذا كان السامع يشاكل الساخر فى علمه وأدبه ، أو فى سطحيته وسذاجته ، فسخريات العالم لا يفهمها الجاهل ، وسخريات الجاهل لا يسيغها العالم ، بل يراها فجة تافهة ، لا تثير ضحكه ، ولا تهز نفسه .

* * *

١٢- ألا تثير السخرية ~~السخرية~~ نفور الحاضرين وسخطهم ، فلا يليق أن يسخر ساخر من رجل الدين أمام رجال الدين (وليس منهم) أو يتندر متندر بالقضاة تندراً هازئاً أمام قاض وليس القضاء مهنته .

قد يسخر أحد القضاة برفيقه فى مجلس قضاء ، فتؤتى السخرية ثمرتها ، وتجرى فى الطباع مجرى مقبولا ، إذ ليس فيها تعريض بالحضور جميعهم ، وإنما بواحد منهم محدد ، وقد يسخر أحد الجناة مع رفيقه من قاض بعينه فتحقق السخرية ما أريد بها من تخفيف الغيظ المكبوت ، والحقد الدفين ، أما التعريض بالحضور ، وإلقاء السخرية بحيث يمكن أن تعمهم وتشملهم ، فإن ذلك يضعف من أثر السخرية ، لأنه يجعل النفوس تنفر ، والطباع تجفل ، ويقلل المرح النفسى ، وهو أهم عامل فى نجاح السخرية .

* * *

١٣) أن تكون أمام جماعة إذ السخرية لون من ألوان النقد اللاذع ، ينبه إلى الخطأ ، ويجسمه ، قصداً إلى تعديل السلوك ، أو رغبة فى الفكاهة والإضحاك ، أو للتخفيف من الغيظ والموجدة ، أو لغير ذلك من الأهداف التى ذكرتها آنفا .

ولن يتم للساخر ما أراد على أكمل وجه إلا إذا كانت السخرية فى جماعة تضحك لتزيد بضحكها الضحك ، وتكون هذه الضحكات الكثيرة الهازئة سياطا يرشقه تخزا لمتهكم به وتوجعه ، فتحقق هدفها ، وتصل إلى غايتها ... على أن كثرة الضاحكين المستهزئين ، وتوالى ضحكاتهم علاوة على ما تحققه من الأغراض التى أرادها الساخر بسخره ، تدل على براعة السخرية ، ودلتها ، وروعة أدائها والضحك معد كالتثاوب فالتثاوب يجلب التثاوب ويحقق النوم ، والضحك يجلب الضحك ويحقق الانشراح ، وكثرة الضاحكين الساخرين فى قوة تكرار السخرية ومتابعة إلقائها .

وبرجسون الفيلسوف الفرنسى يقول : (إن الضحك يخاطب العقل المحض ، وينبغى لهذا العقل أن يكون على صلة بعقول أخرى .. .. .. فنحن لا نتذوق الضحك فى حال شعورنا بالعزلة ، إن الضحك فى حاجة إلى صدى)(٩). وهذا الرأى مطابق لما اهتدى إليه إمامنا الجاحظ قبل فيلسوف فرنسا بنحو ألف عام فقد قرر أن الضحك لا بد له من جماعة تشترك فى انفعال واحد ، وأن قيمته تعظم إذا كان جماعيا ، فقد روى فى قصة له مع محفوظ النقاش فى ليلة أكل فيها كثيرا من اللبأ والتمر (فما ضحكت قط كضحكى تلك الليلة ، ولقد أكلته جميعا ، فما هضمه ـ إلا الضحك والنشاط والسرور فيما أظن . ولو كان معى من يفهم طيب ما تكلم به لأتى على الضحك ، أو لقضى على . ولكن

---

٩) الضحك . هنرى برجسون . ترجمة سامى الدروبى وعبد الله عبد الدائم ص ٨ ، ٩ .

ضحك من كان وحده ، لا يكون على شطر مشاركة الأصحاب)(١٠)

١١ – أن يختار الساخر مكان السخرية ، ووقتها ، ومقدارها ، والجمهور المستمع لها ، وأسلوبها المعبر عنها ، وأن يراعى التناسب فى كل ذلك فلا يتأخر بها قليلا أو يتقدم ، ولا تفقد أهميتها ، وضاعت ميزتها ، ولا يحشر فى موقف يعمه الأسى المطلق والحزن الكئيب ولا يجاوز بها مقدارها فيطيلها أو يقصرها ، أو يلقيها فى كل وقت ، فإن للجد والوقار مواضع ، وللسخرية والهزل أوقات (ولو استعمل الناس الدعابة فى كل حال ، والجد فى كل مقال وتركوا التسمح والتسهيل ، وعقدوا أعناقهم فى كل دقيق وجليل ، لكان السفه صراحا خيرا لهم ، والباطل محضًا أرد عليهم ، ولكن لكل شئ قدره ولكل حال شكل ، فالضحك فى موضعه ، كالبكاء فى موضعه ، والتبسم فى موضعه كالقطوب فى موضعه) (١١).

والجاحظ يراعى ذلك ويشترطه فيقول «: وللضحك موضع ومقدار ، وللمزح موضع ومقدار ، متى جازهما أحد أو قصر عنهما أحد ، صار الفاضل خطلا ، والتقصير نقصا فالناس لم يعيبوا الضحك إلا بقدر ، ولم يعيبوا المزح إلا بقدر ومتى أريد بالمزح النفع ، وبالضحك الشئ الذى جعل له الضحك ، صار المزح جدا ، والضحك وقارا (١٢). ولكل سخرية جمهورها الذى يسيغها ويستلذها حتى ليقال ، إن الضاحكين من سخرية بعينها مشتركون غالبا فى عقلية واحدة أو منتمون إلى فصيلة نفسية واحدة .

(١٠) البخلاء ، الجاحظ تحقيق طه الحاجرى ص١٢٤ وسأذكر القصة فى الفصل الأول من الباب الرابع .
البخلاء ، الجاحظ ضبط وشرح أحمد العوامرى وعلى الجارم ص٤٦ ج٢ الطبعة الأولى سنة ١٩٤٠ .
(١١) مجموعة رسائل الجاحظ صفحة ١٠٩ طبعة دار النهضة الحديثة بيروت عام ١٩٧٢
(١٢) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجرى ص٧ .
وكتاب البخلاء ، الجاحظ ، شرح وتصحيح أحمد العوامرى وعلى الجارم ج١ ص٢٩ ، ٣٠

١٥ - أن تكون السخرية جديدة مبتكرة، فليس هناك أدعى للملل من الحديث المعاد، وأولى بالنادرة والطرفة، والفكاهة والسخرية، أن تكون بنت وقتها، ووليدة ساعتها، لم ينطق بها فم، ولا رنت قبل في سمع، ولا انشرح لها قلب، لأنها إن كررت وأعيدت فقدت عنصر الإثارة، وعامل المفاجأة، ومهيئات السرور والإضحاك، وبعدت عن دورها في إيلام المتهكم به وإيجاعه، وتحقيق هدفها من إضحاك الناس عليه، وهزئهم به، إذ الجدة والطرافة عنصر رئيس في إنجاحها، فإن لم يستطع الساخر تحقيق هذا العنصر فلا أقل من أن يتصرف تصرفاً ماهراً حاذقاً، يحيل به القديم جديداً، يصبغه بصبغ جديد، ويصبه في قالب بكر، وإعادة غزله وتحبيكه، وتنظيمه وتنسيقه، حتى لتنسى الأذن أنها سمعته من قبل، وينكر الذهن أن له به إلفا.

وكثير من سخريات الجاحظ ومضحكاته قد سبقه بها رجال في عصره، ومن قبل عصره، ولكن دقته في ضحكه، وتفننه في سخرياته جعلته سيد هذا الباب، والمقدم في هذا الفن.

⁂ ⁂ ⁂

١٦ - أن تروى السخرية بما فيها من لثغة، وتحكى ملحونة محرفة كما قيلت، إذا كان مبعثها اللثغة، ومنبعها التحريف، وسر الإضحاك والتلذذ فيها اللحن، فاللثغة والتحريف والتصحيف، والقلب المكاني، واختلاف الإعراب ألوان من الكاريكاتير يحدث فيها المتكلم بأجزاء الكلمة، وترتيبها، وهيكلها العام، أو يقولها المتكلم يراها مستقيمة البنيان، سليمة الأعضاء، ولكن الساخر يراها على حقيقتها من تشويه وتنافر، ويجعلها لونا من ألوان السخر بقبح الشكل متنافر الأعضاء، وقد آلت الكلمة إلى هذا المسخ، وانتابها ذلك التشويه، كما يتناسب الكائن الحي شوهت معالمه عن طريق القصد سخرية به

أو أن هذا التشويه لخلقته تدعوا إلى السخر والتهكم ، فالشاعر يحث الهيئة في الكلمة ، ويعاملها معاملة الإنسان في شخصه وطبعه .

وقد انتبه أدباؤنا السابقون لأهمية اللحن والتصحيف وتجنب الإعراب في النادرة والسخرية ، وأنه جزء من جمالها ، ويظهر من إجماعهم يقول ابن قتيبة في كتابه عيون الأخبار : (وكذلك اللحن إذا مر بك في حديث من النوادر فلا يذهبن عليك أنا تعمدناه ، وكرهنا لك أن تصلحه ، لأن الإعراب ربما سلب بعض الحديث حسنه ، وشاطر النادرة حلاوتها)[١٣] . ويقول أبو عثمان الجاحظ في كتابه الحيوان : (وإذا كان موضع الحديث على أنه مضحك ومله ، وداخل في باب المزاح والطيب ، فاستعملت فيه الإعراب انقلب عن جهته ، وإن كان في لفظه سخف ، وأبدلت السخافة بالجزالة صار الحديث الذي وضع على أن يسر النفوس يكربها ، ويأخذ بأكظامها)[١٤] .

ويقول في كتابه الحيوان رادا بعض كلام النظام اللحن وتأكيدا رأيه في اللحن : (فكان آخر كلامه أن قال : إن كنت سبع فاذهب مع السباع ، وعليك بالبراري والصحارى وإن كنت بهيمة فاسكت عنا سكوت البهائم ، ولا تنكر قولي وحكايتي عنه بقول ملحون مسن قولي إن كنت سبع ولم أقل إن كنت سبعا ، وأنا أقول إن الإعراب يفسد نوادر المولدين كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب ، لأن سامع هذا الكلام إنما أعجبته تلك الصورة وذلك المخرج ، وتلك اللغة وتلك العادة ، فإذا دخلت على هذا الأمر الذي إنما أضحك بسخفه وبعض كلام العجمية التي فيه ، حروف الإعراب والتحقيق والتثقيل ، وحولته إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء ، وأهل المروءة والنجابة ، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه ، وتبدلت صورته)[١٥] . ويقول في كتابه البيان والتبيين : (إذا سمعت بنادرة من نوادر

١٣) عيون الأخبار ، ابن قتيبة ، الجزء الأول ، ك .

١٤) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الثالث ، صفحة ٣٩ تحقيق عبد السلام هارون ، ومثله في رسائل الجاحظ الجزء الثاني صفحة ٩١ تحقيق هارون ط ١٩٦٥ .

١٥) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الأول ، صفحة ٢٨٢

العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطغام ، فإياك أن تستعمل فيها الإعراب أو تتخير لها لفظا حسنا أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ، ومن الذى أريدت له ، ويذهب استطابتهم إياها ، واستملاحهم لها)(١٦)

ويقول فى كتابه البخلاء : (إن وجدتم فى هذا الكتاب لحنا ، أو كلاما غير معرب ولفظا معدولا عن جهته فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك ، لأن الإعراب يبغض هذا الباب ويخرجه من حده)(١٧)

وإذا كان مبعث السخرية والفكاهة فى الكلام التقعر والتشدق أو الفصاحة والإعراب كان ذلك شرطا فى نجاح السخرية وجودتها بل إن ذلك شرط أساسى فيها ، وبه تكون السخرية ، وبدونه لا تكون ، يقول الجاحظ إمام الساخرين : (ومتى سمعت حفظك الله بنادرة من كلام الأعراب ، فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ، ومخارج ألفاظها ، فإنك إن غيرتها بأن تلحن فى إعرابها ، وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير)(١٨)

* * *

لابد أن يقولها ويرويها من شهر بالسخرية وعرف بالإضحاك ، أو ينسبها إلى غيره ممن لمع اسمهم فى السخرية ، وشاعت عنهم ، فإن السامع حين يطرق أذنه فى أول الحديث اسم الساخر تنشط نفسه ، وتهش ، وتتفتح للضحك والانشراح ، ولو سمجت النادرة ، وبردت السخرية ، وأبو عثمان يعلم ذلك حق العلم فيروى لنا فى كتاب البخلاء (ولو أن رجلا ألزق نادرة بأبى الحارث جمين ، والهيثم بن مطهر ، ومزبد ، وابن الأحمر ، ثم كانت باردة ، لجرت على أحسن ما يكون

١٦) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الأول ، صفحة ١٤٦ ، تحقيق هارون ط ٣

١٧) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، ضبط العوامرى والجارم صفحة ٢٨ الجزء الأول .

١٨) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الأول صفحة ١٤٥ ، ١٤٦ .

ولو وَلَّدنا نادرةً حارةً في نفسها، مليحةً في معناها، ثم أضافها إلى صالح بن حنين وإلى ابن النواء، وإلى بعض البغضاء، لعادت باردة، ولصارت فاترة، فإن الفاتر شر من البارد)[19].

١٩) البخلاء: الجاحظ: تحقيق طه الحاجري صفحة ٧ .

الفصل الرابع

مكانة السخرية بين الألوان الأدبية

للأدب أنماط كثيرة ، وفنون متعددة يلجأ إليها الأدباء ، ويتخذونها أداة يعبرون بها من أفكارهم ، ويفصحون بواسطتها عن أحاسيسهم ، وخلجاتهم ، وكل يسلك الطريقة التي تروقه ، والفن الذي يراه أليق بموضوعه ، وأدخل في النفوس وألصق بالقلوب .

قد يكون هذا الفن في صورة قصيدة أو رسالة أو خطبة أو مقالة أو قصة أو مسرحية ، متخذا لونا من ألوان الأدب الجاد ، أو متجها الناحية الهزلية وقاصدا إلى السخرية والتهكم ، أو الفكاهة والدعابة .

وأدبنا العربي يحفل بالفكاهة والضحك ، ويميل إلى فن السخر ، ويعترف لهذه الفنون أهميتها في النفوس وتأثيرها في القلوب ، ولا يرى بها بأسا إذا لم تجاوز حدودها — عيبا ولا حرجا .

وكما أن للأدب الجاد مكانته وتقديره ، فإن للأدب الهازل أنصاره ومشايعيه وأرقى الفنون الأدبية الهازلة " السخرية " ، وأهميتها ومكانتها بين الفنون الأدبية نابعة من أنها جد إن أريد بها الجد ، وهزل إن قصد بها الهزل وهي في الوقت نفسه جد لأنها تحقق الهدف الذي أراده الهازل بهزله ، فإنه (...) أريد بالمزح النفع ، وبالضحك الشيء الذي له جعل الضحك صار المزح جدا

والصحلة وقار[1]. يقول الجاحظ فى كتابه الحيوان .

(ولم تدر أن المزاح جد إذا اجتلب ليكون علة للجد ، وأن البطالة وقار ورزانة إذا تكلفت لتلك العاقبة ، ولما قال الخليل بن أحمد: لا يصل أحد من علم النحو إلى ما يحتاج إليه حتى يتعلم مالا يحتاج إليه . قال أبو شمر ، إذا كان لا يتوصل إلى ما يحتاج إليه إلا بما لا يحتاج إليه ، فقد صار ما لا يحتاج إليه يحتاج إليه)[2]

ويقول فى رسالة التربيع والتدوير .

(وإن كان المزح قبيحا لأنه يورث الجد فأقبح من المزح ما صير المزح قبيحا ، وإذا صار المزح قبيحا لأن الذى يكون بعده الجد ولم يصر الجد قبيحا لأن الذى بعده المزح كان الجد فى هذا الوزن أقبح من المزح وبان المزح على هذا التقدير أحسن من الجد لأن ما جعل الشئ قبيحا أقبح من الشئ كما أن ما جعل الشئ حسنا أحسن من الشئ .)[3] فحقيقة السخرية جادة ، وصورتها هازلة ، وتستطيع بها أن تحقق ما تحقق بالأدب الجاد ، والأدب الهازل معا ، ففيها ميزة الأدبين وفضيلة الفنين ، بطريقة تخلق الإقبال عليها ، وتشغف النفوس بها .

وليست السخرية بمصيبة إن نبل هدفها ، وسمت غايتها ، ومن أهدافها النبيلة — كما قدمنا فى الفصل الثانى — تخفيف آلام النفس ، وتأديب الخصم ، والقصاص منه ، والتسلية والمرح ، والحفاظ على كيان الجماعة ، وكسب المال والرزق . وليست هذه الأهداف بمجونية ، ولا تافهة ، لأنها توجيهات سديدة ، وعقوبات رادعة وإسهام مع الطبقة الحاكمة فى تدعيم المجتمع ، والحفاظ على وحدته ، وسلامته وأمنه (وقبول السخرية سماحة ، ولكن الإعجاب بما يوجب السخرية عجز وإسفاف)[4].

---

1) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، ضبط العوامرى والجارم ، الجزء الأول صفحة ، ط ١٩٣٨ .

2) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الأول صفحة ٣٧ ، ٣٨

3) مجموعة رسائل ، الجاحظ ، طبعة بيروت صفحة ١١٦ عام ١٩٧٢ .

4) ساعات بين الكتب ، عباس محمود العقاد ، صفحة ١٤٩

في القرآن الكريم آيات فيها السخرية الصريحة وغير الصريحة ، فالله سبحانه وتعالى يقول : (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ، الله يستهزئ بهم ، ويمدهم في طغيانهم يعمهون) (٥)

قال القرطبي : (الله يستهزئ بهم في الآخرة ، يفتح لهم باب جهنم من جهة الجنة ثم يقول لهم : تعالوا ، فيقبلون يسبحون في النار والمؤمنون على الأرائك — وهي السرر في الحجال ينظرون إليهم ، فإذا انتهوا إلى الباب سد عنهم ، فيضحك المؤمنون منهم) (٦) أليس ما فعله الله بهم هو المعنى اللغوي والبلاغي والعرفي للسخرية ؟ ، وقال الألوسي في تفسير الآية : (الله يستهزئ بهم وحمل أهل الحديث ، وطائفة من أهل التأويل الاستهزاء منه تعالى على حقيقته ، وإن لم يكن المستهزئ من أسمائه سبحانه ، وقالوا إنه للتحقير على وجه من شأنه أن من اطلع عليه يتعجب منه ويضحك ، ولا استحالة في وقوع ذلك منه عز وجل) (٧) ، وسخر نوح عليه السلام من قومه ، قال تعالى في قصته (ويصنع الفلك ، وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ، قال : إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون) (٨) ، فقد رد نوح الرسول سخريتهم بسخرية مماثلة لها ، ولا غضاضة في ذلك ، وينص الألوسي في الكلام عن السخرية في الآية بأنها ليست تهكمية ، وأنها على معناها الأصلي وينكر على المفسرين تأويلها ، ويقول : (قيل إنها منه عليه السلام لما كانت لجزائهم من جنس صنيعهم لم تقبح فلا حاجة لارتكاب خلاف الظاهر) (٩)

---

٥) سورة البقرة الآية ١٤ ، ١٥ .
٦) الجامع لأحكام القرآن القرطبي ج ١ ص ٢٠٨ ط ٣ سنة ١٩٦٦ .
٧) روح المعاني ، الألوسي ج ١ ص ١٤٧ الطباعة المنيرية .
٨) سورة هود الآية ٣٨
٩) روح المعاني ، الألوسي الجزء الثاني عشر صفحة ٤٦ الطباعة المنيرية .

ويرى الإمام أبو حامد الغزالي أن السخرية ليست بمعصية في بعض الوانها فيقول : (فأما من جعل نفسه مسخرة فربما فرح من أن يسخر به كانت السخرية في حقه من جملة المزاح)(١٠)

وهو رأى أستاذنا الجاحظ حيث كان لا يصرح بأسماء من يتندر عليهم ويسخر منهم ، وإن كانوا متهتكين ، ولا يرى غضاضة في السخرية والمزاح مع صاحب مازح ومتظرف ، يقول : (ولسنا من تسمية الأصحاب المتهتكين ، ولا غيرهم من المستورين في شيء ، أما الصاحب فإنا لا نسميه لحرمته وواجب حقه ، والآخر لانسميه ليستر الله عليه ولما يجب علينا في مثل حاله ، وإنما نقصد من خرج من هاتين الحالين ، ولربما سمينا الصاحب إذا كان من يمازح بمثل هذا ، ورأيناه يتظرف ، ويجعل الظرف سلما إلى منع شيئه)(١١) بل إن سخريته من بعض أصدقائه تكون سببا في قوة الصداقة ووافر المحبة ، وتعد خدمة جليلة أداها الجاحظ لهذا الصديق ، ويستحق عليها الشكر والتحية ، يقول الجاحظ بعد سخره من أحمد بن خلف مخاطبا سامعيه ، وقارئي سخره : (ولا تقولوا الآن ، قد والله أساء أبو عثمان إلى صديقه ، بل ما تناوله بالسوء حتى بدأ بنفسه ، ومن كانت هذه صفته ، وهذا مذهبه ، فغير مأمون على جليسه ، وأي الرجال المهذب بعد هذا ، والله الشروع والتبرع ، والبذاء ، وقلة الوفاء .

اعلموا أني لم ألتمس بهذه الأحاديث عنه إلا موافقته ، وطلب رضاه ومحبته ولقد خفت أن أكون عند كثير من الناس دسيسا من قبله ، وكمينا من كتائبه ، وذلك أن أحب الأصحاب إليه أبلغهم قولا في إياس الناس مما قبله ، وأجودهم حسما لأسباب الطمع في ماله . على أني إن أحسنت بجهدي ، فسيجعل

---

١٠) إحياء علوم الدين : الغزالي صفحة ٩٣ المطبعة الميمنية .

١١) كتاب البخلاء : الجاحظ ، ضبط العوامري والجارم الجزء الأول صفحة ١٠٧

شكري موقوفا ، وإن جاوز كتابي هذا حدود العراق شكر ، وإلا أمسك ، لأن نشره نفسه
بالقبيح عند نفسه في هذا الإقليم قد أغنته عن التنويه والتنبيه على مذهبه ، وكيف وهو يرى
أن سهل بن هارون ، وإسماعيل ابن غزوان ، كانا من المسرفين ، وأن الثوري والكندي
يستوجبان الحجر) (١٢)

ومن الآيات القرآنية الكريمة التي صرح فيها بلفظة السخرية قوله تعالى :
(سخر الله منهم ولهم عذاب أليم) (١٣) ، وقوله : (أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم
الأبصار) (١٤) وقوله : (بل عجبت ويسخرون) (١٥) ، وقوله (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر
قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم) (١٦) .

فالسخرية المتوجة شرها ، المعيبة خلقا هي التي يكون الغرض منها الإحباط ،
وإراقة الكرامة ، والكذب وتشويه الحقيقة ، وهدم العزيمة ، مما يؤدي إلى التباغض والتنافر
والعداوة السافرة ، أما السخرية الهادفة إلى إصلاح الفساد ، وتقويم العيوب ، والقصاص
والاستعاضة عن القتل وسفك الدماء ، وبحثت المجاهرة برأي — تؤيده الآراء السابقة
أنها خير ولا عيب فيها ، لأنها تقود إلى صلاح .

فالسخرية إذن فن أدبي راق له أساليبه وطرقه ، ويستعمل في
النص كلام قال تعالى يسخر من الكفار (فبشرهم بعذاب أليم) (١٧) ، موضع
البشارة مكان الإنذار سخرية بهم وقال : (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم
فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ، ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون

---

١٢) المصدر السابق صفحة ٨٢

١٣) سورة التوبة الآية ٧٩ .

١٤) سورة ص الآية ٦٣ .

١٥) سورة الصافات الآية ١٢ .

١٦) سورة الحجرات الآية ١١ .

١٧) سورة آل عمران الآية ٢١ .

بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ، قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون) (١٨).

وقال : (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب) (١٩) فقد سخر الله من هؤلاء الكفار لعبادتهم من لا يستطيع الخلق والإيجاد ولا الحيلة للدفاع عن نفسه وحقه المسلوب فضلا عن حماية غيره . وقال حكاية عن الكفار مع إبراهيم : (قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ، قال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون) (٢٠) ، فقول إبراهيم سخرية من الكافرين ، وتهكم بهم ، وتوبيخ عليهم ، لعبادتهم من لا يسمع ولا يبصر ولا يعقل .

وفيه المجال للاعتذار ، والبعد عن طائلة العقاب ، واستدامة الصداقـــة والصحبة وإلى هذا المعنى يشير الجاحظ في رسالة : التربيع والتدوير (ومن المـــزاح جعلت فداك - باب مكر ، وجنس خدع ، يشكل المرء في إساءته إلى جليسه ، وإسماعـــه لصديقه ، على أن يقول : مزحت ، وعلى أن يقول عند المساءة : لعبت ، وعلى أن يقول : من يغضب من المزاح إلا كز الخلق ، ومن يرغب عن المفاكهة إلا ضيق العطن) (٢١) فيجعله من طريق اللعب والمزاح ويرشده بالفكاهة والضحك وذاك أسمى الـــوان التعليم . وإلى ذلك المعنى يشير الشاعر بقوله :

لي صاحب ليس يخلـــو لسانه من جراحـــ
يجيد تمزيق عرضــــي على طريق المزاح

---

١٨) سورة الأعراف الآية ١٩٤ ، ١٩٥ .

١٩) سورة الحج ، الآيـــة ٧٣

٢٠) سورة الأنبياء الآيـــة ، ٦٢ ، ٦٣

٢١) مجموعة رسائل ، الجاحظ ، صفحة ١٠٧ طبعة بيروت عام ١٩٧٢

لقد رأينا القرآن الكريم يسخر من الكافرين ويغيظ بهم مولينا رسول الله إبراهيم عليه السلام يتخذ السخرية من الكافرين أسلوبا له لينبههم إلى أخطائهم بالدليل المادى ، والحجة القارعة، كما رأينا من قبل السخرية الصريحة على لسان نبى الله ورسوله نوح عليه السلام .

وإذا كانت هذه نظرة الدين والخلق والأدب إلى السخرية فلا غرابة أن يعتبر فن أدبى راق مع ما عرف عن الأدب من سعة وانفساح وتسامح يقرب من التحلل هو فن السخرية ، ويحتفل به الأدباء ، ويحتفى له الشعراء لما يحتاج من ترفق وحيلة وحسن تلطف (إن السخرية أرقى أنواع الفكاهة لما تحتاج من ذكاء وخفاء ومكر وهى لذلك أداة دقيقة فى أيدى الفلاسفة والكتاب الذين يهزأون بالعقائد والخرافات ، ويستخدمها الساسة للنكاية بخصومهم وهى حينئذ تكون لذعا خالصا)(٢٢) (وكتاب الأوصاف المضحكة يعتمدون فى نكاتهم على ملكات كثيرة قد يناقض بعضها بعضا ، وقد لا يجتمع منها ملكتان لكاتب واحد ، فمنهم من يعتمد على ملكة السخر ، وهو يحتاج إلى الذكاء وإدراك الفروق ، وقد يصحبه شئ من الجد والمرارة ، ومنهم من يعتمد على الدعابة وهى تحتاج إلى مرح فى الطبيعة مرجعه فى الغالب الى المزاج ، لا إلى الدرس والتعليم ، ومنهم من يعتمد على الهزل ، وهو خلق ينشأ عن جهل بتقدير عظائم الأشياء ، وقد يستحل الضحك فى جلائل الخطوب ، ومنهم من يعتمد على العطف ، وهو يرضى الإنسان من نقائص الناس ويضحكه كما يرضى الوالد الشفيق من جهل وليده الصغير ، وخير هذه الملكات وأعلاها ملكة السخر يمازجها العطف ، وهى عبقرية لا تقل فى اقتدارها على تجميل الحياة ، وتثقيف النفوس والأذواق عن عبقرية الفلسفة ، وعبقرية

---

٢٢) الفكاهة فى مصر ، شوقى ضيف صفحة ١٣ كتاب الهلال .

الشعر والتعلحسين)[٢٣].

إن الأدب الجاد يسهل عليه أن يمسو ويرتقي لأن موضوعه دسم ، وغايته مرغوبة لدى الناس، وأساليبه واضحة ممهدة ، ولكن الأدب الفكه في حاجة إلى معاناة وممارسة ، وقدرات خاصة ، نفسية وحسية وذهنية وروحية ، لا يوفيها حقها أولا يحصل عليها إلا القلة القليلة من الأدباء (وأننا حين تجد قد لا يشق عليك أن تحلق ، ولكنك حين تجنح إلى الفكاهة لا يعود من السهل أن تحافظ على الاستواء الواجب وأن تتقي الهبوط وتجنب الإهاجة ، وتكبح عواطفك ، وترخي العنان لعقلك ، وأن تشيع الجمال في موضوعك ، لتسد نقصه ، وتسلا فراغه ، وتعوض نقصه ، ومن هنا قالوا ، إن غاية الفكاهة هي أقصى ماهو مقدور للإنسان ، يعنون بذلك التحرر من تأثير العواطف العنيفة ، والقدرة على التأمل في سكون واطمئنان والنظر إلى ما يقع لا إلى القدر أو الحظ أو الاتفاق ، ومنع الحماقات والسخافات والتناقضات ابتسامة رضية ، لاكبيرة منحدرة تكبح جماح الغضب عند شهود لؤم الإنسان أو معاناته)[٢٤].

---

٢٣) ساعات بين الكتب ، العقاد ، صفحة ١٥٢ ، ١٥٣ الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٨ طبع مكتبة النهضة المصرية .

٢٤) حصاد الهشيم ، إبراهيم عبد القادر المازني ، ص٣٠٥ ، ٣٠٦ مطبعة دار الشعب الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٩ .

الباب الثاني

الجاحظ الأديب الساخر

أين عاش الجاحظ؟ لم يذكر ذلك
أين مات الجاحظ؟ لم يذكر ذلك
(مولده ووفاته بالبصرة)

الفصل الأول

حياته وأدبه

أسمه : عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى - ولقبه : الجاحظ والحدقى (١) لبروزعينيه ، وكنيته : أبو عثمان (٢).

كان قصير القامة ، صغير الرأس ، دقيق العنق ، صغير الأذنين أسود اللون جاحظ العينين ، مشوه الخلقة مما جعل المتوكل يصرفه عن تأديب ولده حين رآه بإعطائه عشرة آلاف درهم . (٣)

ولد بالبصرة من أسرة متواضعة فى منبتها ، وفى طبقتها الاجتماعية فلم يحفل أحد بمولده ، ولم تعرف سنة ميلاده ، وتضاربت فيها الآراء وإن كانت على وجه التحقيق فى العقد السادس من القرن الثانى للهجرة .

أما أبوه فلا نعرف عنه شيئا إلا اسمه وذلك يؤكد لنا أنه لم يكن من علية القوم ولا من متوسطيهم كما يدلنا على أنه مات قبل أن ينضج ابنه الجاحظ ويذيع صيته وإلا للحقه شىء من شهرته .

وأما أمه فلا نعرف عنها إلا أنها كانت فقيرة رقيقة الحال وكانت تنفق عليه وهو صغير مما اضطره لكسب قوته ، ومواجهة أعباء الحياة مبكرا فباع الخبز والسمك بسيحان فى صباه (٤) ، وكان يستغل فراغه فى التردد على الكتاب - وسيلة تعليم الطبقة الفقيرة فى عصره - كما كان يتردد على حلقات المسجديين التى يغشاها أبناء الفقراء فى مجتمعه إن أرادوا الحصول على قسط من التعليم وكثيرا ما

---

١) معجم الأدباء : ياقوت ج ١٦ ص ٧٥ .

٢) تاريخ بغداد المجلد ١٢ ص ٢١٢ الخطيب البغدادى مطبعة السعادة سنة ١٩٣١

٣) المستطرف فى كل فن مستظرف : الأبشيهى . الجزء الأول ص ٩٢ والقصة من الهامش وهو كتاب ثمرات الأوراق فى المحاضرات لابن حجة الحموى .

٤) معجم الأدباء : ياقوت : أحمد رفاعى بك مطبوعات دار المأمون الجزء ١٦ ص ٧٤ /

كان يذهب الى المربد يتلقى اللغة والفصاحة مشافهة من الأعراب . لقد تتلمذ الجاحظ على أساتذة كانوا زينة الدنيا وغرة فى جبين الدولة العباسية ، منهم الأصمعى الذى كان يحفظ ثلث اللغة ، وأبو عبيدة ، الذى (لم يكن فى الأرض خارجى ولا جماعى أعلم بجميع العلم منه)(٥) وأبو زيد الأنصارى ، وقد قيل عنه وعن سابقيه ، إن هؤلاء الثلاثة كانوا فى عصرهم (أئمة الناس فى اللغة والشعر وعلوم العرب ، لم ير قبلهم ولا بعدهم مثلهم ، عنهم أخذ جل ما فى أيدى الناس من هذا العلم ، بل كله)(٦). والأخفش ، وكان من أعلم الناس بالنحو والتصريف ، وصالح بن جناح اللخمى ، وقد أدرك التابعين وكلامه مستفاد فى الحكمة والنظم ، ابراهيم بن سيار البلخى ، وكان فى جملة ما يحفظ القرآن والإنجيل والتوراة والزبور وتفسيرها عدا الشعر والأدب والغريب ، وصفه الجاحظ بقوله (إن الأوائل يقولون فى كل ألف سنة رجل لا نظير له فإن كان ذلك صحيحا فهو أبو إسحاق النظام (١) [ت نحو ٢٣١ هـ] وقال ، إنه ما رأى أحدا أعلم بالكلام والفقه منه)(٧). وموسى بن سيار الأسوارى ، الذى قال عنه الجاحظ (إنه كان من أعاجيب الدنيا وكانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يدرى بأى لسان هو أبين ، واللغتان إذا التقتا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منها الضيم على صاحبتها)(٨).

وإذا نهل الجاحظ من معين هؤلاء ، واغترف من فيض من عاصره ومنهم سيقف غير هؤلاء فلا تعجب أن يتسنم عصره وأن يحيا من بعده على ومض علمه وأدبه وأن يبقى

---

٥) البيان والتبيين ، الجاحظ ، صفحة ٣٤٧

٦) أمراء البيان ، محمد كرد على ، الجزء الثانى صفحة ٣١٧

٧) المرجع السابق صفحة ٣١٧

٨) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الأول ، صفحة ٣٨٦ (و الأعلام ٨/٧٣) : (صفحة ٢٦٨)

(١) فى الأعلام للزركلى ١/٢٦ : "فإن صح ذلك فأبو إسحاق من أولئك" وبين العبارتين فرق واضح

هذا الأدب وذلك العلم قدوة للمقتدين ومنارة للسالكين .

لقد كان فاتحة الخير للجاحظ ، التقاؤه بموسى بن عمران الذى كان له الفضل فى عقد الصلة بينه وبين إبراهيم بن سيار النظام إمام المعتزلة فلازمه ، وتبع مسلكه فى الاعتزال ، وشهر باعتزاله حتى صار زعيما لطائفة "الجاحظية" التى نسبت إليه وتسمت باسمه .

وقد كان الاعتزال حينئذ مذهب الدولة الرسمى ، وكان مذهب المأمون الذى أذاع فى الناس أن يكتبوا فى الإمامة وأن تحمل إليه كتبهم ، فكتب الجاحظ ، وحملت كتبه إلى الخليفة فنالت الحظوة عنده ، ودعاه ، وجالسه ، واستمع إليه ، وأطرى كتبه ، وسأله أن يكتب له فى العباسية ، والاحتجاج لها فكتب ، وصدره ديوان الرسائل فتخوف الكتاب من توليته هذا المنصب ، وأشفقوا أن يكون ذلك سببا فى ضياع هيبتهم ، وسقوط همتهم ، وكان سهل بن هارون يقول : (إن ثبت الجاحظ فى هذا الديوان أفل نجم الكتاب)(٩) غير أنه لم يمكث به إلا ثلاثة أيام ثم إنه استعفى فأعفى .

وقد اتصل الجاحظ بابن الزيات وزير المعتصم وأهداه كتاب الحيوان فأجازه خمسة آلاف دينار ، وأهدى كتاب البيان والتبين إلى أحمد بن أبى دؤاد فأعطاه خمسة آلاف دينار ، وأهدى كتاب الزرع والنخيل إلى ابراهيم بن العباس الصولى فمنحه خمسة آلاف دينار ، كما قدم للفتح بن خاقان كتاب مناقب الترك وعامة جند الخلافة ، فأجرى عليه راتبا شهريا من خزانة الدولة فصار الجاحظ غنيا واعتبر نفسه بذلك صاحب ضيعة لا تحتاج إلى تجديد وتسميد)(١٠)

---

٩) معجم الأدباء ، ياقوت ج ١٦ ص ٧٩ .

١٠) المرجع المذكور ص ١٠٦

انظر ص ٩٦ آخرى

وقد كان الجاحظ واسع الثقافة ، غزير العلم ، خبيرا بالناس وأحوال المرء ، لا يكتفي بالمعرفة ، وإنما يتعداها إلى التجربة والاستنباط ، ولم يكتف بالكتب يأخذ منها ، والأساتذة يرتشف من علومهم ، بل كان يغشى المربد يتلقف اللغة مشافهة من الأعراب ويحضر مجالس الشعراء والأدباء ، ويسمع أشعارهم ومحاوراتهم ، ويتأمل ويوازن ويقارن وكان له في النقاش والجدل والمناظرة باع طويل ، اكتسبه من أئمة الاعتزال ، وكانت قدمه تجره دائما إلى حلقات الإخباريين والقصاصين والمتندرين المتفكهين الساخرين مما يصادف هوى في نفسه ، وراحة لقلبه .

ولقد استحق عن جدارة ما قاله عنه أبو هفان (لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنا ما كان ، حتى أنه كان يكترى دكاكين الوراقين ، فيبيت فيها للنظر في الكتب)[11] (ولا نحسب أحدا وصف الكتب وتحدث عنها بمثل ما تحدث به هو عنها في تلك الفصول الرائعة التي صدر بها كتابه الحيوان ... هذا الحب القديم ، وهذه العلاقة الشديدة من العوامل القوية التي جعلته يؤثر صناعة التأليف ويستغرق فيها ، ويوجه نشاطه كله إليها)[12] فلا نعجب إذا عددنا من الكتب جاوز بها المسهبين بعد المائة ، وربما كثر تأليفه لامتداد عمره ، ولقضائه شطرا طويلا من حياته مريضا فاضطر إلى ملازمة بيته ، وقطع فراغه بالكتابة والتأليف ، وربما كان سوء منظره سببا في انصراف الناس عنه فعني بصناعة الكتب ، ليعرفوا أن وراء هذا الوجه المشوه نفسا جميلة وروحا فكهة ، وذهنا وقادا .

خطا الجاحظ بالكتابة الفنية خطوة جديدة نحو التعبير عن جميع الموضوعات في خلابة وبيان عذب ، واتخذ من الحياة والمجتمع والنفس البشرية موضوعا لأدبه ، واهتم بالألفاظ والمعاني معا دون أن يجور أحدهما على الآخر ، فهو بحق معلم العقل والأدب ، يضع أمام ناظريه إيصال المعاني إلى قارئه واضحة جلية ، في ثوب مناسب من الألفاظ فالشريف

---

١١) المرجع المذكور ص ٧٥ .

١٢) الجاحظ حياته وآثاره ، طه الحاجري ص ١٦٠ ط دار المعارف سنة ١٩٦٢

للشريف ، والخسيس للخسيس ، دون تعمق أو بهرجة فقد كان يكره العناية الفائقة باللفظ التي تجعل الكاتب (عبدا لمجموعة من الألفاظ ، يجر إليها المعاني ويشدها شدا)(١٣) . وإنما يحقق الأداء الدقيق لمعانيه ، ويحقق معه الوصف الحسي لمشاهده خالا من المجاز ما استطاع ، فإن عمد إلى شيء منه فإنما للإيضاح ، وإظهار الصورة بطريقة تبرزها ، فموقفه من الخيال لأنه يجعل القارئ في متاهات ومبالغات تبعده عن الواقع وعن حقيقة المعنى المراد ، لذلك انتقى من التشبيهات ما وضح في الأفهام وقرب إلى الآذان ، وتفاعل مع الأذهان ، ... فا تصفت كتبه بالواقعية التي ترويها كما هي دون تمويه أو تستر ، فهو يسمى الأشياء بمسمياتها ، دون لجوء إلى الرمز والكتابة ، ويصرح بذكر السوءات والعورات في غير مواربة ولا تستر ، يرى أن ذلك أكثر إيضاحا للصورة ، وإبرازا للفكرة ، وتمشيا مع الواقعية (ولكن واقعية الجاحظ لا تقف عند تلك التفصيلات الدقيقة ، والظواهر الحسية ، بل تستند إلى تحليل نفسي واجتماعي وتصوير لبعض الأحاسيس والعواطف)(١٤) وهذا الأدب الواقعي أعطانا فكرة واضحة عن عصره ومجتمعه ، بعاداته وسلوكه وعاداته وتقاليده ، بل بألفاظه ، فحكى كلام العوام والمولدين بما فيه من لحن وخطأ لينقل إلينا الواقع بكل ما فيه ، بل تعمد ذلك تعمدا يقول : (فإن وجدتم في هذا الكتاب لحنا ، أو كلاما غير معرب ، ولفظا معدولا عن جهته ، فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب يبغض هذا الباب ، ويخرجه من حده)(١٥) . فحريته الأدبية التي أباحت له ذكر العورات ، والإفصاح عنها بصريح أسمائها دفعته إلى حرية مثلها في اللغة والحق أنه عاش الحرية بأجلى

١٣) الفن ومذاهبه في النثر العربي ، شوقي ضيف ص ١٦١ الطبعة الثالثة طبعة دار المعارف .

١٤) فن القصص في كتاب البخلاء للجاحظ ، محمد المبارك الطبعة الثانية دار الفكر بدمشق سنة ١٩٦٥ صفحة ٢٧ .

١٥) كتاب البخلاء للجاحظ ، تحقيق الحاجري والعوامري ص ٧٨ الجزء الأول .

معانيها ، ومختلف أوضاعها ، وشاعت فى سائر مناحى حياته واتجاهاته ، فكانت له حرية فى العلم ، وحرية فى الدين ، وحرية فى اللغة ، وحرية فى الأدب ، وحرية فى السلوك .

حرية فى العلم : جعلته يستند إلى العقل ، ويتجه إلى البحث والتنقيب ، والتجربة والاستدلال ، دون اعتماد على الآراء السابقة ، واتجاهات السابقين ، قبل أن يعرضها على عقله ليمحصها ، ويوافق عليها ، فهو يناقش وينقد ، وينفى ويثبت حتى ولو كانت هذه الآراء لشيخ فلاسفة الإغريق ومفكريهم أرسطو ، أو لشيخه النظام .

حرية فى الدين : دفعته إلى اعتناق مذهب المعتزلة ، المرتكز على التفكير الحر والعقل والمنطق ، والاستدلال والاستنتاج ، وعدم الأخذ بالظاهر دون نظر إلى العلل والمسببات ، وأبعدته عن التزمت والتنطع ، وحققت له التوازن بين الدين والدنيا .

حرية فى اللغة : حيث فضل السهولة والليونة ، والبعد عن الوعر والنافر وارتضى حكاية كلام الأعراب حين يكون ذلك أليق ، وترك الإعراب إن وجد هذا أولى وأفضل ، واستعمال ألفاظ السوقة والعوام حتى يستلزم الموقف ذلك ، (فالغريب للشريف والسخيف للسخيف) .

حرية فى الأدب : حببت إليه الانطلاق من قيود البديع ، ومحسناته اللفظية والأسلوبية وعدم الالتزام بطرق السابقين ، أو بطريقة خاصة فى الكتابة ، كما أفسحت أمامه الطريق فى اختيار موضوعاته كما يحلو له ، وفى الكتابة فيها بالطريقة التى تروقه ، وبالترتيب الذى يراه ، فينتقل من غرض إلى غرض ، ويخلط الجد بالهزل ، ويمازج بين الجمل القصار والجمل الطوال ، ويصرح بذكر السوءات والعورات ، دون تستر أو مواربة ، وينقد ما لا يروقه من الشعر والنثر ، ولو أجمع الناس على استحسانه .

وحرية فى السلوك ، أبعدته عن قيود الزواج ، والالتزام بمسئولياته ، ونفرتـــه من الكتابة الديوانية ومتطلباتها ، ونحته عن التزمت والركانة ، واتخاذ الهيئة الوقورة[1] والسمت الجاد ، وقربته من مجالس الأنس والمنادمة، واللهو والمجون

وأهم ظاهرة فى أدبه ، بل فى كلامه وسلوكه وتفكيره ، وفى حياته العامـــة والخاصة ، ما امتاز به من روح فكهة مرحة ، عابثة ساخرة تضيق بالدعابة ، وتصل الى التهكم ، وتمزج الجد بالهزل ، وتخفف أعباء الحياة ، وثقل العلم ، بالمرح والضحك ، وإذا بنوادره الغريبة ، وأفكاره العجيبة ، وسخرياته اللاذعة تحبــــب إلينا الحياة ، وتدفعنا إلى مصاحبته وقراءة كتبه الشيقة التى تنقل قارئها (من بـــاب إلى باب ومن فصل إلى فصل)(١٦) فلا يمل ولا يكـــل .

مرض الجاحظ فى سنى حياته الأخيرة بالفالج والنقرس حتى لوطن الذباب بجانبه لآلمه . وحتى لو غرزت فى جسمه المسال لما أحس كما قال هو عـــن نفسه ومات رحمه الله والكتاب على صدره (قتلته مجلدات من الكتب وقعـــت عليه)(١٧) وقد اختلفت الآراء فى عام وفاته كما اختلفت من قبل فى سنة ميلاده .

وإن كانت وفاته على وجه التحقيق فى العقد السادس من القرن الثالث الهجـــرى كما(١٨) أن ميلاده رغم اختلافهم فيه فإنه على وجه التحقيق فى العقد السادس من القـــرن الثانى الهجرى . (المشهور أنه ولادة سنة ١٦٢ - وأن وفاته سنة ٢٥٥)

وصفوة القول ، أن الجاحظ كان أمة ، وكان دائرة معارف لانزال حتى اليوم تتتلمذ على تراثه ، وننهل من فيض أدبه ، وغزير علمه ونمتع النفس والروح برواية فكاهاته ، والتحدث عن سخرياته ، ويندر أن نجد أديبا أو باحثا فى الأدب ،

---

١٦) الحيوان : الجاحظ الجزء الثالث ص٧ .

١٧) الأعلام : الزركلى الجزء الخامس الطبعة ٢ ص٢٣٩ .

١٨) قال أبو الفداء فى الهداية والنهاية الجزء ١١ ص٧ إنه مات سنة ٢٥٠

قال ابن الأثير فى الكامل الجزء ٥ ص ٣٠١ إنه مات سنة ٢٥٥

قال السيوطى فى بغية الوعاة ج ٢ ص٢٢٨ إنه مات فى المحرم ٢٥٥ وقد جاوز التسعين

(١) فى القاموس : « وَقُر وَقُور » .

أو ناقدا ، أو فكيها ، أو صاحب مذهب ديني ، أو فكري ، إلا وفي كتبه مقتبسات من الجاحظ ، واستشهاد بآرائه ، ونقل عنه . ويكفي ذلك دليلا على سبقه وفضله ، وصلاحية أسلوبه وفكره ، وعلى أن اسمه سيظل باقيا على امتداد الأجيال خالدا ما تعاقب الليل والنهار .

رحم الله أبا عثمان وجزاه عما قدم لأمته وللإسلام وللعالم العربي وللفكر الإنساني من خدمات جليلة أكرم جزاء .

الفصل الثاني

عوامل تفوقه في السخرية

السخرية فن ، يحتاج إلى ملكة واستعداد ، وجهد وإتقان وقدرة خاصة تعين على الابتداع والابتكار ، فليس كل شخص قادرا عليها ، ولا مستطاعة منه ، وليس كل من يسخر تترك سخرياته في نفوس سامعيه نشاطا وانتعاشا ، وفي شفاههم ضحكات وقهقهات وتترك في الوقت نفسه في قلب المسخور ألما ممضا ، وغضبا قاتلا ، وإنما يقدر عليها ، ويوفيها حقها الشخص المرح ، الفكه المجلس الحلو الحديث البارع التصوير ، السريع الملاحظة ، الدقيق المقارنة الحاضر البديهة فيتخير اللفظ الموجز ، والأسلوب السهل ، والكلمات المعبرة ، ويعمد إلى التعريض والتلميح ، والكناية والرمز ، واللفتة والإشارة ، فلا يكاد ينتهي من كلامه حتى يستلقي الجميع على أقفائهم ضحكا وسخرية ، مرددين كلماته ، هاتفين بعباراته ، معجبين بتجسيمه المعاني ، وجمعه المتناقض ، ورميه الشباك حول فريسته ، واقتناصها والعبث بها ، وتحويلها هزأة ، ومسخا مشوها .

وبمقدار ما يكون المعنى عميقا والهدف مستترا ، يحتاج إلى فكر غوص ، وعلى مثال ما يفتن الساخر في طرائقه وأساليبه ، حتى لنخال أن الكلام ملقى على طبيعته

لا سخرية فيه ولا تهكم يكون نجاح السخرية وروعتها ، حين تصل إلى الأذهان ، وتلتمع في العقول ويبدو ما يقصده المتحدث ، وما يخفيه وراء الألفاظ والمعاني السطحية .

والجاحظ - أديب العربية - هو الذي خلق من السخرية فنا مستوى القامة ، وطيد الأركان ، سامق البنيان ، بقدرته على التصرف في فنونها ، وتنويع أشكالها وضروبها ، تساعده في ذلك قريحته الوقادة ، وعقليته اللماحة ، وما وهبه الله من طبيعة ساخرة تنفخ في الصغير روحا فينمو ويكبر ، وتضغط بيدها على هامة العظيم فينحط ويتضع ، يؤازره في تحقيق الألوان الجديدة من هذا الفن ، طبيعة مرحة ، وتصرفات لبقة ، وثقافة واسعة ، وخلقة مشوهة ، وتمرس بالحياة ، واختلاط بالناس ، ومداخلة لهم وتغلغل إلى أغوار نفوسهم مهما استترت بواطنهم ، وتباينت طبقاتهم ، واختلفت درجاتهم ثم ما عرف عنه من حب للمزاح ، وقلة اكتراث بالتقاليد والعادات ، وما تواضع عليه الناس ، وأخذوا أنفسهم باحترامه ، إلى ما شاع في عصره من تضارب فكري يصل أحيانا الى النزق والحمق ، واستهتار ديني يدفع في كثير من حالاته إلى الفسوق والمجون والخلاعة والزندقة ، هذا إلى أوضاع اجتماعية متباينة أشد التباين من غنى يصل إلى ثروات قارون إلى فقر مدقع يملك له الناس عريا وجوعا ، إلى تفكك مزر ، وتحيز طائفي مقيت ، وانتشار الظرف والمجون ، والتطفل والنفج ، وظهور طبقات البخلاء والفضوليين والحمقى والمتطبيين والشطار والموسوسين والمتحالمين (وسط سارت فيه الخفة والتهكم وعمه الميل إلى العبث والتندر ومن هنا نشأ ميله الجزئي إلى المزاح شريطة ألا يخرج هذا المزاح من حدوده ، وكان على الجاحظ من جهة ثانية أن يقاوم أثناء مكثه في بغداد تيارا عاما من الجد والكآبة والصرامة ، وهذا ما يعلل إشاراته العديدة إلى فوائد الضحك)(1) فتمكن هذا الفن من الجاحظ ، وتمكن

---

1) أدب العرب ، مارون عبود ص ٤٠٣ دار الثقافة ببيروت عام ١٩٦٠ .

الجاحظ منه ، فأثر على أدبه في شتى اتجاهاته ، حتى أننا لا نجد له كتابا — على كثرة كتبه — إلا وقد حوى النادرة والطرفة ، والتهكم والسخرية ، بل لقد أفرد للسخرية بعض كتبه ورسائله ، ككتاب البخلاء ، ورسالة التربيع والتدوير ، بل إن عناوين كتبه ورسائله تحمل التهكم ، وتلبس رداء السخر كرسالة فرط جهل الكندي ورسالة الحول والعور ، والعرجان والبرصان ...

كانت السخرية نتفا متفرقة ، فجة الأسلوب ، بدائية الفكرة ، خشنة الملمس ، تعتمد على الحكاية والسرد ، إلى أن أتى الجاحظ فجمع أوابدها ، ولم شتاتها ، ووضع لها الأصول والقواعد ، فاستوت على سوقها فنا راقيا ، مستقل الشخصية ، واضح المعالم وغرضا يخصه الأديب بقصيدة أو رسالة أو كتاب ، مما يشهد ببراعة الجاحظ وحذقه وإتقانه لفنه الأثير لديه ، الذي كونته فيه عدة عوامل خلقت منه أستاذ السخرية دون منازع ، منها :

∴ ∴ ∴

١ـ أصلــه ووراثته (١) :

(كان جد الجاحظ أسود ، يقال له فزارة ، وكان جمالا لعمرو بن قلع الكناني) (٢)

وإذا كان جمالا فمن شأنه سعادة أن تدور بينه وبين بني مهنته أحاديث مرحة ، وطرف ونوادر ، تخفف من متاعب العمل ، وعناء السير ، وأن تنشب المحاورات والمنازعات التي ينطلق فيها اللسان بالشتم والهجاء تارة ، وبالسخرية والتهكم تارة أخرى .

ولم يحفظ التاريخ شيئا عن محبوب ، ولا عن بحر حتى نستشف عامل الوراثة في سخريات الجاحظ ، وإن كنت أرى أن روح الخفة والمرح قد سرت إليهما من الجد فزارة ، ومن طبقتهما الاجتماعية المحدودة الدخل ، ومن البيئة العامية التي عاشا فيها .

---

٢) معجم الأدباء ، ياقوت ، الجزء ١٦ صفحة ٧٤ .

(١) هنا يحاول الباحث أن يبين أثر الوراثة في الجاحظ ، ورفضا لأن يذكر أن السخرية عند الجاحظ كانت طبيعة وفطرة وخلقا

على أن ماقدمته من سخريات محتملة من الجد فزارة ، ومن سخرية أم الجاحظ ، ومن طبقة والديه وأجداده التى تنتشر فيها السخرية عادة ولا ينهض دليلا قاطعا على أنها أسرة عشقت السخرية ، ومالت إليها ، فليست عندنا أدلة على سخريات فزارة ولا محبوب ولا بحر ، وإنما هى ظنون واحتمالات وليست عندنا أدلة على تهكم أم الجاحظ ، وإنما هى حادثة فردة لا تنهض دليلا على أنها مطبوعة على السخرية ، كما أن طبقتهم الدنيا ليست دليلا على نبوغهم فى فن السخر ، وإنما الغالب عرفا وعادة ، واجتماعيا ونفسيا ، أن تكون مثل هذه الأسرة التى توفرت فيها هذه الأمور ساخرة متهكمة .

والذى يجعل ذلك غالبا على الذهن ، قريبا من الواقع ، أن السخرية التى شهر بها الجاحظ ، وشاعت عنه ، وانتقلت إلينا عبر القرون ، وتداولتها الألسنة فى كل زمان ومكان ، لابد أن تكون وليدة عدة عوامل ، تآزرت وتضافرت ، حتى خرجت لنا الجاحظ الساخر ، ولابد أن يكون للوراثة والجد والأب والأم دخل فيها كبير ، إذ هم المنبع والأصل ، والملقن ، والمعلم الأول الذى يسرى تعليمه فى نفس الطفل عن طريق التقليد والتشبيه والمحاكاة ، فلا بد أن تكون هذه الوراثة قد أثرت فى الجاحظ ، وطبعته على السخرية ، وجعلتها تمتزج بدمائه ، وتفيض على لسانه حتى وصل بها إلى البراعة التى نراها فى كتابه البخلاء ، وفى رسالة التربيع والتدوير .

. . .

ب - دمامة خلقته ، وقبح هيئته :

كان الجاحظ قصير القامة ، صغير الرأس ، دقيق العنق ، صغير الأذنين أسود اللون ، جاحظ العينين ، مشوه الخلقة ، مستبشع المنظر ، مما جعل المتوكل يصرفه عن تأديب أولاده بعد أن دعاه لذلك ، وأعطاه عشرة آلاف درهم [٤] قال فيه أحمد بن سلامة الكتبى :

---

٤) وفيات الأعيان ، ابن خلكان ج ٤ ص ٣٨٨ ، المستطرف فى كل فن مستظرف ، الأبشيهى ج ١ ص ٩٢ هامش المستطرف وهو كتاب ثمرات الأوراق فى المحاضرات لابن حجة الحموى وتاريخ الأدب العربى ، كارل بروكلمان نقله إلى العربية ، عبد الحليم النجار ، طبعة دار المعارف سنة ١٩٦٢ ص ١٠٦

لو يمسخ الخنزير مسخا ثانيا ... ما كان إلا دون قبح الجاحظ (٥)

رجل ينوب عن الجحيم بوجهه ... وهو القذى فى كل طرف لاحظ

ويروى هو عن نفسه (ما أخجلني أحد مثل امرأتين رأيت إحداهما فى العسكر، وكانت طويلة القامة، وكنت على طعام، فأردت أن أمازحها، فقلت: انزلي كلي معنا قالت: اصعد أنت حتى ترى الدنيا .. وأما الأخرى فإنها أتتني وأنا على باب داري فقالت: لي إليك حاجة وأريد أن تمشي معي، فقمت معها، إلى أن أتت بي إلى صائغ يهودي فقالت له: مثل هذا .. وانصرفت فسألت الصائغ عن قولها، فقال: إنها أتت إلي بفص، وأمرتني أن أنقش لها عليه صورة شيطان، فقلت: يا ستي ما رأيت الشيطان، فأتت بك، وقالت ما سمعت) (٦).

(إن لمظهر الإنسان وقوامه أثرا فى شخصيته، فالرجل الصحيح الجسم الحسن القامة، قد لا يحتاج فى إظهار شخصيته، والتأثير على غيره، إلى ما يحتاجه الشخص النحيف الجسم، المشوه الخلقة، فبينما نجد الأول طبيعيا .. إذ نجد الثاني ... يتخذ أحيانا وسائل شعبانية أو تمثيلية .. وقد يضطر إلى الدعابة فى حديثه، فالإنسان حينما يحس بنقص من الناحية الجسمية مثلا، تراه يعمل على أن يسد هذا الفراغ، ويكمل ذلك النقص من الناحية العقلية أو الخلقية حتى يظهر شخصيته للملأ ... والجاحظ كان أديب العلماء، وعالم الأدباء، وما لقب بهذا اللقب الذى كان مبغضا إليه إلا لأنه كان جاحظ العينين بارزهما، قبيح الخلقة) (٧) وجحوظ العينين دلالة على أن صاحبهما وقح مهذار (٨).

٥) الجاحظ، جورج غريب ص ٢٠

٦) أمراء البيان، محمد كرد علي ج ٢ ص ٤٦٤، ٤٦٥ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٧

٧) فى علم النفس، محمد الإبراشي ج ٣ ص ٣٨٩، ٣٩٠ ط ١ المطبعة المصرية عام ١٩٣٤

٨) أخبار الحمقى والمغفلين، ابن الجوزي ص ٢٨ ط المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ببيروت —

فالدميم غالبا ما يستصحب عن قبح خلقته ، وبشاعة هيئته بالعلم والأدب ، يمده بما خلقته ويستر نقيصته ، وبالروح المرحة الفكهة ، يخفف بها بعضها يضطرم فى صدره ، ويتقبل بها ما يقال عنه فى هدوء ، ورضا ، ويوطن نفسه على ذلك ، ويمدها لسماع الكثير منه ويُمَرِّنُ بهَا على الجَلَد ، وقوة التحمل ، والإعاشر متقبلا بالحياة ، بربا بها ، كما أن عليه أن يجد نفسه لمقابلة الذى يقال عنه ، أو يمكن أن يقال ، بلسان حاله وتمكن مسره يعكس الوضع ، ويلوى عنان السخرية ، فترتد إلى قائلها ، محدثة الهزء المضاعف ، والتهكم القاتل ، فتصير أحدوثة الناس ، كما أن مرحه ، وخفة روحه ، يظهر أنه بعدم الاكتراث لما يقال عنه ، والاستخفاف به ، حتى إنه ليسخر من نفسه ، ومن عيوبه الجسمية وكأن لسان حاله يقول لا بيدى لا بيد عمرو ، وكأنه يرى أن سخريته من نفسه تخرس الألسن وتغلق الأفواه لأن الساخر منه لن يجد ما يقوله بعدما قاله هو من دمامته وشوهته وقد يسخر ممن قبحت هيئتهم ليبين أن هناك من فاقه فى القبح .

وأديبنا الجاحظ المطبوع على الفكاهة الساخرة ، المشهور ببراعته فى الاستدلال والتعليل — حتى إنه ليعلل للشئ وضده — قادر على أن يجعل الجميل الوسيم قردا والبدر المنير قطعة من الفحم ، وفى مكنته بلا ذع سخرياته أن يخرس الألسنة الهازئة ويخيف من تسول له نفسه أن يناله بلفظ جارح ، أو بإيماءة هازلة .

(قيل لأبى هفان : لم لا تهجو الجاحظ ، وقد نَدَّدَ بك وأخذ بمختنقك ؟! فقال : أمثلى يخدع عن عقله ؟! والله لو وضع رسالة فى أرنبة أنفى لما أمست إلا بالصين شهرة ، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت فى ألف سنة) (٩) ، ولقد وضع رسالة " التربيع والتدوير " يسخر فيها من أحمد بن عبد الوهاب ، فطبقت شهرتها الآفاق ، واستمرت نموذجا للسخرية اللاذعة على مر الأيام ، وكر الأجيال ، ولو أنه انتحى فيها ناحية السب الصريح ، والهجاء المكشوف ، لما ظل لها هذا الأثر القوى ، ولما كتب لها البقاء والخلود .

---

٩) معجم الأدباء ، ياقوت ج ١٦ ص ٩٩

والتاريخ يروى لنا عن كثيرين ممن سلبوا صباحة الوجه ، وجمال الخلقة ، ومنحوا الروح الفكهة ، والطبيعة الساخرة ، فشيخ فلاسفة الإغريق سقراط ، كان (قبيح المنظر ، فهو قصير بدين دميم ، بارز العين ، كبير الأنف في قبح ، واسع الفم ، بالى الثياب) (١٠)، (مشوه الخلق ، جاحظ العينين ، ضخم الشفتين) (١١) وكان التهكم من جملة أساليبه في تقرير فلسفته .

وبشار بن برد كان أعمى مشوه الوجه من أثر جدرى أصابه فصار قبيح المنظر (١٢) وقد ضرب المثل بقبحه وقبح الجاحظ ، قال مخلد بن على السلامى فى هجاء ابن المدبر ،

رأيتك لا تحسب الود الا إذا هو كان من عصب وجلده

أراني الله وجهك جاحظيا وعينك عين بشار بن برده) (١٣)

وكثيرا ما عير بشار الناس بعمى قلوبهم وإن كانت لهم عيون غربان ، وقد جاء رجل يسأله من مكانه ، فوصفه له ، فلم يستطع معرفته ، فقاده بشار إليه وهو ينشد ساخرا ،

أعمى يقود بصيرا لا أبا لكم قد ضل من كانت العميان تهديه

وأبو العيناء ، كان أعمى ضريرا ولم يمنعه ذلك من منادمة الخلفاء ، والسخرية من المقربين ، وإن كانوا من أقرباء الخليفة وأخواله .

وأبو الشمقمق مروان بن محمد كان مولى لمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية وكان قبيح الشكل خلق الثياب ، يقول عنه المرزبانى (أنه كان عظيم الأنف ، أهرت الشدقين ، منكر المنظر) (١٤). ويقول عنه ابن عبد ربه (كان أديبا ظريفا محارفا ، وكان صعلوكا متبرما بالناس ، وقد لزم بيته فى أطمار مسحوقة) (١٥) وكان مع ذلك ساخرا لاذع السخرية.

---

١٠) قصة الفلسفة اليونانية ، أحمد أمين ص ١١ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٩

١١) الجاحظ ، محمد عطية الإبراشى ص ٦ مطبعة نهضة مصر.

١٢) المنتخب من أدب العرب ، جمع طه حسين وآخرين ج ٢ ص ١٨٢ ط دار الكتب ١٩٣١

١٣) الجاحظ ، جورج غريب ص ٢٠ - الموسوعة فى الأدب العربى ، دار الثقافة ، ط ١٩٧١

١٤) معجم الشعراء ، المرزبانى صفحة ٣٩٧.

١٥) العقد الفريد ، ابن عبد ربه ، الجزء السادس صفحة ٢١٥ طبعة لجنة التأليف عام ١٩٤٩

وأبو دلامة كان أسود اللون حبشيا ، وكان مولى لبني أسد وكان مشهورا بحسن المنادمة والمرح والسخر والإضحاك حتى من نفسه .

وأشعب كان أبوه من مماليك عثمان بن عفان ثم أعتقه ، فهو من أبناء العبيد ، وكان نهما إلى الطعام طفيليا بخيلا قصير القامة ، قبيح الوجه (أزرق أحول أكشف أقرع ألثغ ، وكان لا يبين الراء ولا اللام ، يجعلهما ياء) (١٦) وكان مغرما بالضحك والسخر .

وفولتير وموليير ورابليه وهم أشهر من نبغ في السخرية في فرنسا وملأت مؤلفاتهم الساخرة الآفاق كانوا ضعافا ضئالا يشكون السقم والاعتلال يقول الأستاذ العقاد عن فولتير إنه كان مشهورا بضآلته وهزاله ، ورجفانه من فرط العصبية لأقل هياج يعتريه .. وكان مولعا بالهجاء اللاذع والسخر المؤلم) (١٧) .

والجاحظ كان يشبهه من وجوه كثيرة فقد (كان فولتير عالما أديبا ، وفيلسوفا ساخرا وكذلك كان الجاحظ ، وكان فولتير كاتبا من كتاب الثورة الفرنسية ، كما كان الجاحظ كاتبا للمعتزلة ، وممهدا للثورة الأدبية وذلك بتقريبه موضوعات الأدب من أذهان العامة ، وكلاهما كان يمتاز في أسلوبه بالسخرية والفكاهة) (١٨) .

وإمام العبد المضروب به المثل في الدعابة والسخرية كان (زنجيا بمعنى الكلمة كما يقولون — لولا فصاحة لسانه ولولا أنه ولد وعاش في مصر ، ففطر على أخلاق أهلها ، وأخذ بعاداتهم ، وسائر أسبابهم ، فقد كان غليظ الشفرين ، أفطس الأنف ، محمر الحدقتين ، أملد العارضين ، مفلفل شعر الرأس ، أما لون جلده فأشد من فحمة الدجى

١٦) اللآلي في شرح أمالي القالي ، لأبي عبيد البكري تشرحه عبد العزيز الميمني ص ٥٨ ط ١٩٣٦
ونقل عنه عبد السلام هارون في البخلاء للجاحظ صفحة ٣٧١ .

١٧) ساعات بين الكتب : عباس محمود العقاد الطبعة الرابعة ص ٣٦٨ مكتبة النهضة عام ١٣٨٨ ، ١٩٦٨ .

١٨) الجاحظ سلسلة تراجم ، أعلام الثقافة العربية ونوابغ الفكر الاسلامي : محمد عطية الإبراشي مطبعة نهضة مصر .

سواداً (١٩) .

وعبد العزيز البشري كان (طويل القامة، نحيف العود، محني الظهر، قمحي اللون، ولم يكن حلو التقاسيم، جميل الملامح، إنما كانت ملامحه لا يتسق بعضها مع بعض، وكانت عيناه دائما حمراوين تنفثان اللهيب، أما أسنانه فكانت منفرجة غير منتظمة وكانت شفتاه عريضتين تتلمظان للطعام، وكان شعره متناثراً كثاً، أما شعر حاجبيه فكان مبعثرا، حتى لا تستطيع أن تجمع شعرة على شعرة، وكان البشري أفوه الثغر، إذا ضحك انفرج وجهه عن ثغر واسع، وقهقهة عالية، ولم يكن أنيقاً في ملبسه)(٢٠) وهو من أعلام الساخرين.

فغير هؤلاء ممن عوضهم الله عن جمالهم خفة في الروح، ولطفاً في الطباع، وحدة في الذهن، وقدرة على السخرية.

ولقد كانت كل هذه الصفات في زعيمهم الجاحظ، يستعين بها على مواجهة مجتمعه ويخفف بها حدة ما يؤلمه من سخريات الناس منه، ويتخذها سوطاً يرد به كيد المعتدين ويلهب ظهور الماكرين الحاقدين، الذين يتندرون على قبح خلقته، ويهزأون بشكله وهيئته.

* * *

٣- طبيعته وفطرته:

لقد طبع الجاحظ على المرح والفكاهة، وخلقت مع روحه الخفة والدعابة، وسرى في جبلته السخر سريان الدم في شرايينه، يميل إليه، ويتعشقه، وينثره في أحاديثه، وينشره في كتبه، خالطاً الجد بالهزل، مازجاً العنف والصرامة بالسخرية والتهكم جاعلاً ذلك سبيله إلى استرواح النفس وإحماضها، وتخفيفها من ثقل الجد وألم الكد، فكان له هذا الأدب النادر الذي يسري في النفوس، ويعلق بالقلوب، وتشرئب إليه الأعناق

---

١٩) المختار، عبد العزيز البشري ج ٢ ص ١٢٦ مطبعة المعارف.

٢٠) عبد العزيز البشري، جمال الدين الرمادي سلسلة أعلام العرب العدد ٤٢ ص ١٥١

يجد فيه الجاد متعته ، ويجد فيه الهازل متعته ، ويحبه الغبي لما فيه من تغابٍ ، ويعشقه الذكي لما فيه من لماحية .

وحسبنا دليلا على براعته في السخرية ، وأنها كانت فيه فطرة وسجية أنه كان يبدأ الناس بالتهكم منهم ، وأنه كان يسخر من نفسه ويروي سخريات الناس منه دون غيظ أو حنق قال : (ما أخجلني أحد مثل امرأتين ....) (٢١) وقال (ما غلبني أحدٌ قط إلا رجل وامرأة ، أما الرجل ، فإني كنت مجتازا في بعض الطريق ، فإذا أنا برجل قصير بطين كبير الهامة ، طويل اللحية ، وبيده مشط يمشطها ، فقلت في نفسي ، رجل قصير بطين ألحى ، فاستزريته ، فقلت ، أيها الشيخ ، لقد قلت فيك شعرا ، فترك المشط من يده وقال ، قل . فقلت :

كأنك صعوة في أصل حش أصاب الحش طش بعد رش

فقال لي ، اسمع جواب ما قلت ، فقلت ، هات ، فقال ،

كأنك جندب في ذيل كبش تدلدل هكذا والكبش يمشي .

وأما المرأة ، فإني كنت مجتازا في بعض الطريق ، فإذا أنا بامرأتين ، وكنت راكبا على حمارة فضرطت الحمارة ، فقالت إحداهما للأخرى : وي ! حمارة الشيخ تضرط ! فغاظني قولهما فقلت لها ، إنه ما حملتني أنثى قط إلا ضرطت ، فضربت بيدها على كتف الأخرى ، وقالت ، كانت أم هذا منه تسعة أشهر في جهد جهيد) (٢٢) ، وكما في قصته مع اللهبان .

فهو يبدأ بالسخرية من عرفه ومن لم يعرفه ، بسبب ومن غير سبب ، ثم يروي سخريات الناس منه ويخص بالذكر ما أفحمه وأخجله وغاظه ، فالمرح من صميم طبعه ، والسخرية لا تفارق لسانه ، ولعل ذلك هو السبب الذي حمله على استعفائه من ديوان الرسائل أيام المأمون ، وجعله لا يطيق المكث فيه أكثر من ثلاثة أيام ، لأن من كان طبعه السخرية

---

٢١) رويت في هذه الرسالة سابقا .

٢٢) تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي ج ١٢ ص ٢١٦ مطبعة السعادة عام ١٩٣١ .

والفكاهة يتعذر عليه أن يجد نفسه تدفعه إلى الهزل، وأن يلقاه وطبعه يحثه على الانطلاق، وأن يجد أمامه الموقف الضاحك الساخر، ويحبس لسانه عنه، تحشما ووقارا، أو جدا وتزمتا.

ولأن التهكم عادته، والسخرية طبيعته، فإننا لا نجد مؤلفا من مؤلفاته العديدة خلا من السخرية، ونأى عن التهكم، بل إنه خصص للسخرية كتبا برمتها.

ومن قرأ للجاحظ يكاد لا يضم شفتيه، لتتابع ابتساماته المرحة، وضحكاته العريضة، (وهو بذلك يلتقي مع برنارد شو في فلسفته تلك، فقد كان يقول: إذا لم أضحك لم يستطع الناس احتمالي)[٢٣]. فكثيرا ما كان يخترع الملح، ويختلق الأسباب ليتهكم ويسخر فإن لم يجد من يسخر منه ذكر بعض حوادث ساخرة، أو سخر من نفسه.

وإخال الجاحظ كان يسير في أسواق البصرة وبغداد، يغمز هذا بكلمة، ويتناول ذلك بسخرية، يضحك من زي هذا، ويهزأ من شكل الآخر، ولو لم تكن له مكانته في الدولة وصلته في العلم والأدب، لتخيلت مجموعات من الشباب تسير في ركابه، وتصاحبه أينما سار، تنعم بفكاهاته، وتضحك من سخرياته، وتطرب لتلميحاته وتمليحاته، ذلك بما جبل عليه من طبيعة مرحة، وروح ساخرة، متهكمة بكل ما يقع تحت حسها، ويجول أمام ناظرها مما فيه مغمز، وبعد عن الذوق والعرف.

جبل أبو عثمان على الدعابة والسخر، وقلة الاعتداد بالتقاليد والعادات، والرسوم الاجتماعية التي يأخذ الناس بها أنفسهم، ويراعونها فيما بينهم، يرى فيها قيودا، وكبتا للحرية، ومجافاة للفكر الناضج، والنفس الطلقة، كما كان يمقت التعصب للجنسية والطائفية، ويحتقر التغالي في الآراء المذهبية[٢٤] ولا يحفل بسلب خصومه مآثره،

---

٢٣) بلاغة الكتاب، محمد نبيه حجاب ص ٢٠٠ المطبعة الفنية الحديثة.

٢٤) عصر المأمون / الدكتور أحمد فريد رفاعي ج ١ ص ٤٢٢، ٤٢٣ ط دار الكتب ط ١ سنة ١٩٢٧.

والسخرية والمداعبة

[illegible] ومقصده ، لسعة خلقه ولين جانبه وتواضعه ، وثقة بأنهم لن ينالوا منه ، ولـن يضعوا من رفيع قدره ، ومع ذلك لم يكن ماجنا خليعا ، بل كان ذا دينا عفيفا ، ولو كان فـي خلقه نقص ، أو في دينه رقة لا نتقاد [عليه] خصومه ، وحسدوه ، ومنافسوه ، لحرصهم على إطفاء ناره ، وإخمال ذكره ، والحط من قدره .

وقد كانت خبرته بالطبائع وأحوالها ، وبصره بنوازعها وتقلباتها ، وعلمه بأدوائهـا [لطول] خبرته ، وعمق حنكته ، وتعدد تجربته ، وكثرة أسفاره ، وامتداد عمره من الأسباب المهيئة التي جعلت السخرية طبعه ، والتندر ديدنه فجاءت سخريته سخرية الحاذق الصناع والخبير المجرب ، والماهر المدرب .

كان يعتبر السخرية والفكاهة من ألوان التعبير ، ويتخذ الضحك والإضحاك طريقـا إلى الإقناع والتدليل ، كما كانت السخرية عنده طريقا لنقل القارئ من فن إلى فن ، ومن جد إلى هزل ، ومن انقباض واكتئاب إلى مرح وسرور لتقبل النفس على الدرس بعد أن تستعيد نشاطها وتشتوق إلى مداومة القراءة الجادة ، كما كانت وسيلة إلى الجد وتلافيه ، وأسلوبا للتعلم والتثقيف يقبل عليه المرء في سرور وبشاشة ، ويتعلم أدق المسائل وهو يظن نفسه يلهو ويلعب ، كما تعلم أطفالنا من طريق القصص والأضاحيك .

أقبل الجاحظ على الدنيا ، وأحبها ، وضحك لها ، وتفاءل بها ، حتى إنه يضحك ويسخر ، إبان مرضه ، وألم قالبه جسمه ، ويأكل ما يضره ، ويزيد علته طمعا في الضحك وحبا للسخر ، وقد روى ذلك في قصته مع محفوظ النقاش[25] ، وسأروى هذه القصة في الفصل الأول من الباب الرابع .

كان الجاحظ مطبوعا على الخير ، مجبولا على الإحساس بالواجب ، يرى الأشياء كما هي كائنة ، ثم يراها كما يجب أن تكون ، فلا [يلبث] أن يجد في كل شيء نقصا ، ولا [يلبث] أن يجد في كل شيء باعثا على الأسى والأسف ، وداعيا الى النقد والمذمة ، فيكون غضبه

---

٢٥) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجري ص ٢٢٣، ٢٢٤ طبعة دار المعارف ، كتاب البخلاء من المواهب والجامع الجزء الثاني ص ٤٥، ٤٦ طبعة دار الكتب عام ١٩٣٦

أكثر من رضاه ، وحزنه أعم من فرحه)[٢٦]. لينبه على ذلك النقص بالتهكم والسخرية محققاً أهدافه في إصلاح الفساد ، وتقويم المعوج ، وفي تخفيف آلام نفسه ، وشفاء غيظ قلبه ، وفي إيلام الخصم والتنكيل به ، ثم في أجل أغراض حياته وهو اللهو والضحك والفكاهة .

وإذا كان بعض الناس يلزمه أن يقضي جزءاً من وقته في الترويح عن نفسه ، وإذهاب كلاله وسآمته ، وليمتع روحه وحسه بسماعه بالموسيقا والغناء ، أو بطرحه النظر متأملاً مباهج الطبيعة ، أو برسم مناظرها التي تروقه وتجتذبه ، أو بغير ذلك مما يحبه ويهواه ، وينسيه ألمه وشكواه ، ويجد فيه متعته وسروره ، فإن الجاحظ كانت تسليته الكلمة الساخرة واللذعة البارعة ، يجيدها ويتقنها ، ويحدد مراميها ، فإذا هي سهام مريشة تفجر الضحك من أعماق قلوب السامعين سخرية واستهزاء ، كما تفجر الألم في نفس المسخرة فتصميه وترديه ، ويبقى أبو عثمان بعد ذلك منشرح الصدر مثلج السريرة ، حيث أمتع نفسه ، ومارس هوايته وجرى مع فطرته وطبعه .

∴ ∴ ∴

٤ ـ مجتمعه وبيئته :

أ) بيئته العامة :

نشأ الجاحظ (يبيع الخبز والسمك بسيحان)[٢٧] ويختلف إلى كتاب القرية يتلقى مبادئ العلوم مع أمثاله من الصبيان ، وهذان مجتمعان يموجان بالنوادر ، ويحفلان بالأفاكيه والطرائف ، ويعتمدان على النكتة الساخرة والغمزة الضاحكة ، تنصب على الرفاق ، أو المشترين ، أو المعلمين ، أو غيرهم ممن يجاوز المألوف ، ويطغى على العرف .

فإذا انتقلنا إلى المجتمع الواسع ، والبيئة الرحبة في الدولة العباسية آنذاك ، وجدناها حافلة بكل شيء ، مليئة بكل عجيب ، مكتظة بشتى المتناقضات التي جمعت

---

٢٦) مطالعات في الكتب والحياة : العقاد ص٩٥

٢٧) معجم الأدباء : ياقوت الجزء ١٦ ص ٧٤ تحقيق د . أحمد فريد رفاعي .

وتراصت وتداخلت حتى لَتَحارُ العقول فى تمييزها ، وتكل الألباب وتعجز عن إدراك الحدود والقوانين فيها ، وإصدار الحكم الصائب فى حسنها أو قبحها ، فهناك الترف والسرف والحرية الفضفاضة البعيدة عن التزمت ، القريبة من الفوضى ، واطراح الحشمة ، ونبذ التقاليد ، والتحلل من التعاليم السامية ، والأخلاق الكريمة ، طرب وغناء ، وسمر ورقص واتخاذ الندماء والخلماء ، وعقد مجالس الأنس والفكاهة ، ودعوة الخلان إلى المجون والفسوق ، ومعاقرة الخمر ، والغزل بالمذكر ، ومعاملته معاملة الأنثى ، وذكر السوءات والعورات بصريح أسمائها دون خجل أو مواربة ، فقد طغت شهوات النفوس ، ونزعات العقول ، وخفت صوت العقل ، وخف زجر الدين ، وثارت الغرائز عارمة تعب من الحرام ، وتخضع للنزوات ، وترتكب كل إثم ، لا قانون يزجر ، ولا سلطان يروع ، ولا عقل يقنع ، هذا شأن الأثرياء الواجدين ومن يسيرون فى ركابهم لا شىء فى حياتهم إلا المتع الحسية أيا كان سبيلها ومهما كانت عاقبتها ، أما الشطر الآخر من المجتمع ، فقد انزوى فى قاع فقره ، وانكمش فى بردة إملاقه ، لا يجد ما يطعمه ، ولا يكاد يحظى بفتات الموائد فاحترف اللصوصية والشطارة ، وامتهن الدجل والشعوذة ، وعمد إلى الغش والسرقة ، والكذب والاحتيال وسلك فى الحياة سبيلا ليس بأقل اعوجاجا من سبيل الأغنياء المترفين ، أو لجأ إلى الزهد والعفة ، وقنع بالدون ، ورضى بمتع الباقية ، وصدف عن مباهج الفانية ، مرغما مكرها لأن الله لم يبسط له فى رزقه ، أو راضيا قانعا لوازع دينى ، وتقوى متمكنة فى نفسه ، تعدل به عن الموبقات والمحرمات ، وذلك عدد محدود لا يقاس بمن أطلق لشهواته العنان ، ولم يعد يفرق بين الحلال والحرام .

هذا المجتمع المتقلب ، المائج المضطرب ، المليء بالمتناقضات ، غنى فاحش وثراء عريض ، بجانب فقر مدقع وإملاق مقيت ، تقوى وزهد إلى جوار انحلال وفسق ، صلاح فى ثياب فساد ، وفساد فى إهاب صلاح ، مجتمع يثير العجب ، ويدفع إلى السخر ،

ترك فيه الجمهور الأكبر والسواد الأعظم ، التثبت عند الحكم ، والتوقف عند الشبهة ، وأهدرت القيم ، وضاعت المقدسات ، وقل ذكر الحلال والحرام ، واختلت الموازين ، وفسدت المقاييس ، واختلط الحسن بالقبيح والصالح بالطالح ، وانتشرت الزندقة ، وشاعت الخرافة ، وعم الفساد طبقات الأمة على اختلاف نزعاتها .

وإذا كان مبعث السخرية مجاوزة الإنسان حده ، ومجافاة طبعه ، وظهوره بغير مظهره ، وبروزه في غير سمته ، كما يكون لاجتماع الأضداد وتجاور المتناقضات ، والخروج من مألوف العقل السليم والاستهانة بالعادة السارية ، فإن مجتمع الجاحظ يحظى من ذلك بأوفى نصيب ، فقد جاوز أغلب ما فيه حده ، وزاد عن طبعه فصار موضوعا للذم والهزء يقول الجاحظ : (وأنا مبين لك الحسن ، هو التمام والاعتدال ، ولست أعني بالتمام تجاوز مقدار الاعتدال كالزيادة في طول القامة ، وكدقة الجسم ، أو عظم الجارحة من الجوارح أو سعة العين أو الفم مما يتجاوز مثله من الناس المعتدلين في الخلق ، فإن هذه الزيادة متى كانت فهي نقصان من الحسن وإن عدت زيادة في الجسم ، والحدود حاصرة لأمور العالم ومحيطة بمقاديرها الموقوفة لها ، فكل شيء خرج عن الحد في خلق أو خلق — حتى في الدين والحكمة اللذين هما أفضل الأمور فهو قبيح مذموم)(٢٨) وبهذا وضع الجاحظ قاعدة القبيح والمذموم ، الذي يسخر منه ، ويهزأ به ، وقد ملأت هذه القاعدة الباعثة على السخر عصر الجاحظ .

شهد كل ذلك عن قرب ، ورآه من كثب ، واتصل بهؤلاء وأولئك ، فإذا المجتمع كله مهيئ للضحك والإضحاك ، باعث على التهكم والسخر ، تمضية للوقت ، وتضييعا للملل ، أو استعانة على بأساء الحياة ، وخشونة العيش ، أو نهلا من متع الدنيا وإسعادا للنفس ، والجاحظ بما ركب في طبعه من لامية وتقصٍّ ، يلتقط النوادر ، ويحفظ الطرف ،

---

(٢٨) ثلاث رسائل ، الجاحظ ، نشر يوشع فنكل صفحة ٦٥ طبعة ثانية المطبعة السلفية سنة ١٣٨٢ هـ .

وتسمع الفكاهات ، ويصغى إلى الأحاديث الهازلة ، فيعجب فيها ويضع ، ويصل ويفصل ، فتنمو مواهبه فى فن السخر ، وتتسع مداركه ، ويتفاعل مع ما يسمعه ويراه ، فيولد الجديد وينسج العجيبة ويوشح كتبه بتلك المضاحيك ، وإذا هو كاتب ساخر ، وأديب متهكم وإذا الدنيا بأسرها تقبل على كتبه الساخرة ، ورسائله المتهكمة ، فترى ألوانا من المتعة الذهنية ، وأنماطا من الكتابة المبتدعة ، خلط فيها الجد بالهزل ، والعبوس بالضحك والسخرية اللاذعة بالسخرية الهادئة ، مما يشهد له بالحذق والأستاذية ، وعلو الكعب ، وسعة الذرع ، وقوة التأثير.

ب — بيئته الفكرية :

أما بيئته الفكرية فقد كان لها أكبر الأثر فى نمو السخرية عنده ، وحذقه لها ، وبراعته فيها منذ نشأته فى الكتاب مع رفاق الصبا ، وحين جلس مع المسجديين من أترابه فى حلقات تحتوى العلم والأدب ، كما تحتوى الظرف والتندر ، والسخرية من آراء تجانب الحق وتخالف الصواب ، وقد كانت تشيع بين رفقة الكتاب ، ورفقة المسجد مفاخرات الصبيان ومباهاتهم ، وغلوهم وادعاؤهم ، وما يتبع ذلك من تحقير بعضهم بعضا ، واللجوء إلى السخرية والتهكم ، والهزء واللمز ، كسلاح لتحقير الخصم وإذلاله ، وكثيرا ما يكون الجاحظ هدفا للسهام ، ونصبا للطعان باللسان ، يستغل فيه الرفقة دمامة شكله وبشاعة خلقه ، واستخفافه وعبثه ، فيسلقونه بألسنة حداد ،

والجاحظ — بما هو طبعه — لا يمكنه أن يقف فى هذه المواقف مكتوفا اليدين معقود اللسان ، وقد وهبه الله خفة الروح ، وبراعة المنطق ، وذلاقة اللسان ، وحضور البديهة فإن لم يكن هو البادىء ، فلا أقل من أن يرد السخرية بسخرية أنكى منها ، وأن يكيل الصاع صاعين ، فقد فطر على السخرية اللاذعة ، والضحك أيا كان ، ومن البدهى أنه كان يدلى دلوه ، ويصيب غربه ، ويفجرينا بيع سخريته ، فيغرق خصمه ، ويجعله بين

لداته هزأة .

ولما كبرت سنه قصد شيوخ البصرة (٢٩) والتفا في العلم والأدب ، ولزمهم ، ينهل من علمهم ، ويرتوى بأدبهم وفكاهاتهم ، فتأثرهم أيما تأثر وظهر ذلك في فكاهاته وسخرياته .

ومن شيوخ البصرة الذين ماكانوا يضيعون فرصة السخرية إن سنحت لهم ، ويخلقونها خلقا إن لم تأتهم طوعا ، أبو عبيدة معمر بن المثنى (٣٠) . وقد كان فكه المجلس مولعا بالتصريح والتلويح ، والتهكم والسخرية ومنهم إبراهيم بن سيار النظام (٣١) ، وكان مشهورا بالمداعبة والسخرية ، وقد لازمه الجاحظ ملازمة شديدة ، تركت أثرها في صفحات عقله ، ونزعات قلبه ، وآراء دينه . ومنهم ثمامة الأشرس (٣٢) . وقد نقل عنه الجاحظ كثيرا من أدبه كما كان أستاذه في المجون والفكاهة ، والنادرة اللاذعة (٣٣) . ومنهم أبو الهذيل العلاف إمام الاعتزال وكانت السخرية تشيع في أحاديثه . ومن أساتذته الذين يميلون أيضا إلى السخرية أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري (٣٤) . وأبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (٣٥) وأبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش (٣٦) وقد كان بارع النكته ، مشوه الخلق ، أجلع ، وطالت ملازمة الجاحظ له وصحبته إياه لتشابههما في الطبع والقبح (٣٧) .

ولقد تعددت في عهد الجاحظ الفرق الدينية ، وكثرت المذاهب ، وتنوعت النحل ، فكان منها ، الصابئة ، والرافضة ، والمرجئة ، والمانوية والزرادشتية ، والجبرية ، والثنوية ،

---

٢٩) معجم الأدباء ، ياقوت الجزء ١٦ صفحة ٧٥

٣٠) وهو بصرى ، وكان إماما في اللغة والأخبار ، توفى سنة ٢١١ هـ

٣١) أحد شيوخ المعتزلة ، وأستاذ الجاحظ في علم الكلام ، وكان بليغا مناقضا توفى بالبصرة سنة ٢٢١ هـ .

٣٢) من زعماء المعتزلة أوذى في أيام الرشيد ، لكنه استطاع في عهد المأمون أن يوجه سياسة الدولة وأن يصبغها بصبغة اعتزالية وأن يكون صاحب الكلمة الأولى في القصر وسياسته وتوفى عام ٢١٣هـ

٣٣) ضحى الإسلام الجزء الثالث ص ١٥ ، أحمد أمين طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦

٣٤) كان إماما في النحو واللغة والأدب والنوادر والغريب توفى عام ٢١٥هـ

٣٥) كان إماما لغويا أديبا بليغا توفى عام ٢١٣ هـ

٣٦) كان عالما نحويا شهيرا .

٣٧) سأضرب الأمثلة الدالة على ميل أساتذته للسخرية وافتنانهم فيها في الفصل الثاني من الباب السابع (المتأخرون في عصره وطائفة منهم) .

والدهرية والقدرية كما تعددت الطوائف ، ولكل مدرسة طابعها ، وطريقة تفكيرها ، وأسلوبها في تناول الموضوعات المختلفة منها ، مدرسة الرها ، ونصيبين ، وحران ، وجند يسابور .

وتنوعت الثقافة الوافدة من ، هندية ، ويونانية ، وفارسية ، إلى بابلية وفينيقية ، ومصرية ، ورومانية ، وأشورية ، وكلدانية .

وكثرت طوائف المثقفين في الدولة ، فكان هناك ، الشعراء ، والأدباء والكتاب ، والمترجمون والمنشدون ، والمغنون ، والندماء ، والمرفهون من الخليفة والأمراء .

هذه الثقافات المتعددة ، والنحل المتفاوتة ، والمذاهب المتضاربة ، والمدارس المتنوعة والطوائف المتباينة كان من المحتم أن تتعارك وتتصارع ، وينتصر كل فريق لرأيه ومدرسته ومذهبه ، فيشيع الهجاء ، وتنتشر السخرية ، ويكثر الهمز واللمز .

والهجاء من وسائل دفاع الطبقات التي لم تأخذ من الثقافة بقسط وافر ، ولم تستطع أن تهذب طباعها ، وتكبح جماح نزواتها ، فتندفع إلى السب المقذع ، والشتم الصريح أما السخرية فريسة الفكر المثقف ، والعقل الناضج ، والبيئة المتحضرة ، التي ترى في أبنائها الاتزان ، وامتلاك زمام الغضب ، والنيل من الخصم في هدوء ، وقتله دون أن تسيل منه قطرة دماء ، أو يؤاخذ قاتله بجريرته ، وإنما يشفي صدره النفس ، مثلج الفؤاد ، فيضحك ملء شدقيه على مقدار ما آل إليه السخرة وإدعه .

ولقد عرف الجاحظ مجتمعه ، وخبر طوائفه ، واشترك معها ، محبذا رأيا ، ومعارضا آخر مرة بالعنف والقسوة ، ومرات باللين والهوادة طورا بالهجاء اللاذع ، والذم المقيت ، وفي أغلب الأحيان بالسخرية المريرة والتهكم الممض ، فقد آمن (بحرية الفكر ، ولهج بها ، فلم يقلد غيره ، ولم يذب شخصيته في شخصية سواه ، ولهذا تهكم أشد التهكم بما لا يستسيغ العقل ، واعترض على كثير من العلماء والفلاسفة فيما لم يقتنع به)(٣٨).

---

(٣٨) الجاحظ ، أحمد الحوفي ص٤٨ دراسات في الإسلام العدد ٣٨

وكان في الهلم واطلاعه أثر ولى في ثقافته وأستاذيته ، وإذا كان المرء حاذقا مجيدا ، واسع الاطلاع ، متمكنا من مادته ، فهو أقرب إلى التهكم ، وأميل إلى السخرية ممن يبدو فيه انحراف ، ويظهر في سلوكه اعوجاج ، وقد يلجأ إليهما وقت فراغه ، ترويحا عن النفس ، وتخفيفا من ثقل الدرس ، وما كان كالجاحظ أحد في سعة اطلاعه ووفرة ثقافته ، وغزارة مادته ، (حدث أبو هفان قال : لم أر قط ، ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنا ما كان حتى أنه كان يكترى ، دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر)[٣٩] . وكان علمه لا يقف عند حد ، ويشهد بذلك قوله : (إذا سمعت الرجل يقول ، ما ترك الأول للآخر شيئا فاعلم أنه ما يريد أن يفلح)[٤٠] وقول أبي الفضل بن العميد (ثلاثة علوم الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة أنفس ، أما الفقه فعلى أبي حنيفة ، وأما الكلام فعلى أبي الهذيل وأما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة فعلى أبي عثمان الجاحظ)[٤١] .

وفي بلاط المتوكل على الله اتصل برجال تخصصوا في الهزل والفكاهة والسخرية (ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بني العباس ظهر في مجلسه اللعب والمضاحك والهزل ما قد استفاض في الناس تركه إلا المتوكل فإنه السابق إلى ذلك ، والمحدث له ، ففي بلاط المتوكل عرف الجاحظ أبا العبر الهاشمي ، وأبا العنبس ، والجماز ولعله عرف أيضا أبا العيناء الذي تربطه به صداقة متينة ، كما تشهد بذلك النوادر

---

٣٩) معجم الأدباء ، ياقوت : الجزء ١٦ ص٧٥ .

٤٠) معجم الأدباء ، ياقوت الجزء ١٦ صفحة ٧٨ .

٤١) معجم الأدباء ، ياقوت ، الجزء ١٦ صفحة ١٠٣

المسعودي في الكتب) (٤٢).

هذه البيئات الفكرية المتنوعة التي خالطها الجاحظ ، والمجتمع المائج المفعم بالمتناقضات الذي عاش فيه ، وما فطر عليه أبو عثمان من عشق للسخر ، وحب للدعابة والمرح وما رزأه الله به من قبح شكل وزرى هيئة ، وما ورثه من أمه وأسرته ، كان لها الأثر البالغ في نمو ملكة السخرية عنده ، والترقي بها إلى الحد الذي ضمن لها على مر الأجيال البقاء والخلود ، بعدها ، ذكاؤه ولماحيته ورهافة حسه ، ودقة ملاحظته ، وقدرته على عقد الروابط والصلات وخبرته بالناس وطباعهم ، وقدرته على الابتكار والإبداع وامتلاكه نواصي الكلام ، واستطاعته أداء الصورة المتقنة البارعة ، بالعبارة المناسبة التي تضيف إليها الألوان والظلال ، مما جعله أستاذ هذا الفن ، والمقدم فيه .

∴ ∴ ∴

---

(٤٢) مروج الذهب : المسعودي الجزء ٢ صفحة ٢٩١ كتاب التحرير تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد مؤسسة الطباعة لدار التحرير .

الفصل الثالث

علاقاته الاجتماعية وأثرها في سخريته

عاش الجاحظ في مجتمع يعج بالمتناقضات ، وينغمس أهله في حمأة الشهوات ، فارتكبوا المنكر جاهدين مجاهرين ، واندفعوا إلى الزندقة والإلحاد ، وأهدرت القيم وتجافت طباعهم عن كل حلال ، ووضعوا نصب أعينهم المال ، يجمعونه من حله وحرامه ثم يصرفونه فيما تأمرهم به شهواتهم التي تتحكم فيهم ، وتقودهم إلى تلك التهكة اللجس من الآثام ، أو يقبضون أيديهم عليه باخلين ، ويجعلونه عدل أنفسهم ممسكين ، متمسكين بالمثل الذي شاع بينهم "المال المال وما سواه محال "(١)، ويقول الشاعر أبو نواس

سأبغي الغنى إما جليس خليفة نقوم سواء أو مخيف سبيل

والجاحظ فرد في هذا المجتمع ، وعلم من أعلامه ، وأديب يرفع بيده مشعل الهداية ويحمل بقلمه لواء التوجيه ، وإمام ديني يقوم بمهام القيادة الدينية المعتمدة على الفكر والمنطق ، والسداد والإرشاد ، قد ركب في طبعه حب الناس على اختلافهم ثقة بهم ، مع تباينهم وتفاوت أقدارهم ، وتعدد نحلهم ، وعقدت بينه وبينهم صلات ، وتوطدت أواصر وعلاقات ، تبدأ ببائعي السمك وصياديه ومشتريه في سيحان ، وتمتد إلى رفقة الكتاب من أبناء القصابين وغير القصابين ، وتسير في خطها لتصل إلى عشاق اللغة والأدب في المربد ، وإلى القصاصين والإخباريين من المسجديين ، ثم ترتقي إلى شيوخ الاعتزال ، وأئمة الكلام والنحو واللغة والغريب والحكمة ، وتصل في النهاية إلى طبقة الوزراء والأمراء والخلفاء ، وهي بين هذا وذاك تلتقي بالطفيليين والموسوسين والحمقى والمتغفلين ، والشطار والباخلين ، والخلفاء والماجنين ، والمضحكين الساخرين .

---

(١) شرح مقامات الحريري للشريشي ٢ : ١٩٢ طبع بولاق .

فى سمت الحب ، والعقوبة فى هيئة المثوبة ، رأى كل شىء يلبس غير إهابه ، ويتزيى بغير زيه . فلأن طبعه مرح ، ونفسه سمحة ، لم يقف من هذه الظواهر موقف القانط اليائس، ولا المتبرم المبغض، لأنه كان يعرف النفوس ونوازعها ، والعقول ونوازعها ، فطغى المرح على اليأس، وأخملت الشفقة البغض، وإذا به يستعين بالسخر أداته السحرية التى تحول القنوط تفاؤلا ، والتبرم انشراحا ، وإذا هو يضحك ويتهكم منهما إلى الخطاء ، ويقوم المعوج فى لين ورفق كأنه لا يسخر ، وكأنه لا يقوم ، وذلك أشد أثرا فى الإصلاح ، وأبعد مرمى ، وأعظم افتتانا فى باب السخر ، وأرفع منارة فى فن الأدب ، أدب النفس، وأدب الإنشاء .

اتصل الجاحظ بأساتذته ، وقد كانوا شيوخ عصره ، ونوابغ زمنه ، وخلاصة جيله علما وأدبا ، ولازمهم طويلا ، وأخذ عنهم ، واقتدى بهم ، وكان السخر فيهم طبيعة وجبلة ، فأثرت المعاشرة ، وأثمرت المصاحبة ، ونضحت على الجاحظ فنونا وألوانا من ذلك النقد الأدبى اللاذع ، فاق به أساتذته وبذهم ، وأتى منه بالجديد الجيد والمبتكر المعجب ، تعددت ألوانه ، وتنوعت أنغامه ، فجاءت سخرياته سخريات الذهن المتوقد والنفس الحواتية ، والعقلية اللماحة ، والذوق المرهف ، والفكر الدقيق .

طالما ضحك مجتمع الجاحظ منه ، وسخروا من شوهته ، وتندروا ببشاعة منظره ، وثقل ذلك على نفسه وآلمه ، وكان من البدهى أن يقابل السخرية بسخرية أنكى ، وأن ينوع وسائلها ، ويجيد تصويبها ، وأن يكون للعيوب الجسمية فى سخرياته نصيب ليبين أن غيره أقبح منه فى شكله وصورته ، أو يشاركه قبحه ، أو يتصف بلون من ألوان القبح ، أو أن قبحه فى حركاته وإشاراته ، أو همساته وسكناته ، أو فى زيه وسمته ، أو فى أدبه وشعره . ومن هنا اتسمت سخريته بالوخز المؤلم ، واللذع السام والافتنان ، والتجسيم ،

الفصل الرابع

وضعه الثقافي والأدبي وصلة ذلك بسخريته

نشأ الجاحظ يتيما فقيرا في حجر أمه ، التي زجت به سيها إلى أتون الحياة القاسية ، يكسب قوتها وقوته من بيع الخبز والسمك في سيحان ، وكان خليقا بمن وضعه ألا يكون شيئا ، ولكن همة الجاحظ العالية ، ونفسه الطموحة (٢)، وعبقريته الوثابة ، أبت عليه إلا أن يكون جليس الوزراء والخلفاء ، ومفخر الأدباء والشعراء ، وأن يرتفع اسمه تاجا فوق هام الزمان ، ويطوق بأدبه وعلمه جيد العربية بقلادة من نور المعرفة يمتد سناها في أرجاء الوطن العربي الفسيح ، ويشع بريقها ، مخترقا الحدود والسدود ، ومبددا دياجير الظلمة في بلاد الغرب ، بل في كل مكان وصلته مؤلفاته .

ربى الجاحظ نفسه بنفسه ، على أتم ما تكون العصامية ، وأولع بالثقافة والأدب منذ طفولته ، فكان يذهب إلى الكتاب نهارا ، ويكتري دكاكين الوراقين ، ويبيت فيها للاطلاع ليلا ، وكان يغدو الذهاب إلى المربد يتلقى اللغة والأدب من الأعراب مشافهة ، ويغشى بالجلوس في حلق المسجديين ، يتزود بالأخبار ، ويروي ظمأه بالعلم ، ويشبع روحه بالفكاهة والنادرة ، ثم اتصل بموسى بن عمران (١) الذي كان فاتحة عهد جديد له حيث أزال منه شبح الفقر ، وفتح باب الغنى والجاه ، حين عقد الصلة بينه وبين أبي إسحاق النظام شيخ الاعتزال ، وعالم العلماء ، والذي كان يحفظ القرآن والإنجيل والتوراة والزبور وتفسيرها والذي وصفه الجاحظ بقوله : إن الأوائل يقولون في كل ألف سنة رجل لا نظير له ، فإن كان ذلك صحيحا فهو أبو إسحاق النظام فتتلمذ عليه الجاحظ ، وكلف به ، ولازمه

---

١) مويس بن عمران ، موسى بن عمران ، يونس بن عمران ، شخصية واحدة ، معتزلي من أصحاب النظام وصلته بالجاحظ قديمة حولت مجرى حياته وجعلته العالم الأديب المعتزلي - وكان - مويس والكذب لا يأخذان في طريق كما ذكر الجاحظ في الحيوان ج ٥ ص ٤٦٨

(٢) في تاج العروس : "امرأة طامحة" ... "وفرس طموح الطرف" أي مرتفعة الطرف ... "ما اجتمع منه ما ..."

الريش» ثم أسير على هذا حتى يأتى الله بالفرج ، فقال الرجل : الفرج ما أنت فيه !! فقال : بل أحب أن تكون الخلافة لى ، ويعمل محمد بن عبد الملك بأمرى ويختلف إلى ، فهذا هو الفرج)[٣] وأستبعد أن يعنى الجاحظ ما يريد ، أو يكون كلامه على سبيل الأمنية المثالية التى يمكن أن يجود بها الزمان ، وأ وافق كثيرا من أدبائنا الذين يقررون أن ذلك كان منه على سبيل المزاح [٤] حقا إن الجاحظ من أعظم كتاب عصره وأغزرهم إنتاجا وأحسنهم بيانا وأعلاهم همة وقد رفض التصدير فى ديوان الإنشاء !! أو ليس من أبرز أئمة الكلام فى زمنه ، ومن أشهر العلماء فى أيامه ومن أحب الناس إلى قلوب بنى وطنه ؟ ومن أكثرهم خبرة وتجربة ونفاذ بصيرة ؟ ومعرفة بطبائع النفوس؟ وهل فى زمنه وبعد زمنه من لم يتمن أن يكونه ؟ ! وقد يرى أن مقومات الوزارة لا تتوافر فى محمد بن عبد الملك الزيات أكثر من توافرها فى عمرو بن بحر الجاحظ ولكنه لا يجرؤ أن يمنى نفسه بالخلافة ودونها قطع الرقاب .

---

٣) تاريخ بغداد : الخطيب البغدادى : المجلد ١٢ صفحة ٢١٩ ؛
أدب الجاحظ : حسن السندوبى : ص٣٤ الطبعة الأولى سنة ١٩٣١ المطبعة الرحمانية
الجاحظ : جورج غريب الموسوع فى الأدب العربى ١٠ صفحة ١٧، ١٨ ط٥ دار الثقافة بيروت .

٤) منهم جورج غريب فى المرجع المذكور ص١٧

والعبث بالسخرة ، ورسم الصورة الهزلية له بتشويه خطوطها ومكوناتها ، والعبث بألوانها وظلالها ، وكشف العيوب وإن دقت ، ومواطن التشويه مهما خفت واستترت .

وحين علا نجم الجاحظ ، وطار ذكره ، ولمع اسمه ، عاش فى كنف الأمراء والخلفاء وعلية القوم ، وصارت قصورهم نواديه ومحط رحاله ، وليس فيمن يغشى ساحتها من المغنين والموسيقيين والعلماء ، والأدباء ، وأرباب الفكاهة والظرف من لاتصله بالجاحظ وشائج قوية ، وليس بين الجلساء من يتردد فى إلقاء طرفة ، أو رواية نادرة ، أو التعقيب على كلمة ، أو نقد رأى أو زى ، أو التهكم بخلقة قبيحة ، وشية مقيتة ، ورأى فطير ، فقد أطلقت النفوس على سجيتها ، وارتفعت الكلفة بين الصحبة ، وزالت الحجب ، واختفت الفوارق ، والجاحظ قطب هذه المجتمعات ، وحجر الزاوية فيها ، يدلى دلوه ويذكى شرارة السخر الكامنة فى أعماقه ، فيشتعل لهيبها ، ويعلو أوارها ، ويحرق شواظها من استهدف لها ، فتجىء سخرياته حذرة ، رقيقة ناعمة ، ممتزجة بثقافة عصره ، وسلاسة أدبه ، ودقة علمه ، مناسبة للمجتمع الراقى الذى تقال فيه ، بعيدة عن المهاترات ، مغلفة بطنه ، حتى لتبدأ التفكير فى مرماها بعد الانتهاء من إلقائها ، ولا تحصل على المعنى إلا بعد تأمل وتدقيق ، أو تخال الكلام ملقى على طبيعته ، لا يحمل فى أحشائه سخرية ، ولا يعدو مرمى ظاهر معناه ، وتلك غاية ما يرمى إليه الساخر ، ويتمنى الوصول إليه الأديب الناقد .

كان للجاحظ فى دولته وضع ممتاز ، غنى وافر وجاه عريض ، أموال طائلة وعطايا سابغة ومشاهرات متتالية ، وصداقات وطيدة لكبار رجال الدولة ، ومخالطة للوزراء والخلفاء تجعله فردا منعما ، وندا لهم ، وهمة عالية تطمع فى المزيد .

سئل عن حاله فقال : (سألتنى عن الجملة فاسمعها منى واحدا واحدا ، حالى أن الوزير يتكلم برأيى ، وينفذ أمرى ، ويواتر الخليفة الصلات إلى ، وآكل من لحم الطير أسمنها ، وألبس من الثياب ألينها ، وأجلس على ألين الطبرى ، وأتكئ على هذا

حتى أطلعه على علوم المعتزلة ، وخرجه أستاذا فى علم الكلام ، وصار زعيما دينيا معتزليا ، له طائفة تتبع مذهبه ، وتسمى باسمه (الجاحظية) ، فارتفع ذكره ، ونبه اسمه ، ووصل إلى الوزراء والخلفاء ، فأحلوه من نفوسهم محلًّا سريا ، وانتدبه المتوكل لتعليم أولاده ، وصدرهُ المأمون فى ديوان الرسائل ، وطلب منه أن يكتب فى العباسية والاحتجاج لها ، فكتب ، فأعجب به ، وأطراه ، وأجزل له العطاء ، فحسنت أحوله له وكثرت مؤلفاته ، وجرت الأموال فى يده ، وأصبح صاحب ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد ، مما أعطاه له محمد بن عبد الملك الزيات على إهدائه له كتاب الحيوان ، وما منحه ابن أبى دؤاد حين أهدى إليه كتاب البيان والتبيين ، وما أخذه من إبراهيم الصولى لأنه أهداه كتاب الزرع والنخيل ، وما كان له من مشاهرات تجرى عليه .

وفى كتاب الحيوان ، تتضح ثقافة الجاحظ ، وإلمامه بمعارف عصره ، وما سبق عصره ، واطلاعه على الثقافات الوافدة السائدة فى زمنه ، وهضمه لها ، واعتماده على المشاهدة ، والتجربة الذاتية ، والخبرة العملية ، وتظهر جرأته فى نقدها لا يسيغه عقله من الآراء ، ولو كانت لأرسطو صاحب المنطق ، أو لأستاذ من أساتذته كالنظام شيخ الاعتزال ، فيسخر منها ، وينبه على خطئها ، غير مبال بمكانة صاحبها ، فهو إنسان يهفو ويخطئ وليس صنما يجلس على عروش العصمة ، أو وثنا يحاط بمحاريب التنزيه ، أو طوطما تلتف حوله هالات الإجلال والتقديس ، بل هو لحم ودم يتعرض للخطل والزلل ، إجابة للتركيب الإنسانى فيه ، وما يكمن فى جبلته من دوافع ونوازع ورغبات ، ومطامع وانفعالات وشهوات

وفى كتاب البيان والتبيين ، ترى ثقافته العربية الأصيلة وتمسكه بها ، ورفع منارها ، يسجل فيه أصول البلاغة ، وتحديده معالم الفصاحة ، وبراعة فن الخطابة ، وجودة البيان ، ثم بحوث لغوية فى الحروف والألفاظ ، واللحن واللكنة ، ولا تفارقه فى صفحات كتابه السخرية اللاذعة ، والفكاهة المرحة ، والنكتة الضاحكة ، والوصف الرائع ، والخيال البارع ، والتصوير الفائق .

وفى بخلائه ، يفصح لنا من فلسفة عميقة ، وغوص فى قراءة النفس البشرية ، ووقوف على مواطنها وخلجاتها . وهو فى هذه الروائع وفى باقى كتبه ، وسائر رسائله ، التى تتناول شتى العلوم والمعارف الإنسانية ، يكون دائرة معارف غير مرتبة ، مثقف واسع الثقافة ، وعالم غزير العلم ، وباحث مجرب ، وأديب سلس الأسلوب ، جيد السبك ، وباحث ذهنى اعتزالى ، منطقى متحرر ، يستخدم العقل والدليل ، ويعتمد على الحجة والبرهان ، فى سماحة نفس ، وإشراق روح ، وبشاشة تأخذ بمجامع القلوب ، وسخرية قارصة ، ذات حبكة تهكم دقيقة ، تضحك القارئ ، وتنشطه ، وتدفعه إلى مزيد من الاطلاع والاستمتاع .

وثقافته العربية أخذها من الكتب التى عكف على قراءتها ، ومن المربد الذى طالما غشيه ، ومن شيوخها أمثال الأصمعى ، وأبى زيد الأنصارى .

وأتته الثقافة اليونانية من طريق علماء الكلام وحججهم ، ومثاقفة سلمويه ، وابن ماسويه ، وحنين بن إسحاق ، وشمعون الطبيب .

وحذق الفارسية وأجادتها وصلته من كتب ابن المقفع ، وأخذه عن أبى عبيدة وتوسع فى الثقافات كلها بما كان يقرأ من الكتب كلها .

وقد كانت العربية واليونانية والفارسية ينابيع الفصاحة والمنطق والحكم ، والتعمق والفخامة فى التأليف فى ذلك الزمان .

ويكفينا دليلا على رسوخ قدمه فى الأدب ، وعلو كعبه فى العلم ، وإحاطته بثقافات عصره ، وما سبق عصره ، شهادة الفضلاء له ، قال أبو الفضل بن العميد : (ثلاثة علوم الناس كلهم فيها عيال على ثلاثة أنفس ، أما الفقه فعلى أبى حنيفة ... وأما الكلام فعلى أبى الهذيل ، وأما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة فعلى أبى عثمان الجاحظ) (٢)

(٢) معجم الأدباء ، ياقوت ، الجزء ١٦ صفحة ١٠٣

وقال له ثابت بن قرة : (ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس، أولهم عمر بن الخطاب والثانى الحسن البصرى ، والثالث أبو عثمان الجاحظ ، خطيب المسلمين ، وشيخ المتكلمين ومدره المتقدمين والمتأخرين ...)[٣] . (وقيل لأبى العيناء : ليت شعرى أى شىء كان الجاحظ يحسن ؟! فقال : ليت شعرى أى شىء كان الجاحظ لا يحسن ؟!!)[٤]. (قال أبو محمد الأندلسى: رضيت فى الجنة بكتب الجاحظ عن نعيمها)[٥].

وقد لقب بالجاحظ غير واحد ، اكتسابا للشهرة ، وطلبا للمجد ، وخلود الذكر ، فأبو زيد أحمد بن سهل البلخى ينعت "جاحظ خراسان" .

وأبو حيان التوحيدى الذى سار على طريقة أبى عثمان يلقبونه "الجاحظ الثانى" .

وابن العميد الذى قيل إن الكتابة الفنية ختمت به نعت أيضا "الجاحظ الثانى" .

ومحمود بن عبد العزيز الفارضى لقب بهذا اللقب الحبيب "الجاحظ الثانى" .

وقد كان العلماء والأدباء يبحثون عن كتب الجاحظ ويلحقون فى اقتنائها والسؤال عنها ، ويصيحون فى مكة فى موسم الحج فى عرفات سائلين عمن يعرفها ، طالبين إحضارها كما فعل ابن الاخشاد .[٦]

كان من البدهى وقد تسنم الجاحظ مراقى المعرفة والثقافة ، نظريها وعمليها ، وقبض على زمام الفصاحة واللسن ، وملك بعقله الحجة والمنطق ، أن يكون أثيرا عند الخلفاء وأولى الأمر ، وأن يحل من نفوسهم محلا رفيعا ، ينبه شأنه ، ويخمل الكتاب غيره ويحتجن العطايا دونهم ، فتشيل كفتهم ، ويحسدونه على ما آتاه الله من فضله ، ويحقدون عليه ، ويدبرون له المهالك ، فيتهمونه فى دينه ، وفى خلقه ، ويمعتونه بالانحراف والزندقة

---

٣) المرجع السابق صفحة ٩٧ .

٤) جمع الجواهر ، الحصرى صفحة ١٦٥ .

٥) أدب الجاحظ ، حسن السندوبى صفحة ٧٦ الطبعة الأولى عام ١٩٣١ المطبعة الرحمانية

٦) معجم الأدباء ، ياقوت ، ج ١٦ صفحة

وكان حساده وشانئوه إذا علموا أن الكتاب من مصنفاته تلمسوا فيه العيوب والأخطاء، وتناولوه بالنقد والتجريح، والهجاء المر، والسباب الصريح، فإن كان له ونسبه إلى غيره من مشاهير الرجال مدحوه، وأطروه، وكالوا له الثناء، ورفعوه إلى السماك، إعجابا وافتتانا وإن كان قليل القيمة، رذل العبارة، وحتى هذا حقدهم، وكراهيتهم الجاحظ، وانبهارهم بالأسماء اللامعة، وعدم تمييزهم بين أسلوب وأسلوب، يروي الجاحظ ذلك في قوله: كنت أؤلف الكتاب الكثير المعاني، الحسن النظم، وأنسبه إلى نفسي، فلا أرى الأسماع تصغى إليه، ولا الإرادات تتيمم نحوه، ثم أؤلف ما هو أنقص منه رتبة، وأقل فائدة، وأنحله عبدالله بن المقفع، أو سهل بن هارون، أو غيرهما من المتقدمين، ممن صارت أسماؤهم في المصنفين، فيقبلون على كتبها، ويسارعون إلى نسخها، لا لشئ إلا لنسبتها للمتقدمين، ولما يداخل أهل هذا العصر من حسد من هو في عصرهم، ومنافسته على المناقب التي عنى بتشييدها.(١٠)

رأى الجاحظ كل هذا من حساده ومعارضيه، وعانى منه أشد المعاناة، وعرف أن نقدهم وعيبهم له ليس إلا من حقد وموجدة، وأنهم يريدون إطفاء ناره، وإنزال قدره، ولكنه كان على ثقة من عبقريته ومنزلته، مدركا أنهم لن يستطيعوا اقتفاء أثره، أو شق غباره، فضلا عن اللحاق به، ومساواته، فأطلقوا لا لسنتهم العنان، واتهموه ظلما وزورا ولم يملك الجاحظ بما ملكوه، وأبت عليه نفسه الكريمة، وهمته العالية، أن يتورط فيما تورطوا فيه، ورآهم أقل من أن يخاصمهم العداء، وأحقر من أن يرفع في وجوههم لواء الخصومة، ولكنه مع ذلك لم يقف مكتوفا لديهم، مكتوف اليدين، وإنما اختار الزجر والردع بما يناسب تفاهتهم، سلاحه في ذلك السخر اللاذع، والهزء والاستخفاف والتهكم القاتل، فتنفذ تصله في صدورهم، وسقاهم من كأس منونه ما تركهم به صرعى ضائعي الكرامة، ساقطي المروءة.

١٠) التنبيه والاشراف، المسعودي ص ٦٦ طبعة الصاوي سنة ١٩٣٨، رسالة فصل ما بين العداوة والحسد، الجاحظ ص ١٠٨، ١٠٩ من مجموعة رسائل الجاحظ لجنة التأليف والترجمة والنشر.

ولقد كان كثير من مشهوري الرجال ، ممن اتصفوا بالعقل والمنطق ، والفصاحة واللسن ، يسفون فى بعض الأحيان ، وينحدرون فى مهلة فكرية ، بحيث لا يقف على الصواب فيها غير المتخصص ، فكان الجاحظ يسارع إلى تقدّمهم ، ساخرا منهم ، ومصححا أخطاءهم ، وله مع صاحب المنطق جولات فى هذا الباب .

ولكثرة ما كتب الجاحظ ، ولسعة موضوعاته ، ولوقوفه على طوايا النفس البشرية وشح كتبه بالمضاحك ، وملأها بالنوادر والطرف ، وحشاها بالسخريات ، رغبة فى إرضاء قرائه ، وطرد الكلل والملل من نفوسهم ، ونقلهم من فن إلى فن ، ومن باب إلى باب ووضع على مائدة كتابه أطباقا شتى ، تتناول النفس منها الحلو والحامض ، والدسم والسهل ، وتمزج بين هذه الأنواع ، لتنشط النفس ، وتستعيد همتها ، وتتخلص من فتورها ، أو لتتناول منها كل شخص ما يلائم معدته ، ويقوى صحته ، أو لينتقى منها السر الطبق المفضل لديه ، والأثير عنده .

ولقد عاش الجاحظ أدباء ومثقفين ، غشوا مجالس الأنس واللهو ، ومالوا إلى الضحك وأغرموا بالسخر ، وفتنوا بالهزل ، ونشأت بينه وبينهم أواصر مودة ، وروابط صحبة وجمعتهم علاقات وطيدة ، من اتحاد المشرب ، واتفاق المنزع ، والإقبال على المرح والفكاهة والهزل والسخرية ، فحج الجاحظ معهم ، وجاراهم ، ونادمهم ، وللفكاهة والسخر فى هذا المجال رجال ، وفى الأدب والشعر رونق وجمال ، فكان الجاحظ فارس حلبتهم والمقدم فيهم ، وحامل الراية التى تلتف حولها فكون .

وكان الخلفاء والأمراء ، وذوو الشأن فى الدولة ، يميلون إلى الضحك ، ويحبون السخر ، يتخففون بذلك من متاعب الحكم ، وعناء الفكر ، وكانوا يحتفون بالمضحكين الساخرين ، ويقربونهم من مجالسهم ونفوسهم ، ويجزلون لهم العطاء ، وكانت للطرف النادرة ، والسخريات اللاذعة ، والمطارحات الهازلة صولات وجولات ، والجاحظ جليس الخلفاء ، والمقرب إلى الأمراء والوزراء ، بعد بيده الصناعة ، فيلتقف الشاردة

ويقتنص النادرة ، ويحبك سخرياته ، ويرسم صورها ، ويلونها بألوانها الزاهية التي تبهج النفس وتضحك الثكلان ، وتعبث بالمتهكم به وتجعله هزأة أهل المجلس ، يتوارى خجلا ، ويتقطع ألما .

ولقد كان للحياة الجاحظ الفكرية والأدبية صلة وثيقة بسخره فهو :

١- عربي ، يغار على العربية وأبنائها ، وينسب إليهم كل فضل ، ويرجع لهم كل تفوق وسبق ، فهم المبرزون في ميدان الخطابة ، والسابقون في معارج الشعر ، النابهون في الحكم ، الطابعون ، الأذكياء ، لذلك يعز عليه أن يرى فيهم ضعفا ، أو يلمس اعوجاجا ، فهو دائم النصح لهم ، ووضع اليد على عيوبهم ، وكثيرا ما كان السخر طريقه إلى ذلك .

٢- عالم ، من جلة علماء عصره ، محيط بمعارف زمنه ، خبير بنفوس مجتمعه ، يمتاز بالتحقيق والتدقيق ، والبحث والتنقيب ، وإجراء التجارب ، واستنتاج القواعد ، ولطف النظر ، وعدم التقيد بآراء السابقين أو المعاصرين ، يكره الجهل ، وخطل الرأي ، ويرشد إلى الصواب ، ويحث على التروي والتبصر ، بأسلوبه الساخر الهادف .

٣- مفكر ، بل أحد عمد الفكر في عصره ومصره ، خاض بحوره كلها ، واغترف منها جميعها تصارله رأيه الرصين ، ونظرته التي لا تطيش ، وقدرته على مواجهة الصعاب ، وحل المعضلات ، فهو يعمل دائما على تجنيب الزلل والخطأ .

٤- أديب الدولة العباسية ، بل أديب الأمة العربية ، رد للغة رونقها ، وأشاع فيها رواءها وبهجتها ، وملك زمام الفصاحة ، وقاد قوافل البلاغة ، فخضع له حرونها ، وذل عصيها وشرودها ، خبر مواطن الضعف فيها فنبه عليها وأماكن القصور فندد بها .

وكان السخر هو الضوء الأحمر الذى يشعله فى عيون الأدباء ، ليقفوا عند حدود اللغة

٥- كاتب ، رفيع الأسلوب ، فصيح الكلمة ، واضح العبارة ، حسن الأداء ، جيد السبك يتخذ الكلمة وسيلة لإبراز الفكرة ، وتخير السلوك ، وتقويم الشذوذ .

٦ـ معتزلي ، رئيس طائفة الجاحظية من المعتزلة ، مدافع عن مذهبه ، ومناضل عن رأيه ضد تيارات كثيرة ، وأهواء متعددة ، بحجج قوية ، وأدلة ساطعة ، تلزم المعارض الخضوع والاقتناع ، وتتركه هزأة بين الأهل والأتباع .

٧ـ ناقد موجه ، يرى العوج فلا يسكت عليه ، والخطأ فيسارع إلى تصويبه ، والفساد فيهدمه بمعول الإصلاح ، والشذوذ فيجعل السخر لجامه .

فإذا كان هذا هو وضع الجاحظ الثقافي والأدبي ، عروبة ، وعلم ، وفكر ، وأدب ، وخطابة ، واعتزال ، ونقد ، وترجمة ، وكانت هذه حياته وكلها تتصل بالتقويم والتهذيب ، بعرق عريق ، وبسبب من الإصلاح والتوجيه وثيق ، وتحث على الصواب ، وترك الاعوجاج ، وتكشف العيوب أمام أصحابها أو تفضحهم على ملأ الأشهاد ليرتدعوا ويرعووا ، فلا عجب أن نرى التهكم يشيع في كلماته ومؤلفاته ، والتصوير الساخر يوشح كتبه ورسائله ، يتخذ ذلك وسيلة للتقويم والتعليم ، أو الإحماض ، أو التخفف من عناء الدرس ، أو توشيح الكتب والرسائل ، أو إزهاق الباطل ، أو إذلال الخصم ، أو غير ذلك من الأغراض التي يشهر السخر سلاحا يحققها به ، فإذا هي منقادة له ، ذلولا تحت وطأة ضرباته .

وأخيرا ، فقد عرف الجاحظ قدر نفسه ، وعلو شأنه ، وتفوقه على معاصريه ، وقاس نفسه بغيره ، فوجد البون شاسعا ، والهوة سحيقة ، فسخر منهم ، وهزئ بهم ، وتندر من تخلفهم وهبوط همتهم ، إذ إن السخر مظهر من مظاهر الإحساس بالرفعة ، وضرب من ضروب التعبير عن العلو والسموق .

الباب الثالث

موضوعات السخرية في أدبه

تمهيد :

عاش الجاحظ فى مجتمعه بعين الخبير النقادة ، وفكر الفيلسوف الحكيم ، وروح المرح الطروب ، فلمحت عينه النقادة كل عيب ، وامتدت بصيرته الوقادة إلى كل نقص ، ووقفت روحه البسامة على كل عوج وانحراف ، فاستمسان على عيوب الناس ونقائصهم ، وعلى أعباء الحياة وشدائدها بالضحك والسخرية للتقويم والتهذيب ، وللتخفيف والترويح ، وأباح لنفسه التندر بالأصدقاء ، والسخرية من الأشباه ، فسجل غرائبهم ، وشاذ أطوارهم وسجل أقوالهم ، وبرز دون أعمالهم ، وجبَّه منهم من شاء ، وسلط عليه الأضواء ، فكشف عواره ، وجلاه بسوط سخره ، غير عابئ بلومهم له ، وتشنيعهم عليه ، فإن براعة يراعه ، ونصاعة بيانه ، وعزة برهانه ، ولذعة سخره ، ترد عنه كيد الكائدين ، وسطوة المهاجمين ، وتقف ترسا بينه وبينهم ، تتكسر عليه سهامهم ، أو ترتد ثانية إلى نحورهم .

ولم تقتصر سخريته على الأصدقاء والمخالطين ، وإنما امتد أفقها ، وانفتح مجالها فشملت من عرفهم ، ومن سمع بهم ، ومن قرأ لهم ، بعضهم يصرح باسمه ، وبعضهم يستره ويكنه ، يقول فى ذلك : (ولسنا من تسمية الأصحاب المتمكنين ولا غيرهم من المستورين فى شئ ، أما الصاحب فإنا لا نسميه لحرمته وواجب حقه ، والآخر لا نسميه لستر الله عليه ، وما يجب لمن كان فى مثل حاله ، وإنما نسمى من خرج من هاتين الحالين ولربما سمينا الصاحب إذا كان ممن يمازح بهذا كثيرا ، ورأيناه يظرف ، ويجعل ذلك الظرف سلما إلى منع شيئه)(١).

سخر من كل تصرف غريب ، ومن كل قول عجيب ، وهزئ من جاوز حده ، وخالف مجتمعه ، طمعا فى رده إلى نصابه ، وإرجاعه إلى قرابه ، أو رغبة فى التسلية والمرح ، والترويح عن النفس ، وقد انفسح مجال السخرية أمامه ، وتعددت موضوعاته ، واملأ مجتمعه

---

(١) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجرى صفحة ٥٧ .

بأنماط من الناس، وألوان من السلوك ، وأشتات من المذاهب تدعو إلى السخرية وتحض على التهكم ، فتناول الجميع ساخرا متهكما ، تناول العلماء والفقهاء والقصاص والرواة ، والمعلمين والمفسرين والمحدثين ، والحمقى والمغرورين ، والمحملين والمبالغين والمتطفلين والمخرفين والموسوسين والمغفلين ، ومن قبح شكلهم وساءت خلقتهم .

جعل موضوعات سخريته كل من فيه عيب ، ومن الذى يخلو من عيب ؟! تناول الجميع بسخره ، وتناول نفسه فيمن تناول ، مدفوعا إلى ذلك بطبعه الفكه ، ونفسه الراضية ، وفطرته الساخرة ، وما يجده فى مجتمعه من تنافر وتضاد ، وأوضاع مقلوبة ، ولا يمكنه — وهو المجبول على النقد ، المطبوع على السخر أن يترك هذه العيوب دون أن ينبه عليها فى غمز وخز .

فلا عجب أن وجدنا تيارا لسخرية يجرى فى كل كتاباته ، وينتشر فى جميع ما أثر عنه ، وما روى من أقواله ، ولو كان الموضوع جدا ، أفكاره عميقة ، يحتفى بالأدلة ويعتمد على البراهين ، أو دينيا كتفسير آية ، وشرح حديث ، بل لقد أفرد للسخرية رسائل كرسالة التربيع والتدوير .

وقد تناول بسخرياته شتى الموضوعات ، ومتنوع الخصال ، وغريب الأوضاع ، ومن أشهر هذه الموضوعات التى دارت عليها سخرياته :

⁂ ⁂ ⁂

وإن كان معديا منفرا كالجذام والقئ والبرص والجرب ، أشعر الإنسان بالنفور والتقزز وأبعده عن السخرية والتهكم .

وإن كان مرعبا مفزعا ، كاتساع الحدقتين ، وضخامة اليدين ، وتشويه الوجه من أثر حريق مثلا ، فإنه يبدو مخيفا ، باعثا على الهلع وذلك بقبض النفس ، ولا يحدث السخر الذي أساسه هدوء النفس ومرحها .

فإذا كانت نفسية الإنسان مشفقة أو متقززة أو فزعة من موضوع معين ، فإن السخرية منه محال ، لأننا لا نسخر إلا إذا كانت نفسيتنا مستريحة ، أو منفعلة انفعالا بسيطا ، لا يعرضها للأذى ، ولا يصرفها إلى الألم ، ولا يقبض انبساطها ، أو يمنع هدوءها ، أما إذا كان العيب الجسمى ضئيلا غير ضار ، أو يمكن تلافيه ، فإن السخر يبرز ويتضاعف ، كالمشية المتموجة ، وكالتشدق فى الكلام .

على أن السخرية من التشويه الخلقى لا توجد إلا فى المجتمعات البدائية ، التى لم تنل قسطا وفيرا من الحضارة ، ولم يتهذب سلوكها ، ولم تستطع ضبط انفعالاتها ، فتتخذ من آلام الغير ، وما لا دخل له فيه وسيلة للهزء والاستخفاف .

وقد يضحك المجتمع الراقى من هؤلاء المشوهين ، ويسخر منهم ، ولكن ليس ضحكه وسخره من عاهاتهم ، وإنما من سلوكهم المضحك ، وادعائهم ما ليس فيهم ، كأن يبدوا القزم فى سمت العملاق ، والبطين فى صورة الضامر الخصر ، والمشوق القوام ، والأعمى فى هيئة حاد الإبصار ، ويباهى مشوه الخلقة بجمال طلعته ، وبهاء صورته .

وإذا كان الحال كذلك فى السخرية من الخلقة ، ولا حيلة للمرء فيها ، ولا يستطيع لها تغييرا أو تبديلا ، والموقف أقرب إلى الرثاء والرحمة ، أو الخوف والفزع ، أو النفور والتقزز ، منه إلى السخرية والتهكم ، فما بالك بالزى المخالف ، والبزة الشاذة ، والسمت الغريب ، مما يختاره الإنسان وينتقيه ، ويستطيع تغييره وتبديله ، ونظرتنا إليه عقلية محضة

بعيدا عن الانفعال الحاقد ، إن النفس لا تملك إلا أن تسخر من ليس قبيحة وسروالا وأطال لحيته وحمل في يده مظلة وشى حافي القدمين ، فبدا في هيئة غريبة ، ومظهر مضحك .

من هذه الأنماط نماذج متعددة ملأت عصر الجاحظ فكتب عنها ، وسخر منها . يقول (وكان إذا أكل ذهب عقله ، وجحظت عينه ، وسكر وسدر وانبهر وتربد وجهه ، وعصب ولم يسمع ، ولم يبصر)[٣] ويقول في السخرية من هيئة رجل لم تعجبه : "(كنت مجتازا في بعض الطريق فإذا أنا برجل قصير بطين كبير الهامة طويل اللحية ، وبيده مشط يمشطها فقلت في نفسي ، رجل قصير بطين ألحى ! فاستزريته ، فقلت أيها الشيخ ، قد قلت فيك شعرا ، فترك المشط من يده وقال ، قل فقلت :

كأنك صعوة في أصل حش أصاب الحش طش بعد رش)[٤]

ولقد أنشأ الجاحظ عملا أدبيا متكاملا في السخرية من هيئة أحمد بن عبد الوهاب والمستهزأ فيه من عيوب جسمية ، وهو رسالة (التربيع والتدوير)[٥] يقول الجاحظ (كان أحمد بن عبد الوهاب مفرطا القصر ، ويدعي أنه مفرط الطول ، وكان مربعا وتحسبه لسعة جفرته ، واستفاضة خاصرته مدورا ، وكان جعد الأطراف ، قصير الأصابع ، وهو في ذلك يدعي السباطة والرشاقة ، وأنه عتيق الوجه ، أخمص البطن ، معتدل القامة ، تام العظم وكان طويل الظهر ، قصير عظم الفخذ ، وهو مع قصر عظم ساقه ، يدعي أنه طويل الباد رفيع العماد ، عادي القامة ، عظيم الهامة قد أعطي البسطة في الجسم ، والسعة في العلم ، وكان كبير السن ، متقادم الميلاد ، وهو يدعي أنه معتدل الشباب ،

٣) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجري صفحة ٧١

٤) تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي ، الجزء ١٢ صفحة ٢١٦ وقد سبقت في الرسالة

٥) سأتناول هذه الرسالة بالدراسة في الفصل الأول من الباب الرابع .

حديث الميلاد)[٦] وفيها يخاطبه قائلا : (فأنت المديد ، وأنت البسيط ، وأنت الطويل وأنت الوافر ، وأنت المتقارب ، فيا شعرا جمع الأعاريض ، ويا شخصا جمع الاستدارة والطول .. .. .. إن استفاضه عرضك أدخلا الضيم على ارتفاع سمكك ، ولئن ما ذهب منك عرضا قد استغرق ما ذهب منك طولا ، ولئن اختلفوا في طولك لقد اتفقوا في عرضك)[٧]

ويظهر هنا الدليل على ثقافة الجاحظ ، ورقة خلقه ، ورقا هية عصره ، وثقافة بيئته لأنه لم يسخر من العيوب الجسدية كما يفعل من لم ينل قسطا وافرا من ضروب المعرفة ، وإنما سخر من ادعاء ابن عبد الوهاب ما ليس فيه ، وظهوره في غير شبابه ، وقد رأينا الجاحظ يؤكد ذلك بتكرار كلمة (ويدعى) ، كان كذا ويدعى كذا . وكما رأينا في قصة الرجل القصير البطين فإن مبعث سخر الجاحظ منه ادعاؤه الرشاقة ، واتخاذه لحية تزيده جمالا ، واعتناؤه بتمشيطها .

وقد بحثت كثيرا في مؤلفات الجاحظ ، لأحصل على سخرياته من العيوب الجسدية فوجدتها قليلة نادرة ، تكاد لا تعد على أصابع اليد الواحدة ، حتى الرسالة التى أنشأها للسخر خاصة كان حديثه فيها عن العيوب الجسمية ضئيلا ، وانصب معظمها على النواحى الفكرية والعلمية ، ولعل ذلك لأنه :

١ـ كان مشوه الخلقة ، فكان يكره الحديث في هذه الناحية حتى لا تتألم نفسه الجريحة وحتى لا يفتح على نفسه أبوابا من الهجاء والتشنيع ما كان أحراه أن تظل موصدة حتى لا يلجها خصومه وما أكثرهم .

٢ـ كان مثقفا متحضرا ، ومن شأن المثقف المتحضر ـ كما قدمت ـ أن لا يمعن في السخر من عيوب خلقية لا دخل لصاحبها فيها ، ولا يمكنه تقويمها وعلاجها .

٣ـ ولأنه صاحب الفكر والمنطق ، ورجل العلم والأدب والثقافة الواسعة ، فقد كانت نظرته للثقافة والعلم والأدب على أنها المقياس الصحيح الذى يبين مقادير الرجال ، ويرجح كفتهم ، أما المال أو الجمال ، فإنهما فى الدرجة الأخيرة ، أولا يعتد بهما فى ميزان الفضائل .

---

٦) مجموعة رسائل الجاحظ صفحة ٨٢ طبعة ساسي طبعة أولى مطبعة التقدم .

٧) المصدر السابق صفحة ٨٧ ، ٨٨ .

الفصل الثانـــــى

غرابـة الطباع والأخــــــــــلاق

عج المجتمع العباسى بمن شذت أخلاقهم ، وغربت طباعهم ، وبعدت عن العرف تصرفاتهم فانغمسوا فى مرذول العادات ، ومستهجن الأخلاق ، مستغلين الحرية الفضفاضة المتاحة لهم ، والتى تمتد إلى ما لا نهاية حتى تلتقى بالفوضى والإباحية ، آمنين بطش القانون الذى يؤاخذه ، ولم يعدم المجتمع طبقة من المصلحين ، الغيورين على الخلق ، المحافظين على كيان الأمة ، وقفت فى وجوههم ، وأخذت على أيديهم ، وجعلتهم محطا للنقد ، ومثارا للسخط ، كان على رأسها أديب الأمة الفذ الذى سخر أدبه لخدمـــة العرب ، وناقدها المرهوب الكلمة ، الموهوب الأسلوب "الجاحظ" الذى أدخلهم أتـون هزئه ، وتخذهم وقود السخرية ، فجسم عيوبهم ، ليروها فى مرآة ضما ئرهم ، ومثلها أمامهم ، ليلمسوها فى نفوسهم ، وليعلموا بشاعة ماركب فى طباعهم ، وغرس فى أخلاقهم ولعل نفوسهم تشعر الزجر والردع ، وتنير الطريق لهم ، لينهجوا الطباع السليمة ، والأخلاق القويمة ، ويترسموا خطاها ، فتحدث ساخرا من بخلهم ، وتطفلهم ، وجبنهم ، وخوفهم ، وكذبهم ، ومبالغاتهم ، وإهمالهم ، وشرههم وطمعهم ، واحتيالهم ، وخفتهم وتصلبهم ، وتناول بحاد لسانه سائر طباعهم المقوتة ، وأخلاقهم المضحكة ، بالنقد والتجريح ، وامتلأ بها أدبه ، وحفلت سخريته .

وسأتناول أشهر هذه الطباع ، وأبرز تلك الأخلاق ، وأعرض بعضا من سخريات الجاحظ منها ، وتهكمه بها ، وهزئه بأربابها .

١ـ البخل :

يهجس فى خاطر البخيل أن الناس تريد إفقاره ، وتتمنى زوال نعمه ، وتحتال عليه لتستلب أمواله ، فلا يريد أن يسلم على أحد ، ولا أن يكلم أحدا ، ولا يطلب منه إنسان شيئا ، أو يعرض بطلب شئ إلا ضاق صدره ، وبهرت أنفاسه ، ودارت عينه ، كالذى

يخشى عليه من الموت ، فهو خائف وجل دائما ، يعتقد الشر فى جميع الناس ، فهل أن يختبرهم ، ويعرف طوايا هم ، فهو فى حرب مع نفسه وأهله وبيئته ، ومع الناس جميعا ومع الحياة وتقلباتها ، والأيام ومتعها ومنحها .

والسخرية من البخيل تأتى من استعظامه التافه الحقير أو من فخره الكاذب ، وادعائه الباطل ، أو من تعليله لتصرفاته تعليلا يصفها بالكرم والجود ، أو بالحزم والتدبير أو من تدقيقه المبالغ فيه ، واهتمامه المجاوز الحد ، حتى لا يبقى شيئا دون أن ينتفع به على أكمل وجه ، ثم ينتفع بما تبقى ، ثم بما تبقى حتى لا يبقى شئ دون استغلاله ، والاستفادة به ، وهذا الحرص لا يوصله كما يظن إلى ما يبغيه من راحة وطمأنينة ، وإنما يوصله إلى القلق المستمر على ماله ، وحرمانه من متع الحياة ، وإهدار كرامته بين معارفه ، والسخرية منه لشدة جشعه ، مع إعمال حيلته ، ودوام يقظته .

فما فطر عليه البخيل ، والتصق بطبعه وجبلته ، تلمسا لعلل وما يخاله براهين يرد بها على متهميه بالتقصير ، وهو فى ذلك فطن لبق ، يعمد إلى المنطق الخادع ، والسفسطة والمغالطة ، يوحى إلى الناس أنه كريم ، إلا أنهم يريدونه مبذرا ، ويوهمهم أنه سخى لكنهم لا يحبونه إلا مسرفا متلافا ، يريد أن يخدعهم عن حقيقته ، وبخلية نفسه ، فإذا هو المختول المخدوع ، وإذا الناس يعرفون حقيقته ، ويقفون على سره .

ولقد كثر البخلاء فى عصر الجاحظ ، وامتلكوا الثروات ، وتحكموا بأموالهم فى المجتمع ولعل السر فى كثرتهم ، وانتشارهم ، نشوء طبقة من التجار فى البصرة وبغداد وباقى الحواضر ، وهذه الطبقة اقتنت سريعا ، وامتلكت الأموال بعد فقره فعرفت قيمة الدرهم فحرصت عليه ، وشحت به ، ثم إن ربح التاجر الدانق والدانقين ، وهو يبذل جهده من أجل ذلك فما أحراه أن يضن ويبخل . يقول الثعالبى « ومعلوم أن البخل والنظر فى الطفيف مقرون بالتجارة ، والتجار هم أصحاب التربيح والتكسب والتدقيق »(١)

---

١) ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب ، الثعالبى ، صفحة ٩

غاص الجاحظ فى باطن البخيل ، وعرف طويته ، وخبر سريرته ، وما يعلل به نفسه من الآمال العراض حين يجمع المال ، وما يحسن لنفسه من البخل ودواعيه ، مدعيا أنه الصلاح والحزم والاقتصاد ، وأن عدم إنفاقه المال إنما هو تدين وورع ، فتهكم به ، وعرف كيف يسخر منه ويحقره .

ولقد سبق الجاحظ فى الكتابة عن البخل الأصمعى وأبو عبيدة وأبو الحسن المدائنى ولكن كتابتهم كانت تأخذ طريق السرد القصصى ، ولا يتعمق فيها صاحبها بالتأملات ، والغوص فى أعماق النفس ، وتحليل البخل ، والحركات النفسية التى تداخل البخيل كما فعل الجاحظ ، ذلك لأنه (مولع بهذا النوع من البحث والتتبع للحالات النفسية الخفية ، وتبيين الحركات الشعورية المختلفة ، وملاحظة الصلات بينها وبين الحركات والسمات الظاهرة ، من كلمة عابرة ، أو إشارة طائرة ، أو لفتة سريعة معجلة) (٢).

ولقد أفرد للبخل كتابا خاصا من مؤلفاته ، هو كتاب البخلاء ، الذى أطلعنا فيه على تصرفات البخيل ، وما يحسن لنفسه من البخل ودواعيه مدعيا أنه الصلاح ، فتهكم به وعرف كيف يسخر منه سخرية لاذعة يحقره ، ويأخذ بأكظامه ، فالدرهم عنده يساوى دية مسلم إذ (الدرهم عشر العشرة ، وإن العشرة عشر المائة وإن المائة عشر الألف وإن الألف عشر العشرة الآلاف ، أما ترى كيف ارتفع الدرهم إلى دية مسلم) (٣)

وكيف يخرج الدرهم من حرزته ، ويوصف بعد ذلك بإيمان أو صلاح ، وقد طرد من جبينه وبيته دلالة الإسلام وقاعدته الأولى ؟ (إن البخيل يستنكر ذلك ويقول ، والله إن المؤمن لينزع خاتمه للأمر يريده ، وعليه حسبى الله ، أو توكلت على الله ، فيظن أنه قد خرج من كنف الله جل ذكره حتى يرد الخاتم فى موضعه ! ، وإنما هو خاتم واحد ، وأنا أريد أن أخرج فى كل يوم درهما عليه الإسلام كما هو !! إن هذا العظيم !) (٤)

---

٢) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجرى صفحة ٥٠ المقدمة .

٣) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق العوامرى والجارم الجزء الثانى صفحة ٨٦

٤) المصدر السابق الجزء الأول صفحة ١٦ .

وقد يصل البخيل بتدقيقه وتقتيره إلى تتبع طعامه بالعد والوزن ، ومداومة التأكد من سلامته ، وبعده عن الأفواه ، وتطول مراقبته زوجته وأولاده وخادمه ، ويسد السبل أمامهم وأخذ العهود والمواثيق عليهم ، ألا يقربوا طعاما لم يبحه لهم ، فإن داخله الشك ، أو ثارت في نفسه ريبة ، نصب لهم الشراك ، واتخذ صنوف الحيل ، حتى يوقعهم في حبائله وكثيرا ما تكون هذه الحيل خارجة على المألوف مغربة نادرة ، تثير الضحك ، وتؤدى إلى الاستهجان والسخرية ، بل إلى الاشمئزاز والنفور.

ويروى الجاحظ لنا صورة ساخرة لتمار (كان غلامه إذا دخل الحانوت يحتال ، فربما احتبس ، فاتهمه بأكل التمر ، فسأله يوما فأنكر ، فدعا بقطنه بيضاء ، ثم قال : امضغها فمضغها ، فلما أخرجها — وجد فيها حلاوة وصفرة . قال : هذا دأبك كل يوم وأنا لا أعلم ، اخرج من دارى) (٥).

ويروى لنا صورة أخرى أشد بخلا ، وأكثر تنفيرا للنفوس ، فى أسلوب ساخر لاذع ، يفضح الشح ، ويبين كيف يبلغ بصاحبه مداه يقول : (كان عندنا رجل من بنى أسد ، إذا صعدا بن الأكار إلى نخلة له ليلتقط له رطبا ملأ فاه ماء ، فسخروا به ، وقالوا له : إنه يشربه ، ويأكل شيئا على النخلة ، فإذا أراد أن ينزل بال فى يده ، ثم أمسكه فى فيه ، والرطب أهون على أولاد الأكرة وغير الأكرة من أن يحتمل فيه أحد شطر هذا المكروه ، ولا بعضه ، قال فكان يملأ فاه ماء أصفرا وأحمر أو أخضر لكي لا يقدر على مثله فى رؤوس النخل) (٦).

ولا يملك المرء أمام مظاهر البخل الشديد التى رسمها الجاحظ ، وسخر منها ، وتهكم بها ، إلا أن يضحك ويضحك ، ويشارك الجاحظ سخريته وتهكمه بذلك الشحيح ، الذى يفزع عند سماعه لفظ الكرم ، ويموت فرقا إذا ذكر أمامه الإنفاق أو الإطعام ، وهو مسح ذلك يدعى الأريحية والسخاء ، والبذل والعطاء ، وأنه يجد الراحة والسرور فى أن يهب أخاه شطر ماله ، يقول : (كان عندنا رجل مقل ، وكان له أخ مكثر ، وكان مفرط

---

٥) المصدر المذكور الجزء الثانى صفحة ٩٥ .

٦) المصدر المذكور الجزء الثانى صفحة ٦٠

البخل شديد النفج ، فقال له يوما أخوه : ويحك ! أنا فقير معيل ، وأنت غنى خفيف الظهر ، ولا تعيننى على الزمان ، ولا تواسينى ببعض مالك ، ولا تنفق لى عن شيء ، والله ما رأيت قط ، ولا سمعت بأبخل منك . قال : ويحك ، ليس الأمر كما تظن ، ولا المال كما تحسب ، ولا أنا كما تقول فى البخل ، ولا فى اليسر ، والله لو ملكت ألف ألف درهم لوهبت لك منها خمسمائة ألف درهم . ياهؤلاء ، فرجل يهب ضربة واحدة خمسمائة ألف درهم ، يقال له بخيل ؟) (٧).

وربما انتقل البخل لطول ملازمة أهله إلى حيواناتهم ، وطيورهم ، تأخذه بالتلقين وحذقته بالتدريب والتعليم ، واكتسبوه بطول العشرة ، ودوام الصحبة ، فصار فى جبلتهم طبعا . قال الجاحظ ساخرا من أهل مرو : (لم أر الديك فى بلدة قط إلا وهو لاقط ، يأخذ الحبة بمنقاره ، ثم يلفظها قدام الدجاجة ، إلا ديكة مرو ، فإنى رأيت ديكة مرو تسلب الدجاج ما فى مناقيرها من الحب . قال : فعلمت أن بخلهم شيء فى طبع البلاد وفى جواهر الماء ، فمن ثم عم جميع حيواناتهم (٨).

والرغيف عند البخيل عدل نفسه ، وعدل عرضه ودينه بل هما أهون عليه منه ، (ولأن يطعن طاعن فى الإسلام أهون عليه من أن يطعن فى الرغيف الثانى ، ولشق عصا الدين أهون عليه من شق رغيف ، لا يعد الثلمة فى عرضه ثلمة ، ويعدها فى ثريدته من أعظم الثلم) (٩).

وتلك سخرية ببخل أهل مرو الذى يتعدى رجالها ونساءها وأطفالها إلى حيواناتها وطيورها ، وكأن مرو تشبعت ببخل أهلها ، ثم صارت هى أستاذة فى البخل ، تطبع من عاش فيها بطابعها ، وتضع عليه من معينها لمحزا وتقتيرا .

---

٧) البخلاء : الجاحظ ، تحقيق طه الحاجرى صفحة ١١٠ .

٨) كتاب البخلاء ، تحقيق العوامرى والجارم ج ١ ص ٤٦ .

٩) كتاب البخلاء : ضبط العوامرى والجارم الجزء الثانى صفحة ١٠٠ .

٢ـ التطفل :

ظهرت فى المجتمع العباسى طائفة من الناس أحبت طعام الغير ، وهامت به ، وملك عليها سمعها وبصرها ، فأقبلت على الولائم ، وحفلت بالأعراس ، فتتبعت أخبارها ، ودارت فى فلكها ، وفتنت بألوانها ، ورمت بنفسها فى أحضانها ، وشاركت فيها دون أن تدعى إليها ، أكلت طعامها وجيوبها وافرة المال ، وبيوتها عامرة بالخيرات ، عرفت بين الناس بالشره والنهم والطمع ، ونعت أربابها باسم الطفيليين نسبة إلى طفيل الأعراس أو العرائس زعيمهم فى ملء معدته من الولائم ، ومسارعته إليها بدعوة من نفسه ، يصفه الجاحظ بقوله : (كان بالكوفة رجل من بنى عبدالله بن غطفان يسمى "طفيلى" كان أبعد الناس نجعة فى طلب الولائم والأعراس ، فقيل له لذلك "طفيل العرائس" وصار ذلك نبزاله ، ولقبا لا يعرف بغيره . فصار كل من كانت تلك طعمته يقال له "طفيلى")[١٠].

ومن صفات الطفيلى حسن المظهر ، وجمال الهيئة ، وخفة الروح ، وإجادة الدعابة وإتقان الحديث ، والبراعة فى تقصى الأخبار ، والوقوف على غامض الأسرار .. وقد كان طفيل الأعراس يقول : (وددت لو أن الكوفة بركة مصهرجة فلا يخفى على من أعراسها شئ)[١١].

ومن أجمل اعتذارات الطفيليين حضورهم موائد لم يدعوا إليها قول شاعرهم :

(نحن قوم إذا دعينا أجبنا ومتى نبس يدعنا التطفيل
ونقل علنا دعينا فغبنا وأتانا فلم يجدنا الرسول

وأتى طفيلى طعاما لم يدع إليه فقيل له : من دعاك ؟ فأنشأ :

دعوت نفسى حين لم تدعنى فالحمد لى لا لك فى الدعوة
وكان ذا أحسن من موعد مخلفه يدعو إلى الجفوة)[١٢].

---

١٠) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجرى ص٧٨

١١) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

١٢) المختار ، البشرى الجزء الثانى صفحة ١٤١

والشره والطمع ، والإقبال على الأكل في نهم صفة مرذولة ، ونقيصة ممقوتة ، وخاصة إذا كان ذلك على طعام غيره ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن هذا الآكل الشره على طعام غيره لم يدع إليه ، ظهر لنا مدى قبح هذه الصفة ، ومهانة صاحبها .

وقد اتخذ التطفل مادة ثرة للسخرية ، ومحينا لا ينضب للهزء والتهكم ، لمنافاته مما طبع عليه المجتمع ، وما تعارفه الناس ، وما رفيهم عادة تجرى مجرى القانون ، فالناس لا يذهبون إلى وليمة إلا إذا دعوا إليها ، ولا يأكلون من طعام غيرهم مستبيحين الأكل إلا إذا أذن لهم فيه ، لكن الطفيلي يدعو نفسه ، ويأكل ما وسعه الأكل ، كأنه ماله وحقه وإن كان في ماله وطعامه رفيق الأخذ حذرا ، فإنه في مال غيره جشع متلاف ، كثير اللقم سريع الهضم ، له طرق في الوصول إلى القلوب ، تضمن له سرعة وصول الطعام إلى الأمعاء ، فهو يتصنع في ذلك الحيل ، ويتلطفها ، ويدق تلطفه ، حتى ليحسبه أهل الزوج من أهل الزوجة ، فيجلونه ويكرمونه ، ويقدمون له أطيب الطعام ، ويحسبه أهل الزوجة من أهل الزوج ، فيرفعونه مكانا عليا ، ويحلونه محلا سنيا ، ويصدرونه الخوان ، ويفتن هؤلاء في إطعامه ، ويمعن أولئك في إتخامه ، فيجول في المائدة ويصول ، ويكنس ما عليها ويودعه صندوق بطنه ، وإن كان مغمطا متخطا ، وهو لبق مفتن ، له رواء ومظهر ، وحسن سمت وجمال أحدوثة ، حتى ليخدعهم عن أنفسهم ، وينسيهم العرس بما فيه .

فإذا رويت نوادره ، وذكرت حوادثه ، تخللها التهكم والهزء ، والسخرية والغمز فنضحك لمجاوزته الحد ، وخروجه على العرف ، ونطرب لحسن تأتيه ، ودقة احتياله وحبكة تصرفه ودهائه .

لم ينس الجاحظ — وهو الخبير النقادة — هذا الصنف من الناس ، ولم يسلم من غضبه وسخطه ، فتناوله تناولا بارعا ، وجعله من موضوعات السخرية التي أودعها بطون كتبه وأشاعها بين الناس في عصره ، وتناقلتها الأجيال بعد عصره ، فكهين مرحين ، أو قارئين دارسين .

ومن سخرياته فى ذلك : (كان قاسم شديد الأكل ، شديد الخبط ، قذر المؤاكلة ، وكان أسخى الناس على طعام غيره ، وأبخل الناس على طعام نفسه ، وكان يحمل عمل رجل لم يسمع بالحشمة ، ولا بالتجمل قط ، فكان لا يرضى بسوء أدبه على طعام ثمامة حتى يحضر معه ابنه إبراهيم ، وكان بينه وبين إبراهيم ابنه فى القذر مقدار ما بينه وبين جميع العالمين ، فكانا إذا تقابلا على خوان ثمامة ، لم يكن لأحد على أيمانهما وشمائلهما حظ من الطيبات ، فأتوهما بقصعة ضخمة ، فيها ثريدة كهيئة الصومعة ، مكللة بإكليل من عراق ، بأكثر ما يكون من العراق ، فأخذ قاسم الذى يستقبله ، ثم أخذ يمنة ، وأخذ ما بين يدى من كان بينه وبين ثمامة ، حتى لم يدع إلا عرقا قدام ثمامة ، ثم مال إلى جانبه الأيسر ، فصنع مثل ذلك الصنيع ، وعارضه ابنه وحاكاه ، فلما أن نظر ثمامة إلى الثريدة مكشوفة القناع ، مسلوبة عارية ، واللحم كله بين يديه وبين يدى ابنه إلا قطعة واحدة بين يديه تناولها فوضعها قدام إبراهيم ابنه ، فلم يدفعها ، واحتسب بها فى الكرامة والبر) (١٣).

وكثير من الطفيليين كانوا على علم ، وخبرة باللغة العربية وآدابها ، وبصر بعلم الكلام وقد كان بعضهم يتخذ من ذلك دليلا على أحقيتهم فى الطعام وأن أكلهم له واقع حتما ومقدر عليهم ، ومكتوب فى اللوح المحفوظ يقول أبو عثمان : (وكان رجل يغشى طعام الجوهرى ، وكان يتحرى وقته ولا يخطىء ، فاذا دخل والقوم يأكلون ، وحين وضع الخوان ، قال : لعن الله القدرية ، من كان يستطيع أن يصرفنى عن أكل هذا الطعام وقد كان فى اللوح المحفوظ أنى سآكله ، فلما أكثر من ذلك قال له رباح : تعال بالعشى أو بالغداة ، فإن وجدت شيئا فالعن القدرية ، والعن آباءهم) (١٤).

---

١٣) البخلاء : الجاحظ : تحقيق طه الحاجرى صفحة ١٩٨ ، ١٩٩ .

١٤) البخلاء : الجاحظ : تحقيق طه الحاجرى ص ١٤٧ .

ويروى الجاحظ فى قصة أحمد بن خلف الذى ورث مالا كثيرا ، (فقلت له — وقد ورث هذا المال كله — ما أبطأ بك الليلة ؟ قال : لا والله ، إلا أنى تعشيت البارحة فى البيت فقلت لأصحابنا : لولا أنه يحيد الصمت بالأكل فى بيته ، وأن ذلك غريب منه ، لما احتاج إلى هذا الاستثناء ، وإلى هذه الشريطة وأين يتحقق الناس إلا فى منازلهم ؟ وإنما يقول الرجل عند مثل هذه المسألة : لا والله إلا أن فلانا احتبسنى ، ولا والله ، إلا أن فلانا عزم على ، فأما ما يستثنى ويشترط فهذا ما لا يكون إلا على ما ذكرناه قبل.)(١٥).

***

٦— البلادة والإهمال :

إذا كان الشخص مهملا ، بليد الإحساس ، خامد العاطفة ، جامد الشعور ، يرى المثير فلا يثور ، ويستغضب فلا يغضب ، كان موضوعا حيا للسخر ، ونموذجا رائعا للإضحاك ، ومجالا فكها للتهكم ، وذلك لشذوذه عن مقاييس مجتمعه ، وظهوره بين الناس فى مظهر غير مألوف ، يناهضه المجتمع ويحاربه ، وهل هناك أدعى للسخرية والاستهزاء ممن يستباح ماله أو تنتهك حرمه ، وهو جامد صامت ، لا يبدى اشتياء ، ولا يظهر نفورا واشمئزازا ، أو ممن يترك ما يؤذيه ، ويؤذى الناس دون أن يدفعه ويرفعه ، وإن كان قليل المئونة سهل الإزالة ، وهو السبب فى وجوده ، والعلة فى بقائه ؟؟ .

ولقد كان الإهمال وبلادة الحس موضوعا لسخريات الجاحظ ، وكان له نماذج لا ينفد ومعين لا ينضب ، ونماذج متعددة ، ملأت مجتمعه فعالجها بالسخر ، وعالجها بكشف عيوبها ، وهتك أستارها ، قال : (قال الخليل : كان أبو قطبة يستغل ثلاثة آلاف دينار وكان من البخل يؤخر تنقية بالوعته إلى يوم المطر الشديد ، والسيل المبالغ ، ليكترى رجلا واحدا فقط ، يخرج ما فيها ، ويصبه فى الطريق فيجرفه السيل ، ويؤديه إلى القناة وكان بين موضع بئره والصب قدر مائتى ذراع ، فكان لمكان زيادة درهمين يحتمل الانتظار

(١٥) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجرى ص ٤١

شهرا أو شهرين ، وإن هو جرى فى الطريق ، وأذى به الناس)(١٦)، إنه البخل الـذى يؤدى إلى بلادة الشعور، وإهمال الواجب ، وعدم إحساس المرء بنفسه كانسان له كرامته واحترامه .

والشخص المهمل الذى لا يقدر مسئوليته ، ولا يهتم بشخصيته ، ومكانته فى مجتمعه ، ولا يعطيهما كفاءها من المظهر والسمت ، أو العلم والعمل فيستخف بعظائم الأمور ، ويستهين بكل القيم، ويضر مجتمعه وبؤذيه، نتيجة إهماله وجهله ، لا يجعله مجتمعه ولا يحترمه ، وإنما يجعله محور سخره ، ومادة فياضة للوم والاستهزاء . وقد عرف الجاحظ المهملين ، وضررهم على أنفسهم ، وعلى المجتمع الذى يعيشون فيه ، فاتخذ السخرية منهم طريقا إلى إظهار مساوئهم ، وتقبيح عمالهم ، وأقبح هؤلاء المهملين عنده من ألقى كلامه على علاته ، مع جليل خطره ، وبين خطله ، لم يدقق فيه ، ولم يفحصه ، ولم يرده ، وعوراته لائحة ، وسوآته واضحة ، فأضر نفسه ، وأضر مجتمعه ، وأضحك الناس عليه أبد الدهر .

قال الجاحظ يسخر من المهملين ، الذين لا يتثبتون من كلامهم ، ولا يقيمون عليه الدليل ، ويلقونه دون فحص وتمحيص، إن بعض أصحاب التفسير يزعم أن الله عاقب الحية حين أدخلت إبليس فى جوفها حتى كلّم آدم وحوا ، وخدعهما على لسانها بعشر خصال منها شق اللسان . قالوا ، ولذلك ترى الحية إذا ضربت للقتل كيف تخرج لسانها لترى الضارب عقوبة الله ، كأنها تسترحم . وصاحب هذا التفسير لم يقل ذلك إلا لحية كانت عنده تتكلم .(١٧)

(١٦) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجرى ص١١٣ ، ١١٤

(١٧) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء السادس صفحة ٧٤ ، ٧٥

ك — الكذب والمبالغة :

الكذب والادعاء ، والمبالغة والغلو ، صفات خارجة عن الفطر المستقيمة ، والطباع السوية ، فالكذب من العيوب الأخلاقية التي تودى بالفرد والأمة ، والمبالغة التي تسلك سبيل الادعاء والغلو والتطرف من العيوب الاجتماعية التي ينكرها المجتمع ، ويسعى جاهدا للتخلص منها ومن أوضارها ، فالكاذب والمبالغ المدعى — وهو كاذب أيضا يستخفان بعقل السامع ، ويتلاعبان به ، ويظنان فيه السذاجة والغفلة ، فاذا كان السامع عالما حقيقة الأمر ، واقفا على تفصيلاته فاما طبيعة حديثه ، عارفا كذبه وتفخيمه ثارت حفيظته وثار لكرامته ، في صور مختلفة ، منها السخرية به ، بكشف قناعه ، واظهار ما حاول ستره واخفاءه أو بمجاراته ، واظهار صدق كلامه ، ثم يقتله بألفاظه ، ويحرجه بلسانه ويوقعه في حبائله ، وفي الشراك التي أعدها فكانت مصيدته وقاصمة ظهره ، فتنقلب السخرية عليه ، ويصير هزأة بين أقرانه ، بعد أن كان يضحك ملء قلبه ، ويتغامز في أعماقه ، ويظن أنه الساخر الخادع وأن سامعه هو الغافل المخدوع .

والجاحظ يستغل هذه الصفة في بعض معاصريه ، ليهجم عليهم بحار سخرياته ، وقاتل استهزائه ، ويفضح منهاتهم . يقول : إن أحمد بن الخاركي كان بخيلا وكان نفاجا ، وهذا أغيظ ما يكون منه ، وكان يتخذ لكل جبة أربعة أزرار ليرى الناس أن عليه جبتين ، ويشترى الأعذاق والعراجين والسعف من الكلاء ، فإذا جاء الجمال إلى بابه تركه ساعة يوهم الناس أن له من الأرضين ما يحتمل أن يكون ذلك كله منها ، وكان يكترى قدور الخمارين التي تكون للنبيذ ، ثم يتحرى أعظمها ، ويضرب من الحمالين بالكراء كي يصيحوا بالباب ؛ يشترون الدادى والسكر ويحمون الحمالين بالكراء وليس في منزله رطل دبس، (١٨)

١٨) كتاب البخلاء : الجاحظ ، تحقيق العوامرى والجارم الجزء الثاني صفحة ٤٩

الحماية والرعاية ، ودرء الأخطار كالأب بالنسبة لأبنائه ، وكالزوج بالنسبة لزوجته ، وكالجندي بالنسبة لوطنه . ويتحقق السخر إذا دعى هذا الجبان الشجاعة ، وأظهر القوة والجلد ، وحاول ستر ما في نفسه من اضطراب ، أو اعتذر بعذر واهٍ ، واعتل بعلة مفتعلة ملفقة يمون بها سببا حجامه ، ويتضاعف السخر إذا وقف السامع على حقيقة الموقف ، وأدرك الخدعة التي ينسجها الجبان ، وادعى عدم المعرفة ، ووافقه في كلامه وحا راه .

ولما كانت هذه الصفة معيبة بالنسبة لصاحبها وكان ضررها يمتد إلى مجتمعه ، والقانون لا يحاسب عليها ، ولا يفرض العقوبة على من اتصف بها ، والمجتمع لا يقبلها ولا يرضاها ومن واجباته تقويم من شذ من أفراده ، وحاد عن الجادة ، فقد ابتكر وسيلة للردع ليس السلاح فيها العقوبة الجسدية ، ولا العقوبة المادية ، وإنما العقوبة المعنوية ، فلجأ إلى السخر سلاحا يشرعه في وجوه الجبناء علهم يرعوون ويتشجعون .

وقد وجدت هذه الصفة في كثير من أفراد المجتمع العباسي ، ولقطتها عين الجاحظ الناقدة ، فنبه عليها ، وسخر منها ، واستهجن أصحابها ، ورسم الصور الكاريكاتيرية التي تبرز تخضعهم فيها ، وتنفر الناس منها .

يقول في كتابه الحيوان : (كان بالبصرة شيخ من بني نهشل ، يقال له عروة بن مرثد ، نزل ببني أخت له في سكة بني مازن ، وبنو أخته من قريش ، فخرج رجالهم إلى ضياعهم ، وذلك في شهر رمضان ، وبقيت النساء يصلين في مسجدهم فلم يبق في الدار إلا كلب يعس ، فرأى بيتا فدخل ، وانصفق الباب ، فسمع الحركة بعض الإماء فظنوا أن لصا دخل الدار ، فذهبت إحداهن إلى أبي الأعز ، وليس في الحي رجل غيره ، فأخبرته فقال أبو الأعز : ما يبتغي اللص منا ؟ ثم أخذ عصاه ، وجاء حتى وقف على باب البيت ، فقال : إيه يا ملأمان أما والله إنك بي لعارف ، وإني بك أيضا لعارف ، فهل أنت إلا من لصوص بني مازن ، شربت حامضا خبيثا ، حتى إذا دارت الأقداح في رأسك منتك نفسك الأماني ، وقلت دور بني عمرو ، والرجال خلوف

والنساء يصلين فى مسجدهن ، فأسرقتهن ، سوأة والله ، ما يفعل هذا الأحرار ، لبئس والله ما منتك نفسك فاخرج ، وإلا دخلت عليك فصرمتك منى العقوبة ، لأيم الله لتخرجن أو لأهتفن هتفة مشئومة عليك ، يلتقى فيها الحيان عمرو وحنظلة ، ويصير أمرك إلى تباب وتجيء سعد بعدد الحصى ، ويسيل عليك الرجال من هاهنا وها هنا .. ولئن فعلت لتكونن أشأم مولود فى بنى تميم .. فلما رأى أنه لا يجيبه أخذ باللين ، وقال : اخرج يابنى وأنت مستور ، إنى والله ما أراك تعرفنى ، ولو عرفتنى لقد قنعت بقولى ، واطمأننت إلى أنا عروة بن مرثد أبو الأعز المرثدى ، وأنا خال القوم ، وجلدة ما بين أعينهم ، لا يعصوننى فى أمر ، وأنا لك بالذمة كفيل خفير ، وأصيرك بين شحمة أذنى وعاتقى ، لا تضار ، فاخرج فأنت فى ذمتى ، وإلا فعندى قوصرتان إحداهما إلى ابن أختى البار الوصول ، فخذ إحداهما فانتبذها حلالا من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وكان الكلب إذا سمع الكلام أطرق وإذا سكت وثب يريغ المخرج ، فتهافت الأعرابى أى تساقط ، ثم قال : يا ألأم الناس وأوضعهم ، ألا يأنى لك ، أنا منذ الليلة فى واد وأنت فى آخر ، إذا قلت لك السوداء والبيضاء تسكت وتطرق ، فإذا سكت عنك تريغ المخرج ؟ والله لتخرجن بالعفو عنك ، أو لألجن عليك البيت بالعقوبة ، فلما طال وقوفه جاءت جارية من إماء الحى ، فقالت : أعرابى مجنون ... والله ما رأيت فى البيت شيئا .. ودفعت الباب فخرج الكلب شدا ، وحاد عنه أبو الأعز مستلقيا ، وقال : الحمد لله الذى مسخك كلبا ، وكفانى منك حربا .. ثم قال : تالله ما رأيت كالليلة ، ما أراه إلا كلبا ، أما والله لو علمت بحاله لولجت عليه (٢٢)

---

٢٢) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الثانى ص ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ومثله فى عيون الاخبار ، ابن قتيبة الجزء الأول صفحة ١٦٧ ، ١٦٨ .

الفصل الثالث

ضعف العقـــــــــــــل

إذا تهكم الجاحظ بالعيوب الجسمية ، وسخر من الطباع الغريبة ، والأخلاق الشاذة وامتلأ بذلك أدبه ، وكثر نقده ، فإن تهكمه بضعف العقل ، وسخره من تفاهة التفكير وهو رجل العقل والفكر - يحتل من أدبه مساحة شاسعة ، ويتناول موضوعات كثيرة ، ينبه فيها الجاهل المغفل ، والموسوس المخرف ، الذى يسير وراء الشائعات دون أن يتثبت ويتحقق ، ليرتد إلى صوابه ، ويوازن بين حاله تلك ، وما يجب أن يكون عليه .

ومن أحط دركات الضعف العقلى "الجنون" ، وهو عيب بل مرض شديد الضرر بصاحبه ، وبغيره ممن يعاشره ، ومصيبة يتعذر على من ابتلى بها وعلى مجتمعه التخلص منها ، لذلك كان مبعثا للشفقة فى القلوب ، والخوف فى النفوس ، والرثاء لصاحبه ، والاكتئاب من أجله ولا يسخر منه إلا من غلظت قلوبهم ، وانحرفت طباعهم ، وخفتت في نفوسهم النزعات الإنسانية وماتت فى ضمائرهم بواعث المشاركة الوجدانية ، فتلذذوا بمصائب الناس وضحكوا لبكائهم وآلامهم .

لذلك لم نرا لجاحظ يسخر ممن فقد عقله بل أنصبت سخريته على ضعاف العقول الذين يظهرون بمظهر العقلاء الحكماء سالم بعدد فهم وتتصرف تمكاته إلى تصرفات الشاذة التى لا تلحق ضررا بالنفس ولا بالغير ، فإن ألحقت الضرر كان هينا ضئيلا ، لا يصرف النفس عن مرحها وسرورها ويذكر الجاحظ المثل على ذلك بقوله (ومن المجانين الأشراف ابن ضحيان الأزدى ، وكان يقرأ " قل يأيها الكافرين " فقيل له فى ذلك فقال ، قد عرفت القراءة فى ذلك ، ولكنى لا أجل أمر الكفار) (1)

يروى الجاحظ أنه : (كانت بالكوفة امرأة رعناء يقال لها مجيبة ، ففقد بهلول فتى

---

1) البيان والتبين الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ، الجزء الرابع صفحة ٢٠

كانت مجيبة أرضعته ، فقال له بهلول : كيف لا تكون أرعن وقد أرضعتك مجيبة ؟ فوا لله لقد كانت تزق لي الفخ فأرى الرعونة في طرفاته) (٢).

يقول الجاحظ : (ومن مجانين الكوفة بهلول ، وكان يتشيع ، فقال له إسحاق بن الصباح أكثر الله في الشيعة مثلك ، قال : بل أكثر الله في المرجئة مثلي ، وأكثر في الشيعة مثلك) (٣)

كان بهلول (جيد الثقافة قريباً مرة من يحب العبث به فيتفقده ، فحشا قفاه خراء ، وجلس على قارعة الطريق ، فكلما تفقده إنسان تركه حتى يجوز ، ثم يصيح به يافتى ، شم يدك ! فلم يعد بعدها أحد يتفقده) (٤).

ومن ألوان الضعف العقلي التي حفل بها أدب الجاحظ ، ونالت قسطا وفيرا من عبثه وسخره ، وعقد لها الأبواب والفصول في كتبه :

٠٠ ٠٠ ٠٠

أ ـ الجهل والغفلة :

الجاهل ، والغافل يسيران ضد قوانين الطبيعة ، لا يعرفان من أمرها شيئا ، ولا يفرقان بين الضار والنافع ، وقد يفعل أحدهما الشيء ، يعتقد أنه خير محض ، والحق أنه شر صراح ، وقد يلقى الكلمة يرى أنه بها أستاذ الأساتذة فإذا هي برهان سفهه ، وعنوان جهله ، وذلك ما يغرينا بالتهكم به ويدفعنا إلى السخرية منه . وكيف يملك الإنسان نفسه من الضحك والسخرية ، إذا جاهل غافل ، يعكس الأمور ويقلب الموازين ، ولا يسير مع تفكير أمته ومجتمعه ؟ فإذا بلغ الجهل والغفلة الغاية فظن أنه اللبق اللقن ، واعتقد أن ما سواه من الناس تافهة عقولهم ، كليلة أفكارهم ، واستخدم (طاقية الاخفاء) بطريقة معكوسة ، فإذا هو يحتجب من نفسه ، ويعلن لكافة

---

٢) المصدر السابق ، الجزء الثاني صفحة ٢٢١ .

٣) نفس المصدر ، صفحة ٢٣٠

٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها ٢٣٠

الناس) [٥] لأن السخرية عنده تبلغ ذراها، وتتجاوز مداها، ويفتن فيها الإنسان ما شاء له افتتانه، إذ أن (الشخصية تكون مضحكة على قدر ما تجهل نفسها تماما) [٥].

ولقد كان الجهل والغفلة موضوعا فسيحا للسخرية في أدب الجاحظ، وميدانا رحبا للتهكم والاستهزاء، والضحك والإضحاك، تنبيها إلى الأخطاء، وحثا على إقامة المعوج، فلطالما عبث الجاحظ بهؤلاء الجهلة الأدعياء، والغافلين الأغبياء، وسخر منهم وما كان أكثرهم في مجتمعه — واتخذ من جهلهم وغفلتهم، وغرورهم وتكبرهم، وسيلة لإلهابهم بسياط هزئه، ولاذع سخريته، فأحال البكاء ضحكا، والاكتئاب نشاطا ومرحا، يهدى ويرشد، ويقنع ويفحم، أو يطفىء لهيب القلب، وغل الصدر، وهؤلاء أحوالهم تدعو إلى العجب، وتدفع إلى السخر، فمنهم من يعتقد أن (الفأرة من خلق الله، وأن السنور من خلق الشيطان) [٦]، ومنهم من يروى أن الأسد في سفينة نوح عطس عطسة فرمى من منخريه زوج سنانير فلذلك كان السنور أشبه شيء بالأسد، وسلسح الفيل زوج خنازير، فلذلك كان الخنزير أشبه شيء بالفيل [٧]، فسخر الجاحظ من الأول بقوله: (فهل سمعت بحجة قط، أو بحيلة، أو بأضحوكة، أو بكلام ظهر على تلقيح هسرة يبلغ مبلغ هذا الاعتلال) [٦]، وسخر من الثاني بقوله: (فينبغى أن يكون ذلك السنور آدم السنانير، وتلك السنورة حواءها) [٧] ويقوله بعد ذلك: (وهذا الحديث نافق عند العوام، وعند بعض القصاص) [٧].

ومن هؤلاء الجهلة الغافلين، الذين عاصروا الجاحظ، وتناولهم أدبه بالسخرية من كان يفترض فروضا غريبة، ويدعى الكيس، والبصر بالمنطق، فيقول (لو كنت لمرأتا، وأنا ابن من أنا منه، لكنت أنا أنا، وأنا ابن من أنا منه، فكيف وأنا أنا، وابن من أنا منه؟) [٨]، أو يعلل لرأيه تعليلا يحمل الدليل على فساد هذا الرأى وبطلانه،

---

٥) الضحك، هنرى برجسون، ترجمه سامى الدروبى وعبدالله عبد الدائم صفحة ١٦

٦) الحيوان، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الرابع صفحة ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠

٧) الحيوان، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الخامس صفحة ٣٤٧، ٣٤٨

٨) البيان والتبيين، الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون الجزء الثانى صفحة ٢١٥، ر وحسن السندوبى ج ٢ ص ٢٢٣

(قال لي عياش بن القاسم ، بأي شيء تزعمون أن أبا علي الأسواري أفضل من سلام أبي المنذر؟ قال ، لأنه لما مات سلام أبو المنذر ذهب أبو علي في جنازته ، فلما مات أبو علي لم يذهب سلام في جنازته) (٩). أو يخلط في ألفاظه فيقول ، (ولدت في رأس الهلال للنصف من شهر رمضان ، احسب الآن كيف شئت) (١٠).

أو يقول (تزوجت امرأة مخزومية من عمها الحجاج بن الزبير الذي هدم الكعبة) (١٠)

وقد تبلغ به الغفلة والجهالة إلى أن يكتب غير ما يسمع ، ويستملي غير ما يكتب ، ويقرأ غير ما يستملي ، ويملي غير ما يقرأ يقول الجاحظ فيه يسمه كيسان — ولعله من أسماء الأضداد أمليت عليه يوما ، عجبت لمعشر عدلوا بمعتمر أبا عمرو

فكتب أبا بشر وقرأ أبا حفص واستملى أبا زيد (١١)

والجاحظ من وراء هؤلاء ، يتعقبهم بسخريته ، ويرشدهم ، ويعين سوء مقالتهم بعرير تهكمه ، وهو في ذلك القائد الماهر والخبير العالم بطبائع النفوس وأن الجاهل عصي جموح ، ونافر شرود ، إن أخذ بالعنف والقسر ، طبع ذلول إن عولج باللين ، وطيب بالهوادة والرفق ، والعنف والقسر صفات الهجاء ، واللين والرفق سمات السخرية وقد كان الجاحظ بعيدا عن الهجاء ، بارعا في السخرية ، يفتن فيها ، ويتخذها أداة إصلاح وتقويم للجهلة الغافلين ، مراعيا حالتهم النفسية ، ضاربا على الوتر الحساس في نفوسهم وعواطفهم ، فتصدر النغمة المنبهة على الخطأ في سلاسة وليونة ، لا تجرح ولا تسيل الدماء ،

وقد يكون الساخر فطنا لبقا ، يعرف الجهل والغباء ، كما يعرف الفطنة والذكاء ويدعي مع ذلك عدم المعرفة ، فيتغافل ويتغابى ، ويجاري الجاهل الغافل ، ويوافقه على ما يقول ، ليصل منه إلى أقصى ما يريد ، وقد يبدأ هو الحديث بخترعه ويولده

٩) البيان والتبيين ، الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون الجزء الثاني صفحة ٢٣٤

١٠) البيان والتبيين ، الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون الجزء ٤ ص١٥ وفي نهاية الأرب ج ٤ ص١٧ .

١١) جمع الجواهر ، الحصري ، صفحة ٣٦٦ وزهر الآداب صفحة ٩٥٤ ط ١٩٥٢ .

ويدعمه ، ليرى أثره فى نفس الغافل ، وليفتح له بابا يلجه ، فيتردى فى هاوية سحيقة أمثاله ، وهو تأمر بسخره هاتى * بتوريطه ، وذلك مذهب الجاحظ الذى ينادى به ، ويدعو إليه فى قوله : (إذا أردت أن تعرف مقدار الرجل العالم ، وفى أى طبقة هو ، وأردت أن تدخله الكير ، فتنفخ عليه ، ليظهر لك فيه الصحة من الفساد ، فكن عالما فى صورة متعلم ، ثم اسأله سؤال من يطمع فى بلوغ حاجته منه)[١٢] . وهو يطبق ذلك فى قوله : (قلت مرة للمكى ، علمت أن الشارى حدث أن المخلوع بعث إلى المأمون بجراب فيه سمسم ، كأنه يخبره أن عنده من الجند بعدد ذلك الحب ، وأن المأمون بعث إليه بديك أعور ، يريد أن طاهر بن الحسين يقتل هؤلاء كلهم كما يلقط الديك الحب ، قال : فإن هذا الحديث أنا ولدته ، ولكن انظر كيف سار فى الآفاق)[١٣] وقوله : قلت للمكى مرة ونحن فى طريق بغداد : (ما بال الفرسخ يكون فى هذا الطريق فرسخين ، والفرسخ يكون أقل من نصف فرسخ ، ففكر طويلا ، ثم قال : كان كسرى يقطع للشاعر الفراسخ ، فإذا صانع صاحب القطيعة زاده ، وإن لم يصانع نقصه)[١٤] .

وقد يكون هذا التغافل والتجاهل للتقية ، وستر ما يسكن فى النفس مجاراة لمن معه ، ومداراة لهم ، حتى يبتعد عن أذاهم ، ويهرب من تحديهم وعقوباتهم ، أو للسخرية ممن انقلبت موازينهم فكرهوا الصواب ، فهو يجاريهم على نقص عقولهم بالتغافل ليستمروا فى غيهم وليحيوا ثمرة جهلهم ، أو لتجسيم الجهل والغفلة وتهويلها ليبصروا مدى قبحهما فى غيرهم فيعملوا على محوها من أنفسهم .

ومن أمثلة ذلك فى أدب الجاحظ قول المعيطى :

---

(١٢) الحيوان الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون الجزء السادس صفحة ١١

(١٣) الحيوان : الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء السادس ٣ صفحة ٣٢٧ .

(١٤) نفس المرجع والصفحة .

(وأنزلني طول النوى دار غربة — إذا شئت لاقيت الذى لا أشاكله
فحامقته حتى يقال سجية — ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله)(١٥)

(وقال آخر : تحامق مع الحمقى إذا ما لقيتهم — ولا تلقهم بالنوك فعل أخى الجهل
وخلط إذا لاقيت يوما مخلطا — يخلط فى قول صحيح وفى هزل
فإنى رأيت المرء يشقى بعقله — كما كان قبل اليوم يسعد بالعقل)(١٦)

وأنشدنى آخر : وللدهر أيام فكن فى لباسه — كلبسته يوما أجد وأخلقا
وكن أكيس الكيسى إذا ما لقيتهم — وإن كنت فى الحمقى فكن أنت أحمقا)(١٧)

∴ ∴ ∴

٢ـ الخرافات :

والخرافات والأباطيل ، وإلقاء الشباك على الفريسة ، واللعب بعقول الناس واصطيادهم سهلة هينة ، وختل العامة وخداعهم ، وبخاصة إذا كان المختول المخدوع يعتقد أنه فوق أن يخدع ، مجلبة للضحك ، وأكبر داع للسخر والذى يقلب الأمور ويعكس الأوضاع فيعتقد صدق الخرافات ، ويؤمن بما يقوله المشعوذون ، ويخضع لهم تمام الخضوع ، أو يقوم هو بالشعوذة فيصيد العقول ، ويستخف بالألباب ويتلاعب بالنفوس ، مصدر من مصادر التسخر ، وموضوع جيد من موضوعاته ، يدفعنا إلى الضحك والاستهزاء ممن باع ضميره ودينه ليكسب المال من طريق ينافى الخلق والدين ، والسخرية والتهكم ممن يقع تحت سيطرته ويسير فى ركابه ، وينقاد له انقيادا أعمى ، يلغى فيه عقله وشخصيته ، ويصبح لعبة فى يد المشعوذ الدجال ...

---

١٥) البيان والتبيين ، الجاحظ ، شرح هارون الجزء الثانى صفحة ٢٣٥ ، فى ج ١ ص ٢٤٥ ج ٤ ص ٢١ .
١٦) البيان والتبيين ، الجاحظ ، شرح هارون الجزء الأول صفحة ٢٤٥
١٧) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الرابع صفحة ٧٦

لم يهمل الجاحظ هؤلاء فى كتاباته ، فجعلهم مجال سخريته وإضحاكه ، طمعا فى أن ينتبه العامة والخاصة لهذا الضرر الماحق ، والشر المستطير ، وعلامة خطر لمن يقعون تحت تأثيرهم ، وراية حمراء فى وجوه المخرفين ، إنذاراً لهم بانكشاف أمرهم ، وافتضاح سرهم ، ليرتدعوا ويرعووا ، فكانت السخرية فى أدبه علاجا يحمى به ضعاف العقول من ضعاف النفوس .

ولم يأخذ آراء العلماء المشهود لهم بالسبق والفضل قضية مسلمة ، بل عارض كل ما خالف عقله ، وسخر منه حتى ولو كان لأكبر فلاسفة اليونان أرسطو . قال عنه : (قال صاحب المنطق : ويكون بالبلدة التى تسمى باليونانية طبقون حية صغيرة ، شديدة اللدغ إلا أن تعالج بحجر يخرج من بعض قبور قدماء الملوك . ولم أفهم هذا ، ولم كان كذلك)(١٧)

وقال : (وقد زعم صاحب المنطق أنه ظهرت حية لها رأسان ، فسألت أعرابيا عن ذلك ، فزعم أن ذلك حق . فقلت له : من أى جهة الرأسين تسعى ، ومن أيهما تأكل وتعض ؟ فقال فأما السعى فلا تسعى ، ولكنها تسعى إلى حاجتها بالتقلب كما يتقلب الصبيان على الرمل ، وأما الأكل فإنها تتعشى بفم وتتغدى بفم ، وأما العض فإنها تعض برأسيها معا ، فإذا به أكذب البرية . وهذه الأحاديث كلها مما يزيد فى الرعب منها ، وفى تهويل أمرها)(١٨) .

وقال ساخرا من بعض آراء علماء الطب فى زمنه ، المشهود لهم بالحذق والفرق ، لأنها خالفت تفكيره ، وشذت عن عقله المحصف ، وعن عقول عامة الناس : (خبرنى ثمامة عن أمير المؤمنين المأمون أنه قال : قال لى بختيشوع بن جبريل ، وسلمويه ، وابن ماسويه إن الذباب إذا دلك به موضع لسعة الزنبور سكن . فلسعنى زنبور فحككت على موضعه أكثر من عشرين ذبابة ، فما سكن إلا فى قدر الزمان الذى كان يسكن فيه من غير علاج ، فلم يبق فى يدى منهم إلا أن يقولوا : كان هذا الزنبور حنقا غاضبا ، ولولا هذا العلاج

---

١٧) الحيوان : الجاحظ ، الجزء الرابع صفحة ٧٦ .

١٨) الحيوان : الجاحظ ، الجزء الرابع ص ١٥٦

للتلك ، وكذلك هم إذا سقوا دواء فضره أو قطعوا عرقا فضره قالوا : أنت مع هذا العلاج الصواب تجد ما تجد ، فلولا ذلك كنت الساعة فى تاريخهم)(١٩)

وإذا كانت هذه هنات من أشهر علماء الإغريق وفلاسفتهم ، وسقطات تروى فيهما بعض حذاق عصره ، فكشفها بغير تكره ، وعابها بجرىء قلمه فى غيرمهابة ولا وجل ، فلا غروأن سخر من غيرهم ، ممن ظهرت عنا وهم ، ووضح تخريفهم ، حين قال بعضهم : (إنى غذيت بالفقر مع الغول ، وتزوجت السعلاة ، وجاوبت الهاتف ، ورغت من الجن إلى الحن واصطدت الشق ، وجاوبت النسناس ، وصحبنى الرئى)(٢٠)

وحين استغل المتطببون فى ضحاياهم ضعف العقل ، فاتخذوا الحيل لابتزاز أموالهم جعلهم الجاحظ من موضوعات السخرية فى أدبه ، وضحك منهم ، وأضحك الناس عليهم أبد الدهر ، يقول : (كان واحد يسخر بالناس ، ويدعى أنه يرقى من الضرس إذا ضرب على صاحبه ، فكان إذا أتاه من يشتكى ضرسه ، قال له إذا رقاه ، إياك أن تذكر إذا صرت إلى فراشك القرد ، فإنك إن ذكرته بطلت الرقية ، فكان إذا آوى إلى فراشه أول شىء يخطر على باله ذكر القرد ، ويبيت على حاله من ذلك الوجع ، فيغدو إلى الذى رقاه ، فيقول له : كيف كنت البارحة ؟ فيقول : بت وجعا ، فيقول : لعلك ذكرت القرد ؟ فيقول : نعم ، فيقول : من ثم لم تنتفع بالرقية)(٢١)

وكتابا البيان والتبيين ، والحيوان — وهما أشهر كتبه وأرفعها قيمة — مفعمان بالسخرية من خرافات المعمرين والقصاصين واللغويين والمتحذلقين والرواة ، والمدعين المبالغين

---

١٩) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الخامس ص٣٦٤ هارون ، ج ٥ ص١١٠ طبعة ساسى .

٢٠) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجرى صفحة ٤٧ .

٢١) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الرابع صفحة ٦٥ .
والأذكياء لابن الجوزى ص١٢٦ .

ومن العلماء الذين يروون الأخبار لا يمحصونها ، ومن يستمعون إليهم ، ويأخذون بأقوالهم ، معتمدين على تقدمهم وسابقتهم .

وللجاحظ فى ذلك اليد الطولى ، يمدها لينتشل من يهوى من أفراد أمته ، ويرفعها فى وجه من أوشك على السقوط محذرا منذرا ، ويخفضها بالسخرية إلى الهاوية عله يرى فداحة ما هو فيه ، وما صار إليه ، فيقلع ويرتدع .

ويرسم بهذا الخط المستقيم الذى يحتذيه أبناء أمته فلا يميدون ولا يحيدون .

∴ ∴ ∴

الفصل الرابع

الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية

عاش الجاحظ في مجتمعه ، فلمحت عينه الثاقبة ما يدور فيه ، وغاصت وراء ما يحاول أن يستره ويخفيه ، فوقفت على أسراره ، وأدركت مراميه ، رأت نقائصه وعيوبه ، كما رأت أفضاله وحسناته ، عرفت مكامن ضعفه وهزاله ، كما عرفت مواطن قوته وسموقه ، فقد خبر مجتمعه ووعاه ، وعاش أحداثه ، وشارك فيها ، وعاشر رجاله قرابة قرن من الزمان ، استطاع فيه بفطنته ، وعميق تجربته ، وطول معاشرته ، وغزير إنتاجه ، أن يلفت جيد الزمن إلى ما تركه من تراث حضاري ، ومادة أدبية ثرة ، ولقد سلط معجم لاذع ، سلطه على كل نواحي الضعف والقصور في عصره ، وسخر مر ، وجهه إلى النقائص المتراكمة في تصرفات جيله ، فشمل الحياة كلها ، اجتماعيا وسياسيا وثقافيا ودينيا ، وغطى موضوعات الضعف كيف كانت ، حتى لم يسلم من سخره تصرف أحمق ، أو وضع غريب ، أو هيئة شاذة

وسخر من الأوضاع الاجتماعية ، لأنه شاهدها ، ولمسها عن قرب ، وتعمقها ، فرأى ما فيها من تناقض ، مذ كان فقيرا يبيع الخبز والسمك بسيحان إلى أن صار صاحب مشاركات ، وضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد ، ومنذ كان صبيا ، إلى أن أصيب بالفالج والنقرس ، وبالحصاة التي لا ينسى معها بوله في أخريات حياته .

وتهكم بالأوضاع السياسية ، لأنه رأى من كتب القتل والتنكيل ، والأخذ بالظنة والسجن بالشبهة ، والتكالب على الوظائف ، والتصارع على المناصب ، فقد خالط القضاة والحكام ، وجالس الوزراء والخلفاء ، وكان صاحب حظوة لديهم ، ومنزلة سنية في قلوبهم .

وهزؤه من الأوضاع الثقافية ، لأنه رأى الجهل في سمت العلم ، والفهاهة في ثياب الفصاحة ، منذ نشأته في الكتاب إلى وقوع أجلاف الكتب عليه .

وهزة الأوضاع الدينية ، منذ عرف أستاذه النظام إلى أن صار زعيما لطائفة الجاحظية المعتزلية ، إذ رأى الفرق المتعددة إسلامية وغير إسلامية ، كل يجهل غيره ، ويتهمه بالزندقة والإلحاد ، والمروق من الدين ، ويختار له مكانا في الجحيم ، ويدعى لنفسه الصلاح ويضعها في أعلى عليين .

∴ ∴ ∴

لقد انقسم المجتمع إلى أغنياء لا تحصى ثرواتهم ، وفقراء لا يجدون ما يقيم أودهم ، ا ... واستعمل الأغنياء أموالهم في شهواتهم وملاذهم ، أو تناهوا في البخل بها ، وجعلوها بدل أنفسهم ، وهم في الحالين يتخذونها أساس مجدهم ، وعنوان شرفهم ، وشرطا يخضع الناس لهم ، فحفلوا بها ، ولم يهتموا بما سواها ، وارتكبوا كل مكروه في أي من سبيل غائلته مادامت لهم الأموال التي تحميهم ، وتصدعنهم ، وعابوا الفقير أن يوجه إليهم لوما أو عتبا ، وأن يفضل الغنى في صحة أو قوة ، أو يتمتع بحاسة فقدها بعض الأغنياء . ومن سخريات الجاحظ في ذلك قوله (وقع بين ابليين كلام ، فأسمع أحدهما صاحبه كلاما غليظا ، فرد عليه مثل كلامه ، فرأيتهم قد أنكروا ذلك إنكارا شديدا ، ولم أر لذلك سببا ، فقلت ، لم أنكرتم أن يقول مثل ما قال ؟ قالوا ، لأنه أكثر منه مالا ، وإذا جوزنا هذا له جوزنا لفقرائنا أن يكافئوا أغنياءنا ، ففي هذا الفساد كله ، وقال جعفر بن صباح ، كيف صار رباح يستمنى ولا أستمنه ؟ أفهموا أكثر منى مالا ، وسكت)(١) .

ونتيجة للغنى الفاحش كثر السرف والبذخ ، والإنفاق في غير الوجوه المشروعة ، وتحكم الهوى في الأثرياء ، فشاع فيهم اللهو والرقص والخلاعة والمجون ، ومجالس الأنس والشراب ، وافتنوا في الصيد ، وانتقوا كلابه ، واختاروا صقوره وبزاته ، وقضوا في ذلك معظم أوقاتهم ، وانتشرت تجارة الرقيق ، وشاعت ، حتى أنه كان في بغداد شارع يسمى

---

١) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، شرح العوامرى والجارم الجزء الثانى صفحة ٤٨

شارع الرقيق ، وا قتنوا الجوارى والقيان ، حتى ألف الجاحظ رسالة فى القيان ، واتخذوا الخصيان لخدمتهن ، والقيام بشئونهن ، وكانت الجوارى والحظيات يتألقن فى ثيابهن ويتشبهن بالغلمان فى قص الشعور وتفصيل الثياب ، وقد عرفن فى الأدب العربى باسم "الغلاميات" كما انتشر الغلمان الذين كانوا يتشبهون بالنساء فى اتخاذ وسائل التمويه والطراوة ، ولبس الحلل المزركشة الموشاة ، ويمعنون فى التزين والتجمل ، والتعطر والادهان ، وتعاطوا الخمر سرا وعلانية ، حتى أن بعض الخلفاء كان يدمنه ، وأعمل الجاحظ سيف نقده فى هذه الأوضاع التى تنبت عن الذوق فسادا ، يقول : (ومن ذلك ما ذل شعيب بن زياد على شرب النبيذ فقال : لا أتركه حتى يكون شر عملى .. وقال المأمون : اشربه ما استبشعته ، فإذا سهل عليك فاتركه)[٢]. (وقيل لآخر : إنك لحسن السحنة ، قال : آكل لباب البر ، وصغار المعز ، وأدهن بخام البنفسج ، وألبس الكتان)[٣] (وقد يحلق البخيل على نفسه من المؤن ، ويلزمها من الكلف ، ويتخذ من الجوارى والخدم ، ومن الدواب والحشم ، ومن الآنية العجيبة ، ومن البزة الفاخرة ، والشارة الحسنة ، ما يربى على نفقة السخى المثرى ، ويضعف على جود الجواد الكريم ، فيذهب ماله وهو مذمم ، ويتغير حاله وهو ملوم ، وربما غلب عليه حب القيان ، واشتهر بالخصيان وربما أفرط فى حب الصيد ، واستولى عليه حب المراكب)[٤].

ويقول فى رسالته (فى الرد على النصارى) : (ومما يدل على غلظ رحمتهم وفساد قلوبهم أنهم أصحاب الخصاء ، من بين جميع الأمم ، والخصاء أشد المثلة ، وأعظم ما ركبه إنسان ثم يفعلون ذلك بأطفال لا ذنب لهم ، ولا دفع عندهم)[٥].

---

٢) البيان والتبيين : الجاحظ : تحقيق عبد السلام هارون الجزء الثانى صفحة ٨٣

٣) كتاب البخلاء : الجاحظ : شرح العوامرى والجارم الجزء الثانى صفحة ١٣٢

٤) البخلاء : الجاحظ : تحقيق طه الحاجرى صفحة ١٠٤

٥) ثلاث رسائل : الجاحظ : يوشع فنكل : المطبعة السلفية صفحة ٢١

ونتيجة للفقر المدقع ، والغفلة والغباء ، ظهرت طبقات من المكدين والشطاره والطفيليين والمخرفين ، والغشاشين المدلسين ، سلاحهم الخداع لابتزاز الأموال ، والتمويه والتلبيس لاستدرار الرزق ، يأخذونه دون كد ، ويحصلون عليه بإراقة ماء الوجه ، والجاحظ من ورائهم ، يتابع سخرياته ، ويرصدهم بنقده واستهزائه ، ويفضحهم على الملأ فيقول عن المكدين ، (قالوا ، وإنك لتعرف المكدين ؟ قال ، وكيف لا أعرفهم ! لم يبق في الأرض مخطراني ولا مستعرض الأقفية ، ولا شحاذ ، ولا كاغاني ، ولا بانوان ، ولا قرسي ، ولا عواء ، ولا مشعب ، ولا مزيدي ، ولا أسطيل إلا وقد كان تحت يدي) (٦). ويقول في الغشاشين المزيفين ، (ثم لا يدع مزيفا ولا مكحلا ولا زائفا ولا يوينا ولا بهرجا إلا دسه فيه ، ودلسه عليه ، واحتال بكل حيلة ، وتأتى له بكل سبب) (٧).

* * *

أما الأوضاع السياسية ، فقد شارك فيها الجاحظ مشاركة فعالة ، فكتبه السياسية والمثالية ، ومناقب الترك وعامة جند الخلافة ، ووجوب الإمامة ، والعرب والعجم والرسائل الهاشميات ، تبرهن على إسهامه في الحياة السياسية ، وهو كما جبل عليه يقتنص الأوضاع الغريبة ، والأحداث العجيبة ، التي شارك فيها ، ومن أشهر هذه الحوادث تنور ابن الزيات ، فقد كان الجاحظ محبا لابن الزيات الوزير ومنحرفا عن ابن أبي دؤاد القاضي الذي استطاع أن يستميل الخليفة المتوكل إليه - وكان عدوا للمعتزلة والحرية الفكرية - فأسقط ابن الزيات ، وفتك به ، وكان ابن الزيات قد أعد تنورا به مسامير بالداخل ، يعذب به ، ويحرق المخالفين والعصاة ، فكان جزاؤه أن عذب به لغضب المتوكل عليه ، فهرب الجاحظ ، (فقيل له ، لم هربت ؟ فقال ، خفت أن أكون ثاني اثنين إذ هما في التنور) (٨) ولكنهم جاءوا به مقيدا ، فنظر إليه ابن أبي دؤاد ، وقال ،

---

٦) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، شرح العوامري والجارم الجزء الاول صفحة ٨٦

٧) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجري صفحة ٨٥

٨) معجم الأدباء ، ياقوت صفحة ٧٩ الجزء ١٦ .

(والله ما علمتك إلا متناسيا للنعمة ، كفورا للصنيعة ، معددا للمساوئ ، وما فتئت باستصلاحي لك ، ولكن الأيام لا تصلح منك لفساد طويتك ، ورداءة دخيلتك ، وسوء اختيارك ، وتغالب طبعك . فقال له الجاحظ : خفض عليك أيدك الله ، فو الله لأن يكون لك الأمر على خير من أن يكون لي عليك ، ولأن أسيء وتحسن ، أحسن عندك من أن أحسن فتسيء ، وأن تعفو عني حال قدرتك أجمل من الانتقام مني) (٨) .

ويدافع عن السلطان ، ويسخر من هؤلاء الذين يقفون له بالمرصاد ، ويتأولون أعماله وأقواله ، ويعيبون حكمه ، ويسخطون على أيامه وعصره . يقول : (السلطان لا يخلو من متأول ناقم ، ومن محكوم عليه ساخط ، ومن معدول عن الحكم زار ، ومن متعطل متصفح ، ومن معجب برأيه ، ذي خطل في بيانه ، مولع بتهجين الصواب ، والاعتراض على التدبير ، حتى كأنه رائد لجميع الأمة ، ووكيل لكافة المملكة يضع نفسه في موضع الرقباء ، وفي موضع التصفح على الخلفاء والوزراء ، لا يعذر وإن كان مجاز العذر واضحا ، ولا يقف فيما يكون للشك محتملا) (٩) .

∴ ∴ ∴

والأوضاع الثقافية التي سادت في هذا العصر كانت في كثير من أشكالها لا تعجب الجاحظ ولا تلائم ثقافته ، فسخر مما لم يسغه عقله ، وولع بما جافى منطقه وفكره ، وحطم أصنام المتلبسين وأنزلهم من رفيع عروشهم ، حين كشف عيوبهم ، وبين خطل رأيهم .

رأى من المعلمين : من يعلم الصبيان القرآن والصلاة والغناء ، ومن يحب من لم يرها ، ولا يعرف أوصافها ، ولا شيئا عنها أكثر من كنيتها "أم عمرو" ويطير فرحا بهذا الحب ، ثم يحتز ويموت كمدا لسماعه خبر موتها (١٠) ومن يقلد نباح الكلاب ليجتذب تلميذا اختفى منه ، وكان يعرف مقدار حبه لكلبه (١١) ومن يجلس وحده في الكتاب وقد هرب

---

٩) رسائل الجاحظ ، للجاحظ ، ص ٤ ، ٢ طبعة دار النهضة - بيروت ، ومجموعة رسائل الجاحظ ، ص ٢ مطبعة التقدم طبعة سامي .

١٠) المستطرف في كل فن مستظرف ، الأبشيهي الجزء الأول صفحة ٢٤٢ وفي ثمرات الأوراق ، ابن حجة الحموي الجزء الأول صفحة ١٨٠

١١) المستطرف في كل فن مستظرف ، الأبشيهي الجزء الأول صفحة [illegible]

الصبيان منه يتضاءون ولرهبته من بطشهم خاف إرجاعهم إليه (١٢).

ورأى الكتاب في تنافس على نيل المناصب ، وتصارع لتولي ديوان الإنشاء ، وتهافت في تدبير المكائد لبني مهنتهم ، وهم مع ذلك (في الذروة القصوى من الصلف ، والسنام الأعلى من البذخ ، وفي البحر الطامي من التيه والسرف ، يتوهم الواحد منهم أنه إذا عرض جبته ، وطول ذيله ، وعقص على خده صدغه ، وتحذف الشابورتين على وجهه ، أنه المتبوع ليس التابع ، والمليك فوق المالك ، ثم الناشئ فيهم إذا وطئ مقعد الرياسة وترك مشورة الخلافة ، وحجرت السلة دونه ، وصارت الدَّوَاةُ أمامه ، وحفظ من الكلام فتيقه ، ومن العلم ملحه ، أنه الفارق الأكبر في التدبير ، وابن عباس في العلم بالتأويل ، فيكون أول بدوه الطعن على القرآن في تأليفه ، والقضاء عليه بتناقضه) (١٣). (وجلس الجاحظ يوما في بعض الدواوين فتأمل الكتاب ، فقال : خلق حلوة ، وشمائل معشوقة وتظرف أهل الفهم ، ووقار أهل العلم ، فإن ألقيت عليهم الإخلاص ، وجدتهم كالزبد يذهب جفاء ، وكنبت بحرقه الهيف من الرياح ، لا يستندون من العلم إلى وثيقة ، ولا يدينون بحقيقة) (١٤). وعاب كراهيتهم بعضهم ، وسرورهم بالوقيعة وتمنيهم زوال النعمة عن أبناء مهنتهم ، يقول لهم (١٥) ، (فلكم أولاد علات وضرائر أمهات في عداوة بعضكم بعضا ، وحنق بعضكم على بعض) وصور تباغضهم بقوله : (هم كالعريق من الكلاب في مرابضها) يمر بها أصناف الناس فلا تتحرك ، وإن مر بها كلب مثلها نهضت إليه بأجمعها حتى تقتله) (١٦).

١٢) المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي الجزء الأول صفحة ١٤٢

١٣) ثلاث رسائل : الجاحظ ، ط ٢ يوشع فنكل صفحة ٤٢ ، رسائل الجاحظ هارون $\frac{٢}{١٩٢}$

١٤) ثلاث رسائل : الجاحظ ، طبعة ثانية يوشع فنكل صفحة ٤٥ رسائل الجاحظ هارون ٢/ ١٩٩ مكتبة الخانجي .

١٥) ثلاث رسائل : الجاحظ طبعة ثانية يوشع فنكل صفحة ٤٧ رسائل الجاحظ هارون $\frac{٢}{٢٠٦}$ مكتبة الخانجي .

١٦) ثلاث رسائل : الجاحظ : نشر يوشع فنكل ص ٤٦ الطبعة الثانية .

وكان المؤلفون يعانون [illegible] فينسبون كتبهم

إلى بريق الاسم المشهور، صارفين النظر عما في الكتاب من نقص، ملتمسين له العلل والمعاذير، كما كانوا يعبثون بكتب غيرهم فيغيرون فيها ويبدلون. يقول الجاحظ (كنت أؤلف الكتاب الكثير المعاني، الحسن النظم، وأنسبه إلى نفسي فلا أرى الأسماع تصغي إليه، ولا الإرادات تتيمم نحوه، ثم أؤلف ما هو أنقص منه رتبة وأقل فائدة، وأنحله عبد الله بن المقفع، أو سهل بن هارون، أو غيرهما من المتقدمين، ومن صارت أسماؤهم في المصنفين، فيقبلون على كتبها، ويسارعون إلى نسخها، لا لشيء إلا لنسبتها للمتقدمين، ولما يداخل أهل هذا العصر من حسد من هم في عصرهم)(17).

وقد كان كثير من أدباء عصره وعلمائه يحسدونه على ما آتاه الله من فضله وقد (صنف كتابا من كتبه، وبوبه، وبثه في الناس، فأخذه بعض أهل عصره، فحذف منه أشياء، وجعله أشلاء، فأحضره، وقال له: يا هذا إن المصنف كالمصور، وإني قد صورت في تصنيفي صورة كانت لها عينان فعورتهما أعمى الله عينيك، وكان لها أذنان فصلمتهما صلم الله أذنيك، وكان لها يدان فقطعتهما، قطع الله يديك، حتى عد أعضاء الصورة)(18)

...

وكانت الأوضاع الدينية — في كثير من حالاتها — خارجة عن المتعارف، بعيدة عن المتآلف، فقد تعددت المذاهب والنحل، وانقسم علماء الكلام شيعا وأحزابا، وكثرت الطوائف الإسلامية وغير الإسلامية، وتضاربت آراؤهم، وكفر بعضهم بعضا، وشاعت الزندقة والإباحية، وادعى البعض الصلاح والفقه، وتعاملوا بالربا، وأتوا الذكران، وتعشقوا الغلمان، وافترشوا القيان وغير القيان، واستحلوا الحرام، وأباحوا الممنوع، وكانت هذه الأوضاع تلقى من الجاحظ نفورا ومعارضة، ودعوة إلى التقويم والتهذيب، عن طريق

---

17) مجموعة رسائل الجاحظ، رسالة فصل ما بين العداوة والحسد: ص108، 109.

18) أمراء البيان، محمد كرد علي، ج ، ص465.

النمى عليهم ، والسخر منهم . فمن سخره من عادة إتيان الغلمان قوله : قال قاسم التمار : (قالتوى لى عرق حين تحدثتها مقعد الرجل من الغلام .. وقال فى غلام له رومى : ما وضعت يمنى بين الأرض أطيب منه) (١٩). كما سخر من بعضهم لتركه الصلاة بقوله عن قاسم : (وأقبل على أصحابه وهم يشربون النبيذ ، وذلك بعد العصر بساعة فقال لبعضهم : قم صل فاتتك الصلاة ! ثم أمسك عنه ساعة ، ثم قال لآخر : قم صل ويلك فقد ذهب الوقت ! فلما أكثر عليهم فى ذلك وهو جالس لا يقوم يصلى ، قال له واحد منهم : فأنت لم لا تصلى ! فأقبل عليه ، فقال : ليس والله تعرفون أصلى فى هذا ؟ قلت : وأى شيء أصلك ؟ قال : لا تصلى لأن هذه العرب قد جاءت !) (٢٠).

وقد كانت الحالة الدينية فى ذلك الوقت تدعو إلى القلق ، فقد تهاون كثير من الناس فى أمر الدين وأكلوا الودائع وأموال اليتامى ، يقول الجاحظ فى ذلك ساخرا : (قد كنت أتعجب من بعض السلف حين قال : "ما أعرف شيئا مما كان الناس عليه إلا الأذان" وأنا أقول ذلك ... ولو كانوا إذا جلسوا فى الخيوش ، واتخذوا الحمامات فى الدور ، وأقاموا وظائف الثلج والريحان واتخذوا القيان والخصيان ، استردوا الناس ودائعهم ، واسترجعت القضاة أموال اليتامى والحشرية منهم ، لما دوا إلى دينهم وبينهم واقتصادهم) (٢١). وأصبح ساكن الدار يسىء إلى جيرانه ، ويخدع غلام صاحب الدار ، ويفسد جاريته عليه يقول الجاحظ : (فإن كان الرسول جارية رب الدار أفسدها ، وربما أحبلها ، وإن كان غلاما خدعه ، وربما شطر به ، هذا مع التشرف على الجيران ، والتعرض للجارات ، ومع اصطياد طيورهم ، وتمريضنا لشكايتهم ، وربما استضعف عقولهم ، وطمع فى فساد نسائهم

---

١٩) البيان والتبين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء ٤ صفحة ١٢ .

٢٠) البيان والتبين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء ٤ صفحة ١٢ .

٢١) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجرى صفحة ٢٠٥ .

وحصهم ، فلا يزال يضرب لهم بالأسلاف ، ويغريهم بالشهوات) (٢٢).

ويروى عن الجاحظ أنه (إشترى مرة خصيا أسود فسئل فى ذلك ، فقال : اشتريته أسود لئلا أتهم به ، وخصيا لئلا يتهم بى)

ويفصح الجاحظ عن الحالة الدينية المنحلة فى عصره بقوله : " وقد ترك هذا الجمهور الأكبر والسواد الأعظم التوقف عند الشبهة ، والتمست عند الحكومة جانبا ، وأضربوا عنه صفحا ، فليس إلا لا أو نعم ، على أن قولهم لا موصول منهم بالغضب ، وقولهم نعم موصول منهم بالرضا ، وقد عزلت الحرية جانبا ، ومات ذكر الحلال والحرام ، ورفض ذكر القبيح والحسن)(٢٣).

لقد تناول الجاحظ بسخره — كما ألمحنا — الحياة بكل صنوفها والأحياء بجميع ضروبهم ومجتمعه على إختلاف طبقاته ، إذ تقدم ما تزحم الجميع ، وغاص فى قرارة نفوسهم ، وأحصى عليهم مسلوكهم ، وأبت عليه همته ، ونفسه المفعمة بالخير وحب الناس ، والحياة السوية أن يتركهم فى هوة ما دائهم ، وسخيف تفكيرهم ، ولم تقبل روحه الرقيقة ، وأدبه الجم ، أن يكون البهاء والتشنيع وسيلة لتحقيق هدفه ، وإنما اختار السخر لدقته ورقته وخفائه ، ولمحيته ، فنقدهم بتهكمه ، وعالجهم بسخره ، وطببهم بدوائه فى أن جرعات منا سبة يتخذ لها وقتها ومقدارها وطريقة اعدادها ليشفيهم من هذه الأدواء التى تنخر فى عظامهم وعظام مجتمعهم وتوشك أن تقوض بناء الأمة ، وصرح حضارتهم .

(٢٢) البخلاء : الجاحظ ، ضبط العوامرى والجارم ، الجزء الاول ص ١٥٣ ، ١٥٤

(٢٣) الحيوان : الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، الجزء الرابع صفحة ٨٩ .

تمهيد :

السخرية ألوان متعددة ، وطرق متنوعة ، ولكل لون تأثير محدد ، ولكل طريقة لذع معين ، بل إن لكل سخرية أثرها الخاص في نفوس السامعين ، وفي نفس المسخور ، لا يوجد في سواها ، ولا يؤدي غيرها مؤداها .

ويتوقف عمق السخرية ، ومقدار تأثيرها في النفوس ، على الساخر ، والمسخور ، والحضور والموقف العام ، والموقف الخاص ، والأسلوب الذي تقال به ، والعبارة التي لها تنتقى ، كما أن للزمان والمكان دخلا كبيرا ، وعلى الساخر أن يراعي كل هذه المكونات ، ويوازن بينها ويلحظ التناسب فيها والتفاعل بين عناصرها ، حتى يحقق للسخرية التفوق ، فتؤدي الغرض ، وتصيب الهدف ، وتلك كلها خطوط عريضة يلتزمها الساخر ، فلا يحيد عنها ولا يخرج من إطارها .

وألوان السخرية ، وجوانبها الفنية ، أكثر من أن يحدها حد ، أو يحيط بها عد ، لأنها فن لا يخضع للقيود والرسوم والحدود — شأن كل فن — والساخر فنان ، ينتقل من واد إلى واد ، ينشر الشاردة ، ويصيد النافرة ، وينوع في سخرياته ، ويبدع فيها ما شاء له إبداعه ، ويبتكر أنماطا جديدة ، ويولد منها أشكالا وضروبا ، أو يلقف القديم ، فيغير حاله ، ويحول ملامحه ، ويصبغه بصبغة ، ويعيد صبره وصبه في قوالب جديدة ، تميل إليها الأذهان ، وتنشط لسماعها الآذان ، كأنها من قبل ما وعته ولا سمعته .

ولقد كان أبو عثمان الجاحظ أول من اتخذ من السخرية فنا أدبيا ، بثه في جميع مؤلفاته ، بطريقته التي ابتدعها ، وهي خلط الجد بالهزل ، ومزج النصيحة بالفكاهة والترويح من ثقل الدرس بالإحماض ، تنشيطا للقارئ ، وإمتاعا لروحه ، وتثقيفا لذهنه ، فقد كانت السخرية عنده من وسائل التعليم والتثقيف ، والتنبيه إلى الخطأ والعيوب ، ليتجنبها من وقع فيها ، ويعرف أضرارها من لم يقع ، فيتقي ويحاذر .

وما دام الجاحظ قد اتخذ السخرية فنا يقصدها لتأليف والتدوين فى كتاب أو رسالة فمن حقها عليه أن يعد لها مستلزماتها ، ويوفر لها أدواتها ، ويهيىء لها أسباب نجاحها وتفوقها ، من معرفة بأحوال الناس وخاتلهم ، وآمالهم وآلامهم ، ويقف على متطلبات حياتهم ، ويدرس طباع النفس الإنسانية ونوازعها ، وعاداتها وتقاليدها ، وأسباب فرحها وانقباضها ، أو ضيقها وانقباضها ، ثم يتخذ العبارة الموجزة ، والأسلوب السلس، واللفظ الخفيف ، ويعتمد على اللمحة واللمسة ، والإشارة والكناية ، ويصب عمله فى قالب من التعريض والتلويح ، لتحقق السخرية ما أراده منها ، وتجنى ثمراتها طيبة شهية وتوضع على موائد الأدب ناضجة ساخنة ، فتعطى نكهتها العجيبة المنعشة ، رغم لذعها وحرارتها ، وتتفتح لها النفوس والعقول ، فتنشط وتتحفز ، كما تختار التوابل اللاذعة ، وتنتقى الأبزار الحريفة ، لتضاف الى الموائد ، فتتفتح لها الشهية ، وتنشط المعدة ، وتتحفز الأمعاء .

والجاحظ — إمام هذا الفن — قد راعى كل ذلك وحققه ، ونثره فى كتبه ، ونشره فى رسائله ، فاشتهر به واقتعد غاربه وانفرد بإمامته ، وصار علما على هذا اللون من الأدب حتى لتكاد تنسب إليه كل سخرية بارعة ، ويرجع إليه كل تهكم مرير ويوازن به كل كاتب ساخر ، وتعقد بينه وبين غيره المقارنات ، فيشبهون به فولتير الذى يعد فى مقدمة المتهكمين الساخرين من المجتمع الذى عايشه ، فقد صب لاذع تهكمه على رجال الدين ، ونظم الحكم بصفة خاصة وسجل ذلك فى كتبه الحديثة ، ومسرحياته الخالدة .

(ففولتير لا يهزأ بتعاليم الدين ، ولا يستخف بنظم الحكم فحسب ، بل إنه يشفق على هؤلاء الناس الذين خدعهم رجال الدين بخرافاتهم وأكاذيبهم ، ثم أولئك الذين غررهم رجال السياسة بمعسول كلامهم ، فهو يدعو الإنسان للتحرر من سلطان رجال الدين ، كما يدعوه للثورة على رجال الحكم لا بالسلاح .. بل بالسخرية بهؤلاء وأولئك فالقارىء إذا ما انتهى من كتابه (كانديد) ارتسمت على وجهه ابتسامة اشفاق ، أوانطلقت

واحساس

منه ضحكة تهكم ، هى مزيج من الاعتداد بالنفس ، واحساس بتفاهة الغير)[1].

ألم يكن الجاحظ كذلك ، ساخرا بالمجتمع الإنسانى يعيب أعماله وتصرفاته ، وينعى عليه جهله وفساده ، ونظم الحكم فيه ، وقد سجل سخرياته من مجتمعه فى كتبه ، ومن أشهرها ، البخلاء ، والحيوان ، والبيان والتبيين وفى رسائله وقد خص بذلك رسالة يسخر فيها من أحمد بن عبد الوهاب ، كما أنه عاب الكثير من رجال الدين فى تفكيرهم وأقوالهم وأفعالهم[2] ، لا بسخرية من الدين ، وإنما استهزاء ببعض رجاله الذين يلفون عقولهم وحاربهم لا بالسلاح الحديد الذى يسيل الدماء ، وإنما بالسخرية الماثلة التى تريق الكرامة ، وهو لم يهزأ من صحيح الأحاديث ، وإنما من بعض تفسيرات وتأويلات لا يقرها عقل ، ولا يسيغها ذوق ، فضلا عن عقل عالم وذوق أديب ، اشتغل بالتحقيق والتمحيص قرنا من الزمان ، (وما يشك أحد فى أن الجاحظ إمام الأدباء فى فن الحماقة الجانحة بالفكاهة ، والمراوحة بين الجد المستمر ، والضحك المؤنس ، والانتقال من برهان مقنع إلى تهكم موجع ، وسخرية لاذعة)[3] ، فى براعة وحسن تأت ، ومراعاة لحال القارئ والسامع ، فإن بدا عليه الكلال من طول الجد أسعفه بنادرة ساخرة يكون فيها نشاطه وذهاب سأمه ، وإن اشتط فى تقديراته وتصوراته ، وسار فى تيار ادعاءاته ، عاجله بسخرية تعرفه قدره ، وتثيب إليه رشده ، وتوقفه عند حده ، فتكون أداة تهذيب وإصلاح ، مع

---

1) سيكلوجية الضحك ، أحمد عطية الله ص١٣٨ الطبعة الثانية - دار النهضة العربية أكتوبر سنة ١٩٦٤

2) ككلامه عن سفينة نوح وسنانيرها وفئرانها والحجر الأسود .

3) الجاحظ ، أحمد الحوفى ص ١٠٠

احتفاظ بالألفة، واستمرار للصداقة والعشرة.

وقد أبدع في سخرياته، وأتقنها، وأتى منها بالعجب العجاب، ولونها بألوان ثقافته، وطبيعة بيئته، موفقاً لذاته، واتخذ من معاصريه نماذج أدار عليها حواره، وجعلها ميداناً لفكاهته، وهدفاً لسخريته، ورسم لها الظلال والألوان، فمد خطوطها، وتلاعب بأشكالها، ونقض هندستها، وهدم بناءها، فعادت مسخاً مشوهاً يثير الضحك، ويدفع إلى السخر، وهذا ما نعبر عنه حديثاً (بالصورة الكاريكاتورية) وهذا اللون (الكاريكاتيري) الساخر يعتمد على التصوير لا على اللفظ وعلى التجسيم والتشخيص والمقارنة لا السب والشتم والمهاترة، وإنه يبتعد كثيراً عن النوع الآخر من الهجاء الذي يتضمن أنواعاً فاحشة من الاتهامات والقذف كما يبتعد أيضاً عن الهجاء الشعبي الذي يشبه (الردح)[٤].

وسخرياته مستمدة من الحياة الواقعية يهتم فيها بتمثيل الأشكال الظاهرة، وتصوير الهيئات والمناظر والحركات، وهو مع ذلك يغوص داخل النفس البشرية، يحللها، ويصور أحاسيسها وانفعالاتها، وطباعها وأطباعها، وأخلاقها وسلوكها، ويقف على مواطن السخرية، وبواعث الإضحاك، ويجعل ذلك كله مدداً لسخرياته، وأصلاً لتهكماته، فتأتي سخريته حافلة بكل المضحكات، مليئة بما يمس المتهكم به ويرديه.

ولقد اتخذ لسخرياته الجوانب الفنية التي تحقق لها النجاح، وتوافرت فيه العوامل التي تهيء لها السبق والارتقاء، فقد كان مرحاً خفيف الروح، مستخفاً بالحياة، هازئاً بأرزائها، لماحاً للمعايب، بارعاً في التصوير، قوياً في التعبير، ممتلكاً فنان الأسلوب عليماً بإشعاعات الألفاظ، خبيراً بطبائع النفوس ملماً بمعارف عصره، سابراً غور مجتمعه كاشفاً دخائل معاصريه، بصيراً بما يختلج في نفوسهم، ويحاولون ستره، والظهور

---

٤) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، محمد مصطفى هدارة صفحة ٤٣٤ ط دار المعارف.

على خلافه ، نقادة ، بزن الأمور بميزانها الصحيح ، فيلذع من يطفف الكيل ، أو يخسر الميزان ، ويرميه بسلم سخريته ليرتدع ويرعوى (٥).

والذين يتحدثون عن الفكاهة أو السخرية أو النادرة فى أدبنا العربى بعامة وعند الجاحظ بخاصة ، ويجعلونها مجالا لبحوثهم ، ومحورا لأحاديثهم ، قد يقسمونها حسب ممثلة من يسخرون منه ، فيجعلون بابا للسخرية من الفقهاء وآخر للسخرية من المعلمين أو الدجالين أو المتطببين ...

أو يقسمونها حسب الموضوع الذى منه يسخرون ، أو العيب الخلقى الذى يديرون الحديث عليه ، كالغفلة والبلادة والتطفل والبخل والادعاء فيضمون كل نمط من هذه الأنماط فى مجموعة خاصة تحت عنوان من تلك العناوين ...

وقد يكون هذا الضم وذلك الجمع بحسب العيوب الجسدية ، فهذه سخريات من العميان ، وتلك من العور ...

وقد يضعون لكل سخرية عنوانا ، يستنبطونه من داخلها ، دون أن ينظموا المتشابه منها فى سمط واحد ، فهذه سخرية تحت عنوان ، الشهوطة وتلك تحت عنوان ، أكلة منصب أكلات .

ولكنى يروقنى أن أقسم أنواعها ، وأعدد ألوانها ، بحسب الناحية الفنية ، التى من أجلها كانت سخرية ، وأضع لها العناوين بحسب الأداة التى يستعملها الساخر ، فتؤثر فى السامع الضحك والطرب ، وفى المتهكم به الانقباض والغضب ، وأقسمها بحسب أصولها وبواعثها ومثيرات الضحك فيها ، وأتبع بدراسة تحليلية تكشف مصادرها ومضامينها ومراميها ، ووجه الابداع فيها ، وأرجو أن أحقق ما أجهيت من ذلك فى الفصول الستة القادمة إن شاء الله .

---

٥) أوضحت ذلك فى الرسالة فى الفصل الثالث من الباب الأول " دوافعها وعناصر نجاحها .

الفصل الأول

التصوير الهزلى "الكاريكاتور"

وهو لون من ألوان النقد ، وفن من فنون السخرية ، يعتمد على الألوان والأشكال والأضواء والظلال ، والتشبيه والتمثيل ، ورسم الصورة المبالغ فى حجمها ، أو الحركة مع غير إلفها ، المستعيرة أعضاء ليست من جنسها ، فيقف الساخر عند جانب من جوانب التعريف جسد شخص أو تفكيره أو سلوكه ، فيبرزه إبرازا يلفت النظر إليه عما عداه من الملامح والسمات ، ويضخمه (كأنما يريد أن ينمى الضعف والعيب الذى يكمن فيه إلى أقصاه ، فنرا ، ينتهز فرصة مثل تقويس حاجب ، أو انحناء أنف أو تجعيد جبهة ، أو انتفاخ خد ، أو طول ذقن ، أو ضيق عين ، ويكبر ذلك مشوها ، مستغلا للطبيعة والخلقة)(٦) فيبرز الحركة التى قد لا تدرك ، ويسلط عليها الأضواء الكاشفة ، فيجعلها واضحة بارزة أمام العيون ، تدعوهم أن يشاهدوها ، وتشدهم نحوها ليسخروا منها ، مع حرص الساخر على سترها وإخفائها عن الناس حتى لا يحير بها ، وهذا ما يضاعف السخرية ، ويزيدها قوة إيلام ودقة إحكام ، حين ينكشف القناع ، وتبدو السوآت ، وتمتك الأستار ، وبذلك تصبح الصورة الساخرة قوية التعبير عن صاحبها ، لأن المصور غاص وراء المعانى الخفية فالتقطها ، وركز على الجوانب الهامة فأبرزها وعبث بها ، وغير نسبها وفى الوقت نفسه تصبح مثارا للضحك ، ومجالا للسخر ، لما بدا فى شخصية الساخرة من تنافر واضطراب ، وتعارض بين ماهى عليه وما ينبغى أن تكون عليه ، أو بين ما يراها الناس عليه ، وما تدعى أنها عليه . والتغيير فى النسب قد يكون فى الأشياء الحسية الظاهرة ، فيضحك الإنسان من بعض الأوضاع الغريبة الشاذة ، والهيئات المتناقضة ، والأقوال الموضوعة فى غير مواضعها المعروفة .. وقد يكون

---

٦) الفكاهة فى مصر ، شوقى ضيف ص ١٥ كتاب الهلال مطبعة الهلال .

هذا التهديل فى النسب فى الأمور المعنوية والنفسية فنضحك مثلا من بعض التفكيرات الغريبة والتصرفات الشاذة ، ونحن نجد فى قصص الجاحظ النوعين جميعا (٧).

وتكثر الصور الكاريكاتورية فى عهود الفوضى والانحلال والاضطرابات ، حيث تضعف الروح الجماعية ، وتتفكك الروابط ، ويقل التساند ، وحيث لا يقوى المغلوب على الوقوف فى وجه الغالب ، ولا يستطيع فى نفس الوقت كبح جماح غضبه ، والسيطرة على انفعالاته ، فتصبح الصورة الساخرة آنذاك أداة للتنفيس عما تشعر به الجماعة من قلق وحيرة وخيبة ، وما يشعر به الأفراد من آلام مكبوتة ، وغيظ دفين يخشون مغبة إظهاره والإفصاح عنه ، وقد يكون الغرض منها كما يقول لانسون « توجيه انتباه القارئ فى لمحات سريعة خاطفة إلى خصائص خفية ، موجودة فى الشخص كى يؤلف من جماع هذه الخصائص المعروضة صورة تدعو إلى الاعجاب إذا كان الغرض منها المدح ، وإلى التهكم إذا كان غرض الكاتب النقد والهجاء (٨).

وما يحدث فى تصوير الأشخاص بالألفاظ والعبارات من عبث بهم ، ونقض لأوضاعهم وتشويه لمكوناتهم .

وما يعترى الصورة الأدبية الساخرة من تقديم وتأخير ، وقلب وحذف ، وما يصيب الكلمات المفردة من تصحيف وتحريف ، وزيادة ونقص .

كل ذلك ضرب من الكاريكاتير يحدث مثله فى تصوير المناظر والأشخاص بالقلم والفرشاة فكلا النوعين تصويرهازل ساخر ، عابث بأعضاء الصورة ، هازئ بمعالمها ، إلا أن الأول أداته الكلمة والعبارة ، ومجاله وهواه فى معانيه وبيانه وبديعه ، والثانى أداته القلم والفرشاة ومجاله فى ألوانه وظلاله وأضوائه وسر براعة النوعين يكمن فى حسن استخدام الأدوات ، والتنسيق والملاءمة بين عناصر الصورة ، ومراعاة التناسب بين أجزائها .

---

٧) فن القصص فى كتاب البخلاء ، صفحة ٠ ٣ الطبعة الثانية .

٨) أبو حيان التوحيدى ، إبراهيم كيلانى صفحة ٦٩ ط ٢ دار المعارف

ويمتاز التصوير الكاريكاتوري الذى يستخدم اللوحة والفرشاة ، ويتلاعب بالصورة ، ويغير تعبيرها وقسماتها من التصوير العادى الذى يحكى المناظر كما هى ، ويؤدى الصورة كما يراها ، ويرسمها بالفرشاة والمداد والألوان ، بأن الأول يسجل ما وقعت عليه العين وما لمسته الحواس ، وما جال فى الشعور ، واضطرب فى الوجدان ، ويجاوز الحقيقة المشاهدة ، والواقع الملموس ، إلى إبراز خفايا النفس ، وطوايا القلب ، نفس وقلب المصور نفس وقلب المصور ، فتبعد الصورة عن هيئتها ، وتطوى ظاهرها ، لتكشف باطنها ، فهو تصوير من الداخل ، وللمصور الحرية فى التغيير فى مظهرها كيفما يشاء .

أما الثانى فينقل المظهر الخارجى ، ويحافظ على مقاييس الأعضاء ، وهيئتها وألوانها كما هى ، وقد يتدخل فى الصورة بشىء من فنه ، فيضيف إليها القليل من الخطوط والألوان ويزيل منها بعض التجاعيد والظلال ، تحسينا لها ، وإبرازا لجمالها ، وإظهارا لبعض تعبيرات تضفى عليها الرونق والبهاء .

وفرق بين هذا النوع الثانى وبين التصوير الشمسى أو الضوئى لأن هذا الأخير ينقل الصورة كما هى بعيوبها ومحاسنها ، دون أدنى تغيير ، فهو عمل آلى ، لا انفعال فيه وما يلزمه من افتنان كاختيار المناظر ، وانتقاء الزوايا التى يقف فيها المصور والمصور ، وتفاوت كمية الضوء الساقطة على بعض أجزاء الصورة ، لا أهمية له إلا فى جعل الصورة مطابقة للأصل ، وغاية نتاج هذا اللون ، وأرقى أنواعه ، هو ما توافرت فيه أمانة النقل ، وعزله تدخل المصور مع الآلة ، واقتداره على التحكم فيها من أجل تحقيق هذه الغاية .

وأرقى أنواع التصوير ، وأكثرها لصقا بالنفس ، وأشدها التصاقا بالفن ، التصوير المعنوى الأدبى بالكلمة والعبارة والقصة والرسالة .

لأن الأديب يملك فى تصويره الكاريكاتورى بالكلمة والعبارة مالا يملكه المصور بالفرشاة والألوان أو آلة التصوير من الاسترسال فى التصوير والتخييل بالاشتقاق والتوليد فلا يزال

يقلب الصورة يلمعقها ، ويبرز أحشاءها ، ويغير ملامحها ، ويعكس أوضاعها ويخرجها واحدة بعد الأخرى فى أشكال وأوضاع مختلفة حتى يأتى على جميع المعانى التى يحتملها المقام وقد صبها فى قوالب بارقة وأفرغها فى عبارات دقيقة فتجئ معبرة متحركة نابضة بالحياة ممتدة الخطوط متلاحقة الحركات متتابعة التعبيرات بخلاف صورة الفرشاة فإنها تكون خامدة هامدة لا روح فيها ولا حياة ولا حركة ولا تسلسل ولا تتابع ، وبخلاف صورة الآلة لأنها تنقل الأصل دون تعمير فيه ودون كشف دخائله .

ولقد كانت أدوات التصوير الهزلى الكاريكاتورى الساخر عند الجاحظ كثيرة متنوعة ، استفارة يتخذ الكلمة أداة لرسم الصورة الهزلية الساخرة ، ودليلا يهتدى إليها ومدادا وصبغا يلونها بها .

٢ — وطورا يجعل السكون أو الحركة طريقا إليها ، ورمزا يدل عليها ، وإطارا يحتويها ويبرز معالمها .

٣ — وكثيرا ما يستخدم المرآة النفسية المقعرة أو المحدبة لتمكنها اختفى فى حنايا القلوب وزوايا الضمائر ، فى صورة تمرج الخطوط ، وتعبث بالملامح .

٤ — وفى غالب سخرياته يعمد إلى الصورة القصيرة ، يجلى بها بعض مشاهدها ، ويوضح بها الجوانب التى تشتمل على السخرية اللون اللاذع الذى أراده لها .

٥ — وأحيانا يلجأ الى الصورة الفسيحة ، فتكون عناصرها متكاملة متآزرة يأخذ بعضها بحجز بعض ، وتتساند كلها فى إيضاح الصورة العامة الكاريكاتيرية التى أرادها .

٦ — وقد نجده ، كما فى رسالة التربيع والتدوير — يوسع الصورة ، ويفسح مداها ويعمق مغزاها ، ويمد أطرافها لتكون صورة كلية شاملة تتناول « أحمد بن عبد الوهاب » فى كل حركة وكل سكنة ، وكل كلمة ، وكل همسة ، تشمل شكله وتفكيره ، وادعاءه ونفجه وحمقه وجهله ، وعاداته وطباعه ، وجل أخلاقه ، وكأنها شريط مصور يعرض فى دور الخيالة

أ وفى كلية الطب أملم طلابها ، يكشف من موطن الداء ، ويبين تطوره ، ويحدد خطره ، ويفصح من هذه الشخصية ، ويرينا ظاهرها وباطنها ، واقعها وخيالها ، وإن كان يمد إليه يده با لتضخيم والتهويل ، والتمثيل والتجسيم ليتضح الخطر ويتبين أبعاد الكارثة ، أو يصبه فى قالب الصور المتحركة قاصدا المسخ والتشويه فيكتسب الصفة الهزلية "الكاريكاتورية" الساخرة التى تجلب لنا الضحك والسرور.

وهولا يأتى فى كل لون من هذه الألوان بسخريات تجرى على وتيرة واحدة ، وتسير فى خط معين ، وإنما يجعل لكل منها طابعا خاصا ، وسمتا فريدا ، وموطنا للإضحاك ، وسرا يهز النفس ، ويثير الطرب ، بما يحدثه من صنعة وإبداع ، وبما يطبعه عليه فنه من إجادة وإتقان فنحس لكل منها مذاقا خاصا ، ولذعا مغايرا ، وإن كانت جميعها تشترك فى الإضحاك وجلب السرور ، وتبيان عيوب السخرة وتجسيمه . فمن أدواته الساخرة :

* * *

١ ـ الكلمة : وتكون الكلمة أداة للتصوير الهزلى بتغيير بعض حروفها بالتقديم أو التأخير أو الزيادة أو الحذف ، أو التصحيف أو التحريف ، أو بالاشتقاق أو القلب ، أو بتحويلها من معناها الأصلى إلى معنى آخر تحتمله أو يمكن لفحواها أن يدل عليه ، وذلك كله ضرب من العبث بصورتها وهيئتها ، وشكلها ومضمونها ومعاملتها معاملة الأشخاص الذين نعبث بهم ، ونقلب أوضاعهم ، ونمسخ أشكالهم بتحويلهم إلى الصورة الهزليـة "الكاريكاتورية" مع بقاء الملامح الأصيلة ، والخطوط الدالة على الشخصية التى نسخر منها .

يقول الجاحظ : (أتيت منزل صديق لى فطرقت الباب ، فخرجت إلىّ جارية سندية ، فقلت لها : قولى لسيدك : الجاحظ بالباب . فقالت : أقول الجاحد بالباب ؟ ـ على لغتها ـ فقلت : لا ، قولى : الحدقى بالباب . فقالت : أقول : الحلقى بالباب ؟ فقلت :

لا تولي شيئا ، ورجعت) (٩).

فتغيير الجارية النصية بعض الحروف في الكلمة بحروف قريبة منها في المخرج والجرس أحال الكلمة عن معناها وصور الجاحظ تصويرا هزليا ساخرا شوه عقيدته في الكلمة الأولى وشوه كرامته في الكلمة الثانية وجعلهما تؤدي إلى سخرية فاحشة خشي الجاحظ مغبتها ، فاكتفى من الغنيمة بالإياب ، وولى الأدبار قائلا للجارية ، لا تولي شيئا .

وقالت أم ولد لجرير بن الخطفي لبعض ولدها ، " وقع الجردان في عجان أمكم " فأبدلت الذال من الجرذان دالا وجعلت العجين عجانا) (١٠).

فصارت الصورة بهذا التبديل ساخرة هازلة ، "كاريكاتورية " ماجنة ، تثير الضحك بما أحدثه التبديل من معنى غير مقصود ، يسيء إلى المتحدثة ، ويخدش حياءها ، ويضحك السامع لهذه الصورة التي شوهها التصحيف والتحريف وهي خطوطها وعبث بمعناها ،

* * *

٢- السكون والحركة ،

وقد يتخذ الجاحظ من سكون الشخص وتصلبه ، وبلادة انفعالاته ، أو من كظم حركاته ، وتقييد جوارحه ، أداة للتصوير الهازل ، بإظهاره في مظهر الجمادات ، وفي سمت التماثيل وإخماد كل حركة وكل حس فيه ، وفي هذا التحويل إلى ما هو أحط منه رتبة ، وأخس شأنا ، تصوير كاريكاتوري يلغي إحساس الشخص ، ويفسح طريقا للسخرية ، ويفتح بابا للإضحاك .

---

٩) معجم الأدباء لياقوت ج ١٦ ص ٨٥ ، أدباء العرب لبطرس البستاني ط بيروت سنة ١٩٢٤ مكتبة صادر .

١٠) البيان والتبيين ج ١ ص ٧٣ تحقيق عبد السلام هارون ط ٣ سنة ١٩٦٨ مكتبة الخانجي .

كما أن تحويل الضئيل القدر ، الخائر الهمة ، إلى سيد جبار وفارس مغوار لون من الكاريكاتور ، بإلباس القزم ثوبا فضفاضا هو ثوب عملاق يتعثر فيه ويسقط ، أو بكسوة العملاق ثيابا صغيرة ضيقة ، هى ثياب القزم ، فتتمزق وتتقطع ، وتكشف من أعضائه ما حاول ستره .

روى الجاحظ : (كان أبو شمر إذا نازع لم يحرك يديه ولا منكبيه ، ولم يقلب عينيه ، ولم يحرك رأسه حتى كان كلامه إنما يخرج من صدع صخرة)[1]. هذا السكون ، وذلك التصلب والجمود ، والخروج من المألوف — حتى ليدور فى خلد السامع أن الكلام إنما يخرج من صدع صخرة أخذت سمت أبى شمر ، وهذا الصدع الذى بها هو الشق الذى فى وجه أبى شمر يخرج من جوفه الكلام ويسمونه فمه — رسم لنا الصورة الكاريكاتورية الهزلية التى تمسخ كيان أبى شمر ، وتثير سخريا تنا ، وتعلى قهقهاتنا .

وقد يكون تتابع الحركات وكثرتها ، والمبالغة فيها ، أداة لرسم الصورة الكاريكاتورية الساخرة ، التى تضحكنا ، لما يبدو عليه صاحبها من حركات عشوائية طائشة ، أو لأن حركاته لا تحقق رد الفعل المطلوب ، وهو مع ذلك يكررها ويتابعها ، ولا ينال من كل حركة إلا سخرية .

والجاحظ يرسم لنا بيراعه صورة كاريكاتورية فذة ، يجمع فيها الجمود والتصلب ، مع خفة الحركة وتتابعها ، والإلحاح عليها ، فتتضاعف السخرية ، وترتفع قيمة الصورة ، وتتعقد المقارنة والموازنة بين الحالتين المتعاكستين ، اللتين تستدر كل منهما الضحك ، وتثير التهكم والسخر ، فقد روى (أن رجلا من أهل مرو كان لا يزال يحج ويتجر ، وينزل على رجل من أهل العراق ، فيكرمه ويكفيه مئونته ، ثم كان كثيرا ما يقول لذلك العراقى

---

(١) البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون الجزء الأول صفحة ٧٧ .

ليت أنى قد رأيتك بمرو ، حتى أكافئك لقديم إحسانك ، وما تجدد لى من البر فى كل قدمة فأما ههنا فقد أغناك الله منى ، قال : فعرضت لذلك العراقى بعد دهر طويل حاجة فى تلك الناحية ، فكان مما هون عليه مكابدة السفر ، ووحشة الاغتراب ، مكان المروزى هنا لك فلما قدم ، مضى نحوه فى ثياب سفره ، وفى عمامته وقلنسوته وكسائه ، ليحط رحله عنده ، كما يصنع الرجل بثقته وموضع أنسه ، فلما وجده قاعدا فى أصحابه ، أكب عليه وعانقه ، فلم يره أثبته ، ولا سأل به سؤال من رآه قط ، قال العراقى فى نفسه ، لعل إنكاره اياى لمكان القناع ، فرمى بقناعه ، وابتدأ مساءلته ، فكان له أنكر ، فقال ، لعله أن يكون إنما أتى من قبل العمامة ، فنزعها ثم انتسب ، وجدد مسائلته ، فوجده أشد ما كان إنكارا .

قال ، فلعله إنما أتى من قبل القلنسوة . وعلم المروزى أنه لم يبق شىء يتعلق به المتغافل والمتجاهل ، فقال : لو خرجت من جلدك لم أعرفك) (١٢) .

فرسم الجاحظ الصورة الكاريكاتورية الهازلة التى تجمع شخصيتين متناقضتين فى إطار واحد إحداهما ساكن متصلب زميت ، والثانية متحرك متقلب كلما طاشت منه حركة تبعتها بأخرى ، وبكثرة الحركات الطائشة ، وبالسكون البالغ فيه ، وبجمع النقيضين فى لوحة واحدة تكتمل الصورة وتتسع ، وتعمق السخرية وتتضاعف .

  

ب - المرآة النفسية :

وأقصد بها ، أن يكشف لنا الجاحظ بواسطة تصويره الكاريكاتورى نفسية الشخص الذى أمامه ، ويطلعنا على دخيلة أمره ، وخفايا سره ، وينقب عن العيوب المستكنة فى زوايا نفسه ، ويزيل النقاب الذى يخلف به الشخص نقائصه ، ليبعدها عن العيون .

---

(١٢) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجرى صفحة ٢٢ .

ويهتك الحجب والأستار التي سدلها بيننا وبينه ، ويطرح ما يظهر به ، وما يجب أن يرينا نفسه عليه ، لنراه على حقيقته ، ونقف على طبعه وسجيته ، وقد بدا عواره ، وتجسدت أوزاره في هيئة مزرية ، وصورة هازلة ، برز فيها العيب والنقص وتضخم ، وضئل فيها الكمال والجمال أو تبخر .

كما تعكس المرآة المحدبة المرئيات في صورة ضخمة هائلة تقرب البعيد ، وتكبر الصغير تعكس مرآة الجاحظ الكاريكاتورية خبايا النفوس في صورة قريبة مكبرة .

وكما تعكس المرآة المقعرة المرئيات في صورة صغيرة متضائلة تبعد القريب ، وتصغر الجسيم تعكس مرآة الجاحظ الهزلية فضائل النفس البشرية في صورة هزيلة متداعية .

وقد تجمع مرآة الجاحظ النفسية وظيفة المرآتين معا ، وتؤدي مؤداهما في منظر واحد ، فتضخم جزءا وتضائل جزءا ، وتوضح صفة وتخفي أخرى ، قصدا الى إبراز العيوب ، وتجسيم الخطاء ، مرحا ولهوا ، أو تأديبا وتهذيبا ، أو عظة وعبرة .

وفي كتابه البخلاء يجسم نفسية البخيل ، ثم يعكسها في صورتها المشوهة المنفرة ، إلا أنه يكبر الصورة ، ويعبث بملامحها ، ويلتقطها من زوايا فنية تبرز ما خفي منها ، وتكشف أدق تفاصيلها ، وأغمض خلجاتها .

واليك صورة لصديق له رسمها بقوله : (وصديق كنا قد ابتلينا بمؤاكلته وقد كان ظن أنا قد عرفناه بالبخل على الطعام ، وهجس ذلك في نفسه ، وتوهم أنا قد تذاكرنا أمره فكان يتزيد في تكثير الطعام ، وفي إظهار الحرص على أن يؤكل ، حتى قال : من رفع يده قبل القوم غرمناه دينارا ، فترى بغضه إن غرم دينارا ، وظاهر لا تهمته محتمل في رضا قلبه ، وما يرجو من نفع ذلك له) (١٣) .

---

١٣) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، شرح العوامري والجارم الجزء الأول صفحة ١١٢ ، وتحقيق طه الحاجري ص ٥٥ .

بخيل يحس افتضاح أمره ، ويظن معرفة الناس شحه ، فيسارع بهدم الظن ، وسترا لبخله بدعوتهم الى طعامه ، والإكثار منه ، والإلحاح عليهم في تناوله ، وإظهار حرصه على أن يجود بالكل ، حتى إنه ليعاقب من ينتهي من الطعام قبل غيره بتغريمه دينارا . ولكن هذه الطريقة التي أراد بها البرهنة على كرمه ، كانت الأداة التي تكشف حقيقته وتفضح عن كامن بخله ، وأكدا س لحرصه ، وما يرجوه من تعويض نفقاته بما يجنيه من دنانير عقوباته .

وقد برزت لنا هذه الصورة منعكسة على مرآة الجاحظ الكاريكاتورية المقعرة المحدبة ، فأبانت البخل ، وكشفت عنه ، وجسمته وضخمته ، وأظهرت السخاء المصطنع ، والجود المبتدع في صورة المزيلة الواهية ، التي تخفض هامتها لعملاق البخل ، وسلطان الشح .

وصورة أخرى دبجتها براعة شيخ الساخرين ، ورسمتها مخيلته المطالة ، وعكستها مرآته المحدبة ، التي تعظم الحقير وتضاعف القليل ، وتكبر الصغير وتفخم الضئيل ، فجاءت صورة لفظية كاريكاتورية ، ناطقة صامتة ، ومتحركة ساكنة ، تعجز عن مثلها ريشة المصور الفنان ، ولا توفيها حقها قريحة الرسام الملهم ، وإن سكب الألوان ، ومد الخطوط ، وأسدل الظلال ،

قال : (قال المكي ، كان لي ابن عم يقال له سليمان الكثري — سمي بذلك لكثرة ماله — وكان يقربني وأنا صبي إلى أن بلغت ، ولم يهب لي مع ذلك التقريب شيئا قط ، وكان قد جاوز في ذلك حد البخلاء ، فدخلت عليه يوما ، وإذا قدامه قطعة دار صيني لا تسوى قيراطا ، فلما نال حاجته منها ، مددت يدي لآخذ منها قطعة ، فلما نظر إلى قبضت يدي ، فقال ، لا تنقبض وانبسط واسترسل ، وليحسن ظنك ، فإن حالك عندي على ما تحب ، فخذه كله ، فهو لك ، بزبيره وبحذافيره ، وهو لك جميعا تفتقر بذلك نفسي سجيحة ، والله يعلم أني مسرور بما وصل إليك من الخير ، فتركته بين يديه ، وقمت من عنده وحملت رحلي كما أنا الى العراق ، فما رأيته وما رآني حتى مات) (١٤)

---

(١٤) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، شرح العوامري والجارم الجزء الثاني صفحة ٤٣ ، ٤٤

فقد عكست المرآة نفس سليمان ، وفاضت فى أماقه ، وأبدت عواره ، وإن ظهر فى صورة كريم ، وهيئة جواد ، يعطى كل ما أمامه ، ويمعن فى البذل .

كشفت نفسيته التى تعظم التافه ، وتقدمه هدية فاخرة ، تسخو بها راضية ، وهبة هائلة تعطيها كاملة ، دون أن تستبقى لها شيئا ، وتمدها خيرا طائلا ، تغمر به من أهديت إليه .

وصورة أخيرة — وما أكثر الصور — أقدمها لمرآة الجاحظ النفسية الكاريكاتورية تفضح بخيلا شرها ، يدعى إلى طعام ، فيسىء المواكلة ، يغرف فوق حقه ، ويلتهم أكثر من طاقته ولا يراعى من يشاركونه الأكل ، ويقطر السمن على الخوان ، وهذه الفعلة الأخيرة ، التى تفضح شرها ، وإلحاحه عليها ، هى التى تضخمها المرآة ، وتجعلها لب الصورة ، ومكمن السخر ، ثم تزيل غموضها وتضىء جوانبها بأن الخوان خوانه ، فهو يريد أن يدسمه ليكون الدسم كالدبغ له ، وبأنه طلق امرأته لأنها غسلت خوانا له بماء حار وكان الوجه أن تدسمه .

قال الجاحظ فى كتابه البخلاء : (قال أبو إسحاق ابراهيم بن سيار النظام : دعانا جارلنا فأطعمنا تمرا ، وسمنا سلاء ، ونحن على خوان ليس عليه إلا ما ذكرت ، والخراسانى معنا يأكل ، فرأيته يقطر السمن على الخوان ، حتى أكثر من ذلك ، فقلت لرجل إلى جنبى ، مالأبى فلان يضيع سمن القوم ، ويسىء المؤاكلة ويغرف فوق الحق ؟ قال : وما عرفت علته ؟ قلت : لا والله ، قال : الخوان خوانه ، فهو يريد أن يدسمه ليكون كالدبغ له ، ولقد طلق امرأته وهى أم أولاده لأنه رآها غسلت خوانا له بماء حار ، فقال لها هلا مسحته ؟) (١٥) .

---

(١٥) كتاب البخلاء : الجاحظ ، شرح العوامرى والجارم ، ص ٥٥ ، ٥٦

٤ـ الصورة القصيرة :

وقد يعمد الى الصورة القصيرة الساخرة ، فيجعلها أداة تمكنه ، وصول هزئه ، فتكون صورة خيالية ساخرة من طريق التشبيه أو الاستعارة أو غيرها من ألوان المجاز أو تكون صورة متحركة أمام العيون حركات (بهلوانية) على خلاف المألوف ، فتعبر عن شخصية صاحبها ، وتوضح جوانب من سلوكه فتحقق السخرية غرضها ، وتبلغ هدفها ، بحسن الإضمار والإيجاز ، ومن صوره تلك :

أ) (تغذى أبو السرايا عند سليمان بن عبد الملك — وهو ولي عهد — وقدامه جدي فقال له سليمان : كل من كليتيه ، فإنها تزيد في الدماغ ، فقال : لو كان الأمر كذلك لكان رأس الأمير مثل رأس البغل) [١٦].

قصد سليمان أن أكلها يجلب للدماغ صحوا ، ومتانة في التفكير ، ويقظة ، وللذهن حدة وتوقدا وفطنة ، فانصرف ذهن أبي السرايا الى الحسيات وأهمل المعنويات ، واعتقد أن الأمر كبر حجم الدماغ ، أو تظاهر بهذا الاعتقاد جعلها للسخرية ، ثم رد على الأمير مدللا على فساد رأيه ، ومشوها ملامح جسمه حيث اختار له الصورة الكاريكاتورية الممسوخة : أمير من جلة الأمراء وولي عهد تمهد له الأيام أن يكون خليفة المسلمين ، جسمه جسم آدمي ، ورأسه رأس بغل ، ولعله أراد التعريض بغباء الأمير ، كما أن قول سليمان : كل من كليتيه فإنها تزيد في الدماغ ، قد يكون تعريضا أيضا بنقص عقل أبي السرايا فيكون تعريضا بتعريض .

ب) (جلس "علي بن إسحاق بن يحيى" مع بعض قواد العسكر وحاجم النخاس بجوار ، فقال علي : لسنا في تقويم الأبدان إنما نحن في تقويم الأعضاء ، ثمن أنف هذه خمسة وعشرون دينارا ، وثمن أذنيها ثمانية عشر ، وثمن عينيها ستة وسبعون ،

(١٦) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الثاني صفحة ٢٣٨ تحقيق هارون ، ص ١٧١ تحقيق السندوبي .

وثمن رأسها بغير شيء من حواسنها مائة دينار . فقال له صاحبه المتفافل : ها هنا بابٌ هو أدخل في الحكمة من هذا ! كان ينبغي لقدم هذه أن تكون لساق تلك وأصابع تلك أن تكون لقدم هذه ، وكان ينبغي لشفتي تيك أن تكون لفم تلك وأن يكون حاجباتيك لجبين هذه ! فسمي مقوم الأعضاء" (١٧).

والكاريكاتور هنا ناجم من تجزيء الأعضاء ، وجعل كل عضو مستقلا عن غيره ، يقوم وحده ، ويحدد ثمنه المناسب له ، وأنه شخصية قائمة بذاتها تماما . كما رسم هذا الصاحب المتغافل صورا مركبة من أعضاء غير متآلفة ، باستبدال كل جارية عضوا من جسدها بعضو من جسد غيرها .

جـ) (وكان أبو نواس يرتعي على خوان إسماعيل بن نيبخت[١٨] ، كما ترتعي الإبل في الحمض بعد طول الخلة ، ثم كان جزاؤه منه أنه قال :

خبز إسماعيل كالوشي إذا ما شق يرفا) (١٩)

فتصوير أبي نواس على طعام غيره ، يأكله في نهم وجشع كالإبل ترتعي في الحمض بعد طول الخلة ، تصوير هازيء هازل ، يوضح هيئته المقيتة حين يتناول طعام غيره ، وتلك سخرية لاذعة عن طريق الكاريكاتور تقابلها صورة أخرى لخبز إسماعيل الذي يشبه الوشي ، يمكن أن يرفا إذا شق .

د) (قيل لأبي الحارث جمين[٢٠] : كيف وجه محمد بن يحيى[٢١] على غدائه ؟ قال : أما عيناه فمبنا مجنون . وقال فيه أيضا : لو كان في كفه كرخردل ، ثم لعب به لعب الإبل بالأكرة ، لما سقطت من بين أصابعه حبة واحدة . وقيل له أيضا : كيف سخاؤه على الخبز خاصة ؟ قال : والله لو ألقى إليه من الطعام بقدر ما إذا حبس نزف السحاب لثوبه ما تجافى من

---

١٧) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الرابع صفحة ١٦

١٨) اسماعيل بن أبي سهل بن نيبخت من سراة البصرة ومن جلساء المأمون وهو غير إسماعيل بن نيبخت المتكلم المعتزلي الشيعي .

١٩) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجري صفحة ٧٢

٢٠) أبو الحارث جمين أو جميز مدني صاحب نوادر كثيرة كان متجر بما في العراق ، اتصل بمحمد ابن يحيى البرمكي ، وعيسى بن جعفر ، وكانا يصلانه بالرشيد .

٢١) أحد أبناء يحيى بن خالد البرمكي ، حبس أيام نكبة البرامكة إلى أن أطلقه الأمين [illegible]

رغيف)(٢٢).

لقد صنع له الجاحظ بضع "كاريكاتوريات"، وضع عليه وحدد بعض هما أو حركهما حركـة دائرية مضطربة ، ثم جعله خفيف الحركة "بهلوانيا" لو لعب بكرخردل ما سقطت منه واحدة ، ثم وضع مدى شحه وتقتيره وأنه لو ألقيت إليه كومة طعام ارتفعت حتى وصلت السحاب ، فمنعته السقوط ، لم يتباعد عن رغيف ، يسخو به ، وتلك صور قصيرة تعتمد على التشبيهات الـتي تجسم الصورة وتبرزها .

هـ — (ولم أرمثل أبي جعفر الطرسوسي ، زار قوما ، فأكرموه وحملوا في شاربه وسهلته غالية فحكته شفته العليا ، فأدخل أصبعه فحكها من باطن الشفة ، مخافة أن تأخذ أصبعه شيئا إذا حكها من فوق)(٢٣).

والصورهنا قصيرة ، ضيقة الحدود ، ولكنها مقلوبة الوضع ، منعكسة الملامح ، دفع الطرسوسي إليها القلق بخله ، ووافر شحه ، فجاءت كاريكاتورية ، مفصحة عن نفسية صاحبها ، ساخرة من انقلاب الوضع تدعونا الى الاستهزاء والاستهجان ، وخاصة إذا شوهدت بالعيان ، وقد أدرك الجاحظ أن التصوير بالكلمة لن يكون له سحره وتأثيره ، وشدة فاعليته في النفس وحق أدائه للسخرية ، كالتصوير المصحوب بالحركة والإشارة ، والذى تشاهد فيه الشخصيات وكلامها وحركاتها ، فقال معقبا : (وهذا وشبهه إنما يطيب جدا إذا رأيت الحكايـة بعينك ، لأن الكتاب لا يصور لك كل شيء ، ولا يأتي لك على كنهه ، وعلى حدوده ، وحقائقه)(٢٣).

و — (قال سجادة ، وهو أبو سعيد سجادة ، كان من المراوزة إذا لبسوا الخفاف في الستة الأشهر التي لا ينزعون فيها خفافهم ، يمشون على صدور أقدامهم ثلاثة أشهره

---

٢٢) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق الحاجري ص٧٢ ، شرح الحوامري ص ٢١ ق ١

٢٣) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجري صفحة ٨٩.

وعلى أعقاب أرجلهم ثلاثة أشهر حتى يكون كأنهم لم يلبسوا خفافهم إلا ثلاثة أشهر ، مخافة أن تتجرد نعالهم أو تنقب) (٢٤).

وتخيل صورة إنسان يسير على أطراف أصابعه ثلاثة أشهر رافعا عقبيه متحملا الضرر والآلام ثم يعكس وضعه فيسير ثلاثة أشهر أخرى على عقبيه ، رافعا أطراف أصابعه ، ولا شيء يدفعه إلى ذلك غير البخل والكزة ، تر التصوير العجيب ، والرسم الكاريكاتوري الرقيق ، الذى ابتكره خيال الجاحظ ، وبدت خطوطه الهزلية مقربته الفذة المواتية ، التى تعشق السخر ، وتغرم بالتصوير ، وبما يخلع على الصورة الظلال والألوان ، ويضيف لها البريق واللمعان غير طريقة المشية ، وتعاكس الوضعين قوله : " إذا لبسوا الخفاف فى الستة الأشهر التى لا ينزعون فيها خفافهم " فهم فى ستة أشهر حفاة لا يلبسون الخفاف ولا يقربونها والشطر الثانى من العام شطروه شطرين ، شطر يسيرون فيه على صدور أقدامهم ، وشطر يسيرون فيه على أعقابهم . ففى القصة تصوير هزلى للبخل بلغ مداه ، ولضياع الهيبة جاوز منتهاه ، وسخرية وحث على السخرية بهؤلاء المراوزة ، الذين صاروا أضحوكة الدنيا ، بما خلع عليهم الجاحظ من صفات ، وما وضعهم فيه من إطار ، برزوا منه صورة مجسمة متحركة ، مشوهة الملامح ممسوخة الهيئة ، مفوتة الحركات ، آلية التصرف .

ومن هذه الصورة السابقة ، ومن الصور اللاحقة عرفنا ونعرف أن الجاحظ كان مصورا ماهرا ، يرى المنظر الغريب ، والهيئة الشاذة ، ويلمح فيها الخروج على الإلف ، والابتعاد من العرف ، فيسلط عليها عدسة وجدانه ، ويجمزها ويحدها فى صوان نفسه ، ثم يختزنها فترة من الزمان لتنبت ألوانها ، ويقوى طلاؤها ، وأخيرا يظهرها ويجليها آية فى الافتنان ونموذجا فى الروعة والإتقان .

. . .

---

٢٤) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجرى صفحة ٢٨ .

هـ ـ الصورة الفسيحة :

وقد يتخذ الصورة الفسيحة، والمشهد المريض، والهيئة الخارجة عن نطاق العقل أو المعرف الو العادة مادة لرسم الصورة الكاريكاتورية ، وصفها يضعه على فرشاة هزئه ، فيلون به المناظر ، ويشوه الملامح ، ويخلق الصورة الممسوخة ، التي تفصح عن صاحبها وتبرز باطنه ، ومخلجات نفسه ، وخبايا عقله ، ثم تضخم عيبه وتضاعف شوهته ، ومن أمثلة ذلك :

أ) (ما كان من أبي مازن إلى جبل العمر: وكان جبل خرج ليلا من موضع كان فيه فخاف الطائف ، ولم يأمن المستقفي ، فقال : لو دققت الباب على أبي مازن ، فبست عنده في أدنى بيت ، أو في دهليزه ، ولم ألزمه من مؤنتي شيئا ، حتى إذا انصدع عمود الصبح ، خرجت في أوائل المدلجين ، فدق عليه الباب دق واثق ، ودق مدل ، ودق من يخاف أن يدركه الطائف ، أو يقفوه المستقفي ، وفي قلبه عز الكفاية ، والثقة بإسقاط الشوبة فلم يشك أبو مازن أنه نعي صاحب هدية ، فنزل سريعا ، فلما فتح الباب وبصر بجبل بصر بملك الموت ! فلما رآه جبل واجما ، لا يحير كلمة ، قال له : إني خفت معرة الطائف ، وعجلة المستقفي ، فملت إليك ، لأبيت عندك ، فتساكر أبو مازن ، وأراه أن وجومه إنما كان بسبب السكر ، فخلع جوارحه وخبل لسانه ، وقال : سكران والله ، وأنا والله سكران ! قال له جبل : كن كيف شئت ، نحن في أيام الفصل ، لا شتاء ولا صيف ، ولست أحتاج إلى سطح فأغم عيالك بالحر ، ولست أحتاج إلى لحاف ، فأكلفك أن تؤثرني بالدثار ، وأنا كما ترى ثمل من الشراب ، شبعان من الطعام ، ومن منزل فلان خرجت ، وهو أخصب الناس رحلا ، وإنما أريد أن تدعني أغفي في دهليزك إغفاءة واحدة ثم أقوم في أوائل المبكرين .. قال أبو مازن وأرخى عينيه وفكيه ولسانه ، ثم قال : سكران والله ! أنا سكران ! لا والله ما أعقل أين أنا ! والله إن أفهم ما تقول ! ثم أغلق الباب في وجهه ، ودخل لا يشك أن عذره قد وضح ، وأنه قد ألطف النظر حتى وقع على هذه الحيلة ! (٢٥)

---

٢٥) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، شرح العوامري والجارم صفحة ٧٦، ٧٧ الجزء الأول .

فهذه صورة ممسوخة للصديق الذى يتنكر للصديقة ، وهو واثق أنه لن يكلفه مئونة ، ولن يضيق عليه فى عيشه ، وكل ما يبغيه منه استراحة فى بيته ، أو غفوة فى دهليزه ، يأمن بهما العسس واللصوص، ولكن أبا مازن يدعى السكر ، وفقدان الوعى ، وعدم الإحساس بما حوله أو الإدراك لما يقال ، ثم يتخذ الصورة الموحشة فيخلع جوارحه ، ويخيل لسانه ، ويرخى عينيه ، وفكيه ، ولسانه ، وأخيرا يغلق فى وجه صديقه الباب ، ويظن أنه قد مثل فأجاد التمثيل ، وقد أوضح العذر ، وأفصح عن السبب ، وألطف النظر ، ولم يعد واقعا تحت طائلة اللوم ، والاتهام بالتقصير ، وأن جبل قد انطلت عليه الحيلة ، وألم يظن بصاحبه بخلا ، ولا سوء ضيافة ، لأنه كان غائبا عن وعيه ، فاقدا رشده ، بما شربه من خمر .

ب — اشترى محمد بن أبى المؤمل ، (مرة شبوطه — وهو ببغداد — وأخذها فائقة عظيمة وغالى بها ، وارتفع فى ثمنها ، وكان قد بعد عهده بأكل السمك ، وهو بصرى لا يصبر عنه ، فكان قد أكبر أمره هذه السمكة لكثرة ثمنها ، ولسمنها وعظمها ، ولشدة شهوته لها ، فحين ظن عند نفسه أنه قد خلا بها ، وتفرد بأطايبها ، وحسر عن ذراعيه ، وصمد صمدها ، هجمت عليه وجئ السدرى ، فلما رآه رأى الموت الأحمر ، والطاعون الجارف ، ورأى الحتم المقضى ، ورأى قاصمة الظهر ، وأيقن بالشر ، وعلم أنه قد ابتلى بالتنين ، فلم يلبثه السدرى حتى قور السرة بالمبال ، فأقبل على ، فقال لى ، يا أبا عثمان ، السدرى يعجبه السرر فما فصلت الكلمة من فيه حتى قبض على القفا ، فانتزع الجانبين جميعا ! فأقبل على فقال ، والسدرى يعجبه الأقفاء ! فما فرغ من كلامه إلا والسدرى قد اجترف المتن كله ! فقال يا أبا عثمان ، والسدرى يعجبه المتون ! ، ولم يظن أن السدرى يعرف فضيلة ذنب الشبوط وعذوبة لحمه ، وظن أنه سيسلم له ، وظن معرفة ذلك من الغامض ، فلم يدر إلا والسدرى قد اكتسح ما على الوجهين جميعا ! ولولا أن السدرى أبطره وأثقله ، وأكمده ، وملأصدره وملأه غيظا ، لقد كان أدرك معه طرفا ، لأنه كان من الأكلة ، ولكن الغيظ كان من أعوان السدرى عليه . فلما أكل السدرى جميع أطايبها ، وبقى هو فى النظارة ، ولم يبق فى يده

ما كان يأمله في تلك السمكة إلا الغيظ الشديد ، والغم الثقيل ، ظن أن في سائر السمكة ما يشبعه ويشفي من قرمه ، فبذلك كان عزاؤه ، وذلك هو الذي كان يمسك بأرماقـــــه وحشاشات نفسه ! فلما رأى السدري يفري الفرى ويلتهم التهاما ، قال : يا أبا عثمان ، السدري يحجبه كل شيء ! فتولد الغيظ في جوفه ، وأقلقه الرعدة ، فخبثت نفسه ، فما زال يقيء ويسلح ، ثم ركبته الحمى ! وصحت توبته ، وتم عزمه في ألا يأكل رغيفا أبدا ولا زهيدا ، ولا يشتري سمكة أبدا ، رخيصة ولا غالية ، وإن أهدوها إليه ألا يقبلها ، وإن وجدها مطروحة لا يمسها) (٢٦).

وتلك صورة كاريكاتورية لابن أبي المؤمل ، توضح النتوءات التي تبرز في سجيته ، وتظهر التعرجات المنبثة في خلقه ، والالتواءات التي يفصح عنها سلوكه ، والتي يلحظهـــــا الجاحظ من خلال حركاته ونظراته ، وما ينطوي في باطن كلماته ، وتمد خطوط البخل ، وخطوط النهم إلى الأكل ، فتضاعف أطوالها ، وتنمي أعراضها ، وتكون بمدادها الأسود نفسية محمد ، فإذا هي قاتمة حالكة ، ملأها البطر والثقل ، والكبد والغيظ ، وإذا الصورة متحركة مضطربة مرتعشة ، وإذا الحركات متوالية متتابعة بين قيء وسلح وحمى ، تأخـــذ بمجامع الصورة فتهزها هزا عنيفا .

لقد أوضحت الصورة أن من مظاهر اهتمام محمد بالسمكة ، وإقباله عليها ، واحتفائه بها كثرة لحمها ، وسمنها وعظمها ، وشدة شهوته لها ، وظنه الانفراد بأطايبها ، وشروعه في تناولها .. ثم بينت بواعث غمه وكربه وهمه : دخول السدري عليه وأمامه الشبوطة ، دخول الموت الأحمر ، والتنين المفزع ، والحتم المقضي ، وإقبال السدري على أكلها لا يفرق بين جيد ورديء ، ولا يصرفه عن أكلها صارف ، ثم ضياع ماله ، وعدم انتفاعه به ، ثـــم جوع محمد وشدة شهوته إلى أكل شبوطته ، وأخيرا أمانيه التي تقبر مع كل جزء مـــن أجزاء الشبوطة يقبره السدري في كهف بطنه ، فور السدري السرة بالمهال فماجت نفس

---

٢٦) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، ضبط العوامري والجارم ص ١٨٦ ، ١٨٧ ، الجزء الأول ١٠٠ ، ١٠١ الحاجري .

محمد وصاح ، السدري يعجبه السور ، ثم قبض على القفا فالتهم جانبيه فصرخ ابن أبي الطول السدري يعجبه الأقفاء ، ثم اجترف المتن كله فجأر محمد ، السدري يعجبه المتون ، وكان محمد يمني نفسه بعد كل جزء يلتهمه السدري بأن الباقي سيخلص له ، ولكن السدري يخيب ظنه ، ويؤجج غيظه بمتابعة اللقم ، وسلب الشبوطة أشلاءها شلوا بعد شلو ، وارتاحت نفس محمد بعض الشيء حين ظن أن الذنب سيسلم له ، وإذا بالسدري ، يزدرده ، ولما لم يجد أمامه من الأطايب أي شيء ، احتسب ما ذهب في باب كرمه ، وأرضى نفسه بأكل ما يبقى من الشبوطة علّه يذهب جوعه ، لكن السدري كان يفري الفري ، ويأتي على كل شيء ، ويعجبه كل شيء ، حتى لم يبق من الشبوطة شيء .

لقد صور الجاحظ نفسية محمد ، وما كان يعتري قلبه من غم ، وما كاد يصيبه من صدع والسدري يتابع أكل الشبوطة ، فيبطره ويثقله ويكمده ، ومحمد لا ينال منها شيئا ، لأن الغيظ ملأ قلبه ، وكان من أعوان السدري عليه ، فلم يقرب الطعام ، وخلص للسدري ، صوره تصويرا هزليا كاريكاتوريا جعل كل حركة من السدري تعبث بقلبه ، وتطير لبه ، وتزيد حتى الغيظ في نفسه ، وتخمد في جوانبه أملا في الأكل كان يريد تحقيقه ، وكأن محمدا قدر تؤجج تحته النار كما تغلي وتضطرب ، وقد سدت نوافذه ، وامتنع تصاعد بخاره الذي يخفف سعيره ، فكاد ينفجر ، لولا أنه كان بين آونة وأخرى ينفث نفثة مكتومة ، السدري يعجبه السور ، السدري يعجبه الأقفاء ، السدري يعجبه المتون ، ثم يصدر أخيرا نفثة طويلة فيها جماع غيظه ، وقائمة ألمه ، السدري يعجبه كل شيء ، ثم يكون الندم والتوبة من أن يؤاكل أحدا ، أو يقرب سمكا .

محمد (صحبني محفوظ النقاش من مسجد الجامع ليلا ، فلما صرت قرب منزله — وكان منزله أقرب إلى مسجد الجامع من منزلي — سألني أن أبيت عنده ، وقال ، أين تذهب في هذا المطر والبرد ، ومنزلي منزلك ، وأنت في ظلمة ، وليس معك نار ، وعندي لبأ لم ير الناس مثله ، وتمر ناهيك به جودة ، لا تصلح إلا له ؛ فملت معه ، فأبطأ ساعة ، ثم جاءني بجام

لبأ ، وطبق تمر . فلما مددت قال : يا أبا عثمان ، إنه لبأ وغلظة ! وهو الليل وركوده ! ثم ليلة مطر ورطوبة ، وأنت رجل قد طعنت فى السن ، ولم تزل تشكو من الفالج طرفا ، ومازال الغليل يسرع اليك ، وأنت فى الأصل لست بصاحب عشاء ! فإن أكلت اللبأ ولم تبالغ ، كنت لا آكلا ولا تاركا ، وحرشت طباعك ، ثم قطعت الأكل أشهى ما كان إليك . وإن بالغت بتنا فى ليلة سوء من الاهتمام بأمرك ، ولم نعد لك نبيذا ولا عسلا . وإنما قلت هذا الكلام لئلا تقول غدا : كان وكان ! والله قد وقعت بين نابى أسد ! لأنى لو لم أجئك به وقد ذكرته لك ، قلت : بخل به ، وبدا له فيه . وإن جئت به ولم أحذرك منه ، ولم أذكرك كل ما عليك فيه ، قلت : لم يشفق على ولم ينصح . فقد برئت إليك من الأمرين جميعا وإن شئت فأكلة وموتة ! وإن شئت فبعض الاحتمال ، ونوم على سلامة .

فما ضحكت قط كضحكى تلك الليلة . ولقد أكلته جميعا ، فما هضمه إلا الضحك والنشاط والسرور ، فيما أظن . ولو كان معى من يفهم طيب ما تكلم به ، لأتى على الضحك ، أو لقضى على ، ولكن ضحك من كان وحده ، لا يكون على شطر مشاركة الأصحاب) (٢٧) .

وهذه صورة أخرى كاريكاتورية ، عميقة الأغوار ، فسيحة الابعاد ، ممتدة الخطوط لبخيل ثقاج ، يدعى الكرم ، فيدعو صاحبه للنزول فى ضيافته ، ويلح عليه أن يقبل دعوته ، ويرغبه فى المبيت عنده ، والجلوس إلى ما ثدته ، ويشهى له الطعام ، ثم يقع بين شقى مقص نفسه ، ويجرى رحى رغباته : بخله وشحه ، وادعائه وتبجحه ، فتبجحه يحثه على المبالغة فى إكرام الضيف ، وتقديم الطعام له ، وبخله يؤدى به إلى اختراع العلل ، وانتحال الأسباب واقتناص البراهين التى تدفع بالزائر بعيدا عن طعامه ، ليحفظ كاملا تصمد يده .

---

(٢٧) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، شرح العوامرى والجارم ج ١ ص ٤٥ ، ٤٦ مطبعة دار الكتب سنة ١٩٤١

دعا محفوظ النقاش الجاحظ الى منزله ، ورحب إليه المبيت عنده ، وعدد الأسباب التي تحمسه لقبول دعوته ، والاستجابة لضيافته ، واستعمل لذلك أساليب التخويف والترهيب ، فبين المخاوف والمخاطر التي يتعرض لها إن لم يصغ لكلامه من ؛ مطر وبرد وظلمة ، واستغل أساليب الترغيب والتشويق ، ليقبل ضيافته ، فذكر أن طعامه شهي ؛ لبأ لم ير الناس مثله ، وتمر بلغ حدود الجودة ، والجاحظ في رأيه — لا يصلح لشيء من الطعام إلا له .

ويبدو الجاحظ الشره ، وضعف في الخبر ، فقبل دعوته ، ومال معه إلى منزله ، ولكن الشح يتضح في تصرفات النقاش ، ويظهر رغما عنه ، ويطل برأسه من حوله ، ومن بين ألفاظه ، ومن خلال تصرفاته لقد دعا الجاحظ ليظهر له جوده وأريحيته ، فلما قبل الدعوة ، وطمعت الطاعة نفسه الكزة ، وزجرته ، فاخترع الحيل البارعة ، وانتقى الأدلة الخادعة ، ليمنعه من الأكل ، وليعيد لنفسه المائجة هدوءها واستقرارها ، فأبطأ ساعة في احضار الطعام الذي لا يوجب إحضاره الإبطاء ، إذ هو ؛ جام لبأ وطبق تمر . فلما مد الجاحظ يده إلى الطعام وكان ينبغي ألا يمدها بعد هذا الإبطاء الذي هو بمثابة الامتناع عن الدعوة والرجوع فيها هاجت كوا من الشح في نفس النقاش ، وتأججت نار البخل في قلبه ، فاحتال الحيل ليمنعه من الطعام ، فقد لبس ثياب صديق ناصح ، وإهاب أخ شفيق ولا زال في سمت الكرماء وهيئة الأسخياء فحشد له كل العوامل التي تمنعه من الأكل ، وتصرف رغبته عنه ؛ فالطعام ثقيل غليظ ، والليل راكد هواؤه ، والاعضاء لا تنشط ، والهضم لا يستقيم ، والجو مطر رطب يؤدي إلى الانكماش والانقباض ، فيتوقف الهضم أو يبطئ ، وقد كبرت سنه ، فضعفت أجهزة الهضم عنده ، وفقدت قدرتها على امتصاص الطعام ، وتمثيل الغذاء ، وهو مع ذلك مريض بالفالج الذي يثقل جسمه ، فلا داعي للطعام حتى يكون خفيف الجسم ، نشيط الحركة ، ثم إن القليل يسرع إليه فيداعي شرب الماء مع الرطوبة والبرودة والفالج ، وفي ذلك إرهاق له ، لا يحتمله جسده الواهي ، وأضاف إلى ذلك أنه غير معتاد العشاء فيكون أكله — إن أكل — على خلاف عادته ، وفيه من الفساد ما فيه .

على أنه لو ضرب بذلك كله عرض الحائط ، وصمم على العشاء ولم يسيطر عقله على فاسد رغبته ولم يتبين خطل ما هو مقبل عليه ، وغلبته شهوة الأكل ، فإما أن يأكل قليلا ، أو كثيرا فان أكل قليلا كان لا آكلا ولا تاركا ، وحرك معدته ، وفتح شهيته ، ثم قطع الأكل أحوج ما يكون إليه ، وأكثر اشتهاء له منه قبل بدئه ، وإن بالغ في الأكل كانت ليلة سوء لما يصيبه من ألم ومرض ، وما يجلبه على محفوظ من غم وكمد ، ولم يجد له دواء ، ولم يجد لسه نبيذا ولا عسلا .

ثم بين أنه يمحضه النصح ، وأنه يؤدي ما تفرضه عليه الصداقة ، وأنه برىء من ذنبه إن أصابه ضرر وأنه ما قال ما قال إلا ليدفع عن نفسه اللوم والتأنيب إن وقع به شره ثم بين موقفه من ضيفه ، بأنه إنما أتاه بالطعام حتى لا يتهم بالبخل ، ونصحه حتى لا يتهم بخبث الصحبة ، ثم جعله مختارا بين أكلة وموته ، وبين جوع وسلامة .

لقد التقط الجاحظ هذه الصورة الكاريكاتورية بعدسة سخره ، وسلط عليها الأضواء من أشعة فنه ، واستعمل ألوان الهزء والتهكم فلون بها نفسية النقاشي ودمغها بالبخل والتقتير وجعلها تدافع عن نفسها ، مدعية أنه التوجيه والإرشاد ، وتنفي البخل بشتى العلل ومختلف المعاذير .

صور نفسية متضاربة متعارضة ، منقسمة على نفسها ، لها طبيعة باخلة متأصلة ، وظهر مخادع كاذب تافه ، وينشأ الصراع بين الباطن والظاهر ، كل يحاول أن يفوق ويغلب ويتولد الاضطراب النفسي ، والهياج الداخلي ، ويلجأ النقاشي إلى الملاءمة والتوفيق بين الضدين بانتحال العلل ، وخلق الأسباب ، لإرضاء النفس ، والتمويه على الغير ، وباتخاذ أساليب الخداع ، وألوان الإيهام ، لعل الجاحظ يقع في حبائله ، ويعتقد فيه الكرم فيفوز بالحسنيين ، المادي ، والمعنوي : الاحتفاظ بالطعام غير منقوص ، وإثبات صفة الكرم والجود .

والجاحظ يعلم ما يدور في نفس محفوظ ، وما يهجس به خاطره ، وما يحاول به أن يخدع الجاحظ من حجج عقلية ، وتقسيمات منطقية ، وبراهين جدلية ، وما يبدو عليه من هيئة الناصح والكريم ، فيضحك لغفلته وتكلفة السخاء ، وتلفيقه العلل ، ويتمادى ضحكه سخرية وتهكما ، ويأتي على الأكل كله ، نكاية به ، وإمعانا في غيظه ، وجلبا للمرح والضحك ، وما يولد من أدلة ، وما يتكلفه من أقيسة . ولقد هضم الأكل المرح والضحك ، ولو كانت هناك رفقة تسمع وترى وتشارك لتضاعف الضحك وامتد ، وكأنهم مرايا تنعكس عليها الضحكات فتتزيد وتربو .

د — (كان عندنا بالمدينة رجل قد كثر عليه الدين ، حتى توارى من غرمائه ، ولزم منزله فأتاه غريم له عليه شيء يسير ، فتلطف حتى وصل اليه ، وقال له : ما تجعل لي إن أنا دللتك على حيلة تصير بها إلى الظهور ، والسلامة من غرمائك ؟ قال : أقضيك حقك ، وأزيدك مما عندي مما تقربه عينك ، فوثق منه بالأيمان ، فقال له : إذا كان غدا قبل الصلاة مر خادمك يكنس بابك وفناءك ، ويرش ويبسط على دكانك حصرا ، ويضع لك متكأ ، ثم أمهل حتى تصبح ويمر الناس ، ثم تجلس ، وكل من يمر عليك ويسلم انبح له في وجهه ، ولا تزيدن على النباح أحدا كائنا من كان ، ومن كلمك من أهلك أو خدمك ، أو من غيرهم ، أو غريم أو غيره ، حتى تصير إلى الوالي ، فإذا كلمك فانبح له ، وإياك أن تزيده أو غيره على النباح ، فإن الوالي إذا أيقن أن ذلك منك جد ، لم يشك أنه قد عرض لك عارض من مس ، فيخلى عنك ، ولا يعرض عليك ، قال : نفعل ، فمر به بعض جيرانه فسلم عليه ، فنبح في وجهه ، ثم مر آخر ، ففعل مثل ذلك ، حتى تسامع غرماؤه ، فأتاه بعضهم فسلم عليه ، فلم يزده على النباح ، ثم آخر ، فتعلقوا به ، فرفعوه إلى الوالي ، فسأله الوالي ، فلم يزده على النباح ، فرفعه معهم إلى القاضي ، فلم يزده على ذلك ، فأمر بحبسه أياما ، وجعل عليه العيون ، وملك نفسه ، وجعل لا ينطق بحرف سوى النباح ، فلما رأى القاضي ذلك أمر بإخراجه ، ووضع عليه العيون في منزله ، وجعل لا ينطق بحرف

إلا النباح ، فلما تقرر ذلك عند القاضي ، أمر غريمه بالكف عنه ، وقال : هذا رجل بعه لم ، فمكث ما شاء الله تعالى ، ثم إن غريمه الذي كان علمه الحيلة أتاه متقاضيا لعدته فلما كلمه جعل لا يزيده على النباح . فقال له : ويلك يا فلان أوعلى أيضا ! وأنا علمتك هذه الحيلة ! فجعل لا يزيده على النباح ، فلما يئس منه انصرف يائسا مما يطالبه به) (٢٨).

صورة كاريكاتورية ساخرة لمماطل يؤجل دفع ما عليه من مال ، فإذا حل الأجل كررها جعل وأخلف الوعد ، وهو لا يكتفي بالمطل ، وخلف الوعد ، وإنما يتعدى ذلك إلى الكذب ، والهرب من الغرماء ، والتواري بعيدا عنهم ، وحبس نفسه في منزله ، وعدم السماح لأحد منهم بمقابلته متعجلا منهم ، واكتفاء لشرورهم ، ثم يجيء له القدر غريما ، يدله على حيلة يتخلص بها من غرمائه ، ويتعهد بدفع دينه ، وزيادة ترضيه ، وتقربهما عينه ، نظير الحيلة التي ستظهره ، وتزيل ديونه ، وتزيح همومه ، وكانت الحيلة أن يتقمص شخص كلب ، ويرد على الكلام بالنباح ، فيظن الناس أن به لوثة تسقط كل ما عليه من ديون وحمل ، ونجحت الحيلة ، ولكنه يتبنا وزهدا ، فيأكل الدين ، ويخلف الوعد ، مع من علمه الحيلة ، وسهل له المخرج ، يريد أن يوهمه أنه مريض فعلا ، وأنه ينبح حقيقة ، وينسى بل تناسى أنه أستاذه ومبتكر الحيلة ، وصاحب الخديعة .

لقد أظهره الجاحظ في مظهر المجنون ، فأبدل تصرفه ، وغير سحنته ، وأخرس لسانه وقلب صوته نباحا ، وضرب بين عقله وبين ما يراه ويسمعه بحجاب ، وكأنه لا يعي ، ولا يفهم فإذا هو صورة مشوهة لإنسان مخبول نزع عقله ، وتنازل عن كرامته وإنسانيته وقلب وضعه وحقيقته ، واتخذ لنفسه صوت كلب ، فأبدل بالكلام نباحا .

---

(٢٨) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ج ٢ ص ١٧١ ، ١٧٢ مكتبة مصطفى الحلبي .

ويحوى الاطار صورة ممسوخة ، موازية للصورة الأولى ، ومتممة لها ، لغريم أراد أن يخلص بما له ، ويضاعفه ، مقابل تعليم ذلك المدين حيلة ينجو بها من دائنيه ، وتمكنه من الظهور أمام الناس بعد طول احتجاب وخوف ، وكانت الحيلة : أن ينبح الناس ، ويبدو في هيئة من به لمم ، ومن أصابه مس ، فإذا به يتقن الأداء ، ويبدع التمثيل أمام الغرماء ، أمام الوالي ، وأمام القاضي ، فيقرر جنونه ، ويسقط ديونه ، ويأتى الغريم غريمه ، مطالبا بماله ، وبالزيادة الموعودة ، فيصاب بخيبة أمل ، ويرتد كيده فى نحره ، وتصيب الحيلة صاحبها بشرورها ، وتحرق معلمها بشواظها ، وتنقلب الأمور عليه ، فتكون خسارته المادية مضاعفة ، فلا يحصل على الزيادة ولا على أصل ماله ، وخسارته المعنوية كبيرة ، إذ لجأ إلى الكذب والتضليل والاحتيال ، وتنقلب صورته وتتشوه معالمها ، كان أستاذا فصار تلميذا لتلميذه ، ظن نفسه خبيرا فطنا ، حسن التدبير ، واسع الحيلة ، فإذا به فريسة ذكائه وصريع حيلته ، وإذا الذكاء غباء ، والاحتيال حمق ، وإذا صورة المدين تتغير ملامحها وتتعرج خطوطها ، وتختلف ألوانها عدة مرات ، كانت بسيطة ساذجة ، قلقة حائرة ، تتوارى عن العيون ، وتتخفى من الأنظار ، ثم برزت فى صورة مجنونة ، وهيئة كلبية نابحة ، فزادت السذاجة ، وغلفها البله ، المضحك ثم انتهت إلى ذكاء حاد ، وبراعة وتفوق ، حين تغلبت على من احتال لها ، وانتصرت عليه ، ولم يصر فى يده قليل ولا كثير .

إن براعة الجاحظ ، ودقة يراعه ، وازدهاء رسمه وألوانه ، وروعة بلاغته واتقانه ، وهزله وسخره ، وتصويره وسحره ، قد منحها الصورة الكاريكاتورية ، التى التقطتها مخيلته ، فعبثت بها ، وركبتها بالهزل والسخر ، وأحالت معالمها ، وقلبت سحنتها ، وغيرت صورتها الجسمية أو العقلية أو النفسية أو الاجتماعية ، تكشفتها لنفسها وللناس ، وجسمت عيوبها وأبرزت ضعفها ، وغيرت نسبها تغييرا مضحكا هازلا ، فجاءت آية الآيات ، وبرهان التفوق والسمو الفكرى والأدبى .

* * *

ولكن أكانت سخريات الجاحظ ، وصوره الهزلية ، التى أثبتها فى كتبه ، من صنعه سدى ولحمه ، ومن بنات أفكاره خلقا وإيجادا ؛ فهو رب المعنى والفكرة واللفظ والأسلوب ، والتكوين الفنى ؟؟ .

أم سبقه بها غيره ، وخطها قلم قبل قلمه ، فللسابقين المعنى والفكرة ، وللجاحظ الرونق والديباجة ، والأسلوب السلس ، والتصوير الرائع ، والصياغة المحبوكة ؟؟

أم نقلها من غيره ، ورواها عن أسلافه ، واطلع عليها فى كتبهم فأثبتها فى كتبه ، فليس له منها إلا فضل الرواية ، ودقة الحفظ ، وأمانة النقل ، وتخليد التراث ؟؟

لا شك أن الجاحظ خالق الكثير من هذه السخريات ، ومبتدع العديد من تلك (الكاريكاتوريات) فهو مؤلف مواقفها ، ومنسق مناظرها ، ومهيئ الجو المناسب ، والبيئة الصالحة لها ، وراسم الانفعالات ، ومحدد الحركات والإشارات ، وصاحب الحديث والحوار ، ومجرى المضحكات على ألسنة أناس لم تصدر منهم ، سواء أكانوا حقيقيين أم وهميين مما ابتدعهم فكره ، وصورتهم له مخيلته ، فهو منشئ الشخصيات ومحركها ، ومنطقها ومضحكها ، فالأسلوب أسلوبه ، والفكرة فكرته ، والتصوير الفنى ، والحبكة القصصية ، والكلمات الساخرة ، من صنعه وتقديمه والعمل الفنى بأسره من ابتكاره والوجبه الدسمة التى يقدمها على مائدة كتابه من ابتداعه ، فله بذلك فضل السبق ، وجودة الإنشاء ، وبراعة الاخراج ، وروعة التصوير ، وله تحية تقدير وإعجاب من علم النفس والاجتماع واللغويات ومن فن القصة والرسالة والكاريكاتوره لما قدمه من خدمات ، وما استحدثه من إضافات .

وقد صرح الجاحظ بابتداعه السخريات ، وابتكاره المضحكات ، وخلق الصور الهزلية كما فى رسالة التربيع والتدوير وغيرها ، من السخريات التى لا يشك أحد فى أنها من إنتاجه ، ومما لا تحتاج فى إثبات نسبتها إليه إلى سوق الأدلة والبراهين . يقول (كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ، ويدعى أنه مفرط الطول ، وكان مربعا ، وتحسبه

لسعة جفرته ، واستفاضة خاصرته مدورا) [٢٩]، ويقول :(فلما طال اصطبارنا حتى بلـــغ المجهود منا ، وكدنا نحتاد مذهبه ، وتألف سبيله ، رأيت أن أكشف قناعه ، وأبدى صفحته للحاضر والبادى ، وسكان كل ثغر وكل مصر ، بأن أسأله مائة مسألة أهزأ فيها ، وأعرف الناس مقدار جهله ، وليسأل عنها كل من كان فى مكة ليكفوا عنا من غربه ، وليردوه بذلك إلى ما هو أولى به) [٣٠].

فهذه الأسئلة الساخرة إذن من صنع الجاحظ وابتكاره كما يقول ، ولا دخل لأحد فيها كما أن سائر الأوصاف الهزلية فى الرسالة من نتاج قريحته .

وتتأكد نسبة السخرية إليه حينما لا يكون نحل ولا إضافة كلامه إلى غيره أو روايته عن غيره كرأيه فى خرافات بعض المفسرين ، وفيما روى عن خلق السنانير والخنازير ، وما قيل عن حسن علاج لسعة الزنبور ، وما جاء فى وصفه المراوزة .

وقد تحتاج فى التمييز بين فكرته وأسلوبه ، وبين فكرة وأسلوب غيره إلى تلطف وتدقيق نظر ، لنعرف أى السخريات له وأيتها ليست له ، ولنميز المنحول من الصحيح ، فقد (يخيل إلى القارىء بادى الرأى إذ يقول الجاحظ حدثنا أو أخبرنا ، أنه يسوق كلام غيره كما فى رسالة الكندى مثلا ، ولكن حقق النظر ، وأعمل الفكر ، فلست فى الجملة ترى لغير الجاحظ قولا ، ولا غير أسلوبه أسلوبا ، ولا غير روحه روحا)[٣١] وإنما ولدها هو ، ووضع أحاديثها وافتن فيها ، ونسبها إلى غيره ، وليست نسبتها إلى غيره دليلا على أنه ليس صاحبها ، فإن (أسلوبها وطريقة وضعها ، ومنحى الاستدلال فيها ، كل ذلك شاهد قوى الحجة ، واضح الدلالة على أن الجاحظ هو صاحبها) [٣٢] وإن كان قد نسبها إلى غيره ، وليســـ

---

٢٩) رسائل الجاحظ ص ٨٥

٣٠) رسائل الجاحظ صفحة ٨٦

٣١) كتاب البخلاء ، شرح الجارم والعوامرى ص٦

٣٢) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق الحاجرى ص ٤٠ المقدمة .

هذا كما كان يشيع في عصره من توليد بحرته الجاحظ ويذكره ، ويصف به غيره في قوله : (ولو أن رجلا ألزق نادرة بأبي الحارث جمين ..) (٣٣) ويقره هو ، ويسير في طريقه وينتهجه نفس شبابه حين كان يؤلف الكتب وينسبها إلى غيره من مشاهير الكتاب لتشيع وتذيع ، وتكتسب الشهرة والمجد ، بقوله : (كنت أؤلف الكتاب الكثير المعاني ، الحسن النظم وأنسبه إلى نفسي فلا أرى الأسماع تصغى إليه ، ولا الإرادات تتيم نحوه ، ثم أؤلف ما هو أنقص منه رتبة ، وأقل فائدة ، وأنحله عبد الله بن المقفع أو سهل بن هارون ...) (٣٤).

وقد يسبقه غيره إلى سخريات وصور هزلية ، ويتحدث بها رجال قبله ، وهم أصحاب فكرتها ، وواضعوا أسسها ، ولكنه يتناول هذه الفكرة بدعابته المشرقة ، وتصويره المبدع وعمقه وغوصه ، وتحليله النفس ، ويتعهدها بالتنقيح والتهذيب ، والتنظيم والتنسيق ، ليحذف منها ، ويضيف إليها ، ويغير هيئتها ، ويصبها في غير قالبها ، فتبعد عن أصلها وتتبدل صورتها ، وتستحيل صورة أخرى جديدة هو أحق بها وأهلها .

ويثبت ذلك ما يرويه في كتبه من صور ساخرة ، ومن قصص ومواقف هازلة ، صدرت من رجال سبقوا عصره ، وماتوا قبل مولده ، لم ير الجاحظ مواقفهم ، ولم يعش أحداثها ، وإنما سجلها في كتبه منسوبة إلى أصحابها ، بعد أن نقلت إليه ، وطرقت سمعه ، أو بعد أن اطلع عليها في كتابات غيره — وما كان أكثر اطلاعه — ولكن بأسلوبه هو ، وبطريقته في التصوير والأداء ، وذلك كحديثه عن عبد الرحمن بن أبي بكرة الذي أكل (على خوان معاوية فرأى لقم عبد الرحمن ، فلما كان بالعشي وراح اليه أبو بكرة ، قال : ما فعل ابنك التلقامة ؟ فقال : اعتل . قال : مثله لا يعدم العلة) (٣٥) . وروايته السخريات لمسلم بن عبد الملك ، ومعاوية ، وأشعب ، وحويطب بن عبد العزى ، وبلال بن أبي

٣٣) البخلاء ، الجاحظ ، شرح الجارم والعوامري ص ٣١

٣٤) رسالة فصل ما بين العداوة والحسد من مجموعة رسائل الجاحظ ص ١٠

٣٥) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجري صفحة ١٥٣

مرة ..... وغيرهم وغيرهم[٣٦].

يقول الدكتور عبد الكريم الأشتر في كلامه عن فن القصة في كتاب البخلاء للجاحظ:

(فأقبل على الموضوع - يجمع الحكايات والقصص والنوادر والاحتجاجات، ويجهد كتابتها بأسلوبه الخاص، فيلون المشاهد، ويحلل النفوس، ومظاهر السلوك، ويغنيهما بالتفاصيل الوصفية الدقيقة، حركات الوجه واليد والعين والفم، ويصنع الحوار الفني المترابط المركز ويستعين بموهبته في الإضحاك، والوقوع على مثيرات الضحك، في الكلمة والطبع والإشارة تيسرها، ويمطي في خلال ذلك نظرته إلى الحياة والإنسان، ويكتب هذا كله بلغته الطبيعية البسيطة)[٣٧].

ويقول جورج غريب في كلامه من بخلاء الجاحظ: (ومع ذلك فهو لم يقتبس من سابقيه سوى عشرين نادرة كما يقول. أما ما وضع على ألسنة الكثيرين من نوادر وأخبار وأحاديث فليس في ذلك دليل على أن أبا عثمان يسوق كلام غيره)[٣٨].

وقد تكون السخريات لغيره، لم يخترعها هو، ولم يبتدعها، ولم يغير صورتها، وإنما ذكرها في مؤلفاته، ونقلها إلى كتبه كما هي، دون تحديل أو تبديل، فله بذلك شكرنا على تخليده التراث، وإحياء الآثار الأدبية، وإبراز صور الحياة في عهده، وما قيل عهده، ثم إنها أوضحت لنا جانبا من أدب الجاحظ، وتذوقه، ونقده، وأطلعتنا على إحساسه الفني، وشعوره بالجمال الأدبي، وتقديره للكاريكاتورة وللصورة الرائقة أنى وجدت، فهو يلتقطها من مكمنها، ويختارها لكتبه، ويرتضيها لقصصه، ويضمها إلى نوادره، وساخر أدبه، معلنا عن صاحبها، كرسالة سهل بن هارون[٣٩]، وكالشعر الساخر الذي تناثر في مؤلفاته ونسبها إلى أربابه.

---

٣٦) البخلاء، الجاحظ، تحقيق طه الحاجري الصفحات، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢.

٣٧) محاضرات الموسم الثقافي عام ٦٣/١٩٦٤ الجزء السابع مطبعة الوزارة بدمشق صفحة ٢٢٩.

٣٨) الجاحظ، جورج غريب، صفحة ٧٧

٣٩) يرى العوامري والجارم أن رسالة سهل بن هارون له حقيقه. كتاب البخلاء ص٦٠

وقد ينقل بعضها لا رغبة فيه ، واعتزاز بنسجه وحياكته ، وبراعة صورته ، وإنما لينقد مالا يروقه منه ، كقصة من يريد أباه أن يشير باللقمة إلى قطعة الجبن من بعيد دون أن يمسها حتى لا تصاب بنقصان . فيقول : (ولا يعجبني هذا الحرف الأخير ، لأن الإفراط لا غاية له ، وإنما نحكي ما كان في الناس ، وما يجوز أن يكون فيهم مثله أو حجة أو طريقة . فأما مثل هذا الحرف فليس مما نذكره)[٤٠].

ولعل كلام الجاحظ نفسه ، وحديثه من سخرياته من البخلاء ، يفيد ما أوضحته من أخذه طرفا منها لسخر من أصحابه ، وابتداعه طرفا آخر ، وروايته سخريات تناولها بقلمه وأسلوبه وإن كانت أفكارها وحوادثها لغيره . قال : (هذه ملتقطات أحاديث أصحابنا وأحاديثنا وما رأينا بعيوننا ، فأما أحاديث الأصمعي ، وأبي عبيدة ، وأبي الحسن ، فإني لم أجد منها ما يصلح لهذا الموضع ، إلا ما قد كتبته في هذا الكتاب ، وهو بضعة عشر حديثا)[٤١].

∴ ∴ ∴

٦ — الصورة الكلية الشاملة :

وقد يفسح الصورة ، ويوسع مجالها ، ويمد أطرافها ، لتشمل شخصية بأسرها ، يتناولها من جميع نواحيها ، ويكشف تفاصيلها ودقائقها ، ويفصح عن نزواتها ونزعاتها ، وآمالها وآلامها وحقيقتها وخيالها ، وما قصدها ووهمها ، ويوضح لنا موقفها من الناس ، ومن نفسها ، ثم يرسم موقف الناس منها ، ولا يكتفي بإبرازها ، وإظهار مخبئاتها ، وإيضاح عيوبها ، بل يعبث بمقدستها ، ويقلب نسبها ، ويهزأ بأعضائها وتركيبها ، وخلقتها ونفسيتها وانفعالاتها ، في عرض فنى ، وتصوير ضاحك ، ورسم كاريكاتوري هازل ، يشوهها ويمسخها ، ويجسم معنوياتها ، ويشخص أوهامها ، ويضخم مادق منها ، فإذا هي هزأة أمام الناس وإذا بها صورة فريدة في نوعها ، عجيبة في بابها ، لا تنالها يد فنان ، ولا يسمو إليها

---

٤٠) كتاب البخلاء شرح العوامرى والجارم الجزء الثانى صفحة ٥٨ .

٤١) المصدر المذكور صفحة ٨٢ .

عقل أديب ، مما يكتب لها المجد والخلود .

وأقف الآن أمام عمل متكامل الخلق ، تام النضج ، أمام رسالة طويلة في السخرية من شخصية واحدة امتدت فغطت أكثر من خمسين صفحة ، تظهر فيها براعة الكاتب ، وسعة ذرعه ، وامتداد نفسه في هذا المضمار ، هي رسالة الجاحظ في أحمد بن عبد الوهاب الجبلي التي سخر فيها منه فخلد له بها صورة كاريكاتورية ، رسم بساخر فنه خطوطها ، ومزج بيان خبرته ألوانها ، وأضاف إليها من مرح روحه ، وخفة ظله عصارة تثبت ألوانها ، فلا تمحي ، ولا تتجرد ، على مر الأيام ، ثم أحاطها بإطار من الفكاهة والمرح ، يجذب إليها كل ناظر ، ويلصقها بالقلوب والخواطر ، فلا تستطيع من أسرها فكاكا .

ويجدر بنا أن نتناول الرسالة ، ونمعن فيها النظر ، ونحلل ما فيها من كاريكاتور ، فهي جديرة بذلك ، باعتبارها أول عمل فني طويل متكامل في ميدان السخر ، ولد شابا ينضح قوة وحيوية ، ولا زال شابا فتيا حتى يومنا .

فهيا بنا الآن إلى تلك الرسالة ، نطلع على شخصية الجاحظ الأدبية النقدية من خلالها . ونرى اللمسات الفنية ، والألوان الهزلية ، والابتكار والعبقرية ، ولنتأكد أن الرسم بالكلمة قد يفوق الرسم بالفرشاة ، وأن الأديب البارع يعطي المنظر حقه ، والصورة متطلباتها ، فتروع وتبهر ، أكثر مما يؤديه الرسام ، ويقوم به المصور ، ويبدعه النحات والمثال .

∴ ∴ ∴

رسالة التربيع والتدوير

رسالة كتبها أبو عثمان الجاحظ إلى أحمد بن عبد الوهاب ، يسخر فيها منه ، ويتهكم به ، وهي أول رسالة في اللغة العربية ، كتبت في هذا الغرض ، واختصت به ، وصورت السخرة تصويرا كاريكاتوريا هازلا ، تناوله من جميع نواحيه تناولا بارعا ، وسخر منـــه

وتفهطه تفوقه وأسبقيته .

تلك فكرة عاجلة عن الرسالة ، ونبذة مختصرة عن محتوياتها ، وأسلوبها ، وموضوعها ، وغاياتها ، وطرق الافتنان فيها ، أما نصوصها ، وتفاصيلها ، ونواحى الفوق فيها ، وجوانب فن السخر التى تغمرها ، فإليك بها ، بعد أن نعرف الشخصية التى سخر منها وبواعث السخر ودوافعه إليها .

الشخصية التى سخر منها :

إن الشخصية التى سخر منها الجاحظ فى رسالة التربيع والتدوير وسلط الأضواء الكاشفة على زواياها المجهولة ، فظهرت واتضحت ، ووضع عليها مجهر سخطه وهزئه فنمت وعظمت وعبث بدقائقها وتقاسيمها فتعرجت وتكورت ، واستطالت ثم تقبضت ، وألهبها بميسم هزئه فتشوهت وتقرحت ، لابد أن يكون لها شأنها وخطرها ، حتى يناصبها العداء ، ويحبس قلمه للحديث عنها فترة من الزمان ، ونستطيع أن نستخلص معلومات عن هذه الشخصية من كتابات الجاحظ نفسه ، فهى خير برهان ، وأوثق دليل .

يذكر لنا الجاحظ أن صاحب هذه الشخصية هو أحمد بن عبد الوهاب وقد صرح بذلك فى مستهل رسالته فقال : (كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ويدعى أنه مفرط الطول)(٤٣) وقد أشار إلى هذه الرسالة وصرح باسم صاحبها فى كتابه الحيوان ، فقال : (فان أعجبتك هذه المسائل ، واستطرفت هذا المذهب ، فاقرأ رسالتى إلى أحمد بن عبد الوهاب)(٤٤) وقد صرح بصناعته وهى الكتابة فى قوله : (فاقرأ رسالتى إلى أحمد بن عبد الوهاب الكاتب)(٤٥) وقد تبين لنا أنه من كتاب الأمراء ، لا من كتاب الديوان فقد قال : أبو الفرج الأصفهانى (وكان لصالح بن عبد الوهاب أخى أحمد بن عبد الوهاب كاتب صالح بن الرشيد)(٤٦) ، كما أوضح لنا أن القبيلة التى ينسب إليها يمنية قحطانية فى قوله : (ولم أزعم أنك رجل يمان

---

٤٣) مجموعة رسائل ، الجاحظ ، ص ٨٥ طبعة دار النهضة الحديثة بيروت سنة ١٩٧٢ .

٤٤) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء صفحة .

٤٥) نفس المرجع ونفس الصفحة .

٤٦) الاغانى ، ابو الفرج الأصفهانى الجزء الثانى عشر صفحة ١١٠ مطبعة التقدم .

لولاءة لله لى قحطان ، كيف وأنت أقدم من قحطان)[٤٧]، ثم صرح باسم قبيلته "بجيلة" فى قوله : (والله لئن رميتنى ببجيلة لأرمينك بكنانة)[٤٨]، وقد كان مذهبه التشبية ، والقول بالبداء ، والرفض . يقول الجاحظ له : (فإن أردت أن تعرف حق هذه المسائل وباطلها وما فيها محال ، وما فيها فاسد ، فألزم نفسك قراءة كتبى ، ولزوم بابى ، وابتدئ بنفس التشبيه ، والقول بالبداء ، واستبدل بالرفض الاعتزال)[٤٩]، ويقول : (وما الحجة فى الرجعة ، والقول فى المناسخه ، ومن أين قلتم بالبداء)[٥٠]، ويقول : (وحتى لو كنت إمام الرافضة لقتلت فى طرفه .. وأنت رافضى)[٥١]، ولا بد أن يكون ابن عبد الوهاب شخصيه نابهة ، لها مكانتها بين الناس ، ووزنها بين الكتاب ، وأهميتها فى الدولة وإلا فكيف ينا صب الجاحظ – القمة – العداء رجلا من عامة الشعب ، وغوغاء الأمة ، ويطيل السخرية منه ، سخرية يظهر القصد منها ، ويتضح السر فى أن إطالتها شفاء لغيظ قلبه وضيق صدره .

وقد كانت للبجلى مكانته المرموقة فى الدولة ، وله أحباؤه الذين يدافعون عنه ويستند إليهم عند اشتداد الكرب ، من وجهاء الدولة ، وأولى الشأن فيها ، كصالح بن على ، وسليمان بن وهب ، وجعفر الخياط ، يقول الجاحظ فى الرسالة : (لئن نهضت بصالح ابن على[٥٢] لا نهضن بأحمد بن خلف[٥٣]، وبإسماعيل[٥٤] بن على ، ولئن صلت علـى

---

٤٧) مجموعة رسائل الجاحظ ، ص١٢٢ طبعة دار النهضة الحديثه ببيروت عام ١٩٧٢ .

٤٨) المصدر السابق صفحة ١١٨ .

٤٩) المصدر السابق صفحة ١٢٠ .

٥٠) المصدر السابق صفحة ١٠٤ .

٥١) المصدر المذكور صفحة ١١٩ .

٥٢) صالح بن على بن عبد الله بن عباس قائد من قواد الدولة العباسية وأمير من أمرائها تبع مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية حتى قتله فى مصر ، تولى إمارة الحج عام ١٤١ هجرية

٥٣) أحمد بن خلف كان يعاصر الجاحظ وكان مشهورا بالبخل وله فى كتاب البخلاء أحاديث وكان الجاحظ يحتريه ويفخره .

٥٤) إسماعيل بن على هو أخو صالح بن على وكان من قواد الدولة العباسية ، تولى إمارة الحج سنة ١٤٢ هجرية .

بسليمان بن وهب[٥٥] لأدمغنك بالحسن ابن وهب[٥٦]، ولئن تمت على بمنادمة جعفر الخياط لأيتمن بحمة وهب الدلال[٥٧])، وكما كان من أصحاب محمد بن عبد الملك الزيات كما يذكر أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني[٥٨]، وفي ذلك الدليل على أن هناك من كانوا يؤازرونه ويعتمد عليهم في الشدائد، ممن كانوا ذوي أهمية في الدولة، وصدارة في المجتمع العباسي ولا يليق بمثلهم أن يؤازروا ويشدوا عضد ابن عبد الوهاب إن كان من رعاع الناس وهمائهم ولا يليق به، بل يجرؤ أن يتنقص بهم إن كان من صغار العامة، ثم إن من يقف من الجاحظ موقف المعارض المناوئ في المذهب والآراء الدينية وصناعة الكتابة، وفي القبيلة التي ينتسب إليها، وفي الأنصار المنجدين، المساعدين عند الشدائد، لابد أن يكون له شأنه وخطره ويكفي لرفعة قدره، واشتداد سلطته أن يكون صاحب ابن الزيات، ونديم جعفر الخياط، ومتصلا بصالح بن علي، وسليمان بن وهب.

الدافع إلى تأليف الرسالة:

كان لأحمد بن عبد الوهاب – كما أسلفنا – كثير من رجالات الدولة الذين يشدون أزره، وينجدونه عند الضائقة، ويصول بهم على من يعترضه بأذى، ويناله بسوء ومن كان كذلك كانت له منزلته الرفيعة في المجتمع، ومكانته السامية بين عظماء الدولة، ولدى رجال الحل والعقد في الأمة، وليس يبعد أن يكون قد احتل المركز المرموق من قلوب الخلفاء والأمراء والوزراء، وذلك شيء يثير الغضب في نفس الجاحظ، ويبعث على الحنق، ويورث نارا الغيظ لقد كان الجاحظ يرى نفسه في غير مكانه، لم يقدر حق قدره، ولم يوضع حيث ينبغي أن يكون، وأنه لو أنصف لكان هو الخليفة، ومحمد بن عبد الملك الزيات يأتمر بأمره، ويعمل تحت يده، وسواء أكان ذلك منه على سبيل الفكاهة

---

٥٥) من كبار رجال الدولة العباسية وكان وزيرا من وزرائها.

٥٦) كاتب عالم شاعر توفي عام ٢٤٧ هجرية تقريبا.

٥٧) مجموعة رسائل الجاحظ صفحة ١١٨ طبعة بيروت. دار النهضة الحديثة سنة ١٩٧٢

٥٨) الأغاني لأبو الفرج الأصفهاني. الجزء الثاني عشر صفحة ٢١، ٢٢ مطبعة التقدم

المصدر؟

والمن أم على سبيل الاعتزاز بالنفس، والاعتراف برفعة القدر، إلا أن المؤكد أن الجاحظ كان طلعة، ذا آمال عراض، وتقدم في الحياة، وارتقاء في معارجها لا يعرف الملل والكلال، ومن الصعب على من كان هذا طموحه، وتلك آماله، أن يرى من هو أحط رتبة وأقل منزلة، قد نال فوق ما ينبغي له، حتى ليكاد يعلوه أو يساويه في الشرف والمكانة، والجاحظ الذي ينفر من الظلم، ويبغض السكوت على الضيم، ويكره التسلق إلى المجد بآلة غير شريفة، والتسلل إلى المعالي في غفلة الرقباء، لا يستطيع قلمه الساخر أن يصمت إزاء هذا العرق، فشرعه سلاحا بتارا، وبه ما يستأصل تلك الزيادة غير الطبيعية التي نمت في شرف ابن عبد الوهاب، ونتأت في قدره، واختار الكاريكاتور ترياقا يعيد نفسية البطل إلى حالة من التوازن والاعتدال، ويتنفى ما أصابها من أورام ضخمت شخصيتها، ونفخت كيانها.

وكان ابن عبد الوهاب كاتبا، وكان الجاحظ يكره الكثير من أفراد هذه الطائفة، ويعيبها ويهزأ بها، ويراها من التفاهة، وقلة الفطنة، وضعف الأداة، في مستوى يزرى بتلك المهنة الرفيعة، ويحط من قدرها، لا يهتمون إلا بمظاهرهم فإذا فتشت عقولهم، ووقفت على دخائلهم، هالك الجهل والحمق، وسوء التدبير، وضحالة التفكير، وذلك ما جعله يترك الديوان سريعا ولم يطق أن يمكث فيه أكثر من ثلاثة أيام مع أمثال هؤلاء الكتاب الذين وصفهم بقوله: (إن قيم الكتابة بنى على أنه لا يتقلدها إلا تابع ولا يتولاها إلا من هو في معنى الخادم، ولم نر عظيما قط تولاها بنفسه، أو شارك كاتبه في عمله)[٥٩] (وجلس الجاحظ يوما في بعض الدواوين فتأمل الكتاب فقال: خلق حلوة، وشمائل معشوقة، وتظرف أهل الفهم، ووقار أهل العلم، فإن ألقيت عليهم الإخلاص، وجدتهم كالزبد يذهب جفاء، وكنبتة يحرقها الصيف من الرياح، لا يستندون من العلم إلى وثيقة، ولا يدينون بحقيقة)[٦٠]. فقد امتلأ قلبه بكرههم، وقد كان لابن عبد الوهاب من تلك الكراهية

٥٩) ثلاث رسائل، الجاحظ، نشر يوشع فنكل صفحة ٤٢ الطبعة الثانيه المطبعة السلفيه ١٣٨٢ هـ

٦٠) ثلاث رسائل، الجاحظ، نشر يوشع فنكل صفحة ٤٥ الطبعة الثانيه المطبعة السلفية ١٣٨٢ هـ

أو فى نصيب جبر عنه الجاحظ برسالة طويلة ساخرة ، خصه بها ، شفاء لغيظ نفسه التى ، ترى فيه المنظر ولا ترى المخبر ، وتنظر الصنعة الشريفة فى أيدى الأخساء المفلوكين .

ثم إن الجاحظ كان ساخرا بطبعه ، ميالا إلى الفكاهة بفطرته ، يطلبها ويلتمسها فى شتى مواطنها ، ويولدها ويشتق منها الرائق إن لم يجدها أمامه ، ويخترعها ويبتدعها إن لم تسعفه حافظته برواية النادر منها ، ويتخذها أداة قصاص وأسلوب ردع ، وشعلة يهدى بها الضال ويحرقه بشواظها إن لم يستجب لتوجيهاته ، فسلطها على ابن عبد الوهاب فمسخه ، وتركه صريع هزئه ، وقتيل تهكمه قال فى كتابه الحيوان : (٦١) (والحديث عن مسخ الضب والجرى ، ومن مسخ الكلاب والحكأة وأن الحلم شيطان ، من جنس المزاح الذى كنا كتبنا به إلى بعض إخواننا ممن يدعى علم كل شىء ، فجعلنا هذه الخرافات وهذه الفطن الصغار من باب المسائل فقلنا له ما الشنقناق والشيصبان وشنكوير ودركاداب ومن قاتل امرأة متهل) ويقصد بذلك أحمد ابن عبد الوهاب لوروده الأسئلة فى رسالته .

وقد كان ابن عبد الوهاب فى هيئته وسحنته ونفسيته وعقليته ، صورة متناقضة ، تدفع الجاحظ بما طبع عليه من حب للهو والمزح ، وبما وقر فى جبلته من لهج بالسخر والطنز ، وبما انفعلت به نفسه من كره له ، وغضب عليه ، إلى أن يتناولها بقلمه ، فيرسم لها الخطوط ، ويطمسها ويعرجها ، ويثنيها ويدورها ، ويعبث بطولها وعرضها ، ويضفى عليها الظلال ، ويسكب فوقها الألوان ، فإذا هى صورة مشوهة ، ولوحة للقبح مجسمة ، يساعده فى ذلك ، ويمده بالخطوط والأصباغ ، والمعانى والأفكار ، ما كان عليه ابن عبد الوهاب من قصر ودمامة ، وبلاهة بغزارة علمه ، ووفرة أدبه ، والجاحظ ينظر إليه بعين الزراية ، ويراه بلحاظ الهزء ، ويحلم غروره وتيهه ، فيوسعه هزءا ، ويحوله مسخا ، ويصوره تصويرا كاريكاتوريا يفصح عن خفاياه ، ويفضح مخبآ ياه ، فنضحك ونقهقه ، ونسر ونسعد .

---

(٦١) كتاب الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الأول صفحة ٣٠٨ .

كان الجاحظ قبيح الوجه ، مشوه الخلقة ، إلى الحد الذى جعله يقول : (ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رآنى استبشع منظرى ، فأمرلى بعشرة آلاف درهم وصرفنى).(٦٢)

وربما كان ابن عبد الوهاب جميل الوجه وسيما بدليل أن الجاحظ لم يتعرض فى رسالته للسخر من وجهه .. فغاظه ما عليه ابن عبد الوهاب من صباحة ، رغم ما عليه وجهه هو من دمامة ، فتصب إلى ابن عبد الوهاب قبحه ، وأسقط عليه شوهته وأوسعه هزءا وسخرا ليتخفف مما ملأ نفسه من ألم ، وكربها من تشويه فكان هزؤه بعيدا عن الوجه منصباً على خلقه وعلمه وعقله ، وقصره وتدوير بطنه ، مبالغا فى ذلك ، متخذا الكاريكاتور أداة للمسخ والتشويه .

وربما تاه ابن عبد الوهاب بنفسه ، وافتر بمنصبه واعتقد أنه فوق الجاحظ ، وأن يستد ن تنالم ، فعابه ، وهزىء به وعاداه وهجاه مستغلا فى ذلك منصبه ونفوذه ، وصحبته كبار رجال الدولة ، وكثر ذلك منه ، حتى ضاق به الجاحظ بعد طول اصطباره فألف رسالته فى السخرية منه ، طويلة بمقدار صبره عليه ، لاذعة بمقدار ما حبس فى نفسه ، وكظم فى قلبه ومما يؤيد ذلك قوله فى الرسالة : (فلما طال اصطبارنا حتى بلغ المجهود منا موكدنا نعتقاد مذهبه ونألف سبيله ، رأيت أن أكشف قناعه ، وأبدى صفحته للحاضر والبادى ، ولسكان كل ثغر ، وكل مصر بأن أسأله عن مائة مسألة ، أهزأ فيها وأعرف الناس مقدار جهله ، وليسأله عنها كل من كان فى مكة ، ليكفوا عنا من غربه ، وليردوه بذلك إلى ما هو أولى به)(٦٣) ، وقوله : (قالت والله يا أخى تعلم علم الاضطرار وعلم الاختيار ، وعلم الأخبار أنى أشد منك عقلا ، وأظهر منك حزما ، وألطف كيدا ، وأكثر علما ، وأوزن حلما ، وأخف روحا ، وأكرم عينا ، وأقل غشا ، وأحسن قدا وأبعد غورا ، وأنصع طرفا ، وأكثر ملحا ، وأنطق لسانا ، وأحسن بيانا ، وأجهر جهارة ، وأحسن إشارة ، وأنت رجل تنشد من العلم ، وتنفق من

---

٦٢) وفيات الأعيان ، ابن خلكان الجزء الثالث صفحة ١٤١ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة سنة ١٩٤٨ .

٦٣) مجموعة رسائل ، الجاحظ ، صفحة ٨٦ طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ دار النهضة الحديثة .

الاختبار ، وتموه نفسك ، وتعفر من قدرك ، وتتمسح بالثياب ، وتتنبل بالمراكب ، وتتصنع بحسن اللقاء ، ليس عندك إلا ذاك ، فيم تزاحم البحار بالجداول والأجسام بالأعراض وما لا يتناهى بالجزء الذي لا يتجزأ) (٦٤) وفي ذلك الدليل على أن ابن عبد الوهاب كانت بينه وبين الجاحظ ملاحاة ، ومنافسة ، وأنه طاولـه بنفسه على الجاحظ وفخر بفضائله ، وحط من قدر الجاحظ ونزل به إلى الدرك الأسفل ، مما حدا بالجاحظ أن يرد عليه ، ويهزأ به ، ويبطل كلامه ، فكان الرد هذه الرسالة الساخرة .

اتصل الجاحظ بمحمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة المعروف بابن الزيات ونشأت بينهما صداقة وطيدة ، ثم حدثت بينهما جفوة ، وقد اتصل كذلك ابن عبد الوهاب بابن الزيات وقربه منه ، فقربه إليه ، وربما انتهز ابن عبد الوهاب هذه الجفوة فأطلق لسانه في الجاحظ ليزداد قربه من الزيات ، وربما كان السبب في الجفوة الوقيعة منه ، والوشاية به ، وربما تألم الجاحظ لأن ابن عبد الوهاب حل محله ، فثارت نفسه وكان ذلك سببا في إنشاء الرسالة .

دان الجاحظ بالاعتزال ، واتخذه مذهبا دينيا كلاميا ، ونبغ فيه وانفرد ببعض مسائل خالف فيها ما عليه عامة المعتزلة ، وأفرده بطريقة اعتزالية خاصة ، نسبت إليه ، وتبعتها جماعة سميت باسمه ، فصار زعيم الطائفة الجاحظية المعتزلية ، واعتنق أحمد بن عبد الوهاب العجلي الرفض والتشبيه والقول بالبداء ، فخالف مذهب الجاحظ الكلامي وعارضه ، والجاحظ رجل الفكر والمنطق والكلام فنصب نفسه مدافعا عما يراه حقا ، ويسخر ويهزأ بكل ما يعتقد خطأ ، وبطلانه ، ومن ثم هزئ بابن عبد الوهاب ، وعاب مذهبه ، وضآلة تفكيره ، وجهله ونزقه ، وعمت سخريته ، وانفسح مداها ، فشملت جسمه وخلقه وكل شيء فيه .

---

(٦٤) مجموعة رسائل الجاحظ صفحة ١١٨ ، ١١٩

التصوير الهزلي في الرسالة :

تطالعنا رسالة التربيع والتدوير بألوان من السخر عديدة ، وصور من الهزء متنوعة ، تناول فيها الجاحظ أحمد بن عبد الوهاب ، فسخر فيها بشكله وهيئته وهزئ بأخلاقه وآدابه ، وتهكم بتفاهة تفكيره ، وقلة تدبيره ، وزرى بجهله وعيه ، ومبالغاته وادعاءاته ، وكذبه وافتراءاته واتخذ لذلك الأساليب التي تؤلم وتزري ، وتصيب فتصمي .

فتارة يرسم جسمه بعباراته ، ويصوره بألفاظه ، رسما مشوها ، وصورة ممسوخة ، يدوره فيها ويكوره ويقصره ويقلصه ويلغي التناسب والمساحات بين أعضائه ، ثم يمطه ويطيله ، ويمد له ويقيمه ، ويباعد بين أعضائه ، ويزيد في قامته وهامته ، فتراه ينكمش وينقبض ، ثم يطول وينبسط . وطورا يرفعه إلى درجة الكمال ، ويخلع عليه شخصية (السوبرمان) ويجعل الكمال الخلقي والخلقي مجتمعان فيه ، ونابعان منه ، وما في الناس منهما إنما هو خيط وصلهم به ، وشعاع من شعاعه مده إليهم ، فبهرهم ضياؤه ، فإذا حسن الناس إذا قيس بحسن طلعته قبحا ، وإذا ذكاؤهم وألمعيتهم إذا وزنت بذكائه وألمعيته جهلا وحمقا ، هزءا به ، وسخرا منه من طرف خفي ، أشار إليه إشارة ، وأومأ إيماء ، أو ترك الموقف يدل عليه ، ويرشد إليه .

وكثيرا ما يعقد الموازنات بينه وبين غيره ممن سبقوه ، وممن عاصروه ، فيجعل كفته راجحة وعظمته لائحة ، ويصوره في أوج المعالي ، وفي قمة الاكتمال ، قد فاق كل مشهور فيما شهر به فإذا هو وحيد دنياه ، ونموذجا فريدا في بابه ، وغرضه من ذلك السخرية ، والشدة في الزراية .

وأحيانا يصرح بعيوبه ، ويدلو على مخازيه وذنوبه ، علّه يرتدع عن غيه ، ويتبين مدى قبحه وجهله ، فيعرف لنفسه قدرها ، ويضعها في مكانها .

وقد يوازن بين نفسه وبينه ، موازنة بين عملاق وقزم ، ودرة وبعرة ، ويشخص صفات كل منهما ، ويجعلهما بإزاء بعضهما ، فتبين عظمة العظيم وتتضاعف ، وتتضح تفاهة التافه وتنمو ، فإذا البون شاسع ، والهوة سحيقة والمسافة الفاصلة بينهما هائلة .

وطورا يقلب الحقائق ، ويطلخ ما يجمع الناس على قبحه ، ويبين فضله وفوقه ، ويبرهن على صحة ما ذهب إليه ، ويمدح به ابن عبد الوهاب ، ويجعله من خصائصه ، ومميزاته التي فاق بها بني جلدته .

وأكثر الرسالة معقود على إحراجه بالأسئلة ، بمسائله بمسألة يكون جوابه عنها الحق والحصر ، فاذا هو صورة مجسمة للجهل ، ونموذج للسفه والطيش .

وعلى ذلك فالصورة (الكاريكاتورية) الأدبية أفسح مجالا ، وأرحب صدرا ، من أن تقتصر على المسخ الجسدي ، والتشويه العضوي ، بل إن العبث بتفاصيل الجسم ، وتشويه معالم النفس ، وانعدام التلاؤم بين العاطفة والعقل ، والجسم والروح ، والماديات والمعنويات وفقدان التوازن بين الأمور الحسية والعقلية ، ووجود التضارب بين صفة وصفة ، والتصوير حسن الاضطراب والتردد في تصرف الشخص ، وشذوذ سلوكه ، وتصوير ذلك في عبارة ساخرة هازلة كل هذه الألوان من الكاريكاتور ، وكلها قد لمستها براعة الجاحظ وكونت منها صورة ابن عبد الوهاب وعبثت بها من جميع نواحيها .

فلنسارع إلى صورة ابن عبد الوهاب التي أنتجتها عبقرية الجاحظ لنعرف له فضله ، ونعترف بسبقيته وحذقه ، ونستمتع بنقوشه وتصاويره ، ثم نفخر بوجوده بين أدباء العربية ومفكريها .

∴ ∴ ∴

١ ـ العبث بتفاصيل جسمه :

أ) الصورة تخالف ظلها :

يستغل الجاحظ رسالة التربيع والتدوير برسم الصورة الهزلية الضاحكة لجسم ابن عبد الوهاب ، فيعبث بيده بالتشويه في خطوط عرضه ، وخطوط طوله ، فيطيل خطوط العرض ، ويقوسها ويدورها ، ويجعل خاصرته مستفيضة وبطنه أماما ممتدة ، ورأسه كرة هائلة ، ويضغط على خطوط الطول من أعلاها بعنف فتتآصر خطوط العرض في تحقيق هدفها من استدارة الرأس والجسم ، ثم يضغط على خطوط الطول من أسفلها ، فتقصر أصابعه ، وتجمع أطرافه

وتكمش عظام فخذه ، وتتقارب مفاصلها»، ولو وقف المنظر عند هذا الحد الذي نجد فيه ابن عبد الوهاب مكمشا مربعا مدورا ، والذي حدا بالجاحظ إلى أن يسمى رسالته "التربيع والتدوير" لمسنا الطرب ، واستولى علينا الضحك ، ولم تستطع كتمان ما في نفوسنا من سخر ، أو حبس أيدينا عن الإشارة إلى تلك الصورة عجبا وانشراحا ، ولكن المنظر يتسع ، وتتكون له خلفية يسقط علينا ظله الذي يختلف من الأصل ، وينأى عن الحقيقة ، فهو طويل الباد ، رفيع العماد ، وأخمص البطن ، رشيق عتيق ، على خير ما يكون الاكتمال الجسماني ، وعلى أتم ما يكون التناسب بين الأعضاء ، فتتضاعف السخرية ، وينمو الموقف الهزلي ويتعاظم ، حين تقارن بين الحقيقة والخيال ، والواقع والادعاء . يقول أبو عثمان (كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ، ويدعى أنه مفرط الطول ، وكان مربعا ، وتحسبه لسعة جفرته ، واستفاضة خاصرته مدورا وكان جعد الأطراف قصير الأصابع ، وهو في ذلك يدعى السباطة والرشاقة ، وأنه عتيق الوجه أخمص البطن ، معتدل القامة ، تام العظم ، وكان طويل الظهر ، قصير عظم الفخذ ، وهو مع قصر عظم ساقه ، يدعى أنه طويل الباد ، رفيع العماد ، عادى القامة ، عظيم الهامة قد أعطى البسطة في الجسم) (٦٥).

ب - انقلاب الصورة ظلا والظل صورة :

وتكثر ادعاءات ابن عبد الوهاب ، وتتوالى افتراءاته والجاحظ يجاريه ، ويجسم له أوهامه ، ويقلب حقيقته ، ويستعمل لذلك أسلوب المغالطة يحول به الظل أصلا ، والأصل ظلا ، فيغير خطوط الصورة ، ويبدل الألوان ، ويعكس الأوضاع ، فيجعل الظل حقيقته وجوهره وأصله الذي يعلمه الله ، وينكره الناس ، من طول وجمال ورشاقة ، وكأنه الصورة رسمت قبيل الغروب ، ويجعل أصله وحقيقته ومنظره الخارجي الذي يظهر به أمام الناس ظلاله ، ورسما مشوها لحقيقته ، يبرز فيه قصره وغلظه واستدارته وكأن الصورة قد رسمت وقت الزوال ، والناس

---

٦٥) مجموعة رسائل : الجاحظ : صفحة : ٨٥

لا يستطيعون أن يتبينوا جمال كماله ، لأنهم يدركونه بحواسهم التي تخدعهم ، فتظهر لهم قصره وعرضه ، وإن كان في الحقيقة طويل جميل ، ومقدود ممشوق ٠

ومن جنوحه إلى المنطق ، واستمما له أساليب الجدل ، يبين لهم أن استفاضة عرضه هي التي جعلته يبدو قصيرا ، وما ذلك إلا من خداع الحواس وكذبها في إيصال المعلومات الخارجية ، ولكنه في حقيقته طويل يعلم ذلك الله والراسخون في العلم الذين يعتمدون على العقل إذ هو الحكم والفيصل ٠

على أن الجميع يحكم — حسا وعقلا — بطول باده راكبا ، وطول ظهره جالسا ، وإن كانوا يختلفون في طوله قائما ومضطجعا ، والله يعلم والذهن يؤكد أنه في الحالتين طويل على أن ما يعيبه الناس في غيره يزول شينه إن نسب إليه ، فلئن كان واسع الجفرة فهو مقدود ، ولئن كان مستفيض الخاصرة فهو رغم هذا رشيق ، لا يؤثر فيه النقص لأن كماله يطغى عليه ، ولئن كان المربوع يمتدح في بعض الأحيان ، والطويل يمتدح في بعض الأحيان فإن أحمد يمتدح في كل الأحوال ، لأنه ضم إلى عرضه الطول ، وجمع من كل نوعها به يمتدح ، فهو الطويل والمديد والبسيط والمتقارب ، وهو الفرد الأوحد الذي جمع الاستدارة والطول ٠

يقول الجاحظ ، (قياسك الذي إليه تنسب ، ومذهبك الذي إليه تذهب أن تقول : وما على إن رآني الناس عريضا ، وأكون في حكمهم غليظا ، وأنا عند الله طويلٌ جميلٌ ، وفي الحقيقة مقدود رشيق ٠ وقد علموا أ يقال الله مع طول العماد راكبا طول الظهر جالسا ، ولكن يمنعهم فيك إذا قمت اختلاف ، وعليك لهم إذا اضطجعت مسائل ، ومن قريب ما أعطيت ويدبح ما أوتيت ، أنا لم نر مقدودا واسع الجفرة غيرك ، ولا رشيقا مستفيض الخاصرة سواك فأنت المديد وأنت البسيط ، وأنت الطويل وأنت المتقارب ، فيا شعرًا جمع الأعاريض ، ويا شخصا جمع الاستدارة والطول ، بل ما يعجك من أقاويلهم ، وتتعاظمك من اختلافهم والراسخون في العلم ، والناظرون بالفهم يعلمون أن استفاضة عرضك قد أدخلت الضيم على ارتفاع سمكك ، وأن ما ذهب منك عرضا قد استغرق ما ذهب منك طولا ، ولئن اختلفوا

في طولك لقد اتفقوا في عرضك ، وإن قد سلموا لك بالرغم شطرا ومنعوك بالظلم شطرا فقد حصلت على ما سلموا ، وأنت على دعواك فيما لم يسلموا ولعمري إن العيون لتخطئ ، وإن الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع إلا للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل إذ كان زماما على الأعضاء ، وعيارا على الحواس) (٦٦).

وإذا دققت في الصورة واستبطنتها لمحت التمكن في طياتها ، والسخرية في زواياها ، والتصوير الهزلي يكمن في تضاعيفها ، وقد ألطف الجاحظ الصنيعة، وأتم الحبكة ، وجاء بالسخر منقحا محككا لا يكاد يبين إلا بعد فحص وإمعان ، وذلك صياغته وبراعة صناعته ، وذلك دليل الافتنان ، وسر التفوق .

فقد صور القبح في صورة الحسن ، وموهه علينا ، وزوره لنا ، ودلل بمنطقه عليه ، وأرانا الأصل والظل متعاكس الوضع ، ورسم السخرة مجسما للمتناقضات ، معرضا للأضداد ، وقلب لنا باطنه وظاهره ، وخياله وحقيقته ، ثم أبدل بالواقع الخيال ، ثم أضاف إليه أجمل ما في الوجهين ، وأحسن ما في النقيضين ، وكان العبث بابن عبد الوهاب قد امتد إلينا معشر قرائه ، وكأن الصورة قد نفحت علينا سخرية أربكتنا وشتتت عقولنا ، وسارت بنا في دروب تحتاج منا إطالة الفكرة ، وإدامة الفطنة ، لنغوص غوصها ، ونلتقط الدر من بحارها ، ونتفهم طبيعة الصورة الهزلية الكاريكاتورية المتعددة النواحي ، المتشابكة الحلقات ، المركبة تركيبا متلاحما يؤدي في النهاية إلى الهزء والاستخفاف ، والتصوير الفذ الذي أبتدعه في رسالته .

ج) الاحتجاج لفضيلتي العرض والقصر .

ثم يحتج بأنه لو سلم بعرضه لكان ذلك من أسباب كماله ، ولم يؤد به إلى نقصان ، فقد (وجدنا الأفلاك وما فيها والأرض وما عليها على التدوير دون التطويل كذلك الورق والثمر والحب والشجر ، وقلت والربح وإن طال فإن التدوير عليه أغلب لأن التدوير

---

٦٦) المصدر المذكور صفحة ٨٦ .

عليه أغلب لأن التدوير قائم فيه موصولا ومفصلا ، والطول لا يوجد فيه الا موصولا ، وكذلك الإنسان وجميع الحيوان ، وقلت ، ولا يوجد التربيع إلا في المصنوع دون المخلوق وفيما أكره على تركيبه ، دون ما خلا من طبيعته ، وعلى أن كل مربع ففي جوفه مدورة فقد بان المدور بفضله وشارك الطول في حصته) (٦٧)

ولننظر إلى ذلك العبث المنطقي ، والتلاعب العقلي ، أليس فيه السخر بابن عبد الوهاب والمزح بعقله وجسمه ، ورسم الصورة الكاريكاتورية المترددة بين تفضيل القصر أو الطول وبين الحكم على جسمه بالقصر أو الطول ، وبين جمعهما في جسم واحد ، وكأن ابن عبد الوهاب قطعة من الصلصال ، تارة يمدها ويطيلها ، وأحيانا يكورها ويدورها ، وطورا يمطيها المبسطة في الطول والعرض ، أو يجعلها قصيرة طويلة معا ، وإن كان لا يستطيع المصور أو الرسام أو النحات أو المثال أن يجمع القصر والطول لجسد شخص في صورة واحدة كما فعل الجاحظ ، وإن تضافرت جهودهم ، وكدوا قرائحهم ، واستفرغوا فنهم ، فهي لعبته يعبث بها كيفما شاء ، ويلبسها الملابس التي يريد ، ويسخرها كما يحلو له ، فمعه صنعته التصويرية وأدواته البيانية ، وأصالة الفكرية ، وعبقريته التي تنسج العجيب ، وتلد الغريب .

وهو يعرف قصر قامته ، وامتداد عرضه ، وأن القصر عيب جسمي ، والتكوير صفة ذم ، ولكنه بما طبع عليه من عناد ولجاج وادعاء ، يدافع عن قصره ، ويحامي عن تدويره ، ويكثر الجدل حولهما ، والإتيان بما يشبه الأدلة على محاسن هذا القبح ، وفوائد ذلك النقص .

ولا شك أن قلب حقيقة الأشياء ، والإلحاح على إثبات ما هو عكس طبيعتها ، وتصوير الاضطراب النفسي ، والقلق الفكري ، في صورة هزلية ضاحكة ، ضرب من الكاريكاتور ، فقط الجاحظ ، (ورأيتك تقول ، إن كان الفضل في النكاية ، أو في الشدة والصلابة ، فقصار

---

(٦٧) المصدر المذكور صفحة ٩٤

كل شيء أشد ضررا ، وأدق مدخلا ، وأظهر قوة وجلدا ، كالحجارة أصلبها الحصى ، وكالحيات أقتلها الجرارات ، وكذلك أحرار الطير وبغاثها ، وصغار البراغيث وكبارها .. واحتججت بأن الحسن والفضل لصغار ما في الإنسان كالناظرين والأنثيين وحبة القلب وأم الدماغ ، وزعمت أن الإنسان إذا طال جسمه وامتد شخصه أسرع الانهدام إلى بدنه والانحناء إلى ظهره ، وأن القصير لا يتقوس ظهره ، ولا يميل عنقه ، ولا يضطرب شخصه ، ولا يهن عظامه ويسمه كل باب ، ويقطعه كل ثوب ولا تخرج رجلاه من النعش ولا تفضلان عن الفراش (٦٨).

ويستدل على فضل القصر على الطول بقوله : (إن الأرض لم توصف بالعرض دون الطول إلا لفضيلة العرض على الطول ، وذلك كقول الشعراء ،

ووصف العلماء ، وقال الشاعر :

كأن بلاد الله وهي عريضة	على الخائف المطلوب كفة حابل

ولم يقل كأن بلاد الله وهي طويلة ...... وقال آخر :

وفي الأرض للمرء العريضة مذهب	ولم يقل الطويلة . وقال :
ولا تحسداني بارك الله فيكما	على الأرض ذات العرض أن توسعاليا

وقال الراجز

تقطع أرضا وتلاقي أرضا	إن البلاد غلبتني عرضا

ولم يقل طولا . وقلت : لولا فضيلة العرض على الطول لما وصف الله الجنة بالعرض دون الطول حيث يقول جل ثناؤه : (وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) (٦٩).

د ـ تحسين ما قبح فيه :

وقد ينهج نهجا آخر في رسم الصورة الهزلية ، فلا يتناول العيوب ، والنقائص بالتضخم والتفخيم ولا يجعلها كما هي عليه من قبح ، ولا يذكر صفاتها العادية ، وأوصافها الجسمية

---

٦٨) المصدر المذكور صفحة ٩١ ، ٩٢ .

٦٩) مجموعة رسائل الجاحظ ، صفحة ٩٢

بصفاتها الحقيقية ، وإنما يجملها ويحسنها ، ويمدحها ويطريها ، ويعتبرها محاسن ومفاتن تحقق لصاحبها الجمال ، وتبرز الفتنة ، فيرسم لها الصورة المثالية الفائقة الحسن ، الرائعة البهاء ، ولكنها تكون كاريكاتورية من طريق التضاد وقلب الحقائق ، فما غرضه المدح ، ولا قصده كشف مفاتن الجسم ، وإنما الهدف التشكيك والبلبلة ، وإعطاء السامع صورة رائعة الحسن لما لا حسن فيه ، فإذا شاهد الأصل أو كان يعرفه ، كانت السخرية اللاذعة والتهكم الموجع ، وتحقق للهزل معناه ، وأدت الصورة ما صورت من أجله . يقول الجاحظ : (قد علمت ـ حفظك الله ـ أنك لا تحسد على شيء حسدك على حسن القامة ، وضخامة الهامة ، وحور العين وجودة القد)(٧٠) (فأما حور العين فقد انفردت بحسنه ، وذهبت ببهجته وملحه إلا ما أبانك الله به من الشكلة ، فإنها لا تكون في اللئام ، ولا تفارق الكرام . وقال الشاعر :

ولا عيب فيها غير شكلة عينها   كذاك عتاق الطير شكل عيونها .

وقال آخر :

وشكلة عين لو حبيت ببعضها   لكنت مكان النجم مرأى ومسمعا .

فأما سواد ناظره وحسن المحاجر ، وهدب الأشفار ، ورقة حواشي الأجفان ، فعلى أصل عنصرك ومجاري أعراقك) (٧١) . (ولو لم يكن لك إلا أنا لا نستطيع أن نقول في الجعد ، وفي الوصف والمدحة ، هو أحسن من القمر ، وأضوأ من الشمس ، وأبهى من الغيث ، وأحسن من يوم الحلبة وأنا لا نستطيع أن نقول في التفاريق ، كأن عنقه إبريق فضة ، وكأن قدمه لسان حية ، وكأن عينه ماوية ، وكأن بطنه قبطية ، وكأن ساقه بردية ، وكأن لسانه ورقة وكأن أنفه حد سيف ، وكأن حاجبه خط بقلم ، وكأن لونه الذهب ، وكأن عوارضه البرد

---

٧٠) المصدر السابق ، صفحة ٨٧ .

٧١) المصدر المذكور ، صفحة ٩٤

وكأن فاه خاتم ، وكأن جبينه هلال) (٧٢). (وهل جعلت النساء أجمل منك ، ولربما رأيت الرجل حسنا جميلا ، وحلوا مليحا ، وعتيقا رشيقا ، ونخما نبيلا ، ثم لا يكون موزون الأعضاء ولا مقدود الأجزاء ، وقد يكون أيضا الأقدار متساوية ، وغير متقاربة ولا متفاوتة ، ويكون قصدا ، ومقدارا عدلا ، وإن كانت دقائق خفية لا يراها إلا الألمعي ، ولطائف غامضة ، لا يعرفها إلا الذكي ، فأما الوزن المحقق ، والتعديل المصحح ، والتركيب الذي لا يفضحه التفرس ، ولا يحصره التعنت ، ولا يتمهل جاذبه ، ولا يطمع في التمويه ناعته ، فهو الذي خصصت به دون الأنام ، ودام لك على الأيام) (٧٣).

٢ - مجاوزته حدود الكمال :

أ - رفعه فوق قدره :

ويتابع الجاحظ تصويره ، فيمد خطا من خطوط الجمال والكمال في الصورة الكلية الشاملة ، يرفع به ابن عبد الوهاب فوق قدره ، ويمنحه أكثر من طاقته وما تتحمله أخلاقه وخلقه ، وإذا هذه الرفعة عبء عليه ، وحمل ثقيل يئن تحته ، وإذا جسمه يختفي وقد غطاه هذا الجمال المعار ، ونفسه وقد علاها الكمال الطارف لا تكادان تبين ، وهمته وجبلته لا تستطيعان أن تنهضا بمتطلبات هذا الكمال ، ولا أن تتلاءما مع ذلك الجمال ، وإذا خطا الرفعة والكمال خط نقص واتضاع ، يفصح عن العيوب ، ويدل على المخازي ، ويشير بإصبعه إلى نفس واهية ، وعزيمة خائرة ، وقسمات شوهاء متنافرة تكدست عليها مساحيق الجمال ، فتسببت من تحتها عرقا يسيل مع هذا الخليط من المساحيق ، في خطوط تحمل ألوان الطيف ، وعوامل التشويه والقبح ، رغم أنها للتجميل ، حيث وضعت في غير موضعها ، وبكميات وافرة ، وهذا ما أراده الجاحظ الرسام للصورة حين مد خط ،

---

٧٢) المصدر السابق ، صفحة ١١١ ، ١١٢ .
٧٣) مجموعة رسائل الجاحظ ، صفحة ١١١ .

فسبحان (من جعل ظنك أكثر من يقيننا ، وفراستك أثبت من عياننا ، وغلطك أرجح من عمدنا وبداهتك أجود من تفكرنا ، وفعلك أرفع من وصفنا ، وغيبتك أهيب من حضور السادة ، وعتبك أشد من عقاب الظلمة)[٧٤]. (إن تفتيت فالرشاقة والملح ، وإن تنسكت فالرهبانية والإخلاص وإن تزنت فثهلان ذو الهضبات ما يتحلحل)[٧٥].

ب — تفوقه على المخلوقات :

ثم يمد خطا آخر من خطوط الكمال والجمال في الصورة ، إلا أنه أطول حجما ، وأغلظ سمكا ، وأعلى في باب الرفعة والكمال منالا ، وأضوأ في مقاييس الحسن والجمال بهاء ، يتجاوز به الحدود ، ويخترق السدود ، ويرفع ابن عبد الوهاب إلى مرتبة لم تخلق إلا لــه ولم تقدر إلا على مثاله ، لا يشرك فيها القمر ليلة تمه ، ولا الغيث إبان نواله ، ولا يدانيه المقربون الأخيار ، ولا الملائكة الأبرار ، أجمل من كل جميل إذا ازدهى بجماله ، وليس فيه من النقص ما يعتريه في بعض أحواله ، فالحسن قبح إذا قيس بحسنه ، والقبح حسن إذا كان فيه ، وانضم إلى صفاته ، ويمضى الجاحظ في رسم هذا الخط ويزيد في طوله ، ويضاعف من سمكه ، حتى يصل به إلى المحال ، ويصير وهما من الوهم ، وإذا الصفات كلها منهارة ، والبناء منقوض ، انهدم من طول ما ارتفع ، وسقط لكثرة ما أضيف إليه مما احتمل ، وإذا ابن عبد الوهّاب كما هو بهيئته وتكويره ، وقصره وتدويره ، وثقله وبلادته ، يقبع في زوايا النسيان ويرتدى أخلاق الأخلاق ، وإذا ما كنا نراه طويلا عريضا سميكا ، سد الأفق ، وحجب الشمس دخان ذهب مع الريح ، وبقيت لفحة السوداء التي كان ينبعث منها مكانها محترقة ، يقول الجاحظ ، بل يرمز الجاحظ ، (وأنا أبقاك الله أعشق إنصافك كما أعشق المرأة الحسناء ، وأتعلم خضوعك للحق كما أتعلم التفقه في الدين ، ولربما ظننت أن جورك

---

٧٤) مجموعة رسائل ، الجاحظ ، صفحة ١٠٩

٧٥) المصدر المذكور ، صفحة ١١٥

إنصاف قوم آخرين ، وأن تعتقدك سماح رجال منصفين ، وما أظنك صرت إلى معارضة الحجة بالشبهة ، ومقابلة الاختيا ر بالاضطرار ، واليقين بالشك ، واليقظة بالحلم ، إلا الذى خصصت به من إيثار الحق ، وألهمته من فضيلة الإنصاف ، حتى صرت أحوج ما تكون إلى الانكسار أذ عن ما تكون بالإقرار ، وأشد ما تكون إلى الحيلة فقرا ، أشد ما تكون للحجة طلبا)(٧٦)

(وهل فى تمامك ريب حتى تعالج بالحجة ، وهل رد فضلك جاحد حتى يبهت بالبينة ، وهل لك خصم فى العلم ، أوند فى الفهم ، أو مجارى الحكم ، أو ضد فى العزم ، وهل يتبلغك الحسد ، أو يضرك الحسين ، وتسمو إليك المنى ، أو يطمع فيك طامع ، أو يتعاطى شأوك باغ وهل يطمع فاضل أن يفوقك ، أو يأنف شريف أن يقصر دونك ، أو يخشع عالم أن يأخذ منك ، وهل غاية الجميل الا وصفك ، وهل زين البليغ الا مدحك ، وهل يأمل الشريف الا اصطناعك وهل يقدر الملهوف إلا غياثك ، وهل للطول عرض سواك)(٧٧).

وفى هذه الخطوط الكاريكاتورية قلب الحقائق ، وبلوغ الوصف درجة الاستحالــــة واللعب بالسخرة ، ينقله من حال إلى حال ، ويجعله فى مواقف متضاربة ، يمكن أن تكون له كما يمكن أن تكون عليه ، ثم إرجاعه إلى حالته الأولى ، وصورته القبيحة بعد إذهاب كل جمال عنه .

وها هو ذا الجاحظ يوازن بينه وبين القمر فى الحسن والجمال ، والحلاوة والجلال ، فيبرز القمر ضئيلا نضوا ، ومشوّها شختا ، يزيد وينقص ، وينخسف ويمحق ، أما هو فدائم الكمال لا يعتوره نقصان ولا يعتمد على غيره ، نارى التوقد ، روحانى البدن ، وهذه الصفــات غير المعقولة ، تعنى السخر وتضخمه ، وتجعل الصورة بعيدة عن الأصل ، بل مضادة لــه

---

٧٦) المصدر المذكور صفحة : ٩٢

٧٧) المصدر السابق صفحة : ١١٠

وتلك صفات الكاريكاتور . يقول : (وقد علمنا أن القمر هو الذي يضرب به الأمثال ، ويشبه به أهل الجمال ، وهو مع ذلك يبدو ضئيلا نضواً ، ممحوقا شخته ، وأنت أبدا قمر بدر فخم غمر ثم مع ذلك يحترق في السرار ، ويتشاءم به في المحاق ، ويكون نحسا كما يكون سعدا ، ويكون نقصا كما يكون ضرا ، ويقرض الكتان ، ويشحب الألوان ، ويخم فيه اللحم ، وأنت دائم السن ظاهر السعادة ثابت الكمال ، شائع النفع ، تكسو من أعراه ، وتكن من أشحبه ، وعلى أنه قد محق حسنه المحق ، وشانه الكلف ، وليس بذي توقد واشتعال ، ولا خالص البياض ، ولا متلألئ ويعلوه برد ، ويكسوه ظل الأرض ، ثم لا يعتريه ذلك إلا عند كماله ، وليلة فخره واحتفاله ، وكثيرا ما يعتريه الصفار من بخار البحار ، وأنت ظاهر التلم ، دائم الكمال ، سليم الجوهر كريم العنصر ، نارى التوقد ، هوائى الذهن ، درى اللون ، روحانى البدن ، وان احتجوا عليك بالجزر والمد ، احتججت عليهم بالعلم والحلم ، وبأن طاعتك اختيار واعتبار ، وطاعته طباع واضطرار ، وبأن له سيرة قد قصر عليها ، ومنازل لا يجاوزها ، لا تمكنه البدوات ، وليس فى قواه فضل للتصرف ، وعلى أن ضياءه مستعار من الشمس ، وضياؤك عارية عند جميع الخلق ، فكم بين المعير والمستعير ، والمتبين والمتحير ، وبين العالم ومن لا حس فيه)(٧٨)

واذا كان النموذج السابق قد شبه ابن عبد الوهاب بشيء واحد هو القمر ، وأخذ يحوره ويقلبه ، ويتناوله من جميع زواياه ، ومن شتى اتجاهاته ، وفى مختلف أحواله ، حتى استقصى منه جميع أوجه الشبه ، واستخلص ما فيه من محاسن ، ثم أوضح الفرق بين طرفى التشبيه وبالغ حتى قلب الحقيقة وقلب التشبيه ، وجعل الفرع أصلا والأصل فرعا ، بل جعل المشبه فى القمة ، حسن صورة ، وبهاء طلعة ، وأعطاه من الامتيازات ما لا يوجد فى المشبه به .

---

٧٨) مجموعة رسائل الجاحظ ، صفحة ١١٤ ، ١١٥

فإنه هنا لا يكتفى بمنظر واحد ، ومشبه به مفرد ، لأنه لا يراه - وإن تناهى حسنه ورواؤه - كافيا فى وصف المشبه ، وإبراز جماله وسحره ، فمدد المشبه به فى حسن انتقاء ، وبديع اختيار ، ثم التقط لأحمد من صفات الجمال أبرزها فى كل مشبه به ، وأروع ما به يتصف ، فجعله وجه شبه ، وأبعد باقى الصفات ، بما فى بعضها من قبح قد ينال من ظله المشبه ، فيقلل وجوده بعض الشىء من قيمته وجلاله ، وتلك طريقة رائعة فى التصوير ، ولكن أخذ المشبه من المشبه به أجود ما فيه وأبدعه ، وجمعه من كل شىء أكرمه وأثمنه ، وتكرار ذلك فى سائر التشبيهات لمشبه واحد ، دون أن يمسه من أحدها شبهة سوء ، مبالغة وغلو ، وارتقاء بأحمد إلى درجة خيالية ، بعيدة عن الواقع ، مخالفة لطبيعة البشر بل لطبيعة المخلوقات كلها ، وتجريد له من إنسانيته ، وإبعاده عن صورته ، وهذا يباين الأصل والحقيقة ، ويلازم الوهم والخيال ، فالصورة هنا بعدت عن الأصل بعدا غير محسنتها وأوضاعها ، وبدل محاسنها وأضاعها ، والقصد من ذلك التفكه والهزل ، لأن الجاحظ لا يقصد المدح ، وإنما يريد التشويه والهزل كما يتبين من سائر الرسالة ، ومن أسلوبه فى قوله : (وطبائعك - جعلت فداك - طباع الخمر إلا أنك حلال كلك ، وجوهرك جوهر الذهب ، إلا أنك روح كما أنت ، وقد حويت خصال الياقوت إلا ما زادك الله عليه ، وأخذت خصال المشترى إلا ما فضلك الله به ، وجمعت خلال الدر إلا ما خصصت به دونه ، فلك من كل شىء صفوته ولبابه ، وشرفه وبهاؤه) (٧٩).

ج - معرفة كل شىء :

ومن خط الرغبة والكمال ، والتفوق على الكائنات يتفرع خط المعرفة التى جازت الحدود وخبرت الأولين والآخرين ، فنجد ابن عبد الوهاب قد حازها متفرقة ومجتمعة ، ونالها قديمة وحديثة ، وبرع فى كل لون ، وأتقن كل ضرب ، وكان بها أستاذ الأساتيذ ، ومعلم الأفذاذ ، والمسئول عن العلوم والفنون ، والقيم عليها ، فى كل عصر وجيل ، والجامع لها مهما شردت

---

٧٩) المصدر المذكور / صفحة ١١٥ .

را لحائز عليها وإن دق وخفت ، لا تعترض عليه عقبات ولا ينقص أو يتبدل على مر الأيام .

وباستطالة هذا الخط ، ومجاوزته المدى يحدث التشويه فى الصورة ، لأنه إن كان لا يتلاءم مع باقى الخطوط ولا يتناسب مع أطوالها ، فان المنظر يكون سيء التركيب ، معيب التكوين ممسوخا ، كمن يرسم صورة شخص ، ويجعل أنفه فى حجم جسمه ، وإن تلاءم مع سائر خطوط الصورة وروعى التناسب بينه وبين أحجامها ، فإن ذلك غير كاف لخلق الصورة الجميلة ، أو السليمة على الأقل ، اذ لابد من التلاؤم مع الأصل ، والمطابقة للواقع ، فالصورة السليمة الجيدة فى عرف الفن ، ما تلاءمت خطوطها مع بعضها ، وروعى التناسب بين أجزائها ، مع تلاؤمها ككل مع الأصل الذى عنه نقلت ، وعدم التلاؤم بين الصورة والواقع تشويه لها ، ومسخ لكيانها كصعلوك فى ملابس ملوك ، أو كمن يلبس لباسا يفضل عن جسمه من كل جانب ، فهو يتخبل فيه ويتعثر .

والجاحظ قد وضع صورة ابن عبد الوهاب ذلك الوضع المشوه الهزلى بتعقيه ، فجعل خط المعرفة فى بعض المواضع يناسب سائر خطوط الصورة فى الطول والاتساع ، ولكنه لا يتفق مع الأصل ، كما جعله أطول ممن سائر الخطوط فى مواضع أخرى ، فبدت الصورة فى كلا الموضعين كاريكاتورية هزلية ، تضحك المشاهد سرورا وانشراحا وتسرى عنه ، وتبكى صاحب الصورة غما وكمدا حتى تمض عينيه . يقول زعيم التصوير الكاريكاتورى الناطق ، أبوعثمان عمرو ابن بحر الجاحظ ، فى أحمد بن عبد الوهاب : (وقد تعجب ناس من إطالتى ، ومن كثرة مسألتى وتعجبى من تعجبهم أشد ، والذى كان من أفكارهم أعظم ، ولو رغبوا فى العلم رغبتى ، ورأوا فيه مثل رأيى ، وكانوا قرءوا كتابى إليك فى شبيبتى ، وأيام شباب رغبتى لاستقلوا من ذلك ما استكثروا ، ولا استقصروا منه ما استطالوا ، فان أذنت لى أظهرته ، وإن تجد على ألسنتهم ، وستقول ما دعاك إلى التنويه بذكري ، وتعريف الناس مكانى ، وقد تعرف حشمتى

با تقبيحي، وتفردي واستيحاشي . ولولا أنك جعلت فداك معلق في كل زمان ، والغاية في كل دهر ، لما تفردتك بهذا الكتاب ، ولما أطمعت نفسي في الجواب ، ولكنك قد كنت أدنيت في مثلها لهرمس ثم لأفلاطون ، ثم لأرسطاطاليس ، ثم أجبت معبد الجهني ، وغيلان الدمشقي ، وعمرو بن عبيد ، وواصل بن عطاء ، وإبراهيم بن سيار ، وعلى بن خالد الأسواري ، فتربية كفك ، والناشيء تحت جناحك ، أحق بذلك ، وأولى ، وقد كان يجب أن تكون على ذلك أحرص ، وبه أعنى)(٨٠)

د ـ خروج جماله عن المقاييس :

وهنا يضيف الجاحظ إلى صورة ابن عبد الوهاب ، أصباغا جديدة ، وألوانا فريدة ، يجعله بها عجيبا غريبا ، لاند له ولا مثيل لجماله ، بل إن حسنه تخطى القواعد ، ونأى عن المقاييس وحارت فيه الأفكار ، فلا يدرك الناظر سره ، ولا يعرف أين مأتاه (وما ندري في أي الحالين أنت أجمل ، وفي أي المنزلتين أنت أكمل ، إذا فرقناك أو إذا جمعناك ، وإذا ذكرنا كلك ، أو إذا تأملنا بعضك فأما كفك التي لم تخلق إلا للتقبيل والتوقيع ، وهي التي يحسن بحسنها كل ما اتصل بها ، ويحتال بها كل ما صار فيها ، كما أصبحنا وما ندري الكأس في يدك أحسن أم القلم أم الرمح الذي تحمله ، أم المخصرة أم العنان الذي تمسكه أم السوط الذي تعلقه ، وكما أصبحنا وما ندري أي الأمور المتصلة برأسك أحسن ، وأيها أجمل وأشكل ، اللمة أم مخط اللحية أم الاكليل أم العصابة أم التاج أم العمامة أم القناع أم القلنسوة فأما قدمك فهي التي يحلم الجاهل كما يحلم العالم ، ويحلم البعيد الأقصى كما يحلم القريب الأدنى ، أنها لم تخلق إلا لمنبر ثغر عظيم ، أو ركاب طرف كريم ، وأما فمك فهو الذي لا ندري أي الذي تتفوه به أحسن ، وأي الذي يبدو منه أجمل الحديث أم الشعر أم الاحتجاج أم الأمر والنهي أم التعليم والوصف ، على أننا ما ندري أي ألسنتك أبلغ ، وأي بيانك أشفى

---

٨٠) المصدر السابق ، صفحة ١٢٦

أ قلمك أم خطك أم لفظك أم إشارتك أم عقدك ، وهل البيان إلا لفظ أو خط أو إشارة أو عقد وأنت في ذلك فوقهم والحمد لله ، وواحدهم وأعيذك بالله ، وأنت تجوز الغاية ، وتفوق النهاية) (٨١)

لقد شغل جمال ابن عبد الوهاب العلماء والأدباء والمفكرين ، واحتل قلوب النساء إماء وأحرارا ، ثيبات وأبكارا ، وأحدث القلق والغيرة في نفوس الرجال ، فما يأمن أحد على عرسه وصار ابن عبد الوهاب فكر الناس وحياتهم ، وشغلهم في يقظتهم ومنامهم ، وكأنه كل شيء ، وكأن العالم بأسره أحمد بن عبد الوهاب ، وهم يقفون عجزة أمام جماله ، وتضطرب مقاييسهم وتختل موازينهم ، وتلك الصورة الكاريكاتورية قريبة من المذهب الرمزي ، والمذهب السريالي ففيهما مع قلب الحقائق ، وخلق الصورة الرائعة الحسن لمن لا حسن فيه ، وجعل الحسن وصلة للقبح ، وعلى مقدار ما ارتفع الحسن وسما في الصورة فارتفع مؤشر القبح وعلا في الأصل أقول : في الصورة مع هذا إيماء وتلويح ، وخفاء ودهاء ، ووصف شيء والمقصود وصف شيء سواه ، وحديث عن حسن ورواء ، والمراد قبح ودمامة ، وتلك سمات الرمزية ، وخيال بعيد يقرب من الأوهام ويصل إلى درجة ما نراه في المنام من أحلام ، وتلك خصائص المذهب السريالي ، ذلكم أبو عثمان وافتنانه ، ومعرفته السريالية والرمزية في الأدب والتصوير قبل أن يعرف العالم اسم السريالية والرمزية ومنابعها في الفنون وقبل أن يولد هذان الأديبان الغربيان اللذان زعم أدباء الغرب ، بل وأدباء العرب أنهما صاحبا المذهبين ، ومبتدعاهما على غير مثال عودون احتذاء ، يقول ابن بحر : (وقد أصبحت وما على ظهرها هود إلا وهي تعثر باسمك ، ولا قينة إلا وهي تغني بمدحك ولا فتاة إلا وهي تشكو تباريح حبك ، ولا محجوبة إلا وهي تنقب الخروق لمرورك ، ولا عجوز إلا وهي تدعو لك ، ولا غيور إلا وقد شقي بك ، فكم من كبد حرى نضجة ، ومصروعة مفرقة وكم حشا خافق ، وقلب هائم ، وكم عين ساهرة وأخرى جاهدة ، وأخرى باكية ، وكم صبي مولهة ، وفتاة محدبة ، قد أقرح قلبها الحزن ، وأجمد عينها الكد ، قد استبدلت

---

٨١) مجموعة رسائل الجاحظ ، صفحة ١١٤

يا لحلى المطلة ، وبالأنس الوحشة ، وبا لتكحيل المره ، فأصبحت والهة مبهوتة ، وهائمــة مجهودة ، بعد طرف ناصع ، ومن ضاحك ، وغنج ساحر ، وبعد أن كانت نارا تتوقد ، وشعلة تتوهج ، وليس حسنك أبقاك الله ، الذى تبقى معه توبة ، أو تصح معه عقيدة ، أو يدوم معه عهد ، أو يثبت معه عزم ، أو يمهل صاحبه التثبت ، أو يتسع للتخير ، أو ينهنهه زجر ، أو يهذبه خوف ، هو أعزك الله شيء ينقض العادة ويفسخ المنة ، ويعجل عن الرويــة ويطرح بالمرء ، وتسويه العواقب ، ولو أدركت ابن الخطاب لصنع بك أعظم مما صنع بنصر ابن الحجاج ، ولوكبك بأعظم مما ركب بجعدة السلمى ، بل لدعاه الشغل بك إلى تــرك التشاغل بهما ، والغيظ عليك إلى الرحمة لهما ، فمن كان عيب حسنه الإفراط ، والطعن عليه من جهة الزيادة ، كيف يرومه عاقل ، أو ينتقصه عالم ، فلا تعجب أن كنت نهاية الهمة وغاية الأمنية)(٨٢).

هـ — حياته سبقت آدم :

ومن الكاريكاتور فى الرسالة ، المبالغة والغلو فى طول عمر ابن عبد الوهاب وفى جعل حياته إلى غير غاية ، حتى لا تعرف بدايته ، وجعل مولده من الخفى الغامض الذى لا يستطيع أحد أن يقف عليه ، لا تطواته فى مجاهل الزمن ، وتتابع الحقب عليه ، مع زعم أحمــد أنه معتدل الشباب ، حديث الميلاد ، وذلك يصلنا إلى التناقض الواضح بين حقيقتـــه التى يراها الجاحظ ، وبين ما يزعمه أحمد :

والتناقض والاختلاف الجوهرى بين الأصل والصورة ، بكثرة الخطوط التى يحدثها المصور فى تقاسيم الوجه ، وبتعريجها ، وبانحناء خط الظهر وتقويسه ، وبتغيير الأصباغ بتحويــل لون الشعر إلى الأبيض الناصع بعد أن كان أسود فاحما ، ضرب من التصوير الهزلى ولون من الكاريكاتور.

---

٨٢) المصدر المذكور صفحة ١١٣

كما أن بين الأصل والصورة تناقضا أعظم ، وتضاربا أعم وأشمل ، يصل إلى العبث بالعقول والهزء والاستخفاف بصاحب الصورة ، بتصويره فى شكل غريب ، ووضع مستحيل ، يجعله أقدم من أبيه ، ومن رأس قبيلته بجيلة ، بل أقدم وأسن من جده الأعظم قحطان ، وهذا القدم جعله يستقل أعمار المعمرين ، ويعتبرهم أطفالا إذا قيسوا به ، فنوح فى قياسه لم يعش طويلا ، فما خمسين وتسعمائة سنة بالعمر المديد !

يمكن للمصور أن يعبر عن امتداد عمر ابن عبد الوهاب بطول اللحية وبياض شعرها ، وتغضن الجلد ، وانحناء الظهر ، وكلال البصر ، ووهن الجسم وتخاذله ، ولكنه مهما بلغ وامتلك الريشة الذهبية ، والموهبة الابتكارية فإنه لا يمكنه أن يجعل هذا الممتد العمر شابا ولا يستطيع أن يجعله أقدم من أبيه ومن قبيلته ومن نوح وآدم ، وهل يمكنه أداء ذلك فى صورة كاريكاتورية أو غير كاريكاتورية ؟!

ولكن يراع الجاحظ السحرية ، ومرامية التعبيرية ، ومقدرته الفنية ، أتاحت له ذلك ، وأباحت له حرية استخدام الألوان والخطوط ، فاستطاع أن يجلس ابن عبد الوهاب تجاه أفلاطون وأرسطو طاليس يناظرهما ، ويصاحب نوحا فى سفينته ، ويعرف الإنس مذ خلقوا ، ويشاهد الجن قبل أن يحجبوا ، «لأنه ليس إنسيا ، ولا جنيا ، لأنه أقدم من خلقهما ولست أريد أنك رجل يمان لولادة لك فى قحطان ، كيف وأنت أقدم من قحطان ، ومن عدنان ، ومن القرون التى خبر الله عن كثرتها ، ومن آبائها وأجدادها ، ولكنك منهم بالهوى والنصرة ولأنهم كانوا لك أحشاما وصنيعة» (٨٣) «فخبرنى ماجرى بينك وبين هرمس فى طبيعة الفلك ، ومن سماعك من أفلاطون ، وما دار فى ذلك بينك وبين أرسطو طاليس ، وأى نوع اعتقدته ، وأى شىء اخترت ، فقد أبيت نفسى غيرك ، وأبيت أن تشفى إلا بخبرك» (٨٤) «إنك

---

(٨٣) مجموعة رسائل الجاحظ صفحة ١٢٢ .

(٨٤) المصدر المذكور صفحة ١٠٦ .

لا تعد عروقه عرا ، ولا النجوم بوما ، وإنك قدفت التاريخات ، وجزت حساب الباورات ، واستقلت الأحقاب ، وخرجت من خطوط الهند لما استطالت بأما رها ، ولا فرحت بطول أ يا مها)(٨٥) (قد شاهدت الإنس مذ خلقوا ، ورأيت الجن قبل أن يحجبوا ووجدت الأشياء بنفسك خالصة ومزوجة ، وأغفالا وموسومة ، وسالمة ومدخولة)(٨٦).

∴ ∴ ∴

٣- مقارنته بالمشاهير :

ويقرن الجاحظ ابن عبد الوهاب فى الصورة الهزلية المترامية الأطراف التى رسمها له فى رسالته للتربيع والتدوير بمشهورى الرجال ، ويجعله ندا لهم ، بل يرفعه ليتفوق عليهم ، ويبذهم فيها شهرة به ، حلما وعلما وحكما ، ورزانة وفروسية .

وارتقاؤه عليهم مجتمعين ، وتفوقه على كل منهم فى أبرز ما عرف بإجادته له ، مع ما أثر عن ابن عبد الوهاب من غرور وادعاء ، وما روى عنه من جهل وعى ، يدل على أن الصورة لم يرد بها المصور تعظيم صاحبها وتبجيله ، وإنما أراد تشويهه ، والتهويه ، وتجسيم عيوبه وخطائه ، وإبرازها مقارنة بالمحلقين ، فى منظر ساخر مقلوب ، جعل الساقط يتقل عن المساوى دركات .

وهذا شبيه بكاريكاتور مصور بالفرشاة لشخص يقف على رأسه ، ففيه مع الطرافة والتشكيك قلب الحقائق ، ورؤية الأشياء معكوسة الوضع ، فالأعالى أسافل ، والمجد والرفعة ضعة وانحطاط ، وما يرى ابن عبد الوهاب ، فى الكاريكاتور اللفظى له ، والشخص الذى يقف على رأسه ويمثله فى الكاريكاتور المرسوم ، أن العالم معتدل ، وأن الانقلاب إنما هو

٨٥) المصدر السابق صفحة ٦٦ .

٨٦) مجموعة رسائل الجاحظ ، صفحة ١٠٢

في وضع كل منهما ، وفي هيئته !

ومن هذه الغفلة والتنكيس ، رؤية الأشياء مقلوبة ، والحكم عليها بعكس ما تستحقـه يستمد السخر قوته ، ويبلغ التصوير المزلي ذروته ، وما ذلك على الجاحظ بعزيز حين يمسك قلمه ليقول : (وأشهد بعد أنك تخاشن عمرو بن بحر الجاحظ وتماقله ، ثم تظارفه وتطاوله ، وتخفي مخارق ، وتنكر فضل زرزر ، وتستجهل النظام ، وتستبرد الأصمعي ، وتستغبي قيس بن زهير ، وتستخف الأحنف بن قيس ، وتبارز أبا الحسن علي بن أبي طالب رضـــي الله عنه ، ثم تخرج من حد الغلبة إلى حد العداء ، ومن حد الأحياء إلى حدود الموتى).(٨٧)

٭ ٭ ٭

ب — التصريح بعيوبه :

وقد يصرح بعيوبه ، ويجاهر بشينه ، وذلك نادر في الرسالة ، وأندر منه أن تكون العيوب المصرح بها جسمية ، أما الغالبية العظمى لسخره في الرسالة فإنها تتصل بالناحية العقلية أو النفسية أو السلوكية ، حين يرى شذوذها والتواءها ، وهو لا يبلغ في ذلك حد التصريح غالبا ، إذ هو رجل الفكر الدقيق ، والنفس المرحة المنبسطة ، والأدب الراقي ، ومن كان كذلك قل تصريحه بالعيوب ، وإبداء المخازي ، وكشف العورات ، وإن كان قصده الإصلاح ، لأن كشف العيوب ، وذكرها دون مواربة أو تستر ، وبخاصة إذا كانت جسمية ، من صفات الغمر الذي لم يتمرس بالأدب ، أو الفظ الذي لا يحفل بالناس ، أو الوقاح الذي لم يباشر غير السوقة والرعاع ، أو الجاهل بوسائل الإصلاح والتقويم ، ولم يكن الجاحظ واحدا من هؤلاء ، لذلك اتخذ الأسلوب اللين ، والعبارة المغلفة طريقا للسخر ، وصيغـــا للتصوير الهازل ، يرى أنها أكثر إيجاعا ، وأعون على تحقيق الغرض ، وأرفق بمن يريد إصلاحهم وتقويمهم ، وأليق بمخاطبة العلماء والأدباء وعلية القوم ، فابتعد ما أمكنه عن السب الصريح والمهاترات ، والهجاء المفحش ، واتخذ السخر والتصوير الهزلي طريقـا

---

٨٧) المصدر المذكور ، صفحة : ٩٥ .

لإبداء العيوب وعلاجها .

ومن عيوب ابن عبد الوهاب التي صورها الجاحظ كاريكاتوريا فأبدع وأوجع :

أ - ادعاؤه ما ليس فيه .

ولهذا العيب أهميته في تشويه الصورة ، وتلطيخ معالمها ، وتجليلها بالسواد ، حتى بدت كما هي عليه ، منزوجة مشوهة :

أولا : لأنه داء عياء ، ومرض وبيل ، وأقبح صفة تنسب إلى العلماء والمفكرين الذين يعتمدون على التحقيق والتجربة والواقع ، بل إنهم دائما ينقصون نفوسهم عظمتها ، ويبخسونها حقها من السمو والرفعة ، فهم أرفع من أن يتصفوا بالنفخ والادعاء ، وقد كان الجاحظ عالما ومفكرا وفيلسوفا ، فكان هذا العيب أشد ما يغيظه ممن يتصفون به ، فما بالك إن كانوا لا يتعلقون من العلم بسبب ؟! .

ثانيا : لأنه يمنح الصورة لونا من المسخ ، ونوعا من الشذوذ ، وكثيرا من التنافر بين الحقيقة والادعاء ، كما يحدث التنافر في الصورة الكاريكاتورية بين عضو وعضو ، أو بين الصورة برمتها ومن تقلدها ، فيؤدي بها إلى التشويه والمسخ ، والسخر منها .

ولقد تخذ الجاحظ من هذا الخط الأسود في نفسية ابن عبد الوهاب منطلقا لرسم الصورة الهزلية له ، فقارنه بالحقيقة لتبين الفوارق ، فيتضاعف الهزل والهزء ، فقال : كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ، ويدعى أنه مفرط الطول ، وكان مربعا وتحسبه لسعة جفرته واستفاضة خاصرته مدورا ، وكان جعد الأطراف قصير الأصابع ، وهو في ذلك يدعى السباطة والرشاقة وأنه عتيق الوجه أخمص البطن معتدل القامة تام العظم ، وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ ، وهو مع قصر عظم ساقه ، يدعى أنه طويل الباد ، رفيع العماد ، عادي القامة ، عظيم الهامة ، قد أعطى البسطة في الجسم ، والسعة في العلم ، وكان كبير السن متقادم الميلاد ، وهو يدعى أنه معتدل الشباب حديث الميلاد ، وكان ادعاؤه لأصناف العلم على قدر جهله بها ، وتكلفه للإبانة عنها على قدر غباوته عنها ، وكان

كثير الاعتراض لهجا بالمراء ، شديد الخلاف ، كلفا بالمجاذبة ، متابعا في المنوية مؤثرا للمغالبة ، مع إضلال الحجة والجهل بموضع الشبهة ، والخطرقة عند قصر الزاد ، والعجز عند التوقف والمحاكمة ، مع الجهل بثمرة المراء ، وخبثة فساد القلوب ، ونكد الخلاف ، وما في الخوض من اللغو الداعي إلى السهو ، وما في المعاندة من الإثم الداعي إلى النار ، وما في المجاذبة من النكد وما في التغالب من فقدان الصواب وكان قليل السماع غمرا وصحفيا غفلا ، لا ينطق عن فكر وثيق بأول خاطر ، ولا يفصل بين اعتزام الغمر واستبصار الحق يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها ويحسد العلماء من غير أن يتعلق فيهم بسبب وليس في يده من جميع الآداب إلا الانتحال لاسم الأدب)(٨٨).

وهذا يؤيد ما قلناه آنفا من أن تصريح الجاحظ بالعيوب نادر ، والأكثر منه أن يتناول العيوب الجسمية ، لأنه هنا ما تناول العيوب الجسمية إلا ليصل منها إلى أحد عيوبه النفسية وهو الادعاء ، بل يكتفي أن أقول إنه لم يتناول العيوب الجسمية وكل ما يعنيه ويحيه هنا ، الادعاء الكذب من طريق ذكر الواقع ثم ذكر النفج والافتراء .

ب — جهل البديهيات :

ويضيف الجاحظ إلى الصور الأدبية الساقطة خط الجهل ، لتكتمل معالمها ، وتظهر من جميع نواحيها ، ويتم التشويه والمسخ فيها ، فتبذ صورته الصور ، ويعجز المفتنون عن اللحاق به ، وهل في مقدرة المصور أو الرسام أو المثال أن يجد في الصورة خط جهل !! وذلك عند أبي عثمان أوثق خط بالتشويه ، لأنه من الأدباء العلماء المفكرين ، الذين يجلون العقل ويقدسونه ، ويحقرون الجهل ، ويمقتونه ، يرونه أقبح القبائح ، وأبشع الصفات ، وأمر كل داء ، فلما أراد أن يكمل صورة ابن عبد الوهاب البشاعة والشناعة ، اتخذ الجهل

---

(٨٨) مجموعة رسائل ، الجاحظ / صفحة ٨٥ ، ٨٦

له رداء ، وهدّ خطوطه ، وحاك خيوطه ، ونسج منه للنسوة ترحة بها ، بعد أن أجلسه على عرش الادعاء الواهي ، فكشف خلاءه من كل فكر سديد ومنطق رشيد ، وخبر مفيد ، وعرضه للتردى فى هوة ساحقة ، تمحق ما بقى من إنسانية ، وأرانا ظلمة عقله الحالكة ، وجعله النضيد والجهل تشويه للعقل وتحقير للمرء ، وسلب لأهم ما به الإنسان إنسانا ، وإبرازا له فى صورة آدمية وحقيقة غير آدمية ، تخدع الناظرين فى اللمحة العابرة ، حتى إذا تأملوا باطنها وكشفوا أغوارها ، برزت لهم الخدعة ، واتضحت اللعبة ، وفهموا سر الكاريكاتور ، فسخروا وطربوا ، واستولت البشاشة على وجوههم ، وعمرت البشاشة قلوبهم . يقول الجاحظ :

(كان قليل السماع غمرا ، وصحفيا غفلا ، لا ينطق عن فكر وثيق بأول خاطره ولا يفصل بين اعتزام الغمر ، واستبصار المحق ، يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها ، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق فيهم بسبب)(٨٩) وقد رأيت من يعاند الحق إذا كانت المعرفة به استنباطا ، ولم أر من يعاند الحق إذا كانت المعرفة به عيانا وأنت لا ترضى بجحد العيان حتى تدعو إليه ، ولا ترضى بالدعاء إليه حتى تمادى فيه ، ولا ترضى بالعداوة فيه حتى تكون لك فيه الرئاسة ، ولا ترضى بالرئاسة دون السابقة ، ولا بالطارف دون التالد ، ولا بالتالد دون الأعراق التى تسرى والمواليد التى تنمى)(٩٠)

جـ — عدم قابليته التعلم :

وإذا كان ابن عبد الوهاب فى الصورة متشحا الجهل ، منكرا المحسوس ، فإننا نراه فى زاوية أخرى من زوايا الصورة مغلق العقل محجوب الفكر غير قابل للتعلم ، كل شئ بالنسبة له غامض مستغلق ، لا يدرك حقيقته ولا يفهم معناه ، إلا بعد الجهد الجهيد والزمن المديد ، لقد أبت عليه طبيعته وجبلته أن يكون للمعرفة مدخل إلى ذهنه ، فقد خلقت صفحة عقله بيضاء ناصعة ، تعكس أشعة المعرفة الساقطة عليها ، وتردها دون أن

---

٨٩) المصدر المذكور ، صفحة ٨٥ ، ٨٦

٩٠) المصدر السابق ، صفحة ١١٩

وشوهها ، أو تترك عليها بصماتها ، ولو أن عقل ابن عبد الوهاب أُعيد صهره وتشكيله لما قبل بطبعه الصهر والتشكيل ، بل لما لان ، ولا أثرت فيه حرارة ، ويقول له الجاحظ (وقد اختلفوا في العقل بأكثر من اختلافهم في العلم ، فمتى من ذكره لك غموضه عليك واستتاره عنك ، وعلمت أني لا أقدر أن أصوره لك دون دهر طويل ، ولا أضمن معناه دون تربيب كثير)(٩١). ويقول له : (وأنت — جعلت فداك — لا تعرف هذا ، ولو أدخلتك الكير ونفخت عليك إلى يوم ينفخ في الصور)(٩٢).

د — التواء طباعه :

وكما نملت الصورة الكاريكاتورية بالمسخ والتشويه في جسم ابن عبد الوهاب ، فجعلته قصيرا مربعا مدورا ، فقد نملت ذلك بنفسيته وعقليته وطباعه فجعلته ملتويا معقدا ، ومسا يجعل الجاحظ الطبيب يلتقط الصورة بالأشعة الملونة ، تبرز خفايا ، وتبدى تشويهاته ، بل تضيف إلى تشويهه تشويها ، فلا نرى من الصورة إلا الهيكل العظمى والأورام والكسور والالتواءات ، ثم يضعه على مائدة التشريح ، يخرج أحشاءه ، ويفحص جراثيمه تحت مجهر مجهر ، فتعظم وتتضاعف ، ويكوى بميسمه موطن الداء ، ويزيل بمبضعه فاسد الأحشاء ، لعل الداء ينجع ، والكسور تجبر ، والأورام تزول ، ولكن نفس ابن عبد الوهاب قد خبثت ، والأورام فيه قد انتشرت ، وعمل الجاحظ حينذاك لا يفيد إلا في تنبيه الناس ، وبث الوقاية بينهم ، وإظهار الالتواءات والتشويهات في طباع ابن عبد الوهاب وسلوكه ، للعظة ولا لاذكاريا آلت إليه حاله ، وللمرح والسرور ، لأن طباعهم سلمت ، ونفوسهم اعتدلت ، وعقولهم صحت ، ولنستمع إلى الجاحظ الطبيب يخاطب مريضه ، مبينا نتيجة التحليل ، وفحص الأشعة ، (وأنت ترى القتل في حق المعاندة شهادة ، وترى أن مباينة المنصفين في تعظيم العنود سعادة ، وأن الرئاسة في دفع الحقائق مرتبة ، وأن الإقرار

---

(٩١) مجموعة رسائل ، الجاحظ ، صفحة ١٣٢

(٩٢) المصدر المذكور صفحة ٩٨

بما يظهر للعيون ضحة ، وأن الشهرة بالمبالغة رفعة ، أظهر القوم عندك حجة أرفعهم صوتا ، وأخلقهم للتوبة أعلبهم وجها ، وأحسنهم تقية أقلهم تحرجا ، وأكثرهم عندك إنصافا أشدهم شغبا ، تمسف المتورده وتكلف بالجمع ، وتصانى الوقاح ، والأديب عندك من يعيب أحاديث الجلساء ، واعترض على نوادر الإخوان ، وغمز فى قفا النديم ، ونصب للعالم ، وأبغض العاقل ، واستثقل الظريف ، وحسد على كل نعمة ، وأنكر كل حقيقة (٩٣)

* * *

ه‍ـ موازنته بالجاحظ :

وإمعانا فى كشف شوهة ابن عبد الوهاب ، وتضخيم عيوبه ، ووضعه أمام مشاهديه فى صورة ضاحكة ساخرة ، جعل صورته تقابل صورة الجاحظ ، فى وضع لا تتم فيه المقارنة ولا تصح الموازنة ، لما بينهما من تناقض فى جل الصفات ، وتتولد السخرية فى اللوحة من هذا البعد الشاسع ، ومن أن الموازنة بينهما كالموازنة بين الضدين ، وكالجمع بين النقيضين ، وليس مراد الجاحظ بالموازنة تبيان أوجه الاتفاق ، ونواحى الاختلاف ، لأنه لا اتفاق وإنما المراد السخر ، ورسم الصورة الهزلية المضحكة ، لمشوه ممسوخ ، يوضع بإزاء كامل جميل فى لوحة واحدة ، وهذا الاقتران وحده ، كفيل بالتشويه والإضحاك .

يقول الجاحظ حين يعرض الصورتين من الناحية الجسمية : (فأما البدن والقامة ، فمن يعدل بين الشاة والكرة ، ومن يفضل بين النخلة والدكان ، وبين رحى الطحان ، وسيف يمان ، وإنما يكون التمثيل بين أتم الخيرين وأنقص الشرين ، وبين المتقاربين دون المتباعدين ، فأما الخلق والحسن ، والحصاة والجبل والسم والغذاء ، والفقر والغنى فهذا ما لا يخطىء فيه الذهن ، ولا يكذب فيه الحس) (٩٤).

---

٩٣) المصدر السابق ، صفحة ١١٩ ، ١٢٠

٩٤) المصدر نفسه ، صفحة ١١٩

وحين يعرضهما من الناحية الفكرية والصفات الخلقية ، (وقد سألتك وإن كنت أعلم أنك لا تحسن من هذا قليلا ولا كثيرا ، فإن أردت أن تعرف حق هذه المسائل وباطلها ، وما فيها خرافة وما فيها محال ، وما فيها صحيح وما فيها فاسد ، فالزم نفسك قراءة كتبي ولزوم بابي وابتد بنفي التشبيه والقول بالبداء ، واستبدل بالرفض الاعتزال ، وإن أتتكر منك بعد التمكن والبذل ، بعد التقريع والشدة فلا يبعث الله الا من ظلم)(٩٥)

(فأنت والله يا أخي تعلم علم الاضطرار وعلم الاختيار وعلم الأخبار أني أشد منك عقلا ، وأظهر منك حزما وألطف كيدا ، وأكثر علما ، وأوزن حلما ، وأخف روحا ، وأكرم عينا وأقل غشا ، وأحسن قدرا ، وأبعد غورا ، وأنصع ظرفا ، وأكثر علما ، وأنطق لسانا ، وأحسن بيانا ، وأجهر جهارة ، وأحسن إشارة ، وأنت رجل تشدو من العلم ، وتنفق من الاختبار ، وتموه نفسك وتغر من قدرك ، وتتهيأ بالثياب ، وتتنبل بالمراكب ، وتتحبب بحسن اللقاء ، ليس عندك إلا ذلك ، فلم تزاحم البحار بالجداول ، والأجسام بالأعراض ، وما لا يتناهى بالجزء الذي لا يتجزأ)(٩٦).

وحين يعرضهما من ناحية النسب والأنصار : (والله لئن رميتني بجبلة لأرمينك بكنانة ولئن نهضت بصالح بن علي لأنهضن بأحمد بن خلف وبإسماعيل بن علي ، ولئن صلت علي بسليمان بن وهب لأدمغنك بالحسن بن وهب ، ولئن تهت علي بمنادمة جعفر الخياط لأتيهن عليك بجمة وهب الدلال ، وأنا أرى أن تقبل العافية وترغب إلى الله تعالى في طول السلامة)(٩٧).

وبذلك يتضاءل ابن عبد الوهاب ، أمام الجاحظ العملاق ، ويكاد يذوب ضعة وانحطاطا .

⁂

---

٩٥) مجموعة رسائل ، الجاحظ ، صفحة ١٣٠

٩٦) المصدر المذكور ، صفحة ١١٨ ، ١١٩

٩٧) المصدر نفسه ، صفحة ١١٨

٦ — قلب حقيقته :

وقد يقلب حقيقته ، ويغير معالمه ، ويبرزه في صورة كاريكاتورية هازلة قصدا الى المخسر وفهة في الإضحاك ومن الجوانب الهزلية ، والأصباغ الكيماوية التي يضيفها إلى صوره فيكون التفاعل القوى ، والمرح الظاهر والخفي .

أ — جمعه المتناقضات :

فمن الموضات الفنية لصورة أبن عبد الوهاب الهزلية ، أن جعله الجاحظ متصفا للمتناقضات ، وذلك يؤدي بالصورة إلى التضارب والتشويه والبعد عن الحقيقة والواقع ، بل إنه يبعد بها عن المعقول والممكن ، ويخلق الشخصية الغامضة المعقدة ، بل الشخصية الوهمية الخرافية الممسوخة التي تجلب دهشتنا ، لبراعة تأتيه وجودة مسخه ، وسخرنا لما صارت عليه من خروج من الإلف ، ونفور من العقل ، كما نسخر من غريب الهيئة والأبلسه يقول مخاطبا ابن عبد الوهاب : (فأنت المديد وأنت البسيط وأنت الطويل وأنت المتقارب فيا شعرا جمع الأعاريض ، ويا شخصا جمع الاستدارة والطول)[٩٨](وفيك أمران غريبان وشاهدان بديعان جواز الكون والفساد عليك وتماور انتقاص والزيادة إياك ، جوهرك فلكي وتركيبك أرضي ، فيك طول البقاء ، ومعك دليل الفناء ، فأنت علة للتضادة وسبب للتنافي ، وما ظنك بخلف لا تضره الإحالة ، ولا يفسده التناقض)[٩٩] .

ب — جد قصد به الهزل :

لقد يتحدث حديثا جادا ومراده الهزل ، ويبدى محاسن ابن عبد الوهاب ويطرى محامدى ، والقصد همزه ولمزه ، وتشويهه وغمزه ، كمن ينحت تمثالا من الحجر ثم يطليه بالذهب في صنعة جيدة ، وتمويه متقن ولكنه يترك جزءا صغيرا من جسمه دون طلاء ، فيفضح به أمره ويهتك ستره ، ويدل به الناس على روائه الزائف ، وبهرجه الكاذب ، وقد تحسد

---

٩٨) مجموعة رسائل الجاحظ صفحة : ٨٩ .

٩٩) المصدر المذكور : صفحة : ٩٩

ولو لم يكن من العجب إلا أنك أول من تعهده الله بالصبر على خطاء الحس، وبالشكر على صواب الذهن. لقد كنت في طولك آية السائلين، وفي عرضك منار المضلين) (١٠١).

(ولو لم يكن فيك من الرضا والتسليم، ومن القناعة والإخلاص، إلا أنك ترى أن ما عند الله خير لك مما عند الناس، وأن الطول الخفي أحب إليك من الطول الظاهر، كان في ذلك ما يشهد لك بالإنصاف، ويحكم لك بالتوفيق) (١٠٢).

جـ — التلاعب بعقله :

ويقف الجاحظ من عقل ابن عبد الوهاب وتفكيره موقف لاعب الكرة من كرته، يقذفها إلى أعلا، ثم يتركها تهبط، يعنف في ضربها بقدمه ثم يلين، ينفخها حتى يكبر حجمها ويستدير جرمها، ثم يطويها بإفراغ الهواء منها، أو يتلاعب به لعب الصبي بدميته المتربية البينة، ربطها بخيط من المطاط، يرمي بها إلى أسفل وإلى اليمين أو اليسار، أو يقلبها ويرقصها، وهو آمن وصولها إليه، وارتداد هالها، وامتلاكه إياها ما دام الخيط في يده، وهي لا تملك لنفسها حولا ولا حيلة، أو يفعل به ما يفعل بالصور المتحركة في دار الخيالة أو بالعرائس الخشبية في المسرح الضاحك، وإذا كان التلاعب بهذه الجوامد باعثا على انشراح النفس وبهجتها، دالا على حذق اللاعب ومهارته، فإن اللعب بعقل ابن عبد الوهاب — الآدمي — يضيف الى الانشراح والبهجة، والحذق والمهارة، الهزء والاستخفاف والهزل والسخر، وحرية الحركة وعنفها في المسخ والتشويه، حيث طمس آدميته رغم وجودها وأبطل تيضات عقله وألغاه، وهو يحمله في رأسه، وذلك محط الهزل، ومدار السخر، يقول الجاحظ: (وأما إدراكك الشخص البعيد، وقراءتك الكتاب الدقيق، ونقش

---

(١٠١) المصدر السابق، صفحة ٨٩، ٩٠.

(١٠٢) مجموعة رسائل الجاحظ، صفحة ٩٢.

الخاتم قبل الطبع، وفهم المشكل قبل التأمل، مع وهن الكبر، وتقادم الميلاد وسخون الأيام، وتنقص الأوليائه من توتيا الهند، وترك الجماع ومن الحميع الشديدة، وطول استقبال الخضرة، فأنت يا عم حين تصلح ما أفسد الدهر وتسترجع ما أخذت منك الأيام لكنا قال الشاعر:

عجوز ترجى أن تكون فتية ... وقد لحب الجنبان واحدب الظهر

تدس إلى العطار ميرة أهلها ... وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر)(١٠٣)

(وما لرا سخون في العلم، والناطقون بالفهم، يعلمون أن استفاضة عرضك قد أدخلت الضيم على ارتفاع سمكك، وأن ما ذهب منك عرضا قد استغرق ما ذهب منك طولا، ولئن اختلفوا في طولك لقد اتفقوا في عرضك، وإذ قد سلموا لك بالرغم شطرا، ومنحوك بالظلم شطرا، فقد حصلت على ما سلموا، وأنت على دعواك في مالم يسلموا، ولعمري إن العيون لتخطئ، وإن الحواس لتكذب، وما الحكم القاطع إلا للذهن، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل إذا كان زماما على الأعضاء، وعيارا على الحواس)(١٠٤).

لاحد إفحامه بالاسئلة:

ويوجه إليه الأسئلة الكثيرة، وقد بلغت مائة مسألة، يعرف قصوره من إجاباتها، ليبين تحوله، وضآلة حصيلته، ونضوب قريحته، ثم يحيله الى كتبه العديدة، يلتمس الإجابة منها، ويتعلم بين دفتيها، ليظهر له الأستاذية، والحذق والعبقرية، ولا يهم الجاحظ جوابه، ولا يعنيه رجوعه إلى كتبه، وليس غرضه إزاحة غياهب جهله، وإنما وكده الزراية بعقله وعلمه، والطنز بسقوطه وتفهه، ووضعه في إطار قاتم من البلادة والبلاهة وجعله كاريكاتورا مشوها لمن يدعي العلم ولاعلم لديه، ولمن يفاخر بذكائه، وعقله ويحي بطبقات الظلم، ولمن يطاول أستاذه، ويخاشنه، وهو أحط من أن يكون تلميذه، وقد

---

١٠٣) المصدر المذكور: صفحة ٩٤

١٠٤) المصدر نفسه، صفحة ٨٩

أوضح الجاحظ الطريقة التي بها يذله ويمسخه في رسالته ، وهي الأسئلة التي يلقيها إليه ويطلب جوابها منه ، ثم التشهير به ، بجعل كل من يلقاه يسأله إياها ، ويحرجه بها ، وذكر السبب الذي من أجله سأله وأحرجه ، وكشف للناس وله جبال جهله ، ورسم الصورة المشوهة لعقله ، إنه سبب شريف ، وغرض نبيل ، هو كشفه أمام نفسه ، ليكتشف من غربه ، ويعدل من سلوكه وقوله . وقد ذكر ذلك في رسالته بقوله :(فلما طال اضطبارنا حتى بلغ المجهود منا وكدنا نحتاك مذهبه ، ونألف سبيله ، رأيت أن أكشف قناعه ، وأبدى صفحته للحاضر والبادى ، وسكان كل ثغر ، وكل مصر ، بأن أسأله من مائة مسألة أموّه فيها وأعرف الناس مقدار جهله ، وليسأله عنها كل من كان في مكة ، ليكفوا غربه ، وليردوه إلى ما هو أولى به)(١٠٥)

ومن الأسئلة التي وجهها إليه ، (خبرني كيف كان أصل الماء في ابتدائه ، في أول ما أمرني إياه أكان بحرا أجاجا استحال عذبا زلالا ، أم كان زلالا عذبا استحال أجاجا بحرا خبرني كيف صار الماء أبعد من الفلك ولا يكون إلا في بطن الأرض ، وهو أشبه بالهواء كما أن الهواء أشبه بالنار)(١٠٦) وخبرني عن الزرافة أمن ولد الناقة أم من الضبع ومن الشبوط أمن ولد البني أم الزجر ، وخبرني ما عنقاء مغرب ، وما أبوها وما أمها ، وهل خلقت وحدها أم من ذكر وأنثى ، ولم جعلوها عقيما ، وجعلوها أنثى ؟ (١٠٧). (وخبرني من خلاق الشريف وقاتل سعد بحر النفق ومن الذى استهوى عمرو بن عدى ، ومن صاحب عمارة ابن الوليد ، ومن يصرع منهم الأصحاء ، ومن يرى الإ لمرض ويستهوى العقلاء ، ومن فصل ما بين الشيطان والجنى ، وما بين الجن والحن ومن طعامه الجذف(١٠٨)

١٠٥) مجموعة رسائل الجاحظ صفحة ٨٦

١٠٦) المصدر المذكور صفحة ٩٨ .

١٠٧) المصدر نفسه صفحة ٩٩

١٠٨) المصدر نفسه صفحة ١٠٤

وهكذا كانت الرسالة ميدانا فسيحا للسخرية ، ومجالا رحبا للاستهزاء ، والإيجاع ، تناول فيها الجاحظ شخصية ابن عبد الوهاب فمسخها ، وتلاعب بها وصوره قزما هزيلا ، ثم ألبسه رداء فضفاضا من أردية الكمال والجلال فتعثر في ثيابه وترديه ، حتى أصبح سخرية الساخرين وأضحوكة الضاحكين ثم خلع عنه هذه الثياب ، وأظهر عوراته وعيوبه أمام الناس ، وعلى ملأ غفير ، فبدت عريته ، محسوسة مجسمة ، وبالغ في هذا التجسيم مبالغة ساخرة ، فظهر في صورة كاريكاتورية تدعو إلى الهزء وتستحث الساخرين على الإسراع بالسخرية .

فالجاحظ يتلاعب به ، يرفعه ويخفضه ، ويقدمه ويؤخره ، ويدنيه ويقصيه ويذلله ثم يعززه ، ثم يتركه هزأة الهازئين ، وأمثولة الساخرين ، وما مثله معه إلا كقط وقع في حبائله فأر ، فهو يلاعبه ، ويقاذفه ، ثم يظهر الغفلة عنه ويتناساه ، حتى إذا أمن الفأر ، وتأهب للفرار وقع فيه مخالبه ذلك الصياد الماهر ، فشد حبائله حوله ، فلا يروغ منه ، ثم يظهر له الصداقة ويمنحه الإخاء ، وطيب الصحبة ، ليتفرد نفسه ، ويفرخ روعه ، ثم يكر عليه بالهجوم ويلاحقه بالطعنات ، وذلك أشد ألوان الإيلام ، وأعنف أنواع التعذيب .

* * *

تلك رسالة التربيع والتدوير ، التي صنعت الكاريكاتور ، وارتقت بفن السخر وأطلعتنا على جوانب جديدة له ، وفنونا مختلفة الألوان ، شهية الطعوم ، من اللذع والقرص ، والهجاء الذي رققت به المدنية ، ولطفته الحضارة ، فسلكت به طريق التصوير المضحك ، والسخر المر المعتمد على المقابلات وعرض المتناقضات ، حين تناول الجاحظ صاحبه ، وأخذ يقلبه بين يديه ، ويعبث به قبل أن يقتله ، فإذا به شكل غريب ، وخلق عجيب ، وغرور وحسد ، وجهل وادعاء مع حسن القامة ، وعظم الهامة ، وحور العين ، وطيب الأحدوثة ، ثم يلح فيما يتناوله ، ويبالغ في سرد النكتة ، ويدس السم في الدسم ، حتى تركه صورة أو قصة تضحك القارئين ، وتعجب المتأدبين على مر العصور (١٠٩) . وقد عدد الجاحظ نفسه أغراض

---

(١٠٩) الأسلوب د/ أحمد الشايب صفحة ١٤٤ الطبعة الثالثة سنة ١٩٣٩ مكتبة النهضة .

كتابه التربيع والتدوير ، ومن فولتذه ، وأعجب به وارتضاه (مع ما فيه من الأخلاط من أشكال وأضداده ، ومن الجد والهزل ، ومن الحطة والإطلاق ، ومن الاستئناف والقطع ، ومن التخفف والتضييع ، ومن التثبيت والتهاون ، إذا أريد به تفريح معجب ، أو تكشيف مموه أو امتحان مشكل ، أو تخجيل وقاح ، أو تعجيز مار ، أو ممازحة ظريف ، أو مساءلة عالم أو مدارسة حافظ ، أو تنبيهاً على الطريق ، أو تجديداً للذهن)(١١٠) .

ورأى الأستاذ أحمد أمين في الرسالة فوائد للدارس الباحث أكثر مما رآه الجاحظ ، ذلك أنه : (استطاع أن يجعل لها موضوعاً علمياً ، بل لعلها أحسن رسائله لمن شاء أن يعرف أي المسائل العلمية والعقلية والأدبية والفلسفية كان يشغل الناس في عصر الجاحظ)(١١١) .

ويقول الدكتور طه حسين مفاخراً بالرسالة ، مبيناً ابتداع الجاحظ وطول نفسه (ويكفي جداً أن تنظر في رسالة التربيع والتدوير التي يهجو بها الجاحظ أحمد بن عبد الوهاب . ستجدون هذه الرسالة طويلة تبلغ خمسين ومائة صفحة ، وهي من أولها الى آخرها هجاء ، وهجاء لم يقصد فيه الجاحظ إلى الجد وإنما الهزل .

فحدثوني أين الشاعر العربي الذي يستطيع أن يبلغ في الهجاء بعض ما بلغه الجاحظ في رسالته هذه ؟ وأين القصيدة التي تبلغ في الطول والتفنن ما بلغه الجاحظ ، وتستطيعون أن تقرأوا هجاء جرير وهجاء الفرزدق وهجاء الأخطل ، فلن تجدوا فيها شيئاً يصح أن يقاس بهذا اللون الذي تجده في كتاب الجاحظ)(١١٢) .

وأقول : لقد هممت أن أجعل رسالة التربيع والتدوير وحدها موضوع بحثي ، ورأيت أن فيها الكفاية للتخطيط ، والقدرة على إعطائه متطلباته ، ومده بالعناصر اللازمة لخلق بحث

---

(١١٠) مجموعة رسائل الجاحظ صفحة ١٣٢

(١١١) ضحى الإسلام ، أحمد أمين الجزء الثالث صفحة ١٢٨ ، ١٢٩ الطبعة السابعة مكتبة النهضة .

(١١٢) من حديث الشعر والنثر ، طه حسين صفحة ٥٦ مطبعة دار المعارف بمصر سنة ٦٥

متأمل ، حتى ليمكنني التصريح بأن الرسالة صورة واضحة لأدب الجاحظ ، ولونه وتقلبه وفلسفته واتجاهه في الحياة ، وأن الدارس يستطيع من خلالها أن يقف على نفسية الجاحظ وخصاله ، وخلقه ومعارفه ، وبراعة منطقه ، وطواعية قلمه لخلجات فكره .

وأنها الرسالة الأولى من نوعها التي تناولت السخر في تفنن وابتداع ، وبسط وإيجاع ، يجذب الأنظار ويلفت جهة الزمان ، وأن السلاح السحري فيها ، والأداة الأدبية التي لم يسبق إليها ، كانتا التصوير الهزلي الوسيع الإطار والمتموج الخطوط والزاهي الألوان .

ولكني أردت أن تكون دائرة بحثي أوسع ، لأتمتع بالجاحظ أكثر ولأتفهم نفسه وأدبه أعمق ، ولأضحك معه ضحكا وطربا ، وهزءا وسخرا ، ولأرتوي في تؤدة وترو من الأدب الساخر عنده ، الذي نشره في رسائله ، ونثره في سائر مؤلفاته ، ودون أن أقتصر على هذا اللون من التصوير الهزلي في رسالته وإن كان قد جمع فأوعى ، وقدح فأورى ، وأصاب فأصمى .

الفصل الثاني

سخرية المواقف

يتعرض المرء كل يوم الكثير من المواقف، والعديد من المشكلات، وهو يواجه كل موقف بشخصيته وبطريقته بلباقة، ويحل كل مشكلة بشيء من الجد، قد يكثر وقد يقل، تبعاً لأهمية المشكلة، ومدى إدراكه لها، وقد يكون الحل ببعض الهزل بقليل من السخر، وابتسامة مرحة تحمل التفاؤل والرضا، وتخفف المشكلة أو تمحوها.

ومواجهة المواقف باليأس والقنوط، من صفات المتبرم بالحياة، الراغب عنها.. والوقوف أمامها بالصرامة والعنف، من عادات الخشن الفظ، الذي لا يأبه بالناس، ولا يكترث بشعور صحبته... والانسحاب من الموقف في ذلة وانكسار من سمات الخائر الرعديد، الذي يخاف المواجهة، ويفرق من المجابهة.

وحل المشكلات بالضرب والقتل – إن اعتبرنا ذلك حلاً – دليل الاعتماد على القوة العضلية والقدرة الجبرية، وذلك شأن من لم ينل حظاً من التعليم، ويستطع من العقل والتدبير، فهو مع جسمه، سابقاً ومضة فكره.

وفضها بالشتم والسباب من خصائص ذي اللسان البذيء، والخلق الدنيء.

ومعالجتها بالضحك والابتسام، والسخرية والتعريض، طبيعة المتعلم المتأدب الناضج الفكر، الواسع الحيلة، الذي يدرك باللين والضحك أكثر مما يناله غيره بالعنف والقسوة، فيزيل مشكلاته، ويقتل خصمه، وهو مطمئن النفس، مستريح البال، يضحك على ضحية سهمه، ويمرح حول رفاته، ويفرح بقتيله المتخبط في دمه، ويسلي روحه بمنظره، وقد أمن أن يؤخذ بجريرته أو يحاسب على قتله.

كان الجاحظ من هذا الطراز الأخير، الذي يجابه المواقف بالسخر، ويعالج المشكلات بالضحك، ويواجه الخصوم بالهزء والاستخفاف، لم يكن متبرماً بالحياة، ساخطاً عليها، بل

كان مرحا ، متفائلا ، يحب الحياة بكل ما فيها وإن تصالحت على جسمه الأضداد ، ولم يكن خشنا فظا ، وإنما كان لينا سهلا ، ولم يكن خائرا جبانا ، بل كان جريئا مقداما ، يفقد ما لا يرقه ، ويتناول بلسانه الحاد من حاده ، ولو كان أستاذه ، ولم يحل مشكلاته ويواجه مواقفه بالضرب والقتل والقوة الجسمية لأن تلك عدة من لا تفكير له ، وحيلة من لا حيلة لديه ولم يلجأ إلى السب والشتم والهجاء ، بل اتخذ الطريق اللين في التقريع والتأنيب ، طريق الاستهزاء والسخر ، وأحب من اتخذوه لهم طريقا ، وروى سخرياته وسخرياتهم في مواجهة المواقف التي اعترضتهم ، كما روى كلمات لهم في مواقف طبعتها بالسخر والتهكم .

وأحب — كما وعدت — أن أبين الجوانب الفنية عند الجاحظ ، التي جعلت السخرية سخرية وأضع اليد على المعاني التي من أجلها أضحكت وأبكت ، فأقسمها بحسب نسبتها في المواقف التي استلزمتها إلى أربعة أقسام :

١ — الأجوبة المسكتة .
٢ — التخلص الفج .
٣ — حسن التعليل .
٤ — ظهور ما في العقل الباطن .

⁂

١ — الأجوبة المسكتة :

قد يحاول الرجل أن يسخر من صاحبه ، ويضحك منه ، فيبدأ بالعبث به ، فإذا شهدنا هذا الموقف فإننا نضحك لهذه السخرية ، ونسر بذلك العبث ، ولكن ضحكنا يزيد ويشتد ، ويصير قهقهات عالية النغمة إذا حاول المتكلم أن يسخر بسامعه ، فيلويه السامع عن قصده ، ويفسد عليه خطته ، ويرد كيده في نحره ، فيقلب عليه سخريته ، ويحول إليه مسار سهمه ، فيصميه ويصيبه ، فإذا هو الصيد بعد أن كان الصائد ، فتتضاعف السخرية ، ويخسف المتهكم ، ويتضاءل المتكلم الأول لأن السخرية أتته من عدة نواح :

أ - أنه لم يحقق غرضه   ب - أنه أتخم والجم   ج - أنه صار هدفا للسهام ، وعصا للطعان .

وهذا اللون من السخر يحتاج الى عبقرية فذة ، وذكاء لماح ، وقدرة على معرفة ما يرمى إليه المتكلم ، وسرعة فى الإجابة ، وحضور للبديهة ، فيفجأ خصمه بالقول المفحم ، والسخرية اللاذعة على غير توقع ، ويجرعه مرارة كأسه .

والجاحظ أستاذ هذا الفن ، قد برع فيه ونبغ ، واشتق منه ألوانا ، وشقشق منه أنغاما جاءت ضربا من العجب ، ونموذجا من الروعة ، وإتقان الصنعة ، فمن ذلك :

١ - (أكل الجاحظ مع محمد بن عبد الملك الزيات ، فجاء بفالوذج ، فأراد الزيات أن يداعب الجاحظ ، فأمر أن يجعل فى جهته الجزء الرقيق من الصحفة ، فأسرع الجاحظ بالأكل ، فنفد ما بين يديه ، فقال له ابن الزيات : تقشعت سماؤك قبل سماء الناس ؟ فقال الجاحظ : (لأن غيمها كان رقيقا)(١) .

أراد الزيات السخرية من الجاحظ ، من سرعة أكله ، وشدة نهمه ، فقال له وقد بدت مساحة خالية أمامه : تقشعت سماؤك قبل سماء الناس ! فأجابه إجابة سريعة واعية ، على طريقة المشاكلة ، قائلا : لأن غيمها كان رقيقا ! فذكر السبب الذى من أجله تقشعت سريعا ، وكان ردا مفحما فيه سخرية بالزيات الذى أراد خداعه ، والعبث به ، والسخر منه ، فكشف خدعته ورد عليه سخريته وكان لسان حاله يقول : ما أنا بالنهم إلى فالوذجك ، ولا بالغر الذى يخدع ، ولكن هذه طريقتك فى إكرام ضيوفك .

٢ - (قال الجاحظ : جاءنى يوما بعض الثقلاء ، فقال : سمعت أن لك ألف جواب مسكت ، فعلمنى منها ، فقلت : نعم ، قال : إذا قال شخص : يا زوج ... يا ثقيل الروح .

---

(١) تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادى ، المجلد ١٢ صفحة ٢١٨ مطبعة السعادة سنة ١٩٣١ .

أي شيء أقول له ! فقال : قل له صدقت)(٢). والسخرية هنا وليدة الموقف ، معبرة عن شعور الجاحظ نحو هذا الثقيل ، ناشئة من الجواب غير المتوقع ، وما فيه من غمز واستهانة ، وإقرار السب والشتم ، في حين أن الجاحظ ، يقف موقف المعلم والناصح ويتخذ الرجل القائد والمرشد ، فإذا به يورطه ويسخر منه . أما الجواب فسكت خوفا فإن سيل الشتائم سينقطع حتما عند سماع كلمة صدقت ، أو كان الجاحظ يقول له إن من يصفك بثقل الروح صادق لأن تلك سجية فيك .

٣- (قال الجاحظ : ما غلبني أحد قط إلا رجل وامرأة ، أما الرجل فإني كنت مجتازا في بعض الطريق فإذا أنا برجل قصير بطين كبير الهامة مؤتزر بمئزر طويل اللحية وبيده مشط يمشطها ، فقلت في نفسي :

رجل قصير بطين ألحى ، فاستزريته ، فقلت أيها الشيخ ، لقد قلت فيك شعرا ، فترك المشط من يده وقال : قل ، فقلت :

كأنك صعوة في أصل حش أصاب الحش طش بعد رش

فقال لي : اسمع جواب ما قلت ، قلت : هات ، فقال :

كأنك جندب في ذيل كبش تدلدل هكذا والكبش يمشي(٣)

وأما المرأة ، فإني كنت مجتازا في بعض الطريق ، فإذا أنا بامرأتين ، وكنت راكبا على حمارة ، فضرطت الحمارة ، فقالت إحداهما للأخرى : وي ، حمارة الشيخ تضرط ، فغاظني قولها ، فقلت لها : إنه ما حملتني أنثى قط إلا ضرطت ، فضربت بيدها على كتف الأخرى ، وقالت : كانت أم هذا منه تسعة أشهر في جهد جهيد)(٤).

---

٢) أبو عثمان الجاحظ ، د . محمد خفاجي ، صفحة ٢٠٠

٣) تاريخ بغداد الجزء الثاني عشر صفحة ٢١٦

٤) الأذكياء صفحة ١٧٤ تحقيق أسامة عبد الكريم الرفاعي طبعة دمشق .

فقد لحظ الجاحظ النقادة، ولقطت عينه الفاحصة ما رآه في الرجل من تشويه خلقي، وتنافر بين أعضائه، مع ما يبدو عليه من اعتزاز بالمظهر، واهتمام بجمال السمت، فاسترابه لكن إجابة الشيخ كانت بارعة لاذعة، ردت إلى الجاحظ سخره فأفحم وأُلجم.

وأما المرأة فقد رأت في منظر الجاحظ وحمارته التي أصدرت هذا الصوت القبيح ما يدعو إلى الاستغراب والتهكم، فاستغربت بلطف، وتهكمت في رقة، لكن سوط سخر الجاحظ لذعها لذعاً أليما، وظن كلامه لا مبطل له، ولا معقب عليه، وقد كانت المرأة أبرع سخرية، وأبدع إجابة حين سخرت به وبأمه، ووضعتهما في صورة هزلية أسكتته وحقرته فلم يملك إزاءها إلا الاعتراف بقصوره وتخاذله.

٤ـ (حدث أبو العيناء محمد بن القاسم، قال: صرت إلى الجاحظ، فقلت له: جئتك مسلماً وقاضياً للحق، وعلى حاجة لبعض أصدقائي، وهي كذا وكذا. قال: لا تشغلنا الساعة عن المحادثة، وتعرف أخبارنا، إذا كان في غد وجهت إليك بالكتاب. فلما كان من غد وجه إلي بالكتاب، فقلت لابني: وجه هذا الكتاب إلى فلان، ففيه حاجته. فقال لي: إن أبا عثمان بعيد الغور، فينبغي أن نفضه، وننظر ما فيه، ففعل، فإذا في الكتاب: هذا الكتاب مع من لا أعرفه، وقد كلمني فيه من لا أوجب حقه، فإن قضيت حاجته لم أحمدك، وإن رددته لم أذمك. فلما قرأت الكتاب مضيت إلى الجاحظ من فوري، فقال: يا أبا عبد الله قد علمت أنك أنكرت ما في الكتاب. فقلت: أوليس موضع نكرة. فقال: لا، هذه علامة بيني وبين الرجل فيمن أعتني به. فقلت: لا إله إلا الله! ما رأيت أحداً أعلم بطبعك، ولا ما جبلت عليه، من هذا الرجل. علمت أنه لما قرأ الكتاب قال: أم الجاحظ عشرة آلاف في عشرة آلاف ... وأم من يسأله حاجة. فقلت له: ما هذا؟ أتشتم صديقنا! قال: هذه علامتي فيمن أشكره. فضحك الجاحظ)(١).

---

(١) معجم الأدباء الجزء ١٦ صفحة ٨٣، ٨٤، جمع الجواهر للحصري ص ٢٠٤ تحقيق البجاوي ط ١ سنة ١٣٧٢ هـ.

ابتدأ الجاحظ بالسخرية ، فجعل كتاب الوصية لا وصية به يقضه الرجل ليقرأه لعله صدق

ظن الجاحظ ، وصح ما توقعه .

وأراد الجاحظ أن يتخلص بلباقة من السخرية الأولى ، ويجعل في الوقت نفسه من هذا التخلص سخرية أخرى ، فذكر أن ما ظنه الرجل سخرية به ، ليس إلا علامة بينه وبين المرسل إليه لتلبية ما يطلب .

إلا أن حامل الوصية لم يخدع ، وكان المسخر سخرين ، وكان الجزاء من نفس الصنع .

ما أضحك الجاحظ طربا للباقة الرجل أو تخفيفا لما أصابه من استهزاء أليم ، أو سخرية من نفسه لوقوعه في حبائله ، فلم يجد ما يقول إلا الضحك .

ه‍ـ (قال الحجاج ليحيى بن سعيد بن العاص : أخبرني عبد الله بن هلال صديق إبليس أنك تشبه إبليس ! قال : وما ينكر أن يكون سيد الإنس يشبه سيد الجن !)(٦)

وفي ذلك تخلص رائع ، وإجابة مسكتة ، وفرصة للسخرة وقد أراد المتكلم انتقاصه والهزء به حوت فيه كثيرا من الغوص والألمعية وسخرية من يحيى أخملت سخرية الحجاج وحطت من قدرها وقدره .

٦ـ (جاء رجل إلى وجيه ، فقال له : أنا جارك ، وقد مات أخي ، فمر لي بكفن ، فقال الوجيه : لا والله ، ما عندي اليوم شيء ، ولكن عد إلى بعد أيام تستجد ما تريد ، قال : فيملح الميت الى أن يتيسر عندكم شيء)(٧) .

وهل تكفين الميت ودفنه يمكن فيهما تأجيل ، أو انتظار عدة أيام يعود بعدها الرجل ليأخذ ثمن الكفن ؟ لذلك جاءت السخرية باتة لاذعة ، تقترح حلا ليس بحل كما أن كلام الوجيه حل ليس بحل ، إلا أن الوجيه لم يرد السخر لكن الرجل أراد السخر

---

٦) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء السادس صفحة ١٧٠

٧) البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الرابع صفحة ١١ ، جمع الجواهر ٩

والتقريع
والتقبيح والإفحام والتجريح .

د ـ (روى أن الحجر الأسود كان أبيض فسوده المشركون . فقال الجاحظ كان يجب أن يبيضه المسلمون حين أسلموا)(٨) .

هـ ـ قال الجاحظ : قال المهدي لشريك القاضي ـ وعيسى بن موسى عنده ـ لو شهد عندك عيسى كنت تقبله ! وأراد أن يضرب بينهما . قال شريك : من تسألت عنه ؟ لا يسأل عن عيسى غير أمير المؤمنين . فإن زكيته قبلته . فقلبها عليه)(٩) .

و ـ (قال الصولي : قال الجاحظ : قال ثمامة : دخلت إلى صديق لي أعوده ، وتركت حماري على الباب ولم يكن معي غلام ، ثم خرجت وإذا فوقه صبي ، فقلت : اتركب حماري بغير إذني ؟ قال : خفت أن يذهب فحفظته لك . قلت : لو ذهب كان أحب إلي من بقائه . قال : فإن كان هذا رأيك في الحمار ، فاعمل على أنه قد ذهب وهبه لي واربح شكري . فلم أدر ما أقول)(١٠)

ز ـ (دخل رجل من بني مخزوم وكان زبيريا على عبد الملك بن مروان . فقال له عبد الملك : أليس قد ردك الله على عقبيك ؟ ! قال : أومن رد إليك فقد رد على عقبيه ؟ فاستحيا ، وعلم أنه قد أساء)(١١) .

---

٨) أمراء البيان : محمد كرد علي : الجزء الثاني صفحة ٦٦٨ .

٩) الأذكياء : عبد الرحمن بن الجوزي تحقيق أسامة عبد الكريم الرفاعي طبعة دمشق ص١٦٦

١٠) الأذكياء صفحة ٢٤٤

١١) البيان والتبيين الجزء الرابع صفحة ٧٥ .

الفج

٢ — التخلص القبيح :

إذا وقع شخص فى ورطة ، وتأزم الموقف ، وضاقت السبل ، أعمل فكره وقدح زناد عقله ، فأضاءله الظلمات ، وكشف المعميات ، وأفسح السبل أمامه ، وأوجد الحلول لأزماته ، فيخرج من محنته أقوى عودا ، وأكثر مرانا :

وما أبدع قول الشاعر :

جزى الله المصائب كل خير ... عرفت بها عدوى من صديقى

وقول بعض الفلاسفة : السم الذى لا يقتلنى يزيدنى خبرة وتجربة .

فإن ضاق عطنه ، ولم يسعفه تفكيره ، وحاول أن يخرج من ضائقته خروجا منكرا ، أو يتخلص منها تخلصا فجا ، يفصح عن عقله المحدود ، وذهنه الكليل المكدود ، سخرنا منه ، وعززنا لقبح تخلصه .

وقد احتوى أدب الجاحظ على سخريات من هذا اللون (٢) منها :

١ — (قيل لمزبد اليشكرى : قم فاصعد المنبر وتكلم ، فلما صعد ، رأى وجوه الناس نحوه فقال : لولا أن امرأتى حملتنى على إتيان الجمعة اليوم ما أتيت وأنا أشهدكم أنها طالق ثلاثا)(١).

لقد ألجمه الموقف ، وعقد لسانه ، وهربت الكلمات من شفتيه حين رأى الناس ينظرون إليه ينتظرون فصيح كلامه ، وجليل عظاته ، وهو لا يجد فى صدره فصيحا ولا هزيلا ، ولا تتحرك شفتيه بوعظ ولا بقصة ، فتذكر موقفه من امرأته ، وأنها سبب مأزقه ، بدفعها إياه إلى الصلاة ودار ذلك فى عقله فصار كلمات على لسانه وكان خطبة أشهد فيها الناس أنه طلق امرأته ثلاثا لقد كانوا ينتظرون منه خيرا فقال شرا فكانوا ينتظرون وعظه فسمعوا هجره ، وإذا تخلص من ورطة وقع فيها بورطة أخرى أقوى وأنكى ، وإذا وجد فى موقف يعلم

---

١) البيان والتبيين : الجاحظ : الجزء الثانى صفحة ٢٥١

(٢) كيف يعد سرد هذه القصص والنوادر التالية من أدب الجاحظ فى السخرية ؟

الناس كافة له ، فنطق غير ما يعلمون ، وفعل خلاف ما ينتظرون ، كانت السخرية العميقة والهزء الموجع ، والضحك القاتل .

٢ـ (خطب مصعب بن حيان ـ أخو مقاتل بن حيان ـ خطبة نكاح ، فحصر فقال : لقنوا موتاكم قول لا إله إلا الله . فقالت أم العروس: عجل الله موتك ، ألهذا دعوناك ؟)(٢).

العرس فرح وبهجة ، والموقف يستلزم أن يكون فيه كل مفرح مبهج ، فإن كان إنسان مهموماً فليخف همه أو ليتناساه. أما ذكر الموت في الأفراح ، فشيء تشمئز منه النفوس، وتجفل له الطباع، لعدم مراعاة الموقف ، وقد فعل ذلك مصعب ، وتصرف تصرفا فجا ، وتخلص تخلصا كان هو السقوط بعينه ، وذلك يدعونا إلى السخر من مقاله ، ويدعو أم العروس إلى أن تتمنى له تعجيل موته ، ثم تقول هازئة : ألهذا دعوناك ؟ فقد دعوه ليلقي خطبة نكاح لا خطبة تأبين فلما حصر أبن ، فوقع في أشد مما سقط فيه ، وكان كالمستجير من الرمضاء بالنار.

٣ـ (قال إبراهيم بن هانئ : كنت عند أحمد بن الخاركي إذ مر به بعض الباعة ، فصاح : الخوخ الخوخ . فقلت / وقد جاء الخوخ بعد ؟ قال : نعم ، قد جاء وقد أكثرنا منه ، فدعاني الغيظ عليه إلى أن دعوت البياع ، وأقبلت على ابن الخاركي ، فقلت : ويحك ! نحن لم نسمع به بعد ، وأنت قد أكثرت منه وقد تعلم أن أصحابنا أترف منك ، ثم أقبلت على البياع ، فقلت : كيف تبيع الخوخ ؟ فقال : ستة بدرهم . قلت : أنت ممن يشتري ست خوخات بدرهم وأنت تعلم أنه يباع بعد أيام مائتين بدرهم ثم تقول : وقد أكثرنا منه ، وهذا يقول ستة بدرهم ؟! قال : وأي شيء أرخص من ستة أشياء بشيء)(٣).

---

٢) البيان والتبيين / الجاحظ ، تحقيق هارون ج ٢ ص ٢٥٠ ، تحقيق السندوبي ج ٢ ص ١٧٩

٣) البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ، صفحة ١٢٦ ، ١٢٧ .

أحمد بن الخاركي كما يقول الجاحظ كان بخيلا نفاجا [٤]، إدعى أنه أكثر من الخوخ في باكورته، وثمنه مرتفع، فسخر منه ابن هانئ، بدعوته البائع، وسؤاله عن الثمن، وبيان فداحته بالنسبة للحز الخاركي، وحاول ابن الخاركي التخلص من موقفه، والهروب من المأزق الذي زج بنفسه فيه، فلم يحسن ذلك، وجاء تخلصا متعسفا، منافيا للعقل، وهو يعتقد أو يوهمنا أنه يقول صوابا، وأن لهم في ذلك عذرا مقبولا، وأنه قد أكثر من الخوخ فعلا لرخص ثمنه، وقلة قيمته، فستة أشيا، يشتري واحد ربح وغنم، وهذا التخلص المتعسف من موقفه المحرج هو سبب سخرنا، ويبعث ضحكا.

٤-(قال ابن حسان، كان عندنا رجل مقل، وكان له أخ مكثر وكان مفرط البخل شديد النفج، فقال له يوما أخوه، ويحك! أنا فقير معيل، وأنت غني خفيف الظهر، لا تعينني على الزمان، ولا تواسيني ببعض مالك، ولا تفرج لي عن شيء، والله ما رأيت قط، ولا سمعت بأبخل منك! قال، ويحك! ليس الأمر كما تظن، ولا المال كما تحسب، ولا أنا كما تقول في البخل ولا في اليسر، والله لو ملكت ألف ألف درهم، لوهبت لك منها خمسمائة ألف درهم! يا هؤلاء فرجل يهب ضربة واحدة خمسمائة ألف يقال بخيل؟!) [٥].

أخرج الرجل في موقفه أمام الناس، فقد بين له أخوه العذر في مسألته، وكشف له وللناس باطله، وألزمه عيبه، وشهر ببخله، وما طلب منه إلا دريهمات تعينه على سد أفواه أولاده الجائعين، ولما أراد الخروج من المأزق، والإفلات من ورطة الموقف، لم يفلح، إذ علق معونته أخاه على أن يمتلك ألف ألف درهم، فكان أسلوبا رذلا، وتخلصا فجا، أضحك الناس وأضحكنا، فسخروا منه وسخرنا.

---

٤) كتاب البخلاء الجاحظ، شرح العوامري والجارم الجزء الثاني صفحة ٤٩

٥) البخلاء، الجاحظ، تحقيق طه الحاجري صفحة ١٩٥

هـ (صعد على بن أرطاة على المنبر فلما رأى جماعة الناس حصر ، فقال : الحمد لله الذي يطعم هؤلاء ويسقيهم)(٦).

٦ـ (بينا معاوية بن مروان واقف بدمشق ينتظر عبد الملك على باب طحان ، وحمار له يدور بالرحى ، وفي عنقه جلجل ، إذا قال للطحان : لم جعلت في عنق هذا الحمار الجلجل ؟ قال : ربما أدركتني سآمة أو نعسة ، فإذا لم أسمع صوت الجلجل علمت أنه قد قام فصحت به ، قال معاوية : أفرأيت إن قام ثم قال برأسه هكذا وهكذا — وجعل يحرك رأسه يمنة ويسرة — ما يدريك أنت أنه قائم ؟ فقال الطحان : ومن لي بحمار يعقل مثل عقل الأمير)(٧).

٧ـ (ادعى رجل على الهيثم بن مطهر الفأفاء أنه سرق بغلا ، فقال له الوالي : ما يقول ؟ قال : ما أعرف مما يقول شيئا ! قال : أصلحك الله ، إنه سكران فاستنكهه . قال : ولأي شيء يستنكهني ؟ آكلت البغل !)(٨).

* * *

٣ ـ حسن التعليل :

وهو أن يخترع المتحدث علة للشيء ليست هي العلة الحقيقية له قصدا إلى السخرية ورغبة في الإضحاك .

فالسامع حين يرى المتكلم قد انتقل بفكره من الشيء الذي كان متوقعا تنتظره الأذهان وتترقبه الآذان ، إلى شيء آخر لم يكن متوقعا ، ولكنه حل لطيف ، وإجابة طريفة ، قصد بها السخرية ، ومال بها إلى الإضحاك ، تنفعل نفسه بهذا الموقف ، وتنشرح لهذا التلطف وحسن التأتي .

---

٦) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الثاني صفحة ٢٥١

٧) البيان والتبيين الجاحظ ، صفحة ٦١ وعيون الأخبار ، ابن قتيبة المجلد ٢ ص ٤ طبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

٨) رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الثاني صفحة ٢٣٩

والمتكلم حين يترك العلة الحقيقية ، ويخترع علة أخرى فإنه يحقق السخرية من السامع ، بإظهاره له الشيء في غير موضعه ، وتعليله الموقف بما ليس علته ، فهو يستهين به ويقدمه السابق أو يبين براعته واقتداره على امتلاك نواصي الكلام ، وعنان المعاني ، وأنه في مرتبة أعلى من مرتبة محدثه وأرفع ، وهو بهذا التعليل الحسن يرد الاعتقاد السائد ويلغي السبب السابق ، ويضع لهم سببا استحدثه ، كان غامضا على أذهانهم ، ولا يخفى ما في ذلك من تهكم واستعلاء .

والجاحظ يروي كثيرا من سخرياته ، مكمن الإضحاك منها ، وصور السخرية فيها حسن التعليل . يقول :

(ومن المجانين الأشراف ابن ضحيان ، وكان يقرأ " قل يأيها الكافرين " فقيل له في ذلك فقال : قد عرفت القراءة في ذلك ، ولكني لا أجل أمر الكفار)(١) .

أخطأ ابن ضحيان في قراءة القرآن ، فدله الناس على خطئه ، وعرفوه الصواب ، وأصبح في موقفه هذا متهما بعدم الحفظ ، وبجهل قواعد النحو ولكنه تدارك الموقف وجعله له بعد أن كان عليه ، فقد ادعى أنه يعرف القراءة المتبعة ويستطيع أداءها ، ولكنه تعمد القراءة على الوجه الذي قرأ به ، ولم يخطئ حين قرأ الكافرين بالجر ، وحجته في ذلك : عدم إجلاله الكافرين ، فهو من أجل هذا لا يقرأ الكافرون بالرفع ، لأن الكافر أحقر من أن يرفعه ابن ضحيان ، وإنما مكانته عنده الأرض فهو لذلك يجره دائما ، فعلل لخطئه بعلة طريفة ساخرا فيها من الكافر محقرا إياه . وحسن التعليل في هذا الموقف في حاجة إلى بصر بالنحو ومعرفة لقواعده ، حتى نعرف مراد ابن ضحيان ، وحجته المؤدية إلى السخرية ، وكيف كانت كلمة الكافرين أو إبدال الواو ياء في الكلمة مؤديا الى عدم إجلالهم .

---

١) البيان والتبين الجزء الرابع صفحة ٢٠

٢ـ (قال الجاحظ : رأيت جارية بسوق النخاسين ببغداد ينادى عليها ، وعلى خدها خال ، فدعوت بها ، وجعلت أقلبها ، فقلت لها : ما اسمك ؟ ، قالت : مكة فقلت : الله أكبر ، قرب الحج ، أتأذنين أن أقبل الحجر الأسود ؟ قالت لى : إليك عنى ، ألم تسمع قول الله تعالى : "لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس)(٢).

رأى الجاحظ الجارية مكة فأعجبته ، وأراد وصلها ، ورغب فى التمتع بها ، واستغل الاسم المشترك مكة ليكنى ويعبث ، وأراد بجملة قرب الحج ، الرغبة فى قربها ، وطمعه فى زيارتها ، وكنى بالحجر الأسود عما يريد أن يقبله منها ، فانتقل من عبث إلى عبث ، ومن كناية إلى تورية إلى مجانة وأجابته الجارية بما يلائم أسلوبه ، ويوائم طريقته ، ويتناسب مع الموقف الذى وجدت فيه ، وكان حسن التعليل لعدم نيل شئ منها باستخدام الآية الكريمة هو سوط الفكر وشواظ الهزء ، وتظهر فى هذه الأطروحة براعة استخدام الألفاظ والعبارات ، وترقيصهـــا طربا وسخرا .

٣ـ (مر ابن علقمة بمجلس جماعة من بنى ناجية ، فكبا حماره على وجهه ، فضحكوا منه ، فقال ما يضحككم ؟ إنه رأى وجهاء قريش فسجد !)(٣).

ضحكوا من الموقف ، وسخروا حين كبا حمار ابن علقمة ، فبادلهم سخرية بسخرية ، بإيهامهم أن ما ظنوه كبوا ليس به ، وأوضح لهم خطأ ظنهم ، فالحمار لم يكب ، وإنما تعمد أن يخر ساجدا ، إكراما لوجهاء قريش ، وتقطيما لأقدارهم .

---

٢) الأذكياء ، عبد الرحمن بن الجوزى تحقيق أسامة عبد الكريم الرفاعى ص٢٦٢ ط دمشق

٣) البيان والتبين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الرابع صفحة ٥ .

فقد جاء بحملة حسنة ليبين خطأ دلمحه على كلب إذ الموقف لا يتطلب أن يقرن بكلب ،
لأنه مقرون بكلب آدمي منذ الغداة .

٤ـ ظهورها في العقل الباطن :
مطامع المرء لا تقف عند حد ، وآماله لا تنتهي إلى غاية ، وكلما حقق مطمعًا ، ونال أملا ، تجددت له مطامع وانبثقت في فكره آمال ، وهذه المطامع ، وتلكم الآمال لا يستطيع تحقيقها كلها ، وما لم يستطع تحقيقه لن ينتهي بانتهاء الأيام ، بل يترسب في عقله الباطن، وينكمش في زاوية من زوايا ، ولكنه لا يخبو ولا يخمد ، وإنما يثور بين الحين والحين ، فيضيء ويلتمع ، ويطفو على السطح ، ويبرز إلى عالم الحقيقة والواقع .

وما ينفعل به الإنسان ، فيأخذ الكثير من تفكيره ، ويستولى على عقله ، يجعله غير منتبه تماما لغيره ، فتكون رؤيته غير واضحة ، وكلماته باهتة تائهة . فإذا كلمه أحد ، ربما أجابه على غير كلامه ، أو خلط بين الإجابة من كلامه وبين ما يدور في نفسه ، وذلك الخلط بين ما يدور في النفس وما يتطلبه الموقف يدعو إلى السخرية ، ويحقق لونا من ألوانها ، فإذا رويت لنا هذه العبارة المخلوطة سخرنا من قائلها ، لما فيها من فقدان التجانس وانعدام التلاؤم ، ولما تفصح عنه مما كان المتكلم يخفيه ويحرص على كتمانه ، ويحاول جاهدا أن يظل مستترا لا يقف على حقيقته أحد ، فتتكشف أستاره ، وتهتك حجبه ، فإذا هو واقف أمام الناس عاريا ، فنضحك متهكمين ، ونقهقه ساخرين .

وفلتات لسانه تلك ، تطلعنا على دخلية نفسه ، وطبيعة تفكيره ، وحقيقته بين الرجال ، فنعرف قدره ، ومكنون نفسه ، وجشعه ونهمه ، أو بخله وتقتيره ، أو تفجه وادعائه ، فنسخر ونطنز .

والسخريات التي تتناول المواقف التي يظهر فيها ما في الشعور ممتزجا بالحقيقة الخارجية كثيرة منتشرة في أدب الجاحظ ، ومنها :

١ـ (كان محمد بن راشد البجلي يتغدى وبين يديه شبوطة ، وخياط يقطع له ثيابا وراءه يلحظ الشبوطة ، فقال : قد زعمت أن الثوب يحتاج إلى خرقة فكم مقدارها ، قال : ذراع في عرض الشبوطة)(١)

كان الخياط جائعا مغرما بالسمك ، فأخذت الشبوطة كل تفكيره وملكت عليه حواسه فلما كلم ابن راشد كان فكره ونظره في الشبوطة فخلط الكلام الخارجي بحديث نفسه ، فظهر شوقه وحرقته إلى الطعام واضطرب موقفه مما يدعو إلى السخر والضحك .

٢ـ (قال الجاحظ : قلت لأبي سعيد الطفيلي : كم أربعة في أربعة ؟ فقال : رغيفين وقطعة لحم)(٢) و (قيل لطفيلي : كم اثنين في اثنين ؟ قال أربعة أرغفة)(٣) .

والجائع يرى في أحلامه الخبز واللحم ولا ينظر لشئ إلا على أنه يؤكل أو يشرب أو أنه شبع ممتلئ أو جائع ضامر ، فحلمه وخاطره يسيطر عليه في أقواله وأفعاله ، والموقف هنا يستحق الضحك ويجلب السخر ، وقد نبعت السخرية من رؤيتنا نماذج من الرجال جعلوا عقولهم في معائدهم ، أو أمعائهم في عقولهم ، فقد ملك عليهم الأكل والشرب أقطار نفوسهم ، وهم جوانب حياتهم ، كما أنها نابعة من الخلط في القول ، والإجابة بما ليس بجواب وإختلاط الظاهر بالباطن مما يدل على تبلبل الفكر ، واضطراب الخاطر .

٣ـ (مات لابن مقرن غلام في طاعون ، فحفر أعرابي قبرا للغلام بدرهمين ، فلما أعطوه الدرهمين قال : دعوهما عندكم حتى يجتمع لي عندكم ثمن ثوب)(٤) .

---

١) البيان والتبيين : الجاحظ : تحقيق السندوبي ج ٢ ص ١٣٧ ، وتحقيق هارون ج ٢ ص ١٢٨

٢) الأذكياء : عبد الرحمن بن الجوزي تحقيق أسامة عبد الكريم الرفاعي صفحة ٢٢٢ طبعة دمشق

٣) البيان والتبيين : الجاحظ : تحقيق السندوبي الجزء الثاني صفحة ١٣٥ ، وتحقيق عبد السلام هارون الجزء الثاني صفحة ١٨٧ ، والأذكياء : ابن الجوزي صفحة ٢٢٢ ط دمشق .

٤) البيان والتبيين الجزء الرابع صفحة ١١

ليس هنا شهوة للطعام والشراب ، ولا جمع المال وتكثيره ، وإنما السخرية من كلام الأعراى لأنه أظهر أشياء ، وهى وإن كانت تحقق له النفع إلا أنها تجلب لغيره ضررا يوازى أضعاف أضعاف نفعه ، فهو يتمنى أن يموت الكثير من أفراد هذه الأسرة ، ويحتاجهم الطاعون فمع موت كل شخص درهمان له ، ثمن حفره قبرهما ومقالته تلك فى موقفه هذا جديرة بإتهامه لمجانبته الذوق والبعد عن اللياقة ، على قصر نظره ، وتفاهة عقله ، وهمتنا إلى السخرية منه والاستهزاء به .

الفصـــل الثالـــث

سخريـــة التضـــــاد

من الجوانب التى تولد السخر، وتثير النفس للمزح والضحك، أن يظهر المرء فى غير مظهره ويلبس الشخص غير إهابه، أو يتصرف على عكس ما عهد فيه، أو يضع نفسه موضعا ليس أهلا له أو يتحدث بكلام متناقض، وأفكار متعارضة، أو يقارن بينه وبين ضده فى الشكل واللون، أو الهيئة والسمت، أو الخلق والحلم، أو التصرف والسلوك. فالتضاد هو العامل المشترك والقاسم الأعظم بين السخريات على تنوع أضربها، واختلاف طعومها، وتعدد أسمائهـــا لا تكاد تتحقق سخرية منه، أو تنفصل من مجال جذبه، أو تبتعد عن دائرة فلكه، وإن كانت تختلف من ناحية وضوح هذا العنصر أو خفائه، وقلته أو كثرته، بالنسبة لعامل آخر، قد يكون أكثر بروزا، وأسطع ضياء، وأظهر فى تحقيق السخرية، وبعث الاستهزاء، فتنسب إليـــه وتتسم به، وإن كان التضاد لا يزال يكمن بين طياتها، وحشو جنباتها.

فسخرية الكاريكاتير - كما قدمت - يحمل فيها التضاد عمله، فيمد يده اليمنى يجذب بها الصورة الأصلية ويمد يده اليسرى يقرب بها الصورة الممسوخة، ومن هذا التقارب بين المتباعدين والجمع بين المتعاندين المتضادين.

الأصل والصورة، تتقدح شرارة السخر حين يلتقيان كما تتقدح شرارة البرق بين السحابتين المتضادتين الموجبة والسالبة عند التقائهما فتحرق وتصعق.

وسخرية المواقف - كما شاهدنا - يشترك فيها التضاد، بين الموقف الكائن والموقف الذى يجب أن يكون، ومن التنافر بينهما - والأصل أن يتحدا - تنبثق السخرية وينبعث الضحك لمخالفة العرف، والخروج عن الإلف.

وسخرية الحركة - كما سيأتى - منبعها التضاد، حيث وجدت الحركات الكثيرة المعارضة للوضع الطبيعى، أو الحركات القليلة المتأنية، والعادة والعرف يحتمان أن تكون كثيرة

متناهية ، أو وجدت الحركة بدل السكون ، أو السكون بدل الحركة ، فحدث الضد ، ونتج العكس ، فتثور النفس ، وتنضج السخرية ، وينضح المزح ابتسامات وضحكات وقهقهات ، بمقدار عمق السخرية ، وخفاء المفارقة .

وسخرية الكلمة آتية من وضعها فى غير موضعها ، أو تحميلها معنى غيرها ، أو معنى غير مقصود ، أو التلاعب فى مواضع حروفها ، بتقديم أو تأخير أو حذف أو زيادة ، ومن الكلمة غير المتوقعة ، والمعنى غير المقصود ، والحرف الموضوع فى غير محله ، والشَّدّة الناجمة من ذلك تكون السخرية والاستخفاف .

والسخرية الذهنية ، أساسها ، تنافر المعانى ، وقلب الأفكار وتباين مفهوم العبارة فى ذهن المتكلم مما هو فى ذهن المخاطب ، وإظهار الإساءة فى مكان الإحسان ، أو الهزل فى موطن الجد ، وبذلك تتحقق السخرية وتوجد ، حيث وجد العنصر الأساس لوجودها وهو وضع الشىء فى غير موضعه المألوف . وللتضاد صور فنية ساخرة ، يغلب فيها ما سواه ، ويطمس من الجوانب الداعية إلى المزح ما عداه ، ويقف فيها على قدميه سادا الأفق ، مستقلا بالقذع والإضحاك .

ومن صوره : ١ — التناقض فى المقالة ٢ — المفارقات — ٣ — القياس الفاسد .

* * *

١ — التناقض فى المقالة :

التناقض فى الكلام دليل التناقض فى العقلية ، وإذا كانت العقلية متناقضة سخرنا من صاحبها ، لخروجه عن الفكر السليم ، والرأى الرصين ، وإبطال كلامه السابق بكلامه اللاحق وإبطالهما معا بتعارضهما ، لأن السامع لا يدرى ما يقصده المتكلم ويريده ، إذ هو مبهم غامض متضارب ، لا يحمل معنى يقبله العقل ، ويلحظ بالنفس ، بل لا يحمل معنى على الإطلاق لأن آخره ألغى أوله .

وإذا كنا نسخر ممن يرجع عن رأيه القديم ، أو يغير موقفه وقد خلا إلى نفسه وقلبه الوقت الطويل ، ونهزأ بمن ينقض عهده حين يعمل الفكر والتدبير وله من الأسباب ما يَدْفعه إلى ذلك ، كطمعه في مال ، أو رغبته في جاه ، أو طلبه متعة ؟ – فأولى بنا أن نسخر وأن نستخف ونهزأ ، ممن تناقضت عبارته ، وتضاربت عقليته ، وخلط في كلامه ، فلم نستشف وجهته وفكرته ، وصار إلى الغباء والبلاهة أقرب منه إلى الفهم واستقامة العبارة .

ولهؤلاء أمثلة زخر بها أدب الجاحظ ، وشاعت في فنه الساخر ، منها :

١ـ(قال الجاحظ ، دخلت واسط فبكرت يوم الجمعة إلى الجامع ، فقعدت ، فرأيت على رجل لحية لم أر أكبر منها ، وإذا هو يقول لآخر ، الزم السنة حتى تدخل الجنة . فقال له الآخر ، وما السنة ؟ قال ، حب أبي بكر بن عفان ، وعثمان الفاروق ، وعمر الصديق ، وعلى ابن سفيان ، ومعاوية بن أبي شيبان . قال ، ومن معاوية بن أبي شيبان ؟ قال ، رجل صالح من حملة العرش ، وكاتب النبي صلى الله عليه وسلم ، وختنه على ابنته عائشة)(١).

جمع المتحدث أسباب الوقار وعظمة المظهر :

١ـ فهو في الجامع بكرة الجمعة ٢ـ له لحية ٣ـ لحيته فائقة فارهة لم يجد الجاحظ أطول منها ٤ ـ يعظ الناس ، ويعرفهم أصحاب الرسول عليه السلام (وهذا المظهر دليل السمو الديني) . وإذا عظته جمل تناقض فيها كل كلمة ما بعدها ، إذ ينسب الرجل إلى غير أبيه ، ويلصقه بغير لقبه أو كنيته ، ثم يزيد خلطه ، فيمنف خطه في آخر مقالته ـ فحامل العرش ـ في واسع علمه ـ رجل ، هو كاتب الرسول ، وهو ختنه ، وعائشة ابنة الرسول (وهذا الخير دليل البله والعته) فتناقض المظهر مع المخبر ، وتضارب الكلمة مع سابقتها بهذه الكثرة وذلك التركيز ـ مبعث السخر ، وأس

---

١) أخبار الحمقى والمغفلين ، ابن الجوزي صفحة ١٨٢ المكتبة التجارية للطباعة والنشر والتوزيع بيروت .

الهزء والاستخفاف .

٢) (قال رجل : تزوجت امرأة مخزومية من عمها الحجاج بن الزبير الذى هدم الكعبة)(٢)

كيف تتزوج المرأة عمها ؟ وكيف يكون الحجاج الثقفى عمها وهى مخزومية ؟ وكيف يكون الحجاج ابن الزبير ؟ وهو ابن يوسف الثقفى ، وكيف ومتى هدم الكعبة ؟! هذا التناقض المركب ، يسوق الجهل المركب ، وذلك يجعلنا نسخر سخرا مركبا ، ونضحك ضحكا متواصلا .

٣) قال الجاحظ : (مررت بمعلم وقد كتب لغلام : وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا فقلت له ويحك ! قد أدخلت سورة فى سورة ؟ قال : نعم ، إن كان أبوه يدخل شهرا فى شهره فأنا أيضا أدخل سورة فى سورة ، فلا آخذ شيئا ولا ابنه يتعلم شيئا)(٣) .

والتناقض هنا ناشئ من إدخال سورة فى سورة ومزج آية بآية والسخر هنا ليس محضا البلاهة أو الخرف ، لأنه مقصود متعمد ، بل ناتج عن الذكاء والافتنان ، معاقبة للأب الذى يدخل الشهر فى الشهر ، فيكون الجزاء من جنس العمل ، وتتركز السخرية على الأب وقد نالته من جراء هذا الخلط ، وإدماج الآيات ، وقد ينال المعلم منها شئ ، لتحريفه الكلم عن مواضعه ، فى مقابل ثمن بخس دراهم معدودة احتجنها الأب دونه ، وهو رجل الدين ، وحارس المبادئ والقيم .

٤- (سئل رجل عن مولده ، فقال : ولدت رأس الهلال ، للنصف من رمضان بعد العيد بثلاثة أيام ، فاحسبوا الآن كيف شئتم)(٤) فكل جملة فى العبارة تناقض الأخرى ، ومن المحال

---

٢) البيان والتبيين : الجاحظ : تحقيق عبد السلام هارون الجزء الرابع صفحة ١٥

٣) أخبار الحمقى والمغفلين : ابن الجوزى صفحة ١٤٢ طبعة بيروت .

٤) البيان والتبيين : الجاحظ : الجزء الرابع صفحة ١٥ .

جمع النقيضين ، لذلك سخرنا من عقل المتكلم وتضارب جمله .

هـ (خرج أبو شيبان للحج ، فبكى أبناؤه حوله ، فقال ، لا تبكوا يابني ، فإني أريد أن أضحي عندكم)(٥).

و (دخل كريم السدوسي على بلال بن أبي بردة ، فدعاه إلى الغداء ، فقال ، قد أكلت ، قال ، وما أكلت ؟ قال ، قليل أرز فأكثرت منه)(٦).

٢ـ المفارقات

من الجوانب الفنية التي تحقق السخرية ، وتخلق جوا من التهكم والاستهزاء أن يجعل الشيء في غير مكانه ، ويوضع الأمر عكس موضعه ، فيبدو غريبا في مكانه الجديد نابيا عن موضعه الأصيل ، ولما كان المكان لا يناسبه ، والوضع لا يلائمه ، لا تسلم عليه ، أو ضيقه عنه ، أو تنافره معه ، انفسح المجال للسخريات ، وانفتحت الأفواه بالضحكات .

ومن الألوان التي اتخذها الجاحظ لمفارقاته ، وذخرت بها كتبه ، وسخرت منها مع لباقة فأشاعت الفكاهة والمرح :

أ ـ الجواب غير المتوقع ب ـ الدليل المضاد جـ ـ النتيجة المعكوسة .

د ـ اجتماع الضدين .

أ) الجواب غير المتوقع ، الذي لا ينتظره السامع ولا يخطر بباله ، لعدم احتمال الموقف له ، أو لغرابة منزعه ، أو لوجود ما يضاده . ومن أمثلة ذلك :

١ـ (تحول أبو عبد الله الكرخي اللحياني إلى الخريبة ، فادعى أنه فقيه ، وظن أن ذلك

---

٥) المرجع السابق صفحة ١٥٠ ، العقد الفريد الجزء الرابع ص ٢١٥ مطبعة مصطفى محمد سنة ١٣٥٤ هـ .

٦) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الثاني صفحة ٢٤٥ ، أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي طبعة بيروت صفحة ١٨٧ ، عيون الأخبار ج ٢ ص ٣٥ .

عجوز لطكان لحيته وسمته ، فألقى على باب دار البوارى ، وجلس كجلس إليه بعض الجيران ، فأتاه رجل ، فقال : يا أبا عبد الله ، رجل أدخل أصبعه فى أنفه فخرج عليها دم ، فأى شيء يصنع ؟ قال : يحتجم . قال : قعدت طبيبا أو قعدت فقيها ؟)(١).

وضع الكوخى نفسه فى غير مكانه ، وموه على الناس بلحيته وجميل رواته ، فلما سئل وأجاب ظهر سقطه ، وهوت مكانته كمثل سؤال الفقهاء فأجاب إجابة الأطباء ، والوضع السليم أن يجيب إجابة الفقهاء ، ليناسب المخبر المظهر ، ومنشأ السخر الإجابة غير المتوقعة ، لأنها لا تناسب الموقف ولا غرض السائل وقصده من سؤاله ولا هيئة المسئول وسمته وادعاءه ، وهذا التناقض ، وتلك المفارقة هى التى ولدت الاستهزاء ، وجعلت السائل يسخر منه قائلا : قعدت طبيبا أو قعدت فقيها ؟

٢ — (قال الجاحظ : كان يأتينى رجل فصيح من العجم ، قال : فقلت له : هذه الفصاحة وهذا البيان لو ادعيت فى قبيلة من العرب لكنت لا تنازع فيها . قال فأجابنى إلى ذلك ، فجعلت أحفظه نسبا حتى حفظه وهذه هذا ، فقلت له : الآن لا تنبه علينا ، فقال : سبحان الله ؟ إن فعلت ذلك فأنا إذن دعى)(٢).

ولم يكن الجاحظ يتوقع الجواب المذكور ، لأنه يعرف أن الرجل دعى فاه عليه أو لم ينسبه وأن الرجل يؤكد للجاحظ الذى اخترع له هذا النسب — أنه من تلك القبيلة العربية فعلا والسخر ناجم من الجواب الغريب الذى لا يتوقعه الجاحظ والذى يخفى الحقيقة عن من يعرفها حقيقته ونسبه الطارف والتالد ، بل لمن ابتدع له هذا النسب وأوجده ، وكذبه لو رد به عليه .

---

(١) الحيوان الجزء الثالث صفحة ٧ ، ٨ البيان والتبين الجزء الثانى صفحة ٢٢٢ ، عيون الأخبار ٢ ص ٥٤ .

(٢) معجم الأدباء ، ياقوت الجزء السادس عشر صفحة ٩٤ مطبوعات دار المأمون .

٣ـ (دعا بعض السلاطين مجنونين ليحركهما، فيضحك مما يجيء منهما، فلما أسمعاه وأسمعهما غضب، ودعا بالسيف، فقال أحدهما لصاحبه، كنا مجنونين فصرنا ثلاثة) (٣)

لم ينتظر السلطان أن تكون إجابة المجنون بهذه الحكمة، فيجتمع في المجنون خبال وفلسفة ولهذا بالسلطان مجنون والمجنون حكيم، وفي التضاد وقلب الوضع السخر والهزء والضحك والمرح والانشراح.

٤ـ (قال الجاحظ، رأيت بالعسكر امرأة طويلة القامة جداً ونحن على طعام، فأردت أن أمازحها، فقلت، انزلي حتى تأكلي معنا، قالت، وأنت فاصعد حتى ترى الدنيا) (٤)

٥ـ (سئل بعض المجان، كيف أنت في دينك؟ قال، أخرقه بالمعاصي، وأرقعه بالاستغفار) (٥)

٦ـ (كان رجل يقود أعمى بكراء، وكان الأعمى ربما عثر العثرة، ونكب النكبة فيقول، اللهم أبدل لي به قائداً خيراً منه! فقال القائد، اللهم أبدل لي به أعمى خيراً منه) (٦)

ب ـ الدليل المضاد، الذي يتخذ برهاناً للرد على ما يقال، وحجة مضادة لما يحدث، وهو في الوقت نفسه غير العلة الحقيقية، وغير الدليل المقنع الذي يسلكه العقل الواعي الجاد للبرهنة والاستدلال، وقد اتخذت ضديته الناحية الهزلية، فأشبه العلة في مظهرها والدليل في صورته، وابتعد عن جوهرهما في الإقناع والإفحام، ففيه ضديته لما يقال، وضديته للدليل الجاد، وإن كان يلبس لبوسهما، ويتزيى بزيهما، وذلك سر السخرية ونمو الاستهزاء، ومن أمثلة الجاحظ في ذلك،

أ ـ قال أبو الشمقمق، مروان بن محمد، في طعام جعفر بن أبي زهير،

---

٣) البيان والتبيين، الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون الجزء الثاني صفحة ٢٣١

٤) الأذكياء، ابن الجوزي صفحة ٢٦٢، عيون الأخبار ٢ ص٤٧

٥) الحيوان، الجاحظ، الجزء السادس صفحة ٥٠٦

٦) الحيوان، الجاحظ، الجزء الثالث صفحة ٣٠، ٣١

رأيت الخبز عز لديك حتى | حسبت الخبز في جو السحاب
وما روحتنا لتذب عنـــا | ولكن خفت مرزئة الذباب (٧)

فالعلة الحقيقية للترويح ذب الذباب خوفا من سقوطه على الطعام ، وانتقال القذارة العالقة بأرجله والجراثيم المنتشرة في جسمه إلى الطعام ، ولكن أبا الشمقمق صرف نظره عن هذه العلة وطواها ، وضرب عنها صفحا ، وذكر علة للذب مبتكرة ، وحجة للملح مخترعة قاصدا بها السخرية من البخل ، والتهكم بالشح فزعم أن جعفر بن أبى زهير إنما ذب خوفا من نقص الطعام بسلب الذباب بعضا منه ، والسخرية بهذه الطريقة أشد إيلاما ، وأقوى إيجاعا لنفس المتهكم به وأكثر سرورا ، وأعظم إضحاكا وإنعاشا للحضور والسامعين .

٢ـ (عرض الأسد لأهل قافلة ، فتبرع عليهم رجل ، فخرج إليه ، فلما رآه سقط وركبه الأسد فشدوا عليه بأجمعهم ، فتنحى الأسد ، فقالوا له : ما حالك ؟ قال : لا بأس ، ولكن الأسد .. في سراويلي) (٨)

أراد أن يوهم الحضور أنه بخيره وأن شيئا لم يحدث له ، وأنه جرىء مقدام ، يروع الأسود وخاف مغبة ذلك وعاقبته بعد ما رأوه وقد اتسخت ثيابه ، فعلل لهذا الاتساخ بعلة غير حقيقية وجعله دليل البسالة والشجاعة ، وهو في الحقيقة دليل الهلع والفرق ، الذى يزيل انضباط الأعضاء ، ويرخي الصمامات والعضلات ، هروبا من تأنيب الحاضرين وتخفيفا لألم النفس .

ففي الصورة تضاد ومفارقة ودليل مضاد وتصوير الأسد بصورة ساخرة ، كما أن فيها سخرية بعقول أهل القافلة ، وجرهم إلى اعتقاد ما ليس حقيقيا وسخرية بالرجل إذ ظن منطقية علته ، ووضوح حجته .

---

٧) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، شرح العوامرى والجارم ص ١٣٢ وتحقيق طه الحاجرى ص ٧٢ ، ٧٣

٨) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق هارون ج ٤ ص ٧ ، وتحقيق السندوبي ج ٣ ص ٢١٥ ، ٢١٦ ومثله في أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي ص ١٦٨ .

٣ـ (حدثني جعفر ابن أخت واصل قال : قلت لأبي عيينة : قد أحسن الذي سأل امرأته عن اللحم فقالت : أكله السنور فوزن السنور ، ثم قال : هذا اللحم ، فأين السنور ؟ قال : قاتلك تعرضين ؟)(٩)

أكل السنور اللحم فإذا وزنا السنور وضعنا في الكفة الثانية وزنه السابق مع وزن اللحم حتى يتساويان ، ولكن الرجل حين وضع وزن اللحم في الكفة تعادل مع وزن السنور فقال مقالته الساخرة ، فهو يسخر من امرأته إذ ظهر كذبها في نظره لذلك قلب العبارة قائلا هذا اللحم ، ولم يقل هذا السنور ، ونحن نسخر منه فإن ما يؤكل يهضم ويخرج بعيدا عن البدن ، فلا يزيد وزن القط بمقداره كما اعتقد وإلا لصار السنور في حجم الأسد والنمر ، بل في حجم الفيل أو أثقل ، على مقدار ما أكل فكلام الرجل صورة لدليل ، وخدعة لحجة وتهكم بامرأته ، وسخر من عقلها وهو في الوقت نفسه سخر من الرجل وتفكيره لأنه أحس بالدليل الذي يحمل في جوفه أمارة بطلانه .

٤ـ (يقول المروزي : لولا أنني أبني مدينة لبنيت آريا لدابتي)(١٠)

جـ ـ النتيجة المعكوسة : يحدث التضاد ، وتتولد المفارقة ، وتنشأ المفاجأة ، من حدوث غير المتوقع ، ومن الجديد المبذول ، والتجربة المعنى بها ، المبالغ في انتقاء عناصرها ، تتبعها النتيجة الفاشلة ، التي تقلب الأمل المطلوب ويذهب بالتعب والكد أدراج الرياح ، وتأتي بالخاتمة كأعنف ما تكون ، وعلى عكس ما يرتجى ، وضد العادة والعرف بل قد تحدث النتيجة المؤملة إذا لم يوجد انتقاء ، ولم يبالغ في الاحتراس ، وتركت الأمور تجري كما شاءت لها المقادير ، وهذا ما يضاعف السخر ، ويوقد أتون الهزء ، ومن ذلك ما ذكره الجاحظ في قوله :

---

٩) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق العوامري والجارم الجزء الثاني صفحة ٧٦

١٠) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجري صفحة ٢٧ .

١ـ (إنه اشترى جارية تركية جميلة ـ رجاء أن يرزق منها ولدا يكون بحسنها وذكائه فولدت له ولدا جاء بقبحه وجهلها)[11].

وفى هذه النادرة تضاد ومفارقة ونتيجة معكوسه فقد اختار الجاحظ الجارية تركية جميلة ولكنها جاهلة طمعا أن يرث ابنهما جمالها ، وكان هو ذكيا ولكن قبيح الصورة فطمع أن يرث ابنه ذكاءه ، فإذا النتيجة جمع الغلام للعيبين ، وحيازته النقيصتين وفى ذلك سخريـــة بالجاحظ لحدوث غيرما ينتظر ، وضد ما يشتهى .

٢ـ (ورأيت أنا رجلا عيونا يدعى عليه بقول قال : إذا رأيت الشىء يعجبنى وجدت حرارة تخرج من عينى . وقال وسمع بقرة تحلب فأعجبه صوت شخبها فقال : أيتهن هذه ؟ فخافوا عينه ، فقالوا : الفلانية الأخرى وروا عنها ـ فهلكتا جميعا المورى بها ، والمورى عنها)[12].

والجانب الفنى الذى جعلنا نسخر أن النتيجة عكست بل صحت فنحن نسخر من الرجل المعين ، وسخرنا يشتد إن كانت عينه لا تخيب ، وسخرنا المتزايد فى هذه النادرة لهذا ولأن الحيطة لم تجد ، والتورية لم تفد ، بل أتت بنتيجة عكسية مع حدوث النتيجة المعتادة فهلكت البقرتان معا وحدث خلاف ما ينتظر مع ما ينتظر .

٣ـ (كان عندنا رجل أحدب ، فسقط فى بئر ، فذهبت حدبته وصار آدر ، فقيل له ، كيف تجدك ؟ قال : الذى جاء شر من الذى ذهب)[13].

د ـ اجتماع الضدين : وقد تنشأ المفارقات من اجتماع الضدين ، ووضعهما بإزاء بعضهما ومقارنة كل منهما بالآخر ، فيتضح قدر كل منهما ، ويظهر مدى عوار أحدهما إذا قيس بالآخر ومدى كمال الثانى إذا وزن بالأول ، أو يذكر الرجل لنفسه صفة تناقض إحدى صفاته المعترف

---

(11) أمراء البيان ، محمد كرد على الجزء الثانى صفحة ٤٥٨

(12) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الثانى صفحة ١٤٢ تحقيق هارون ط ١٩٦٥ .

(13) الحيوان ، الجاحظ ، ج ١ ص ١٧٧ ، ج ص ٩ ، جمع الجواهر ، للحصرى صفحة ١٩٩ .

بها ، والمشهورة عنه ، ويدعي اجتماعها معانيه . ووضع الضدين في إطار واحد وأن لبوسهما شخصية واحدة ، أحد أسنة اللهب المندلعة النابعة حتماً من السخر المستغرق التي يولدها التضاد ، وتذكيها المفارقة ، وقد عرف الجاحظ لها لذعها فذكرها في كتبه ومنها :

٣ـ (إن عمر بن أبي ربيعة إنما سمي باسم عمر بن الخطاب ، وأنه ليلة ولد مات عمر ، فلما كان بعد ذلك ذكروا فساد هذا وصلاح ذلك ، فقالوا : أي باطل وضع وأي حق رفع) (١٤)

فالاسم عمر مسميان ، أحدهما فاسق سيء الخلق يميل مع الباطل ، والثاني صالح طيب الخلق يرفع لواء الحق ، فاجتمعا معاً — وهما المتضادان — في الاسم الواحد عمر ، كما اجتمع له وضع ورفع في وقت واحد . والضدان لا يجتمعان ولا يرتفعان ، كما يقول المناطقة ، فاجتماعهما وارتفاعهما هنا أمارة السخر ورمز الهزء ، إذ التضاد ليس على حقيقته لأنهما شخصان وليسا صفتين ، وإلا لكان الكلام خارجاً عن حدود العقل .

٤ـ (كان إبراهيم بن هانيء (١٥) يدعي بحضرة أبي إسحاق علم الحساب ، والكلام والهندسة ، واللحون ، وأنه يقول الشعر . فقال أبو إسحاق : نحن لم نمتحنك في هذه الأمور ، فلك أن تدعيها عندنا ، فكيف صرت تدعي قول الشعر ، وأنت إذا رويت لغيرك كسرته ؟ قال : فإني هكذا طبعت ، أن أقيمه إذا قلت وأكسره إذا أنشدت . قال أبو إسحاق : ما بعد هذا الكلام كلام !) (١٦)

---

(١٤) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الثاني صفحة ٨٤ ، والبيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الثاني ص ١١ تحقيق هارون ط ٣ سنة ١٩٦٨

(١٥) كان ماجناً خليعاً وكثير العبث متمرداً ، كما ذكر الجاحظ عنه في البيان والتبيين ج ١ ص ٩٣ تحقيق هارون .

(١٦) الحيوان الجزء الثالث صفحة ١١ .

يبالغ ابن هانئ في سعة معرفته ، ويدعي تحصيل الحديد من صنوف العلم والشعر ، ولكن أبا اسحاق الذي يعرف كذبه ومبالغته ينقض كلامه سخرية منه بأنه يكسر الشعر إذا رواه فكيف يمكنه قوله ابتداء ؟ ويجيبه ابن هانئ مستمرا في ادعائه أثناءها يشبه الحجة ، يروغ بها من قبضة أبي إسحاق : أن طبعه أن يقوله موزونا ويرويه مكسورا ، وتلك سفسطة وتناقض ، وحركات مشوائية لفأر في مصيدة ، وجمع للضدين فإن من لا ينجح في سلامة إنشاده يتعسر عليه أن ينجح في سلامة إنشائه ، وهنا يكر أبو إسحاق بسخرية أخرى على طريقة التضاد وذكر الشيء والمراد نقيضه ، فيقول : ما بعد هذا الكلام كلام .

٣ـ (رأيت أربعة أشياء لم أرمثلهن : رأيت سائلا يسأل في الحمام ، ويأخذ مواعيد من فيه إلى أن يخرجوا ، ورأيت معلما يعلم الصبيان القرآن والصبا يا الفقاء ، ورأيت حجاما بالكوفة يحجم بنسيئة إلى الرجعة (١٧) لشدة إيمانه بها ، ورأيت حمالين يحملون جنازة كلما أعيوا وضعوا من رؤوسهم إلى أن بلغوا شفير القبر) (١٨) .

٠٠ ٠٠ ٠٠

٣ـ القياس الفاسد :

ومن الجوانب الفنية التي تحقق السخر ، وتعطي اللمسات المزلية المبدعة ، وتدخل في النفس المرح والمتعة أن يقيس المتكلم قياسا فاسدا ، لضعف في عقليته ، أو لجهل بمبادئ المنطق والقياس ، أو لعدم انتباهه ، أو لوقوعه في خدعة ، ويكون السخر أرقى وأنكى إذا كان عارفا متنبها ، ولكنه هدف إلى العبث بعقل محدثه ، واللعب بتفكيره ، ورغب

---

١٧) الرجعة عقيدة قوم يقولون بأن الإنسان بعد وفاته لابد عائد إلى هذه الدار ، طال الزمان أو قصر ، وكان السيد الحميري الشاعر ممن يقول بهذا القول فجاءه رجل يسأله أن يقرضه مائة دينار على أن يردها عليه بعد الرجعة فقال السيد : ومن يضمن لي أنك لن تعود حمارا ؟

١٨) أمراء البيان الجزء الثاني صفحة ٤٨٤ .

فى إقناعه بالبرهان الفاسد ، وبالجدل الساقط ، وهو يدعى صلاحهما ، ووضوحهما بالدليل ليهرب من مأزق ، ويخرج من ضيق ، وقد يؤمن المخاطب بحجته ، ويقع فى حبالته ، أو يسايره ويجاريه لأنه أكثر منه ذكاء ، طمعا فى كشف ما عنده ، وتقشكوا من نفسه ، ليتضاعف سخره ويزيد مرحه . ومن تلك الجوانب فى أدب الجاحظ :

١ـ (قال عباس بن القاسم لأبى عبد الملك الذى كان يقال له عناق ، بأى شئ تزعمون أن أبا على الأسوارى أفضل من سلام أبى المنذر ـ من أصحاب القراءات فى السبق ـ ؟ قال : لأنه لما مات سلام أبو المنذر ذهب أبو على فى جنازته ، فلما مات أبو على لم يذهب سلام فى جنازته)(١).

قاس عناق الغائب على الحاضر ، والعاجز على القادر ، والميت على الحى وذلك قياس فاسد واضح البطلان ، وإن بدا فى صورة القياس الصحيح الذى ينتج الحجة المقنعة ، والدليل الرائع ، فرأى الفضل للأسوارى حيث قدم مكرمة ويدًا لسلام ولم يقابل سلام مكرمته بمكرمة مثلها ، ولا رد له ما يوازى جميله ـ وهذا حدث فعلا ـ فحق للأسوارى الفضل ، وكأن عناق يشترط لكى يكون سلام فاضلا كالأسوارى أن يقوم من قبره فيشيع جنازة الأسوارى كما شيع هو جنازته حتى لا تكون له زيادة فضل ، ويكون تشييعا فى مقابل تشييع . وهذا القياس الفاسد المموه بطلاء الصحة ، هو الذى يبعث فينا السخر ، ويميل بنا إلى الضحك .

٢ـ (روى أن أعرابيا اشتد به البرد ، فأصاب نارا ، فدنا منها ، يصطلى بها وهو يقول اللهم لا تحرمنيها فى الدنيا ولا فى الآخرة)(٢) .

أدفأت النار جسمه المقرور ، وأحس بالانتعاش ، فانفرجت أساريره ، وشكر الله على

---

١) البيان والتبيين : الجاحظ ، الجزء الثانى صفحة ٢٢٤ هارون ، ومثله فى أخبار الحمقى والمغفلين ص ١٨٢ ، ١٨٣ ، وفى العقد الفريد ج ٤ ص ٢١٥ ط سنة ١٣٥٤ هـ

٢) كتاب الحيوان : الجاحظ ، الجزء الرابع صفحة ٤٨٥

نعمة النار ، فطلب منه ألا يحرمه منها ، ولكنه قاس الآخرة على الدنيا فظن النار في الآخرة نعمة ، فطلب من الله ألا يحرمه منها في الآخرة أيضا ، وذلك دعاء عليه ، صرفه عن الانتباه إلى خطر القياس الفاسد حين شعر بلذة الدفء ، والمدفوع من انقباضات البرد ، وارتياح النفس والجسم .

٣ـ (وحدثني أبان بن عثمان ، قال ابن أبي ليلى : إني لأساير رجلا من وجوه أهل الشام إذ مر بجمال معه رمان ، فتناول منه رمانة ، فجعلها في كمه ، فعجبت من ذلك ، ثم رجعت إلى نفسي ، وكذبت بصري ، حتى مر بسائل فقير ، فأخرجها ، فناوله إياها ، قال : فعلمت أني رأيتها فقلت له : رأيتك قد فعلت عجبا . قال : وما هو ؟ قلت : رأيتك أخذت رمانة من جمال فأعطيتها سائلا . قال : وإنك ممن يقول هذا القول ؟ أما علمت أني أخذتها وكانت سيئة ، وأعطيتها فكانت عشر حسنات ؟ قال : فقال ابن أبي ليلى : أما علمت أنك أخذتها فكانت سيئة ، وأعطيتها فلم تقبل منك ؟) (٣)

عجب ابن أبي ليلى من الوجيه لسرقته رمانة ، وهي تافهة حقيرة بالنسبة لأنه المؤلفة ، ووجاهته المعروفة ، فكان بذلك محطا للسخر ، إلا أن ابن أبي ليلى كذب بصره لعدم التناسب عقلا وعرفا بين وجاهة الرجل وسرقته الرمانة ، فلما رآه يعطيها للفقير علم أنه أخذها ، فحدثه في ذلك منكرا ساخرا ، وسر سخره ، التضاد بين سرقته وتصدقه ، ولكن الوجيه عد تفكيرا بن أبي ليلى سقيما ، فسخر منه قائلا له : وإنك ممن يقول هذا القول ؟ ثم أوضح الحجة والبرهان ، وأتى بالقياس والدليل ، لبيان صحة ما فعل ، وفضل ما أقدم عليه ، وأنه لم يفعل ذلك إلا لذكائه وفطنته ، وللتقرب إلى الله حتى تضاعف حسناته فسرقة الرمانة سيئة ، والتصدق بها عشر حسنات ، ولكن ابن أبي ليلى رد عليه سخره ودفع حجته بحجة أقوى منها نهضت لها فهدمتها ، وصيرت الرجل هزأة في تفكيره ومقاله

٣) كتاب الحيوان : الجاحظ ، الجزء الثالث صفحة ١٧ تحقيق عبد السلام محمد هارون ط٣

وفعاله ، لا يستطيع بعد ذلك أن يجاول أو يحاور فقد كشف النقاب عن ما في غافل فاسد القياس منقوضاً لدليل .

٤ـ (سرقت نعل عامر بن عبدالله الزبيري ، فلم يتخذ نعلا حتى مات ، وقال ، أكره أن أتخذ نعلا ، فلعل رجلا يسرقها فيأثم) (٤) .

لم يشأ عامر أن يتخذ نعلا ، وأراد أن يعلل لذلك ، وأن يأتي بالأدلة والبراهين على صحة ما ذهب إليه فذكر علة فاسدة ، وقياسا خاطئا فذكر أن العلة تقواه وورعه ، وخشية أن يعاقب الناس بسببه ، وأن يكون هو الوسيلة إلى تشجيعهم على السرقة وارتكاب الآثم ، فامتنع عن شراء نعل وتحمل في ذلك المشاق إرضاء لله ونشرا للفضيلة بين الناس والعلة الفاسدة والقياس الفاسد هما سبب السخر ومحور الهزء والضحك .

---

٤) البيان والتبين ، الجاحظ ، الجزء الثاني صفحة ٣٤٩ تحقيق هارون ط ٢

الفصل الرابع

سخرية الحركة

الحركة في بطئها وثقلها ، وسرعتها وخفتها ، داعية السخر، ورسول الاستهزاء، إن خرجت عن المألوف ، وجازت المتعارف ، وكذلك هي إن كثرت وتتابعت ، أو طاشت وانعدم جدواهما ، وينمو السخر منها ، ويتضاعف الهزء بها إذا صدرت من الزميت الركين ، أو الرصين الرزين ، أو سددت إلى من عرف أنها موجهة إليه فتجاهلها ، أو أعطى استجابة مضادة لما تثيره ، أو فهمها على عكس وضعها ، وهي كذلك في شدتها وعنفوانها إن رمز بها صاحبها إلى خلاف مفهومها .

والحركة كما تكون موضوع السخر ، وداعيته ومحركته ، تكون رمزه وأمارته ولدليله ولفظته كالغمز بالمهماز ، أو تحريك الحاجبين أو مط الشفتين ، أو الإشارة بالأصابع ، أو إخراج اللسان أو غير ذلك من سائر الحركات التي تعبر من السخر ، وتفصح عنه . والسخرية في أدب الجاحظ تشمل كل ذلك - على ما ذكرت في أول الرسالة (1) - بيد أن الحركة التي تفيد السخر وتعبر عنه قليلة في أدب الجاحظ بل نادرة ، لذلاقة لسانه ، وسطوع برهانه ، وعزة بيانه . فالكلمة في لسانه ، أخف وأسرع من الحركة في عضلاته ، وأفصح أداء ، وأقوى تعبيرا ، وهو الجسور المقدام ، الذي يفصح بالكلمة ، ولا يماري أو يداري أو يداهن بالإشارة ، وهو رب الكلمة الساخرة وشيخ العبارة الهازئة ، يقولها ويرويها ، فتميت السخرة بالبكاء وتحيي الحضور بالضحك والكركرة .

والحركة كما تكون جسمية عضوية تبعثنا على السخر ، تكون نفسية أو عقلية ، كحالات التردد والقلق ، والاضطراب النفسي والعقلي بأنواعه ، فتنحو بنا جهة التهكم والهزء .

وقد كان الجاحظ النقريس ، الثاقب النظرة ، يستشف حركات النفوس ، وخلجات القلوب وشبهات العقول ، ويعرف ما يضطرم فيها ، ويضطرب داخلها ، كما يرى الحركات الجسمية ،

---

(1) الفصل الأول من الباب الأول - السخرية عند الأدباء .

بالإشارات المفعلة ، فيفهم مرماها الماخر ، ويلمح مغزاها النازل ، أو يدرك خروجها ومروقها ، فيسخر منها ، ويتهكم بها ، ولو وجدت فيه ، أو حدثت له ، وهو فى ذلك ينتقص الحركات الغوية النادرة ، أو الكثيرة المتلاحقة ، أو الموجهة من صغير حقير إلى عظيم خطير ، لا يستطيع دفعها ، ولا يملك إبطالها ، فيسكبها فى اللفظ المعبر ويسبكها فى العبارة الآسرة ، وينشئ منها القصة متلاحمة الأجزاء ، متشابكة النسج ، فتستهويها النفوس ، وتهش الأفئدة ، وتنقاد الألباب ولا تملك مع كل حركة إلا سخرا ، وقهقهة وضحكا ، لا تستطيع كبح جماحه أو إخفات نبرته .

ولنستمع إلى شيخنا الجاحظ يعرض علينا عبد الله بن سوار الرصين الركين وقد انقلب حاله لكثرة حركاته وطاشت شمراته ، وبلّد الهزء به التافه الحقير ، فلم يستطع دفعه وهو المعظم الخطير ، يقول :

(كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوار ، لم ير الناس حاكما قط ولا زميتا ولا ركينا ولا وقورا حليما ، ضبط من نفسه ، وملك من حركته ، مثل الذى ضبط وملك ،

كان يصلى الغداة فى منزله ، وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتى مجلسه ، فيحتبى ولا يتكئ ، فلا يزال منتصبا لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ، ولا يحل حبوته ، ولا يحول رجلا عن رجل ، ولا يعتمد على أحد شقيه ، حتى كأنه بناء مبنى أو صخرة منصوبة ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ، ثم يعود إلى مجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى العصر ، ثم يرجع لمجلسه فلا يزال كذلك ، حتى يقوم لصلاة المغرب ، ثم ربما عاد إلى محله ، بل كثيرا ما كان يكون ذلك إذا بقى عليه من قراءة العهود والشروط والوثائق ، ثم يصلى العشاء الأخيرة وينصرف ،

فالحق يقال لم يقم فى طول تلك المدة والولاية مرة واحدة إلى الوضوء ، ولا احتاج إليه ، ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب ،

كذلك كان شأنه فى طوال الأيام وفى قصارها ، وفى صيفها وفى شتائها ، وكان مع ذلك لا يحرك يده ، ولا يشير برأسه ، وليس إلا أن يتكلم ثم يوجز ، ويبلغ بالكلام اليسير المعانى

الكبير :

فبينا هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواليه ، وفى السماطين بين يديه ، إذ سقط على أنفه ذباب ، فأطال المكث ، ثم تحول إلى مؤق عينه ، فرام الصبر فى سقوطه على المؤق ، وعلى عضه ونفاذ خرطومه ، كما رام الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرك أرنبته أو يغضن وجهه أو يذب بأصبعه .. فلما طال عليه ذلك من الذباب وشغله وأوجعه وأحرقه وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل ، أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل ، فلم ينهض ، فدعاه ذلك إلى أن والى بين الإطباق والفتح ، فتنحى ريثما سكن جفنه ، ثم عاد إلى مؤقه بأشد من مرته الأولى ، فغمس خرطومه فى مكان كان قد أوهاه قبل ذلك ، فكان احتماله له أضعف ، وعجزه عن الصبر فى الثانيه أقوى ، فحرك أجفانه ، وزاد فى شدة الحركة ، وفى فتح العين ، وفى تتابع الفتح والإطباق ، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، فما زال يلح عليه حتى استفرغ صبره ، وبلغ مجهوده ، فلم يجد بدا من أن يذب عن عينيه بيده ، ففعل ، وعيون القوم إليه ترمقه ، وكأنهم لا يرونه ، فتنحى عنه بقدر ما رد يده ، وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، ثم ألجأه إلى أن ذب عن وجهه بطرف كمه ، ثم ألجأه إلى أن تابع بين ذلك ، وعلم أن فعله كله بعين من حضره من أمنائه وجلسائه .

فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب ألح من الخنفساء ، وأزهى من الغراب ، وأستغفر الله ، فما أكثر من أعجبه نفسه ، فأراد الله عز وجل أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستورا ، وقد علمت أنى عند الناس من أزمت الناس ، فقد غلبنى وفضحنى أضعف خلقه ثم تلا قوله تعالى : " وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب"(٢)

فقد تناول الجاحظ ابن سوار القاضى فصوره لنا زميتا ركينا متصلبا ، لا يتحرك ولا يشعر ولو استطاع أن يمنع نفسه من الخروج لمنعه ، كأنه تمثال حجرى ، أو صورة معلقة على جدار والجمود والتصلب مثار للسخر ، وموضوع للهزء ، ولكن التهكم به يزداد ، والسخرية منه تعنف ، حين يلح

---

٢) الحيوان : الجاحظ : الجزء الثالث صفحة ٣٤٣ تحقيق عبد السلام محمد هارون وطبعة حا

عليه الذباب الذى يتلطف به ويلين ، ويقلل حركته أولا ثم يعنف ويشتد تدريجيا حتى يصل إلى قمة عنفه ، وإيذائه ابن سوار ، ويغمس خرطومه فى مؤق عينه ، وابن سوار يتركه أولا لتفاهة ضرره ، ولكنه لا يصبر على ضرره الجسيم ، ولجاجه السخيف ، فيحرك عينيه تحريكا خفيفا ، ثم شديدا ، ثم متتابعا ، وأخيرا يذبه بيده ، ويكمه ، ثم يكرر ذلك ، وهو الساكن الزميت ، والرصين الركين ، ومما يزيد السخر لذعا ، أن الجميع يرقبونه ، وهو قاضى القوم ، وصاحب المكانة فى الدولة ، والمشهور بالرزانة والرزانة ، وليس لتلك الحادثة سابقة عنده ، فيخفون معرفتهم ، ويظهرون جهلهم ، ولكنه يلحظ انكشاف أمره ، وهتك ستره ، فيعتذر من ذلك وتزداد السخرية حين يعتذر عما فعل ، وكأنه أتى أمرا إدا ، وذنبا لا كفارة له ، فيقول : أشهد أن الذباب ألج من الخنفساء ، وأزهى من الغراب ، ثم يعترف بتوبته ، وشهرته بذلك بين الناس ، ويقر بعجزه وهو القاضى المهيب ، أمام الذباب التافه الضئيل ، ولنا مع كل حركة من الذباب ضحكة ، ومع كل حركة من القاضى سخرية ، وقد عد الجاحظ آذاق السخريات ، وأفسح وأكثر الحركات ، وتناولها من جميع الجهات بالتقصى والتدقيق ، يتابع الأحداث ، ويسلسل الحركات ، ويتسق الجزئيات حتى يصل إلى العقدة ثم الحل وكأنها مسرحية هازله ، أو رواية ساخرة رغم قصر الزمن وضيق فترة العرض ، وفى ذلك شاهد على براعته ، وجودة صياغته ، وبديع حبكته لقصصه ورواياته ولنمض مع الذباب مرة ثانية ، وليبق الجاحظ معه كذلك ، ولتكن الحادثة وقعت له ، وجرت فصولها معه وليكن هو موضوع السخر وباعثه ، وموجده ، ومنشئه ، وراويه وكاتبه :

يقول : (فأما الذى أصابنى أنا من الذبان ، فإنى خرجت أمشى من عند ابن المبارك ، أريد دهر الموبح ، ولم أقدر على دابة ، فمررت فى عشب ونبات ملتف ، كثير الذبان ، فسقط ذباب من ذلك الذبان على أنفى فطردته ، فتحول إلى عينى ، فزدت فى تحريك يدى ، فتنحى فتى بقدر شدة حركتى وذبى عن عينى — ولذبان الكلأ والغياض والرياض وقع ليس لغيرها — ثم عاد إلى ، فعدت إليه ، ثم عاد ، فعدت بأشد من ذلك ، فلما عاد استعملت كمى ، فذببت به عن وجهى ، ثم عاد ، وأنا فى ذلك أحث السير ، آمل بسرعتى انقطاعه عنى ، فلما عاد نزعت

طيلساني من عنقي ، فذهبت به عني يدل كمي ، فقلما عاود ، ولم أجد له حيلة ، استعملت العدو ، فعدوت منه شوطا لم أتكلفه مذ كنت صبيا ، فتلقاني الأندلسي ، فقال لي : " مالك يا أبا عثمان ؟ هل من حادثة ؟ " قلت : " نعم أريد أن أخرج من موضع للذبان على فيه سلطان " ، فضحك حتى جلس وانقطع عني ، وما صدقت بانقطاعه عني حتى تباعد جدا) (٣)

يسخر الجاحظ من نفسه وما حدث له ، ولطالما فعل ذلك ، وسخرية الشخص بنفسه دليل المرح والبساطة ، وعدم التعقيد أو التزمت ، والابتعاد من قيود المظاهر والتقاليد ، وهي في الوقت ذاته برهان الثقة بالنفس ، والاعتراف بالكفاءة ، وأمارة السمو ، والارتفاع فوق مستوى الأحداث ، وما تخاف الناس أصدقاء وأعداءا ، ينفض إليهم مكنون نفسه ، ويبوح لهم بنقائصه ، ويدخل على نفوسهم المرح والابتهاج ، وتلك سمات الجاحظ الذي نراه في القصة يسخر من حركاته وهياجه وانفعاله ، وفقده السيطرة على عدوه لتسلط الذباب عليه ، وعدم إمكانية الهرب منه ، أو البعد عن متناوله ، وأساس السخر هنا وسره ، وجوانبه الفنية التي خلقته ونمته : تغلب الحركات الضعيفة الرقيقة من التافه الذي لا عقل له ، على الحركات القوية المنوفية من العظيم الذكي ، ثم تتابع الحركات وتدرجها من الخفة إلى العنف ، ومن البطء إلى السرعة دون جدوى ، وسيطرة الذبان على الجاحظ وامتلاكه أمره ، وتصرفه فيه كما يهوى ، وكأن الذبان هو الآمر الناهي ، ثم استتباع حركة الجاحظ حركة الذبان خفة وشدة ، وبطئا وسرعة ، ثم تنوع الحركات حسب شدة الموقف .

يقف الذباب على الأنف أولا ، فيطرده برفق ، ثم يتحول إلى العين ، فتزداد حركة اليد الطاردة ، ثم يعود الذباب للوقوع على عين الجاحظ ، فيعود الجاحظ للذب ، ثم يلح الذباب فيعنف الجاحظ ، ثم يزداد عنفه ، ولم تعد اليد كافية في طرده ، فيستعمل كمه ولكن الذباب يزيد إلحاحه ، فيزيد الجاحظ عنفا في الذب ، واستعمالا لأداة أكثر فاعلية من اليد والكم ، فينزع طيلسانه يذب به ويسرع الخطا ، ويفقد السيطرة ، ولكن الذباب يلاحقه ، ويلحقه

٣) الحيوان : الجاحظ : الجزء الثالث صفحة ٣٤٦ تحقيق عبد السلام محمد هارون وما بعدها

فيجرى الجاحظ ، ويشتد عدوه ، ويقطع المسافة الشاسعة عاديا كما لم يفعل مذ شبابه ، وكأن ثمرا يطلبه ، أو أفعى تنساب نحوه لتنهشه ، الى أن يتلقاه الأندلسى منكرا حالته جازعا من هيئته التى لا يدرى مأتاها ، وان كان يعلم مدى يشاهدها ، من جرى الجاحظ ، واضطراب حركته ، ونزعة طيلسانه وسوء حالته . فلما أخبره الجاحظ أن الذبان هو المطارد ، سخر به ، وضحك منه ، وازداد ضحكه وقوى ، فاهتز جسمه ، وارتجت أعضاؤه ، واختلت مفاصله ، حتى عجزت عن حمله ، فترنح فجلس يوالى الضحك ، ويتابع السخر ، والجاحظ لشدة هلعه ، ذاهل عما حوله ، وما آل إليه أمره ، يعدو ويعدو ، رغم انقطاع الذبان عنه ، ولم يصدق بانقطاعه حتى تباعد جدا .

ومثل تلك السخرية ما ذكره الجاحظ عن العراقى مع المروزى ، وقد والى العراقى حركاته وتابع طرق الافصاح عن نفسه ، فضاعت محاولاته ، وإن كانت الحركات هنا تمتاز عنها فى السخريتين السابقتين بأنها صادرة من آدمى إلى آدمى فإن لم تتلق الاستجابة التى يتطلبها العقل أو لم تتلق استجابة أصلا ، تضاعف السخر ، وعلا صوت الضحك . يقول الجاحظ : (ومن الأعاجيب أهل مرو ما سمعناه من مشايخنا على وجه الدهر ، وذلك أن رجلا من أهل مرو كان لا يزال يحج ويتجر ، وينزل على رجل من أهل العراق ، فيكرمه ويكفيه مؤونته ، ثم كان كثيرا ما يقول لذلك العراقى : ليت أنى قد رأيتك بمرو ، حتى أكافئك لقديم إحسانك ، وما تجدده لى من البر فى كل قدمة ، فأما ههنا فقد أغناك الله عنى .

قال : فعرضت لذلك العراقى بعد دهر طويل حاجة فى تلك الناحية ، فكان مما هون عليه مكابدة السفر ، ووحشة الاغتراب ، مكان المروزى هناك ، فلما قدم ، مضى نحوه فى ثياب سفره ، وفى عمامة وقلنسوته وكسائه ، ليحط رحله عنده ، كما يصنع الرجل بثقته وموضع أنسه .

فلما وجده قاعدًا فى أصحابه ، أكب عليه وعانقه ، فلم يره أثبته ، ولا سأل به سؤال من رآه قط . قال العراقى فى نفسه : لعل إنكاره إياى لمكان القناع . فرمى بقناعه وابتدأ

مسألته ، فكان له أنكر ، فقال ، لعله أن يكون إنما أتى من قبل العمامة ، فنزعها ، ثم انتسب ، وجدد مسألته ، فوجده أشد ما كان إنكارا . قال ، فلعله إنما أتى من قبل القلنسوة .

وعلم المروزى أنه لم يبق شيء يتعلق به المتغافل والمتجاهل ، قال ، لو خرجت من جلدك لم أعرفك)(٤)

أكرم العراقى المروزى ، وجدد له الإكرام فى كل قدمة ، حتى صار كما يبدو للعراقى وللفارسى خلصانه وأصفيائه ثم اعترف المروزى بالإكرام ، وأظهر الخجل من تعداد الضيافة والمبالغة فى إكرامه ، وتمنى أن يرد بعض هذه الأيادى للعراقى إن حقق حلمه بزيارته فى منزله ، وابتسم الحظ ، وقرب تحقيق الأمل ، فقد عرضت للعراقى حاجة جهة المروزى ، ففرحت نفسه لأنه سيلتقى بصديقه ، ولما قابله فى أصحابه أكب عليه وعانقه ، فما وجده تحرك له ولا استجاب لعناقه ولا أثبته ، ولا سأل به سؤال من رآه قط ، فطاشت حركته وضاع مناقشة وأحرج على الملأ ، ولكن العراقى يعرف منزلته من المروزى ، ومكانته فى قلبه ، وسابق فضله عليه فيعتقد تمنى المروزى رؤيته ، وحبه استضافته — كما ذكر له بالعراق ، فظن أنه ما عرفه لقناعه ، فنزع القناع ورماه ، وابتدأ مسألته ، فكان الإنكار الثانى مرة أشد ، ولم تفد حركته برميه قناعه ، وظن — لحبه المروزى ومتين صداقته به وسبق إنعامه عليه — أنه لا يزال به جاهلا ، فنزع عمامته ، فوجده أشد إنكارا له ، فطاشت الحركة مرة أخرى ، وفوتها عليه المروزى ، فظن أن القلنسوة ربما كانت سبب خفائه ومانع ظهور ملامحه ، فهم بها ، ولكن المروزى علم أن تغافله وتجاهله قد نضب ، وأن الرجل قد اتضحت قسماته ، فلم يعد يخفى على من يعرفه ، ولم يبق هناك شيء يتعلق به فى إنكاره له ، فجابهه ، بأنه لو خلع

---

٤) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، ضبط العوامرى والجارم الجزء الأول صفحة ٥٣ ، ٥٤ ، ص ٢٢ تحقيق الحاجرى .

كل ما يلبسه لما أجداه ، وحتى لو خلع جلده لما جنى فائدة ، لأنه مصر على إنكاره له .

ومن كثرة الحركات وتواليها ، وتقلب المراقى ، وخلعه ملابسه قطعة إثر قطعة ، دون تحقيق نتيجة . ومن تجاهل المروزى ، وادعائه الغفلة رغم مبالغة المراقى فى إطعامه وإيوائه وإكرامه ، وتكرار ذلك منه مرات عديدة حتى انعقدت صداقة ظنها وطيدة . ومن التضاد بين موقفى المروزى من صاحبه عند زيارته المراق ، وعند زيارة المراقى له . ومن الأمانى المعسولة التى تمناها المروزى ، وعدم العمل بموجبها عندما تحققت .

من ذلك كله يخضر عود السخر ، وتنضر أوراقه ، وتسمق شجرته ، وتتفتح أزهارها لتعطى شطرا شهية ، محببة إلى القلوب ، تسر النفوس ، وتضحك العبوس .

وإليك سخرية أخرى عمادها الحركة الجسمية المتولدة عن الحركة النفسية ، تثيرها حركات عقل البخيل ، وافتنانه فى الحفظ والمنع ، يقول أبو عثمان .

(ولم أر مثل أبى جعفر الطرسوسى ، زار قوما فأكرموه وطيبوه ، وجعلوا فى شاربه وسبلته غالية ، فحكته شفته العليا ، فأدخل أصبعه فحكها من باطن الشفة ، مخافة أن تأخذ أصبعه من الغالية شيئا إذا حكها من فوق [(٥)]) .

إن حركة الأصبع التى صدرت عن الطرسوسى حين حك به شفته العليا من الداخل هى التى ولدت السخر ، وأشاعت الضحك ، لغرابتها وندرتها ، والتوائها فى إصابة الغرض ، وطرافتها فى نيل المقصد ، وقد دفعها إلى ذلك حركة نفسية تنبع من داخل البخيل الذى يخاف أن يضيع شئ من الغالية الموهوبة له ، وحركتها نبضة عقلية التمعت فى ذهن الطرسوسى تمكنه من حك شفته دون إضاعة ذرة من الطيب ، فالحركة هنا مركبة ، جسمية ونفسية وعقلية أفصحت عن الطرسوسى ، وعرفتنا سلوكه وتفكيره ودخيلة نفسه .

---

٥) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، ضبط العوامرى والجارم الجزء الأول صفحة ١٠٨ ، بتحقيق الحاجرى ص ٥٨

الطرسوسي بخيل لحزه لا يتطيب إلا هبة من الناس، ثم يحرص على بقاء الطيب في جسمه أياما إلى أن يجود الزمان له بطيب، وقد حكته شفته العليا التي وضع عليها الغالية، فأدت إلى احتياج بشرتها، فوقع بين حجرى رحى، وشقى مقص، وتنازعه عاملان متضادان كل منهما يسبب له الأذى : إن حك شفته ضاع جزء من الطيب، وإن لم يحكها استمر تأذيه بها، وهنا تبرز عبقرية البخيل ويتنزل عليه الفيض والإلهام، فيصل إلى الحل الذي يرضيه ويسره، وهو حك الشفة من باطنها، ولكن هذه الحركة الضئيلة أفصحت من الطرسوسي من جميع نواحيه، وصورته في كل اتجاهاته وعرفتنا أساليبه في الحياة، وبرهنت لنا على تفاقم بخله وحرصه وتقتيره.

وإذا كنا لا نملك أنفسنا من الضحك عند سماع هذه النادرة أو روايتها أو كتابتها، فما بالك بنا لو رأتها عيوننا، وكنا حضور الموقف ونظارته !! إن ضحكنا حتما سيشتد، وسخرنا قطعا سيتضاعف، فإن للمشاهدة من الأثر أضعاف ما للقصة المكتوبة أو المروية، ولذلك عقب الجاحظ على هذه النادرة لطرافتها بقوله : (وهذا وشبهه إنما يطيب جدا إذا رأيت الحكاية بعينك، لأن الكتاب لا يصور لك كل شيء، ولا يأتي على كنهه، وعلى حدوده وحقائقه)(٥).

وتلك نادرة أخرى من نوادر أبي عثمان، وسخرية من سخرياته أساسها الحركة غير اللائقة بحد المبالغة في الحركة المناسبة اللائقة ثم التعارض بين الحركتين. يقول :

(حدثني المكي قال : بت عند إسمعيل بن غزوان، وإنما بيتني عنده حين علم أني تعشيت عند مويس، وحملت معي قربة نبيذ، فلما مضى من الليل أكثره، وركبني النوم، جعلت فراشي البساط، ومرفقتي يدي، وليس في البيت إلا مصلى له، ومرفقة ومخدة، فأخذ المخدة فرمى بها إلي، فأبيتها، ورددتها عليه، وأبى وأبيت، فقال :

---

٥) كتاب البخلاء، الجاحظ، ضبط العوامري والجارم الجزء الأول صفحة ١٠٨، بتحقيق الحاجري ص ٨.

سبحان الله ! يكون أن تتوسد مرفقك وعندى فضل مخدة ؟ فأخذتها ، فوضعتها تحت خدى ، فمنعنى من النوم إنكارى للموضع ، ويبس فراشى .

وظن أنى قد نمت ، فجاء قليلا قليلا حتى سل المخدة من تحت رأسى ، فلما رأيته قد مضى بها ضحكت وقلت ، قد كنت من هذا غنيا ! قال ، إنما جئت لأسوى رأسك ! قلت ، إنى لم أكلمك حتى وليت بها ، قال ، كنت لهذا جئت ، فلما صارت المخدة فى يدى نسيت ما جئت له ! والنبيذ - ما علمت - والله يذهب بالحفظ أجمع "(٦) .

فكثرة الحركات المترددة بين عرض المخدة ، ودفعها ، وتبادل تلك الحركات ، ثم انتصار الحركات الملحة على قبولها ، تتبعها حركات نوم المكى ، ثم حركة الترصد والتلصص ، والمشى الوئيد ، فاستلال المخدة ، والمكى مع ذلك متنبه متيقظ يرقب كل ذلك ، على حين يظن ابن غزوان غفوته ونومه ، ثم تناقض الحركات الأخيرة مع الحركات الأولى ، هو سر السخر وعماده ، فما كان أغناه عن هذه الحركات التى عرض بها المخدة ، وما حدث لها من دفع وردوإباء ، بعد العرض والإلحاح ، ثم أخيرا القبول ، وما كان أغناه عما استتبع ذلك ، من ترقب نومه وتربص غفوته ، ثم استلاب المخدة من تحت رأسه ، ولكنه أراد أن يفوز بالحسنيين ، الكرم الذى يريد أن يعترف به المكى بإيثاره على نفسه وتفضيله ضيفه ، والاحتفاظ بمتاعه دون أن يمسه خد غيره .

وقد سخر المكى من تلك الحركات وضحك ، وقد سخرنا نحن وضحكنا ، وازداد سخرنا من الحركات الفكرية ، والوثبات النفسية التى علل بها ابن غزوان تصرفاته ، فقد ادعى أنه إنما تسلل ليسوى رأس المكى فوق المخدة ، فأفحمه هذا بأنه أخذ المخدة ومضى بها وليس الأمر تسوية رأسه ، ثم احتج عليه بأن النبيذ والسكر السبب فى نسيانه سبب مجيئه ، فما شعر إلا والمخدة فى يديه برغم أنه إنما جاء لغير هذه الحالة ، وكأنما ظنه سببا كافيا ، وعلة قوية ، وعذرا واضحا يقبله المكى ويرتضيه .

---

٦) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، ضبط العوامرى والجارم الجزء الثانى صفحة ٥٥

ومن الحركات النفسية التي تكاد تخلع قلب صاحبها وتطير له ويتخذها المتحدث باعثا إلى السخر وموضوعا له ما حدث به وال كان بفارس قال :

(بينا هو يوما في مجلس ، وهو مشغول بحسابه وأمره وقد احتجب جهده ، إذ نجم شاعر من بين يديه ، فأنشده شعرا ، مدحه فيه ، وقرظه ومجده ، فلما فرغ قال : قد أحسنت ، ثم أقبل على كاتبه فقال ، أعطه عشرة آلاف درهم ، ففرح الشاعر فرحا يستطار له ، فلما رأى حاله قال : وإني لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقع ! اجعلها عشرين ألف درهم ، وكاد الشاعر يخرج من جلده ، ! فلما رأى فرحه قد تضاعف قال : وإن فرحك ليتضاعف على قدر تضاعف القول ! أعطه يا فلان أربعين ألفا ، فكاد الفرح يقتله ، فلما رجعت إليه نفسه قال له أنت ، جعلت فداك — رجل كريم ، وأنا أعلم أنك كلما رأيتني قد ازددت فرحا زدتني في الجائزة ، وقبول هذا منك لا يكون إلا من قلة الشكر له ! ثم دعا له وخرج ،

قال : فأقبل عليه كاتبه فقال : سبحان الله ! هذا كان يرضى منك بأربعين درهما ، وتأمر له بأربعين ألف درهم ! قال : ويلك وتريد أن تعطيه شيئا ؟ قال : ومن إنفاذ أمرك بد قال يا أحمق ، وإنما هذا رجل سرنا بكلام ، وسررناه بكلام ! هو حين زعم أني أحسن من القمر ، وأشد من الأسد ، وأن لساني أقطع من السيف ، وأن أمري أنفذ من السنان ، جعل في يدي من هذا شيئا أرجع به إلى شيء ؟! ألسنا نعلم أنه قد كذب ! ولكنه سرنا حين كذب لنا ، فنحن أيضا نسره بالقول ، ونأمر له بالجوائز ، وإن كان كذبا ، فيكون كذب بكذب ، وقول بقول ، فأما أن يكون كذب بصدق ، وقول بفعل فهذا هو الخسران الذي ما سمعت به)(٧)

إن الحركات الهائجة التي غمرت نفس الشاعر ، والفرح الطلق الذي امتلك قلبه ومشاعره حين أمر له الوالي بالهبة ، هي مبعث السخر ، ومولد الهزء ، ويتحقق هزؤنا ، ويتضاعف سخرنا ويربو ، حين نعرف أن الوالي لا يريد لعطائه النفاذ ، وإنما هي الوعود فحسب ،

---

٧) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، ضبط العوامري والجارم الجزء الأول صفحة ٩٩ ، ١٠٠

والكلام الذى لن يجاوز الآذان هو القول الذى لا يستتبعه فعل وتنفيذ . ثم نلمح تلاعب الوالى بعقل الشاعر وعواطفه ، فيمد الحبل لآماله ويرخى له العنان ، ليغرق فى خيالاته وأوهامه ، فإنه حين رأى تضاعف هياجه ، وشدة اضطرابه ، وحركته النفسية المائجة وفرحته الذى قد يستطار له سخر منه ، وطمع فى زيادة السخر والمرح ، بزيادة الحركة والهيجان المائجة من زيادة العطاء ، فضاعفه ، فتضاعف فرح الشاعر ، ولم يستطع السيطرة على حركاته وانفعالاته ، فكاد أن يخرج من إهابه ، والوالى يسخر فى نفسه ، ويضحك ملء قلبه ويطمع فى المزيد من السخر والمرح ، فيضاعف الهبة مرة أخرى فتشتد حركة الشاعر النفسية ، ويتضاعف انفعاله ، ويهيج وجدانه حتى ليكاد الفرح يقتله ، فيتضاعف مرح الوالى على مقدار ما تضاعف الهياج ، وتفاقمت الحركات فى نفس الشاعر ، ويصل السخر أوجه ، على مقدار ما وصل الفرح ، والابتهاج فى قلب الشاعر .

فحركات الشاعر النفسية ، واضطراباته العاطفية ، ومضاعفة العطاء — قولا فقط — من أجل نموها واطرادها هو الجانب الفنى هنا فى السخر ، والمحرك والمهيج للمرح والضحك .

ثم ننتقل إلى شيخ بنى نهشل « أبو الأغر عروة » بن مرثد ، لنرى قصته مع كلب ولنتابع الحركات النفسية للجبان يظهر الشجاعة ، ثم يعود اليه تلبيه ، فيخنع ويذل ثم يرجع إلى العنف ثانيا حين يضعف خصمه ، وأخيرا نرى أن جبنه وفرته كانا من كلب حبيس .

(قال بشر بن سعيد : كان بالبصرة شيخ من بنى نهشل يقال له عروة بن مرثد ، نزل ببنى أخت له ، فى سكة بنى مازن ، وبنو أخته من قريش ، فخرج رجالهم إلى ضياعهم ، وذلك فى شهر رمضان ، وبقيت النساء يصلين فى مسجدهن ، فلم يبق فى الدار إلا كلب يعس ، فرأى بيتا فدخل ، وانصفق الباب ، فسمع الحركة بعض الإماء ، فظنوا أن لصا دخل الدار فذهبت إحداهن إلى أبى الأغر ، وليس فى الحى رجل غيره ، فأخبرته فقال أبو الأغر :

ما يبتغى الفرصنا ! ثم أخذ عصاه عوجاء حتى وقف على باب البيت ، فقال : إيه يا ملأمان !
أما والله إنك بى لعارف ، وإنى بك أيضا لعارف ، فهل أنت إلا من لصوص بنى مازن ، شربت
حامضا خبيثا ، حتى إذا دارت الأقداح فى رأسك منتك نفسك الأمانى ، وقلت : دور بنى عمرو
والرجال خلوف والنساء يصلين فى مسجدهن فأسرقهن ، سوأة والله ، ما يفعل هذا الأحرار
لبئس والله ما منتك نفسك ، فاخرج وإلا دخلت عليك فصرمتك منى العقوبة ، لأيم الله لتخرجن
أو لأهتفن هتفة مشئومة عليك يلتقى فيها الحيان ، عمرو وحنظلة ، ويصير أمرك إلى تباب ، وتجىء
سعد بعدد الحصى ، وتسيل عليك الرجال من ههنا وههنا ... ولئن فعلت لتكونن
أشأم مولود فى بنى تميم .. فلما رأى أنه لا يجيبه أخذ باللين وقال : اخرج يابنى وأنت
مستور ، إنى والله ما أراك تعرفنى ، ولو عرفتنى لقد قنعت بقولى ، واطمأننت إلى أنا عروة
بن مرثد أبو الأعز المرثدى ، وأنا خال القوم ، وجلدة ما بين أعينهم ، لا يعصوننى فى أمر
وأنا لك بالذمة كفيل خفير ، أصيرك بين شحمة أذنى وعاتقى ، لا تضار فاخرج فأنت فى ذمتى
وإلا فإن عندى قوصرتين إحداهما إلى ابن أختى البار الوصول فخذ إحداهما فانتبذها
حلالا من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم . وكان الكلب إذا سمع الكلام أطرق
وإذا سكت وثب يريغ المخرج ، فتهانف الأعرابى أى تساقط ، ثم قال : يا ألأم الناس
وأوضعهم ! ألا يا تولك ، أنا منذ الليلة فى واد ، وأنت فى آخر ، إذا قلت لك السوداء
والبيضاء تسكت وتطرق ، فإذا سكت عنك تريغ المخرج ! والله لتخرجن بالعفو عنك ،
أو لألجن عليك البيت بالعقوبة . فلما طال وقوفه ، جاءت جارية من إماء الحى ، فقالت :
أعرابى مجنون .. والله ما أرى فى البيت شيئا .. ودفعت الباب ، فخرج الكلب شدا
وحاد عنه أبو الأعز مستلقيا ، وقال : الحمد لله الذى مسخك كلبا وكفانى منك حربا ..
ثم قال : تالله ما رأيت كالليلة ، ما أراه إلا كلبا ، أما والله لو علمت بحاله لولجت عليه) .. (١)

---

(١) الحيوان : الجاحظ : تحقيق عبد السلام هارون الجزء الثانى الصفحات ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣

تظهر فى القصة الحركات النفسية التى تنتاب أبا الأعز وتتنازعه ، وتظهر جبنه وتكلفه الشجاعة فقد امتشق عصاه ، ووقف على باب البيت ، يهدد اللص ، ويشتمه ويعنفه ، وينحى عليه بسوء خلقه وفعاله ، وما منى به نفسه من سرقة البيت حين غاب الرجال والنساء ، فلما سكت ولم يجب عما به أبو الأعز ، وخاف هجمته ، فلجأ إلى اللين والمراودة ، فوعد بالمغفرة ، وتكفل ألا يؤذيه أحد ، ومناه بهدية من نبيذه ، والكلب يقفز ويثب إن سكت أبو الأعز ، ويسكن إن تكلم ، مما جعل المرثدى يتهافت ، ثم يلجأ إلى العنف ثانية ، حيث لم تجد الملاينة ولم تفد الملاطفة ، ولم يظهر اللص أسمه فيرهبه المرثدى ، وطال كلام المرثدى ووقوفه ، وانتظار الإماء ، وكثرت حركة الكلب ، يطلب التخرج .

ولا شك أن حركات المرثدى النفسية ، واضطراباته الداخلية التى تبين فى حمله العصاه وفى تهديده ووعيده ، يتبعه لينه ومراودته ، ثم عنفه وشدته ، وحركات الإماء حين اصطفق الباب على ما ظننه لصا ، ثم حركتهن حول المرثدى ، حين لجأن إليه ، وحين وقفن بجانبه ينتظرن انتقامه من اللص ثم حركة الأمة أخيرا حين فتحت الباب ، ثم خرج الكلب شدا ، وابتعاد المرثدى عنه مستلقيا ، ثم الخاتمة التى تثير السخر والهزء ، حيث لا لص فى المنزل وإنما هو كلب ، ثم تخلص المرثدى من موقفه المخجل ، واحتفاظه بشجاعته المدعاة ، حين أوهمنا أن اللص الذى كان فى البيت مسخه الله كلبا ، وكفاه حربا ، إكراما له ، ثم تراجعه من دعواه واعترافه مؤخرا بأنه كان كلبا ، وتمنيه أن لو عرف حقيقته ليهجم عليه ، فيحمد على ذلك ويشهر بالشجاعة بين الناس .

تلك كلها حركات حشدها الجاحظ فى قصه ، وسبكها بفنيته ، فكانت آية الآيات فى الهزء وأنموذج النماذج فى سخرية الحركة .

وأسوق أخيرا حركة تجعلنا نسخر من البخيل الشحيح حتى على نفسه التى بين جنبيه ، تلك قصة (ليلى الناعطية ، صاحبة الغالية من الشيعة ، فإنها مازالت ترقع قميصا لها وتلبسه حتى صار القميص الرقاع ، وذهب القميص الأول ، ورفت كساءها ولبسته حتى صارت لا تلبس إلا الرفو ، وذهب جميع الكساء ، وسمعت قول الشاعر :

البس قميصك ما اهتديت لجيبه — فاذا أضلك جيبه فاستبدل

فقالت : إنى إذن خرقاء ! أنا والله أحوص الفتق ، وفتق الفتق ، وأرقع الخرق ، وخرق الخرق)(٩)

تلك نماذج لسخرية الحركة عند الجاحظ ، عرضتها ، وحللتها ، وجليت الناحية الفنية فيها ، ووضعت يدى على جانب السخر منها ، والعامل الذى من أجله نضحك ونطرب ، وأوضحت كيف ولدت الحركة السخرية ، وكانت مشعل الهزء ، ونار الاستخفاف ، وقد وجدنا لكل سخرية طعما خاصا تتميز به ، ونكهة محببة تنفرد بها ، ولذعا معينا لا يشركها فيه غيرها وتلك سمات الفنية ، وأمارات العبقرية .

---

٩) كتاب البخلاء : الجاحظ ، ضبط العوامرى والجارم الجزء الأول صفحة ٧٤ .

الفصل الخامس

سخرية الكلمة

الكلمة ، أداة التعبير السهلة السائلة ، ووسيلة نقل الفكرة من عقل المتحدث والكاتب إلى عقول المستمعين والقارئين في سلامة ووضوح وهي أخف في التفاهم ، وأقدر على التعبير من الحركات والإشارات ، ولها غير معناها اللغوي ؛ المعنى البلاغي ، والمعنى المناسب لها في العبارة ، والمعنى المقصود بها في الموقف العام والخاص ، والإشعاعات المنبثقة منها ، والإيحاءات التي تضاعف معناها ، وتنوع مدلولها ، والنغمة الصوتية التي تضفي على المعنى عمقا ، وتحدث في النفس تأثيرا وهزة .

فليست الكلمة إذن مجرد لفظة ، إنما موسيقا وفكر ، وإحساس وانفعال ، هي كائن حي يعيش في عقولنا ، وتنطق به ألسنتنا ، وبمقدار ما نملك الكلمة ، ونتقن استعمالها ، تكون قيمتنا في الحياة ، ونخفف من المتاعب والمصاعب ، ولا أعدو الحقيقة إن قلت : إن الكلمة هي الرجل .

والكلمة في فن السخرية لها أهميتها ومكانتها ، وقدرتها على اللذع والإيلام ، والهمز واللمز ، والتعريض والغمز إن أريد بها ذلك وقصد بها الإيجاع والتقريع ، لما في معناها من اتساع ، ولما يتلاعب بها صاحبها بالحذف منها ، أو الزيادة عليها ، أو تحميلها أكثر من معناها ، أو بتحويلها إلى غير المعنى المقصود بها ، أو بتقسيمها ، أو بإبدال حروفها ، أو بالخطأ في نطقها نحويا أو لغويا أو لفظيا ، أو بالتقعر والتفصح ، والتشدق بها بتغيير جرسها ، أو بالخلط بين حروفها ، أو بينها وبين غيرها .

والسخرية تحتاج إلى مقدرة لغوية خاصة ، وتفهم لمعاني الكلمات ومراميها ، وخبرة واسعة باستعمالاتها ، وإدراك واع لمفاهيمها ومضامينها ، وما يختبئ داخلها .

وأستطيع أن أقول وأنا مطمئن النفس ، إن السخرية عنوان المرء لغويا ودليل ثقافته ، ورمز لفصيلته ، وكشاف عقليته ، ومقياس رقيه أو تخلفه من جميع نواحيه ، فقل لي مم تسخر ؟ أقل لك

من أنت ، وقل لى كيف تسخر ، أدلك على ثقافتك وطبيعتك وبيئتك ؟

ولقد عرف الجاحظ للكلمة الساخرة — وهو رب الكلمة الساخرة — أهميتها ، وإمكانيتها وما فى طاقتها من مد السخر بألوان فنية ، وأنماط معجبة مطربة ، فتوغ فيها وتلاعب بها وعبث بتركيبها ، واتخذها أداة هزئه ، ومعول سخره ، ونغمة شدوه ، وسوط تأديبه .

ومن الأنواع التى شاعت فى أدبه ، ولهج بها لسانه ، فأكسبت الكلام سخرا وشوبت فيه ضحكا وطربا :

١ — التلاعب بالألفاظ والمعانى ٢ — الخلط فى الألفاظ .

٣ — الخطأ فى الحروف والحركات ٤ — الاشتقاق .

٥ — التقعر ٦ — أسلوب الحكيم

∴ ∴ ∴

١ — التلاعب بالألفاظ والمعانى :

من الألوان الفنية التى تلون الكلام بأصباغ السخرية : أن يترك المتكلم اللفظ الكثير الاستعمال ، والواضح المعنى ، إلى لفظ آخر قليل الاستعمال ، يحتاج فى فهمه إلى تأمل ، سخرية بأفهام الحاضرين ، وتهكما بسطحيتهم ، أو سخرية بالموضوع الذى يتحدث فيه ، أو الشخصية التى يتناولها كلامه ، وقد يسمع السامع اللفظ فيصرفه عن وجهه المراد إلى غيره من الأوجه قصدا للضحك والعبث ، أو التوجيه والنصح أو يسمع لفظا على غير ما نطقه صاحبه ، فيجيبه بما سمعه وتوهمه فيأتى الجواب غير مناسب للسؤال .

وسر السخر هنا وباعثه ، أن الحضور يتوقعون كلاما غير الذى قيل ، والمتكلم ينتظر جوابا يناسب سؤاله ، وكلاما يلائم كلامه ، وهو يبحث عنه فلا يجده ، وإنما يجد كلاما مخالفا ليس بينه وبين كلامه صلة ولا رباط ، إذ السائل فى واد والمجيب فى واد آخر

ومن عدم الترابط ، وظهور التناقض ، والمكاس الأمور تنشأ السخرية .

إن الساخر قد يحاول أن يكسب الألفاظ غير معانيها الواضحة ، فاذا اكتشف السامع أن ما يقصده هو هذا المعنى البعيد الذي لم يتطرق إلى ذهنه في مبدأ الأمر سخر من فهمه الأول لمعنى الجملة .

وقد يسخر المجيب ، ويتهكم بالسائل ، باستعماله اللفظ في غير معناه المتبادر إلى الأذهان ، تهربا من الإجابة ، وخوفا مما يترتب عليها إن كانت صريحة صحيحة ، أو لطمعه في نوال ، أو ليبين تفه السؤال ، وقبح موقعه .

وقد يتلاعب بالمعنى عن طريق الطى والنشر ، واللف والتصريح ، والتواء الأسلوب ، وخداع السامعين ، والإجابة على غير السؤال ، وإيهام الإجابة عنه ، سخرية واستهزاء ، مما يحتاج إلى غوص للوصول إلى رابطة بين المعنيين وكشف ما يغطى هذه الصلة من غموض أو إبهام .

إن الساخر قد يكون أسلوبه في الهزء ، وطريقته في السخرية تحويل الكلمة عن معناها الأصلى إلى معنى آخر تحتمله ، أو تفسيرها تفسيرا مغايرا لما يقتضيه السياق والموقف ، بعيدا عما يقصده المتكلم ، وما ينتظره السامع .. وباعث السخر في هذا اللون ، وضع الشيء في غير موضعه المألوف ، وإخراجه في صورة طريفة غير متوقعة ، مع ما فيها من تفسير سليم للكلمة يراد به العبث واللهو ، والمرح والسخر ، وهو وإن كان حقيقيا فيها إلا أنه يبعدها عن معناها الجاد ، وينحو بها ناحية الهزل والمزح . ومن أمثلة ذلك عند الجاحظ قوله ، (قال قاسم تذهب والله متى الأطيبان قلت : وأي شيء الأطيبان ؟ قال : قوة اليدين والرجلين)(١) . فسر الأطيبين بغير معناهما الشائع . والأطيبان عند العرب : الأكل

---

١) البيان والتبيين : الجاحظ ، تحقيق هارون ص ١٣ الجزء الرابع ، تحقيق السندوبى ص ٢١٩ ج ٣ .

والنوم ، أو الأكل والجماع ، أو كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام : الأطيبان : التمر واللبن . وتفسير الكلام بغير معناه المتعارف تلاعب بالكلمة وعبث بمضمونها يدعونا للسخر والضحك .

(سئل عن رجل ، فقال : إن له شرفا وبيتا وقدما ، فنظروا فإذا هو ساقط من السفلة فقيل له في ذلك ، فقال : ما كذبت ، شرفه أذناه ، وقدمه التي يمشي عليها ولا بد من أن يكون له بيت يأوي إليه)(٢) و (هذا مثل قول القائل حين سئل عن رجل في تزويج امرأة ، فقال : "يزين المجلس ، نافذ الطعنة" فحسبوه سيدا فارسا ، فنظروا فوجدوه خياطا فسئل عن ذلك فقال : ما كذبت ؟ إنه لطويل الجلوس جيد الطعن بالإبرة)(٣) وهذا ضرب لطيف من السخر ، يدخل على النفس البهجة والسرور ، حين يفسر الكلام بغير ما يتوقع وما أشبه هذا بما يشيع بيننا الآن من قولهم : إن أبي يرفع الناس ويخفضهم بطرف إصبعه فلما بحثوا عن مهنته وجدوه "عامل مصعد" أو قول أحدهم : إن أبي يصفق له الناس ، يقصد أنه "جرسونا".

وقد يحول المتكلم كلمته إلى معنى آخر غير معناها اللغوي ، فيسمي الشيء بغير اسمه ، ويخلع عليه غير صفته ، تهكما وسخرا ، وقد يحاول السامع تثبيت هذا الاسم الجديد ، والتعليل لصحته ، والبرهنة على أن الأول لم يستعمله في غير معناه ، وهدفه من كل ذلك نوع السخرية ومضاعفة الاستهزاء ، أو إصلاح ذات البين .. والناحية الفنية في سخرية هذا اللون : تسمية الشيء باسم شيء آخر أرفع منه رتبة أو أقل ، ثم الإتيان ببرهان مفتعل على أن

---

٢) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ص١٢ الجزء الأول صفحة ٢٣٧ .

٣) المصدر المذكور صفحة ٢٣٨

هذا الاسم له حقيقة ، تهكما واستهزاء ، فيكون موطن سخر ، كمن ينادى الخادم بلقب سيده ويدعى أنه لقب له أيضا ، أو ينقش ريش الغراب بألوان ريش الطاووس ، فإذا ما تبينا الحقيقة وظهرت لنا الخدعة التى هى مكمن السخر ضحكنا وطربنا . ومن ذلك قول الجاحظ (قال ابن صديقه لرجل رأى معه خفا ، ما هذه القلنسوة ؟ فاحتكموا إلى عياش ، فقال عياش ، هى قلنسوة الرجلين !)[٤] فقد أبقى عياش لفظ القلنسوة كما هو ولكنه حوله حين أضافه إلى الرجلين إلى معنى آخر ، بقصد تلطيف حدته وإظهار ابن صديقه فى مظهر من لم يخطئ ، عن طريق استعمال اللفظ استعمالا معينا أدى إلى سخرية ظاهرها الإفهام والإقناع تأييدا لقول الجاد وباطنها السخر والعبث بالعقول نتيجة التلاعب بالألفاظ.

وقد تكون الكلمة دالة على جنس متسع المعنى ، منفسح المدلول ، تطلق على كل شخص ثم يعرفها شخص نفسه ويستعملها استعمال العلم .. والناحية الفنية للسخر هنا أن التعريف لا يفيد ، إذ أنه ليس بتعريف ، فالجنس لا يدل على الشخص ، واللفظة صالحة لكل فرد ، ويزيد السخر إذا جاءت الإجابة هازئة بما يرى فيها المخاطب المتكلم مؤكدا أنها تعريف له ، وعلم عليه ، وفى ذلك يقول الجاحظ ، (كان عمرو بن عبيد يجلس فى داره ، وكان لا يدع بابه مفتوحا ، فإذا قرعه إنسان قام بنفسه حتى يفتحه له ، فأتيت الباب يوما ، فقرعته فقال ، من هذا ؟ قلت ، أنا ، فقال ، ما أعرف أحدا يسمى أنا)[٥].

وقد يكون مبعث السخر اللف فى المعنى ، والدوران فى التعبير ، وبذل الجهد وتحمل العنت ، لمحاولة إخفاء المعنى المباشر الذى قد يحرج ويجرح .. واللمسة الفنية الساخرة هنا ، التمويه على السامع ، والعبث بعقله ، والتلاعب بالكلام رجاء ألا يفهم أو إيهامه بجدية الأمر ، وعمق المضمون ، واحتياجه للتدقيق نظرا ليأخذ الله مع بذلك

---

(٤) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الرابع صفحة ٨
(٥) الحيوان ، الجاحظ ، صفحة ٢٢٧ من الجزء الأول ، محاضرات الأدباء ج ٣ص ١٠٤

ويحشد له ذهنه ، فإذا تبين بعد ، سطحية المسئ ، وأنه كان يمكن أن يؤدى بكلمات قليلة لا تتطلب تعبا ولا جهدا ، سخر من نفسه ، ومن كده وجده ، وسخر من المتكلم الذى تجشم العناء ، وسخرنا نحن منهما معا ، ومن أمثلة ذلك ما رواه الجاحظ من أبى الحسن ، (قال : وكان رجل من أهل الرى يجالسنا ، فاحتبس عنا ، فأتيته ، فجلست معه على بابه وإذا رجل يدخل ويخرج ، فقلت : من هذا ؟ فسكت ، ثم أعدت فسكت ، فلما أعدت الثالثة قال : هو زوج أخت خالتى)[٦]

لم يشأ أن يقول له صراحة : إنه زوج أمى كراهية لذلك ، وأنفة وخجلا ، فلما اضطر للإجابة ، بعد طول سكوت ، وتكرير السؤال وكثرة الإلحاح ، لف الكلام ، وأظهره فى هيئة لغز ، وعدل من التصريح إلى الكناية ، سخرية من موقفه وإيماءا للقرابة التى بينه وبين ذلك الرجل ، ليرضى نفسه ، ويخفف عنها آلامها ، كما أنه سخر من زوج أمه حين عمد إلى هذه المباعدة فى الصلة التى تجمعهما .

وقد يعبر عن اسم الشئ بصوته فيحل الصوت محل الكلمة ، ويدل عليها به ، وهو يلجأ إلى ذلك مرحا وسخرا ، أو تهربا من التصريح بالاسم المنكر الذى يبعث السخر والمزح .. ووجهة السخر الفنية فيه ، الهروب من ذكرا لقبيح إلى ذكر ما هو أقبح ، وتقليد الصوت الذى يظهر الإنسان فى مظهر غير إنسانى ، حين يبدو وقد تقمص شخصية صاحب الصوت حيوانا كان أم حشرة فيكون فى جسم الآدمى وصوت الحيوان ، وذلك لون من المسخ والتشويه الذى يثير السخر ، ويجلب الضحك ، ومن أمثلة ذلك فى أدب الجاحظ .

(وكان رجل يسمى كلبا ، وكان له بنى يلعب فى الطريق ، فقال له رجل : ابن من ؟ فقال : ابن وو ... وو .... وو)[٧] .

---

٦) البيان والتبيين صفحة ٦١ الجزء الرابع تحقيق عبد السلام محمد هارون .

٧) الحيوان : الجاحظ : الجزء الثانى صفحة ١٨٦ الطبعة الأولى بتحقيق هارون سنة ١٩٣٨

وقد يكون الحرف في الكلمة موحيا للمتكلم بمعنى من المعاني ، يعتقد أنه يدور معه وجودا وعدما ، لاشتراكه في عديد من الكلمات تحوى هذا المعنى وتدل عليه . ولكن لما لم يكن هناك دليل مقنع ، وبرهان يؤيد هذا الرأى الذى يعتمد على الحدس والمصادفة ، وكانت القاعدة المخترعة تنخرم أكثر مما تستقيم ، كان رأيا فسلا وفكرة خاطئة تدعو إلى السخرية من صاحبها ، وتهم عقله ... ويبعث السخر وسره ، سذاجة العقل مع ادعاء الحكمة وكشف المعمى ، والإتيان بما لم يأت به الأوائل .

(قال الشيخ الأباضى — وقد ذهب عنى اسمه وكنيته ، وهو ختن أبى بكر بن بريرة — وجرى يوما شيء من ذكر التشيع والشيعة ، فأنكر ذلك ، واشتد غضبه عليهم ، فتوهمت أن ذلك إنما اعتراه للأباضية التى فيه ، وقلت : وما على إن سألته ؟ فإنه يقال : وإن السائل لا يعدم أن يسمع فى الجواب حجة أو حيلة أو ملحة ، فقلت وما أنكرت من التشيع ومن ذكر الشيعة ؟ قال : أنكرت منه مكان الشين التى فى أول الكلمة ، لأنى لم أجد الشين فى أول كلمة قط إلا وهى مسخوطة مثل شؤم وشر وشيطان وشغب وشح وشمال وشجن وشيب وشين وشراسة ... قلت له : ما سمعت متكلما يقول هذا ، ولا يبلغه ، ولا يقوم لمولاء القوم قائمة بعد هذا)[٨] . وفيه من السخر فوق ما تقدم قول المستمع فى آخر القصة : فما سمعت متكلما يقول هذا ولا يبلغه ، وهو هنا يظهر استحسانه لرأى الأباضى ، ويطريه ، بأن براعته وتفتق ذهنه ، وعمق تأمله وبارع اكتشافه لا يبلغها غيره . وهذا ضد ما يبطنه ، وعكس ما استقر فى نفسه ، وضاعف السخرية حين قال : ولا تقوم لمولاء القوم قائمة بعد ذلك على طريق ذكر الضد وتمجيد القبيح الفاسد تهكما وهزءا وهو يظهر الموافقة والاقتناع بما قيل .

---

٨) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الثالث صفحة ٢٢ ، ٢٣ عيون الاخبار لابن قتيبة الجزء الثانى صفحة ٥٦

٢ـ الخلط في الألفاظ :

إذا وضع المتكلم لفظا مكان لفظ فتغير المعنى ، أو قدم لفظا على آخر فأحدث الخلل في الجملة ، أو خلط لفظين ببعضهما ، وصيرهما كلمة واحدة ، لا تفهم المعنى واستغلق ، كان مدعاة للسخر ، ومحطا للهزء ، ويحدث ذلك منه من غفلته أو من جهل أو لإسراعه في الكلام أو لسيطرة فكرة أخرى على عقله ، غير ما يتحدث فيه ، فيخلط ويدمج ، ويدخل هذا في ذلك ، فنسخر منه ، ونضحك لكلمات التي بدت في إطار غير معتاد ، وظهرت في غير مكانها ، وعلى غير صورتها ، وكأنها تنكرت لأصولها ، ولبست ثياب غيرها التي لا تناسبها ، فبدت فيه مشوهة تدعو إلى التعجب ، وتثير التسخر . ومن أمثلة ذلك ما رواه الجاحظ :

١ـ (قال نفيس لغلام لي : الناس ويلك أنت حيا ، كلهم أقرؤا يريد : أنت أقل الناس كلهم حياء) (١) .

ضللنا المعنى إذ ضلت الألفاظ طريقها ، وسكنت في غير منازلها ، وصار الكلام لغوا لا محصل له ، ولا دلالة يعطيها للسامع . إن السامع ليسخر من ذلك الهيفاء الذي حفظ عدة ألفاظ ، فألقاها كما جرت على لسانه ، دون أن يراعي بينها العلاقات والروابط وذلك يشير إلى ارتباك عقليته ، واضطراب ذهنه .

٢ـ قلت لنفيس ابن بريمة هذا الصبي ، في أي شيء أسلمه ؟ قال : في أصحاب سند نعال يريد أصحاب النعال السندية) (٢) .

فقد قدم نفيس الصفة على الموصوف ، ووضعها في غير موضعها المألوف ، وسر السخر هنا قلب الأصل فرعا وجعل الفرع أصلا ، وكأن السند في نظره تنسب إلى النعال وتعرف بها .

---

١) البيان والتبيين ، الجاحظ / تحقيق هارون ج ٤ص٢٤ ، وتحقيق السندوبي ج ٣ص٢٢٦

٢) المصدر المذكور ص٢٧ تحقيق هارون ، وتحقيق السندوبي ص٢٢٦ ج ١ص١٦٢ هارون

٣— قال الجاحظ : (وأما نفيس غلامى فإنه كان إذا صار إلى فراشه فى كل ليلة فى سائر السنة يقول فى دعائه : اللهم علينا ولا حوالينا) (٣).

لم تحدث السخرية من التقديم والتأخير فحسب ، وإنما لأن تبادل الكلمتين موضعيهما ، قلب المعنى ، فصار الكلام دعاء عليه ، بعد أن كان دعاء له ، لو أبقاه على أصل وضعه : اللهم حوالينا ولا علينا ، وقد حقق هذا السخر نقل الكلمات وتحريفها عن مواضعها ، فصارت السخرية قوية ، ذات طاقتين محكمى الفتل .

٤— قال قاسم التمار : (فالتوى لى عرق حين قعدت منها مقعد الرجل من الغلام) (٤).

أراد قعدت منها مقعد الرجل من المرأة ، فجعل الغلام مكان المرأة ، وأبدله بها ، ثم إن هذا الإبدال يضاعف السخرية من قاسم لأنه جعل نفسه محل الشبهات والاتهام بالغلمان ثم إنه مجاوز للمعتاد من التعبير ، والنفس تسخر من المخالف وبخاصة إذا اتجه ناحية الضعف ، أو اكتسب الصفة الذميمة . ويتضاعف السخر إن كان المعنى غير مقصود .

٥— (قلت لغلامى نفيس : بعثتك إلى السوق فى حوائج ، فاشتريت مالم آمرك به ، وتركت كل ما أمرتك به ! قال : يامولاى ، أنا ناقه ، وليس فى ركبتى دماغ) (٥).

أراد وليس فى رأسى دماغ فأبدل الكلمة ، فصارت العبارة ضربا من اللغط ، الذى يثير السخر ، حيث فقدت معناها ، وربما أراد أن ركبته لاعقل فيها ، ولعله أراد إبدال الكلمة وقصد ، كما اتهمه سيده بإبدال ما يطلبه منه بما لا يطلبه ، جلبا للمرح وطلبا للسخر ، فهو غلام الجاحظ ، والمعاشرة تعدى .

٦— وقال فى مغفل اسمه كيسان : كان يكتب غير ما يسمع ، ويستملى غير ما يكتب ويقرأ غير ما يستملى ، ويملى غير ما يقرأ أمليت عليه يوما .

٣) البيان والتبين الجاحظ ، تحقيق هارون الجزء الرابع صفحة ١٩

٤) المصدر السابق صفحة ١٣

٥) المصدر المذكور ص٢٦ ، أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزى صفحة ١٧٦

٦) أخبار الحمقى والمغفلين ، ابن الجوزى صفحة ٨٩.

عجبت لمحشر عدلوا	بعشتمر أبا عمرو

فكتب أبا بشر، وقرأ أبا حفص، واستملى أبا زيد[٦].

فهذا الخلط الكثير والخبط الشديد، دليل الغفلة، وعدم استواء الطبيعة البشرية فإن إبدال لفظ بآخر محتمل متقبل، ورغم أنه قد يجلب السخر، ولكن تراكم الأخطاء فيما لا يأتي في مثله الخطأ عادة، يولّد السخر الشديد والضحك العنيف، والهزء المركب لخروج الشخص عن طبيعة الإنسان السوي وعقليته، ومما يضاعف السخرية، ويطيل الضحك أن المغفل اسمه كيسان مع تجرده من الكيس فغفلته طبقات متراكمة، وجملة ظلمات بعضها فوق بعض، ولا سم الشخص بالنسبة لأعماله: إما تلاؤم وتناسب فينشرح الصدر، وتمش النفس إن كان شريفا كريما.

وإما تضاد وتجانب[٨]، فيتولد الهزء، ويتزايد السخر، وقد يكون الاسم القبيح[٧] مناسبا للفعل القبيح، فنهزأ أيضا ونضحك.

٧ـ (قال الشاعر، ورأى رجلا اسمه وثاب واسم كلبه عمرو، فقال:

ولو هيّا له الله	من التوفيق أسبابا
لسمى نفسه عمرا	وسمى الكلب وثابا)[٩]

فاجتماع الاسمين في الكلب وصاحبه، وتسمية كل منهما بما يجب أن يكون للآخر، وإبراز للكلب في سمت الآدمي، وللآدمي في سمت الكلب، وإعطاء كل منهما شيئا من مظهر الآخر...

---

٧) أـ كمجل، الذي أراد فقأ عين فرسه الذي جاء الأول في السباق ليصيره الأعور.
ب ـ كلقمان الذي تكبر لقمه ويأكل منها الكثير وسأذكرك في الاشتقاق.

٨) أـ كتفسير غلام الجاحظ الذي يدعو كلامه للسخر منه، والتهكم به.
ب ـ ومثل أبي الأغر الجبان الذي سبقت قصته مع الكلب في سخرية الحركة.
جـ ـ ومثل كيسان الذي ذكرنا الآن قصته.
د ـ ومثل الرجل وثاب الذي سمى كلبه عمرا في السخرية الآتية.

٩) الحيوان، الجاحظ الجزء الثاني صفحة ١٩٤ (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٨، ومثله في العقد الفريد لابن عبد ربه، المجلد الثاني صفحة ٢٩.

ومن انعدام التناسب بين الاسم والمسمى، ومن الطرافة، والغرابة في تبادل الاسمين، يكون السخر والاستهزاء.

ﻫ ـ (دخل آخر على رجل يأكل أترجة بعسل، فأراد أن يقول: السلام عليكم، فقال: عسليكم)(١٠)

فقد أدمج الكلمتين في بعضهما: العسل، والسلام عليكم، فصارا كلمة واحدة منحوتة، وذلك حين شغل بالعسل وشغف به، فسيطرت محدثه على لسانه بدل أن يسيطر عليه عقله، فكأن عقله في معدته، وكأنه حيوان لا فكر له إلا في الطعام. وذلك محور السخر، ومدار الهزء يحشو في نفوسنا وسببه اندماج الكلمتين الموحى باندماج عقله وبطنه.

و ـ (قيل لطفيلي: كم اثنان في اثنين؟ قال: أربعة أرغفة)(١١)

فسخر الكلمة هنا ناشئ من زيادتها، فكلمة أرغفة لم يسأل عنها، ووجودها في الإجابة كشف نفسية الطفيلي، وأرانا ما يدور بعقله، وكيف امتلكت معدته زمام فكره، وكيف أسلس لها قياده، وذلك داعية السخر والتهكم.

⁂

ح ـ الخطأ في الحروف والحركات:

من الصور الساخرة للكلمة أن يغير المتكلم حرفا من حروفها، أو حركة من حركاتها فيخرج بها من معناها إلى معنى آخر، قد يقصده، وقد لا يقصده ... وسر السخرية أن الكلمة لم تعد تفصح عن نفسها، ولم تبق لها شخصيتها ومقوماتها، فقد انسلخت من مفهومها إلى مفهوم جديد، ربما كان عكس مفهومها الأول، واتخذت تسمية من تبدلت بعض أعضائه

---

١٠) البيان والتبين: الجاحظ، تحقيق هارون الجزء الثاني صفحة ١٧٨.

١١) البيان والتبين: الجاحظ: الجزء الثاني صفحة ١٣٥ السندوبي، ١٧٥ هارون، وفي الأذكياء لابن الجوزي صفحة ٢٢٢

أو نقصت ، أو زادت ، ولا يخفى ما فى ذلك من تشويه ومسخ يؤدى إلى السخرية والاستهزاء .

وهى وإن انحرفت بعض الانحراف فى مظهرها ، فقد تغيرت كل التغير فى مدلولها ومضمونها وإن كان ذلك داعيا إلى السخرية من الكلمة ، لخلل فى بنائها ، أو لفصل حروفها أو لنقص لحنها ، فإنه أيضا يثير الهزء ، والاستخفاف بالنطق بها ، حيث يظهر بمظهر الطفل الذى لا يمكنه النطق السليم ، أو الأعجمى الذى يتأبى عليه الكلام المستقيم فتتكسر شفتيه الحروف ، وتتعثر فى فمه الألفاظ ، أو يؤديها بلكنة لا يستطيع التخلص منها ، أو يسقط بعض حروفها أو يبدلها ، فيثير السخر ويمتع ، ويشيع الضحك ويعلو ، إذا كان المعنى الجديد يضاد المعنى الأول ، أو يؤدى إلى التصريح بذكر عورة ، أو إلى إلصاق عيب خلقى بالمتحدث أو السامع ، أو إلى إيقاعه فى مأزق يصعب خلاصه منه .. كما يتضاعف السخر إن أظهر المتحدث تفصحه بما يقول من كلمات خاطئة ، أو حاول أن يقوم به كلام غيره المعوج فى نظره ، فإذا لفظه أشد اعوجاجا ، ومعناه أكثر سقوطا . وتبلغ السخرية أوجها إذا كان المتكلم صائب اللفظ والمعنى ، فحدل هذا له كلامه بالخطأ البين . واللفظ المنحرف ، وقد اعتقد صوا ب لفظه ، وبراعة أسلوبه ، وأنزل نفسه من المتكلم منزلة المعلم والأستاذ . ومن أمثلة هذا الجانب الفنى للسخرية فى كتابات الجاحظ ما حدث به عن نفسه قال :

١ — (أتيت منزل صديق لى ، فطرقت الباب ، فخرجت الى جارية سندية ، فقلت لها ، قولى لسيدك ، الجاحظ بالباب ، فقالت ، أقول الجاحد بالباب ؟ — على لغتها — فقلت لها ، قولى الحدقى بالباب ، فقالت ، أقول الحلقى بالباب ؟ فقلت ، لا تقولى شيئا ورجعت) (١)

فتغيير الجارية السندية حرفا من لقب الجاحظ بحرف قريب منه فى المخرج والجرس لعيب فى نطق الجارية ، أو لخطأ فى سماعها ، أحال الكلمة عن معناها ، وألحق بابن بحر صفة خلقية مرذولة ، أو التصقت به لأذلته ، ونكست رأسه ، وجعلته موضع هزء على مر الأيام ، واغتنمها خصومه للتشهير به ونادوه الجاحد أو الحلقى ، وقد شعر بعقبة اللقب

(١) أدباء العرب ، بطرس البستانى ، معجم الأدباء ، ياقوت ، الجزء ١٦ ص ٨٥ طبعة دار المأمون سنة ١٩٣٧

المعروف قولى الأدباء ، قائلا للجارية لا تقولى شيئا .

٢ـ قال فيل مولى زياد له ، (أهدوا لنا هماروهش، يريد حمار وحش . فقال زياد ، ما تقول ويلك ؟ ! قال ، أهدوا إلينا أيرا . يريد عيرا . فقال زياد ، الأول أهون وفهم ما أراد)(٢)

والخطأ هنا جر أيضا إلى اللفظ القبيح ، فقد أبدل الحاء هاء فى الأول فتغيرت سحنة الكلمة ، وتجردت من معناها ، وصارت بأصوات الحيوان أشبه عوض ذلك ما يدعو إلى السخر أما السخر فى الثانية التى قلب فيها العين همزا فأنكى وأبشع ، لأنه ذكر العورة صراحة . لذلك قال زياد ، الأول أهون ، ومما يضاعف السخر أن فيل لم يقصد المعنى المضحك ، وإنما تلك لكنته فهو أعجمى فى لسانه قلب بعض الحروف فحقيقة كلامه الجد ، ولكن مظهر الكلمة وصورتها بالنسبة للعربى الذى يسمع هزل وهجر ، تستحق السخر والهزء وبخاصة مع كلمة أهدوا .

٣ـ (وقال بعض الشعراء فى أم ولد له يذكر لكنتها ،

أول ما أسمع منها فى السحر تذكيرها الأنثى وتأنيث الذكر

والسوءة السوآء فى ذكر القمر

لأنها كانت إذا أرادت أن تقول القمر ، قالت الكمر)(٣).

ولا زالت السخرية هنا تنبع من تغيير الحرف الذى يؤدى إلى غير المراد ، وينحو جهة التصريح بالعورة مما هو غير مقصود للجارية ، كما أن هناك سخرا آخر ناشئا من قلبها النوع الإنسانى فى محادثته أو الكلام عنه يجعل المؤنث مذكرا وبالعكس .

---

٢) البيان والتبين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الاول صفحة ٧٣ ط مكتبة الخانجى ومثله فى كتاب الحيوان للجاحظ الجزء السابع صفحة ٢٢٣

٣) البيان والتبين ، الجاحظ ، الجزء الأول ، صفحة ٧٣ ، ٧٤

ومن الأخطاء النحوية التي تولد السخرية حين تتغير حركة الاعراب أو حرفه وخاصة إذا تتابعت التغييرات ، وتوالت الأخطاء ، أو إذا صدرت ممن يدعي إجادة النحو واللغة ، أو إذا كانت ممن يتفاصح ويتحذلق ، قول الجاحظ :

١ـ (مر ماسرجويه الطبيب بجد معاذ بن سعيد بن حميد الحميري ، فقال : يا ماسرجويه ، إني أجد في حلقي بحجا . قال : إنه عمل بلغم . فلما جازه قال : أنا أحسن أن أقول بلغم ولكنه كلمني بالعربية ، فكلمته بالعربية)[٤].

أخطأ ماسرجويه فقال بلغم بضم الباء والغين واعتقد أن تلك لغة عربية فصيحة ، ثم جعل الفصحى عامية ، فقال بعد أن جازه : إنه يحسن قول بَلْغَم بالفتح ولكنه ضم ليكون كلامه عربيا فصيحا كما كان كلام محدثه ، ولو نظرنا إلى كلام محدثه لوجدناه قد فك الإدغام وذلك غير فصيح فتحريك الكلمة بغير حركتها ، وقلب الفصحى عامية ، والنطق الخاطئ على أنه العربي الفصيح سبب السخرية ، وأساس التهكم .

٢ـ (كان عند عمر بن عبد العزيز رجلان ، فجعلا يلحنان فقال الحاجب ، قوما فقد أوذيتما أمير المؤمنين ! قال عمر : أنت آذى لي منهما)[٥].

لم يترك الحاجب الرجلين يلحنان ، ولكنه طلب قيامهما ، وكأنه فصيح نحوي ، يؤذيه اللحن وبؤلمه ترك قواعد اللغة ، وكأنه لا يخطئ لغويا ، ولا ينزلق لسانه فلما تكلم ظهر سقطه فكان ألحن منهما وكان أشد إيذاء للخليفة ، فوجه السخر اللحن أولا ، واستكراه الحاجب له مع أنه أشد لحنا ثانيا ، وادعاؤه الفصاحة ، ووقوفه موقف الأستاذ ، ثم اتضاح حاجته إلى معلم ومؤدب .

٣ـ (ارتفع إلى زياد رجل وأخوه في ميراث ، فقال : إن أبونا مات وإن أخينا وثب على مال

---

٤) المصدر المذكور ، الجزء الثاني صفحة ٢١٨

٥) المصدر المذكور الجزء الثالث صفحة ٢٤٠

أبانا فأكله . فأما زياد فقال : الذى أضعت من لسانك أضر عليك مما أضعت من مالك ، وأما القاضى فقال : فلا رحم الله أباك ، ولا نجح عظم أخيك اقم فى لعنة الله) (٦)

هذه الأخطاء النحوية المتكررة ، والتى لا تطرد حتى فى خطئها تجعلنا نسخر ونهزأ وبخاصة إذا كانت أمام علية القوم وفصحائهم لذلك جاء كلام زياد والقاضى ساخرا من الرجل ومن أبيه وأخيه إذ لم يقوما على تربيته وتهذيب لسانه فدعا عليهما القاضى ولعن الرجل ، وسخر زياد من الرجل مبينا فحش خطئه ، وعظم جريرته وأن ما ضاع من لسانه أضر عليه مما ضاع من أموال .

٣ـ وأختم هذا اللون من الأخطاء اللغوية والنحوية بسخرية أبشع ، وتهكم أوجع من نبح بنفسه بين العلماء فأخطأ ، وكلما صوبوا له أخطاءه أخطأ ، وهو فى كل توجيه لــــه يخطىء خطأ مغايرا ، مع إمكانه البعد من كل هذه الأخطاء ، والتنحى من ركوب الوعر باختيار اللفظ السهل فيبعد به عن المهاوى والمزالق .

(قال يوسف بن خالد السمتى لعمرو بن عبيد : ما تقول فى دجاجة ذبحت مـــن قفائها ؟ قال له عمرو أحسن . قال : من قفاوها . قال : أحسن : قال : من قفاها . قال عمرو : ما عناك بهذا ؟ قل من قفاها واسترح) (٧)

∴ ∴ ∴

٤ـ الاشتقاق :

إن العبث بالكلمة عن طريق تقسيمها إلى جزأين يحمل كل منهما معنى ، ويتكون معنى الكلمة منهما معا ، أو عن طريق التعليل لتسمية الشخص أو غيره تعليلا لا سند له ، ولا دليل

---

٦) المصدر المذكور الجزء الثانى صفحة ٢٢٢

٧) البيان والتبين : الجاحظ : تحقيق هارون الجزء الثانى صفحة ٢١٢

عليه . أو عن طريق مشاركة الاسم لصفة من صفاته ، ضرب من الفكاهة والمرح ، ولون من السخرية سخرية المتكلم من السامعين واللعب بعقولهم وما وقرفيها ، وسخرية السامعين ... بمن يقول ذلك ويدعيه ، مبحثه الاشتقاق وتلمس الصلات بين معنى الاسم وصفات مسماه ، وإن نأت وبعدت وظهر فيها التكلف والاحتيال .

يقول الجاحظ : (وبعض المفسرين يزعم أن نوحا النبي عليه السلام ، إنما سمي نوحا لأنه كان ينوح على نفسه ، وأن آدم إنما سمي آدم لأنه حذي من أديم الأرض . وقالوا : كان لونه فسمي أدمة لون الأرض ، وأن المسيح إنما سمي المسيح لأنه مسح بدهن البركة . وقال بعضهم : لأنه كان لا يقيم في البلد الواحد . وكأنه ماسح يمسح الأرض)[1] .

ويقول : (كان عبد الأعلى إذا قيل له : لم سمي الكلب قلطيا ؟ قال : لأنه قل ولطى ! وإذا قيل له : لم سمي الكلب سلوقيا ؟ قال : لأنه يستل ويلقى ! وإذا قيل له : لم سمي العصفور عصفورا ؟ قال : لأنه عصى وفر !)[2] .

وهذه التأويلات كلها على سبيل المرح واللعب والدعابة والمزاح[3] ، والسخرية الآتية من الاشتقاق ، والعبث بالكلمة ، وبعقل السامع بتوجيهه غير وجهته .

ومما يبعث السخر أن يشتق المتكلم صفة قبح من اسم الشخص وتكون تلك الصفة حقيقية فيه ، فيصير العلم كأنه الصفة تهكما وهزءا ، وقد روى الجاحظ من ذلك هذه السخرية (أكل أعرابي مع أبي الأسود الدؤلي ، فرأى له لقما منكرا ، وهاله ما يصنع . قال له : ما اسمك قال : لقمان . قال : صدق أهلك ، أنت لقمان)[4] . فاشتق من طريقته في الأكل صفة تشترك مع اسمه في اللفظ ، وكأنه إنما سمي لقمان من أجل لقمه ، أو كأن أهله عرفوا صفته في قابل أيامه فسموه بها .

. . .

---

(١) كتاب البخلاء : الجاحظ : ضبط العوامري والجارم الجزء الثاني صفحة ٤، ٥٧ (تحقيق الحاجري

(٢) كتاب البخلاء : الجاحظ : تحقيق العوامري والجارم ج ٢ ص ٢، ١٣ ، وتحقيق الحاجري ١٠٦

(٣) كتاب البخلاء : الجاحظ : شرح العوامري والجارم نهاية صفحة ١٣ من الجزء الثاني .

(٤) البخلاء : الجاحظ : تحقيق طه الحاجري صفحة ١٥٣

ص ـ التقعر :

وهو الغوص وراء الكلمات الخشنة الفخمة ، القلقة فى الأذن ، النادرة الاستعمال ، وجمعها مع بعضها فى عدة جمل ، قصدًا إلى إظهار البراعة اللغوية ، ودلاًّ بكثرة المحفوظ منها تعاليا وفخرًا ، وفى الوقت نفسه هزءًا بالسامع وسخرا ، حيث لم يصل إلى هذا المستوى اللغوى الرفيع ، فى نظره ـ وهذا وإن كان يسبب سخر المتكلم بالسامع فهو أيضا سر سخر السامع من المتكلم ، ولهذا أهمية عظمى فى مضاعفة السخرية وطرافتها ، لأن كلا منهما يعد الثانى خارجا من العرف والإلف والفكر الصائب ، وتبلغ السخرية مداها إن رد السامع على المتكلم بطريقته تلك ، وتعمد السخر بأن يأتى بألفاظ أشد خشونة من ألفاظه ، وأكثر تنافرا فى حروفها ، وقد ينتقيها لامعنى لها ، إمعانا فى السخرية والاستهزاء ، ورغبة فى ملء قلبه بالحيرة فى تفسيرها ، والحصول على اعترافه بجهله معانيها ، فيضيف إلى سخره منه ، وسخر السامعين به ، سخره من نفسه ، ويصير أضحوكة الجميع .

وفى كتاب البيان والتبيين للجاحظ أمثلة لذلك ، منها :

١ ـ (قال أبو علقمة النحوى : يا آسى ، انى رجعت إلى المنزل وأنا سنق لقس ، فأتيت بشنشنة من لوية ولكيك وقطع أقرن ، قد غذرن هناك من سمن ورقاق شر شعبان ، وسقيط مطمط ، ثم تناولت عليها كأسا ، قال له الطبيب : خذ خرقفا ، وسفلقا ، وجرفقا .. قال : ويلك ! أى شىء هذا ؟ قال : وأى شىء ما قلت ؟) (١)

٢ ـ (وقال زيد بن كثوة : أتيت بنى كشى هؤلاء ، فإذا عرس ، وإذا الباب فادرنفق ، وادمج فيه سرعان من الناس ، والصت ولج الدار ، قد لظى الحداد دلثة ، دهوربى على قمة رأسى ، وأبصرت شيخان الحى هناك ينتظرون المزية ، فعجبت إليهم ، فوالله إن زلنا

(١) البيان والتبيين : للجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون الجزء الثانى صفحة ٢٢٠

نظار نظاره حتى عقل الظل ، فذكرت أخلائى من بنى تبر فقصدتهم وأنا أقول :

تركن بنى كشن وما فى ديارهم   عوامد واعصوصبن نحو بنى تبر

إلى معشر شم الأنوف قراهم   إذا نزل الأضياف من قمع الجزر

وانصرفت ، وأتيت باب بنى تبر ، وإذا الرجال صفيتان ، وإذا أرحاء كثيرة ، وطهاة لا تحصى ولحمان فى جثمان الآكام) (٢)

٣ـ (مر أبو علقمة النحوى ببعض طرق البصرة ، وهاجت به مرة ، فوثب عليه قوم منهم فأقبلوا يعضون إبهامه ، ويؤذنون فى أذنه ، فأفلت منهم ، فقال ، مالكم تكأكأتم على كما تكأكئون على ذى جنة ، افرنقعوا عنى ، قال ، دعوه فإن شيطانه يتكلم بالهندية) (٣)

٤ـ (هاج بأبى علقمة الدم فأتوه بحجام ، فقال للحجام ، اشدد قصب الملازم وأرهف ظبات المشارط وأسرع الوضع ، وعجل النزع ، وليكن شرطك وخزا ، ومصك نهزا ، ولا تكرهن أبيا ، ولا تردن أتيا ، فوضع الحجام محاجمه فى جونته ثم مضى) (٣)

* * *

٦ـ أسلوب الحكيم :

والمراد به هنا أن يسأل شخص عن شئ ، فتكون إجابته على غير ما يقتضيه السؤال وينتظر السائل معرفته ، إذ يلوى المخاطب الجواب وينحو به ناحية أخرى غير ما يقتضيه ظاهر السؤال وغرض السائل ، ومدار السخرية بعد الجواب عن هدف السائل من سؤاله ، مما يترتب عليه إهدار السؤال ، وعدم الاهتمام برغبات السائل ، وتركه مهتاج النفس حائرا لفكر ، والمخاطب يتعمد ذلك فيحول إجابته عن القصد السوى استهزاء بالسائل ، إما لتفه سؤاله ، وإما لإحراجه

---

٢) المصدر السابق : الجزء الرابع ، صفحة ١٠٩

٣) المصدر المذكور : الجزء الأول صفحة ٣٧٩ ، ٣٨٠

السامع ، وإما لتوقع عقوبة أو سقوط فى كمين ، إن كانت الإجابة صريحة مباشرة فإذا لم يتلق السائل الجواب المناسب ، اعتقد فساد سؤاله ، أو ضعف تركيبه أو عدم استواء ألفاظه ، فيكرره بطريقة أخرى ، فيكون الجواب على النمط الساخر الأول ، وفى ذلك ما فيه من العبث والاستهزاء . ومن ذلك :

١ — ما حدث بين خالد بن الوليد وبين عبد المسيح بن عمرو بن قيس الغسانى ، فقد (قال له خالد : من أين أقصى أثرك ؟ قال : من صلب أبى . قال : فمن أين خرجت ؟ قال : من بطن أمى . قال : فعلام أنت ؟ قال : على الأرض . قال : ففيم أنت ؟ قال : فى ثيابى . قال : ما سنك ؟ قال : عظم . قال : أتعقل ، لاعقلت ؟ قال : أى والله وأقيد قال : ابن كم أنت ؟ قال : ابن رجل واحد . قال : كم أتى عليك من الدهر ؟ قال : لو أتى على شئ لقتلنى قال : ما تزيد فى مسألتك إلا عمى ؟ قال : ما أجبتك إلا عن مسألتك)(1)

٢ — (وقال الحجاج لرجل من الخوارج : أجمعت القرآن ؟ قال : أمتفرقا كان فأجمعه ! قال : أتقرؤه ظاهرا ؟ قال : بل أقرؤه وأنا أنظر إليه . قال : أتحفظه ؟ قال : أخشيت فراره فأحفظه)(2)

٣ — (أراد رجل أن يكذب بلالا ، فقال له يوما : يا بلال ، ما سن فرسك ؟ قال : عظم . قال : فكيف جريه ؟ قال : يحضر ما استطاع . قال : فأين تنزل ؟ قال : موضعا أضع فيه رجلى . فقال له الرجل : لا أتعنتك أبدا)(3) .

ونرى هنا كيف سخر بلال من الرجل وأجابه إجابات غير مباشرة ، وفوت عليه قصده (وهو تكذيبه) ، وأفحمه وأخجله ، وجعله هزأة ، وناله بسخريته القارعة ، التى جعلته يقلع عما هو فيه قائلا : لا أتعنتك أبدا ، فقد أراد أن يحرجه فأحرج هو ، ونصب له الشباك فوقع هو فيها .

---

1) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الثانى صفحة ١٤٧ ، ١٤٨

2) المصدر المذكور صفحة ١٤٨

3) المصدر السابق الجزء الرابع صفحة ٥٩٨

٤ — (قلت لأعرابي : أتهمز إسرائيل ؟ قال : إني إذن لرجل سوء .. قلت أتجر فلسطين ؟ قال : إني إذن لقوي) (٤)

٥ — (قيل لأعرابي : أتهمز الرمح ؟ قال نعم . قيل له : فقلها مهموزة .. فقالها مهموزة . قيل له : أتهمز الترس ؟ قال : نعم . فلم يدع سهما ولا ترسا إلا همزه . فقال له أخوه وهو مهزأ به : دعوا أخي فإنه يهمز السلاح أجمع) (٥)

والسخر هنا من إجابة الأخ غير المتوقعة التي تحمل الهزء وتغير المطلوب من السؤال ، وتحويله ناحية التهكم والطنز .

٦ — (قدم آخر على صاحب له من فارس ، فقال : قد كنت عند الأمير ، فأي شيء ولاك ؟ . قال : ولاني قفاه .) (٦)

---

٤) المصدر المذكور الجزء الثاني صفحة ٢٠٤ ، الأذكياء صفحة ١٢١

٥) المصدر المذكور صفحة ٢٢١ ، ٢٢٢

٦) المصدر السابق : الجزء الرابع . صفحة ٥٠

الفصل الســـــادس

المخريمــات الذهنيـــــــــة

وهى إحدى الجوانب - بل أهم الجوانب - التى شاعت فى أدب الجاحظ الساخر ، وانتشرت فى مؤلفاته ، فاحتلت مساحة واسعة من إنتاجه ، تتناسب معه كرجل فكر ، وفنـــان سخر ، وأمده بها علم غزير ، ومعرفة مبسوطة ، عميقة وثبت جذورها خبرة بالناس وأحوالهم ، وما يدور فى دواخلهم ، وأعطى لها نكهتها ولذعها ، لماحية وفطنة ، وسرعة خاطر ، وحضـــور جواب .

وإذا كان الجاحظ قد اغترف من كل علم ونهل من كل فن ، وأتقن الصناعات البيانيـــة والذهنية ، فامتلك زمام الكلام ، وأعنة الفكر ، فلا عجب أن تأتى سخرياته قارعة فارعة ، وأن تكون سخرية الذهن الحاد ، والفكر المحكم ، أهم ما يعنى به ، لأن العلماء أصفياؤه ، والأدباء جلساؤه والمتكلمين والمفسرين خلطاؤه ، وسخرياته إنما تكون مع هؤلاء الذين يلتقى بهم ، ويحيا بينهم ويناقشهم ، ويكون موضعها ما شذ من أقوالهم وأفعالهم ، وخلقتهم وخلقهم ، لأنه ما يقع تحت حسه ويكون فى مجال سمعه وبصره ، ولأن العلم والأدب أكثر ما يجتذب انتباهه ، وأشد ما يغار عليه ويهب لحمايته ، والذود عنه ، فتأتى سخرياته رقيقة ناعمة ، تناسب علمهم ، وتماشى أدبهم ، عميقة مستترة ، تلائم ثقافتهم وذكاءهم ، لا تكاد تدرك إلا بعد تأمل وتفكير ، وبعد انقضاء فترة على إلقائها ، يحلل فيها العقل وجهتها ، ويدرس تعاريجها ، سواء فى ذلك ما ابتدعه ، أو ما ولده ، أو ما اختاره ليحكيه من غيره ، لأنه أكثر ما يعجب بهـــذا اللون الدقيق .

وإذا كان للعلماء فى بعض الحالات شرود ، وفى بعض الآراء جهل وطيش ، وفى بعض التصرفات حمق ورعونة ، لا يفطن فيها الغبى الساذج .

وإذا كان للمتكلمين والمفسرين والمحدثين هفوات وتداعات ، لا يسقط فيها العامى والأمى .

وإذا كان للأدباء في مواقفهم — أخطاء نحوية ولغوية وعروضية ، وتفاهة معان ، وغثاثة ألفاظ ، وقبح نظم ، لا ينحدر إليها العوفي السوقي .

وإذا كان للجاهل مدعي العلم ، وللبكيء مدعي الفصح ، وللمقدم المفاخر بالشجاعة والذكاء ، قصص ونوادر ، يتضح فيها أمرهم وتظهر للناس حقيقتهم ، ويبدين غباؤهم وعجزهم .

فإن ذلك لما يؤجج نيران السخرية ، ويسعر أتون الهزء في نفس الجاحظ ، الغيور على العلم والأدب ، ويدفع به دفعات قوية إلى رفع سوط السخر ، يؤدب هؤلاء وهؤلاء ويوضح لهم المحجة ، ويضع على جانبي طريقهم الصوى لعلهم يرشدون ، فهفوة العالم في علمه وهفوة الأديب في أدبه ، وهفوة المتكلم والمفسر والمحدث فيما يتناوله مما تخصص فيه ، ووقف عمره عليه ، وهفوة الجاهل والغبي ، والأحمق والعيي ، والمتفاصح المتعالم ، جريمة وجناية وسوءة ومهانة في حق العلم والأدب والفن ، وفي حق الإنسانية لأنه أحد أفرادها ، ولسن يكون جزاؤها أقل من السخر المؤذي ، والهزء المردي ، وما أحد لسان الجاحظ ، وما أقطع وألذع ألفاظه المسنونة المحماة ، وما أهول سخره حين يضع السخرة على سَفُّودِه .

لقد كان للجاحظ في ذلك أفانين ، وحيل وألاعيب ، أضاع بها ما بقي من عقل العقلاء ، ومحق ما تناثر من كرامة الوقورين ، وأضحك الناس عليهم أبد الدهر ، وجعلهم المثل والنموذج في هذه البابة .

ومن الجوانب الفنية التي تناولها للعبث بأذهان الظاريين الطارقين ، تنوع فيها وألهب بسخره كرامة أصحابها ، وتلاعب بعقولهم وأفكارهم :

١ـ ادعاء الحذق

٢ـ الغفلة والتغافل

٣ـ الخطأ في البديهي

٤ـ الحل الذي لا يصلح .

٥ـ الاحتجاج للبديهي

٦ـ الاحتجاج لمذهب فاسد .

  

١ـ ادعاء الحذق :

قد يكون المرء عالما فى ناحية من المعارف الإنسانية ، مجيدا للعمل متقنا ، قادرا على أن يطبق العلم على العمل ، وأن يبتكر ما لم يكن له وجود ، وأن يجعل من الأشياء التافهة أشياء جليلة ، رفيعة القدر ، فيخدم نفسه ، ويخدم الإنسانية وقد تعتريه عقبات لا يستطيع تذليلها وقد يقع فى أخطاء ربما لم يدرك ضررها ، وهو مع ذلك يوالى بحوثه ، ويسترشد بآراء غيره ، ويعرف لنفسه قدرها ، ولإنسانيته نقصها فيهيجنا بذلك على احترامه ، ويجبرنا على تبجيله وإجلاله .

وقد يكون المرء فج التفكير ، سقيم الرأى ، معروفا بذلك بين الناس ، مشهورا عندهم بحماقته وغبائه واقترابه من البله والعته ، فتدعونا عيوبه العديدة إلى الرثاء له ، والشفقة به والحدب عليه ، أكثر مما تدعونا إلى السخر منه والتهكم به :

وقد يكون المرء خامل الذكر ، خامد الهمة ، خائر العزيمة كليلا فى التفكير ، يقف فى الصف الأخير من بنى مهنته ، لكنه يدعى الإتقان والإجادة ، والحذق والنبوغ ، والبصر بأمور لا يستطيع غيره مهما بلغ أن يتوصل إلى دقائقها ، ويطلع على خباياها وأفعاله وأقواله تفصح عن عقل خرب ، وتفكير سقيم ، وجهول وغفلة .. إن رؤيتنا ظاهر حاله ، وسماعنا ادعاءه وبطالته مع معرفتنا بحقيقته ، واطلاعنا على باطنه ، ومع علمنا بالتناقض الواضح بين الظاهر والباطن والحقيقة والخيال ، تدعونا إلى التهكم به ، والسخرية منه ، ولذعه بقوارص الكلم ، وغمزه ولمزه لأن نفوسنا تنفعل لهذا المسلك الغريب ، والمزاج العجيب ، والتناقض بين الواقع والادعاء انفعال مرح وسرور ، فتزداد السخرية ، وتتسع الابتسامة وتبلغ قمة الضحك ، حين نسايره فى ادعائه ، ونشاركه فى كلامه ، ونظهر له الإصغاء والتلهف على جمع غرر حديثه ، ودرر كلامه ونظهر له الإصغاء والتلهف على جمع غرر حديثه ودرر كلامه ، ونوهمه أنه الفطن اللبق ، والبليغ المنطيق ، الذى وصل إلى ما لم يصل إليه غيره من بنى البشر .

يقول الجاحظ ساخرا من هذا الصنف من الناس الذى يدعى علم كل شئ أو يريد أن يعلم كل شئ : (من أراد أن يعلم كل شئ فينبغى لأهله أن يداووه فإن ذلك إنما تصور له بشئ اعتراه) (١) . ومن نوادر سخره بهذا الجانب ما افتتابه فى سخرياته :

١ــ (أقبل أبو سيف الممرور ــ وكان لا يؤذى أحدا ، وكان كثير الظرف ، من قوم مراة فحسبنى وقف علينا ، ونحن نرى فى وجهه أثر الجد ، ثم قال : والله الذى لا إله إلا هو إن الخرء لحلو ، ثم والله الذى لا إله إلا هو إن الخرء لحلو ، ثم والله الذى لا إله إلا هو إن الخرء لحلو يمينا بانه يسألنى الله عنها يوم القيامة . فقلت له : أشهد أنك لا تأكله ، ولا تذوقه ، فمن أين علمت ذلك ؟ فإن كنت علمت أمرا فعلمنا ما علمك الله . قال : رأيت الذبان يسقط على النبيذ الحلو ولا يسقط على الحازر ، ويقع على العسل ، ولا يقع على الخل ، وأراه على الخرء أكثر منه على التمر ، أفترون حجة أبين من هذه ؟ فقلت : يا أبا سيف ، بهذا وشبهه يعرف فضل الشيخ على الشاب) (٢) .

أبو سيف الممرور يدلى بشهادة ، ويؤيدها بدليلها والجاحظ ورفاقه يفاجئون بالقسم المؤكد والله إن الخرء لحلو ، ثم يكرر ثلاث مرات ، فترهف الآذان ، وتتحفز النفوس وتتطلع العقول لمعرفة الأمر الخطير ، والخبر العجيب الذى يقص عليه الممرور ، والوقوف على دليله وبرهانه والممرور يباهى بمعرفته ، ويفاخر بحذقه ، ويرى من واجبه أن ينشر علمه ، ويعرفه غيره ، ممن لا يمكن أن يصل إليه وحده ، فيقسم ، ويكرر القسم ، ويزيد فى مؤكدات قضيته ، إحساسا منه بأن عقولهم ــ لتفاهتها ــ لا تدركها ، فيسخر منه الجاحظ بقوله : أشهد أنك لا تأكله ولا تذوقه ، ثم بقوله : فإن كنت علمت أمرا فعلمنا ما علمك الله . فيجعل معرفة طعم الخرء أمرا جليلا يقصد للتعلم ، ويرغب فيه المتعلم ، ويصبو إليه ، بل هو أرفع من أن يصل إلى العقول بالتعليم لأنه إنما يأتى عن طريق الإلهام . ثم يقول له أخيرا بهذا وشبهه يعرف

---

١) الحيوان : الجاحظ : الجزء الأول صفحة ٥٩ ، ٦٠ .

٢) الحيوان : الجاحظ الجزء الثالث صفحة ٣٦٠ ، ٣٦١

فضل الشيخ على الشاب ، متهكما بادعائه الحذق ، معرضا بتفاهة معلوماته ، وركوبه الصعب فيما لا يستحق شيئا ، وإفناء عمره فى تعلم مثل هذه الأمور .

لقد رتب الجاحظ السخرية هنا ترتيبا فنيا دقيقا ، لتؤدى غرضها ، وتشعل بنارها :

أ — بدأ بالقسم بالله الواحد ليدل على أهمية المقسم عليه .

ب — أكد هذا القسم بإن واللام واسمية الجملة .

جـ — كرر هذا القسم المؤكد ثلاث مرات إمعانا فى التأكيد ليصدق السامعون الخبر .

د — أكد فى آخر قسمه بجملة يمينا باته يسألنى الله عنها يوم القيامة .

هـ — ثم تبدأ سلسلة تهكمات الجاحظ : أشهد أنك لا تأكله ولا تذوقه : ورغم أن الجملة منفية إلا أنها تجعل السامع يستحضر فى ذهنه صورة المعرور وهو يأكله ويذوقه .

و — وفى قوله علمنا مما علمك الله سخرية قاتلة حيث جعل نفسه طالبا للعلم راجيا الحصول عليه وقد جعل معرفة هذا من الأسرار الإلهية التى يهبها الله لعباده المخلصين بالإلهام والفيض والكشف .

ز — وأخيرا يختم هزءه بقوله : بهذا وشبهه يعرف فضل الشيخ على الشاب ، وكأن المعرور ما عاش إلا ليحصل هذا العلم ويقضى عمره فى معرفته .

٢ — (ادعى المكى البصر بالبراذين ، ونظر إلى برذون واقف ، قد ألقى صاحبه فى فيه اللجام فرأى فأس اللجام ، وأين بلغ منه ، فقال لى : العجب ، كيف لا يذرعه القئ ، وأنا لو أدخلت أصبعى الصغرى فى حلقى لما بقى فى جوفى شئ إلا خرج ؟ قلت : الآن علمت أنك تبصر ، ثم مكث البرذون ساعة يلوك لجامه ، فأقبل على فقال لى : كيف لا يبرد أسنانه ؟ قلت : إنما يكون علم هذا عند البصراء مثلك ، ثم رأى البرذون كلما لاك اللجام والحديدة سال لعابه على الأرض ، فأقبل على ، وقال : لولا أن البرذون أفسد الخلق عقلا لكان ذهنه قد صفا ، قلت له : قد كنت أشك فى بصرك بالدواب ، فأما بعد هذا فلست أشك فيه) (٣)

---

٣) المصدر المذكور صفحة ٣٢٦ ، أخبار الحمقى والمغفلين : ابن الجوزى : صفحة ١٤٨ ؛

هذا هو المكى الذى يدعى معرفة كل شيء ، ويحس أن الناس يعرفون جليل قدره ، وعظيم قيمته ، فيغبطونه نعمة الذكاء ، يدعى المعرفة بالبراذين ، ثم يفضح نفسه بأسئلة تفصح عن فرط جهله ، وتنمى عن ادعائه وكذبه ، والجاحظ ـ الخبير به ـ يتخذ من ادعائه المعرفة طريقا للسخرية منه ، فيلذعه اللذعة تلو اللذعة ، وهو ـ لجهله ـ لا يلمح سخريته ولا يفهم هزأه ، ويظنه يمدحه حين يقول له : (الآن علمت أنك تبصر) وحين يقول : (إنما يكون علم هذا عند البصراء مثلك) وحينما قال : (كنت أشك فى بصرك بالدواب ، فأما بعد هذا فلست أشك فيه) وإنما تعمد الجاحظ هذا الإطراء ليزيد المكى من أسئلته ولبفصح عن خبايا فكره ، وليدفعه إلى التنقيب والتقعر ، ومحاولة الاكتشاف والاستنباط والاستدلال ، ووضع القواعد الكلية ، ولينفض ما بداخل نفسه من تداعيات يظنها العلم الغامر على الأذهان ، فتزيد السخرية ، وتمتلئ نفس الجاحظ ونفوس قرائه بالمسرح والحبور .

يقول الجاحظ فى سخر مرير : (كان المكى طيبا ، طيب الحجج ، ظريف الجهل ، عجيب العلل ، وكان يدعى كل شيء على غاية الإحكام ، ولم يحكم شيئا) [4]

٣ ـ (قعد قدام زياد رجل ضائعى ـ من قرية باليمن يقال لها ضياع ـ وزياد يبنى داره فقال له : أيها الأمير ، لو كنت جعلت باب مشرقها قبل مغربها ، وباب مغربها من قبل مشرقها !

قال : أنى لك هذه الفصاحة ؟ قال : إنها ليست من كتاب ولا حساب ، ولكنها من ذكاوة العقل . فقال : ويلك الثانى شر !) [5]

فهذا الضائعى يدعى العلم والفهم ـ ويتيه بآرائه وأفكاره ، وهى ليست وليدة تعلم ولا نتاج معاناة ، وإنما هى دليل الذكاء الفطرى ، وأمارة العقل النير الملهم وهو هنا ينقد هندسة الدار ، وينقض أوضاع أبوابها ، فباب المشرق يجب أن يكون قبل المغرب ، ومحل مكانه

---

٤) الحيوان : الجاحظ : الجزء الثالث ط سنة ١٩٣٨ بتحقيق عبد السلام هارون ص ٣٢٥ ، ٣٢٦

٥) البيان والتبيين : الجاحظ : تحقيق عبد السلام محمد هارون الجزء الثالث صفحة ٢٤٠

فى المشرق باب المغرب ، ويلمح زياد خلطه وخبطه ، فيسخر منه على طريقة قلب المصحف وعكسه ، قائلا له : أنى لك هذه الفصاحة ؟ ويظن الشامى لفرط ثقته بنفسه ، أنه ينطق بحقيقة ، فيزداد غروره ، ويباهى بنفسه وذكائه ، بأن هذا العلم المتقن ، والرأى الباهر ، لم يتعلمه من كتاب ولا حساب ، ولكنها الذكاوة ، فيخطئ خطأ لغويا شنيعا يجمع فيه مع غباته هجنة ألفاظه ، وذلك أشر عليه من رأيه الخطير الذى باهى به .

٤ـ وقد يعبث الجاحظ بالمتحذلقين ويزداد افتتانه فى السخر منهم ، فيصور ليهم الحبل وينصب الفخاخ ، ويضع لهم بداخلها حلو الحديث ، وعجيب الخبر ، لينجذبوا إليها ، وينخدعوا هيا بما فيها ، فيسقطون لغفلتهم ، وتطبق عليهم منافذها ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . وقد وقع المكى فى تلك الحبالة التى يروى لنا الجاحظ رتبها قائلا : (قلت مرة للمكى : علمت أن الفارى حدث أن المخلوع بعث إلى المأمون بجراب فيه سمسم ، كأنه يخبره أن عنده من الجند بعدد ذلك الحب ، وأن المأمون بعث إليه بديك أعور ، يريد أن طاهر بن الحسين يقتل هؤلاء كلهم كما يلتقط الديك الحب ، قال : فإن هذا الحديث أنا ولدته ولكن انظر كيف سار فى الآفاق) (٦) .

لذا يبدأ الجاحظ حديث المكى بكلام اخترعه ولفقه ، يريد العبث بالمكى ، والسخرية منه وما شهر عنه من ادعائه الحذق ، والفخر بعلمه ومعرفته ، فكانت إجابة المكى كما توقعها الجاحظ ، فخرا بالعرفان ، وادعاء العمق ، وإبراز نفسه فى مكان الراوية الثقة ، الذى تسرى أحاديثه ، وتتناقل رواياته ، وتدور فى الآفاق ، ثم ترجع إليه ثانيا ، ولم يكتف المكى بأن يدعى أنه أول من روى القصة ، بل ادعى أنه ولدها واخترعها ، دون أن يكون شئ منها قد وقع .

هـ (خطب والى اليمامة فقال : إن الله لا يقر عباده على المعاصى ، وقد أهلك الله أمة عظيمة فى ناقة ما كانت تساوى مائتى درهم ، فسمى : مقوم ناقة الله) (٧)

---

٦) الحيوان : الجاحظ : تحقيق عبد السلام محمد هارون الجزء الثالث صفحة ٣٢٧

٧) البيان والتبين : الجاحظ : ج ٢ ص ٢٣٦ ، العقد الفريد ، ابن عبد ربه : ج ٤ ص ٢١٥ ، وأخبار الحمقى والمغفلين : ابن الجوزى ص ٩٦ .

فقد ادعى معرفته الناقة ، وأنه عليها ما توقف على خصائصها ، وصفاتها ، وعيوبها ، وأنه خبير في تقويم النوق ، حاذق في تحديد أثمانها ، فكانت ناقة صالح هذه ، ثمنها أقل من مائتي درهم . ولقد سخر منه الحضور واشتهر بالحذلقة بين الناس ، ولصقت به حذلقته في هذه النادرة ، فسمى باسمها ، ونسب إليها : مقوم ناقة الله .

٦ـ ومن ادعاء الحذق لون يبالغ فيه صاحبه ، ويدقق أشد التدقيق ، ويغوص ويتعمق ويجشم نفسه العناء ، ويلزم عقله التكلف ، ليؤدي المعنى على حقيقته ، دون زيادة أو نقصان ، والمعنى لا يحتمل كل هذا التعنت ولا يستحق ركوب تلك المخاطر ، ولا يمكن للعقل معرفته على التحديد ، والفرق بينه على التحديد ، وبينه على التقريب سهل مقبول ، لا يضر ولا يفيد ، فهذا الجهد الضائع ، والتعب المهدور ، والثورة النفسية التي تضطرب وتنفعل ، وتهز صاحبها هزا للوصول إلى الحقيقة بحذافيرها ، هي التي تهزنا للسخر ، وتجذبنا للتهكم وتهزأ ، وتضغط على رئتينا ضغطات متلاحقة ، لتواصل الضحك والقهقهة ، ومن أمثلة هذا اللون :

أـ (قال قاسم التمار : بينهما كما بين السماء إلى قريب من الأرض) (٨)

ب ـ (قال قاسم التمار : رأيت إيوان كسرى كأنما رفعت عنه الأيدي أول من أمس) (٨)

جـ ـ (قال الفتى : أمطرت البارحة على نيف وزيتونه ونصف ، أو زيتونة وثلث ، أو زيتونه وثلثي زيتونه ، أو ما أشبه ذلك ، بل أقول : أكلت زيتونه وما علم الله من أخرى . فقال موسى إن من الورع ما يبغضه الله ـ علم الله ـ وأظن ورعك هذا من هذا الورع) (٩)

٧ـ ومن ادعاء الحذق لون يخطيء المتكلم في معاني عباراته ، وينسب الأشياء إلى غير ما هي له ، ويتضارب كلامه حتى ليكاد يلتحق بكلام الممرورين ، ويسايره السامع في ذلك ويجاريه وهو مستمر في حذلقته ما تياه بمعرفته ، صلف بألمعيته رغم الوخز الخفي ، والسخر المستتر الذي يلذعه به السامع ، ولكنه عنه غافل ، بل يظنه الإطراء والتقريظ ، والمديح والإعجاب ومنه :

---

٨) البين والتبين : الجاحظ : تحقيق عبد السلام هارون الجزء الرابع صفحة ١٢ ،
والمثال الثاني في ثمار القلوب في المضاف والمنسوب : الثعالبي صفحة ١٤٢ ،

٩) الحيوان : الجاحظ : الجزء الثالث : صفحة ٤٣ ، ٤٤ .

(قال الجاحظ : حدثني ثمامة بن أشرس قال : شهدت رجلا يوما من الأيام ،وقد قدم خصما له إلى بعض الولاة ،فقال : أصلحك الله : ناصبي رافضي جهمي مشبه مجبر قدري ،يشتم الحجاج بن الزبير الذي هدم الكعبة على علي بن أبي سفيان ،ويلعن معاوية بن أبي طالب، فقال له الوالي : ما أتعجب إ من علمك بالأنساب ؟ أم من معرفتك بالمقالات ؟ فقال : أصلحك الله ،ما خرجت من الكتاب حتى تعلمت كل هذا) (١٠)

*   *   *

٢ـ الغفلة والتغافل :

المغفل يرى ما ليس موجودا ،ويفترض في نفسه أشياء يناقضها طبعه ،وتتنافى مع جبلته وخلقه ،ويرى للشيء علة هي أبعد ما تكون عنه ،ويرى ما لا يراه الناس ،ولا يبصر ما يبصرون لا يراعي المقام ولا ما يناسب الحال ،يتكلم حين يجب السكوت ويسكت حين يجب الكلام ،وإذا تكلم جاوز الموضوع واقترح الحلول التي تكون سببا في زيادة التعقيد ،فهو في واد والناس في واد آخر ،هو في عالم الخيال والأوهام ،وهم في عالم الحقيقة والواقع ،فهو شاذ في مجتمعهم وتصرفاته نابية عن تصرفاتهم ،وكلماته تثير تهكما تهم وسخرياتهم ،فيضحك الناس منه استهزاء وهو يظنه إكبارا وإعجابا ،فيتكرر ضحكهم ويعمق ،وتتوالى سخرياتهم وتشخص ،وربما اشتهر بذلك بين الناس ،فتصير رؤيته باعثة على السخرية جالبة للضحك والتهكم وهو لا يعلم حقيقة أمره ولا مقدار غبائه وجهله ، بل ربما ظن نفسه عالم العلماء وذكى الأذكياء ،ومن المحسن ملاحة ،واطلاعه على فاحش دائه ، وفيه يقول بشر بن المعتمر : ر

---

(١٠) أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي ص ١٥٠

وإذا الغبى رأيته مستغنيا أعيا الطبيب وحيلة المحتال (١)

ويقول صالح بن عبد القدوس :

وإن عناء أن تفهم جاهلا ويحسب جهلا أنه منك أفهم (٢)

أما التغافل : تعاقل لحمق ، وكيس فطن ، يتخذ ثياب الغفلة ، ويرتدى إهابها ليصل إلى غايته ، ويحقق آماله ، وهو يستطيع بتغافله أن يعرف أقدار الناس ، وخبايا نفوسهم وقد اتخذ الجاحظ التغافل أداة للمعرفة وحث عليه فقال : (إذا أردت أن تعرف مقدار الرجل العالم ، وفى أى طبقة هو ، وأردت أن تدخله الكبر وتنفخ عليه ، ليظهر لك فيه الصحة من الفساد ، فكن عالما فى صورة متعلم ، ثم اسأله سؤال من يطمع فى بلوغ حاجته منه) (٣)

كما اتخذه سلما للفكاهة ، وبابا للمزاح ، وكما جعله بابا فنيا من أبوابها للسخر الساخر ، يلجه فى رفق وأناة ، ويسير منه على حسب رغبة المسخرة وهواه ، ويوافقه على رأيه ومدعاه ليفضح امتلأبه عقله من تفاهات ، وما اكتظ فى نفسه من متناقضات ، قال الشاعر :

ليس الغبى بسيد فى قومه لكن سيد قومه المتغابى

ومن أمثلة الغفلة والتغافل فى أدب الجاحظ الداعية إلى السخر ، والموجبة له :

١ـ (إن رجلا قال لصاحبه : أبوك الذى جهل قدره ، وتعدى طوره ، فشق العصا ، وفارق الجماعة ، لاجرم لقد هزم ثم أسر ثم قتل ثم صلب قال له صاحبه : دعنى من ذكر هزيمة أبى ومن أسره وقتله وصلبه ، أبوك هل حدث نفسه بشئ من هذا قط) (٤)

---

١) البيان والتبين : الجاحظ الجزء ا ص ٢٤٥ ، ج ٤ ص ٢١م

٢) المصدر المذكور الجزء الأول صفحة ٢٤٦ ، ج ٤ ص ٢١م

٣) الحيوان : الجاحظ : الجزء السادس صفحة ٣٦

٤) المصدر المذكور الجزء الثانى صفحة ١٠١ ، وفى البيان والتبين ج ١ ص ٢٠٠ ، عيون الأخبار $\frac{١}{٢٣٣}$

غفل الرجل الثانى عن أن هذه صفات ذم ، واعتقد أنها صفات يمدح بها الرجل ، ويباهى الإنسان بوجودها فى أبيه ، فيفاخر بها الرجل الأول ، ويعيره بتفاهة أبيه وأنه لا يرتقى إلى المعالى ، ولا يطمح إلى نيل المجد كما فعل والده .

٢ـ (حدثنى ثمامة قال : مررت فى غب مطر ، والأرض ندية والسماء مغيمة ، والريح شمالية ، وإذا شيخ أصفر كأنه جرادة ، وقد جلس على قارعة الطريق ، وحجام زنجى يحجمه ، وقد وضع على كاهله وأخدعيه محجمة كأنها قعب ، وقد مص دمه حتى كاد يستفرغه . قال : فوقفت عليه وقلت : يا شيخ ، لم تحتجم فى مثل هذا اليوم ؟ قال : لمكان الصفار الذى بى) (٥)

الجو رطب ، والأرض ندية والسماء مغيمة ، والريح شمالية وليس ذاك يوم حجامة لأنها تكون من اهتياج الدم ، وشدة اندفاعه فى الشرايين ، ولذلك أغلب ما يكون فى الحر الشديد ، فأنكر ثمامه على الشيخ : احتجامه فى مثل هذا اليوم ، وصفرته الشديدة ، والدم الغزير الذى امتص منه ، وسعة المحجمة التى كأنها قعب ، وهذه العوامل كلها تدعو إلى الإشفاق والرثاء وتحجب السخر والمرح ، لأنها تؤدى إلى موت الرجل ، ولكنها ستكون معينة على السخر ، وستكون كل جزئية منها مثيرة للسهزء ، حين نسمع الرجل يفصح عن سبب احتجامه قائلا : لمكان الصفار الذى بى ، فتتضح غفلته وجهالته وضحالة تفكيره ، وارتكابه ما يزيد صفاره ويدنى أجله . وهو يظنه دواءه ، ومانع دائه ، ورؤيتنا إياه يتداوى من دائه بما يمكن لهذا الداء ، ويوطد له فى جسمه وهو غافل عما هو فيه ، يرى الأمور معكوسة ، والأوضاع مقلوبة ، يجعلنا نسخر من غفلته وحمقه ، فهو ليس مريضا بالاصفرار وإنما مرضه جهله وحمقه :

لكل داء دواء يستطب به | إلا الحماقة أعيت من يداويها

---

٥) جمع الجواهر : الحصرى : تحقيق البجاوى الطبعة الأولى سنة ١٣٧٢ هـ صفحة ١٨٧ ، ١٨٨ والحيوان : الجاحظ ، الجزء الثالث صفحة ٣٢ تحقيق هارون .

٣ـ (قال الجاحظ ، مررت بحمص ، فمر عتز يتيمه جمل ، فقال رجل لرجل معه ، هذا الجمل من هذا العتز ؟ فقال له : لا ، ولكنه يتيم في حجرها) (٦).

ومن الجهل الشديد ، والغباء المتراكم ظن العتز من الجمل ، وذلك يحدونا إلى السخرية وتزداد السخرية وتخوز حين ينكر عليه صديقه قوله فتظنه عاقلا زكيا ولكنه حين يدلى برأيه نتبين سقطه ، وأنه ليس أقل جهلا من الأول ، فنضحك عليه أضعاف ما ضحكنا من الأول لأنه حاول تبيان ذكائه ، فكان غباء وسفها .

والجاحظ يطرب لهذا اللون ، ويستظرفه ، ويقول : (وأنا أستظرف أمرين استظرافا شديدا : أحدهما استماع حديث الأعراب ، والأمر الثانى احتجاج متنازعين فى الكلام وهما لا يحسنان منه شيئا ، فإنهما يثيران من غريب الطيب ما يضحك كل ثكلان وإن تشدد وكل غضبان وإن أحرقه لهيب الغضب) (٧).

٤ـ وهذا آخر يظهر فى سمت العالم المنطيق ، فيركب الأقيسة ، ويأتى لنا بالمقدمات والنتائج ، ومقدماتها وهم ، ونتائجها خلط ، واستفهاماته جهالة وخبط ، فتسخر من تفاهة عقله ، ومزيد جهله ، ومنطقه الكاذب ، وعلمه الخادع ، كما فى السخرية التالية :

(كان عندنا واحد يتكلم فى البلاغة ، فسمعته يقول : لو كنت ليس أنا ، وأنا ابن من أنا منه ، لكنت أنا أنا وابن من أنا منه ، فكيف ؟ وأنا أنا وابن من أنا منه !) (٨)

ه‍ـ (كان واحد يسخر بالناس ، ويدعى أنه يرقى الضرس إذا ضرب على صاحبه ، فكان إذا أتاه من يشتكى ضرسه قال له إذا رقاه : إياك أن تذكر إذا صرت إلى فراشك القرد ،

---

٦) أخبار الحمقى والمغفلين : ابن الجوزى : نهضة بيروت ، صفحة ١٧٦

٧) الحيوان : الجاحظ : تحقيق هارون : الجزء الثالث ص٦ ط٢ عام ١٩٦٥ .

٨) البيان والتبيين : الجاحظ : الجزء الثانى ، صفحة ٢١٥ تحقيق هارون ج٢ ص٢٢٣ ،

تحقيق السندوبى ، وفى أخبار الحمقى والمغفلين : ابن الجوزى صفحة ١٧٥ ، ١٧٦ .

يقصد السخرية ، فهو قاطع لذا ذهب الناس يرونه للمن يقص ، وينشأ السخرية هنا ، التغافل ، وادعاء أنه يعمل لصالح الرجل ، ويريد راحته ومساعدته على ما يحبه ، وأنه يمدحه ويطرى صلاحه ، وهو يعلم أنه يضره ويؤذيه ، وينفر منه صيده ، ويحبط عمله . فقد لبس الجاحظ ثوب راهب ، وإن كان منطويا على خبث وخداع ، وتزيى بزى حمل ، وإن كان له روغان ثعلب ولدغ دساس .

٢ــ (قال الجاحظ : قلت للمكى : ما بال الفرسخ يكون فى هذه الطريق فرسخين ، والفرسخ يكون أقل من مقدار نصف فرسخ ؟ فتفكر طويلا ثم قال : كان كسرى يقطع للناس الفراسخ ، فاذا صانع صاحب القطيعة زادوه ، وإن لم يصانع نقصوه) (١)

ابتدأ الجاحظ حديثه للمكى بسؤال فيه التغافل ، وادعاء الجهل بمسألة يريد من المكى أن يوضحها له ، رغبة فى السخرية منه ، فلم يفطن لذلك المكى ، بل صدق أنه يسأل ليعرف أمرا يجهله ، وسُرّ من أن يتخذه الجاحظ حجة فى الإجابة على سؤاله ، ثم صدق ـــ لغفلته ـــ القضية ، وأن الفرسخ يزيد وينقص ، ثم أجاب إجابة خاطئة ، وعلل تعليلا فاسدا فجهل جهلا مركبا ، جعل السخرية منه تؤدى غايتها وتصل إلى مداها ، فيضحك الجاحظ ملء قلبه ، ويسارع إلى أذهاننا قول الشاعر العربى :

ولما رأيت الجهل فى الناس فاشيا   تجاهلت حتى ظن أنى جاهل

٣ــ الخطأ فى البديهى :

إذا جاوز الشيء حده ، وخالف طبعه ، وفقد اعتداله ، كان مثارا للتساؤل ، ومجالا للبحث من كوامنه ، ودواعى مخالفته ، فإن عظم ، أو اتجهت مخالفته نحو العظمة ، انفعلت النفس بالإكبار والإعجاب ، وإن انحط عن درجته واتجه إلى ناحية النقص ، وما التفت إليـــــ

---

(١) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الثالث صفحة ٣٢٧

السخرية منه ، والتهكم به ، أو رحمته والإشفاق عليه ، أو النفور والاشمئزاز منه ، على قدر نوع النقص، ودرجة المخالفة .

فالطالب الصغير الذى ينظم الشعر يدعونا نبوغه إلى الإعجاب به ، والمريض الذى يجهر لأنه لا يستطيع السيريثير فينا الشفقة والرحمة ، والطبيب الذى يضرب المريض يدفعنا إلى النفور والاشمئزاز من فعله ، والذى يخطئ فى البديهيات ، ويتناقض مع أيسر المعلومات يكون مجالا للسخرية والتهكم ، حيث يظهر فى مظهر الغبى الخامد الذهن ، فنضحك من مقالته ، ونسخر من تفاهته . ومن أمثلة ذلك فى أدب الجاحظ :

١ـ (قال الجاحظ : نسيت كنيتى ثلاثة أيام حتى أتيت أهلى ، فقلت لهم : بم أكنى ؟ قالوا : بأبى عثمان) (١)

وهل هناك أمر بديهى أوضح من كنية الشخص حتى ينساها ثلاثة أيام ؟ إن ذلك لا يتأتى منه إلا إذا ذهل أوجن ، أما أن يكون فيه بعض العقل ، فإننا لا نملك غير السخر منه ، والاستهزاء به ، ورواية نادرته لمن يعرفه ومن لم يعرفه طلبا للضحك ، وجلبا للسرور والمرح ، وطربا للأمر الغريب ، والخبر العجيب .

٢ـ (خطب عتاب بن ورقاء ، فحث على الجهاد ، فقال ، هذا كما قال الله تبارك وتعالى : كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول) (٢)

فالعربى الذى يعرف القرآن ، ويعرف الشعر ، ويفرق بينهما لأول وهلة ، كيف يخلط بينهما فيقول الشعر على أنه قرآن كريم ؟! إن ذلك يدعونا إلى السخرية ، بل إن غير العربى لو خلط بين الشعر والقرآن لضحكنا وسخرنا ، لأن أمر القرآن أشهر وأجل من أن يخفى ، والخلط بينه وبين الشعر لا يكون عند من له أدنى إلمام بلغة العرب .

---

١) معجم الأدباء / ياقوت ، الجزء ١٦ صفحة ٧٥ ، تاريخ بغداد ، الجزء ١٢ صفحة ٢١٤

٢) البيان والتبيين : الجاحظ : تحقيق هارون ، الجزء الثانى صفحة ٢٣٥ ، ٢٣٦

وعيون الأخبار ، ابن قتيبة ج ٢ ص ٤٩ ، العقد الفريد ج ٤ ص ٢١٥ .

٣ـ (كنا في منزل صاحب لنا إذ خرج واحد من جماعتنا ليقيل في البيت الآخر، فلم يلبث ساعة حتى سمعناه يصيح أوه .. أوه . قال : فنهضنا بأجمعنا إليه فزعين . فقلنا له: مالك !! وإذا هو نائم على شقه الأيسر وهو قابض على خصيته بيده ، فقلت له : لم صحت ؟ قال : إذا غمزت خصيتي اشتكيها ، وإذا اشتكيتها صحت ، قال ، فقلنا له ، لا تغمزها بعد حتى لا تشتكي . قال ، نعم إن شاء الله)[٣] .

فهذا يغمز خصيته بيده ، فيصيح ، ثم يعود إلى غمزها ، فيعود إلى صراخه ، دون قاعدة تعود عليه من الغمز أو الصراخ ، وهو لا يعرف أن الغمز سبب الصراخ ، ويخطئ فيظن له سببا آخر ، فلما عرف بأنه يجب أن لا يغمز خصيته حتى لا يصيح ، ابتهجت نفسه ، وسكن جأشه ، وكأنه إنما وقع على مفتاح سر عجيب ، وفهم طلسم أمر غريب ، لكنه لا يزال يشك في فاعليته ، فقال ، نعم إن شاء الله .

٤ـ (أعطى المحلول ابنه درهما ، وقال ، زنه ، فطرح وزن درهمين ، وهو يحسبه وزن درهم فلما رفعه وجده زالا ، فألقى معه حبتين فقال له أبوه : كم فيه ؟ قال ، ليس فيه شيء ، وهو ينقص حبتين)[٤] .

فقد أخطأ في الأمور البديهية عدة مرات ، ١ـ طرح وزن درهمين . ٢ـ ألقى معه حبتين حين وجده زالا ٣ـ قال عن الدرهم ليس فيه شيء ٤ ـ اعتقد أن الدرهم ينقص حبتين . فإذا كان الدرهم أمامه ، وقد أمسكه بيده ، ووضعه في الميزان فكيف يكون لا شيء أو ليس له وزن ؟! لهذا سخر منه الجاحظ ودعانا للسخرية منه ، ومما عمق السخر وقواه أن هذا الابن لم يكتف بقوله إن الدرهم ليس فيه شيء ، بل قال ، وهو ينقص حبتين .

وتلك جهات فنية دقيقة في السخر قام بحبكتها أستاذنا الجاحظ .

---

٣) أخبار الحمقى والمغفلين ، ابن الجوزي ، ص ١٩٠ ، الحيوان ، الجزء الثالث صفحة ٢١

٤) البيان والتبيين ، الجزء الرابع صفحة ٢٥ ، ٢٦

ج- الحل الذى لا يصلح :

قد يقترح الرجل لأمر من الأمور حلا يرى فيه صلاحه ، فإذا فيه فساده ، أو يراه ممكنا تحقيقه ، فإذا بعسير كل العسر ، أو محال الوقوع ، وقد يكون الحل سهلا ميسورا ، والأمر عاديا بسيطا ، ولكن أحدهم يقترح حلا يعقده ، ويخلق منه مشكلة يصعب الخلاص منها وتلك الحلول التى لا تصلح ، نسخر منها ، ونتهكم بصاحبها ، لما فيها من مجافاة العرف ومجانبة الصواب ، وظهورا لمرئ بمظهر مقيل العثرات وكاشف الكربات ، ومزيل النكبات ، فإذا به يوقع فيها ، أو يزيد الأمر سوءا وتعقيدا .

ومن أمثلة هذا اللون الفنى الساخر فى كتابات الجاحظ اللاذعة :

١- (مرض فتى عندنا ، فقال لعمه ، أى شئ تشتهى ؟ قال : رأس كبشين . قال : لا يكون ، قال : فرأسى كبش)(١).

والجانب الفنى هنا للسخر طلب المحال ، ثم اظهار التنازل عن كثير من الشروط ، وتغيير الطلب بما يمكن ، فإذا به لا يقل عسرا واستحالة عن الأول .

٢- (أتى قوم عباديا فقالوا : نحب أن تسلف فلانا ألف درهم وتؤخره سنة . فقال : هاتان حاجتان ، وسأقضى لكم إحداهما ، وإذا فعلت ذلك فقد أنصفت ، أما الدراهم فلا تسهل على ، ولكنى أؤخره سنتين)(٢).

وذلك لا يصلح ، لأنه ليس بحل ، ولقد سخر بالقوم حين قال : وسأقضى إحداهما ، وإذا فعلت ذلك فقد أنصفت ، وسخر ثانيا حين اعتذر عن ما يقصدونه وهو المال . وسخرية ثالثة هى التأخير سنتين . فأى شئ يؤخر ؟ ! وإنما كانت تلك سخريات لأنه اقترح حلا غير صالح للتطبيق العملى ، ولا يمكن إبرازه إلى الوجود الخارجى ، ولأنه بنى أمرا على غير

---

١) البيان والتبين : الجزء الثانى صفحة ٢٤١ ، العقد الفريد : ابن عبد ربه ج ٤ ص ٢١
٢) البيان والتبين : الجزء الرابع ص ٦ تحقيق هارون ، ج ٣ ص ٢١٥ تحقيق حسن السندوبى

شيء .

٣ـ (أرسل ابن لحجل بن لجيم فرساله في حلبة فجاء سابقا ، فقال لأبيه ما أبت ، بأى شيء أسميه ؟ فقال : افقأ إحدى عينيه ، وسمه الأعور)(٣) .

لم يجد في الفرس علامة مميزة حتى يسميه بها كالأدهم أو الأصهب أو غير ذلك من أسماء تطابق لونه أو بعض سمات فيه فاقترح فقأعينه ثم يسميه الأعور — ذلك الاسم الذي أعجبه ليطابق الاسم مسماه . وذلك الحل غير صالح في العرف والعقل ، وهل تكون مكافأة السابق بفقء عينه إلا في نظر عجل ؟!

∴ ∴ ∴

هـ الاحتجاج للبديهي :

الأمر البديهي معروف ، مسلم به ، لاجدال فيه ولا نزاع ، ويجب أن يلقى إلى المخاطب دون تأكيد ، ولا احتجاج ولا دليل .

فإذا أطال المتكلم الاحتجاج عليه ، وأتى بالبراهين له ، كان في ذلك السخرية بالسامع لأن المتكلم افترض جهله وغباءه ، وقصور عقله عن معرفة البديهيات ، والمتكلم أيضا يدعونا بذلك إلى السخرية منه ، لأنه لا يعرف الأمور ، ولا الناس ، ولا يراعى أحوال المخاطبين ، ومقامات الكلام .

ولقد سخر الجاحظ من هؤلاء ، وروى نوادرهم واحتجاجاتهم ، ومنها :

١ـ (خطب قبيصة — وهو خليفة أبيه على خراسان وأتاه كتابه فقال : إن هذا الكتاب الأمير وهو والله أهل لأن أطيعه وهو أبي وأكبر مني) (٤)

فالطاعة واجبة للأمير سواء أكان أبا أم غير أب ، أكبر منه أم أصغر . ثم إن الجميع

---

٣) المصدر المذكور تحقيق السندوبي الجزء الثاني صفحة ١٦٣

٤) البيان والتبيين ، للجاحظ ، الجزء الثاني صفحة ٢٤٩

~~فالطاعة واجبة للأمير سواء أكان أبا أم أخا ، وأكبر منه أم أصغر~~ ، ثم إن الجميع يعرفون على البداهة أن قبيصة ابن الأمير ، وما دام ابنه فهو أصغر منه فاحتجاج قبيصة لذلك البدهي هو الجانب الفني الذي من أجله صار الكلام سخرية .

٢ — (ذلك لم يكن أبا ، وإنما كان والدا) (*)

(قال أبو دينا رهو وإن كان أخا فقد ينبغي أن ينصف) (*)

إن البدهي أن ينال الأخ ، أكثر من الإنصاف ، فتجزله ويعطيه فوق حقه ، وتنصره وتعينه ولو كان هو الباغي ، وهذا لا يحتج له ، لأنه مسلك في غريزة الإنسان وجبلته ، ومن الغرابة أن تحتج له ، إلا إذا تجردنا من عواطفنا وأردنا العدل والانصاف والحق فإن التحيز حينئذ يحتاج إلى الحجج والبراهين .

وقد احتج أبو دينار لما لا يحتج له ، وذلك منبع السخر ، وقد اختار لذلك كلمات منها (وإن كان أخا) وهي التي أعطت السخرية مغزاها ولذعها . ومنها (فقد) التي للتقليل ، ثم كلمة (ينبغي) ولم يقل يجب مثلا ، وكل ذلك جعل للسخرية مذاقها ، ومحتا على التهكم بمن يحاول أن يعطي الإنسان بعض حقه ، وأن ينصفه من المعتدين عليه ، على الرغم من أنه أخوه . وكأن الأخوة عنده موجبة لظلم الأخ ، والبعد عن إنصافه ، والتعصب ضده .

والأول يفرق بين الأب والوالد وكأنهما متضادين وكأن أحدهما ذم وسبه والثاني مدح وإطراء ، أو كأن الشخصيتين متغايرتين متناقضتين .

. . .

٦ — الاحتجاج لمذهب فاسد .

وكما أن الشيء إذا كان بديهيا فاحتججنا له ، أدى ذلك الحجاج إلى السخرية والتهكم بالمحتج والمحتج له ، فكذلك إذا كان المذهب فاسدا ، والرأي خاطئا فإن الاستدلال

---

*) المصدر المذكور الجزء الرابع صفحة ١٥

على صوابه ، والبرهنة على صحته ، مع ظهور سقطها ، واتضاح زللها تقودنا إلى السخرية وتحثنا على التهكم والاستهزاء ، وللجاحظ سخريات من المذاهب الفاسدة التي برهن علينا أصحابها من المفسرين والمحدثين والعلماء ، ببراهين جدلية واستدلوا لها بأدلة سفسطية ، تحمل معها دليل بطلانها ، وأمارة فسادها .. ومنها :

١ — (وزعم بعض المفسرين ، أن السنور خلق من عطسة الأسد ، وأن الخنزير خلق من سلحة الفيل ، لأن أصحاب التفسير يزعمون أن أهل سفينة نوح لما تأذوا بكثرة الفأر ، وشكوا إلى نوح ذلك سأل ربه الفرج ، فأمره أن يأمر الأسد فيعطس ، فلما عطس خرج من منخرية زوج سنانير ذكر وأنثى ، خرج الذكر من المنخر الأيمن ، والأنثى من المنخر الأيسر فكفياهم مئونة الجرذان ، ولما تأذوا بريح نجوهما شكوا ذلك إلى نوح ، وشكا ذلك إلى ربه ، فأمره أن يأمر الفيل فيسلح ، فسلح زوج خنازير فكفياهم مئونة رائحة النجو ، وهذا الحديث نافق عند العوام ، وعند بعض القصاص)⁽¹⁾ .

(لذلك كان السنور أشبه شيء بالأسد .. وكان الخنزير أشبه بالفيل ، قال كيسان : فينبغي أن يكون ذلك السنور آدم السنانير وتلك السنورة حواؤها)⁽²⁾ .

لما رأى بعض المفسرين التشابه بين الأسد والسنور ، وبين الفيل والخنزير اخترعوا القصة واحتجوا لها بوجود التشابه ، وحجتهم واهية ، ودليلهم إنما ينفق عند العوام وبعض القصاص وعلى ذلك فهذا السنور آدم السنانير ، وتلك السنورة حواؤها — كما روى الجاحظ عن كيسان وهذا سخر منه يفج تفكيرهم ، وفساد مذهبهم ، كما أن رأيه في رواج هذا الكلام عند الجهال من العوام وبعض القصاص سخرية لاذعة للمذهب وللاحتجاج له .

---

١) الحيوان للجاحظ ، الجزء الخامس صفحة ٣٤٧ ، ٣٤٨ .

٢) ج ١ ص ١٤٦ من المرجع المذكور .

٢ـ (وبعض أهل التفسير يزعم أن الله عز وجل عاقب الحية ـ حين أدخلت إبليس فـي جوفها حتى كلم آدم على لسانها ـ بعشر خصال ، منها شق اللسان ، قالوا : فلذلك ترى الحية أبدا إذا ضربت لتقتل كيف تخرج لسانها تلويه كما يصنع المترجم من الناس بإصبعه إذا ترجم أو دعا لترى الظالم عقوبة الله تعالى لها)(٢)

وذلك أنهم رأوا لسانها المشقوق ، فاخترعوا مذهبا يبين علمهم وفوقهم ، فقالوا ما قالـوا وأتوا بما يشبه الدليل على رأيهم واعتقادهم ولما كان رأيا فاسدا ، ومذهبا لا سند لـــه كان رسول السخر مرتائد البنزء .

٣ـ (ويزعم زرادشت ، وهو مذهب المجوس ـ أن الفأرة من خلق الله ، وأن السنور مـن خلق الشيطان ، وهو إبليس ، وهو أهرمن ، فإذا قيل له : كيف تقول ذلك ؟ والفأرة مفسدة تجذب فتيلة المصباح فتحرق بذلك البيت والقبائل الكثيرة ، والمدن العظام ، والأرضين الواسعة بما فيها من الناس والحيوان والأموال وتقرض دفاتر العلم وكتب الله ودقائق الحساب والصكاك والشروط ، وتقرض الثياب ، وربما طلبت القطن لتأكل بذره ، فتدع اللحاف غربالا وتقرض الجرب وأوكية الأسقية ، والأزقاق والقرب فتخرج جميع ما فيها ، والناس ربما اجتلبوا السنانير ليدفعوا بها بوائق الفأر ، فكيف صار خلق الضار المفسد من الله وخلق النافع من الضرر من الشيطان ، والسنور يصطاد بعض كل شئ خلقه الشيطان من الحيات والعقارب والجعلان وبنات وردان ، والفأرة لانفع لها ، ومضرتها عظيمة ، قال : لأن السنور لو بال في البحر لقتل عشرة آلاف سمكة ، فهل سمعت بحجة قط ، أو بحيلة أو بأضحوكة ، أو بكلام ظهر على تلقيح هرة يبلغ مبلغ هذا الاعتلال ، فالحمد لله الذى كان هذا مقدار عقولهم واختيارهم)(٣) .

---

٢) ج ١ ص ١٤٦ من المرجع المذكور .

٣) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء السادس صفحة ٢٤ ، ٢٥ الجزء الرابع صفحة ١٦٤

وتكمن سخرية الجاحظ من هذه القصة وحورته في تسميتها حجة أو حيلة أو أضحوكة . أو كلاما تكلف صاحبه الموزون الثقال للامتثال له والاحتجاج لإثباته ، مع فساده وخطئه . ثم قوله : فالحمد الله الذى كان هذا بمقدار عقولهم واختيارهم ، وفيه سخرية بتفاهة هذه العقول وصغارها وشكر لله على ما خلقهم عليه من ضلال حتى لا يطيقون مناهضة الدين الإسلامى .

الباب الخامس

دلالة سخرية الجاحظ على عصره

تمهيـــد :

لم يتمسك الجاحظ بالاختصاص بفن بعينه ، أو يقصر نفسه على علم بذاته ، أو يضع عقليته في دائرة محصورة ، كما فعل علماء زمنه ، وأدباء عصره ، وإنما كتب في كل فن وخاض بحار كل علم ، وأبت عليه نفسه الطلعة ، وعقله المواتي ، إلا أن يكون أمة وأن يكون عصراه وأن يحوى في داخله جيلا من الزمان ، ومن العجيب أنه رغم هذه السماحة الواسعة في العلم والامتداد غير المحدود في الأدب والفن ، كتب أجود من المتخصصين ، وأرقى ممن ضيقوا على أنفسهم المجال ، وانتحوا زاوية من المعارف لا يجاوزونها ، خوفا من العثار وطلبا للإجادة ، ورغبة في التدقيق والتمحيص .

وما أدرى أأسلك الجاحظ في سمط علماء الحيوان فيكون رأسهم بكتابه " الحيوان " ؟ أم في سمط علماء الدين فيكون إمامهم في كتابي " حجج النبوة " " والرد على النصارى " ؟ أم أجعله في مصاف الأدباء فيكون رأسهم في كتابه " البيان والتبيين " ؟ أم أنسبه إلـــى المتفننين المتفكهين الساخرين فيبذهم بكتابه " البخلاء " ورسالة " التربيع والتدوير " ؟ أم أضعه مع علماء الكلام فيكون الدرة والغرة ، وشيخ الاعتزال ، وإمام الطائفة الجاحظية ؟ أم أجعله ناقدا من الناقدين فينقدهم ويخطئهم ، كما في سائر مؤلفاته ؟ ويجوز لي أن أضمه إلى كتاب الديوان فقد مارسها لمدة ثلاثة أيام ملأ فيها الروح روح زميلهم سهل بن هارون لرقا من أفول نجم الكتاب ؟ ويصح لي أن أجعله من الكتاب غير الديوانيين على نحو ما رأى عليه إسحاق بن سليمان فأصيب كبد الحقيقة ، ولا أبعد عما أجمعت عليه الخليقة .

والحق الذي لا مراء فيه ، والرأى الذي يخرجني من هذه الضائقة ، أن أصفه بكل ذاك وأن لا أجعله أسير علم معين ، أو فن محدد ، فإنه خرج بكتابته عن الحدود والقيود ، وعشق الحرية بكامل معانيها ، فكتب في جميع معارف زمنه ، وما قبل زمنه وفي سائر فنون عصره وما قبل عصره ، وقارن ووازن وبحث وفحص ، واستدل واستنبط ، وجرب وحقق ، وما رس بنفسه الأعمال اليدوية ، ولكن الذي يجمع ذلك كله على اتساعه ، ويشترك فيه رغم امتداده وانفساح

باعه هو ، " فن السخر " ، فما من كتاب من كتبه ، أو رسالة من رسائله ، فى جد أو هزل ، إلا وللسخر منها نصيب ، حتى آراء مفسرى القرآن ، وشارحى أحاديث الرسول ، وفتاوى فقهاء الشريعة ، لم تخل من ساخر هجماته ، بل لعلها كانت أعنف الهجمات ، ذيادا عن الإسلام وحفاظا على حرية الفكر الدينى فيما له فيه مجال .

ونستطيع من خلال سخريات الجاحظ ، المبثوثة فى كتبه ، والتى تحوى ما كان فى مجتمعه الذى عايشه ، واختلط بطبقاته ، وعرفهم عن كثب ، أن نكون صورة واضحة عن عصره ومصره ، وأن نستلهم رسائله وخطائره الكشف عن نواحى الحياة التى سادت مجتمعه ، اجتماعية أو سياسية ، علمية أو أدبية أو ثقافية وأن نبرز الأخلاق الشائعة فى زمنه ، والمعتقدات المسيطرة على أذهان معاصريه ، وأن نتبين مقاييس الحسن والقبح فى نظرهم ، فللأدب الهازل مجال يعجز عنه الأدب الجاد ، وللفن الساخر رجال يملكون بالكلمة والحركة والإشارة مالا يملكه المؤرخ المدقق ، والعالم المحقق .

⁂

الفصل الأول

الحياة الاجتماعية ، والأوضاع السياسية

١ـ الحياة الاجتماعية :

إذا تقرينا سخريات الجاحظ ، وتتبعنا مراميها ، واستبطنا مدلولاتها ، أمكننا أن نقف منها على ما يبرز النواحي الاجتماعية ، التي صبغت عصره بصبغة خاصة ، وتركت بصماتها واضحة في أدبه تدل عليها ، وتشير اليها ، وتنير لنا الطريق ، لنستشف ما كان عليه المجتمع في تلك الحقبة من الزمان .

ونحن حين نتأمل ذلك ، ونستوحي السخر كشفه ، تتضح لنا حقيقة الحياة الاجتماعية في العصر العباسي ، ونعرف مظاهرها .

•• •• ••

١ـ فنعرف أن الثروات قد تضخمت ، وتجمعت في أيدي فئات من الناس بشمت بها خزائنهم وضاقت عنها دورهم ، منهم الطبقة الحاكمة ، من الخلفاء ، والوزراء ، وعمال الخلافة على الأقاليم ، والطبقة المساندة لهم ، من رؤساء الجند ، وكتاب الديوان ، والقضاة ، وجباة الضرائب ، والطبقة التي تعمل على تثبيت الملك ورقي الدولة ، ونهضتها الفكرية والأدبية كالعلماء ، والمترجمين والكتاب والطبقات التي تمت إلى رجال الحكم والرياسة بوا شجة كالشعراء والمغنين ومن يدخلون البهجة والسرور في قلوب الخلفاء ، وحاشيتهم ، من مهرجين ومضحكين ، وسقاة ، كما كان للطبقات التي تتحكم في أقوات الشعب من كبار التجار والصيارفة ثراء عريض ، فامتلكوا الأموال الطائلة ، والجياد الفارهة ، والضياع الواسعة .

وسخر الجاحظ الذي أخذ بيدنا إلى تلك الحقائق كثير موفور فمنه :

(حدثني المصرى ، وكان جار الدار درپشى ، وماله لا يحصى ..)[1]

(قال المكى ، كان لأبي عم بقال له سليمان الكثرى ، سمى بذلك لكثرة ماله ..)[2]

(وحدثني أحمد بن المثنى عن صديق لي وله ، ضخم البدن ، كثيرا لعلم ماشيا لقلة عظيم الولايات ..)[3]

فهولاء ممن بلغت أموالهم حدا لا يستطاع حصره ، واتسعت ضياعهم ، وعظمت ولا ياتهم فما يمكن الوقوف على حدودها .

وهناك من كان وافر الثراء إلا أننا نستطيع حصر أمواله ، وتحديد ثروته منهم أبو قطبة فقد (كان أبو قطبة يستغل ثلاثة آلاف دينار ...)[4]

(وأما زبيدة بن حميد الصيرفي ، فإنه استلف من بقال كان على باب داره درهمين وقيراطا ، فلما قضاه بعد ستة أشهر ، قضاه درهمين وثلاث حبات شعير فاغتاظ البقال .

فقال ، سبحان الله ! أنت رب مائة ألف دينار ، وأنا بقال لا أملك مائة فلس ، وإنما أعيش بكدى ، وباستفضال الحبة والحبتين ..)[5]

(ومن طياب البخلاء أحمد بن خلف اليزيدى[6] ، ترك أبوه في منزله يوم مات ألفى ألف درهم ، وستمائة ألف درهم ، وأربعين ومائة ألف دينار ، فاقتسما هو وأخوه حاتم قبل دفنه ، وأخذ أحمد وحده ألف ألف وثلاثمائة ألف درهم ، وسبعين ألف دينار ذهبا عينا مثاقيل وازنة جيادا سوى العروض)[7]

---

١) البخلاء ، الجاحظ ، ضبط العوامرى والجارم الجزء الثانى صفحة ٦٠

٢) المصدر المذكور ، صفحة ٤٣

٣) المصدر المذكور ، الجزء الأول صفحة ١٠٤

٤) المصدر المذكور ، الجزء الثانى صفحة ٢٩

٥) المصدر المذكور ، الجزء الاول صفحة ٧١

٦) أعتقد أنه أحمد بن خلف المذكور في رسالة التربيع والتدوير في قول الجاحظ (لئن نهضت بصالح بن على لأنهضن بأحمد بن خلف) وعلى ذلك لهو من مشاهير رجال الدولة وذوى السلطة والنفوذ الذين يستحيان بهم ويحتمى .

٧) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، ضبط العوامرى والجارم الجزء الأول صفحة ٧٨.

وكان المهمض يمتلك الأراضي الواسعة المساحة ، الكريمة التربة ، الجيدة الغلة ، الوافرة النتاج ، (قال الخليل السلولي ، أقبل علي يوما الثوري ، وكان يملك خمسمائة جريب(٨) ما بين كرس الصدقة إلى نهر مرة ، ولا يشتري إلا كل قوة ، وكل أرض مشهورة بكرم التربة وشرف الموضع ، والغلة الكثيرة)(٩)

ومن اقتنى الجياد الوافرة العدد سلم بن قتيبة(١٠) ، (وكان سلم بن قتيبة يركب بغلة وحده ، ومعه أربعة آلاف رابطة ورآه الفضل بن عيسى على حمار وهو أميره فقال ، بذلة نبي وقصود جبار !)(١١)

وقد حصل الجاحظ نفسه على الأموال الطائلة مما كتبه للخلفاء والوزراء والقضاة ووجهاء الدولة ، ويروى ذلك من نفسه قائلا ، (أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى أحمد بن أبي دواد فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولي وأعطاني خمسة آلاف دينار فانصرفت إلى البصرة ومعي ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد)(١٢)

* * *

٣ — ونعرف أن البخل قد تمكن من نفوس كثير منهم ، وأن الشح ضرب قبابه ودق أوتاده وأقام معهم ، وملك على بعضهم عقله وحسه ، فلا يفكر إلا في المال ، ولا يتصرف أو يتحرك

---

٨) أبو عبد الرحمن الثوري وكان تاجرا من تجار البصرة وسريا من سراتها .

٩) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، ضبطه العوامري والجارم الجزء الثاني صفحة ٥

١٠) كان أبوه من أمراء الدولة المروانية ، وكبار الفاتحين فيها ، وتولى هو البصرة في آخر عهدها ، وفي عهد العباسيين ولاه أبو جعفر المنصور عليها .

١١) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، ضبط العوامري والجارم الجزء الثاني صفحة ١٦٥

١٢) معجم الأدباء ، ياقوت ، الجزء السادس عشر صفحة ١٠٦

المصدر

المصدر

إلا لجمعه وخزنه ، وحبسه حتى عن عياله ونفسه ، وبدا أول قرضه ، مع وفرة ماله ، وكثرة ناطقه وصامته ، وقد ألف الجاحظ كتابه البخلاء ، وصرح فيه بأسماء بعض مشهوريهم في عصره وغاص في أعماقهم فاستخرج مكنونات نفوسهم ، وكشف مدى السخاء ، وأصحاب النفخ منهم ، وقد استطعنا بما كتب في ذلك السفر الجليل أن نقف على هذا اللون من العيوب الاجتماعيـــة في عصره ، ولنعرف مدى تغلغله في أبناء جيله ، وما كان لهم فيه من فنون ، بلغت حد المجون .

فهذا أحمد بن خلف الذي ورث آلاف الدراهم وآلاف الدنانير سوى العروض يتحدث عنه الجاحظ قائلا : (فقلت له وقد ورث هذا المال كله : ما أبطأ بك الليلة ؟ قال : لا والله ، إلا أني تعشيت البارحة في البيت ! فقلت لأصحابنا : لولا أنه بعهدا لعهد بالأكل في بيته ، وأن ذلك غريب منه ، لما احتاج إلى هذا الاستثناء ، وإلى هذه الشريطة) (١٣).

وهذا أحمد بن المثنى الذي حدثنا عن صديقه وصديق الجاحظ وكان فاشى الغلة ، عظيم الولايات يقول عنه : (إنه إذا دعا على مائدته بفضل دجاجة أو بفضل رقاق ، أو غير ذلك رد الخادم مع الخباز إلى القهرمان ، حتى يصك له بذلك إلى صاحب المطبخ) (١٤) .

(وخالد بن يزيد مولى المهالبة — هو خالويه المكدى ، وكان قد بلغ في البخل والتكدية وفي كثرة المال المبالغ التي لم يبلغها أحد) (١٥).

والثورى تاجر البصرة الوافر الثراء ، والذى كان يملك خمسمائة جريب من أجود أراضي البصرة ، وأكثرها غلة يحدثنا عنه الخليل السلولى قائلا : (أقبل على يوما فقال لــــي هل اصطبغت بماء الزيتون قط ؟ قال : قلت : لا والله ! قال : أما والله لو فعلته ما نسيته قال : قلت : أجل ، إني والله لو فعلته ما نسيته !) (١٦).

---

١٣) كتاب البخلاء : الجاحظ : ضبط العوامرى والجارم الجزء الأول صفحة ٧٨

١٤) المصدر المذكور صفحة ١٠٤

١٥) المصدر السابق صفحة ٨٥ وبتحقيق الحاجرى ص٤٦ .

١٦) كتاب البخلاء : الجاحظ : العوامرى والجارم : الجزء الثانى صفحة ٥٠

وقد (كان أحمد بن الخاركى بخيلا ، وكان نفاجا - وهذا أغيظ ما يكون منه - وكان يتخذ لكل جبة أربعة أزرار ليرى الناس أن عليه جبتين ، ويشترى الأعذاق والمراجين والسعف من الكلاء ، فاذا جاء الحمال إلى بابه تركه ساعة ، يوهم الناس أن له من الأرضين ما يحتمل أن يكون ذلك كله منها)! (١٧) ويقول أبو عثمان (كان أبو سعيد المدائنى إماما فى البخل عندنا بالبصرة وكان من كبار المعينين ومياسيرهم) (١٨)

فقد احترموا المال ، وعظموه وقدسوه ، حتى صار سحرهم ويصرهم تشق قلوبهم على أنغام رنينه وتتردد أنفاسهم فى صدورهم مع ترداد الدراهم والدنانير فى خزائنهم ، واعتبروه كما قال الجاحظ ، (الدرهم هو القطب الذى تدور عليه رحى الدنيا) (١٩) وكما (قال حمدان بن صباح ، كيف صار رياح يسحنى ولا أسمعه فأنه أكثر مالا منى) (٢٠) واعتبروا الدرهم أساس الثروات (وهل اجتمعت أموال بيوت الأموال إلا بدرهم من هنا ، ودرهم من هنا) (٢١) وان الدرهم يرتفع إلى دية مسلم ، (سأل خالد بن صفوان رجل فأعطاه درهما ، فاستقله السائل ، فقال ، يا أحمق ، إن الدرهم عشر العشرة وإن العشرة عشر المائة ، وإن المائة عشر الألف ، وإن الألف عشر العشرة الآلاف أما ترى كيف ارتفع الدرهم إلى دية مسلم) (٢٢) وإن فى تعظيم الدرهم تعظيم للإسلام فكأن الدرهم عندهم هو الإسلام

تعظيما للدرهم / تعظيم الإسلام

---

١٧) المصدر المذكور صفحة ٤٩ .

١٨) البخلاء ، تحقيق الحاجرى صفحة ١٣٧

١٩) المصدر المذكور صفحة ١١٦ الجزء الثانى ، ضبط العوامرى والجارم

٢٠) المصدر المذكور صفحة ٤٨ الجزء الثانى ، ضبط العوامرى والجارم

٢١) المصدر المذكور ج ١ ص ٦٥ ، تحقيق الحاجرى ص ٣١

٢٢) البخلاء ، الجاحظ ، ضبط العوامرى والجارم الجزء الثانى ص ٨٦ ، وفى المزهر فى علوم اللغة لجلال الدين السيوطى الجزء الثانى صفحة ١٧ مطبعة محمد على صبيح .

والدين : (إني لما غلبتني يوما شهوتي ، وأخرجت يوما درهما لقضاء وطرى ، ووقعت عيني على سكته ، وعلى اسم الله المكتوب عليه ، قلت في نفسي : إني إذن لمن الخاسرين الضالين لئن أنا أخرجت من يدي ومن بيتي شيئا عليه " لا إله إلا الله " وأخذت بدله شيئا ليس عليه شيء ! والله إن المؤمن ليتزع خاتمه للأمر يريده ، وعليه "حسبي الله" أو "توكلت على الله" فيظن أنه قد خرج من كنف الله "جل ذكره" حتى يرد الخاتم في موضعه ! وإنما هو خاتم واحد ، وأنا أريد أن أخرج في كل يوم درهما عليه الإسلام كما هو ! إن هذا لعظيم)(٢٣).

∴ ∴ ∴

٣ـ ونعرف أنه إذا كان هؤلاء قد ضيقوا على أنفسهم وفي أموالهم فضل ، وعندهم فسحة المال والمتاع والضياع متسع ، فإن غيرهم ممن حاز الثروات ، وملك الأموال ، قد سخا وجاد ، وأنفق الأموال في الحلال والحرام ، وتمتع بها ، ولها ، حتى وصل إلى الخرق والسفه ، وقد اتسم العصر كله بالسرف والترف ، وامتلأ بمظاهر الفخامة والأبهة ، والمتع الحسية التي عبوا منها ، وانغمسوا فيها ، فأكثروا من الجواري والقيان ، واتخذوا الإماء والغلمان ، وانتشرت تجارة الرقيق ، وكان لهم الخصيان الذين يقومون بخدمتهم الخاصة وخدمة نسائهم وإمائهم ، حيث فيهم القوة والجلد ، والائتمان على النساء ، وانتشر الغناء واهتم النخاسون بالجواري اللائي يصلحن للرقص والألحان ، فعلموهن ، وأدبوهن ، وغالوا في أثمانهن ، واشتد إقبال الخلفاء وعلية القوم على اقتنائهن ، وقد أغرم سراة القوم ووزراؤهم بالصيد والقنص وتربية البزاة والصقور والكلاب ، واتخذوا الحمامات في الدور ، وأقاموا عليها وظائف الثلج . وما كتبه الجاحظ من سخريات مبثوثة في كتبه المديدة قد أرشدنا إلى هذه الألوان من حياتهم الاجتماعية . يقول : (باع نخاس من أعرابي غلاما ، فأراد أن يتبرأ من عيبه ، قال : اعلم أنه يبول في الفراش . قال : إن وجد فراشا فليبل فيه)(٢٤).

---

٢٣) البخلاء : تحقيق الحاجري صفحة ١٠٥ ، شرح الحوامري والجارم الجزء الأول ص٩٦.

٢٤) البيان والتبيين : تحقيق عبد السلام هارون الجزء الرابع صفحة ٩٠.

(وكنت يوما ما عند القنبرى إذ جاءت جارية أمه) [٢٥] (وكان المهدى يحب القيان وسماع الغناء ، وكان معجبا بجارية يقال لها جوهر) [٢٦].

وليس أدل على اتخاذ الإماء والجوارى والقيان وانتشار ذلك فى العصر العباسى مما كتبه الجاحظ فى رسالة كاملة سماها "رسالة القيان" [٢٧] ومما جاء فيها (لم يزل للملوك والأشراف إماء يختلفن فى الحوائج ، ويدخلن فى الدواوين ، ونساء يجلسن للناس مثل خالصة جارية الخيزران ، وعتبة جارية ريطة ابنة أبى العباس ، وسكر وتركية جاريتى أم جعفر ودقاق جارية العباسة ، وظلوم وقسطنطينية جاريتى أم حبيب ... وحمدونة أمة نصر بن السندى بن شاهك .. ولقد نظر المأمون إلى سكر فقال : أحرة أنت أم مملوكة؟ قالت لا أدرى ! إذا غضبت على أم جعفر قالت : أنت مملوكة ، وإذا رضيت قالت : أنت حرة) [٢٨].

وقد راجت تجارة الرقيق (فإن الرقيق تجارة من التجارات تقع عليه المساومة والمشاراة بالثمن ويحتاج البائع والمبتاع إلى أن ينتقيا الخلق ويتأملاه تأملا بينا يجب فيه خيار الرؤية) [٢٩] وامتلك أغنياء ذلك الآلاف منهم فقد (أهدى محمد بن سليمان من البصرة إلى الخيزران مائة وصيفة فى يد كل واحدة منهن جام من ذهب وزنه ألف مثقال مملوء مسكا) [٣٠].

(وكان لجعفر بن سليمان ألفا عبد من السودان خاصة ، فكم يكون ليت شعرى غيرهم من البيض ومن الإماء) [٣٠].

---

٢٥) البخلاء : الجاحظ : شرح العوامرى والجارم الجزء الثانى صفحة ٢٧

٢٦) البيان والتبيين : الجاحظ : تحقيق هارون الجزء الثالث صفحة ٣٧٠

٢٧) ثلاث رسائل من ص٥٢ الى ٧٦ .

٢٨) ثلاث رسائل ص٦٢ .

٢٩) المصدر المذكور ص ٦٥

٣٠) رسائل الجاحظ : جمع حسن السندوبى ص ١١٥ من كتاب الجاحظ فضل هاشم على عبد شمس .

عاد عليه بالإثارة والصب ، وكان يقول : خبشتي أرض زيا ، خيشتي من بنى ، ويبقى أبده ، وعيش أخف ، وأنا أنفلم أيضا بفضل الحكمة ، وجودة الآلة) (٣٦)

٤ـ ونعرف أن حدة الدين قد فترت ، وأوامره قد تركت ، ومن أهم مظاهر ذلك ، تعاطى النبيذ والخمور ، وبيعها وشرائها ، وانتشار ذلك بين طبقات المجتمع كافة ، وعلى رأسهم الخلفاء والوزراء والقضاء ، وافتنوا في صنعها وتخميرها وتعتيقها وشربها صباحا ومساء وقبل الأكل وبعده وفي أثنائه ، وحثوا على شربها ، فقد قال الجاحظ : (عذل عاذل شعيب بن زيا ، على شرب النبيذ ، فقال ، لا أتركه حتى يكون شر عملي) ، (وقال المأمون ، اشربه ما استبشعته ، فإذا سهل عليك فاتركه) (٣٧) (قال ابن جهانة الثقفية ، عجبت ممن يمنع النبيذ طالبه فلأن النبيذ إنما يطلب اليوم فصد أو يوم حجامة ، أو يوم زيارة زائر أو يوم أكل سمك طرى ، أو يوم شربة دواء ، وهو شئ يحسن طلبه ، وتحسن هبته ، ويحسن موقعه) (٣٨). ويحدثنا الجاحظ عن تمام بن جعفر فيقول : (وشرب مرة النبيذ ، وغناه المغنى ، فشق قميصه من الطرب ، فقال لمولى له يقال له التحلؤل وهو إلى جنبه ، شق أيضا أنت ويلك قميصك) (٣٩) ويقول : (كان كثيرا ما يقول لندمائه ، إياكم والأكل على الخمار فإن دواء الخمار الشرب) (٤٠) (وسكر زبيدة ليلة فكسا صديقا له قميصا) (٤١).

---

٣٦) كتاب البخلاء صفحة ٣ ، ٤ ضبط العوامرى والجارم الجزء الثانى .
٣٧) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون الجزء الثانى ص٨٣ .
٣٨) البخلاء ، الجاحظ ، شرح العوامرى والجارم الجزء الثانى صفحة ٥٨ ، ٥٩ .
٣٩) المصدر المذكور صفحة ٣٧
٤٠) المصدر المذكور صفحة ٣٤
٤١) المصدر المذكور الجزء الأول صفحة ٢٢

(يقول المروزى للزائر إذا أتاه وللجليس إذا طال جلوسه ، تغديت اليوم ؟ فإن قال : نعم قال ، لولا أنك تغديت لغديتك بغداء طيب ، وإن قال : لا، قال ، لو كنت تغديت لسقيتك خمسة أقداح)(٤٢).

وكان أحمد بن الخاركي (يكترى قدور الخمارين التى تكون للنبيذ ، ثم يتحرى أعظمها ويهرب من الحمالين بالكراء)(٤٣) وكان محمد بن أبى المؤمل (كثيرا ما يقول لأصحابه إذا بكروا عليه لم لا تشرب أقداحا على الريق فإنها تقتل الديدان وتخفف الأنفس قليلا فإنها تأتى على جميع الفضول ، وتشهى الطعام بعد ساعة)(٤٤).

بل لقد كتب الجاحظ رسالة (٤٥) فى مدح النبيذ يبعث بها إلى الحسن بن وهب وفيها ، (إن النبيذ إذا تمشى فى عظامك ، وإ لتبس بأجزائك ، ودب فى جنانك منحك صدق الحس ، وفراغ النفس ، وجعلك رخى البال خلى الذرع ، قليل الشواغل قرير العين ، واسع الصدر ، فسيح الهم ، حسن الظن)(٤٦). ورسالة أخرى فى الشارب والمشروب (٤٧).

* * *

هـ ونعرف من سخريات الجاحظ ، عاداتهم فى مآكلهم ، وأطعمتهم المحببة إلى نفوسهم وآداب الموائد فى مجتمعهم ، ومدى احتفاء العباسيين بالألوان وتفننهم فى صنعها ، والمناسبات التى يطعمون فيها الناس ، ويجمعونهم على موائدهم ، ويسخون فيها بالطعام ،

---

٤٢) المصدر السابق صفحة ٤٥

٤٣) المصدر المذكور الجزء الثانى صفحة ٤٩

٤٤) البخلاء ، تحقيق العوامرى والجارم ص ١٨٤

٤٥) رسائل الجاحظ ، جمع حسن السندوبى من صفحة ٢٨٥ إلى ٢٦٢ المطبعة الرحمانية الطبعة الاولى سنة ١٣٥٢ هـ .

٤٦) المصدر المذكور صفحة ٢٨٨ .

٤٧) رسائل الجاحظ جمع حسن السندوبى من ص ٢٧٦ الى ص ٢٨٥

ينفقون فيه الآلاف .

ومن مناسبات الإطعام ما ذكره الجاحظ في قوله : (وربما كان إتلافه في العرس والخرس والوليمة وإسرافه في الإعذار وفي العقيقة والوكيرة)[٤٨] ومن إسرافهم قوله :(وقد رأيناه ينفق على مائدته وفاكهته ألف درهم في كل يوم ، وعنده في كل يوم عرس)[٤٩] .

وقد يتفقون في الموائد ، ويتأنقون فيها ، فتأتي على هيئة تشرح الصدور ، وتفتن النفوس جمالا وإبداعا ، حتى ليخشى الجائع القرم أن يمد يده إليها خشية إفساد تلك الروعة ، ونقض هذه الهندسة ، والجاحظ يروي عن واحد من هؤلاء أنه كان يتأنق في الطعام ويصفه صفة ، ويهيئه تهيئة من لا يريد أن يمس ، فضلا على غير ذلك (وكيف يجترئ الضرس على إفساد ذلك الحسن ، ونقض ذلك النظم ، وعلى تفريق ذلك التأليف ، وقد علم أن حسنه يحشم وأن جماله يهيب منه)[٥٠] .

وقد كانوا يحبون السمك ، ويغرمون به ولا يصبرون على بعده من طعامهم وبخاصة أهل البصرة ، ومن أنواعه : البني ، والزجر ، والشبوط والجوافة والشلاني ، ويقص علينا الجاحظ قصة لمحمد بن أبي المؤمل فيقول : (اشترى مرة شبوطة ، وهو يومئذ ، وأخذها بثمن عظيمة ، وغالى بها ، وارتفع في ثمنها ، وكان قد بعد عهده بأكل السمك ، وهو بصري لا يصبر عنه)[٥١] وكان الجاحظ في صباه يبيع السمك بسيحان بالبصرة .

---

٤٨) كتاب البخلاء ، ضبط العوامري والجارم الجزء الثاني صفحة ٩٩

٤٩) المصدر المذكور صفحة ١٠٠

٥٠) المصدر المذكور : الجزء الأول صفحة ١٣٠

٥١) المصدر السابق صفحة ١٨٦

ومن ألوان الأطعمة المحببة إلى نفوسهم ، والتى يتسابقون إلى التهامها من على صدور الموائد ، ما تحدث عنه الجاحظ بقوله ، (وإن الطباخ ربما أتى باللون الطريف ، وربما قدم الشيء الغريب ، والعادة فى مثل ذلك اللون أن يكون لطيف الشخص ، صغير الحجم ، وليس كالطفيشلية ولا كالهريسة ، ولا كالفجلية ، ولا كالكرنبية) (٥٢).

ومن أجزاء الحيوانات والطيور التى يفضلونها فى الأكل على غيرها ، ويعدونها أطيب ما فيها المخ وكبد الدجاجة ، وكلية الجدى ، وقانصة الكركى ، وبيضة البقيلة ، وصدور الدجاج ، وشاكلة الحمل ، وسرة الشصرة ، وأسقاط الفراخ ، ودماغ رأس السلاءة (٥٣).

ومن آداب الموائد التى تجب مراعاتها ، وآداب من يشاركك فى المؤاكلة أن (لا يستأثر بالمخ ، ولا ينتهز بيضة البقيلة ، ولا يلتقم كبد الدجاجة ، ولا يبادر إلى دماغ رأس السلاءة ولا يختطف كلية الجدى ، ولا يزدرد قانصة الكركى ، ولا ينتزع شاكلة الحمل ، ولا يقتطع سرة الشصرة ولا يعرض لعيون الرؤوس ، ولا يستولى على صدور الدجاج ، ولا يسابق إلى أسقاط الفراخ ، ولا يتناول إلا ما بين يديه ، ولا يلاحظ ما بين يدى غيره ، ولا يتشهى الغرائب ولا يمتحن الإخوان بالأمور الثمينة ولا يهتك أستار الناس ، بأن يتشهى ما عسى أن لا يكون موجودا) (٥٣).

ومن النصائح التى يأخذ بها الآباء والمربون صبيانهم وفتيانهم لاحترام من يؤاكلونهم ما ذكره الجاحظ فى قوله ، (أى بنى ، عود نفسك الأثرة ، ومجاهدة الهوى والشهوة ولا تنهش نهش الأفاعى ، ولا تخضم خضم البراذين ، ولا تدم الأكل إدامة النعاج ، ولا تلقم لقم الجمال ... واحذر سرعة الكظة ، وسرف البطنة) (٥٤) وفى قوله للآكل ، (إياك

---

٥٢) المصدر السابق صفحة ١٢٤ ، ١٢٥

٥٣) المصدر السابق صفحة ١٢٣ ، ١٢٤

٥٤) المصدر السابق الجزء الثانى صفحة ١٩ ، ٢٠

وبجم الصبيان وشره الزراع، وأخلاق النوائح، ودع عنك خبط الملاحين والفعلة، ولفش الأعراب والمهنة، وكل ما بين يديك، فإنما حقك الذى وقع لك، وصار أقرب إليك) (٥٥).

وفي نهيه عن قبح المؤاكلة على لسان أبي فاتك: (الفتى لايكون نشافا، ولا نشالا، ولا مرسالا، ولا لكاما ولا مصاصا، ولا نفاضا ولا دلاكا، ولا مقورا، ولا مخريلا، ولا محلقما ولا مسوغا ولا مبلعما، ولا مخضرا) (٥٦).





٦ــ ونعرف ملابسهم وأنواعها كما أخبرنا الجاحظ في تضاعيف سخره حين قال: (بطنوا كل شئ لكم، فإنه أبقى .. ربما رأيت البطنة الواحدة تقطع أربعة أقمصة، والعمامة الواحدة تقطع أربعة أزر) (٥٧) وحين قال: (ومن الإصلاح الواجب قلب خرقة القلنسوة إذا اتسخت .... واجعلها حبرة فإنما ماله مرجوع) (٥٨) ويقول: (واشتريت ملاءة مدارية، فلبستها ما شاء الله رداء وملحفة، ثم احتجت إلى طيلسان فقطعتها — يعلم الله — فلبسته ما شاء الله، ثم احتجت الى جبة، فجعلته — يعلم الله — ظهارة جبة محشوة) (٥٩) وفي قصة العراقي مع المروزى يقول العراقى: (لعل إنكاره إياى لمكان القناع، فرمى بقناعه وابتدأ مسألته، فكان له أنكر، فقال: لعله أن يكون إنما أتى من قبل العمامة، فنزعها، ثم انتسب وجدد مسألته فوجده أشد ما كان انكارا، قال: فلعله إنما أتى من قبل القلنسوة) (٦٠) (وسكر زبيدة ليلة فكسا صديقاله قميصا. فلما صارا لقميص على النديم خاف البدوات، وعلم أن ذلك من

---

٥٥) المصدر المذكور صفحة ١٧

٥٦) المصدر السابق الجزء الأول صفحة ١٢٢

٥٧) المصدر السابق الجزء الثانى صفحة ٨

٥٨) المصدر المذكور صفحة ١٠

٥٩) المصدر المذكور صفحة ١٠ ، ١١

٦٠) المصدر المذكور الجزء الأول صفحة ٥٤

هفوات السكر ، فمضى من ساعته إلى منزله فجمله بمنكثا لامرأته)(٦١).

(وللخلفاء عمة ، وللفقهاء عمة ، وللبقالين عمة ، وللأعراب عمة ، وللأبناء عمة ، وللروم والنصارى عمة ، وأصحاب التشاجى عمه ٠٠ ولكل قوم زى ، فللقضاة زى ولأصحاب القضاة زى ، وللشرط زى ، وللكتاب زى ، ولكتاب الجند زى ، ومن زيهم أن يركبوا الحمير وإن كانت المطايا لهم معرضة ٠٠ وأصحاب السلطان ومن دخل الدار على مراتب ، فمنهم من يلبس المبطنة ، ومنهم من يلبس الدراعة ومنهم من يلبس القباء ، ومنهم من يلبس البازبكند ويعلق الخنجر ، ويأخذ الجرز ، ويتخذ الجمة ٠٠٠ وزى مجالس الخلفاء فى الشتاء والصيف (٦٢) وشى الصوف ٠٠ وكانت الشعراء تلبس الوشى والمقطعات والأردية السود وكل ثوب مشهر).

لقد عدد الجاحظ من أنواع ملابس رجال ونساء عصره ، القميص والعمامة ، والإزار ، والقلنسوة ، والحبرة ، والملحفة ، والرداء ، والطيلسان والجبة والقناع ، والبرنكان ، إلى غير ذلك مما كان يستعمل فى عصره من خفاف ونعال سندية ، وبازبكند ودراعة وقباء.

⁂

٢ــ الأوضاع السياسية :

عاش الجاحظ فى العصر العباسى ، وامتدت حياته قرابة قرن من الزمان شهد فيه الدولة العباسية إبان نهضتها ، ونفوا ن مجدها ، وقد جلس على كرسى الحكم فى حياته اثنا عشر خليفة ، فقد ولد فى خلافة المهدى ، وكان صبيا فى خلافة الهادى ، وشابا فى خلافة الرشيد حيث رأى مصارع البرامكة ، وشاهد الصراع بين الأمين والمأمون وحضر عصر المعتصم الذى قوى فيه نفوذ الترك ، وعهد الواثق الذى أيد الاعتزال وناصره والمتوكل الذى ضعفت بقتله قوة الخلافة وهيبتها ، وسيطرة بنى العباس عليها ، ثم

---

٦١) المصدر السابق صفحة ٧٢

٦٢) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق هارون ، الجزء الثالث صفحة ١١٤ ، ١١٥

شاهد الجاحظ عدة (marginal handwriting, partly legible)

خلافة المنتصر والمستعين والمعتز ، ومات فى خلافة المهتدى .

ولقد كان للجاحظ شأن فى الدولة ، ومكانة لدى حكامها ، فقد جالس القضاة والوزراء ، وعقدت بينه وبينهم صداقات كما جالس الخلفاء ، وصار مقربا منهم ، وأثيرا عندهم ، يكتب لهم الكتب التى تؤيد ملكهم ، وتثبت دعائمه ، ويحضر مجالس أنسهم وطربهم ، ويشارك فيها بسخره وضاحيكه ، واختلاطه هذا بالطبقة الحاكمة ، فتح عينه على أمور الدولة ، ففهم كثيرا من شئون الحكم والسياسة ، وشاهد انقلاب الحال بهؤلاء السادة القادة ، ورأى الفتن تشيع والدسائس تحاك ، والتنكيل يكال ، وقد نال منه جانب .

ومن ثنايا سخريات الجاحظ نستطيع أن نستنبط ما كان عليه عصره من أوضاع سياسية ؛ لقد كان كبار رجال الدولة يتقلبون فى مناصبها فلا يثبتون على حال ، ولا يطمئنون لما تجىء به الأيام ، فلم يكن أحدهم يأمن على نفسه العزل ، وعلى أمواله المصادرة ، وعلى جسمه التعذيب والتنكيل ، فقد ابتكروا آلات التعذيب ، التى تطمس فى المعذب إنسانيته ، وتجرده من الرحمة والشفقة ، وتطمس فى المعذب هيئته وصورته ، بل تسحقه رمادا تذروه الرياح .

وكيف يأمن ؟! ومن أين له أن يطمئن !! وهو يرى فى كل يوم حادثة وكارثة ، ويشهد مصرع صديق أو عدو ، وسجن قائد أو وزير ، والوثوب على خليفة أو وال ، وقتله ليحل غيره محله ، واستباحة أمواله وأملاكه ، وكلما تغير الخليفة تغيرت حاشيته ، واستبدلت بطانته ، وطرد أتباعه من ديارهم ، ومزقوا كل ممزق ، وشاهدنا على ذلك ثورابن الزيات ،

فقد كان محمد بن عبد الملك الزيات وزيرا للمعتصم ثم للواثق من بعده ، وكان محمد صديقا للجاحظ ، فقد اتصل به ، ومدحه ، وأهداه كتاب الحيوان ، ولما مات الواثق وتولى المتوكل الخلافة ، وكان فى نفسه شىء من ابن الزيات كما كان عدوا للمعتزلة ، استطاع أحمد بن أبى دؤاد القاضى أن يستغل الموقف ويثير نار الشنئان ، ويسعر

أتون الغضب ، بين الخليفة والوزير ، ودفعه إلى ذلك كراهيته لابن الزيات ، لما كان بينهما من منافسات ، فأوغر صدر المتوكل ، فأسقطه ابن الزيات ، وفتك به ونكل ، بإدخاله تنورا بداخله مسامير محماة ، كان ابن الزيات قد أعده ليحرق فيه خصومه ، فكان جزاؤه مما جنت يداه .

ويذكر ياقوت فى كتابه معجم الأدباء طرفا من القصة فيقول :

(حدث إسحاق الموصلى ، وأبو العيناء قال : كنت عند أحمد بن أبى دؤاد بعد قتل ابن الزيات ، فجىء بالجاحظ مقيدا ، وكان من أصحاب ابن الزيات وفى ناحيته ، فلما نظر إليه قال : والله ما علمتك إلا متناسيا للنعمة ، كفورا للصنيعة معددا للمساوىء ، وما فتنى باستصلاحى لك ، ولكن الأيام لا تصلح منك ، لفساد طويتك ، ورداءة داخلتك ، وسوء اختيارك ، وتغالب طبعك . فقال له الجاحظ : خفف عليك — أيدك الله — فوالله لأن يكون لك الأمر على خير من أن يكون لى عليك ، ولأن أسىء وتحسن ، أحسن عنك من أن أحسن فتسىء ، وأن تعفو عنى حال قدرتك أجمل من الانتقام منى . فقال له ابن دؤاد : قبحك الله ، ما علمتك إلا كثير تزويق الكلام ، وقد جعلت ثيابك أمام قلبك ، ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر ، ما تأويل هذه الآية «وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد» ؟ قال : تلاوتها تأويلها ، أعز الله القاضى . فقال : جيئوا بحداد فقال : — أعز الله القاضى — ليفك عنى أو ليزيدنى ؟ فقال بل ليفك عنك ، فجىء بالحداد فغمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ، ويطيل أمره قليلا . فلطمه الجاحظ وقال : اعمل عمل شهر فى يوم ، وعمل يوم فى ساعة ، وعمل ساعة فى لحظة ، فإن الضرر على ساقى ، وليس بجذع ولا ساجة ، فضحك ابن أبى دؤاد وأهل المجلس منه) (1) وكان الجاحظ قد هرب قبل ذلك خوفا من أن يناله ما نال صديقه ابن الزيات ، فلما قبض

---

1) معجم الأدباء ، ياقوت ، الجزء السادس عشر صفحة ٧٩ ، ٨٠

عليه (قيل له : لم هربت ؟ فقال : خفت أن أكون ثانى اثنين إذ هما فى التنور)[1] يريد تنورا ابن الزيات ويشير الجاحظ الى ما وقع لأحمد بن حنبل من الخليفة المعتصم فى مسألة خلق القرآن ، فيقول: " فنحن لم نكفر إلا من أوسعناه حجة ، ولم نمتحن إلا أهل التهمة ، وليس كشف المتهم من التجسس ، ولا امتحان الظنين من هتك الأستار ، ولو كان كل كشف هتكا ، وكل امتحان تجسسا ، لكان القاضي أهتك الناس لستر ، وأشد الناس كشفا لعورة والذين خالفوا فى العرش إنما أرادوا نفى التشبيه فغلطوا ، والذين أنكروا أمر الميزان إنما كرهوا أن تكون الأعمال أجساما وأجراما فلاظا ، فإن كانوا قد أصابوا فلا سبيل عليهم ، وإن كانوا قد أخطئوا فإن خطأهم لا يتجاوزهم إلى الكفر ، وقولهم وخلافهم بعد ظهورا لحجة تشبيه للخالق بالمخلوق ، فبين المذهبين أبين الفرق[2]

٢ــ وكان للخلفاء والحكام أعداء يكيدون لهم ، ويتمنون أخطاءهم ، ويحرضون عليهم لضرأفتا بهم ، أو للؤم فى طباعهم ، وقد يكون السلطان عادلا ، رحيما برعيته ، ولكن رجالا منهم يريدون الحصول على غيرما يملكون ، والاستيلاء على مالا يستحقون ، يرفعون أنفسهم فوق قدرها ، ويحسبون أنهم هضموا حقوقهم ، فيتأولون على السلطان وينقمون ويسخطون ويشغبون ، وقد بين الجاحظ ذلك فى رسالة إلى الفتح بن خاقان حين قال : (إن السلطان لا يخلو من متأول ناقم ، ومن محكوم عليه ساخط ، ومن معدول عن الحكم زار ، ومن متعطل متصفح ، ومن معجب برأيه ، ذى خطل فى بيانه ، مولع بتهجين الصواب والاعتراض على التدبير ، حتى كأنه رائد لجميع الأمة ووكيل لسكان المملكة ، يضع نفسه فى موضع الرقباء ، وفى موضع التصفح على الخلفاء والوزراء ، لا يحذر وإن كان مجال الحذر

---

١) معجم الأدباء ، ياقوت ، الجزء السادس عشر صفحة ٧٩ ، ٨٠

٢) آمراء البيان ج ٢ ص ٣٦١

واضحا ، ولا يقف فيها يكون للشك محتملا ، ولا يصدق بأن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب وأنه لا يعرف مصادرا لرأى من لم يشهد موارده ، ولا مستدبره من لم يعرف مستقبله . ومن مجروم قد اضطغنه الحرمان ، ومن لئيم قد أفسده الإحسان ، ومن مستبطئ قد أخذ أضعاف حقه ، وهو لجهله بقدره ، ولضيق ذرعه ، وقلة شكره ، يظن أن الذى بقى له أكثر ، وأن سخفه لموجب ، ومن مستزيد لو أن جميع السلطان سالف أيادية البيض عنده ، ونعمه السالفة عليه ، لكان لذلك أهلا ، وله مستحقا ، قد غره الإملاء ، فأبطره دوام الكفاية وأفسده طول الفراغ ، وصاحب فتنة خامل فى الجماعة . .) (٣)

وكان الخليفة يقف حائرا فى موقفه من هؤلاء ، ومن وزرائه وبطانته وصنائعه ، وقد تكون هناك خيانات فى صلب الملك لا يستطيع الخليفة كشفها ، فيكون موضع سخط وموطن نقد من الرعية ، مع براءة ساحته ، ورعايته شئون دولته ، (حدثنا أحمد بن أبى دؤاد قال ، قال لى المأمون ولا يستطيع الناس أن ينصفوا الملوك من وزرائهم ولا يستطيعون أن ينظروا بالعدل بين الملوك وحماتهم وكفاتهم ، وبين صنائعهم وبطانتهم ، وذلك أنهم يرون ظاهر حرمة وخدمة ، واجتهادا ، ونصيحة ويرون إيقاع الملوك بهم ظاهرا ، حتى لا يزال الرجل يقول ما أوقع به إلا رغبة فى ماله ، أو رغبة فى بعض ما لا تجود النفس به ، ولعل الحسد والملالة وشهوة الاستبدال اشتركت فى ذلك . . وهناك خيانات فى صلب الملك ، أو فى بعض الحرم فلا يستطيع الملك أن يكشف للعامة موضع العورة فى الملك ، ولا أن يحتج لتلك العقوبة بما يستحق ذلك الذنب ولا يستطيع الملك ترك عقابه لما فى ذلك من الفساد ، على علمه بأن عذره غير مبسوط للعامة ، ولا معروف عند أكثر الخاصة) (٤)

---

٣) مجموعة رسائل ، الجاحظ صفحة ٢٠

٤) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الثالث صفحة ٣٧٧ .

ماعلاقة هذا بالتربية؟

٣— وكان جند الدولة العباسية منذا خليطًا من أجناس متعددة ، فمنهم العربى والتركى والبنوى والخراسانى والمولى ، وكانوا متحدين متعاضدين حين كانت الخلافة قوية ، تقبض على زمام الحكم ، وتصرف شئون الجند بحزم وصلابة ، ويقول أبو عثمان فى كتابه " مناقب الترك وعامة جند الخلافة) :

وذكرت أبقاك الله — أنك جالست أخلاطا من جند الخلافة وجماعة من أبناء الدعوة ، وشيوخا من جلة الشيعة ... وأن رجلا من عرض تلك الجماعة ... زعم أن جند الخلافة اليوم على خمسة أقسام ، خراسانى وتركى ومولى وعربى وبنوى ، وأنه أكثر من حمد الله وشكره على إحسانه ومنته ... حين ألف على الطاعة هذه القلوب المختلفة ، والأجناس المتباينة ، والأهواء المتفرقة)(٥).

وكان الجند فى مبدأ الأمر لا يلتفتون إلى هذه التفرقة كثيرا ولا يؤثر فيهم اختلاف الجنس تأثيرا يؤدى بهم إلى الدسائس أو الخيانة أو القتل ، وإنما كان وكدهم الدفاع عن الإسلام ، وعن خليفة المسلمين ، بل لقد حاول كثير من مفكرى الأمة ، ومنهم الجاحظ ، أن يهدم هذه الفوارق أو يخفف من حدتها ، أو يقرب بين هذه الأجناس ، ويوجد الصلات والوشائج التى تجمع شتاتهم ، يقول الجاحظ مخاطبا ابن خاقان ، (إنك اعترضت على مقالة المتكلم المتسيد ، وعلى هذا القائل المتكلف ، الذى قسم هذه الأقسام ، وخالف بين هذه الأركان ، وفصل بين أنسابهم ، وفرق بين أجناسهم وباعد بين أنسابهم ، وأنك أنكرت ذلك عليه أشد الإنكار ، وقذعته أشد القذع ، وزعمت أنهم لم يخرجوا من الاتفاق أو من شىء يقرب من الاتفاق ، وأنك أنكرت التباعد فى النسب ، والتباين فى السبب .. وزعمت أن اختلاف التركى والخراسانى .. كالاختلاف ما بين الطائى الجبلى والطائى السهلى ، وزعمت أن هؤلاء وإن اختلفوا فى بعض اللغة ، وفارق

٥) مجموعة رسائل . صفحة ٢١ .

بعضهم بعضا فى بعض الصور ، فقد تخالفت عليا تميم وسفلى قيس وعجز هوازن وفصحاء الحجاز فى اللغة ... وزعمت أنه أراد الفرقة والتخريب ، وأنك أردت الألفة والتقريب وزعمت أيضا أن البنوى خراسانى ، وأن نسب الأبناء نسب آبائهم .. وأن الموالى بالعرب أشبه .. وهو لـــس القوم من أنفسهم ، ولولا لحمة لحمة النسب .. ثم زعمت أن الأتراك قد شاركوا هؤلاء القوم فى النسب ، وصاروا من العرب بهذا السبب .. على أن ولاء الأتراك للباب قريش ولعباس عبد مناف) (٦).

بالملازقة؟

... ...

٤ـــ وكان للدولة عدة دواوين لتنظيم شئونها السياسية ، وتصريف أمورها الحربية بتوجيه الكتائب ، وتنظيم الحساب ، وتقدير الأرزاق ، منها ، ديوان الإنشاء ، وديوان الجند ، وديوان الخراج ، ولكل ديوان رئيس يتولى تنظيمه ، ويشرف على إدارته ، وتحت يده عدد من الكتاب يوجههم ويرشدهم ، وينقادون له ، ويتصرفون بأمره ، يقول الجاحظ :

(ومن كتاب الجند محمود بن عبد الكريم) (٧) . (ومنهم زيد بن أيوب الكاتب ، عمل فى ديوان الجند أربعين سنة ، ثم صار فى آخر أيامه قوادا ليحيى بن أكثم القاضى) (٨) (واستكتب الرشيد يزداد بماذان على ديوان الخراج) (٩) . (ثم لم ينوهوا بذكر كاتب حتى ولى المأمون ، فقدم محمد بن أبى العباس الطوسى ، فيه انتشرت الصناعة بالعراق .. واستخلف حمويه على ديوان الخراج ، وكان ركنا لصناعته .. وكتب لهم عمرو بن مسعدة وكان رسائليا فقط) (١٠).

---

٦) المصدر السابق صفحة ٢٣ ، ٢٤

٧) ثلاث رسائل ، الجاحظ ، نشر يوشع فنكل ، الطبعة الثانية سنة ١٣٨٢ صفحة ٤٩

٨) المصدر المذكور صفحة ٥٠

٩) المصدر السابق صفحة ٤٧ .

١٠) المصدر السابق صفحة ٤٧ ، ٤٨

(واستقضى على ديوان الخراج والجند إبراهيم الحاسب ، والحسن بن أبي الشرف فلقن إيلا هيم من سائر الآداب والعلوم علم الحساب فقط ، ولم يفزع إليه في قضية ولا رأى حسنى ملك)(١١).

واشتهر كتاب الجند بالشره والطمع ، وغالبا ما يكون ذلك بسبب خفضهم ، وانحطاط من أقدارهم ، يقول الجاحظ عن إبراهيم الحاسب كاتب ديوان الجند ، (فكان الذى وضعه وأدناه ، شرهه ، وهى علة قائمة فى كتاب الجند خاصة)(١٢) ، على أنه كان فيهم من نبلت أخلاقه ، وارتفعت همته ، واشتهر بين أصدقائه ورؤسائه بالعفة وكرم الصحبة ، وارتفاع الهمة وطارت شهرته حتى وصلت إلى الخليفة ومن تلاه من خلفاء ، وذلك مثل المعلى بن أيوب يقول فيه ابن بحر :

(ولم يبلغنى أنه كان فى ولاة ديوان الجند ولا فى كتابهم مثل المعلى بن أيوب فى نبله ، وارتفاع همته ، وكرم صحبته ، وفائه وجميل مذهبه ، وشدة محاماته عن صحبه وتحرمه به فكان المأمون يعرف له ذلك ، ومن بعده من الخلفاء ، فثبتت وطأته ، ودامت ولايته ، وحمد أثره)(١٣).

وقد كان صاحب الخراج ينال رزقه أضعاف أضعاف ما يناله صاحب ديوان الرسائل كما كان رزق صاحب النسخ فى ديوان الخراج أضعاف ما يرزقه الصدور لكتب الخليفة ، مع نبل الكتابة الرسائلية ، وعظم غنائها ، وأهميتها عند الخلفاء ، واحتياجها إلى المكابدة والمعاناة ، وبذل الجهد ، والتأنق والافتنان ، يقول أبو عثمان ، (وحسبك بقوم أنبلهم أخسهم فى الرزق مرتبة ، وأعظمهم غناء أقلهم عند السلطان عقلا ، يرزق صاحب ديوان الرسائل — وبلسانه يخاطب الخلق — العشر من رزق صاحب الخراج ، ويرزق المحرر —

(١١) المصدر السابق صفحة ٤٨

(١٢) المصدر السابق صفحة ٤٨

(١٣) المصدر السابق صفحة ٥٠ ، ٥١

وبخطه يكون جمال كتب الخليفه - الجزء من رزق صاحب التوقيع فى ديوان الخراج ، لا يحضر كاتب الرسائل لنائبة ، ولا يفزع إليه فى حادثة ، فإذا أبرم الوزراء التدبير وقفوا منها على التقدير طرحت إليه رقعة بمعانى الأمر لتحق فيها القول ، فإذا فرغ من نظامه واستوى له كلامه ، أحضر له محررا ، فجلس فى أقرب المواطن من الخليفة ، واتسع المنازل من المختلفة ، فإذا انقضى ذلك فهما والعوام سواء)(١٤)

وفى عهد المأمون نال بعضا لجند أرزاقا سنية لا تتناسب مع ما يقدمونه من خدمات وما يبذلونه من جهد ، ودخل فيهم من ليس منهم من الأعراب والأنباط ، فعهد المأمون بتصنيفهم إلى حميد بن عبد الحميد ، ولكنه حكم بالهوى والعصبية والضغينة - فتحامل عليهم ، وخفض أرزاقهم ، ولكن المأمون تدارك ذلك ، وأمر لهم بعطياتهم تامة ، وقد دلنا الجاحظ على ذلك فى قوله :

(وكان حميد بن عبد الحميد - عند دخول المأمون مدينة السلام ، وبعد سكون الهيج وخمود الثائرة - رفع إلى المأمون ، يذكر أن فى الجند خللا كثيرا ، ممن دخل فيهم بسبب تلك الحروب فى أيام الأجناد ، وهم قوم من غير أهل خراسان ممن تشبه بهم ، وأدى إليهم من الأعراب والنبطة ، ومن لا يستحق الديوان وقوم من أهل خراسان صارت لهم الخواص السنية ، لم يكن لهم من الغناء ما يستحقون به مثلها ، وذكر أن بيت المال لا يحمل ذلك ، وسأل المأمون أن يوليه تصنيف الجند ، ولم يكن مذهب حميد فى ذلك التوفير على المأمون ، ولا الشفقة على بيت مال المسلمين ، ولكنه تعصب على أبناء أهل خراسان ، واضطغن عليهم محاربتهم إياه أيام الحسن بن سهل مع ولد محمد بن أبى خالد وغيرهم ، وما كانوا قد انتحوه به من تلك الوقائع والهزائم ، وما ذهب له من الأموال بذلك السبب ، فولاه المأمون التصنيف ، وأمر للجند بتلك شهرين ، فولى حبس العطاء والتصنيف محمود بن عبد الكريم الكاتب ، وعرف محمود ما فى حميد فتحامل

(١٤) المصدر السابق صفحة ٤٨ ، ٤٩

على الناس، واستعمل فيهم الأحقاد والإحن، وخفض الأرذال، وأسقط الخواص، ومحمث في الكور، وأنحى على أهل الشرف والبيوتات، حسد الهم، وشفاء لغليل صاحبه منهم، وأنحى على أهل الشرف والبيوتات، حسد الهم، وشفاء لغليل صاحبه منهم، فقعد لهم بالمكروه والتعنت، فامتنعت طائفة من الناس من التقدم إلى العطاء، وتركوا أسماءهم وطائفة انتسبوا مع طاهر بن الحسين بخراسان، فسقط بذلك السبب بشركته، ثم إن المأمون أمر للناس بتمام أعطياتهم، واكتسب محمود بن عبد الكريم المذمة وصار لعنة في محال بغداد وفي مجالسها وطرقها)(١٥).

∴

∴

∴

- وقد اتخذ الخلفاء والوزراء والكتاب ورجال السياسة في الدولة الحجاب، يقفون على أبوابهم، يمنعون الدخول إلا بإذن من صاحب المجلس، وقد اكتسبوا ذلك من الفرس، الذين أقاموا الحجاب، إتماما لمظاهر الفخامة والعظمة، وإعطاء للحكم هيبة وعزة، وطلبا للراحة والاستجمام، والتفرغ للنظر في شئون الدولة وتراخيها، والخوف على أنفسهم أن يغتالهم مغتال، أو ينالهم أحد بضر.

وفي أدب الجاحظ الساخر ما أرشدنا إلى هذا، وأطلعنا عليه، يقول: (خبرت أن أبا العتاهية أتى يحيى بن خاقان يوما ليسلم عليه، فلم يأذن له حاجبه، فانصرف وأتاه يوما آخر فصادفه حين نزل، فسلم عليه، ودخل يحيى إلى منزله، ولم يأذن له، فكتب إليه أبو العتاهية من ساعته رقعة فيها:

أراك حين ترى خيالي ... فما هذا يروعك من خيالي
لعلك خائف مني سؤالا ... ألا فلك الأمان من السؤال
كفيتك إن حالك لم تمل بي ... لأطلب مثلها بدلا بحالي
وإن اليسر مثل العسر عندي ... بأيهما منيت فما أبالي

---

١٥) المصدر السابق صفحة ٤٩١، ٥٠.

فلما قرأ يحيى بن خاقان رقعته ، ووثق بأمانه إياه من السؤال أذن له ، فخرج الحاجب ، فوجده قد انصرف ، ولم يعد إليه ، ولا التقيا بعد ذلك) [(١٦)]

وقد ألف الجاحظ كتابا كاملا في هذا الشأن سماه (كتاب الحجاب) [(١٧)] ومما جاء فيه :

(حجب ابن أبي طاهر بباب بعضا لكتاب) [(١٨)] (وحجب أبو العتاهية بباب أحمد بن يوسف الكاتب) [(١٩)]

(قال أبو هفان لعلى بن يحيى يعاتبه في حجابه :

أبا حسن رفنا حقا بحق مكارمك المواتية

أ أحجب دونك شر الحجا ب وتدخل دونى بنو الغانية) [(٢٠)]

وقد كان للبرامكة وزراء الرشيد ، الأيادى الطولى فى ازدهار الدولة ، وعم الرخاء وازدهار الحياة ، بما وهبوا الناس من سماحتهم وكرمهم ، وبما أغدقوا على الأمة من خير ، حتى لقد كانت أيامهم رياض الأزمنة كما يقول الجاحظ فى قصة مع واحد من أبناء البرامكة حيث قال له : (رحم الله أسلافك ، وآباءك السمحاء ، فلقد كانت أيامهم رياض الأزمنة ، ولقد رأى بهم الخلق خيرا كثيرا ، فسقيا لهم ورعيا) [(٢١)]

---

١٦) ثلاث رسائل : الجاحظ : نشر يوشع فنكل صفحة ٤٥

١٧) رسائل الجاحظ : جمع حسن السندوبى "كتاب الحجاب"

١٨) المصدر السابق صفحة ١٦٤

١٩) المصدر المذكور صفحة ١٧٤

٢٠) المصدر المذكور صفحة ١٧٠

٢١) سأذكر القصة فى الفصل الأول من الباب السادس .

الفصل الثاني
العلم والثقافـــــات

يعتبر العصر العباسي بالنسبة للعرب واللغة العربية والأمة الإسلامية عصر التقدم والمدنية ، والنهضة الثقافية والأدبية والدينية والتبحر في العلم والعقائد والتهافت بنهم على المعرفة أنى وجد ، وكيفما كان ، فقد اتسعت الآفاق ، وانفسحت الميادين ، وأصبح العلم مشاعا ، والفكر طليقا ، والثقافة حرة ، والمعرفة مباحة ، لا تختص بجماعة ، ولا تقصر على فئة ، وما على طالب العلم والثقافة إلا أن يختار النوع الذي يروقه ، والبحث الذي يتعشقه ثم ينضم إلى طلابه ، في إحدى حلقات الدرس التي تعجبه ، فيعب منها ، حتى يروى وينقع .

لقد انفتح العقل العربي على عقليات الأمم الأخرى ، فانسابت جداولها إليه ، وأرسلت سماء الفكر والفن أمطارها مدرارا عليه ، وهو أرض متفتحة للعلم ، تواقة للمعرفة ، فأقبلت على الجداول تعب منها وتنهل ، وعلى الغيث ، ترتوي به وتتطهر ، فنقل العقل العربي وترجم واختار وانتقى ، وقرأ وهضم ، ثم قارن ووازن ، وأضاف خلاصة تجاربه ، وعصارة حضارته ، ثم أنتج مزاجا جديدا ، فريدا في نوعه ، وسطا في معنوياته ، هو وليد التلاقح الفكري والامتزاج الحضاري ، فجاء موفور الأعضاء ، متين التركيب ، كالولد من أبوين متباعدي الأنساب ، مما لفت إليه جيد الزمان ، وبقي تراثا خالدا على الحدثان ، نفخر به إلى اليوم وما بعد اليوم ، ولا نجد عصرا من عصور العربية ، في نضج ثمار علمه ، وإيناع أزاهير أدبه وأريج ورود فنه ، إلا عصرنا الحالي ، في بعض اتجاهاته ، وفي القليل من بلدانه ؟

لقد كان العلم ميسراً لجميع الناس على اختلاف طبقاتهم ، وتعددت أماكنه ، وكثرت أساتذته ، وتزاحمت عليه طلابه ، في كتاتيب القرى والحواضر وكثر معلمو أولاد العامة ، ومؤدبو أولاد الخاصة ، ومؤدبو أبناء الخلفاء . ثم كان المربد حصن العربية المكين ، وقلعتها الحصينة ، التي أعادت لها صولتها وفحولتها ، وردت لها رواءها وطلاوتها ، وقامت

بالمواسم التى كانت تقام فيها فى الجاهلية أسواق عكاظ ، ومجنة ، وذى المجاز .

وكانت الوراقة صناعة رائجة ، والوراقون علماء أدباء يرشدون ويوجهون .

هذا إلى مجالس الأنس والمفاكهة ، ومباريات المناظرة والمحاورة .

وكان المسجد معهدا علميا أدبيا ، تشرح فيه العلوم اللغوية والعقلية إلى جانب العلوم الدينية ، ويتدارسون فيه الأدب والشعر ، وتعقد فيه حلقات القصاص والرواة .

فإذا أضفنا إلى هذه الثقافات العربية الأصيلة ما وفد إليها من الثقافات الأجنبية : اليونانية والفارسية والهندية وغيرها مما وصل إلى أيدى العباسيين وعقولهم ، أدركنا المدى الوسيع ، والأفق الرحيب ، والانطلاق الذى تمتع به الفكر والأدب والفن فى ذلك العصر مما كان له الأثر الفعال فى غزارة الإنتاج وعمقه ، وحسبنا الجاحظ مثلا على ذلك بمؤلفاته العديدة التى تناولت شتى المعارف والآداب فى إجادة وإحكام .

وكان لعلم الكلام الأثر الذى لا يجحد فى النهوض بالدين ، وتصحيح العقيدة ، وتثبيتها فى القلوب ، حيث يعتمد على البرهان والإقناع ، كما كان المشحذ الذى أرهف قواعد المنطق والاستدلال ، وارتقى بآداب البحث والمناظرة ، وانتهى بها إلى التقنين والتقعيد .

ولم يمنع ذلك من بقاء طبقة فى الأمة ترتع فى جهلها ، وتعيش فى سذاجتها وغفلتها ، وتؤمن بالخرافات والأوهام ، وتنقاد للزيف والأباطيل ، وإن كانت سمة العصر علمية ، وأرديته أدبية فنية ، إلا أن هذه الطبقة كان جهلها نسبيا لإشعاعات العلم من حولها تلقى عليها بصيصا من نوره ، يجعلها فى منطقة الظل ، لا منطقة الإظلام .

وقد انتهز جماعة من الناس هذه الغفلة والجهالة ، فجعلوها مصدر رزق لهم ، فاحترفوا الشعوذة ، واتخذوها بضاعة رائجة ، يبيعونها فى سوق الجهل ، فيربحون ويثرون ، ولجأ بعضهم إلى الحيل والخدع ، يعطف بها قلوب الناس نحوه ، ويستخى نفوسهم بالبذل والعطاء فينال منهم أضعاف ما يناله من حرفة يحترفها ، ومهنة يمتهنها .

ولم يقع الشافلون والجهال فى الخرافات وحدهم ، بل وقع فيها العلماء والمفسرون ، والمحدثون والمتكلمون ، وذنب هؤلاء أقبح ، وجريرتهم أوضح وأشنع ، وتعقبهم الجاحظ بسخره وسلط عليهم شعاع هزله ففضحهم وأحرقهم .

وقد آن لى بعد هذا الإجمال أن أعمد الى التفصيل والاستدلال ، وأدلل التى أستضى بها فى هذا الباب وفى الباب الذى يليه من نسيج الجاحظ ، وما ذكره فى سخره قد يقصد به ما إليه قصدت ، وقد يذكره وصلة إلى غيره ، وقد يجئ به عرضا واستطرادا ، الا أن منهجى — كما أسلفت — أن أستدل بسخره على عصره ، وذلك موضوع الباب الخامس كما أستدل به عليه ، وذاك موضوع الباب السادس .

فهيا بنا الى سخره الذى استبطنا منه ونستنبط ما كان عليه عصره من علوم ومعارف وثقافات وآداب .

⁂

كان الكتاب المدرسة الأولى لتعليم الطفل وتربيته فى العصر العباسى ، وكانت الكتاتيب منتشرة فى القرى تعلم الأطفال القراءة والكتابة وحفظ القرآن وغير ذلك من المبادئ التى تناسب عمر الطفل ، وكان يشرف على الكتاب معلم ، يقوم بتعليم تلاميذه وتوجيههم ، وقد ألف الجاحظ كتابا فى نوادر المعلمين[1] وجاء فى كتابه البيان والتبيين باب عنوان (باب فى ذكر المعلمين)[2] وباب ثان جعل عنوانه (وباب منه آخر)[3] ، ونقل فيه الحكم والشعر ما يلمزهم به ، ويحط من أقدارهم ، ويتهمهم فى عقولهم وكراماتهم[4] . فقال : (ومن أمثـال

---

١) المستطرف ج ١ ص ٢٤ وما بعدها ، ثمرات الأوراق ١٨٠ ، الجاحظ فى البصرة وبغداد وسامرا ١٠٥ ، ١٠٦ أمراء البيان الجزء الثانى ص ٤٦٦ ، ٤٦٧

٢) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الأول صفحة ٢٤٨

٣) المصدر السابق صفحة ٢٥٠ (٤) هنا توسع فى الحملة على المعلمين ، وفى ص ٢ تصيبه فى الحملة بصورة واضحة .

العامة ، أحمق من معلم كتاب ، وقد ذكرهم صقلاب فقال :

وكيف يرجى الرأى والعقل عند من ... يروح على أنثى ويغدو على طفل (٤)

وفى قول بعض الحكماء : لا تستشيروا معلما ولا راعى غنم ، ولا كثير القعود مع النساء) .

(وقد سمعنا قول بعضهم : الحمق فى الحاكة والمعلمين والغزالين . قال : والحاكة أقل وأسقط من أن يقال لها حمق ، وكذلك الغزالون لأن الأحمق هو الذى يتكلم بالصواب الجيد ، ثم يجيء بخطأ فاحش)(٥) وعلى ذلك ففى المعلمين من يتكلم بالصواب الجيد ، وتكون له فى بعض الأحيان أخطاء فاحشة . وهذا هو رأى الجاحظ ، وقد استنبطته من حكايته عن معلم صبيان فى كتابه ، ولا أرى بأسا من إيرادها هنا . قال : (دخلت يوما مدينة ، فوجدت فيها معلما فى هيئة حسنة ، فسلمت عليه ، فرد على أحسن رد ، ورحب بى ، فجلست عنده ، وباحثته فى القرآن ، فإذا هو ماهر فيه ، ثم فاتحته فى الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب ، فإذا هو كامل الآداب ، فقلت : هذا والله مما يقوى عزمى على تقطيع الكتاب(٦) . قال : فكنت أختلف اليه وأزوره ، فجئت يوما لزيارته ، فإذا بالكتاب مغلق ، ولم أجده ، فسألت عنه ، فقيل : مات له ميت فحزن عليه ، وجلس فى بيته للعزاء ، فذهبت إلى بيته ، وطرقت الباب ، فخرجت إلى جارية وقالت : ما تريد ؟ قلت : سيدك . فدخلت وخرجت وقالت : باسم الله فدخلت إليه ، وإذا به جالس ، فقلت : عظم الله أجرك ، لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، كل نفس ذائقة الموت ، فعليك بالصبر ، ثم قلت له : وهذا الذى توفى ولدك ؟ قال : لا . قلت : فوالدك ؟ قال : لا . قلت : فأخوك ؟ قال : لا قلت : فزوجتك ؟ قال : لا . فقلت : وما هو منك

---

٤) المصدر السابق صفحة ٢٤٨

٥) المصدر المذكور صفحة ٢٤٩

٦) يقصد كتابه فى نوادر المعلمين الذى كان قد ألفه على ما قدمت ، وعلى ما سيأتى فى ختام القصة .

قال : حبيبتي . فقلت في نفسي : هذه أول النحاسة فقلت : سبحان الله ! النساء كثيرة وستجد غيرها . فقال : أتظن أني رأيتها ؟ قلت : هذه نحسة ثانية ثم قلت : وكيف عشقت من لم تر ؟ فقال : اعلم أني كنت جالسا في هذا المكان وأنا أنظر من الطاق إذ رأيت رجلا عليه برد ، وهو يقول :

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة ... ردي على فؤادي أينما كانا

لا تأخذين فؤادي تلعبين به ... فكيف يلعب بالإنسان إنسانا !

فقلت في نفسي : لولا أن أم عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها ، ما قيل فيها هذا الشعر فعشقتها ، فلما كان منذ يومين مر ذلك الرجل بعينه وهو يقول :

إذا ذهب الحمار بأم عمرو ... فلا رجعت ولا رجع الحمار

فعلمت أنها ماتت ، فحزنت عليها ، وأغلقت المكتب ، وجلست في الدار ، قلت يا هذا ، إني كنت ألفت كتابا في نوادركم معشر المعلمين ، وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه والآن قد قويت عزمي على إبقائه ، وأول ما أبدأ أبدأ بك إن شاء الله تعالى)

وقد قسم الجاحظ معلمي زمنه إلى ثلاثة أنواع : ١- معلمو أبناء الخاصة ٢- معلمو أولاد الملوك ، وهم جميعا في الطبقة العليا ثقافة وأدبا وعلما ، لا يتصفون بحماقة ، ولا تعوزهم ثقافة ٣- أما النوع الثالث فمعلمو كتاتيب القرى ، وفي هؤلاء حمقى ، كما أن فيهم ثقاة ، شأن كل طائفة ، وكل أبناء مهنة . يقول : (والمعلمون عندي على ضربين ، منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة ، ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة ، فكيف تستطيع أن تزعم أن مثل علي بن حمزة الكسائي ، ومحمد بن المستنير الذي يقال له قطرب ، وأشباه هؤلاء يقال لهم حمقى ؟ ولا يجوز هذا القول على هؤلاء ولا على الطبقة التي دونهم ، فإن ذهبوا إلى معلمي كتاتيب

القرى ، فإن لكل قوم حاشية وسفلة ، فما هم في ذلك إلا كغيرهم ، وكيف تقول مثل ذلك في هؤلاء ، وفيهم الفقهاء والشعراء والخطباء)(٧).

وعلى ذلك فإني أعتقد أن كلامه السابق عن حمق المعلمين إنما يقصد به من ندر منهم ومن شذ من معلمي أولاد العامة فحسب ، الذين يخلطون في بعض الأحيان ويسفون . أما الضربان اللذان ذكرهما في القمة والسنام ، ويلحق بهم غالب معلمي أولاد العامة فمنهم الشعراء والفقهاء ، والخطباء كما يقول . وقد أعجب الجاحظ كل الإعجاب بمعلمين بالبصرة لا يزال يذكرهما منذ صباه ، ويعتقد أنهما كانا معلميه في حداثة سنه حيث كان صبيا فسي كتابيهما . يقول : (وكان عندنا بالبصرة رجلان أروى لصنوف العلم ، ولا أحسن بيانا ، من أبي الوزير ، وأبي عدنان المعلمين ، وحالهما من أول ما أذكر من أيام الصبا)(٨)

وكما كان الكتاب المدرسة الأولى للتعليم والتثقيف في العصر العباسي ، كان المسجد المدرسة الثانية ، يرتقي إليها من الطلاب من جاوز المرحلة الأولى ، فيجد فيها شفاء نفسه وثقاف عقله ، والعديد من الأساتذة ، الذين يدرسون شتى العلوم وألوان المعارف ، فيختار الأساتذة كما يختار العلوم التي يرغبها ، والآداب التي تصادف من نفسه هوى ، ثم ينظم نفسه في حلقة من حلقات المسجديين ، يسمع منهم ويناقش ويعارض ، حتى يصلب عوده ، ويمتلك زمام نفسه .

وقد أرشدتنا سخريات الجاحظ إلى هذه المدرسة وما تحويه من علوم في قوله : (قال الخليل : جلسنا لثوري إلى حلقة المعلمين في المسجد ، فسمع رجلا من مياسيرهم يقول : بطنوا كل شيء لكم ، فإنه أبقى ، ولأمر جعل الله دار الآخرة باقية ، ودار الدنيا فانية)(٩).

---

٧) البيان والتبيين ، الجزء الاول صفحة ٢٥٠ ، ٢٥١

٨) المصدر السابق صفحة ٢٥٢

٩) البخلاء ، الجاحظ ، شرح العوامري والجارم الجزء الثاني صفحة ٨٨ ، البخلاء ، تحقيق الحاجري ص ١٠٤

سرهاشمي صفحة ٣٥٢
ما علاقته بالسرية

وقد عقد الجاحظ فصلا طويلا من كتابه البخلاء جمل عنوانه ، (قصة أهل البصرة من المسجديين) (١٠) وفيه يقول (قال أصحابنا من المسجديين ، اجتمع ناس في المسجد ممن ينتحل الاقتصاد في النفقة ، والتنمية للمال من أصحاب الجمع والمنع ٠٠ وكانوا إذا التقوا في حلقهم تذاكروا هذا الباب ، وتطارحوه وتدارسوه) (١٠) ويقول في قصة عبد النور كاتب إبراهيم بن عبدالله بن الحسن ، (ثم صلى معهم في مصلاهم ودخل ، ثم صلى بعد ذلك وجلس ، والقوم عرب ، وكانوا يفيضون في الحديث ميذكرون من الشعر الشاهد والمثل ، ومن الخبر الأيام والمقامات) (١١)

ويقول ، (وكان جعفر بن الحسن أول من اتخذ في مسجد البصرة حلقة وأقرأ القرآن في مسجد البصرة) (١٢) (ومن القصاص موسى بن سيار الأسواري وكان من أعاجيب الدنيا كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس في مجلسه المشهور به ٠٠٠ ثم قص في مسجده أبو علي الأسواري وهو عمرو بن فائد ستا وثلاثين سنة فابتدأ لهم في تفسير سورة البقرة فما ختم القرآن حتى مات ، لأنه كان حافظا للسير ولوجوه التأويلات ، فكان ربما فسر آية واحدة في عدة أسابيع كأن الآية ذكر فيها يوم بدر وكان هو يحفظ مما يجوز أن يلحق في ذلك من الأحاديث كثيرا ، وكان يقص في فنون من القصص ، ويجعل للقرآن نصيبا من ذلك) (١٣) ويحدثنا عن أبي واثلة (إياس بن معاوية المزني القاضي القائف ، وصاحب الزكن ، والمعروف بجودة الفراسة) (١٤) فيقول ، (أتى حلقة من حلق قريش في مسجد دمشق فاستولى على

---

١٠) المصدر المذكور الجزء الأول صفحة ٦٢

١١) المصدر السابق الجزء الثاني صفحة ١٦٠

١٢) البيان والتبين ، شرح هارون الجزء الأول صفحة ٣٦٧

١٣) المصدر السابق صفحة ٣٦٨ ، ٣٦٩

١٤) المصدر المذكور صفحة ٩٨

المجلس ، ورأوه أحمر دميا باذ الهيئة نَشِفًا ستما ثوابه ، فلما عرفوه اعتذروا إليه وقالوا له : الذنب مقسوم بيننا وبينك ، أتيتنا في زي مسكين تكلمنا بكلام الملوك)[١٤] (وقال رجل من أهل الشام ، كنت في حلقة أبي مسهر في مسجد دمشق فذكرنا الكلام وبراعته والصمت ونبالته)[١٥] (ومن القصاص عبدالله بن عراوة بن عبد الله بن الوضين ، وله مسجد في بني شيبان)[١٦] (وقال شيخ من أهل المسجد ، ما كنت أريد أن أجلس في قصص إلا وفيهم من يحدث عن الحسن وينشد للفرزدق)[١٧].

وإذا كانوا يتلقون المبادئ الأولية للعلوم والثقافات والكتابة والخط في الكتاتيب ويتلقون المعارف وحفظ القرآن وتفسيره ، والأخبار والسير والقصص في المسجد ، فقد كانت هناك مدرسة ثالثة لتعليم اللغة العربية نطقا وإنشادا ، وتدريبا للسان على تجنب الزلل والعثار وتعويده الانطلاق ، وتنقيته من شوائب الألفاظ ، ومن اللحن والتحريف ، تلك هي مدرسة المربد ، وهو سوق من أسواق العرب بالقرب من البصرة ، على غرار عكاظ في الجاهلية وكان الأعراب يقيمون به ، قال الجاحظ : (جن أعرابي من أعراب المربد)[١٨] ، وكان يقصده المتأدبون ليتلقوا الفصاحة مشافهة عن العرب الخلص ويطلعون على جيد الشعر ، ورائع الخطب ، ويتأملون فيما يكون من نقد وتوجيه ، فتنطبع العربية في آذانهم ، وتستقيم في ألسنتهم .

يذكر لنا أستاذنا الجاحظ هذا في قوله رواية عن الجارود ، (قال : عليكم بالمربد فإنه يطرد الفكر ، ويجلوا البصر ، ويجلب الخبر ، ويجمع بين ربيعة ومضر)[١٩] ومن أمثلة

---

١٤) المصدر المذكور صفحة ٩٨

١٥) المصدر السابق صفحة ٢٦٤

١٦) نفس المصدر صفحة ٢٦٨

١٧) المصدر المذكور الجزء الثالث صفحة ٢٢٠

١٨) المصدر المذكور الجزء الثاني صفحة ٢٥٤

١٩) المصدر السابق الجزء الأول صفحة ٢٤٥

ما يرويه الجاحظ لنا من نقد حدث في المربد قوله : (قاتل الحجاج ابن الأشعث في المربد ، فخطب ابن الأشعث فقال : "أيها الناس ، إنه لم يبق من عدوكم إلا كما يبقى من ذنب الوزغة ، تضرب به يمينا وشمالا ، فما تلبث أن تموت" ، فمر به رجل من بني قشير ، فقال "قبح الله هذا ورأيه ، يأمر أصحابه بقلة الاحتراس من عدوهم ، ويعدهم الأضاليل ، ويمنيهم الأباطيل" . وناس كثير يرون أن الأشعث هو الحسن دون القشيري)[٢٠] ويقول الجاحظ عن نفسه (قد أدركت رواة المسجديين والمربديين ومن لم يرو أشعار المجانين ، ولصوص الأعراب ونسيب الأعراب ، والأرجاز الأعرابية القصار ، وأشعار اليهود ، والأشعار المنصفة فإنهم كانوا لا يعدونه من الرواة ، ثم استبردوا ذلك كله ، ووقفوا على قصار الحديث والقصائد والفقر والنتف من كل شيء ، ولقد شهدتهم وما هم على شيء أحرص منهم على نسيب العباس ابن الأحنف ، فما هو إلا أن أورد عليهم خلف الأحمر نسيب الأعراب ، فصار زهدهم في شعر العباسي بقدر رغبتهم في نسيب الأعراب ، ثم رأيتهم منذ سنيات وما يروى عندهم نسيب الأعراب إلا حدث السن ، قد ابتدأ في طلب الشعر ، أو فتيانى متغزل)[٢١] . وبهذا عرض لنا الجاحظ المسجد والمربد ، وما كان يدور فيهما ، وكيف تطورت المادة التي تنشد وتقال ، عبر قرن من الزمان ، هو حياة الجاحظ ، الذي لاحظ هذا التطور ، وسجله في بيانه

وقد شاعت المناظرات العلمية في هذا العصر ، وكانت وليدة العلم وكثرة الاطلاع ، وكان يهدف بها إلى الوصول للحقائق ، وتجميع الآراء في رأي ، وقد دعا المأمون إليها ، وحث عليها ، وشارك بنفسه فيها ، وكانت له قدم راسخة ، وذهن وقاد .. وقد عرض الجاحظ لنا إحدى مناظراته مع المرتد الخراساني فأفحمه وأرجعه إلى الإسلام ومناظرة أخرى

---

٢٠) المصدر المذكور صفحة ١٥٥

٢١) المصدر المذكور الجزء الرابع صفحة ٢٣ .

٢٢) المصدر المذكور الجزء الثالث صفحة ٢٧٥ ، ٢٧٦

مع الزنديق الذى أخرسه فما له يحدثنا عنها (ومسألة أخرى سأل عنها أمير المؤمنين الزنديق الذى كان يكنى بأبى على ، وذلك عندما رأى من تطويل محمد بن الجهم وعجز المتبى ، وسوء فهم القاسم ابن سيار ، فقال له المأمون : أسألك عن حرفين فقط ، خبرنى هل ندم مسئ قط على إساءته ؟ أو نكون نحن لم نندم على شئ كان منا قط ؟ قال : بل ندم كثير من المسيئين على إساءتهم - قال : فخبرنى عن الندم على الاساءة إساءة أو إحسان ؟ قال : إحسان قال : قال : فالذى ندم هو الذى أساء أو غيره ؟ قال : الذى ندم هو الذى أساء ، قال : فأرى صاحب الخير هو صاحب الشر وقد بطل قولكم : إن الذى ينظر نظر الوعيد غير الذى ينظر نظر الرحمة ، قال : فإنى أزعم أن الذى أساء غير الذى ندم ، قال : فندم على شئ كان منه ، أو على شئ كان من غيره ؟ فقطعه بمسألته ، ولم يتب ، ولم يرجع حتى مات)(٢٣)

وكان للترجمة دورها الخطير فى نقل الحضارات ، وإثراء الأفكار ، وتلاقح الآداب ومعرفة الكثير من العلوم والفنون ، والوقوف على عادات الأمم المنقول منها ، وطباعها وثقافاتها ، والاستفادة من كل ذلك ، وقد صهرت اللغة العربية الكتب المترجمة ، وصبتها فى قالب العقلية العربية ، وأضافت إلى هذه العجينة المصهورة ، تجارب العرب وحضارتهم وثقافتهم ، وتركت عليها من بصماتهم ، وصور عقولهم ، وألفاظ لغتهم ما جعلها تنتسب إلى العرب عن استحقاق ، وتلحق بهم لحاق الولد بأبيه ، ورث هيئته وسمته ، وطباعه وروحه ، فصار صورة منه ، ونموذجا له .

وقد كثر المترجمون فى العصر العباسى نتيجة الإثابة على ما يترجمون ، فنقلت العلوم والفنون والآداب ، وترجمت من الهندية والفارسية واليونانية ، وإن كانت الترجمات

---

٢٣) الحيوان : الجاحظ ، الجزء الرابع صفحة ١٤١

قد بدأت بخطى وئيدة وجلة في العصر الأموي ، كما يقول الجاحظ في البيان والتبيين (وكان خالد بن يزيد بن معاوية خطيبا شاعرا ، وفصيحا جامعا ، وجيد الرأى كثير الأدب ، وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء)[٢٤] فقد انفتح باب الترجمة في العصر العباسي على مصراعيه ، بسبب هذا الاختلاط والامتزاج بين العرب وسائر الأمم ، وإيجاد لغتين فأكثر ورغبة في معرفة ما عند الأمم الأخرى من ثقافات ، يحفزهم في ذلك الرغبة في رقي الدولة ورفع لواء حضارتها وتمشيا مع ما غمرها من ترف ورقي ، ثم ما أهاج التراجمة وشد من عزائمهم من غامر النعم التي تفيض عليهم ، ووافر الأموال التي ينالونها جزاء الترجمة والنقل ، يقول الجاحظ : (وقد نقلت كتب الهند ، وترجمت حكم اليونان ، وحولت آداب الفرس ، فبعضها ازداد حسنا ، وبعضها ما انتقص شيئا)[٢٥] . وقد قرءوا الكتب المترجمة ووقفوا لها تقدمها وفوقها ، وأنها المعراج الذي يصعد عليه البليغ والحكيم والمنطقي ليصل إلى الكمال . يقول ، أبو عثمان ، (من أحب أن يبلغ في صناعة البلاغة ، ويعرف الغريب ، ويتبحر في اللغة ، فليقرأ كتاب كاروند . ومن احتاج الى العقل والأدب ، والعلم بالمراتب والعبر والمثلات ، والألفاظ الكريمة ، والمعاني الشريفة ، فلينظر في سير الملوك ، فهذه الفرس ورسائلها وخطبها وألفاظها ومعانيها ، وهذه يونان ورسائلها وخطبها وعللها وحكمها وهذه كتبها في المنطق التي قد جعلتها الحكماء بها تعرف السقم من الصحة ، والخطأ من الصواب ، وهذه كتب الهند في حكمها وأسرارها ، وسيرها وعللها ، فمن قرأ هذه الكتب ، وعرف غور تلك العقول ، وغرائب تلك الحكم ، عرف أين البيان والبلاغة

---

٢٤) البيان والتبيين ، الجزء الأول صفحة ٣٢٨

٢٥) الحيوان / الجاحظ ، الجزء الاول صفحة ٧٥

وأين تكاملت تلك الصناعة) .(٢٦)

وقد كان أكثر النقلة والمترجمين ممن لا يحسن العربية ولا يتقنها ، وكانت ترجمته إما ترجمة حرفية وهى لا تؤدى المعنى فى استقامة وسلامة ، وإما ترجمة المعانى بحسن تفهمها واختيار الألفاظ العربية التى تؤدى هذه المعانى فى وضوح ودقة ، هذا النوع من الترجمة هو الذى يجب أن يكون - على أن مهمة المترجم شاقة عسرة تتطلب معرفة اللغتين واللسانين معرفة جيدة وذلك لم يكن متوفرا إلا فى النادر كما يقول أبو عثمان :

(إن الترجمان لا يؤدى أبدا ما قال الحكيم على خصائص معانيه ، وحقائق مذاهبه ، ودقائق اختصاراته ، وخفيات حدوده ، ولا يقدر أن يوفيها حقوقها ، ويؤدى الأمانة فيها ، ويقوم بما يلزم الوكيل ، ويجب على الجرى ، وكيف يقدر على أدائها ، وتسليم معانيها ، والإخبار عنها على حقها وصدقها ، إلا أن يكون فى العلم بمعانيها ، واستعمال تصاريف ألفاظها وتأويلات مخارجها مثل مؤلف الكتاب وواضعه ، فمتى كان ابن البطريق ، وابن ناعمة ، وأبو قرة (ابن قرة) وابن فهر ، وابن وهيلى ، وابن المقفع ، مثل أرسطاطاليس ؟ ومتى كان خالد مثل أفلاطون ؟ ولابد للترجمان من أن يكون بيانه فى نفس الترجمة فى وزن علمه فى نفس المعرفة ، وينبغى أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها حتى يكون فيهما سواء وغاية ، ومتى وجدناه أيضا قد تكلم بلسانين علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما ، لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى ، وتأخذ منها ، وتعترض عليها ، وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه كتمكنه إذا انفرد بالواحدة ، وإنما له قوة واحدة فإن تكلم بلغة واحدة ، استفرغت تلك القوة عليهما ، وكذلك إن تكلم بأكثر من لغتين على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات ، وكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق

---

٢٦) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون الجزء الثالث ص١٩

والعلماء به أقل ، كان أشد على المترجم ، وأجدر أن يخطئ فيه ، ولن تجد البتة مترجما يفي بواحد من هؤلاء العلماء ، هذا قولنا في كتب الهندسة والتنجيم والحساب واللحون ، فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين !)[٢٧] وهذه الآراء تتطابق مع أحدث الآراء وأهمها في ترجمات الكتب في عصرنا الحالي .

على أن هناك من الأفاضل المعدودين من كان يؤدي الترجمة على أحسن ما تكون وكانت فصاحته في اللغة العربية المترجم منها توازن فصاحته في اللغة الفارسية المترجم إليها وقد عد الجاحظ من هؤلاء موسى بن سيار الأسواري قال عنه : (ومن القصاص موسى بن سيار الأسواري ، وكان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس في مجلسه المشهور به ، فتقعد العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره فيقرأ الآية من كتاب الله ، ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية فلا يدري بأي لسان هو أبين ، واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها ، إلا ما ذكرناه من لسان موسى بن سيار الأسواري)[٢٨].

وكما كان المترجمون يحصلون على الجوائز السنية ، والأعطيات البهية ، فقد كان كتاب العربية وشعراؤها ، وندماء الخليفة ، يحظون بالجاه والمال معه ويغنمون بقربهم من الخليفة ورجال الحكم في الدولة ، كما كانت مجالس الخلفاء والأنس ميدانا حافلا بأطايب الأدب ، وشهي المتع الروحية والجسدية ، يقول الجاحظ عن نفسه : (أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاني خمسة آلاف دينار وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى ابن أبي دواد فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى ابراهيم

---

٢٧) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الأول صفحة ٧٥ ، ٧٦

٢٨) البيان والتبيين ، الجزء الأول صفحة ٣٦٨

وكان المهدى يحب القيان وسماع الغناء ، وكان معجبا بجارية يقال لها جوهره وكان اشتراها من مروان الشامى ، فدخل عليه ذات يوم مروان الشامى وجوهر تغنية فقال مروان :

أنت ياجوهر عندى جوهرة	فى بياض الدرة المشتهرة
فإذا غنت فنار ضرمت	قدحت فى كل قلب شررة

فاتهمه المهدى ، وأمر به فدع فى عنقه إلى أن أخرج ، ثم قال لجوهر : أطربينى ، فأنشأت تقول :

وأنت الذى أخلفتنى ما وعدتنى	وأشمت بى من كان فيك يلوم
وأبرزتنى للناس ثم تركتنى	لهم غرضا أرمى وأنت سليم
فلو أن قولا يكلم الجسم قد بدا	بجسمى من قول الوشاة كلوم

فقال المهدى :

ألا ياجوهر القلب	لقد زدت على الجوهر
قد أكملك الله	بحسن الدل والمنظر
إذا ما صلت يا أحسن خلق الله بالمزهر	
وضيت فاح البيت من ريحك بالعنبر	
فلا والله ما المهدى أولى منك بالمنبر	
فإن شئت ففى كفك خلع ابن أبى جعفر (٣١)	

وكان الخلفاء أنفسهم علماء أدباء ، وخطباء فصحاء ، ومناظرون بارعون ، وشعراء مجيدون ، ونقدة يزنون ما يسمعون بميزان قريحتهم الحساس الذى لا يخطىء ، ولا يحيد وكانوا يثيبون على مقدار الإجادة يقول المنصور لمن مدحه فأعطاه فاستقل الأعطية أما نحن فلا نكافىء إلا بالتى هى أحسن (٣٢) وقد رأينا من قبل مناظرتين للمأمون أخرس فيهما

---

٣٢) المصدر المذكور ج ٣ صفحة ٣٧٠ ، ٣٧١

مناظره وألقمه الجنادل. كما رأينا نقد المنصور للشاعر ابن هرمة ، كما سمعنا شعر المهدى فى جاريته جوهر ، وإليكم رأى الجاحظ فى المنصور . قال : (كان المنصور داهيا أريبا مصيبا فى رأيه سديدا ، وكان مقدما فى علم الكلام ، ومكثرا من كتاب الآثار ، ولكلامه كتاب يدور فى أيدى الوراقين معروف عندهم) (٣٣).

وقد انتشرت العلوم فى العصر العباسى نتيجة النقل والترجمة ، وتشجيع المؤلفين بالمال الوافر والمناصب الرفيعة ، فكتبوا فى الطب والكيمياء والحيل والنجوم والفلك والهندسة ، وتناولوا جميع المعارف الإنسانية بالبحث والدرس والتدوين . ومن هذه خالد بن يزيد يروى الجاحظ بعض هذه المعارف : (عرفت خدع الكانى ، وتدسيس العراف ، والإم يذهب الخطاط والعياف ، وما يقول أصحاب الأكتاف ، وعرفت التنجيم ، والزجر ، والطرق والفكر ، إن هذا المال ... لا يجمع مثله أبدا إلا من معاناة ركوب البحر ومن عمل السلطان ، ومن كيمياء الذهب والفضة ، قد عرفت الرأس حق معرفته ، وفهمت كسر الإكسير على حقيقته ، ... سألقى إليك علم الإدراك ، وسبك الرخام ، وصنعة الفسيفساء ، وأسرار السيوف القلعية ، وعقاقير السيوف اليمانية ، وعمل الفرعونى ، وصنعة التلطيف على وجهه) (٣٤)

(وسمعت أبا حكيم الكيميائى وهو يقول لثمامة بن أشرس : قلنا لكم إننا ندلكم على الإكسير ، فاستثقلتم العمر) (٣٥).

وفى كتاب الحيوان للجاحظ تعداد لبعض الكتب والمعارف والعلوم التى شاعت فى عصره . قال : (ها هنا كتب هى بيننا وبينكم مثل كتاب إقليدس ، ومثل كتاب جالينوس ، ومثل المجسطى ... وحسبك ما فى أيدى الناس من كتب الحساب والطب والمنطق والهندسة

---

٣٣) المصدر المذكور ج ٣ صفحة ٣٦٧

٣٤) كتاب البخلاء : الجاحظ : ضبط العوامرى والجارم : الصفحات ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ الجزء الأول .

٣٥) الحيوان : الجاحظ : الجزء الأول صفحة ٦٠

ومعرفة اللحون والفلاحة والتجارة ، وأبواب الأصباغ والعطر والأطعمة والآلات ، وهم أتوكم بالحكمة وبالمنفعة التي في الحمامات وفي الاصطرلابات والقرسطونات وآلات معرفة الساعات وصنعة الزجاج والفسيفساء والاسرنج والزنجفر واللازورد ، والأشربة والأنبجات والأيارجات ولكر المينا والنشادر والشبه ، وتعليق الحيطان والأساطين ، وربما مال منها إلى التقويم ولهم صبا لزريج واستخراج النشاستج ، وتعليق الخيش ، واتخاذ الجمازات ، وعمل الحراقات) (٣٦).

واهتموا بالكتب ، وشدوا في طلبها ، وحشدوها في خزائنهم وتنافسوا في اقتنائها ، رغم غلاء سعرها في ذلك الزمن الذي كان يعتمد على النسخ ، وانتشرت الوراقة ، وراجت سوقها وربح الوراقون من [illegible] طائل الأموال . يقول أبو عثمان : (حدثني موسى بن يحيى قال : ما كان في خزانة كتب يحيى وفي بيت مدارسه كتاب إلا وله ثلاث نسخ)(٣٧).

وقد برعوا في الطب ، وتقدم على أيدي مشاهير رجاله في ذلك العصر ، ولاقى رواجا وانتشارا ، واستخرجوا العقاقير من الأعشاب وغيرها ، واستنبطوا الأدوية بالخلط والتقطير والتبخير ، واتخذوا الصيدليات معامل لأدويتهم ، ومتاجر لبيعها ، وقد كان النصارى من غير العرب كسلمويه ، وابن ماسويه ، وبختيشوع بن جبريل وشمعون ومنكة وبازيكر قد اتخذوا الطب حكرا لهم ، ووقفا عليهم ، ومن كان مسلما وامتهن الطب كسدت مهنته ، وساءت حاله يقول أبو عثمان عن أسد بن جاني : (كان طبيبا فأكسد مرة ، فقال له قائل : السنة وبئة والأمراض فاشية ، وأنت عالم ولك صبر وخدمة ، ولك بيان ومعرفة ، فمن أين تؤتى في

---

٣٦) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق هارون ، الجزء الأول ، الصفحات ، ٨٠ ، ٨١ و ٨٢

٣٧) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الثالث صفحة ٣٨٥

هذا الكساد ؟ • قال : أنا واحدة تاإنس عندهم مسلم ، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب ، لابل قبل أن أخلق ، أن المسلمين لا يفلحون فى الطب ؟ واسمى أسد ، وكان ينبغى أن يكون اسمى صليبا ، ومرايل ، ويوحنا ، وبيرا • وكنيتى أبو الحارث ، وكان ينبغى أن تكون أبو عيسى وأبو زكريا ، وأبو إبراهيم • وعلى رداء قطن أبيض ، وكان ينبغى أن يكون رداء حرير أسود ، ولفظى لفظ عربى ، وكان ينبغى أن تكون لغتى لغة أهل جنديسابور)[٣٨] ومن المشاهير كما ذكرت وكما ذكر ابن بحر فى سخرياته شمئون • قال : (حدثنى شمئون الطبيب قال : كنت يوما عند ذى اليمينين طاهر بن الحسين ، فدخل عليه أبو عبد الله المروزى ، فقال طاهر يا أبا عبد الله ، مذكم دخلت العراق ؟ قال : منذ عشرين سنة ، وأنا صائم منذ ثلاثين سنة فقال : يا أبا عبد الله : سألناك عن مسألة فأجبتنا عن مسألتين ؟)[٣٩] وما سرجويه • يروى الجاحظ (مر ماسرجويه الطبيب بجنب معاذ بن سعيد بن حميد الحميرى • فقال ياماسرجويه ، إنى أجد فى حلقى بحجا • قال : إنه عمل بلغم ، فلما جازه قال : أنا أحسن أن أقول بلغم ، ولكنه كلمنى بالعربية ، فكلمته بالعربية)[٤٠] وبختيشوع بن جبريل وسلمويه وابن ماسويه • يقول الجاحظ : (خبرنى ثمامة عن أمير المؤمنين المأمون أنه قال :

تسال لى بختيشوع بن جبريل وسلمويه وابن ماسويه : إن الذباب إذا دلك به موضع لسعة الزنبور سكن)[٤١] وقد بحثوا وقد بحثوا فى الأطعمة ومكوناتها وطباعها ، وألفوا فى ذلك الكتب يقول الجاحظ : (وما أشبه قولى هذا بقول ماسرجويه فإنه وصف فى كتابه طباع جميع الألبان)[٤٢] • كما كان

---

٣٨) كتاب البخلاء : الجاحظ : ضبط العوامرى والجارم : الجزء الثانى صفحة ٤٤ •

٣٩) الحيوان الجاحظ : ج ٣ ص ٨ ، ١ ، أخبار الحمقى والمغفلين : ابن الجوزى ص ١٣٧

٤٠) البيان والتبين : الجاحظ : تحقيق هارون : الجزء الثانى صفحة ٢١٨ •

٤١) الحيوان : الجاحظ : تحقيق هارون الجزء الخامس صفحة ٣٦٤

٤٢) الحيوان : الجزء الثالث صفحة ٢٧٥ •

السنديون يشتهرون بالصيدلة . يقول ابن بحر : (واشترى محمد بن السكن أبا روح فرجسا السندى فكتب له اطال المطبخ ، فقل صيدلاني عندنا إلا وله غلام سندى)[٤٣] وقد اجتلب العباسيون من الهند الأطباء يقول الجاحظ (قال معمر أبو الأشعث ، قلت لبهلة الهندى أيام اجتلب يحيى بن خالد أطباء الهند مثل منكه وبازيكر وقلبرقل وسندباذ وفلان وفلان ..)[٤٤].

ومن سخريات الجاحظ عرفنا طبائع الأمم وعاداتهم وتقاليدهم ولغاتهم وآدابهم وعلومهم ، نتيجة اختلاط العرب بهم في العصر العباسي ، والاحتكاك معهم في المعاملات ، والاطلاع على علومهم ومعارفهم وآدابهم ، ومشافهتهم ، والرحلات المتبادلة بين بلادهم فعرفنا الكثير من الفرس والروم والهند والزنج والترك . يقول الجاحظ نقلا عن راشد الأعور ، (لم أنتفع بأكل التمر قط إلا مع الزنج وأهل أصبهان ، فأما الزنجي فإنه لا يتخير وأنا أتخير ، وأما الأصبهاني فإنه يقبض القبضة ولا يأكل من غيرها ولا ينظر إلى ما بين يديه حتى يفرغ من القبضة)[٤٥]. ويقول الجاحظ : وقد علمنا أن الزنج أقصر الناس روية ، وأذهلهم عن معرفة العاقبة ، فلو كان سخاؤهم إنما هو لكلال حدهم ، ونقص عقولهم ، وقلة معرفتهم ، لكان ينبغي لفارس أن تكون أبخل من الروم ، وتكون الروم أبخل من الصقالبة)[٤٦] (ومما يدل على أن الروم أبخل الأمم أنك لا تجد للجود في لغتهم اسما ، يقول : وإنما يعرف الناس ما يحتاجون إلى استعماله ، ومن الاستغناء يسقط التكلف . وقد زعم ناس أن مما يدل على غش الفرس أنه ليس للنصيحة في لغتهم اسم واحد يجمع المعاني التي يقع عليها هذا الاسم)[٤٧] . لقد ذكرنا أن الأمم التي فيها الأخلاق والآداب والحكم والعلم أربع ، وهي : العرب والهند وفارس

---

٤٣) المصدر السابق صفحة ٢٣٥

٤٤) البيان والتبين ، الجاحظ ، الجزء الاول صفحة ٩٢

٤٥) البخلاء تحقيق الحاجرى ص١٩٦

٤٦) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، ضبطا لعوامرى والجارم الجزء الثانى صفحة ١٠١

٤٧) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجرى صفحة ١٩٥

والروم)[٤٨]. (إن الزنج مع الغثارة، ومع فرط الغباوة، ومع كلال الحد وغلظ الحس، وفساد المزاج لتطيل الخطب، وتفوق في ذلك جميع العجم، وإن كانت معانيها أجفى وأغلظ، وألفاظها أخطل وأجهل، وقد علمنا أن أخطب الناس الفرس، وأخطب الفرس أهل فارس وأعذبهم كلاما، وأسهلهم مخرجا، وأحسنهم دلا، وأشدهم فيه تحكما أهل مرو وأفصحهم بالفارسية الدرية، وباللغة الفهلوية أهل قصبة الأهواز،

ثانيا تقسيم المراتب البلاغة،

ولقد أوضح الجاحظ تقسيم المراتب البلاغية لكل أمة من الأمم في نهاية اللغة العربية. وعيب تمام الفصاحة واختصاص العرب بها دون غيرهم من العجم، أمرا استتبعه من شأن البلاغة عند الهنود والفرس واليونان والروم.

ولقد أيد ذلك لصاحب تفسير الزرمة)[٤٩] (وجملة القول، أنا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس فأما الهند فإنما لهم معان مدونة، وكتب مخلدة، لا تضاف إلى رجل معروف، ولا عالم موصوف، وإنما هي كتب متوارثة، وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة، ولليونان فلسفة وصناعة منطق، وكان صاحب المنطق نفسه بكي اللسان، غير موصوف بالبيان مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه وبخصائصه، وهم يزعمون أن جالينوس كان أنطق الناس ولم يذكروه بالخطابة، ولا بهذا الجنس من البلاغة، وفي الفرس خطباء)[٥٠] (ولكل لغة حروف تدور في أكثر كلامها، كنحو استعمال الروم للسين، والجرامقة للعين، وقال الأصمعي، ليس للروم ضاد، ولا للفرس ثاء، ولا للسرياني ذال)[٥١] وكان للهنود صحيفة في البلاغة توضح قواعدها، وتبين حدودها، وترسم صفات الخطيب البليغ، (قال معمر، أبو الأشعث، قلت لبهلة الهندي... ما البلاغة عند الهند؟ قال بهلة، عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة،

---

٤٨) البيان والتبين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الأول صفحة ٣٨٤

٤٩) المصدر السابق، الجزء الثالث صفحة ١٢، ١٣

٥٠) المصدر السابق، صفحة ٢٧، ٢٨

٥١) المصدر السابق، الجزء الأول صفحة ٦٤، ٦٥

للثيت بتلك الصحيفة التراجمة فاذا فيها ..)(٥٢)(قيل للفارسى ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصل من الوصل . وقيل لليونانى : ما البلاغة ؟ قال : تصحيح الأقسام واختيار الكلام. وقيل للرومى ما البلاغة ؟ قال : حسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الإطالة . وقيل للهندى ما البلاغة ؟ قال : وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الإشارة)(ص ٩٤)

وإلى جانب هذه العلوم الوفيرة ، والمعارف الغزيرة ، ورقى الفكر وحدة الذهن وحلى المعميات ، وكشف المبهمات ، وجدت فئات من المجتمع العباسى لا زالت تعيش فى جهالتها ، وتؤمن بالخرافات والشعوذة والرقى والعزائم ، ويستغل أدعياء الطب والدخلاء على العلم جهلهم وغفلتهم فينسج الدعى الدخيل حولهم شباكه ، ويقتنص منهم الفرائس فيغنى ويثرى ، ويمتلك العقار والضياع ، أو يستحوذ على عقول العامة والغوغاء ، وينال الجاه والشهرة ، ولهؤلاء نماذج فى سخر الجاحظ منها ، (كان رجل يرقى الضرس يسخر بالناس ليأخذ منهم شيئا ، وكان يقول للذى يرقيه : إياك أن يخطر على قلبك الليلة ذكر القرد ، فيبيت وجعا ، فيبكر إليه ، فيقول : لعلك ذكرت القرد ؟ فيقول : نعم . فيقول : من ثم لم تنفع الرقية)(٥٣)

ومنها : (تحول أبو عبد الله الكرخى الحيانى إلى الخريبة ، وادعى أنه فقيه ، وظن أن ذلك يجوز ، لمكان لحيته وسمته ، فألقى على باب داره البوارى ، وجلس ، وجلس إليه بعض الجيران ، فأتاه رجل ، فقال : يا أبا عبد الله ، رجل أدخل إصبعه فى أنفه فخرج عليها دم ، فأى شىء يصنع ؟ قال : يحتجم . قال : قد احتجم فخرجت معه أو نقيها)(٥٤)

ومنها (خبرنى ثمامة عن أمير المؤمنين المأمون ، أنه قال : قال لى بختيشوع بن جبريل

---

٥٢) المصدر المذكور ، صفحة ٩٢ (ص ٤٩) البيان والتبيين ج ١ ص ٨٨
٥٣) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ج ٣ ص ٥ طبعة عام ١٩٤٠ .
٥) والأذكياء ، ابن الجوزى ، تحقيق أسامة عبد الكريم الرفاعى ، طبعة دمشق صفحة ١٣٦ .
٥٤) البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٢٢ ، الحيوان ج ٣ ص ٧ ، ٨ ، عيون الأخبار ج ٢ ص ٥٤

وسلمويه وابن ماسويه / إن الذباب إذا دلك به موضع لسعة الزنبور سكن ، فلمحنى زنبوره فحككت على موضعه اكثر من عشرين ذبابة ، فما سكن إلا فى قدر الزمان الذى كان يسكن فيه من غير علاج ، فلم يبق فى يدى منهم الا أن يقولوا ، كان هذا الزنبور حتفا قاضيا ، ولولا هذا العلاج لقتلك) [٥٥]. يحصون تفسير القرآن بمحض رأيه عن ظاهر معناه ، وفسروه حسب أهوائهم ، (وقالوا فى قوله ويل للمطففين ، الويل واد فى جهنم ، ثم قعدوا يصفون ذلك الوادى ، ومعنى الويل فى كلام العرب معروف ، وكيف كان فى الجاهلية قبل الإسلام ، وهو من أشهر كلامهم) [٥٦].

ومن الخرافات التى شاعت بينهم منذ القدم أن لكل شاعر شيطانا يلقى إليه الإلهام ويقول على لسانه وإن الجن تنظم الشعر قال الأصمعى ، (ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر وإن كانت مجموعة فى بيت شعر لم يستطع المنشد إنشادها إلا ببعض الاستكراه ، فمن ذلك قول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

ولما رأى من لا علم له أن أحدا لا يستطيع أن ينشد هذا البيت ثلاث مرات فى نسق واحد ، فلا يتتعتع ، ولا يتلجلج ، وقيل لهم إن ذلك إنما اعتراه إذ كان من أشعار الجن صدقوا بذلك) [٥٧].

قال أبو حية (وكان يكذب ويخبر عن مقارضته للجن) [٥٨] ، (رميت والله ظبية فلما نفذ السهم ذكرت بالظبية حبيبة لى ، فشددت وراء السهم ، حتى قبضت على قذذه) [٥٩].

---

٥٥) الحيوان ، الجزء الخامس صفحة ٣٦٤

٥٦) المصدر المذكور الجزء الاول صفحة ٣٤٤

٥٧) البيان والتبين ، الجزء الاول صفحة ٦٥

٥٨) المصدر المذكور ، الجزء الثانى صفحة ٢٣٠

٥٩) المصدر السابق صفحة ٢٢٩

وهو القائل : (من لي ظبي قربته فراخ من سكاني معارضة والله السمع ، ثم راح فراخه حتى صرعه ببعض الخبارات)(٥٩) . أليس هذا ما يشبه في عصرنا الصاروخ الموجه الذي يتتبع الطائرة في علوها وإسفافها وانحنائها حتى يصرعها ببعض الأجزاء .

وها هو الجاحظ يسخر من جدال معاصريه من بعض ملته وفي حديثهم الخرافي عن الجن ، واستهوائهم الإنس ، وقتلهم ، ويؤكد لهم ، أن هذه خرافات ملأت أذهانهم ، فما يستطيعون منها فكاكا ، وأنهم لأغراض في نفوسهم يردون الصحيح ، ويصححون السقيم . فيقول : (وزعمتم أن الجن خنقت حرب بن أمية ، وخنقت مرداس بن أبي عامر ، وخنقت الغريض المغني ، وأنها قتلت سعد بن عبادة ، واستهوت عمرو بن عدي ، واستهوت عمارة بن الوليد ، فأنتم أملياء بالخرافات ، أقوياء على رد الصحيح وتصحيح السقيم ، وعلى تأويل الحديث المشهور على أهوائكم)(٦٠)

---

(٥٩) المصدر السابق صفحة ٢٢٩

(٦٠) الحيوان ، الجزء الاول ، صفحة ٣٠٢

م٥٢ جـ ٢٢٧ / ٣ ج٢ ص٩٥٠

الفصل الثالث

الأخلاق والمعتقـــدات

يعتبر العصر العباسي عصر الحرية بأجلى معانيها ، وأبعد مراميها ، حرية فــى اللغة ، وحرية فى السلوك ، وحرية فى الأخلاق ، وحرية فى المعتقدات ، حرية تقترب مــن الإباحية ، وتمت إلى الفوضى والصحبية ، وتنسب إلى التحلل ، فلم يعد للخلق ضابط ، ولا للدين صولة ، ولا للدولة هيبة ، فأ هدرت القيم والتبس الحسن بالقبح ، والخير بالشر بل انقلبت الموازين ، فصار القبح حسنا ، والشر خيرا ، وكثرت النزوات وشاعت الأراجيف والترهات ، وشمل الفساد نواحى الحياة .

فالدولة العربية التى كانت تهز هيبتها الدنيا ، صارت الصولة فيها للفرس والترك والموالى ، وأصبح للشعوبية قوة وعزة ، خشعت أمامها قوة العرب ، وخنع نفوذهم ، فمجدوا ما ليس بعربى ، ورفعوه فوق قدره ، وأدخل الأعاجم فى روع الشعب ، بل فى قلوب الحكام وعلية القوم أنهم أصحاب المجد والعز والحضارة ، وأنهم أرفع كعباً من العرب ، وساعدتهم على مقالتهم ، وشيوع مذهبهم ما رآه الناس فى كتبهم المترجمة من علم وفن ومنطق ، ومـــا شاهدوه من تسلطهم على الحكم والرياسات وامتلاكهم نواصى الأمور ، وزمام الخلافة ، حتى لم يعد للخليفة إلا الكرسى والمظهر ، أما تصريف أمور الدولة ، وتنظيم شئون الرعيـــة ففى أيد غير عربية ، وأمرا لبرامكة معروف مشهور ، وتحكم الترك فى الخلافة العباسية أجمل من أن يخفى .

والأمة الإسلامية التى اتحدت بدينها ، وتمسكت به ، وسكنت له ، ونفت عنه الشوائب والأوضار ، غزتها الديانات المختلفة ، السماوية كاليهودية والمسيحية ، وغير السماويـــة كالمجوسية والمانوية والزرادشتية ، والثنوية والدهرية والصابئة وصار لكل دين أنصار وأتباع وأعوان ودعاة ، وبيوت عبادة ، وما الإسلام إلا دين بين هذه الأديان المتعددة ،

شمر قميصك واستعد لنا يل ... واحك جبينك للقضاء بثوم

واخفض جناحك إن مشيت تخشعا ... حتى تصيب وديعة ليتيم

وحين أكلت الأمانات الأمناء والأوصياء ، ورتع فيها المعدلون والصرافون موجب حفظها ودفنها وكان أكل الأرض لها خير من أكل الخئون الفاجر ، واللئيم الغادر .... وأنا اليوم أنهى عن العارية والوديعة ، وعن القرض والفرض ، وأكره أن يخالف قولي فعلي .. إن الناس فاغرة أفواههم نحو من عنده دراهم ، فليس يحميهم من النهس إلا اليأس ، وإن طمعوا لم تبق راغبة ولا ثاغية ، ولا سبد ولا لبد ، ولا صامت ولا ناطق إلا ابتلعوه والتهموه)[١] .

ويصور ما كان عليه العباسيون وغير العباسيين في عصره من استهانة بأمر الدين ، والحكم بالهوى ، والرغبة في القلج والنفخ بقوله : (وقد ترك هذا الجمهور الأكبر ، والسواد الأعظم ، التوقف عند الشبهة ، والتثبت عند الحكومة جانبا ، وأعرضوا عنه صفحا ، فليس إلا لا ، أو نعم ، ولولا أن قولهم لا ، موصول منهم بالغضب ، وقولهم ، نعم ، موصول منهم بالرضا وقد عزلت الحرية جانبا ، وماتت ذكرا لحلال والحرام ، ورفض ذكر القبيح والحسن ، قال عمرو بن الحارث ، كنا نبغض من الرجال ذا الرياء والنفخ ، ونحن اليوم نتمناها)[٢] .

ثم يصور طائفة أخرى من اللئام الطغام ، الذين فسدت أخلاقهم ، ونكبت عن الصواب طبائعهم ، فيقول : (وضرب آخر من الناس ، همج هامج ، ورعاع منتشر ، لا نظام لهم ولا اختيار عندهم ، أعاريب أجلاف ، وأشباه الأعراب ، لا يفترقون ، لا تدفع صولتهم إذا هاجوا ، ولا يؤمن ... هيجانهم إذا سكنوا ، إن أخصبوا طغوا في البلاد ، وإن أجدبوا آثروا العناء ، ثم هم موكلون ببغض القادة ، وأهل الثراء والنعمة ، يتمنون النكبة ، ويشمتون بالعثرة

---

١) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، شرح العوامري والجارم الجزء الثاني صفحة ١٧٠ ، ١٧١

٢) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء السادس صفحة ٨

فيح الأمة في العارية كحكم الخدمة وأن الزوجة في كثير من معانيها كالأمة وأن الأمة مال كالذهب والفضة وأن الرجل أحق بجيبته من الغريب وأولى بأخته من البعيد ، وأن البعيد أحق بالخيرة والقريب أولى بالأنفة ، وأن الاستزادة في النسل كالاستزادة في الحرث)[٥]

أما الادعاء ، والسرقة والاحتيال ، والكدية والتسول ، في عصر الجاحظ ، فقد أطلعنا عليها في بخلائه ، وأرانا إياها على صفحات سخر ، فعرفنا شدة التصاقها بأخلاق عصره ، وشيوعها في أبناء جيله ، وأنهم كانوا يتباهون بها ، ويجعلونها من أبواب الظرف واللباقة ، قال على لسان (خالد بن يزيد مولى المهالبة ، هو خالويه المكدي وكان قد بلغ في البخل والتكدية وفي كثرة المال المبالغ التي لم يبلغها أحد)[٦] ، (أنا لو ذهب مالي لجلست قاصا ، أو طفت في الآفاق ، كما كنت مكديا ، اللحية وافرة بيضاء ، والحلق جهير طل ، والسمت حسن ، والقبول على واقع ، إن سألتموني الدهر أجابت ، والقليل من رحمة الناس خير من المال الكثير ، وصرت محتالا بالتمار ، واستعملت صناعة الليل ، أو خرجت قاطع طريق ، أو صرت للقوم عينا ، ولهم مجهرا ، سل عني صعاليك الجبل ، وزواقيل الشام ، وزط الآجام ، ورءوس الأكراد ، ومردة الأعراب ، وفتاك نهر بطه ولصوص القفص ، وسل عني القيقانية والقطرية ، وسل عني المتشبهة ، وذباحي الجزيرة ، كيف بطشي ساعة البطش ، وكيف حيلتي ساعة الحيلة ، وكيف أنا عند الجولة ... فكم من دهيا فرقد فقحته ، وكم من مطبق قد أفضيته ، وكم من سجن قد كابدته)[٧]

ومع أن خالويه هذا كان مالكا قصاصا يلعب ادوارا مختلفة ، وكان أبو سليمان الأعور وأبو سعيد المدائني القاصان من غلمانه ، إلا أنه كان مكديا كما رأينا محتالا مموها ،[٨]

---

٥) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجري ، صفحة ٤

٦) المصدر المذكور صفحة ، ٨٥

٧) المصدر المذكور صفحة ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥

٨) المصدر السابق صفحة ، ٨٧

شحيحا ، مع كثرة ماله ، ووفرة غناه ، قالوا له : (إنك لتعرف المكدين ؟ قال ، وكيف لا أعرفهم ؟ لم يبق فى الأرض مخطرانى ، ولا مستعرض الأقفية ، ولا شحاذ ، ولا كاغانى ، ولا بانوان ، ولا قرسى ، ولا عواء ، ولا مشعب ، ولا مزيدى ، ولا اسطيل ، إلا وقد كان تحت يدى ، ولقد أكلت الذكورى ثلاثين سنة ، ولم يبق فى الأرض كعبى ، ولا مكد ، إلا وقد أخذ ت العرافة عليه)(٩).

ويقول عن بعض سكان الدور فى زمنه ممن فسدت أخلاقهم ، وكثرت خدعهم ، فأضروا بالدور وبأصحابها ، وبجيرانهم ، وأعملوا فيها السرقة والتخريب ، وأتلفوها بإهمالهم ورقة دينهم ، (ثم لا يدع مترسا إلا سرقه ، ولا سلما إلا حمله ، ولا نقضا إلا أخذه ، ولا برادة إلا مضى بها معه ، ولا يدع دق الثوب والدق فى الماون والمهجان فى أرض الدار)(١٠) (ثم إن كانت الغلة صحاحا دفع أكثرها مقطعة ، وإن كانت أنصافا أو أرباعا دفعها قراضة مفتتة ، ثم لا يدع مزأبقا ، ولا مكحلا ، ولا زائفا ، ولا دينارا بهرجا ، إلا دسه فيه ، ودلسه عليه ، واحتال بكل حيلة ، وتأتى له بكل سبب ، فإن ردوا عليه بعد ذلك شيئا ، حلف بالغموس ، أنه ليس من دراهمه ، ولا من ماله ، ولا رآه قط ، ولا كان فى ملكه ، فإن كان الرسول جارية رب الدار أفسدها ، وإن كان غلاما خدعه هذا مع الإشراف على الجيران ، والتعرض للجارات ، ومع اصطياد طيورهم ، وتحريضنا لشكايتهم ، وربما استضعف عقولهم ، وطمع فى فسادهم وغبنهم ، فلا يزال يضرب لهم بالأسلاف ، ويغريهم بالسفتجات ، ويفتح لهم أبوابا من النفقات ليغبنهم ، ويربح عليهم حتى إذا استوثق منهم ، أعجلهم ، وحنق بهم ، حتى يتقوه ببيع بعض الدار ، أو باسترهان الجميع ... وربما استأجر إلى جنب سجن

---

٩) المصدر السابق صفحة ٨٦

١٠) المصدر السابق صفحة ١٠٥

ليتقبب أهله إليه ، وإلى جنب صراف ليتقبب عليه ، طلبا لطول المهلة والستر، ولطول المدة والأمن)(١١).

ومن مظاهر الاستهانة بالدين والعقيدة ، والانغماس في الملذات والشهوات ، والعب من المتع الحسية ، التي نفرت منها الأديان جميعها ، بل نفرت منها الطباع المستقيمة ، والفطر السليمة ، والعقول الذكية الحصيفة ، انتشار الزنا والخلاعة ، والمطارحة والتجميش، بل وصل بهم الانحطاط الخلقي ، والدناءة النفسية ، والطبع الشاذ ، إلى اتيان الذكران والبهائم ، بل إن هناك من الغلمان من عرف بين الناس وشهر بأن فلانا يتعشقه ويهيم به ، وأنه مختص به ، أثير لديه ، يفضله على نسائه وجواريه ، في قضاء شهوته ، والاستمتاع به . ومن سخريات الجاحظ التي أوضحت لنا ذلك قوله في الخمر ، (هجا حماد بن الزبرقان حماد الراوية ، فقال :

نعم الفتى لو كان يعرف ربه ... ويقيم وقت صلاته حماد

هدلت مشافره الدنان فأنفه ... مثل القدوم يسنها الحداد

وابيض من شرب المدامة وجهه ... فبياضه يوم الحساب سواد

.. فقد رأيت جماعة ممن يعاقرون الشراب قد عظمت آنفهم ، وصارت لهم خراطيم منهم روح الصائغ ، وعبد الواحد صاحب اللؤلؤ ... وناس كثير)(١٢).

وكانوا يمدحون النبيذ وشاربيه ، ويكثرون من الشرب وإن كان على الريق ، ويحثون عليه ، ويعتبرون الشرب على الريق دليل الفتوة ، وإدمان الشراب ، مع ما فيه من داء . قال الجاحظ في روايته عن محمد بن أبي المؤمل ، (ومن لم يشرب على الريق

---

(١١) المصدر المذكور صفحة ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥

(١٢) الحيوان ، للجاحظ ، الجزء الرابع صفحة ٤٤٥ ، ٤٤٦ تحقيق عبد السلام هارون ط ١٩٤٠ .

فهو يكس فى الفتوة ، ويعد فى أصحاب النبية ، وإنما يخاف على كبده من سورة الشراب على الريق من بعد عهده بالطعام ، وهذه الصبحة تغسل عنكم الأوضار ، وتنفى التخم ، وليس دواء الخمار إلا الشرب بالكبار ، والأعشى كان أعلم به حيث يقول :

وكأس شربت على لـذة وأخرى تداويت منها بها) (١٣)

ووضعوا القواعد التى تجعل الخمار والزمار والمغنى فى أكمل ما تكون الصناعة التى يتولاها ، (قال إبراهيم بن هانئ : .. من تمام آلة الزمر أن تكون الزامرة سوداء ، ومن تمام آلة المغنى أن يكون فاره البرذون ، براق الثياب ، عظيم الكبر ، سيء الخلق ، ومن تمام آلة الخمار أن يكون ذميا ويكون اسمه أذين أو شلوما أو ما زيار أو زدا نقاذار أو ميشا ويكون أرقط الثياب مختوم العنق) (١٤).

وكانت الجوارى والقيان تملأ أرجاء المدن والقرى ولهن سوق فى بغداد يسمى سوق النخاسين يعرضن فيه للبيع والشراء فيحدث اللمس والتقليب فى هذه السلع وتكثر المغازلة والمطارحة ، وقد رأينا من قبل حكاية الجاحظ مع الجارية السوداء بمكة ، ورغبته فى الحج وتقبيل الحجر الأسود ، كما دلنا الجاحظ على أخلاق القيان وتعرضهن للفساد حتى صار فيهن طبعا وخليقة يقول فى رسالة القيان (وأكثر أمرها قلة المناصحة ، واستعمال الغدر والحيلة فى استنطاف ما يحويه المربوط ، والانتقال عنه ، وربما اجتمع عندها من مربوطيها ثلاثة أو أربعة ، على أنهم يتحامون من الاجتماع ويتغايرون عند الالتقاء ، فتبكى لواحد بعين ، وتضحك للآخر بالأخرى ، وتغمز هذا بذاك ، وتعطى واحدا سرها ، والآخر علانيتها وتوهم أنها له دون الآخر ، وأن الذى تظهر خلاف ضميرها ، وتكتب لهم عند الانصراف كتبا على نسخة واحدة ، تذاكر لكل واحد منهم تبرمها بالباقين ، وحرصها على الخلوة

١٣) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق العوامرى والجارم الجزء الأول صفحة ١٨٥

١٤) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق هارون الجزء الأول صفحة ٩٣ ، ٩٤

دونهم ، فلو لم يكن لإبليس شرك يقتل به ، ولا علم يدعو إليه ، ولا فتنة يستهوي بها إلا القيان لكفاه ، وليس هذا بذم لهن ، بل من فرط المدح) [(١٥)] ويقول : (وكيف تسلم القينة من الفتنة ، أو يمكنها أن تكون عفيفة ، وإنما تكتسب الأهواء وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأة وهي إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها بما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث ، وصنوف اللعب والأخانيث ، وبين الخلعاء والمجان .. وتروي الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت فصاعدا ... بنيت كلها على ذكر الزنا والقيادة والعشق والصبوة والشوق والغلمة ، ثم لا تنفك عن الدراسة لصناعتها ، منكبة عليها ، تأخذ من المطارحين الذين طرحهم كلسه تجميش ، وإنشادهم مراودة) [(١٦)] .

ولم يقتصر الأمر على القيان بل تجاوزهن إلى الحرائر بل طغى وبغى ، وانتقل الزنا إلى اللواط وإلى إتيان الحيوانات ، وقد أرشدنا الجاحظ إلى هذا الشذوذ الذي كان في عصره ، من خلال تهكمه وسخره . قال حكاية عن قاسم : (فما لتوى لي عرق حين قعدت منها مقعد الرجل من الغلام) [(١٧)] (وقال في غلام له رومي : ما وضعت بيني وبين الأرض أطيب منه) [(١٧)] . (وكان قاسم التمار عند ابن لأحمد بن عبد الصمد بن علي ، وهناك جماعة ، فأقبل وهب المحتسب يعرض له بالخلعان ، فلما طال ذلك على قاسم أراد أن يقطعه عن نفسه بأن يعرفه هو أن ذلك القول عليه فقال : اشهدوا جميعا أني ... الغلمانه ، واشهدوا جميعا أني أنيج الصبيان ، والتفت التفاتة فرأى الأخوين الذين وكان يسادياً فيحسب الاعتزال . فقال وعينت بقولي : اشهدوا جميعا أني لوطي ، أي أني على دين لوط ! قال القوم بأجمعهم : أبت لم تقل اشهدوا أني لوطي ، وإنما قلت :

---

١٥) ثلاث رسائل : الجاحظ ، نشر يوشع فنكل ، رسالة القيان صفحة ٧٢ ، ٧٣

١٦) المصدر المذكور ، صفحة ٧٣ ، ٧٤

١٧) البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون صفحة ١٣ الجزء الرابع .

اشهد في جمعها أي ... الصبيان) [١٧] . ومن علية الناس وأولي المناصب والرأي فـــي الدولة من كان يحمل قوادا . ومن رجالات الدولة المعدودين من كان يعشق الغلمان ويبذل لهم المنح . ويأمر لهم بالفروض لرائع جمالهم ووسامة صورهم وحسن قدودهم يقول أبو عثمان إن (زيد بن أيوب الكاتب عمل في ديوان الجند أربعين سنة ، ثم صار فـــي آخرة يا صقوادا ليحيى بن أكثم القاضي . وذلك أن المأمون أمره بفروض فصير يحـــيى بن أكثم أمر ذلك الفرض إلى زيد بن أيوب ، وأمره ألا يفرض إلا لامرئ بارع الجمال وحسن القد والصورة ، فكان أمر ذلك الفرض مشهورا متعالما ، ففي ذلك يقول الحسن بن علـــي الحرازي لزيد بن أيوب :

يا زيد يا كاتب فرض الفراش ... ألك هذا طلب للمعاش

مالي أرى فرضك حملانهـــم ... يثبت في القرنين قبل الكباش) [١٨]

(وكان رجل ... البغلات ، فجلس يوما يخبر عن رجل كيف .. بغلة ، وكيف انكســـرت رجله ، وكيف كان بغالها ، قال ، كان يضع تحت رجله لبنة ، فبينا هو ينحى فيها إذ انكسرت اللبنة من تحت رجله ، وإذا أنا على قفاي) [١٩]

(.. رجل كلبة ، فعقدت عليه ، فلما طال عليهما البلاء رفع رأسه فصادف رجلا يطلع عليه من سطح فقال له الرجل : إذا ضرب جنبها فلما ضرب جنبها ، وتخلص قال ، قاتله الله أي .. نكهات هو !!) [٢٠]

---

١٧) البيان والتبيين الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون صفحة ١٣ الجزء الرابع .

١٨) ثلاث رسائل ، الجاحظ ، نشر يوشع فنكل صفحة ٥٠

١٩) المصدر المذكور صفحة ١٤ .

٢٠) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الرابع صفحة ١٥

وللخرافات في العصر العباسي نصيب وافر ، نتيجة العلم المنقول ، والمعارف المحمولة من لغتها إلى العربية بما فيها من خير وشر ، وزيف وأباطيل ، وأكاذيب وأساطير ثم بما يضيفه العرب إليها من معتقداتهم الخرافية ، وقصصهم الوهمية ، وبما يخترعون ويولدون لأغراض اجتماعية أو سياسية ، دينية أو دنيوية ، وكان الكثيرون يؤمنون بها ، ويجزم بصحتها وسدادها ، وقد كشف لنا سخر الجاحظ الكثير من الخرافات التي كان يعيش فيها عصره ، فقال حكاية عن بعضهم ، (إني قد بت في القفر مع الغول ، وتزوجت السعلاة ، وجاوبت الهاتف ورفت عن الجبن الى الحن ، واصطدت الشق ، وجاوبت النسناس ، وصحبني الرئي).(٢١)

(وأما قول النساء وأشباه النساء في الخفافيش ، فإنهم يزعمون أن الخفاش إذا مس الصبي ، لم يترعرع منه من لحمه ، وحتى يسمع نهيق حمار وحشي ، فما أنس نزعي من مس الخفاش ، ووحشي من قريب ، وإيماننا بذلك القول ، إلى أن بلغت).(٢٢)

ومن الخرافات المزورة ، المتقنة الصنع من بعض الحواة في خلافة المنصور ، والتي اكتشفها السامع فسخر بها وسخر من المتحدث بها ما يرويه الجاحظ في كتابه الخالد "الحيوان" قال ، (زعم ابن أبي العجوز الحواء ، أن الافاعي صم ، فلذلك لا تجيب الرقى ثم زعم لي في ذلك المجلس أن أمير المؤمنين المنصور أراد امتحان رقى حية ، وأن يتعرف صحتها من سقمها ، وأنه أمر فصاغوا له أفعى من رصاص ، فجاءت ولا يشك الناظر فيها ، وأنه أمر بالزاقها في موضع من السقف ، وأنه أحضره ، وقال له ، إن هذه الأفعى قد صارت لي هذه الدار ، وقد كرهتها لمكانها ، فإن احتلت لي برقية ، أو بما أحببت أحسنت إليك ، قال ، إن أردت أن آخذها صيرت ، ولكن ارقيها حتى تنزل ، فرقاها فلما رآها لا تتحرك زاد في رفع صوته وألقى قناعة ، فلما رآها لا تتحرك نزع عمامته وزاد

---

(٢١) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، ضبط العوامري والجارم ، صفحة ٨٨.
(٢٢) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الثالث ، صفحة ٢٦٧

في رفع صوته ، فلما رآها لا تتحرك نزع قلنسوته وزاد في رفع صوته ، فلما رآها لا تتحرك نزع ثيابه وزاد في رفع صوته ، حتى أزبد وتمرغ في الأرض ، فلما فعل ذلك سال ذلك الرصاص وذاب حتى صار بين أيديهم ، فأقر عند ذلك المنصور بجودة رقيته ، فقلت له ويلك ! زعمت قبل أن الأفاعي لا تجيب الرقى لأنها لا تسمع وهي حيوان ، ثم زعمت أنها أجابت وهي جماد !)(٢٣)

ولم تقتصر الخرافات على عامة الأمة وجهالها ، ومن لم يمتوا إلى العلم والدين بسبب وثيق ، وعرق عريق ، بل امتدت إلى العلماء ، ووجدت لها في نفوسهم ركنا تأوي إليه ، وتنفث سمومها من خلاله ، فيما يكتبون ويفسرون ، وامتد تأثيرها إلى خاصة المتكلمين والمفسرين والمحدثين ، وأهل الرأي والتدبير ، يقول الجاحظ ساخرا من مزاعم بعض العلماء ، (وزعم لي بعض العلماء من قدروى الكتب ، أن حية يقال لها الدساس تلد ولا تبيض ، وأن أنثى النمور لم تضع نمرا قط إلا ومعه أفعى ، والأعراب تزعم أن الكمأة تبقى في الأرض فتمطر مطرة صيفية فيستحيل بعضها أفاعي ، فسمع هذا الحديث مني بعض الرؤساء الطائيين ، فزعم أنه عاين كمأة ضخمة فتأملها ، فإذا هي تتحرك ، فنهض إليها فقلعها فإذا هي أفعى ، هذا ما حدثته من الأعراب حتى برئت إلى الله من عيب الحديث)(٢٤).

(ومما لا أكتب لك من الأخبار العجيبة التي لا يجسر عليها إلا كل وقاح ، أخبار بعض العلماء ، وبعض من يؤلف الكتب ، زعموا أن الضبع يكون عاما ذكرا وعاما أنثى ، وقال الفضل بن إسحاق ، أنا رأيت العقرب والطوط في غصن واحد ، ويزعمون أن النمر تضع في مشيمة واحدة جروا وفي عنقه أفعى قد تطوقت به)(٢٥).

---

٢٣) المصدر المذكور الجزء الرابع صفحة ٤١٩ ، ٤٢٠

٢٤) المصدر المذكور صفحة ٧٥

٢٥) المصدر السابق الجزء الرابع صفحة ٤٩

(وزعم بعض المفسرين أن السنور خلق من عطسة الأسد ، وأن الخنزير خلق من سلحة الفيل) (٢٦) وسئلوا عن قوله تعالى قل أعوذ برب الفلق قالوا : الويل واد في جهنم ، ثم قصدوا يصفونه (٢٧). (وكان أبو إسحاق يقول : لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين وإن نصبوا أنفسهم للعامة ، وأجابوا على كل مسألة ، فإن كثيرا منهم يقول بغير رواية على غير أساس، وكلما كان المفسر أغرب عندهم ، كان أحب إليهم) (٢٨).

كان العصر العباسي يعج بمختلف المذاهب ، وشتى النحل ، وأنماط من العصبيات وألوان من الديانات ، وعديد من الطوائف ، كل يحامي عن رأيه ، ويدافع عن مذهبه ، ويتعصب لأبناء جلدته ، ويضع غيره ، ويحاول إخماله .

وقد كان للشعوبية شأن وخطر ، فهي السوس الذي ينخر في عظام الأمة العربية والدولة الإسلامية ، وهي كما أعطانا الجاحظ صورة عنها ، تبغض العرب والإسلام يقول : (والشعوبية والآزادمردية ، المبغضون لآل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ممن فتح الفتوح ، وقتل المجوس، وجاء بالإسلام ، تزيد في جشوبة عيشهم وخشونة ملبسهم وتنقص من نعيمهم ، ورقاقة عيشهم) (٢٩). ويقول : (اعلم أنك لم ترقوما قط أشقى من هؤلاء الشعوبية ولا أعدى على دينه ، ولا أشد استهلاكا لعرضه ، ولا أطول نصبا ، ولا أقل غنما من أهل هذه النحلة ، وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم ، وتوقد نار الشنآن في قلوبهم ، وغليان تلك المراجل الفائرة ، وتسعر تلك النيران المضطرمة) (٣٠). ويقول :

(صار ولاة أمورنا في هذا الدهر الصعب والزمن الفاسد أشد استبصارا في التشبيه من

---

٢٦) المصدر السابق : الجزء الرابع صفحة ٣٤٧

٢٧) المصدر السابق الجزء الأول صفحة ٣٤٤

٢٨) المصدر المذكور صفحة ٣٤٣

٢٩) البخلاء الجاحظ ، تحقيق طه الحاجري ص٢٨٨ ، شرح المواقف للجاحظ ٢ ص٢٠٢

٣٠) البيان والتبيين ، الجاحظ : الجزء الثالث صفحة ٢٩ ، ٣٠

علينا ، وأعلم بما يلزم فيه منا ، واكشف للقناع عن رؤسائنا ، وصادفوا الناس وقد انتظموا معاني الفساد أجمع ، وبلغوا غايات البدع ، ثم قرنوا بذلك العصبية التي هلك بها عالم بعد عالم والحمية التي لا تبقى دينا إلا أفسدته ، ولا دنيا إلا أهلكتها ، وهو ما صارت إليه العجم من مذهب الشعوبية ، وما قد صار إليه الموالي من الفخر على العجم والعرب)[٣١].

أما الديانات غير الإسلام فمتعددة فبجانب المسيحية واليهودية وجدت الزنادقة شتية ، والمانوية ، والثنوية والدهرية ، والمجوسية ووجدت الفرق المتعارضة ومنها الديصانية والمانية ولكل مذهب أتباع وأنصار ومؤيدون يدافعون عنه ويحامون وكثرت المذاهب في كل دين وصار الخلاف بينهم شديدا ، وكثر الجدل والخلاف ، وهم جميعا يكيدون للإسلام ويضمرون له الشر!...

قال الجاحظ في النصارى ، (ودينهم يرحمك الله — يضاهي الزندقة ، ويناسب في بعض وجوهه قول الدهرية ، وهم من أسباب كل حيرة وشبهة ، والدليل على ذلك أنا لم نر أهل ملة قط أكثر زندقة من النصارى ، ولا أكثر متحيرا أو مترنحا منهم ، وكذلك شأن كل من نظر في الأمور الغامضة بالعقول الضيقة ، ألا ترى أن أكثر من قتل في الزندقة ممن كان ينتحل الإسلام ويظهره ، وهم الذين آباؤهم وأمهاتهم نصارى)[٣٢] ، (على أن هذه الأمة لم تبتل باليهود ولا المجوس ولا الصابئين كما ابتليت بالنصارى وذلك أنهم يتبعون المتناقض من أحاديثنا ، والضعيف بالإسناد من روايتنا ، والمتشابه من آي كتابنا ، ثم يخلون بضعفائنا ، ويسألون عنها عوامنا ، مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين ، وحتى مع ذلك ربما تبرءوا إلى علمائنا وأهل الأقدار منا ، ويشغبون على القوي ، ويلبسون على الضعيف ، ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم

---

٣١) رسائل الجاحظ ، الجاحظ ، جمع حسن السندوبي صفحة ٢٩٩ .

٣٢) ثلاث رسائل الجاحظ ، طبع يوشع فنكل صفحة ١٧

وأنه ليس أحد أحق بمجاجة الملحدين من أحد) (٣٣) . وقال عن معتقدات اليهود ساخرا : (لنهم يعدون أن النظر في الفلسفة كفر والكلام في الدين بدعة ، وأنه مجلبة لكل شبهة ، وأنه لا علم إلا ما كان في التوراة ، وكتب الأنبياء ، وأن الإيمان بالطب وتصديق المنجمين من أسباب الزندقة ، والخروج إلى الدهرية ، والخلاف على الأسلاف وأهل القدوة ، حتى أنهم ليهرجون المشهور بذلك ، ويحرمون كلام سالك سبيل أولئك) (٣٤) .

وقال في الزنادقة : (والزندقة لم تكقط أمة ولا كان لها ملك ولا مملكة ، ولم تزل بين مقتول وهارب ومنافق) (٣٥) . (وليس في كتبهم مثل سائر ولا خبر طريف ، ولا صنعة أدب ولا حكمة غريبة ، ولا فلسفة ، ولا مسألة كلامية ، ولا تعريف صناعة ، ولا استخراج آلة ، ولا تعليم فلاحة ، ولا تدبير حرب ، ولا منازعة عن دين ولا مناضلة عن نحلة ، وجل ما فيها ذكر النور والظلمة ، وتناكح الشياطين وتسافد العفاريت ... وكله هذر وعي وخرافة وسخرية وتكذب) (٣٦) .

وتكلم كثيرا عن المجوس وفرقهم ومذاهبهم وسخر من مبادئهم وعقائدهم وكثرة كلامه عن أقسامهم وديانتهم ، دليل اطلاعه عليها ، ومعرفته بها ، وانتشارها في عصره ، وبين أبناء جيله ، ولا غرابة فهو دين الفرس الذين مكنوا للعباسيين ، وتمكنوا من العباسيين ، وصارت لهم الهيبة والدولة والمشورة والوزارة .

يقول عن اعتقادهم في مبدأ خلق الإنسان : (وزعم المجوس أن الناس من ولد مهنة ومهنية ، وأنهما توالدا فيما بين أرحام الأرضين ، ونطفتين ابتدرتا من عيني ابن هرمز حين قتله هرمز وحكايات أصحاب الاثنين كثيرة في هذا الباب) (٣٧) .

---

٣٣) المصدر السابق صفحة ١٩ ، ٢٠ .

٣٤) أمراء البيان : محمد كرد علي ج ٢ ص ٣٦٩

٣٥) الحيوان : الجاحظ : الجزء الرابع صفحة ١٣٨

٣٦) المصدر المذكور الجزء الأول صفحة ٥٧

٣٧) المصدر السابق صفحة ١٩٠

(وكا زال الناس كافة ، والأمر قاطبة حتى جاء الله بالحق مولعين بتعظيم النار حتى ضل كثير من الناس ، إلا فرا طغيم فيها أنهم يعبدونها)[٣٨] (والمجوس تقدم النار في التعظيم على الماء ، وتقدم الماء في التعظيم على الأرض ، ولا تكاد تذكر الهواء)[٣٩] ، (وزعم أصحاب الكلام أن زرادشت — وهو صاحب المجوس — جاء من بلخ وادعى أن الوحي نزل عليه على جبال سيلان ... وكانه إذا قيل له : أنت رسول إلى من ؟ قال لأهل البلاد الباردة ، الذين لا بد لهم من وعيد ، ولا وعيد لهم إلا الثلج ، وهذا جهل منه وحسن استجاب له أجهل منه)[٤٠] ، ويزعم زرادشت وهو مذهب المجوس أن الفأرة من خلق الله وأن السنور من خلق الشيطان)[٤١] ، وقد كان المجوس ينكحون أمهاتهم ، يروي الجاحظ في سخرياته ، (استعمل معاوية رجلا من كلب ، فذكر يوما المجوس ، وعنده الناس فقال ، لعن الله المجوس ، ينكحون أمهاتهم ، والله لو أعطيت مائة ألف درهم ما نكحت أمي ، فبلغ ذلك معاوية ، فقال ، قاتله الله ، أترونه لو زادوه على مائة ألف فعل ! فعزله)[٤٢] . ويقول عن الدهرية ، (قال أبو إسحاق ، قالت الدهرية في عالمنا هذا بأقاويل ، فمنهم من زعم أن عالمنا هذا من أربعة أركان ، حر وبرد ، ويبوسة وبلة وسائر الأشياء نتاج وتركيب وتوليد .... ومنهم من زعم أن هذا العالم من أربعة أركان ، من أرض وهواء وماء ونار ، وجعلوا الحر والبرد واليبس والبلة أعراضا في هذه الجواهر)[٤٣] . (الدهري ليس يرى أن في الأرض دينا أو نحلة أو شريعة أو ملة ، ولا يرى للحلال حرمة ولا يعرفه ، ولا للحرام نهاية ولا يعرفه ، ولا يتوقع العقاب على الإساءة ، ولا يترجى الثواب على الإحسان ،

---

٣٨) المصدر السابق الجزء الرابع صفحة ٤٧٨

٣٩) المصدر المذكور صفحة ٤٨١

٤٠) المصدر المذكور الجزء الخامس صفحة ٦٧

٤١) المصدر السابق الجزء الرابع صفحة ٢٩٨ .

٤٢) البيان والتبيين ، ج ٢ ص ٢٦٠

٤٣) المصدر المذكور الجزء الخامس صفحة ٤٠

وإنما الصواب عنده ، والحق فى حكمه ، أنه والبهيمة سيان وأنه والسبع سيان ، ليس القبيح عنده إلا ما خالف هواه وأن مدار الأمر على الإخفاق والدرك ، وعلى اللذة والألم وإنما الصواب فيما نال من المنفعة ، وأن قتل ألف إنسان صالح لنالة الدرهم الردى)(٤٤).

ومن سخرياته تتضح مقالة المانية أتباع مانى . يقول (إن المانية تزعم أن العالم بما فيه من عشرة أجناس : خمسة منها خير ونور ، وخمسة منها شر وظلمة ، وكلها حاسة وحارة وأن الإنسان مركب من جميعها على قدر ما يكون فى كل انسان من رجحان أجناس الخير على أجناس الشر ، ورجحان أجناس الشر على أجناس الخير)(٤٥).

ويضرب بهم المثل الساخر يشبههم فيه بمن عمى بصره وقلبه فيحسب الخطأ والجهل فى غيره ، وإنما هو متأصل فيه ونابع منه يقول ، (إن أبا سمّاحين جهلوا الأسباب والمعانى وقصروا فى الخلقة عن تأمل الصواب والحكمة فيها فخرجوا إلى الجحود والتكذيب ، حتى أنكروا خلق الأشياء ، وزعموا أن كونها بإهمال لا صنعة فيه ولا تقدير ، فكانوا بمنزلة عميان دخلوا دارا قد بنيت أتقن بناء ، وفرشت أحسن فرش ، وأعد فيها من ضروب الأطعمة والأشربة والمآدب ، ووضع كل شئ من ذلك فى موضعه على صواب وتقدير فجعلوا يسحون فيها محجوبة أبصارهم فلا يبصرون هيئة الدار وما أعد فيها ، وربما عثر الواحد منهم بالشئ ، قد وضع فى موضعه ، وأعد لشأنه ، وهو جاهل بالمعنى فيه ، فتذمر وتسخط ، وذم الدار وبانيها)(٤٦).

ويفسر معتقد الديصانية وهم فرقة من المجوس ، (زعمت الديصانية أن أصل العالم إنما هو من ضياء وظلام ، وأن الحر والبرد واللون والطعم والصوت والرائحة إنما هى نتاج على قدر امتزاجهما)(٤٧) . . .

---

٤٤) أمراء البيان ، محمد كرد على ج ٢ ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

٤٥) الحيوان ، الجزء الرابع صفحة ٤٤٢

٤٦) أمراء البيان ج ٢ ص ٣٦٨

٤٧) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الخامس صفحة ٤٦ .

أما المذاهب الكلامية فى الإسلام فكثيرة كثيرة ، وبين آرائها تعارض وتضارب ، حتى ليكفر بعضهم بعضا ويزندقه ، على أنهم جميعا ممن برع فى الفلسفة والمنطق ، ومارس المناظرة والمحاورة ، وعرف الحجج والبراهين ، والسفسطة والجدل ، ونال من العلوم النصيب الأوفى

يقول الجاحظ مبينا ما يجب أن يكون عليه المتكلمون من علم وفقه : (ولا يكون المتكلم جامعا لأقطار الكلام ، متمكنا فى الصناعة ، يصلح للرياسة ، حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة والعالم عندنا هو الذى يجمعهما)(٤٨)

ثم يرفع المتكلمين مرتبة سنية لجودة الأصول التى يبنون عليها ، وصحة المقاييس التى يقيسون بها ، ويتمنى أن يكونوا أصحاب المهن والفنون حتى يأتى نتاجهم لا صدع فيه ولا ثلمة فيقول وكلامه ينطوى على السخر بأطباء عصره : (ما كان أحوجنا ، وأحوج جميع المرضى أن يكون جميع الأطباء متكلمين ، وإلى أن يكون المتكلمون علماء ، فإن الطب لو كان من نتاج حذاق المتكلمين ، ومن تلقيحهم له ، لم نجد فى الأصول التى يبنون عليها من الخلل ما نجد)(٤٩)

ثم يرفع المعتزلة على سائر المتكلمين ، وإبراهيم بن سيار البلخى الشهير بالنظام (أستاذه) على سائر المعتزليين فيقول : (لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام ، من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل ، فإن لم أقل ، ولولا أصحاب إبراهيم وإبراهيم لهلكت العوام من المعتزلة ، فإنى أقول : إنه قد أنهج لهم سبلا ، وفتق لهم أمورا ، واختصر لهم أبوابا ظهرت فيها المنفعة ، وشملتهم بها النعمة)(٥٠)

ولو ذهبنا نعدد المذاهب والنحل ، ونتتبع المعتقدات والملل فى سخر الجاحظ لضاق بنا المقام ، ولأسلمنا هذا المبحث إلى التيه اللجى ، الذى فيه تغرقه ويغرق بحثنا معنا ، وإنما اكتفينا بالمذاهب المشهورة ، والمعتقدات السائدة فى عصره ، وأجملنا فى قولنا إن لكل مذهب مسالك وشعابا ، واتجاهات وانقسامات تبعدنا عن موضوعنا ، ونحن فى حاجة إلى البقاء فيه حتى توفيه حقه إن شاء الله

(٤٨) المصدر المذكور ، الجزء الثانى صفحة ١٣٤

(٤٩) المصدر السابق ، الجزء الخامس صفحة ٥٩

(٥٠) المصدر المذكور الجزء الرابع صفحة ٢٠٦

الفصل الأول

خلقته وأخلاقه

إذا تجرد المرء من الهوى، وبعد عن التحيز، ونأى عن التبجح والتزيد، واتخذ الصدق رائده، والصراحة مسلكه، ثم نظر بعين عقله إلى هيئته وصورته، فتحدث عنها، وإلى خلقه وطباعه، فأبرزها وأوضحها، فإنك لن تجد كاتبا يبلغ ما بلغ، ولا مؤرخا أو أديبا يصل إلى عمق ما وصل، فلن يعرف حقيقة الإنسان أكثر من نفسه، ولن يغوص في أغواره ويطفو ما فيها على السطح غير غواص ماهر، يعرف حناياها وخفاياها، لأنه عايشها منذ نشأتها وشهد أطوارها، ونموها، وصحبها في يقظتها ونومها، وفرحها واكتئابها، وعرف ما انطوت عليه من عيوب وحسنات، وما تولد فيها من هياج وانفعالات، وما استكن داخلها من آلام وآمال، وذلك الغواص الماهر الخبير الذي تتوافر فيه هذه الصفات هو الشخص نفسه، الذي نريده أن يكشف نفسه بنفسه، فقد يكون رديء العبارة، فج الأسلوب بدائي التعبير، ولكنه مع ذلك قادر على الإفصاح عن نفسه، وذكر حقيقة خلقه وتصرفه أكثر ممن وهب البيان ورزق الفصاحة وبراعة اللسان، لأننا لا نريد التزويد والتزويق، والطلاء والتمويه، وإنما رائدنا إيضاح الحقيقة، وكشف المستتر، وإبرازه كما هو بخيره وشره.

فإذا كان هذا المرء فصيحا، بارع الأداء، ذكي القلب، فطن العقل، فقد اجتمعت الأدوات، واكتملت الخطوط، وبرزت الصورة واضحة، ناطقة، لا لبس فيها ولا غموض.

وأستاذنا الجاحظ خير من توفرت لديه الشروط، واجتمعت في راحتيه الخيوط ليبرز لنا حقيقته، ويجلي واقعه، وينصب من نفسه مؤرخا لنفسه، ومن عقله حاكما على عقله. في حياد وإيجابية، وبساطة ويسر، نستشفها من سخره، ونقتصها من فكاهته وطنزه. فيرشدنا بنفسه إلى نفسه، ونستدل به عليه.

كان الجاحظ قصير القامة ، واسع الحدقتين ، قبيح الشكل ، مستهجن الخلقة ،

أما نتوء عينيه وجحوظهما فلأنه إنما لقب "الجاحظ" لذلك ، كما لقب بالحدقي للسبب

نفسه ، يقول ياقوت في كتابه معجم الأدباء : (روى أصحابنا أن الجاحظ صار إلى منزل بعض

إخوانه ، فاستأذن عليه ، فخرج إليه غلام عجمي ، فقال : من أنت ؟ قال : الجاحظ ،

فدخل الغلام إلى صاحب الدار فقال : الجاحد على الباب ، وسمعها الجاحظ ، فقال صاحب

الدار للغلام اخرج فانظر من الرجل ؟ فخرج يستخبر عن اسمه ، فقال : أنا الحدقي ،

فدخل الغلام فقال : الحلقي ، وسمعها الجاحظ فصاح به في الباب : ردنا إلى الأول)[1]

وأما قصر قامته فلما رواه في قوله : (رأيت بالعسكر امرأة طويلة القامة جدا ، ونحن على

طعام ، فأردت أن أمازحها ، فقلت : انزلي حتى تأكلي معنا ، قالت : وأنت فاصعد حتى

ترى الدنيا)[2] وهذا دليل قصره والتصاقه بالأرض .

أما قبح خلقته ، وبشاعة هيئته فنستدل عليها من سخرياته بنفسه قال : (ذكرت للمتوكل

لتأديب بعض ولده ، فلما رآني استبشع منظري ، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني)[3] .

وقال : (ما أخجلني أحد مثل امرأتين ... وأما الأخرى فإنها أتتني وأنا على باب داري

فقالت : لي إليك حاجة وأريد أن تمشي معي ، فقمت معها إلى أن أتت بي إلى صائغ

يهودي ، فقالت له : مثل هذا ، وانصرفت ، فسألت الصائغ عن قولها ، فقال : إنما أتت

إلى بفص ، وأمرتني أن أنقش لها عليه صورة شيطان ، فقلت : ياستي ما رأيت الشيطان ،

---

١) معجم الأدباء : ياقوت ج ١٦ ص ٨٥

٢) الأذكياء : عبد الرحمن بن الجوزي صفحة ٢٦٢

٣) وفيات الأعيان : ابن خلكان ج ٣ ص ١٤ ، ثمرات الأوراق : ابن حجة الحموي ، هامش

المستطرف ١ ص ٦٢ .

ألت بك ، وقالت ما سمعت)[٤] ويروى (أنه اشترى جارية تركية جميلة رجاء أن يرزق منها ولدا يكون بحسنها وذكائه ، فولدت له ولدا ، جاء بقبحه وجهلها)[٥]

ويبرز هنا سؤال ، يستدعيه الموقف ، ويتطلبه المقام ، ويتصل بموضوع البحث أوثق اتصال . هو : ما الذى يدفع الإنسان إلى أن يسخر من نفسه ؟ وما الأسباب التى جذبت الجاحظ إلى السخرية من شكله ، وإضحاك الناس من خلقته ، ومن بعض تصرفاته ؟

وإجابتى عن هذا السؤال تكون بتعداد الدوافع ، وذكر الأسباب التى من أجلها يكشف مساوئه ونقائصه ، ويفصح عن عيوبه وسقطاته ، ويدعو الناس إلى السخر منها ، والتفاكه بمواقفه .

١ـ وأول تلك الأسباب فى السخرية ، خفة روحه ، ونشاط نفسه ، وبعده عن التزمت ، وميله إلى الضحك والإضحاك وحبه للسخر مع احترامه شعور غيره وأحاسيسه ، فيتحرج من تخيره أن يجعله موضع سخره ، فيضحى بنفسه ويسخر منها ، غير مبال بما يرتكبه فى حق نفسه ، وما نقصه من كرامته وجلبا للضحك ، ورغبة فى التفكه والامتاع ، ومن أمثلة ذلك عند الجاحظ قصته مع الذبان ، وقصته مع القصيرا لبطين الألحى ، ومع المرأتين اللتين كانتا تسيران بجانبه وهو يركب حمارته .[٨]

٢ـ وقد يقصد بسخره التنفيس عن غيظ مكبوت ، وألم دفين ، وحزن جبيس ، فيطلب التسرية عن طريق السخرية ، علها تخفف لواعجه ، وتهدئ ثائرته وحنقا على نفسه ومحنته ومراقته ، ساخرا من الزمان ، وهزءا بالأحداث ، وكأنه بذلك يتعالى على كوارث الأيام ، وهزءاً بمفارقاتها فيما وقع له فيها ، كقصته مع المتوكل حين صرفه عن تأديب ولده لبشاعة خلقته .[٩]

---

(٤) أمراء البيان ، محمد كرد على ج ٢ ص ٤٦٤ ، ٤٦٥
(٥) المرجع المذكور صفحة ٤٥٨
(٦) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الثالث صفحة ٣٤٦
(٧) تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادى ، الجزء الثانى عشر صفحة ٢١٦
(٨) الأذكياء ، ابن الجوزى ، صفحة ١٧٤
(٩) انظر الصفحة السابقة رقم (٣) بالهامش .

ــ وقد يكون سخره من نفسه لغرض حصيف ، وفكرة ماكرة ، يرمى من ورائها إلى صرف الناس عن عيوبه وعن الهزء بنقصه ، إلى الضحك من كلامه ، والتفكه بقصته ، فيتبدل السخر منه استظرافا لحديثه ، وإعجابا بما يرويه ، كما روى الجاحظ في قصته مع الغلام العجمي وسيده (١٠).

٤ــ وقد يسارع بالسخر من نفسه ، ويبادر بذكر مساوئه ، فلا يدع لخصمه مجالا يطعنه فيه إلا يترك مغمزا يشفي منه حقد قلبه ، وغل نفسه ، وهو بذلك يكبت عدوه ، ويسد عليه المنافذ ، التي قد تفرج شيئا من ألمه ، فيظل مرجل الغيظ يغلي في قلبه ، لأنه كان يريد امتلاك زمام المبادأة ، وتعداد العيوب بنفسه ، وتنسيق الكلام حسب إرادته ، ولكن المسخور سبقه إلى ذلك بالجمع ، وكأن سخره من نفسه انتقاما من خصمه ، وتنغيصا له ، ومن ذلك عند الجاحظ حكايته التي يروي فيها ما حدث له مع المرأة التي أخذته إلى الصائغ ، وقصته مع المرأة الطويلة التي كانت بالعسكر (١١) (١٢).

٥ــ وقد يسخر من نفسه ، قبل أن يسخر منه غيره ، ومع أنه إفصاح عن عيوبه ، وإبراز لنقائصه إلا أن فيه حفظا لشيء من كرامته التي تسقط لو عابه غيره ، لأنه هو الذي لم يراع كرامة نفسه وأوضح الخلل في قوله وتفكيره ، أو أظهر التشويه في خلقته وتركيبه ، وكأنه يقول بيدي لا بيد عمرو فيفضح نفسه في جرأة وشجاعة قد يحمد عليها ، ومن هذا اللون سخرية الجاحظ من نفسه لنسيانه كنيته وسؤاله عنها (١٣) ورأيه الفاسد فيما تفعله الخفافيش (١٤).

٦ــ وربما كان سخر الإنسان من نفسه مخرجا له من مأزق ، أو جالبا له خيرا ، أو دافعا عنه ضرا ، حيث يحل المرح في نفس من أراد ضره محل الغضب والانتقام ، فيجد برد الراحة

---

١٠) انظر الصفحة السابقة أو التي قبلها رقم (١) بالهامش.

١١) انظر الصفحة السابقة رقم (٤) بالهامش.

١٢) انظر الهامش السابق رقم (٢).

١٣) تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي ، الجزء الثاني عشر صفحة ٢١٢

١٤) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الثالث : صفحة ١٦٧

الحيوان ثلاث … [illegible]

التي يجلبها الضحك ، مكان نار الحقد الذي يدفعه إلى التشفي فيعفو ويصفح . وقصة تنور ابن أبي دؤاد الذي أحرق فيه ابن الزيات ثم هروب الجاحظ خوفا من أن يكون ثالث اثنين إذ هما في التنور . كما ذكر حين سأله ابن أبي دؤاد : لم هربت — شاهد صادق على هذا الضرب من سخر الشخص بنفسه ، فإن ابن أبي دؤاد علته الهشاشة ، وصفح عنه ، وقلده هدية ، وكساه ، وأجلسه في مجلسه ، وأقبل على حديثه وملاطفته (١٥) .

على أن ضحك الإنسان من نفسه ، وسخره من خلقته أو خلقه أو تصرفه ، مبعثه فيه ، مرح النفس وهشاشة الطبع ، ولباقة وكياسة ، وسرعة خاطره ، وبعد نظره واستهانة بالحياة ومصاعبها ، وذلك يقوى السخر وينميه ، ويجعل له طعما ونكهة ، لأن الساخر هو موضوع السخرية وأصلها ومنشئها ، والمفكه بها هو الضاحك والمضحك ، وبطل القصة والمتفرج بها .

أما أخلاق الجاحظ فأول ما يطلعنا منها كلفه بالفكاهة والمرح ، وولعه بالضحك والسخر وذلك شائع في جل تصرفاته ، ومنتشر في سائر مؤلفاته حتى ليندر أن تجد له كتابا أو رسالة أو حديثا عابرا ، خلوا من نكهة مرح وأريج مزح ، ولذع سخر ، فلم يكن الجاحظ بالكاشر العابس والمقطب الكالح ، وإنما كان متفائلا بالحياة ، محبا لها ، مقبلا عليها ، مستمتعا بأيامها ، خبرها وتعمقها ، فعرف لها طبعها المتقلب ، من ليونة وقساوة ، وحلاوة ومرارة ، فاتخذ من المرح ترياقا يلطف به شرنها ، ومن السخر دواء يطب به أدواءها ، حتى ليضحك إبان شيخوخته ومرضه ، ويولع بالناس ، ويركبهم بسخره ، مع فالجة ونقرسه ، ويتهكم حتى يصل تهكمه إلى أخلاق شيوخه وأساتذته ، بل يصل تهكمه إلى سلوكه هو وأفكاره وتصرفاته .

لقد ضحك الجاحظ ما أمكنه ، ومدح الضحك ، ودعا إليه ، وحث عليه ، يقول : (وإنما أستظرف أمرين استظرافا شديدا : أحدهما استماع حديث الأعراب ، والأمر الآخر احتجاج متنازعين في الكلام ، وهما لا يحسنان منه شيئا ، فإنهما يثيران من غريب

---

(١٥) معجم الأدباء ، ياقوت ، الجزء السادس عشر ، صفحة ٧٩ ، ٨٠ .

اب سائل ، ولون حائل ، فقلت للجارية : لابد من النظر إليه ، فقال : هذا رجل ورد
صرة ، وسمع بى ، ويريد أن يقول : رأيت الجاحظ ، فأذن لى ، فدخلت وسلمت ، فرد ردا
يلا وقال : من تكون أعزك الله ؟ فانتسبت له ، فقال : رحم الله أسلافك وآباءك السمحاء
، كانت أيامهم رياض الأزمنة ، ولقد رأى بهم الخلق خيرا كثيرا ، فسقيا لهم ورعيا ، فدعوت
، وقلت له : أنشدنى شيئا ، فقال :

لئن قدمت قبلى رجال فطالما مشيت على رسلى فكنت المقدما

ولكن هذا الدهر تأتى صروفه فتبرم منقوضا وتنقض مبرما

م نهضت ، فلما قربت من الباب قال : يافتى ، أرأيت مفلوجا ينفعه إلا هليلج ؟ قلت : لا
ل : الإلا هليلج الذى معك ينفعنى ، فابعث إلى منه ، فقلت : نعم وعجبت من وقوفه على
برى ، مع كتمى له ، وبعثت له منه شيئا)[19] ونحن أشد تعجبا من وقوع الجاحظ على هذا
لخبر ، ولا تفسير له ، إلا ما وصفت به الجاحظ من تنقير وتنقيب .

أحب الجاحظ أساتذته وأصدقاءه ، ومدحهم ، ووفى لحبهم ، وحفظ لهم واجبات الأستاذية
الصداقة ، فلعجب بالنظام أيما إعجاب وقال عنه (إن لم أقل : لولا أصحاب إبراهيم وإبراهيم
لهلكت العوام من المعتزلة ، فإنى أقول : إنه قد أنهج لهم أمورا ، واختصر لهم أبوابا
ظهرت فيها المنفعة ، وشملتهم بها النعمة)[20] كما قال عنه : إن الأوائل يقولون
فى كل ألف سنة رجل لا نظير له ، فإن كان ذلك صحيحا فهو أبو اسحاق النظام)[21]
كما مدح أبا عبيدة بأنه (لم يكن فى الأرض خارجى ولا جماعى أعلم بجميع العلم منه)[22]

---

١٩) جمع الجواهر : الحصرى : صفحة ٢٠٣ ، زهر الآداب ص١٩٨

٢٠) الحيوان : الجاحظ : الجزء الرابع صفحة ٢٠٦

٢١) أمراء البيان : الجزء الثانى صفحة ٣١٧

٢٢) البيان والتبيين : الجاحظ : الجزء الأول صفحة ٣٤٧

كما أعجب بموسى بن سيار الأسواري وقال عنه (كان من أعاجيب الدنيا ، وكانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية)[٢٣] فقد كان يعرف لكل ذي حق حقه ، ولكل عالم فضله ، ولئن تناول البعض بسخره ، فانما ذلك دليل الحب ، وطرح الحشمة ونبذ الكلفة ، واللصوق بالقلب لأنه لا يسخر إلا ممن لا تغضبه السخرية يقول : (ولسنا من تسمية الأصحاب المتمكنين ولا غيرهم من المستورين في شيء ، أما الصاحب فانا لا نسمية لحرمته ، وواجب حقه ، والآخر لا نسميه ليستر الله عليه ، ولما يجب لمن كان في مثل حاله ، وإنما نسمي من خرج من هاتين الحالين ، ولربما سمينا الصاحب إذا كان ممن يمازح بهذا ، ويأبناه يتظرف ، ويجعل ذلك الظرف سلما لشيء شينه)[٢٤] ، أليس ذلك دليل المحبة والوفاء والاحترام وحسن الصحبة وقد كان يتحرج من ذكر ما يسوءهم لأنه يحترم العلماء ولا يجب أن يذكر عيوبهم وإن كانت فيهم ، إذا كان ذلك يغضبهم ، يقول : (ولولا أن أكون عيابا ثم للعلماء خاصة ، لصورت لك في هذا الكتاب بعض ما سمعت من أبي عبيدة ، ومن هو أبعد في وهمك من أبي عبيدة)[٢٥] .

ويقول في كتابه البخلاء : (إن ههنا أحاديث كثيرة متى أطلعنا منها حرفا عرف أصحابها ، وإن لم نسمهم ، ولم نرد ذلك بهم)[٢٦] .

كان يرى أن الإنسان يجب أن يلقى جزاء عمله ، فلا يليق به أن يحرم منه ولا يصح أن يرفع علم فوق قدره ، أو يكون حلمة تسمن من دماء غيرها ، أو عليقة تلتف على غيرهـــا لترتفع وتسمق ، فكره المتصفين بالأدب ، والمتطفلين على العلم ، والوصوليين و وكان يمقت الشفاعة لأحدهم لأنه يعتبرها شهادة ، ولا يستسيغ شهادة الزور ولا تقبلها نفسه ، (حدث أبو العينا ومحمد بن القاسم قال : صرت إلى الجاحظ ، فقلت له : جئتك مسلما

---

٢٣) البيان والتبين ، الجاحظ ، تحقيق هارون ج ١ ص٣٦٨ .

٢٤) البخلاء ، الجاحظ ، شرح العوامري والجارم الجزء الاول صفحة ١٠٧

٢٥) البيان والتبين ، الجاحظ ، تحقيق هارون الجزء الرابع صفحة ٢٤

٢٦) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، ضبط العوامري والجارم الجزء الاول صفحة ٣٠ .

وقاضيا للحق ، ولى حاجة لبعض أصدقائى ، وهى كذا وكذا . قال ، لاتشغلنا الساعة من المحادثة ، وتصرف آخيا رنا ، إذا كا ن فى غد وجهت إليك بالكتاب . فلما كان من غد وجه إلى الكتاب ، فقلت لابنى ، وجه هذا الكتاب إلى فلان ، ففيه حاجته ، فقال لى ، إن أبا عثمان بعيد الغور ، فينبغى أن تفضه ، وتنظر ما فيه ، ففعل ، فإذا فى الكتاب ، هذا الكتاب مع من لا أعرفه ، وقد كلمنى فيه من لا أوجب حقه ، فإن قضيت حاجته لم أحمدك وإن رددته لم أذمك) (٢٧) .

ومن أ برز أخلاق الجاحظ (ولعلها النقد) ولو ذهبنا نحدد نقده لعجزنا ، لأنه فى كل صفحة كتبها ، وفى كل مجلس تكلم فيه ، وهو نقد العالم المجرب ، الجرىء الشجاع - وسنعقد فصلا خاصا لجرأته فى النقد هو الفصل الرابع من هذا الباب - ويكفينا الآن أن نقول إنه لم يجد شيئا فى غير موضعه إلا نقده ، وإن كان ممن لم يعرفهم ، ولم يحدثهم ولا قابلهم من قبل ، وقد أشرت فى أوائل هذا الفصل إلى قصته مع البطين الألحى ، ومع المرأتين اللتين سخرتا منه وهو يركب حمارته ، ومع المرأة الطويلة جدا التى قابلها بالمعسكر فما بالك بمن عاشرهم ، وداوم لقاءه بهم ، وخبر سلوكهم ووقف على هناتهم .

كان مضربا بالعرب ولغتهم وآدابهم ، مجلا للإسلام ، مناضلا عنه ضد أعدائه ، وقف حياته على خدمة العرب ولغتهم ، والإسلام وعبادته ، وحمايتهما من كل زيغ وزيف ، وكتبه الكثيرة الشهيرة دليل صدق على ذلك ، فقد ألف كتابه الحيوان ، لإظهار ما فى الحيوان من الحجج على حكمة الله العجيبة ، وقدرته الباهرة ، وألف كتاب البيان والتبيين وحشد فيه الكثير من خطب العرب وأشعارهم وأمثالهم ، وتناول البلاغة والبيان إعجابا بالعرب ولغتهم وفصاحتهم ، كما ألف كتب ، (الاحتجاج لنظم القرآن ، وخلق القرآن ، الرد على من ألحد فى كتاب الله ، فرق ما بين النبى والمتنبى ، كتاب القرآن ، الرد على النصارى ، وغيرها

---

٢٧) معجم الأدباء ج ١٦ ص ٨٣ ، جمع الجواهر ص ٢٠٤

شكر عبد الصبح

على حكمة الليالمحبية، وقدرته الباهرة، وألف كتاب البيان والتبيين وحشد فيه الكثير من خطب العرب وأشعارهم وأمثالهم، وتناول البلاغة والبيان إعجابا بالعرب ولغتهم وفصاحتهم كما ألف كتب، (الاحتجاج لنظم القرآن، خلق القرآن الرد على من ألحد في كتاب الله فرق ما بين النبي والمتنبي، كتاب القرآن، الرد على النصارى، حجج النبوة) خدمة للاسلام ودفع الشبه عنه. وإذا نظرنا إلى سخره في أغلب مواطنه، فإننا نجده، سهاما شائكة يقسو به الدين من أعدائه، واللغة العربية وآدابها من كل متحصر نطف، متجانف عن الحق.

فقد سخر من أقوال المفسرين، البعيدة عن العقل، المجانبة الصواب، ليبين لهم خطأ كلامهم وخطره، وليتنبهوا وعامة الناس إلى الرأي السليم، المناسب للدين والعقل.

يقول، (وقد زعم ابن حائط، وناس من جهال الصوفية، أن في النحل أنبياء، لقوله عز وجل، "وأوحى ربك إلى النحل"... قلنا وما خالف إلى أن يكون في النحل أنبياء؟! بل يجب أن تكون النحل كلها أنبياء، لقوله عز وجل على المخرج العام، "وأوحى ربك إلى النحل"... وبعد، فإن كنتم مسلمين فليس هذا قول أحد المسلمين، وإلا تكونوا مسلمين فلم تجعلون الحجة على نبوة النحل كلاما هو عندكم باطل؟!)(٢٨). ويقول، (لا فترسلوا إلى كثير من المفسرين، وإن نصبوا أنفسهم للعامة، وأجابوا في كل مسألة، فإن كثيرا منهم يقول بغير رواية، على غير أساس، وكلما كان المفسر أغرب عندهم، كان أحب إليهم)(٢٩).

وسخر من الديانات الأخرى، لما فيها من تخليط، وخبط، وتحريف وفساد، ليبرهن للملأ أن الإسلام هو الدين الحق، والشريعة السمحة التي سدت كل ثغرة ولأمت كل ثلمة، وأنما تناسب هذا العصر وما بعد هذا العصر إلى يوم الحشر، يقول عن المسيحية، (ودينهم — يرحمك الله — يضاهي الزندقة، ويناسب في بعض وجوهه

---

٢٨) الحيوان، الجاحظ، تحقيق هارون الجزء الخامس صفحة ٤٢٤ و ٤٢

٢٩) المصدر المذكور، الجزء الأول، صفحة ٣٦٨.

قول الدهرية ، وهم أصحاب كل حيرة وشبهة)[٣٠]. ويعزو إليهم السبب في انتشار البدع والكفر الذي يهدم الإسلام يقول : (فلولا متكلموا النصارى ، وأطباؤهم ومنجموها صار إلى أغنيائنا وظرفائنا ومجاننا وأحداثنا شيء من كتب المنانية والديصانية والمرقونية والفلانية ، ولما عرفوا غير كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم)[٣١].

ويسخر من الشعوبيين ، لطعنهم على العرب ، وغضهم من لغتهم ودينهم ، ووضعهم العرب في درجة أقل من درجتهم ، وبغضهم الإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام يقول ابن بحر : (وقد طعنت الشعوبية على أخذ العرب في خطبها المخصرة والقناة والقضيب)[٣٢]. (اعلم أنك لم ترقوما قط أشقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا أعدى على دينه ولا أشد استهلاكا لعرضه)[٣٣] (الشعوبية والأزاد مردية المبغضون لآل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه)[٣٤].

ويسخر من بلاغات الأمم الأخرى كالهند والفرس والروم والزنج ، وأوضح مكانة اللغة العربية الممتازة بين هذه البلاغات الأقزام التي تحبو وتتعثر ، يقول : (كل كلام للفرس وكل معنى للعجم إنما هو من طول فكرة ، ومن اجتهاد رأي ، وطول خلوة ، ومن مشاورة ومعاونة ومن طول التفكر ودراسة الكتب ، وحكاية الثاني علم الأول ، وزيادة الثالث في علم الثاني ، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم ، وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ، ولا مكابدة ، ولا إجالة فكر ولا استعانة)[٣٥].

ـ ويتهكم بغير اللغة العربية من لغات رآها لا تفي بحاجات الحياة ، ومتطلبات التقدم

---

٣٠) ثلاث رسائل ، الجاحظ نشر يوشع فنكل صفحة ١٧

٣١) المصدر المذكور صفحة ٢٠

٣٢) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الاول صفحة ٣٨٣

٣٣) المصدر السابق ، الجزء الثالث صفحة ٢٩

٣٤) البخلاء ، الجاحظ ، ضبط العوامري والجارم الجزء الثاني صفحة ٢٠٢

٣٥) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الثالث صفحة ٢٨

ولعلها قد خلت من بعض حروف الهجاء التي أثبتتها العربية ، فلا يستطيع أبناء هذه اللغات المختلفة نطق هذه الحروف (قال الأصمعي : ليس للروم ضاد ، ولا للفرس ثاء ولا للسرياني ذال)(٣٦)

وهزئ بالخرافات التي شاعت في أمته ، رغبة في ردها إلى الصواب ، وحفاظا على أن تكون خير أمة أخرجت للناس ، تتمسك بدينها الإسلام ، وبلغتها ولغته العربية . ومن تلك الخرافات ما رواه الجاحظ في الحيوان : (قد سمعت من يذكر أن كبر أذن الإنسان دليل على طول عمره ، حتى زعموا أن شيخا من الزنادقة — لعنهم الله تعالى — قدموه لتضرب عنقه ، فمشى إليه غلام سندي كان له فقال : أليس قد زعمت يا مولاي أن من طالت أذنه طال عمره ؟ قال : بلى ! قال : فهاهم يقتلونك ! قال : إنما قلت : إن تركوه)(٣٧)

ولئن سخر بخرافات عصره وما قبل عصره ، فإنما فعل ذلك حتى لا يلصق بأبناء أمة العرب المسلمين شئ من ضلالاتهم وأباطيلهم ، وليدفعهم إلى استخدام العقل والمنطق ، وعدم أخذ الأقوال قضايا لا تحتمل النقاش ، وإن شهر صاحبها بالعلم والعرفان ، فالعالم يخطئ ، وخطؤه أشد من خطأ الجاهل وأبعد أثرا .

وبهذا نكون قد أكدنا أن الجاحظ وضع نصب عينيه خدمة اللغة العربية وآدابها ، وخدمة الدين الإسلامي وأهله ، وإن جميع نتاجه ، وكل سخرياته كانت من أجل هذا الهدف التي تتطامن دونه الأهداف ، ولعل في ذلك الدليل البين على أنه عربي صليبة ، وأن الدم العربي الفوار يملأ عروقه عزة وإباء ، فهذا الجاحظ من لغة آبائه وأجداده ، ومن دينه ودين قومه وعشيرته .

ومن أخلاق الجاحظ : بعده عن التقليد والاحتذاء ، واستقلاله بنفسه ، فما سلم بخبر من الأخبار ، ولا ارتضى رأيا من الآراء ، قبل أن يعرضه على عقله فيقره ، ويعمل فيه فكره فيثبته ، ولو كان رأيا دينيا عقائديا ، تلقيه جليل ، أو عالم نحرير .

٣٦) المصدر السابق : الجزء الأول صفحة ٦٥

٣٧) الحيوان : الجاحظ ، تحقيق هارون الجزء السادس صفحة ١١٧

وما ترسم فى كتاباته وتأليفه خطا من سبقه ، أو عاصره ، وإن أعجب الناس على معاصريه وفوقه ، بل كانت له طريقة خاصة ، وأسلوب معين ، يتميز عن كتاب عصره وغير عصره ، ومهما وضع بين متشابهه فإنه يشير إلى النسق الجاحظى ، والأسلوب العثمانى ، ويدل على ابن بحر أوضح دلالة .

وما نهج فى مذهبه الكلامى نهج أساتذته الاعتزاليين ، بل اختص بآرائه وانفرد بأقوال ، جعلته متميزا عنهم ، واعتنقت آراءه جماعة ، نسبت إليها ، وتسمت باسم صاحبها ، وعرفت بين المتكلمين باسم "الجاحظية" ..

لقد كان يشك حتى يصل إلى اليقين ، فيعتنقه بكل وجدانه ويتشبث به لا يرتد عنه ، ولا ينثنى ، وكان يعتبر الشك المرحلة الأولى للوصول إلى الحقيقة ، ويقول فى ذلك (اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها ، تعرف بها مواضع اليقين ، والحالات الموجبة له)[٣٨] .

لم يكن الجاحظ بالزاهد المتنسك ، ولا بالمتحلل المتهتك ، وإنما كان معتدلا فى دينه ، معتدلا فى دنياه ، أدى واجبات دينه ، وفروضه ، ودعا المسلمين إلى التفكر فى ملكوت السماوات والأرض ، وأمضى ساعات حياته الكثيرة فى الدفاع عن الإسلام ، وإعلاء شأن المسلمين ، ومناظرة الجاحدين ، وهداية المارقين ، وحبب إليهم دينهم ، كما حبب إليهم دنياهم ، ثم تمتع بمباهج الحياة ، وزينة الدنيا والطيبات من الرزق ، فأكل وشرب ، ولها ولعب ، وضحك وسخر ، وسمع الغناء ، وحضر مجالس الطرب والموسيقا ، فنال حظه من الدنيا ، ولم يقصر فى حق الآخرة ، وذلك هو الاعتدال ، والحد الوسط المدوح بين التفريط والإفراط ، يقول : (ولا نرى بالغناء بأسا إذا كان أصله شعرا مكسوا نغما ، فما كان منه صدقا فحسن ، وما كان منه كذبا فقبيح ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : "إن من الشعر لحكمة" ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه "الشعر كلام ، فحسنه حسن وقبيحه قبيح" .... فإن كان إنما يحرم لأنه يلهى عن ذكر الله ها

---

٣٨) المصدر المذكور صفحة ٣٥

لقد نجد كثيرا من الأحاديث والمطاعم والمشارب ، والنظر إلى الجنان والرياحين ، واقتناص الصيد ، والتشاغل بالجماع وسائر اللذات ، تصد وتلهي عن ذكر الله تعالى ونعلم أن قطع الدهر بذكر الله من أمكنه ذلك أفضل ، إلا أنه إذا أدى الرجل الفرض فهذه الأمور كلها له مباحة ، وإذا قصر عنه يلزمه المأثم ، ولو سلم من اللهو عن ذكر الله أحد لسلم الانبياء عليهم السلام . هذا سليمان بن داود عليه السلام ألهاه عرض الخيل عن الصلاة حتى غابت الشمس فعرقبها ، وقطع رقابها) (٣٩) .

(حدث أبو الزيان المحدث بسر من رأى ، قال ، حضرت وليمة حضرها الجاحظ ، وحضرت صلاة الظهر فصلينا وما صلى الجاحظ ، وحضرت صلاة العصر فصلينا وما صلى الجاحظ ، فلما عزمنا على الانصراف ، قال الجاحظ لرب المنزل ، إني ما صليت لمذهب - أو لسبب - أخبرك به ، فقال له - أو فقيل له - ما أظن أن لك مذهبا في الصلاة إلا تركها) (٤٠)

ونعني الكلام عن أخلاق الجاحظ ، بصفة حار مؤرخو الأدب في نسبتها إليه ونشب بينهم خلاف من أجلها ، هي صفة " البخل " والسبب في حديثهم عنها كتابه " البخلاء " وما ذكر فيه من نوادرهم وحججهم ، وإجادته ذلك فهل كان الجاحظ بخيلا ، وهو من أجل هذا يحتج للبخل ، ويحلل الشح ويذكر الأدلة والبراهين على صحة هذا المذهب ويحسنه للنفس ويحببه للقلب ، فيسميه بأسماء ممدوحة كالاقتصاد ، والتدبير والحزم ، والإصلاح ، ويصف أحاديث نفسه ، وخلجات فؤاده ، إلى غيره من الرجال فيتكلم بلسانه وينسب لهم ما يدور في الخلد ، وهو بين آن وآخر يلمز البخيل ويعيبه ، ويسخر منه ويلومه ، حتى تتوهم الحقيقة على القارئ ، ويلتبس الأمر ، فيخيل إليه أنه إنما تحدث عن غيره ، وروى قصصا عن رأى بخلهم ولمزهم ، ممن ذكر أسماءهم ، وإن كان لا يعجب بهم ، ولا يذهب مذهبهم ويعتقد القارئ

---

٣٩) ثلاث رسائل ، الجاحظ ، نشر يوشع فنكل ، صفحة ٦٤ .

٤٠) تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٢١٧

أنه يؤلمهم ويحيف بهم ، وهو في رأيه الأمر يعلمهم الحجاج ، ويرسم لهم طرق الاتساع التي تبطل آراء الكرماء الأسخياء (٤٠)

ويرى هذا الرأي جماعة منهم الأستاذان الفاضلان ، أحمد العوامري ، وعلي الجارم في تقديمهما لكتاب "البخلاء" ويؤيدانه بقولهما : (لأن الولوع بالشيء يجنح إلى النفس التحدث عنه ، والإفاضة فيه ، ولأن من عرف الجاحظ وأن من أبرع صفاته ، أن يستوسل بحب أحيانا بإعلان ما لا يجب ، يرجح أنه كان بخيلا ، وأخرى ، أنه جمع فيما نقل في الكتاب رسالتين ، إحداهما لأبي العاص بن عبد الوهاب ، في ذم البخل ، والأخرى لابن التوأم ، في مدح البخل ونرجح أن الرسالتين بقلم الجاحظ ، لأن الأسلوب أسلوبه والروح روحه ، والتصوير تصويره ، ولأننا لم نعثر عليهما في غير كتاب البخلاء – أسهب في الثانية وأجاد ، وصال فيها وجال ، وأفاض وأطال ، وأكثر من الاستشهاد بالآيات والأحاديث وأقوال الحكماء ، وتنقل فيها من فن إلى فن ، مقبحا الإسراف والإعطاء ، مزينا البخل والإكداء) (٤١) ويقولان إن غناه واتصاله بالدولة وما كان فيه من ثروة لا يمنع من أن يكون بخيلا (فإنه هو نفسه يرى في كتاب البخلاء أن كثرة المال وكثرة الإنفاق ، لا تمنع المرء أن يكون بخيلا ، ضيق الكف ، منهوك المروءة) (٤٢) ثم يقولان : (وقد وقفنا بعد هذه الظنون على خبر يبين أن أبا عثمان كان بخيلا مشهورا بالبخل في عصره ، فقد جاء في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي في الجزء ١٢ صفحة ٢١٧ : "سمعت أبا بكر محمد بن إسحاق يقول : قال لي إبراهيم بن محمود ونحن ببغداد : ألا تدخل على عمرو بن بحر الجاحظ ؟ فقلت ما لي وله ؟ قال : إنك إذا انصرفت إلى خراسان سألوك عنه ، فلو دخلت إليه وسمعت كلامه . ثم لم يزل بي حتى دخلت عليه يوما ، فقدم إلينا طبقا عليه رطب ، فتناولت منه ثلاث رطبات وأمسكت ومر فيه إبراهيم فأشرت إليه أن يمسك ، فرمقني الجاحظ ، فقال لي : دعه يا فتى ، فقد كان

---

(٤١) كتاب البخلاء : ضبط وشرح العوامري والجارم ، تأليف الجاحظ ، الجزء الأول صفحة ١٥ ، ١٦

(٤٢) المرجع السابق صفحة ١٦

عندى فى هذه الأيام بعض إخوانى ، فقدمت إليه الرطب ، فامتنع ، فحلفت عليه ، فأبى إلا أن يرقسى بثلاثمائة رطبة " وفى هذا الخبر دلالة على شهرة الجاحظ بالبخل ، وذلك لأن إنسانا لا يمتنع بعد ثلاث رطبات ثم يشير على صاحبه بالامتناع ، إلا إذا عرف أن صاحب الرطب بخيل ، ثم إن قول الجاحظ ، دعه يا فتى ، يحمل معنى كبيرا من الاستسلام والصبر على المصيبة ، لمن يفهم أسلوب الجاحظ ، وطرائق تعبيره ، وأحد إخوان الجاحظ هذا ، الذى أبى أن يرقسه إلا بأكل ثلاثمائة رطبة ، إنما كان يقصد إغاظته والنكاية به ، ولا يكون ذلك إلا إذا عرفه بالبخل ، والرطب رخيص فى بغداد ، وإن رجلا يغتاظ لأن يصاب فى ثلاثمائة رطبة لبخيل)[٤٢] .

ويعارض هذا الرأى الدكتور طه الحاجرى ، فيقول (وهذا كله كلام ملقى على عواهنه ، ولا ندرى كيف ذهب عن الأستاذين الفاضلين أن يستشفا هذه السخرية التى تشيع فى كلام الجاحظ ، وما يرسل من القول على ألسنة البخلاء ، بل كيف غاب عنهما أن أول ميزة لرجل الفن وأظهرها أنه يستطيع أن يتكلم بكل لسان ، ويصطنع كل هيئة ، ويتغلغل إلى بواطن النفوس المختلفة ، فيشرف عليها ، ويخالطها ويصور الحركات المختلفة التى تداخلها ويبرز الشخصيات المختلفة بجميع مشخصاتها ، من السمات والحركات والكلمات ، فإذا كان الجاحظ قد أجاد فى رسم شخصيات البخلاء فى كتابه ، وفى إنطاقها بما هو أشبه بها فإنما ذلك فى حقيقته مظهر من مظاهر تلك الموهبة الفنية القوية ، لا أثر من آثار بخله وكزازة يده ، وإلا وجب أن نخلع على رجل الفن الواحد جميع الصفات المتناقضة التى وصف بها شخصياته ، وأبرزها فيها)[٤٣] .

---

(٤٢) المرجع السابق صفحة ١٦

(٤٣) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجرى ، المقدمه ، صفحة ٣٤ .

ولى بعد ذلك أن أقول :

إن ماكتبه الأستاذان : العوامرى والجارم فى تقدمتهما لكتاب البخلاء ، وما كتبه الدكتور طه الحاجرى فى مقدمته لكتاب البخلاء ، لاسند له ولا دليل عليه ، وإنما هى شكوك وظنون لا تنهض نهوض الدليل المقنع ، والحجة القارعة ، فكلام الأستاذين منقوض لأسباب :

١— إن الجاحظ يتسم بالفكاهة والمرح ، والدعابة والسخر ، ويشتهر بين أدباء عصره وغير عصره ، بالاحتجاج للشىء وضده ، ومدح الشىء ثم ذمه ، إظهارا للبراعة البيانية ، والمقدرة الذهنية ، والذخيرة المنطقية ، وقد فعل ذلك فى عدة مواطن ، فمدح الكتاب وذمهم ، ومدح المعلمين وذمهم ومدح الوراقين وذمهم ، ومدح العلوم وذمها ، وبالتالى مدح البخل وذمه ، وقد كتب فى تصنيف حيل لصوص النهار وفى تفصيل حيل سراق الليل ، فوفى الموضوع حقه ، وبين من لطيف الخدع ، وغرائب الحيل مالا يبلغه كيد ، فهل كان الجاحظ بذلك أحد لصوص النهار ، أو زعيم سراق الليل حتى ننسبه إلى البخل إن كتب فيه ؟! لا ، قطعا فإن ميزة الأديب أن يجول فى كل غرض ، ولا يعجز عن تناول أى موضوع ، وأن يستبطن الأمور ، ويتعمق الشخصيات ، يتكلم عن البخل حتى نظنه بخيلا ، وعن الكرم حتى نحسبه كريما ، وعن اللصوصية حتى نخاله الرئيس المقدم فى السطو والنهب وذلك دليل الاقتدار وأمارة الموهبة الفنية ، والسيطرة القلمية .

ولما كان رحمه الله يشعر بما ستأتى به الأيام من معارضين ينسبون إليه اعتناق المذاهب والأخلاق التى يتحدث عنها كما فعلوا فى عصره ، فسجل لوم ذلك فى كتابه الحيوان فقال :

(وعبتنى بحكاية قول العثمانية والضرارية ، كما سمعتنى أقول فى أول كتابى وقالت العثمانية والضرارية كما سمعتنى أقول قالت الرافضة والزيدية فحكمت على بالنصب لحكايتى قول العثمانية فهلا حكمت على بالتشيع لحكايتى وهلا كنت عندك من الغالية لحكايتى حجج الغالية ، كما كنت عندك من الناصبة لحكايتى قول الناصبة)[٤٤] ، وكأنه من برزخه يقول للأستاذين : وحكمتما على

٤٤) الحيوان : الجاحظ : تحقيق هارون : الجزء الأول : صفحة ١١ الطبعة الأولى سنة ١٩٣٨

با لبخل لحكايتي أقوال البخلاء وللمم وأسانيدهم ، فهلا حكمتنا على بالكرم لحكايتي فضائل الكرماء ، وبراهين الأجاود الأسخياء .

٢ـ إنه كتب كتاب البخلاء لواحد من رجالات عصره كما يقول في مطلعه ، (قلت اذكر لي نوادر البخلاء ، واحتجاج الأشحاء ، وما يجوز من ذلك في باب الهزل وما يجوز منه في باب الجد)(٤٥) فكتب له ما أراد ، ووفى الموضوع حقه ، كما كتب له الكتب من قبل فوفاها حقها ، وقد كان معروفا عنه أنه يكتب كتبه استجابة لرغبات رجال من علية عصره ويهديها لهم ، وينال جزاء كل منها آلاف الدنانير ، فكان من الهدهي أن يكثر من احتجاج الأشحاء في رسالة ابن التوأم في مدح البخل ، وأن نراه قد أسهب وأجاد ، وصال وجال وأفاض وأطال واستكثر من الاستشهاد بالآيات والأحاديث ، وانتقل من فن إلى فن مقبحا الإسراف والإعطاء ، مزينا البخل والإكداء — كما ذكر الحوامي والجاسم — لأن هذه طبيعة الكتاب ، ورغبة من كتب له ، والسبب الذي من أجله أنشئ .

٣ـ أما تلقين الجاحظ بخلاء الحجج على حسن الاتصاف بادخار المال ، وتسميته الصلاح والحزم والتدبير الذي هو عماد الحياة المستنيرة الفاضلة ، فإنه أرقى أنواع السخرية والهزء ، عن طريق ذكر الضد والنقيض ، والذم في صورة المديح ، والتأنيب والتشهير في صورة النصح والإرشاد ، وللجاحظ في كتاباته ولع بمثل هذا اللون الأدبي البلاغي ملأ به رسالة التربيع والتدوير تهكما بأحمد بن عبد الوهاب .

٤ـ إن إجادة الجاحظ كتابته عن البخل ، وحشده العلل والبراهين في مدحه ، في الرسالة التي كتبها على لسان ابن التوأم ، يدل على أن البخل ليس من طبعه أكثر مما يدل على أنه من صفاته لأن المرء لا يتكلف الحجج والبراهين ، ويتأنق فيها ، ويعنى نفسه مشقتها إلا إذا أحس أن ما يحتج له ليس في طبعه ، فهو يحاول بما أوتي من جهد

---

٤٥) المصدر السابق صفحة ١٧

أن يثبته ويؤكده ، فهو يكثر من الأدلة ، ويلجأ إلى الجدل والسفسطة لعلها تفيد وتجدي — ويعترف الأستاذان بأن رأيهما في بخل الجاحظ يقوم على الظن — وهو كذلك فعلا — ولكنهما يستدلان بقصته مع ضيفيه ، وقد أطعمهما الرطب على بخله .

وأرى أن في القصة لونا من فكاهة الجاحظ ، التي ما كانت تفارقه حتى تفارقه روحه ، وليس فيها دليل بخله وشحه ، فقد قدم طبق الرطب وكان يمكنه ألا يقدم ، أو يقدم رطبات معدودات ، على مقدار شحه . وإمساك أبي بكر بعد ثلاث رطبات لا يدل على بخل صاحب الرطب ، فربما أمسك وقارا واحتشاما وهو بحضرة الشيخ الجليل ، وربما أمسك لينصرف إلى محادثة الشيخ والأخذ عنه ، فكره انشغاله بالأكل ، ولعله أشار إلى صاحبه بالإمساك لما أمسك من أجله ، أو لسوء نماله وتناوله الرطب في شراهة ، ألا تشعر عبارة (ورمى بسه إبراهيم) بسوء الأكل وقذر المؤاكلة ؟ ؟

ورمق الجاحظ أبا بكر ، وقوله له : دعه يافتى ، أذلك دليل على البخل أم دليل على الكرم ؟ ! إنني لأعتبره دليل الكرم ، فقد كان بوسع الجاحظ أن يتغاضى عما كان بين الرجلين ولا يتكلم ، وكأنه لم يرشيئا ، ويحدث الامتناع عن الأكل بأيسر طريق ، ولكن نظرة الجاحظ لأبي بكر ربما كانت نظرة عتاب ، أتبعها بقوله آمرا : دعه يافتى أما بقية القصة فمن باب الهزل والإضحاك ، والسخرية من الرجل الذي امتنع تماما عن تناول الرطب ، وأبدى تعففه وتأففه ثم التهم ثلاثمائة رطبة ، أليس في ذلك ما يدعو إلى رواية قصته والتندر بها ؟! !

وكلام الدكتور الحاجري في نقض رأي الاستاذين مقبول مستجاد ، مدعم بالدليل المستقيم لكنه نقض بخله ، ولم يثبت صفة يدلها ويبرهن عليها .

وإني أصف الجاحظ بالاعتدال ، فلا هو بالشحيح الكزولا بالمسرف المتلاف ، فصفته هنا معتدلة لا تتصل بأحد النقيضين ، ولو أنه كان بخيلا ، أو كريما لما سكت المؤرخون

الفصل الثاني

علمه وأدبه

رغم فقر الجاحظ وعوزه ، وصغره ويتمه ، وبشاعة خلقته ورثاثة ملبسه ، وسحنة المتسول منذ نعومة أظفاره ، مندرجا في هذا المجتمع المائج ، قطرة من محيطه ، ليكسب قوته وقوت أمه ، مما يفضله عليه بيع الخبز والسمك في سيحان ، فقد كانت كل الدلائل تبشر بمولد عبقرية فريدة ، وترشد إلى قرب ظهور عالم فذ ، وأديب عملاق ، وكان الزمن يشير بأصبعه إلى هذا الصبي ، الزري الهيئة ، البشع الخلقة ، الذي لا يحس أحد بوجوده ، وينظر إليه نظرة خاصة ، على أنه سيكون في قابل أيامه ذا شأن وخطر ، فقد كانت أمارات النجابة تبدو عليه ، ومخايل الذكاء تشع من عينيه ، ورغبته في القراءة والمعرفة لا تعترف بالحدود والقيود ، فبدأ يتعلم القراءة والكتابة ومبادئ الدين والعلوم في كُتّاب أبي الوزير وأبي عدنان ، وكانا عالمين فصيحين قال عنهما الجاحظ : (وما كان عندنا بالبصرة رجلان أروى لصنوف العلم ، ولا أحسن بيانا من أبي الوزير وأبي عدنان المعلمين ، وعالمهما من أول ما أذكر من أيام الصبا)(1) ، وتفتحت عينه على العلم ، فعشق الكتب ، ولزمها يرتشف من رحيقها ، إلا أنه كان صديان لا يرتوي من هذا المنهل الذي يحس في نفسه وقلبه بالظمأ الدائم إليه ، فكان يطلبه في أماكنه ومظانه ، ولا يمنعه من ذلك فقره ، ولا يصرفه سعيه في الحياة وكده ، بل كثيرا ما جاع وأهمل عمله في سبيل الكتب ، ومن ذلك ما يروى أنه طلب الطعام يوما من أمه فجاءته بطبق فيه كراريس ، فقال لها : ما هذا ؟ قالت : هذا الذي تجيء به(2).

---

١) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق هارون ، الجزء الأول صفحة ٢٥٢

٢) أمراء البيان ، محمد كرد علي ج ٢ ص ٣١٨ ، الثقة والأمل للمراغي ص ٣٨

ولقد وجد في الكتاب بلسم نفسه ، وعزاء قلبه ، فاستعاض عن النظر إلى ما في أيدي الأغنياء بالنظر إلى ما في الكتاب من درره وانصرف عن البحث فيما يذهب لقوه إلى البحث عما يذهب جهله ، وأراد أن يكون وراء الشكل القبيح ، الذي تزدريه الأعين ، وتزور عنه ، نفس مشرقة وعقل نير ، يمحى لهما الناس ، ويلحون في نيل ما عنده منهما ، فجعل الكتاب سبيله إلى ذلك ، وصديقه ومرشده ، وجماله وثراءه ، به يباهي ويفاخر ، فأقبل عليه ، وجعله عدل نفسه وقرين روحه ، وكانت له في قلبه منزلة أبان عنها في قوله ، (الكتاب وعاء ملئ علما ، وظرف حشي ظرفا ، وإناء شحن مزاحا وجدا ، إن شئت كان أبلغ من سحبان وائل ، وإن شئت كان أعيى من باقل ، وإن شئت ضحكت من نوادره ، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده ، وإن شئت ألهتك طرائفه ، وإن شئت أشجتك مواعظه ، ومن لك بواعظ مله ، وبزاجر مغر وبناسك فاتك ، وبناطق أخرس ، وببارد حار ، وفي البارد الحار يقول الحسن بن هانئ :

قل لزهير إذا انتحى رشدا — أقلل أو اكثر فأنت مهذار

سخنت من شدة البرودة حتى — صرت عندي كأنك النار

لا يعجب السامعون من صفتي — كذلك الثلج بارد حار) [٣]

ويقول : (وهبت الكتاب ولا أعلم جارا أبر ولا خليطا أنصف ، ولا رفيقا أطوع ولا معلما أخضع ...) [٤]

ولم يكن لعسره وإملاقه — يستطيع أن يشتري الكتب التي تشبع نهمه ، لغلاء أسعارها ، ولكثرة ما يقرأ منها ، فتفتق ذهنه عن اكتراء دكاكين الوراقين ليلا ، يبيت فيها للقراءة والنظر لأن (من احتاج تحركت همته ، وكثر تنقيره ، وعيب الفتى أنه يحب البلادة وفضيلة

٣) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق هارون ، الجزء الأول صفحة ٣٩ ، ٤٠ الطبعة الأولى

٤) المصدر السابق ، صفحة ، ٤١

الفقر أنه يبعث الفكر (٥).

ورأى القراءة وحدها غير كافية في تكوين العقل، وتوجيه الفكر، وأحس بحاجته إلى السماع والنقاش، فجلس في حلقات المسجديين، وشارك فيها، وأراد تقويم لسانه، وتعديل اعوجاجه في دولة حوت الحديد من أجناس البشر ولغاتهم ولهجاتهم، وتسربت ألفاظها إلى ألسنة العرب الخلص، وانتشر اللحن، فمضى إلى المربد — عكاظ الإسلام — يتلقف الفصاحة بمشافهة الأعراب المقيمين حوله، وقد قال في ذلك: (وقد أدركت رواة المسجديين والمربديين)(٦)

وهو مع ذلك لا يكف عن القراءة، ولا يمل الاطلاع، ثم اتصل بمشاهير عصره علما وفقها وأدبا واعتزالا، وجالسهم، وباحثهم، وأخذ عنهم، وروى لهم، وقد كانوا غرة في جبين الزمن وتاجا على هام العلم والأدب، وشموسا تشع فقها ولسنا وحكما، منهم أبو يوسف صاحب أبي حنيفة، والنظام، وثمامة بن الأشرس، والسري بن عبدويه، ويزيد بن هارون والأصمعي وأبو عبيدة معمر بن المثنى وابن كركرة ويحيى بن نجيم وغيرهم، يقول (وقد جلست إلى أبي عبيدة والأصمعي ويحيى بن نجيم، وأبي مالك عمرو بن كركرة مع من جالست من رواة البغداديين فما رأيت أحدا منهم قصد إلى شعر في النسيب فأنشده، وكان خلف يجمع كل ذلك)(٧).

ويقول عن أبي عبيدة: (لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلم منه)(٨).

ويقول عن ثمامة بن الأشرس: (ما علمت أنه كان في زمانه قروي ولا بلدي، كان بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه، وكان لفظه في وزن إشارته، ومعناه في طبقة لفظه، ولم يكن لفظه إلى سمعك

---

٥) البخلاء، الجاحظ، ضبط العوامري والجارم الجزء الثاني صفحة ١٢٦.

٦) البيان والتبيين، الجاحظ، الجزء الرابع صفحة ٢٣.

٧) المصدر المذكور صفحة ٢٣، ٢٤

٨) المصدر المذكور، الجزء الأول، صفحة ٣٤٧

بأسرع من معناه إلى قلبك)(٩). ويقول عن النظام «إنه (ما رأى أحداً أعلم بالكلام والفقه منه)(١٠) (وإن الأوائل يقولون في كل ألف سنة رجل لا نظير له، فإن كان ذلك صحيحاً فهو أبو إسحاق النظام)(١١).

ولما توسعت الدولة في الترجمة، ونقلت العلم والآداب والثقافات الأجنبية إلى اللغة العربية، وصار هذا الفيض من المعرفة في متناول العرب، هب الجاحظ يقرأ ويستوعب ويتذوق فواكه جديدة من مجاني العلم والأدب، ويقارن ويوازن، ويبحث وينقد ويتأثر بهذه الثقافات، فأفادته أيما إفادة، وبخاصة المنطق والفلسفة اللذان أحدثا الأثر الكبير في تعليله واستدلاله، وآرائه، ومذهبه الكلامي، وسفسطته كما تجده في بعض الأحيان، وما أضافه من معلومات عن الحيوان من كتاب أرسطو كما ذكر في مقدمة حيوانه.

وهذا يتم نضج الجاحظ الذهني والأدبي والعلمي والثقافي، ويتجه إلى التأليف والتصنيف، وخدمة الدولة واللغة والإسلام، وهو في هذه الرحلة العلمية الأدبية الشاقة التي بدأت بمعرفته القراءة، وانتهت بسقوط أجلاد الكتب على رأسه فأخمدت أنفاسه — صار على أحكم ما تكون العصامية الفكرية، بنى نفسه بنفسه، وهذب عقله وصقل لسانه، ورسم لنفسه المخطط وتتبع خطوطه، فما أتمه حتى كان ما أراده قد تحقق، وارتقى من بائع خبز وسمك إلى جليس أمراء وخلفاء، ورئيس طائفة اعتزالية تسمت باسمه، وصاحب ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد، ودعوات جمجمة إليه من الخلفاء، ملحة في الكتابة لهم، والشخوص إليهم، ومظهر فخم، ينام على الريش، ويلبس أجود الطبرى وألينه، سأله رجل عن حاله فقال: (حالي أن الوزير يتكلم برأيي، وينفذ أمرى، ويواتر الخليفة الصلات إلى حتى

---

٩) المصدر المذكور صفحة ١١١

١٠) البيان والتبيين، الجزء الثاني صفحة ٢١٧

١١) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

وآكل من لحم الطير أسمنها ، وألبس من الثياب ألينها وأجلس على ألين الطبرى ، وأتكئ على هذا الريش ، ثم أسير على هذا حتى يأتى الله بالفرج . فقال الرجل : الفرج ما أنت فيه ! فقال : بل أحب أن تكون الخلافة لى ، ويجعل محمد بن عبد الملك بأمرى ، ويختلف إلى فهذا هو الفرج)[12].

وكان وكده دائما فى رحلة حياته مع العلم والأدب ، أن ينتقى الأجود ، ويختار الأمثل ، فانتقى من الكتاتيب ، كتاب أبى عدنان وأبى الوزير ، واختار للسمر والأخبار ورواية الآثار ، المسجديين ورغب لتقويم لغته ولسانه ، المربد حصن اللغة ومشحذها ، وارتضى من علماء الكلام النظام وثمامة بن الأشرس ، ومن اللغويين الأصمعى وأبا عبيدة ، ومن الحكماء ابن جناح ، ومن الفقهاء أبا يوسف ، ومن القصاص الفصحاء موسى بن سيار الأسوارى ، فتربى على أيدى كل هؤلاء فخرجوا نابغة عصره ، ووحيد دهره حتى فاق أساتذته وبذهم ، أضف إلى ذلك تربية الزمن له ، وكثرة رحلاته ، واحتكاكه بصنوف الناس ، ومواكبته أحداث أمته ومشاركته فيها زهاء قرن من الزمان ، وصادفت التربية تربة طيبة ، ونبته أصيلة ومدّاً من أسباب النمو والسموق ، أدى بالجاحظ إلى أن صار قمة عصره وما بعد عصره إلى اليوم .

ولقد ساعده على ذلك ذكاء لماح ، وقريحة مواتية ، ورغبة فى التعلم والتفوق صادقة ، وقوة حافظة ونفرسة ، وتذكر لما مر به منذ طفولته حتى كهولته ، ولو كان تافها دقيقا يقول فى كتابه الحيوان راويا قصة رآها فى طفولته بالكتاب : (وأنا حفظك الله — رأيت كلبا مرة فى الحى ، فعرض لى صبى يستقى "مهديا" من أولاد القصابين ، وهو قائم يمحو لوحه ، فعض وجهه ، فقطع ثنيته دون موضع الجفن من عينه اليسرى ، فخرق اللحم الذى دون العظم إلى شطر خده ، فرمى به ملقيا على وجهه ، وجانب شدقه ، وترك مقلته صحيحة وخرج منه من الدم

---

(12) أدب الجاحظ : حسن السندوبى ص ٣٢ ، الجاحظ : جورج غريب صفحة ١٧ ، ١٨

ما ظننت أنه لا يعيش بعده ، وبقى الغلام مبهورا قائما لا ينبس ، وأسكته الفزع وبقى طائر القلب ، ثم خيط ذلك الموضع ، ورأيته بعد ذلك بشهر وقد عاد إلى الكتاب ، وليس في وجهه من الشتر إلا موضع الخيط الذي خيطه فلم ينبح إلى أن برئ ولا هر ، ولا دعا بماء حتى إذا رآه صاح رد وه ، ولا بال جرو ولا علقا ، ولا أصابه مما يقولون قليل ولا كثير ، ولم أجد أحدا من تلك المشايخ يشك أنهم لم يروا كلبا قط أكلب ، ولا أفسد طبعا منه ، فهذا الذي عاينت (١٢)

ونحن نرى في هذه القصة دقة التصوير وجودة التفصيل ، والبسط وتذكر كل ما حدث ومقداره ووقته ومكانه وأثره ونتيجته وكأنما يروى لنا الجاحظ حادثا يقع أمامه الآن ، لا حادثة مضى عليها نحو ثمانين عاما من عمره خليق بها أن تضيع في زوايا النسيان والإهمال .

تكلم الجاحظ عن الثقافات التي سادت عصره ، وتحدث عن النقل والترجمة في زمنه ، وذكر بعض الكتب والعلوم التي انتقلت من الفارسية أو اليونانية أو الهندسية إلى العربية .

ونلمح في كلامه معرفة بهذه اللغات ، قد تكون قليلة ضئيلة ، وقد تكون واسعة غزيرة ، لعلها وصلته من صحبته لعارفي هذه اللغات ومشافهتهم ، فقد كان يتحدث إلى سلمويه وابن ماسويه ، وحنين بن إسحاق ، وشمئون الطبيب ، وقد تثقف كل هؤلاء بالثقافة اليونانية ، وعرفوا لغتها ، كما كان ينقل عن ابن المقفع الفارسي الأصل ، ويتكلم كثيرا عن المانوية وديانتهم ، ونيران المجوس ، وعقائدهم وطوائفهم ، وهي كلها فارسية ، كما تكلم عن بلاغة الهند وشيئا من حكمهم .

إلا أنني أعتقد أنه كان يعرف الفارسية ، بل يجيدها ، وأبني اعتقادي على عدة شواهد ودلالات .

١ — كانت صلة العرب وارتباطهم بالفرس ، أكثر من صلتهم وارتباطهم بالأجناس الأخرى كالهندية واليونانية .

---

١٢) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق ، عبد السلام هارون الجزء الثاني صفحة ١٤

لهلاء هم جزء من أرض الدولة ، خاضعة للخلافة العباسية . وهم الذين مكنوا للحكم العباسي وأسهموا في بناء الدولة ورقيها .. وهم الذين تولوا رفيع المناصب التي لم يتولها أحد من غير العرب سواهم ، ثم هيئوا الوظائف في الدولة — بحكم وضعهم — للكثيرين من أبناء جنسهم .. ولأن الجنس الفارسي في الدولة العباسية كان أكثر الأجناس أعدادا بعد العرب . وبهذا صارت الدولة عربية في خلافتها ودينها ، فارسية في كل شيء بعد ذلك .

فلا عجب أن تنتشر الفارسية وتشيع وتدخل في لسان العرب وبخاصة الجاحظ الذي يديم القراءة والاطلاع والبحث ، كما يديم الاتصال بالوزراء والأدباء والتراجمة .

٢ — وجدت بعض جمل فارسية في مؤلفات الجاحظ منها قوله في قصة العراقي : (لو خرجت من جلدك لم أعرفك . ترجمة هذا الكلام بالفارسية : " اكراز پوست باروني بيائي نشناستم)(١٤).

٣ — بحثه في اللغة الفارسية ، ومعرفة الاشتقاقات فيها فهو يقول : إن الفرس تسمي الأشياء بالاشتقاقات كقول للنعامة : أشترمرغ ، وكأنهم في التقدير قالوا طائر جمل . وهم يسمون الشيء المر الحلو : ترش شيرين ، وهو في التفسير حلو حامض . والجاموس في الفارسية كاوميش وتأويله : ضاني بقرى لأنهم وجدوا فيه مشابهة الكبش وكثيرا من مشابهة الثور ووجه الضبع عندهم روى كفتار . والديك في لغتهم شاهمرك)(١٥).

٤ — حديثه عن موسى بن سيار الأسواري ، يقول عنه (كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس في مجلسه المشهور ، فتقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ، ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية . فلا يدري بأي لسان هو أبين ، واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد

---

١٤) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجري صفحة ٢٢ .

١٥) الحيوان ، الجاحظ ، صفحة $\frac{١}{١٤٣}$ ج ٦ ص٢٤٥ ، ج ١ ص٤٤٣ ، ج ٤ ص٢٤٣ ، ج ٣ ص٥٠٣ .

أو خلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها ، إلا ما ذكرنا من لسان موسى بن سيار الأسوارى) (١٦)

إن هذا النص لا يعرفنا إلمام الجاحظ بالفارسية فحسب ، بل يبين لنا أنه أجادها وعرف بلاغتها وخباياها حتى صار ميزانا ، وحكما ، بين فصاحة العربية ، وفصاحة الفارسية وبين الرجحان أو المساواة ، فيحكم للأسوارى بأن فصاحته فيهما على قدم المساواة وأن بيانه في كل منهما بلغ الغاية .

ـ روايته شعرا فارسيا (كما قال يزيد بن ربيعة بن مفرغ :

آب استنبيذا ست ‏ ‏ ‏ ‏ عصارات زبيب است

سمية روسبيذا ست) (١٧)

أو شعرا أكثوه رسي كقول أسود بن أبي كريمة :

(لزم الغرام ثوبى ‏ ‏ ‏ ‏ بكرة في يوم سبت

فتمايلت عليهم ‏ ‏ ‏ ‏ ميل زنكى بمستى

قد حسا الداذى صرفا ‏ ‏ ‏ ‏ أو عقارا بايخست

ثم كفتم دور باد ‏ ‏ ‏ ‏ ويحكم آن خر كفت

إن جلدى دبغته ‏ ‏ ‏ ‏ أهل صنعاء بجفت

وأبو عمرة عندى ‏ ‏ ‏ ‏ آن كوريد نمست

جالس أندر مكناد ‏ ‏ ‏ ‏ أيا عمد بهشست) (١٨)

لما تأثر بالثقافة اليونانية ، فيبدو واضحا في نقله عن أرسطو ، واعترافه بهذا النقل والبارة له ، وتلقيبه "صاحب المنطق" ، وجعله أحد الأركان والمصادر التي استند عليها في تأليف كتابه الحيوان ، إذ جعل كتاب الحيوان لأرسطو مرشدا له وهاديا ، وإن كان

---

١٦) البيان والتبين ، الجاحظ ، الجزء الأول / صفحة ٣٦٨

١٧) المصدر المذكور صفحة ١٤٣

١٨) المصدر المذكور صفحة ١٤٣ ، ١٤٤

قد نقد منه ما لا يروقه ، وشك في بعضه ، وتوقف عند أخبار منه ، ووافق صاحبه في كثير من آرائه ولكن بعد التحقيق والمشاهدة والتجربة ، وتواتر أخبار الثقات على ما سيأتي .

كما تأثر بالمنطق في أسلوبه وتقسيمه ، يقول : (إن العالم بما فيه من الأجسام على ثلاثة أنحاء : متفق ، ومختلف ، ومتضاد ، وكلها في جملة القول : جماد ، ونام ، وكان حقيقة القول في الأجسام من هذه أن يقال : نام ، وغير نام ... ثم الناس على قسمين حيوان ونبات والحيوان على أربعة أقسام : شيء يمشي ، وشيء يطير ، وشيء يسبح وشيء ينساح . إلا أن كل طائر يمشي ، وليس الذي يمشي ولا يطير يسمى طائرا . والنوع الذي يمشي أربعة أقسام ناس ، وبهائم ، وسباع ، وحشرات) (١٩) .

ويقول : (وجدنا الحكمة على ضربين : شيء جعل حكمة ، وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة ، وشيء جعل حكمة وهو يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة ، فاستوى بذاك الشيء العاقل وغير العاقل في جهة الدلالة على أنه حكمة ، واختلفا من جهة أن أحدهما دليل لا يستدل والآخر دليل يستدل ، فكل مستدل دليل وليس كل دليل مستدلا ، فشارك كل حيوان سوى الإنسان جميع الجماد في الدلالة وفي عدم الاستدلال ، واجتمع للإنسان أن كان دليلا مستدلا) (٢٠) .

وقد قرأ كتاب الحيوان لأرسطو ونقده ، وعقب فيه يقول : (وقد أكثر في هذا الباب أرسطو طاليس ، ولم أجد في كتابه على ذلك من الشاهد إلا دعواه) (٢١) .

اتسعت ثقافة الجاحظ ، وازدحمت في رأسه العلوم والفنون ، فقد أحاط بآراء عصره وما قبل عصره ، وأتقن كثيرا من الصناعات ، فصار دائرة معارف تمشي على قدميه وهذه المعارف التي اختزنها في ذاكرته ، قد محصها من قبل بمجهر عقله ، ووزنها بميزان نقده

---

(١٩) الحيوان الجاحظ ، الجزء الأول صفحة ٢٦ ، ٢٧ .

(٢٠) الحيوان ج ٦ ص ١٧ .

(٢١) الحيوان ج ١ ص ٣٣ .

فيما ثبت خطره منها نفاه وطرحه وما لم يثبت خطره وضعه على منضدة الشك وشرحه بثاقب نظره وأخرج منه ضلالته ، ثم احتفظ بما سلم منه فى خزانة عقله ، يأخذ منها عند الحاجة وعلى قدر هذه الحاجة ، وهو لم يحتج لشىء إلا وجد فى الخزانة ما يسد الخلاء ويفى بالمطلوب على أتم وجه وأحسنه ، (قيل ، لأبى العيناء ، ليت شعرى أى شىء كان الجاحظ يحسن ؟! فقال ، ليت شعرى وأى شىء كان الجاحظ لا يحسن ؟! وفيه يقول الشاعر ،

ولقد رأيت المعلم يســو ما ماحواه اللافظ ،
حتى أقام طريقـــــــه عمرو بن بحر الجاحظ) (٢٢)

تثقف بكل علم ، وشارك فى كل فن ، حتى المشكلات اليدوية كانت له بها معرفة وإجادة والقصة التالية تبين حذقه صناعة النجر ، قال ، (ومثل ذلك قول نجار كان عندى ، دعوته لتعليق باب ثمين كريم ..... فعلقه ، فأحكم تعليقه ، ثم لم يكن عندى حلقة لوجه الباب إذا أردت إصفاقه ، فقلت له ، أكره أن أحبسك إلى أن يذهب الغلام إلى السوق ويرجع ، ولكن اثقب لى موضعها ، فلما ثقبه ، وأخذ حقه ، ولانى ظهره للانصراف ، والتفت إلى ، فقال ، قد جودت الثقب ، ولكن انظر أى نجار يدق فيه الرزة ، فإنه إن أخطأ بضربة واحدة شق الباب ، والشق عيب ، فعلمت أنه يفهم صناعته فهما تاما) (٢٣)

واهتم بتأليف الكتب ، وتصنيفها ، لأنها أبقى على الزمن ، ولأن ما فيها ثابت يشهد لصاحبه أو عليه ، فلا يمكنه إنكاره ، أو تزويره ، كما أن غيره يعسر عليه تحريفه وتبديله يقول ، (وقد قال ذو الرمة لعيسى بن عمر ، اكتب شعرى ، فالكتاب أحب إلى من الحفظ لأن الأعرابى ينسى الكلمة ، وقد سهر الشاعر فى طلبها ليلته ، فيضع فى موضعها كلمة فى وزنها ، ثم ينشدها الناس ، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاما بكلام) (٢٤) ويقول ، (لولا الكتب المدونة ، والأخبار المخلدة ، والحكم المخطوطة التى تحصن الحساب وغير الحساب

---

٢٢) جمع الجواهر ، الحصرى ، صفحة ٢٠٤
٢٣) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق هارون ، الجزء الثالث صفحة ٢٧٦ ، ٢٧٧ طبعة ١٩٣٨م
٢٤) المصدر المذكور ، الجزء الأول ، صفحة ٤١

لبطل أكثر العلم، ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر، ولما كان للناس مفزع إلى موضع استذكار، ولو تم ذلك لحرمنا أكثر النفع)(٢٥)

ويروى عن أبي عمرو بن العلاء قوله: (ما دخلت على رجل قط ولا مررت ببابه فرأيته ينظر في دفتر، وجليسه فارغ اليد إلا اعتقدت أنه أفضل منه)(٢٦)

(وقال بعضهم: كنت عند بعض العلماء، فكنت أكتب عنه بعضا، وأدع بعضا، فقال لي: اكتب كل ما تسمع، فإن مكان ما تسمع أسود خير من مكانه أبيض)(٢٧)

ولأنه لو اعتمد على محاضراته الناس، وما يلقيه من دروس، لاستفاد منهم عدد ضئيل من الناس، لا يقاس بجانب قراء كتبه، ولتعرض للمباراة والجدل من بعضهم، فيضيع الوقت هباء، ولتحمل من سخفهم، وتشدهم، وتضليلهم، ما يضيق به صدره، ولأنه أراد بالكتاب إثبات حججه، وإبطال آراء خصومه، وكشف المموهين المزيفين، والمدجلين المشوفين، فلا عجب أن رأينا من يذكر أن كتبه قاربت الأربعمائة كتاب، ومن يذكر أنها ثلاثمائة وخمسين، ومن يعد الثابت منها الذي وصل إلينا مع ما ذكره الجاحظ في مقدمات كتبه مائة ونيفا وسبعين، أو مائتين وتسعة وخمسين كتابا. وعلى أية حال لقد خلف لنا العدد الوفير، والإنتاج الغزير في جميع أبواب العلم والأدب والمعرفة والفن، ذكر كثيرا منها في مقدمات كتبه، وبين أيدينا الآن عدد مما ذكره ومن غير ما ذكره.

أما مصادر هذا العلم الغزير، فأشعار العرب ومروياتهم، وقصصهم، وعلومهم وأخبار حياتهم، وما نقل من كتب فارسية وهندية ويونانية، ثم ما ذاع في عصره من ثقافات وما كان عند علماء عصره من معارف، ثم اجتهاده وبحثه، وملاحظته وتجربته، ومشاهداته وما استخلصه من حياته الطويلة، ورحلاته العديدة، وقد كان يعتمد في آرائه على

---

٢٥) المصدر السابق صفحة ٤٧.

٢٦) الحيوان ج ١ ص ٦٠.

٢٧) الحيوان ج ١ ص ٥٨.

العقل يقول : (فلا تذهب إلى ما تريك العين ، واذهب إلى ما يريك العقل ، وللأمور حكمان ، حكم ظاهر للحواس ، وحكم باطن للعقول ، والعقل هو الحجة)(٢٨) . ويقول : (ولعمرى إن العيون لتخطئ ، وإن الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع إلا للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل ، وإن كان زماما على الأعضاء ، وعيارا على الحواس)(٢٩) . ويدعو إلى البحث والتنقير واستبطان الأشياء ليعرف كنهها وزيفها ، وعدم الاقتصار على الكتب فإن فيها الصحيح والمكذوب كما رغب فى تحكيم العقل فيما يقرأ الإنسان وما يرى ، فلم يكن الجاحظ صحفيا يحشو عقله بما فى الكتب كيفما كان ، ويرويه علما وفكرا دون تحقيق وتمحيص ، بل كان بحاثا نظارا نقريسا ، يحمل عقله فى كل شئ ، ليؤكد ما تدله عليه حواسه أو لينفيه ، فوسيلته فى المعرفة العقل يؤكد ما ترشد إليه الحواس ، أو يستقل بالحكم وحده إن لم تسانده الحواس يقول : (ليس يشفينى إلا المعاينة)(٣٠) ويقول : (كل قول يكذبه العيان فهو أفحش خطأ وأسخف مذهبا ، وأدل على معاندة شديدة أو غفلة مفرطة)(٣١) . لأن العقل قد ينحرف كما تنحرف الحواس ، فالمعرفة الحقة فى العقل تؤيده الحواس وتساند ، فللأمور حكمان كما يقول .

وكان يشك فى الشئ ، وينقب فى جوانبه وخفاياه حتى يصل إلى اليقين ، وقد سبق ديكارت إلى مذهبه " الشك طريق اليقين " يقول : (اعرف مواضع الشك ، وحالاتها الموجبة لها ، لتعرف بها مواضع اليقين ، والحالات الموجبة له ، وتعلم الشك فى المشكوك فيه تعلما ، فلو لم يكن ذلك إلا لتعرف التوقف ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه ، ثم اعلم أن الشك فى طبقات عند جميعهم ، ولم يجمعوا على أن اليقين طبقات فى القوة والضعف)(٣٢) . وينقل

---

٢٨) مجموعة رسائل الجاحظ ، صفحة ٨٩

٢٩) مجموعة رسائل الجاحظ ، صفحة ٨٩ .

٣٠) الجاحظ : جورج غريب صفحة ٦٠

٣١) المرجع نفسه والصفحة نفسها

٣٢) الحيوان : الجاحظ : الجزء السادس صفحة ٣٥

عن أستاذه النظام : (الشاك أبصر بجواهر الكلام من أصحاب الجحود ، والشاك أقرب إليك من الجاحد ، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك)(٣٣) وكان يدعو إلى النظر والاستنباط واستخراج القاعدة بعد التأمل في النظر والتأمل والاستنباط يقوى الذهن ويدرب العقل ، أما الحفظ فيلغي الفطنة ، ويورث الركود الذهني يقول : (وكرهت الحكماء الرؤساء أصحاب الاستنباط والتفكير ، جودة الحفظ ، لمكان الاتكال عليه ، وإغفال العقل من التمييز ، حتى قالوا : الحفظ عذق الذهن ، لأن مستعمل الحفظ لا يكون إلا مقلدا ، والاستنباط هو الذي يفضي بصاحبه إلى برد اليقين ، وعز الثقة والقضية الصحيحة ، والحكم المحمود)(٣٤) ويعيب من لم يبحث ولم ينظر ويحط من قدره بقوله : (إن الناس قد استغنوا عن التدبر وكفوا مئونة البحث والتنقير ، لقلة اعتبارهم ، ومن قل اعتباره قل علمه ، ومن قل علمه قل فضله ومن قل فضله كثر نقصه ، ومن قل علمه وفضله وكثر نقصه لم يحمد على خير أتاه ، ولم يذم على شر جناه ، ولم يجد طعم العز ، ولا سرور الظفر ، ولا روح الرجاء ، ولا برد اليقين ، ولا راحة الأمن) (٣٥).

وإذا كان الجاحظ قد سبق ديكارت إلى نظرية الشك الموصل إلى اليقين ، فقد سبق فرنسيس بيكون الى منهج البحث والتجربة ، والاستقراء والتتبع ، وتخذ الملاحظة والمشاهدة برهانا ودليلا ، ومن ملاحظاته ومشاهداته مخلوق الطبيعة لكل صنف من الحيوان في تقويم يستعين به على مقادير حاجاته(٣٦) وتلون كل صنف من الحيوانات بألوان بيئته حفظا لحياته بالتمويه على عدوه(٣٧) وما نقله عن أرسطو من أن لكل طائر عشا يتخذه على شكل يناسبه

---

٣٣) المصدر المذكور صفحة ٣٥ ، ٣٦
٣٤) أمراء البيان : محمد كرد علي - الجزء الثاني صفحة ٣٩٦
٣٥) المرجع نفسه صفحة ٣٩٣
٣٦) الحيوان : الجزء السادس صفحة ١٢٥
٣٧) المصدر السابق الجزء الرابع صفحة ٣٨

وأن ذلك يختلف باختلاف المواضع وعلى قدر اختلاف صورتلك القراميص والأفاحيص[٣٨]. (أما أذناب الأفاعي فإنها تنبت، ومن عجيب ما فيها من هذا الباب أن ذا بها يقطع فينبت، حتى يتم نباته في أقل من ثلاث ليال)[٣٩] (والأفعى لا تدور عينها في رأسها)[٤٠] و (الخطاف إذا قلعت إحدى عينه رجعت)[٤١] (والأيل إذا ألقى قرونه علم أنه قد ألقى سلاحه فهو لا يظهر، كذلك إن سمن علم أنه يطلب فلا يظهر، وكذلك أول ما ينبت قرنه يعرضه للشمس ليصلب ويجف)[٤٢].

أما تجاربه فكثيرة، فقد قطع أعضاء الحيوان وشرحه، وبعج بطنه، ودفنه حيا، وتذوق بيضه وأعطاه السم، وجمع الأضداد مع بعضها، يقول : (وقد رأيت بيض الحيات وكسرتها لأتعرف ما فيها، فإذا هو بيض مستطيل أكدر اللون أخضره وفي بعضه نقط ولمع، فأما داخله فلم أرفيها قطه ولا صديدا خرج من جرح فاسد، إلا والذي في بيضها أسمج منه وأقذر)[٤٣].

(وناب الأفعى يحتال له بأن يدخل في فيها حماض أترج ويطبق لحيها الأعلى على الأسفل فلا تقتل بعضتها أيامًا صالحة)[٤٤]. وقد ذهب إلى مصر وأجرى فيها بعض التجارب على حياتها وعقاربها، قال : (كنت بعجت بطن عقرب — إذ كنت بمصر — فوجدت فيه أكثر من سبعين عقاربا صغارا كل واحدة نحو أرزة)[٤٥] يقول الدكتور فيليب حتي : (ومن أقدم من صنف في علم الحيوان والأنثروبولوجيا أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وقد ترعرع في البصرة وصنف كتاب الحيوان .. وفيه بعض مبادئ نظريات النشوء الحديثة، والتكيف، وسيكولوجيا الحيوان، وقد عرف الجاحظ طريقة تحضير الأمونيا من سقط الحيوان كالكرش وغيره، بواسطة التقطير الناشف)[٤٦].

---

٣٨) المصدر المذكور، الجزء الثالث صفحة ١٦١

٣٩) الحيوان، الجزء الرابع صفحة ١١٢

٤٠) الحيوان، ج ٤ ص ١١٣

٤١) الحيوان، ج ٤ ص ١١٢

٤٢) الحيوان، ج ٤ ص ٢٢٧

٤٣) الحيوان، ج ٤ ص ١٧٠

٤٤) الحيوان، ج ٤ ص ١١٢

٤٥) الحيوان، ج ٤ ص ٥٦

٤٦) [illegible]

والأخبار العلمية لا يسلم بها الجاحظ قبل عرضها على ذهنه ، أو على أذهان الأخصائيين يحلل لها ، أو يجرى عليها تجاربه ، ثم يحكم بعد ذلك بصحتها أو بطلانها أو يتركها لامثبته ولا منفية يقول عن النمل رواية عن غيره (وتقتل بأن يصب فى أفواه بيوتها القطران والكبريت الأصفر ، ويدس فى أفواهها الشعر ، وقد جربنا ذلك ، فوجدناه باطلا)(٤٧) ويقول عن الأفاعى : (والأفاعى تكره ريح السذاب والشيح ، وتستريح إلى نبات الحرمل ، وأما أنا فإنى ألقيت على رأسها وأنفها من السذاب ما غمرها ، فلم أر على ما قالوا دليلا)(٤٨) ومما يدل على تلمسه الدليل قبل التسليم بما يسمع قوله عن العصافير : (والذين زعموا أن ذكورتها لا تعيش إلا سنة يحتاجون إلى أن يعرفوا الناس ذلك ، وكيف يستطيعون تعريفهم ؟ وقد تكون القرى بقرب المزارع والبيادر مملوءة عصافير ، ومملوءة من بيضها وفراخها ، وهم مع ذلك لم يروا عصفورا قط ميتا)(٤٩)

وقال : (وأما الذين ذكروا فى أشعارهم السمع والعسبار ، فليس فى ظاهر كلامهم دليل على ما ادعى عليهم الناس من هذا التركيب المختلف ، فأدينا الذى قالوا وأمسكنا عن الشهادة إذ لم نجد عليها برهانا)(٥٠)

لقد كانت وسائل الجاحظ إلى المعرفة الحقة ، والتثبت لعلمى ١ــ الشك الموصل إلى اليقين ٢ــ المشاهدة والملاحظة والبحث والاستقراء والتجربة ٣ــ الآراء الموثوق بها بعد عرضها على الحس والعقل ومطابقتها لهما ، ولا يقدح فى ذلك قوله بالشىء وضده ، ومدحه الشىء ثم ذمه ، ولا يؤدى هذا إلى وصفه بالسفسطة ، وعشق الجدل ، لأن هذا إنما كان منه على سبيل إظهار الفصاحة ، وإبراز المقدرة البيانية ، أو السخرية والهزء

---

٤٧) الحيوان ج ٤ ص ٣٦ طبعة عام ١٩٤٠

٤٨) الحيوان ج ٦ ص ٢٩٩ ، ومثله فى ج ٥ ص ٣٦٥ .

٤٩) الحيوان ج ٥ ص ٢٢٣

٥٠) الحيوان ج ١ ص ١٨٥

بسامعيه ، وثقه تفكيره ، ولم يكن الغرض منه التحقيق المعنى ، أو البحث الأدبي ، وقد فعل ذلك في كتابه البخلاء ، وفي رسالته "التربيع والتدوير" وفي رسائل أخرى بيانات .

كان الجاحظ يميل في كتاباته إلى الوضوح ، ويرى أن المقصود بالكتابة الإفهام ، ويفضل التشبيهات الحسية القريبة ، ويفسر الحقيقة على الخيال ، لأنه يخاطب العقل ويكره وحشي الكلام وغريبه ، لأنه يحرق الفكر ، ويوقف الدقامه حيث يشتغل القارئ بفهم المفردات ، بدل الانصراف إلى فهم المعاني ، يقول : (ليس الكتاب إلى شيء أحوج منه إلى إفهام معانيه ، حتى لا يحتاج السامع لما فيه إلى الروية ، ويحتاج من اللفظ إلى مقدار ما يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشوة ويحطه من غريب الأعراب ووحشي الكلام ، وليس له أن يهذبه جدا ، وينقحه ويصفيه ويروقه ، حتى لا ينطق إلا بلب اللب ، وباللفظ الذي قد حذف فضوله ، وأسقط زوائده حتى عاد خالصا لا شوب فيه ، فإنه إن فعل ذلك لم يفهم عنه ، إلا بأن يجدد لهم إفهاما مرارا وتكرارا ، لأن الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام ، وصارت أفهامهم لا تزيد عن عاداتهم ، إلا أن يحكم عليهما ، ويؤخذ بهما)[١] ويقول : (وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه)[٢]

وما هو ذا يعيب على مؤلفي عصره التعمية في كتبهم ، وميلهم إلى الإغلاق ، وقد كان ساخطا في كتاباتهم ، ويتساءل ساخرا عن الأسباب التي تدفعهم إلى هذا الغموض ، يقول : (قلت لأبي الحسن الأخفش ، أنت أعلم الناس بالنحو ، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ، وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ، وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم ! قال : أنا رجل لم أضع كتبي هذه لله ، وليست هي من كتب الدين ، ولو وضعتها هذا الوضع الذي تدعوني إليه ، قلت حاجاتهم إلى فيها ، وإنما كانت غايتي المنالة ، فأنا

---

(١) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الأول صفحة ٨٩ ، ٩٠

(٢) البيان والتبين ، الجاحظ ، تحقيق هارون ، الجزء الأول ، صفحة ٨٣

هذه الطريقة ، ولم ير فيها ابتعادا من الفضيلة ـ مخالفا ما عليه مجتمعنا الآن ـ كثير من كتاب العرب السابقين كالراغب الأصفهاني ، والقاضي التنوخي والجرجاني الذي يقول : (وقد استشهد العلماء لغريب القرآن وإعرابه بالأبيات فيها الفحش ، وفيها ذكر الفعل القبيح ، ثم لم يعبهم ذلك ، إذ كانوا لم يقصدوا إلى ذلك الفحش ولم يريدوه ، ولم يرووا شعرهم من أجله)(٥٦)

وبعض من كتاب الغرب يسلك هذا السبيل ، (قال مونتين وهو من أعظم من اشتهروا بالفضائل من المؤلفين الفرنسيين ، ماذا كان عمل الفعل التناسلي في الناس وهو طبيعي ضروري حتى شجبوه وابتعدوا عن ذكره ، فتراهم لا يجسرون على الكلام عنه إلا بشيء من الخجل ، ويبتعدون عنه في أحاديثهم ، الناس يجرؤون على التلفظ بأفعال القتل والسرقة والخيانة والزنا ... الخ ولا يجرؤون على النطق بالعمل الذي يهب الحياة للمخلوق بالصفة المذكورة ، وبالنفاق الخجل الآخرون أن من يرون إطلاق اسم الحيوان على العمل الذي يخلق الإنسان أحرياء بأن يطلق عليهم اسم بهائم وحيوانات)(٥٦) و (قال القديس كليمان ، أنا لا أخجل لفائدة القراء من الكلام على الأعضاء التي يخلق بها الإنسان لأن الله تعالى لم يخجل إذ خلقها)(٥٦) ، ولم يرد الجاحظ بهذه الألفاظ فحشا ولا هجرا ولا عبثا بالأخلاق ، ولا استهانة بدين أو عرض أو عفة ، ولم يكثر منها ، ويطيل الحديث عنها ، وإنما كان كل همه الإفصاح والإيضاح واختيار اللفظ المناسب للمعنى الذي إليه قصده .

ومما يمتاز به أدب الجاحظ : الواقعية ، وما قدمناه من ميله إلى الوضوح وذكره الأعضاء ، لغتنا سلية وأصالتها بالألفاظ الصريحة المكشوفة لون من ألوان الواقعية ، و (الواقعية في الأدب هي أن ينتزع الكاتب من الحقيقة الراهنة ، والحياة الواقعة عناصر موضوعه ، ولا يشترط في الواقعي أن يكون واقعا بالفعل ، بل يكفي أن يكون له في الحياة نظائر وأن تستمد عناصره

---

٥٦) أمراء البيان : محمد كرد علي ، الجزء الثاني ، صفحة ٣٣٩ طبعة عام ١٩٣٧

وتؤخذ تفاصيله من الحقيقة الواقعة ، وإن لم تكن هذه العناصر والتفاصيل مجتمعة في الحقيقة على الشكل الذي جعلها الكاتب فيه) (٥٧) وقصص الجاحظ من هذا اللون ، فهي وليدة الواقع وليست من نسيج الخيال ، إذ الجاحظ عالم ، مدقق محقق ، ينحاز إلى الحقيقة ولا يميل إلى الخيال إلا بمقدار ما يخدم به الحقيقة ، بتوضيح فكرة ، أو إبراز معنى ، أو تسهيل معتاص أو التأثير في السامع ، حتى تكون المعاني في نفسه لائطة ، وفي صدره حائكة ، فنجده في كتابه الحيوان يرفض كل خيالي ، بعيد عن العقل لم يقم دليل على وجوده أو إمكانه ، مهما كانت أسانيده ، ومهما بلغ من العلم قائله ، وقد رفض لأرسطو كثيرا من آرائه ، وهزئ بها ، وسخر منها ، لبعدها من منطق العقل والواقع . وحتى في كتابه البخلاء ، وهو قصص وفكاهة ومزح وسخر ، فلا مانع من أن يستولي الخيال والخرافة منه على مساحة واسعة ، نجد الجاحظ فيه مقيدا بمبادئه ، ملتزما ما اعتاده من الحقيقة والواقعية ، فأبطال قصصه أناس من لحم ودم وليسوا شياطين أو ملائكة ، أو ركاب خيول مجنحة ، وهم يعيشون على أرض الدولة العباسية وليسوا في القمر أو المريخ ، ويعرفهم الجاحظ لأنهم أساتذته وأصدقاؤه وخلطاؤه ممن يراهم ويتحدث إليهم ، والزمان محدد بعصر الجاحظ ، والمكان بالبصرة أو ببغداد وقد يتجاوزهما إلى مكان آخر ولكنه من أرض الدولة العباسية ، وأهم من ذلك كله في الواقعية "الأحداث" وهي في قصصه قد وقعت فعلا ، أو وقع مثلها ، أو يمكن لها أو لمثلها أن يقع ، والعقل يقر ذلك ، والعصر لا يمنعه ، والمكان يجيزه . بل إن الجاحظ لواقعيته يرفض ما خرج على المألوف ويهزأ ويسخر من كل ما شذ عن العادة ، وابتعد من الواقع . يقول بعد أن روى قصة رجل بخيل أراد لوله أن يشير باللقمة إلى قطعة من الجبن عن بعد ثم يأكلها ، (ولا يعجبني هذا الحرف الأخير لأن الإفراط لا غاية له ، وإنما نحكي ما كان في الناس ، وما يجوز أن

---

(٥٧) فن القصص في كتاب البخلاء للجاحظ ، محمد المبارك صفحة ٢٤ الطبعة الثانية ، دار الفكر بدمشق .

يكن فيهم مثله ، أو حجة أو طريقه ، فأمّا مثل هذا الحرف فليس مما نذكره)[٥٨] وهو فى هذه الكلمة يدعو إلى الواقعية ونبذ ما لم يكن فى الناس مثله ، مما يجنح مع الخيال ، ويميل إلى الأوهام وينتسب إلى الخرافات ، يقول الدكتور محمد المبارك عن الجاحظ والواقعية (ولا يمنعنا قدم عهد الجاحظ وحداثة هذا المذهب أن نجعل أدبه من هذا النوع إذا كنا قد وجدنا شروطه وقيوده مستوفاة مرعية فى كتاباته ، وإن لم يسمع هو بهذا الاسم المستحدث وإننى أذهب إلى أبعد من هذا فأقول : إن الجاحظ وضع فى كتاب البخلاء قواعد وأسسا تشبه قواعد المذهب الواقعى ، فهو لم يسلك هذه الطريقة عفوا ولكنه تعمدها وحددها)[٥٩] والجاحظ يسلك فى التأليف مسلكا خاصا به يستمسك به ويلتزمه حتى عرف عنه ، وشهر به ، وصار سمة من سماته ، وقاسما مشتركا فى جميع مؤلفاته ، وحذا حذوه كثير من كتاب عصره ثم شاع ذلك النمط وذاع ، ونهجه الأدباء وغير الأدباء ... وأعنى بذلك المسلك : "المزج" :

١ـ مزج العلم بالأدب ، ففى علمه الأدب ، وفى أدبه العلم ، فإن حدثنا عن الحيوان والطيور والحشرات ، حديث العالم المحقق ، وجدنا هذا الأسلوب العلمى يقطر أدبا ، كما نجد أحاديثه عن تجاربه وبحوثه وملاحظاته ، قد اتهمت بنادرة أدبية ، أو أبيات شعرية ، أو قصص ساخرة ، أو فكاهات مضحكة .. وإن تكلم من الأدب تخلله حديث عن الحرب ونظمها وشد الأسنان بالذهب ، وما يشترط للسادة ، وعادات الناس فى لبس العمائم والنعال ، مما ينتسب إلى العلم وفنون الحرب ، وعادات الناس ، ومستلزمات الرياسة ، فكما مزج العلم بالأدب فى عقلية الجاحظ ، مزجا معا فى نتاج هذه العقلية ومؤلفاتها .

٢ـ ومزج الموضوعات ببعضها ، فأبو عثمان عمرو بن بحر يبحر فى الموضوعات كلها ، فتتهادى أمواجها من حوله ، فيتبنا ولى بيده هذه الموجة ، وبيده الثانية موجة أخرى ، فنسم

٥٨) البخلاء ، الجاحظ ، ضبط العوامرى والجارم ج ٢ ص ٥٨ ، تحقيق طه الحاجرى ص ١٣٢

٥٩) فن القصص فى كتاب البخلاء للجاحظ ، محمد المبارك صفحة ٣٢

يخلطهما ببعضهما ويطول سباحته في موضوعاته ويتقدم فيها بمقدار ما خلط وفق ، وهو في مزجه موضوعاته ، وانتقاله بينهما ، قد يجد رابطة قوية تربطهما ، وقد يكون الانتقال لمجرد خاطرة سنحت له وجهته إلى موضوع آخر ، يسارع إلى تناوله ، ناسيا أو متناسيا موضوعه الأول ، وكثيرا ما يقفز قفزات فجائية من كلام سابق إلى كلام لاحق ، دون رباط أو صلات بينهما وقد يتحدث في موضوع ، ثم يطويه فجأة منتقلا إلى غيره ، ثم يعود إليه ثانية من موجدة بالرجوع إليه أو من غير موجدة ، فيضعه في أي مكان ، دون مراعاة ما جاوره وما ناسبه ، ففي كتابه الحيوان مثلا ، نجد المباحث في الحيوان مقترنة بالمباحث الدينية واللغوية والاجتماعية والأخلاقية يتخللها أخبار ونوادر وسخريات ، وفحش ومجون ، وفي كتابه البيان والتبيين ، يمزج ما فيه من خطب وأشعار وأدب ، بعادات الأمم ، وطباعهم وأخلاقهم ، وهو لا يراعي الوحدة التأليفية في كتبه ، وإنما ينصرف همه إلى إرضاء قرائه ، وإشباع رغباتهم ، ودفع الملل عنهم ، بالانتقال من فن إلى فن ، ومن موضوع إلى موضوع كما قال (ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل)[(٦٠)] وكأن كتابه عدة كتب ، وتحوى العديد من الموضوعات والجاحظ يعترف بذلك قائلا في كتابه الحيوان ، (لأنه وإن كان كتابا واحدا فإنه كتب كثيرة ، وكل مصحف منها فهو أم على حدة ، فإن أراد أحد قراءة الجميع لم يطل عليه الباب الأول حتى يهجم على الثاني ، ولا الثاني حتى يهجم على الثالث ، فهو أبدا مستفيد ومستطرف ، وبعضه يكون جماما لبعض ، ولا يزال نشاطه زائدا ، ومتى خرج من آي القرآن صار إلى الأثر ومتى خرج من أثر صار إلى خبر ، ثم يخرج من الخبر إلى شعر ، ومن الشعر إلى نوادر ، ومن النوادر إلى حكم عقلية ، ومقاييس شداد ، ثم لا يترك هذا الباب ولعله أن يكون أثقل ،

---

(٦٠) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء السادس صفحة ٧ ط ١ عام ١٩٤٣

والملال إليه أسرع، حتى يفضى به إلى مزح وفكاهة، وإلى سخف وخرافة، ولستنا نراه سخفا؟

والجاحظ يعرف ما في كتبه من اضطراب التأليف واختلاط الموضوعات فيقول معتذرا عن ذلك في كتابه الحيوان: (فإن وجدت فيه خللا من اضطراب لفظ، ومن سوء تأليف، ومن تقطيع نظام، ومن وقوع الشيء في غير موضعه فلا تنكر بعد أن صورت عندك حالي التي ابتدأت عليها كتابي)[٦٢]. ويقول في كتابه البيان والتبيين: (وقد طعنت الشعوبية على أخذ العرب في خطبها المخصرة ... بكلام مستكره، سنذكره في الجزء الثاني إن شاء الله)[٦٣]. ولكنه مع ذلك لم يذكره إلا في الجزء الثالث. ويقول في كتابه البيان والتبيين: (وكان في الحق أن يكون هذا الباب في أول هذا الكتاب، ولكنا أخرناه لبعض التدبير)[٦٤]. ويقول مصححا ما وقع فيه من مزج الشيء بغير جنسه ولفقه (وهذا الباب يقع في كتاب الإنسان (من كتاب الحيوان) وفي فصل ما بين الذكر والأنثى تاما، وليس هذا الباب مما يدخل في باب البيان والتبيين)[٦٥] مع أنه ذكره في البيان والتبيين. ويقول بعد أن ذكر أبياتا: (وهذه أبيات كتبناها في غير هذا المكان من هذا الكتاب، ولكن هذا المكان أولى بها)[٦٦].

٣- مزج الجد بالهزل، وهذه أبرز صفات الجاحظ في أدبه، وأكثرها انتشارا وشمولا، فإن بحثنا في كتبه، وفتشنا رسائله، فإننا لن نجد جدا محضا، ولا هزلا صرفا، وإنما هو لقائه مزيج منهما، يغوص في أعمق المشكلات العلمية، وأعقد التجارب والبحوث، ويجد ما شاء له جده، ثم يفجؤنا بفكاهاته ومزحه، وسخره وضحكه، وهو لا يصنع ذلك عفوا، أو قصدا إلى عدة أمور جادة، وإن كانت وسيلتها الفكاهة والضحك (ولم تدر أن المزاح جد إذا اجتلب ليكون علة للجد، وأن البطالة وقار ورزانة إذا تكلفت لتلك العاقبة)[٦٧]. منها،

٦١) الحيوان، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء ٤ صفحة ٢٠٩

٦٢) المصدر المذكور، الجزء الرابع صفحة ٢٠٩

٦٣) البيان والتبين، الجاحظ، تحقيق هارون الجزء الاول صفحة ٣٨٣.

٦٤) المصدر المذكور صفحة ٧٦

٦٥) المصدر المذكور الجزء الأول صفحة ١٨٦

٦٦) المصدر المذكور الجزء الرابع صفحة ٢١

٦٧) الحيوان، الجاحظ، الجزء الأول صفحة ٣٧

١ـ الاستجابة لغريزة الضحك المتأصلة في الإنسان والتي لا فناء له عنها ، وهي مع ذلك محببة ممدوحة ، يقول عن الضحك : (وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيما ، ومن مصلحة الطباع كبيرا ، وهو شيء في أصل الطباع ، وفي أساس التركيب)(٦٨) ويقول : (ومن فراسة الرجل الصالح أن تراه سهلا طلقا له منظر بهي ، وكلام شهي ، سهل الجبين ، غير منقبض ، ولا نزق غلق قلق ، وغير كاره للدعابة والمزاح)(٦٩)

٢ـ التخفيف من ثقل الدرس ، والاستراحة من عناء الكد ، والترويح عن النفس وإمتاعها بما يسرها يقول في ذلك : (ولا بد لمن استكد الجد ، من الاستراحة إلى بعض الهزل)(٧٠) ويقول في كتابه الحيوان : (على أني ربما وشحت هذا الكتاب ، وفصلت فيه بين الجزء والجزء بنوادر كلام ، وطرف أخباره ، وغرر أشعاره مع طرف مضاحيك ، ولولا الذي نحاول من استعطاف على استثقال انتقاعك لقد كنا تسخفنا ، وسخفنا شأن كتابنا هذا)(٧١) ويقول في إحدى رسائله : (فجعلت الهزل بعد الجد جماما ، والملحة بعد الحجة مستراحا)(٧٢)

٣ـ تنشيط القارئ والسامع ليقبل على الكتاب ، ويخف لاستيعاب ما يحويه وبخاصة إذا كان دسما ، يستكد الذهن ، وفي ذلك يقول ابن بحر : (وليس ينبغي للكتب الآداب والرياضيات أن يحمل أصحابها على الجد الصرف ، وعلى العقل المحض ، وعلى الحق المر وعلى المعاني الصعبة التي تستكد النفوس ، وتستفرغ المجهود ، وللصبر غاية ، وللاحتمال نهاية ولا بأس بأن يكون الكتاب موشحا ببعض الهزل ... ولا بد للكتاب من أن يكون فيه بعض

---

٦٨) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق علي الجارم صفحة ، ٢٨ الجزء الاول

٦٩) أمراء البيان ، محمد كرد علي ، الجزء الثاني صفحة ٤٥٧

٧٠) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق هارون ، الجزء الثاني صفحة ٢٢٢

٧١) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق هارون ، الجزء السادس صفحة ١٥

٧٢) رسائل الجاحظ ، جمع السندوبي صفحة ٢٨٤

ما ينشط القارئ ، وينفى التعاس عن المستمع ، فمن وجد فى كتابنا هذا بعض ما ذكرنا ، فليعلم أن قصدنا فى ذلك إنما كان على جهة الاستدعاء لقلبه ، والاستمالة لسمعه وبصره)(٧٣).

ويقول : (وإن كنا قد أمللناك بالجد ، وبالاحتجاجات الصحيحة والمروجة ، لتكثر الخواطر ، وتشحذ العقول ، فإنا سننشطك ببعض هذه البطالات ، وبذكر العلل الظريفة ، والاحتجاجات الغريبة)(٧٤). ويقول : (فخلطت لك جدا بهزل ، وقرنت لك حجة بملحة لتخف مئونة الكتاب على القارئ ، وليزيد ذلك فى نشاط المستمع)(٧٥).

٤ــ الانتقال من باب إلى باب بتغيير النغمة ، وتنويع الضروب والأشكال . يقول : (على أنى قد عزمت ــ والله الموفق ــ أن أوشح هذا الكتاب ، وأفصّل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر ، وضروب الأحاديث ، ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، فإنى رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة ، والأغانى الحسنة ، والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها)(٧٦).

لقد فتح الجاحظ للأدباء فى عصره ، الباب الفسيح على مصراعيه ، فولجوه إلى ساحة الإضحاك ، وساحة المرح ، والفكاهة ، وتنافسوا فى ذلك أيما تنافس ، وشحنوا كتبهم ومجالسهم بالمضاحيك ، أو بعض أبوابه ، أو خصصوا لها أبوابا من الكتاب وشهر منهم فى ذلك ابن قتيبه والتوحيدى وابن زيدون وابن عبد ربه ثم خصصت كتب برمتها للفكاهة والإضحاك ، والسخر والتهكم منها : الأذكياء ، أخبار الحمقى والمغفلين ، أخبار الظراف والمتماجنين ، وكلها لعبد الرحمن بن الجوزى ، والمستطرف فى كل فن مستظرف للأبشيهى ، والكشكول

---

٧٣) رسائل الجاحظ ، الجاحظ ، جمع حسن السندوبى ص ٢٧٥ ط ١ عام ١٣٥٢ هـ .

٧٤) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق هارون ، الجزء السادس صفحة ٥ ط ١ عام ١٩٤٣ .

٧٥) رسائل الجاحظ ، الجاحظ ، جمع حسن السندوبى صفحة ٢٨٤

٧٦) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق هارون الجزء السادس صفحة ٧ .

للعاملي ، وثمرات الأوراق للحموي ، وجمع الجواهر للحصري ، والموشى للوشاء .

وللفكاهة والإضحاك في أدب الجاحظ مبادئ وقوانين ، وضع أسسها ، وشيد عمدها ورفع لواءها أبو عثمان وتكاد تنحصر في عدم الاسترسال في الضحك والسخر ، ووضع المزح والاضحاك في مكانه المناسب يقول : (وللمزح موضع ، وله مقدار ، متى جازهما أحد ، وقصر عنهما أحد ، صارا للفاضل خطلا ، والتقصير نقصا)(٧٧) . ويقول : (ولكن لكل شيء قدر ولكل حال شكل ، فالضحك في موضعه كالبكاء في موضعه ، والتبسم في موضعه كالقطوب في موضعه)(٧٨)

كما لا يصح أن يجاوز الذي يضحك ويسخر غيره من الناس ، ولا يضحك أو يسخر إلا ممن لا يرى في ذلك غضاضة ، يقول : (ولربما سمعنا الصاحب إذا كان ممن يمازح بهذا ، ورأيناه يتظرف ويجعل ذلك الظرف سلما لمنع شيئه)(٧٩)

---

٧٧) البخلاء ، الجاحظ ، ضبط العوامري والجارم ، الجزء الأول صفحة ٢٩ .

٧٨) مجموعة رسائل الجاحظ صفحة ١٠٩

٧٩) المصدر السابق صفحة ١٠٧

الفصل الثالث

مكانته الاجتماعيـــــة

لم أجد كاتبا أديبا بلغ من رفعة الدرجة، وعلو المنزلة، وذيوع الصيت، وانتشار المؤلفات والقدرة على استيعاب العلوم، وحذق الصناعات والفنون، والتربع على عرش القلوب وامتلاك أزمة العقول، مثل ما بلغه أستاذنا الجاحظ.

وما أقبل الناس على كتبه فلاطفت بقلوبهم، والتهمتها عقولهم، وهشت لها نفوسهم، وامتلأت بها خزائن كتبهم، وكثر حولها الجدل والنقاش، أكثر مما فعلوا بكتب الجاحظ.

وإذا كانوا يقولون: إن الرجل العظيم لا تظهر عظمته، ولا يعرف الناس مكانتـــه وقيمته، ولا يكون خلوده ومجده، إلا بعد موته، وربما بعد فناء جيله، حين يهلك حساده ومن يشغبون عليه، فيكون الحكم عليه من بعدهم في يد العدالة، وميزان الحق، حيث لا تحيز ولا محاباة، ولا غل ولا كراهية .. وإن هذا العظيم يعيش حياته محدما مملقا، وظلوما مضطهدا، إلا ينتفع بجهوده، ويجني ثمار غراسه، إلا أبناؤه وأحفاده، والأجيال من بعده .. فإن الجاحظ العظيم يرتفع عن هذه القاعدة، ويجل عنها، مكونا مـــن نفسه قاعدة، فقد عرف الناس عظمته في حياته، فطلبوا كتبه، وتعجلوا كتبها، وألحفوا في مطالبتهم إياها، وترقبوا صدورها، كما ننتظر في عصرنا الصحف السيارة، والمجلات الأسبوعية أو الشهرية بصبر نافذ، وتشوق وتشوف نطلع فيها على الجديد، ونرى فـــي صفحاتها ذاتنا ومجتمعنا، ونلتقف الثقافة والمعرفة من نافذتها المضيئة، كما عرفوا قيمتـه بعد فقده، فأقبلوا على تراثه دارسين باحثين، ومقلدين محتذين.

شهر الجاحظ في مجتمعه، وطارصيته، وسما ذكره، فعرفه سراة القوم وعلماؤهم وأدباؤهم، والقضاة والوزراء والخلفاء، وصحبهم، وصار من خلطائهم، وصفوة أصدقائهم، وخلاصة جلسائهم، صحب المأمون الخليفة، وابن الزيات وزير المعتصم، والفتح بن خاقان

وزير المتوكل وابن أبي دؤاد القاضي ، والأخفش شيخ النحاة وقطرب النحوي ، والنظام رأس الاعتزال ، والأصمعي عالم اللغة ، وأبا عبيدة الذي فاق عصره علما وفقها ، وغيرهم من رجالات الدولة ، وأهل العلم والأدب ، وأصحاب الحل والعقد ، وأرباب الفكر والفقه ، والكلام والأدب ، يقول الجاحظ : (وكنت أنا وأبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام ، وقطرب النحوي ، وأبو الفتح مؤدب منصور بن زياد على خوان فلان بن فلان ...)[1] (وكنا عند داود بن أبي داود بواسطة أيام ولايته كسكر ، فأتته من البصرة هدايا فيها زقاق دابس فقسمها بيننا)[2] (أكل الجاحظ مع محمد بن عبد الملك الزيات)[3].

وكان الخلفاء وكبار رجال الدولة يتسابقون إلى الجاحظ يطلبون منه كتابة الكتب والرسائل يدافع بها عنهم ، ويحمى بها عصبيا تهم ، ويؤيد بحجا جها مذاهبهم ، وآراءهم ، فيلبى طلبهم ، ويجيبهم إلى رغباتهم ، فإذا كتبه ترفع شأنهم ، وتجمع الرعية حولهم ، وتقود العقول خاضعة لسيطرتهم ، فيحمدون له ذلك ، ويجزلون عطاءه ومن هذه الكتب : العباسية والعثمانية ، وكتاب مناقب الترك وعامة جند الخلافة وغيرها من الكتب والرسائل ، وقد طلبه الخليفة المتوكل على الله لتعليم بعض أولاده فلما حضر إليه استبشع منظره وصرفه ، يقول : (ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رآني استبشع منظري ، فأمر لى بعشرة آلاف درهم وصرفني)[4] وقد وجه الخليفة المتوكل إليه من يحمله من البصرة إلى مقر الخلافة فلما أتاه الرسول وطلب منه ذلك أجابه : وما يصنع أمير المؤمنين بشق مائل ، ولعاب سائل ، وعقل زائل ، ولون حائل .[5]

---

١) كتاب البخلاء : الجاحظ ، ضبط العوامرى والجارم الجزء الاول صفحة ١٠١

٢) المصدر المذكور صفحة ١١٥

٣) تاريخ بغداد المجلد الثاني عشر صفحة ٢١٨

٤) وفيات الأعيان : ابن خلكان الجزء الثالث صفحة ١٤١ نشر مكتبة النهضة ١٩٤٨ وتحقيق محمد محيى الدين .

٥) أمراء البيان ج ٢ ص ٣٢٥ ، الجاحظ لجورج غريب ص ١٦

ويقول مفاخرا بمكانته الاجتماعية ، وعظمته الأدبية ، وحصانته الفكرية ، ومنزلته عند الخليفة المأمون ، (ولما قرأ المأمون كتبي في الإمامة ، فوجدها على ما أمر به ، وصرت إليه ، وقد كان أمر اليزيدي بالنظر فيها ليخبره عنها ، قال لي ، قد كان بعض من يرتضى عقله وتصدق خبره ، خبرنا عن هذه الكتب بإحكام الصنعة وكثرة الفائدة ، فقلنا له ، قد تربى الصفة على العيان ، فلما رأيتها ، رأيت العيان قد أربى على الصفة ، فلما فليتها أربى الفلى على العيان ، كما أربى العيان على الصفة) (٦)

وقد أصبح الجاحظ في غنى وثروة ، في دولة مجدت المال ، وقدست الثروة ، وأحنت رأسها للغنى الموسر ، فصار له سلطانه ، وعزه وجاهه ، وأصبح يرجى للملمة ، ويطلب للشفاعة والوصية (حدث أبو العيناء محمد بن القاسم قال ، صرت إلى الجاحظ ، فقلت له ، جئتك مسلما ، وقاضيا للحق ولي حاجة لبعض أصدقائي ، وهي كذا وكذا ، قال ، لا تشغلنا الساعة عن المحادثة وتعرف أخبارنا ، إذا كان في غد وجهت إليه بالكتاب) (٧) ، ويحدثنا الجاحظ عن ثرائه ويساره وما كتبه للوزراء والرؤساء من كتب فيقول ، (أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى أحمد بن أبي دواد فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار ، فانصرفت إلى البصرة ، ومعي ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد) (٨)

وامتلك الغلمان فكان له غلام يسمى نفيسا ، وغلام آخر وهو يشير إلى ذلك في بعض

---

٦) البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥

٧) معجم الأدباء ج ١٦ ص ٨٣ ، جمع الجواهر في الملح والنوادر ص ٢٠٤

٨) معجم الأدباء ياقوت ، الجزء السادس عشر صفحة ١٠٦

سخرياته يقول : (قلت لغلامى نفيس . .)(٩) (وقال نفيس لغلام لى . .)(٩) .

ويصف لنا جاهه ، وعزة سلطانه ، ونفاذ كلمته فى شئون الدولة بقوله وقد سئل عن حاله :

(حالى أن الوزير يتكلم برأيى ، وينفذ أمرى ، ويواتر الخليفة الصلات الى وآكل من لحم الطير أسمنها ، وألبس من الثياب ألينها ، وأجلس على ألين الطبرى ، وأتكىء على هذا الريش ، ثم أصبر على هذا حتى يأتى الله بالفرج ، فقال الرجل : الفرج ما أنت فيه ! فقال : بل أحب أن تكون الخلافة لى ، ويعمل محمد بن عبد الملك بأمرى ، ويختلف إلى ، فهذا هو الفرج)(١٠) وطمعه هذا انما هو من باب الفكاهة والاعتراف بالنعم وشكرها ، وعبارته تحوى غمزات للسائل ، وكأن لسان حاله يقول : إنه ليس فى الدولة أعلى منزلة منى غير الخليفة فكيف يخفى عليك حالى ومكانى !! .

وكما كان المجتمع يهابه ويجله ، لعلمه وأدبه ، وغناه ويسره ، ومكانته الرفيعة فى دولته ، فقد كان يهابه خوفا من سوط سخره ، وفرقا من ميسم هزئه ، فهو دائما مرهوب الجانب لا يجترىء عليه وقاح ، حذرا من سخره ، ولا عالم أديب هربا من حجاجه ولسنه ، أو طمعا فى نيل ما عنده ، والنهل من نبع أدبه ، سئل أبو عفان : (لم لم تهج الجاحظ ، وقد ندبك وأخذ بمخنقك ؟ فقال : أمثلى يخدع عن عقله ! والله لو وضع رسالة فى أرنبة أنفى لما أمست إلا بالصين شهرة ، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت فى ألف سنة)(١١) . (وقال قاضى القضاة عبد الجبار فى طبقات المعتزلة (نقض الإسكافى كتاب الجاحظ فى العثمانية فى حياته فدخل الجاحظ الوراقين ببغداد ، فقال : من هذا الغلام السوادى الذى بلغنى أنه تعرض

---

٩) البيان والتبيين : الجاحظ : تحقيق عبد السلام هارون الجزء الرابع صفحة ٢٦ .

١٠) تاريخ بغداد : الخطيب البغدادى : المجلد الثانى عشر صفحة ٢١٩ مطبعة السعادة عام ١٩٣١ .

١١) معجم الأدباء : ياقوت : الجزء السادس عشر صفحة ٩٩ .

لنقد كتابى ، وأبو جعفر جالس، فاختفى منمحق لم يره ، وكان أبو جعفر طوى الرأى ، محققا منصفا قليل العصبية ، ألف سبحين كتابا فى علم الكلام)[١٢] وهذه رسالة التربيع والتدوير فى السخرية من أحمد بن عبد الوهاب باقية خالدة ، تشع سخرا وتفتح هزؤا على مر الزمن ، وقد طوى المنون صاحبها البجلى ، وضاع فى لجج الأيام حتى أصبحنا لا نعرف عنـــه الا شذرات نلتقطها من هنا ومن هنا ، ونستعين على ذلك بما ورد فى الرسالة ، لا رغبة فى معرفة هذه الشخصية ، وإنما رغبة فى تحليل الأسلوب الساخر ، وطرقه ، والدوافع التى أنتجته ، فجعلته يقطر سما ، يقول الجاحظ مشيرا إلى هذه الرسالة فى كتابه الحيوان ، (وعبتنى برسائلى ، وبكل ما كتبت به إلى إخوانى وخلطائى من مزح وجد ، ومن إفصاح وتعريض ومن تغافل وتوقيف ، ومن هجاء لا يزال ميسمهُ باقيا)[١٣] وقصده بذلك رسالة التربيع والتدوير التى يقول فيها متلاعبا بابن عبد الوهاب ، عابثا بطوله وعرضه (لم تر مقدورا واسع الجفرة غيرك ولا رشيقا مستفيضا لخاصرة سواك ، فأنت المديد ، وأنت البسيط ، وأنت الطويل ، وأنت المتقارب فيا شعرا جمع الأعاريض، ويا شخصا جمع الاستدارة والطول)[١٤].

كان الجاحظ عالما شهيرا من علماء الكلام ، يدين بالاعتزال ، ويدافع من المتكلمين بعامة والاعتزاليين بخاصة ، ويرفعهم مكاناً عليا ، ويرى أنه لولا المتكلمين لهلكت العامة ، وقد كانت له فى الاعتزال آراء ، وافق فيها شيوخه ، وعلى رأسهم النظام زعيم المعتزلة ، وآراء واتجاهات خالف بها جانبا من قواعد المذهب وأسسه ، وابتعد بها قليلا عما عليه عامة المعتزلة ، وصارت له وجهة خاصة وصبغة مستقلة ، انفرد بها عما عليه أتباع المذهب ،

---

١٢) أمراء البيان ، محمد كرد على الجزء الثانى ، صفحة ٣٦٠

١٣) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، الجزء الأول صفحة ٧

١٤) مجموعة رسائل ، الجاحظ ، صفحة ٨٩

وتبعه في ذلك جماعة منهم ، دانوا بآرائه ، وترسموا تعاليمه ، فكونوا طائفة تسمت باسم زعيمهم الجاحظ ونسبت إليه وعرفت باسم " الجاحظية " فعلا قدره ونبه اسمه ، وارتفعت مكانته بين أبناء مذهبه ، وعلماء زمنه ومتكلميه ، يقول مادحا المتكلمين : (وما كان أحوجنا وأحوج جميع المرضى أن يكون جميع الأطباء متكلمين ، وإلى أن يكون المتكلمون علماء ، فإن الطب لو كان من نتائج حذاق المتكلمين ، ومن تلقيحهم له ، لم نجد في الأصول التي يبنون عليها من الخلل ما نجد)[١٥] ويقول شارحا فضيلة المعتزلة وأستاذه النظام : (لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل ، فإن لم أقل ولولا أصحاب إبراهيم وإبراهيم لهلكت العوام من المعتزلة ، فإني أقول : إنه قد أنهج لهم سبيلا ، وفتق لهم أمورا ، واختصر لهم أبوابا ظهرت فيها المنفعة ، وشملتهم بها النعمة)[١٦] وفي بيانه قدرا لمتكلمين بيان لقدره ، وفي رفعه شأن المعتزلة رفع لشأنه ، لأنه من شيوخهم ، وزعيم إحدى طوائفهم .

ولرفعة قدر الجاحظ في مجتمعه وذيوع صيته في عصره ، وشهرته التي طبقت الآفاق ، تسابق الناس لزيارته وتهافتوا على رؤيته ، واهتموا بمحادثته والأخذ عنه وكانوا ينكرون أن يزوروا البصرة أو بغداد عالم أو أديب أو شاد في العلم والأدب ، دون أن يزور الجاحظ وكأن الجاحظ أحد معالم البصرة أو بغداد من لم يزره من القادمين إليهما كانت زيارته ناقصة ورحلته غير مجدية ، يروي الخطيب البغدادي : (سمعت أبا بكر محمد بن إسماعيل يقول : قال لي إبراهيم بن محمود ونحن ببغداد : ألا تدخل على عمرو بن بحر الجاحظ ؟ فقلت : مالي وله ؟ قال : إنك إذا انصرفت إلى خراسان سألوك عنه)[١٧] ويروي الحصري (حكى بعض أبناء البرامكة قال : تقلدت السند ، وحصل لي ما شاء الله ، ثم صرفت عنها ، وكنت قد اكتسبت بها ثلاثين ألف دينار ، فصغتها عشرة آلاف إهليلجة ، وجاء الصارف فركبت البحر وانحدرت

---

١٥) الحيوان : الجاحظ ، تحقيق هارون الجزء الخامس صفحة ٥٩

١٦) المصدر المذكور ، الجزء الرابع صفحة ٢٠٦

١٧) تاريخ بغداد : الخطيب البغدادي المجلد الثاني عشر صفحة ٢١٧

إلى البصرة ، فخبرت أن الجاحظ بها ، وأنه عليل بالفالج ، وأحببت أن أراه قبل وفاته ، فصرت إليه وقرعت الباب ، فخرجت إلى خادمة صفراء ، فقلت : رجل غريب فأحب أن أنظر إلى الشيخ فبلغته ، فسمعته يقول : قولي له : ما تصنع بشق مائل ، ولعاب سائل ، ولون حائل ؟ ، فقلت للجارية : لابد من النظر إليه ، فقال : هذا رجل ورد البصرة ، وسمع بي ، ويريد أن يقول : رأيت الجاحظ)[18].

ولمكانته السامية في مجتمعه وغناه وثرائه ، وحظوته عند الخلفاء والوزراء ، وانتشار كتبه في أقطار الأرض ، كثر حساده وشانئوه ، ممن لم يستطيعوا مجاراته ، ومداورة الركض في ميدانه ، فبهرت أنفاسهم ، وجفت لمّا تهم ، حقداً وحنقاً ، فما بوه وحقروه ، وألصقوا به من التهم والنقائص ما هو منها براء ، شأن كل عظيم في قومه ، نابه في أمته ، فإن ألسنة السوء تتناوشه ، ومؤامرات الشر تحاك له ، وتنصب له الفخاخ ، ويجسم أعداؤه من كل رذل فسل في شرفه وسمعته ، وعقله وكرامته ، على ذلك يذهب ريحه ، ويطفيء سراجه ، وما أكثر ما عاناه الجاحظ من هؤلاء الفاشلين يقول لأحدهم : (وعبتني بكتاب الصرحاء والهجناء ، ومفاخرة السودان والحمران ، وموازنتها بين حق الخئولة والعمومة ، وعبتني بكتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب .. وعبتني بكتاب القحطانية والعدنانية في الرد على القحطانية ... وعبتني بكتاب العرب والموالي ...)[19] (ثم لم أرك رضيت بالطعن على كل كتاب لي بعينه حتى تجاوزت ذلك إلى أن عبت وضع الكتب كيفما دارت بها الحال ، وكيف تصرف بها الوجوه وقد كنت أعجب من عيبك البعض بلا علم ، حتى عبت الكل بلا علم ، ثم تجاوزت ذلك إلى

---

18) جمع الجواهر : الحصري : صفحة ٢٠٣ ، زهر الآداب ص ١٩٨ ، اللآلي ص ١٩٨ .

19) الحيوان : الجاحظ : تحقيق هارون الجزء الأول صفحة ٤

نصب الحرب فعبث الكتاب (٢٠) ، فهم لما وقر في نفوسهم من حقد ، وما تعاظم في قلوبهم من بغض ، قد عابوا كتبه كلها ، وامتلأت دخائلهم بالحسد والضغن • يقول في هؤلاء الحاسدين (فمن شأن الحاسد إذا كان المحسود غنيا ، توبيخه على المال ، وقوله : إنه جمعه حراما ومنعه أثاما ، وألب عليه محاويج أقاربه ، وتركهم له خصماء (٢١)) (وإن كان المحسود عالما قال : مبتدع ، ولرأيه متبع ، حاطب ليل ، ومبتغ نيل ، ما يدري ما حمل ، قد ترك العمل ، وأقبل على الحيل) (٢٢) •

ولم يكتفوا بالطعن في كتبه ، وتوجيه كلامها غير وجهته ، بل عبثوا بها ، وشوهوها وأدخلوا فيها الزيف والزيغ ، حتى أحالوا صورتها ، وغيروها عما جعلت عليه ، وأخرجوها عما جعلت له ، وقد هدفوا بذلك إلى النيل منه ، والحط من رفيع مكانته ، (صنف أبو عثمان كتابا من كتبه وبوبه عيثة في الناس ، فأخذه بعض أهل عصره فحذف منه أشياء ، وجعله أشلاء ، فأحضره وقال له : ياهذا ، إن المصنف كالمصور ، وإني قد صورت في تصنيفي صورة ، كانت لها عينان فعورتهما ، أعمى الله عينيك ، وكان لها أذنان فصلمتهما ، صلم الله أذنيك ، وكانت لها يدان فقطعتهما ، قطع الله يديك ، حتى عد أعضاء الصورة (٢٣) •

وقد لازمه الحسد على تفوقه ، وسني منزلته منذ بدء تأليفه ، مما يدل على تفتح عبقريته مبكرا ، ورفعة مكانته في شبابه يقول (إني ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن ••••• وأنسبه إلى نفسي ، فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم بالحسد المركب فيهم ، وهم يعرفون براعته ونصاعته ، وربما ألفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه ، فأترجمه باسم غيري وأحيله على من تقدمني عصره ••• فيأتيني أولئك القوم بأعيانهم الطاعنين على

---

٢٠) المصدر السابق صفحة ٣٨

٢١) أمراء البيان محمد كرد علي الجزء الثاني صفحة ٣٣٥

٢٢) المرجع المذكور نفس الصفحة

٢٣) أمراء البيان ، محمد كرد علي ، الجزء الثاني صفحة ٤٦٥

الكتاب الذى كان أحكم من هذا الكتاب ، لاستملح هذا الكتاب ، وقرأته على ، ويكتبونه بخطوطهم ، ويصيرونه إماما يقتدون به) (٢٤) .

لقد قدر الخلفاء والوزراء الجاحظ حق قدره ، فأرادوا أن تنتفع به الدولة وأن يكون من العاملين فى ميدانها الرسمى ، فولوه ديوان الإنشاء ، ولكنه كما يروى ياقوت : (صدر الجاحظ فى ديوان الرسائل أيام المأمون ثلاثة أيام ، ثم إنه استعفى فأعفى) (٢٥) . يقول بروكلمان :

(وكان الجاحظ مع علمه ، وكثرة تصانيفه عاجزا عن تدبير الأمور فلما ولاه الخليفة رياسة ديوان الرسائل بعد إبراهيم بن العباس الصولى اعتزل بعد ثلاثة أيام ، ورجع إلى البصرة للقراءة والتصنيف) (٢٦) .

ولكننى أرد قول بروكلمان فى وصفه الجاحظ بالعجز عن تدبير الأمور ، فما عرف الجاحظ بعجز فى ميدان من الميادين ، حتى يتهم بالعجز فى أخص ما يملك آلته ، ويعرف طريقته ، وهو الكتابة الفنية ! وهل من ألف هذه الكتب الكثيرة ، وخلف وراءه تلك الثروة الوفيرة من العلم والأدب والبلاغة والنقد ، يقف عاجزا عن كتابة رسالة ، أو رياسة مجموعة من الكتاب !!

لا .. ما يقال هذا القول عن الجاحظ ، إنه قادر على السبق فى هذا المجال ، والتحليق فى أجوائه ، اللهم إلا إذا قصد بروكلمان المعنى المتعارف فى عصرنا للتعبير (تدبير الأمور) الذى يقصد به التساهل والتنازل عن المبادىء فى سبيل الشهرة والمال ، وإرضاء الرؤساء ، ولعل هذا المعنى كان شائعا فى عصر بروكلمان ومجتمعه ، وحتى هذا المعنى لم يكن الجاحظ عاجزا عن تحقيقه ، فعنده من الدهاء والسياسة والخبرة بالناس ما يجعله فى ذلك القدم المبرز ، ولكنه كان يملك من الخلق الشريف ، والهمة العالية ، والنفس الأبية ما يجعله يزور عن هذه الوظيفة ، ويأنف منها ، ويزدريها .

---

٢٤) من رسالة فصل ما بين العداوة والحسد صفحة ١٠٨ ، ١٠٩ ، التنبيه والإشراف ص ٦٦

٢٥) معجم الأدباء : ياقوت ، الجزء السادس عشر صفحة ٧٨ ، ٧٩ .

٢٦) تاريخ الأدب العربى : كارل بروكلمان ، نقل الدكتور عبد الحليم النجار صفحة ١٠٦ ، ١٠٧ ط دار المعارف سنة ١٩٦٢ .

إن أبا عثمان طلب إعفاءه من رئاسة ديوان الإنشاء ، ولم يقبل أن يستمر فيه أكثر من ثلاثة أيام لعدة أمور .

١ـ طبع الجاحظ على الفكاهة ، وعشق المرح والسخر ، وذلك يتنافى مع الوقار الذى يجب أن يسود ديوان الإنشاء ، أو رئيس التحكوم ، والهيبة والجدية التى تحيط به ، لما يقوم به من مهام خطيرة فى توجيه شئون الدولة ، والاحتفاظ بأسرار تتعلق بأمن الخلافة وسلامتها ، وعلاقاتها بولاتها وعمالها ، وملوك ورؤساء الدول الأخرى ، فلم يحتمل الجاحظ هذا الجو الصارم الخانق الذى لم يعتده ، فضحى بمنصبه لتظل له طلاقته وبشاشته .

٢- صحب أبو عثمان الخلفاء والوزراء على حذر ، واجتهد ما أمكن من تولية المهام الرسمية لهم خوفا من التقصير والزلل ، أو الريبة والتهم ، وما يتبع ذلك من عقاب ، وما يكون من انتقام وتنكيل ، وما كان أهول عقابهم ، وأبشع انتقامهم وتنكيلهم ، وقد رأى بعينى رأسه صديقه الوزير ابن الزيات يسجن فى أتون الحديد ، ذى المسامير المحددة الملتهبة الذى صنعته يداه ، فاكتفى من صحبتهم بمقدار ما تستقيم له حياته ، ويحفظ له رزقه وكرامته ولكنه كان يرفض أن يكون مسئولا عن أمور تمس السياسة والخلافة وترتبط بتوجيه الدولة ، وتحريك دفتها ، لذلك سارع بالهرب من رياسة ديوان الرسائل بعد أن تولاه ثلاثة أيام فحسب .

٣ـ أغرم الجاحظ بالحرية منذ صباه ، وتمكنت من نفسه فى شبابه وكهولته ، فبنى حياته كلها على أساسها ، فصار حرا فى كتابته ، له أسلوب معين ، وطريقة خاصة ... حرا فى تفكيره فشك حتى وصل إلى اليقين ، واختبر وجرب واستقرأ .. حرا فى مذهبه الدينى ، فاختار الاعتزال المعتمد على الفكر الطليق ، والعقل الرحيب ، حرا فى خلقه ، يذكر العورات وأعضاءها وعملها دون حرج ، حرا فى سلوكه الاجتماعى ، فلم يتزوج هربا من قيود الزواج ، حرا فى سائر تصرفاته واتجاهاته ، لم يقبل أن يربطه قيد ، أو يخضعه وثاق ، ولو كان رياسة ديوان الإنشاء ، الذى يتشهاه غيره ، ويتمنى بجدع أنفه أن يناله ، ويستقر فيه .

٤ـ كان يكره صناعة الكتابة لما يرى فيها من إذلال وامتهان ، يقول فى رسالته ذم أخلاق الكتاب : (إن قبح الكتابة بنى على أنه لا يتقلدها إلا تابع ، ولا يتولاها إلا من هو فى معنى الخادم ، ولم نر عظيما قط تولاها بنفسه ، أو شارك كاتبه فى عمله)(٢٧) كما يكره الكتاب لصلفهم وبذخهم يقول عن الكاتب (أحكامه أحكام الأرقاء، ومحله من الخدمة محل الأغبياء ، ثم هو مع ذلك فى الذروة القصوى من الصلف ، والسلم الأعلى من البذخ ، وفى البحر الطامى من التيه والسرف ، يتوهم الواحد منهم إذا عرض جبته ، وطول ذيله وعقص على خده صدغه ، وتحذف الشابورتين على وجهه أنه المتبوع ليس التابع ، والمليك فوق المالك)(٢٧) وقد عاب عليهم تباغضهم وعداوتهم بعضهم ، وكيدهم لبنى مهنتهم يقول : (كأنكم أولاد علات وضرائر أمهات فى عدواة بعضكم بعضا ، وحنق بعضكم على بعض ، أف لكم ولأخلاقكم)(٢٨) وبقوله : (هم كالفرة من الكلاب فى مرابضها ، يمر بها أصناف الناس فلا تتحرك ، وإن مر بها كلب مثلها ، نهضت إليه بأجمعها حتى تقتله)(٢٩)

فكيف بالجاحظ وقد أوضح لنا دخلية نفسه ، ووقفنا على ما يمزق نياط قلبه ، من خسة هؤلاء الكتاب ولؤم طباعهم ، يقبل أن يكون واحدا منهم ، أو رئيسا لهم ؟ لا عجب إذن أن يفر هاربا من هذه الصناعة وأربابها الأخساء الأغبياء ، وأن يريح نفسه من هذه الخلق الكريهة ، والطباع اللئيمة .

هـ كان يفضل الكتابة الحرة ، كتابة الكتب وتصنيفها وتحبير الرسائل العلمية والأدبية من غير أن يكون لأحد عليه سلطان ، ودون أن يقصر نفسه على الكتابة لشخص يأخذ منه قطائع أو لهيئة يتناول منها مشاهرته ، ومثله فى ذلك مثل من يفضل فى عصرنا الأعمال الحرة على وظائف الدولة ، ولا يفعل ذلك إلا الجرىء المقدام ، المتمكن من صناعته

---

٢٧) ثلاث رسائل : الجاحظ : نشر يوشع فنكل : رسالة فى ذم أخلاق الكتاب صفحة ٤٢

٢٨) المصدر المذكور صفحة ٤٧ .

٢٩) المصدر المذكور صفحة ٤٦ .

الواثق بنفسه ومقدرته على الكسب والربح من عمله الحر ، أضعاف ما تخلفه عليه وظيفته ، مع احتفاظه بشخصيته ، وامتلاكه زمام نفسه ؛ أما من يلجأ إلى الوظيفة ، ويتقيد بها ، ويحبس نفسه في إطارها ، فإنما يلجئه إلى ذلك ضيق عطنه ، واتكاليته وكسله ، وعدم امتلاكه أساليب الكسب الحر ، لضعف آلتهن وقصور يده ، وقد ضرب الجاحظ مثلا للكاتب المتحرر من وظائف الدولة ، ومدى نبالته ومهابته وعزته ووازن بينه في وظيفته ، وبينه وقد تخلى عنها إلى الكتابة الحرة بقوله : (ولقد دخلت على إسحاق بن سليمان في إمرته ، فرأيت السماطين والرجال مثولا كأن على رؤوسهم الطير ، ورأيت فرشته وبزته ، ثم دخلت عليه وهو معتزل وإذا هو في بيت كتبه ، وحواليه الأسفاط والرقوق والقماطر والدفاتر ، والمساطر والمحابر فما رأيته قط أفخم ولا أنبل ولا أهيب ولا أجزل منه في ذلك اليوم ، لأنه جمع مع المهابة المحبة ، ومع الفخامة الحلاوة ، ومع السودد الحكمة)[٣٠] وقد كان بطبعه يكره عمل السلطان ، وله في ذلك رسالته الشهيرة (في مدح التجار وذم عمل السلطان).

٦ـ نفس عليه كتاب الديوان منصبه وتفوقه ، وكادوا له ، ووشوا به ، وحيثوا زملاءهم للعمل على إقصائه عن مكانته وإبعاده عن رياستهم ، حتى لا يخملهم ويخمد نارهم ولعل فـــي قول سهل بن هارون : (إن ثبت الجاحظ في هذا الديوان أفل نجم الكتاب)[٣١] خير دليل على ذلك ، فلما رأى الحقد والبغضاء ، والمؤامرات والدسائس ، بالإضافة إلى الأسباب السابقة طلب إعفاءه من منصبه فأجيب إلى طلبه .

٧ـ كان الجاحظ دميم الوجه ، مستبشع الخلقة كما أسلفنا ـ وذلك ينافي ما يجب أن يكون عليه الملك والديوان من وسامة وقسامة ، وبهاء طلعة تناسب بهاء الملك وأبهة الديوان ، والجاحظ نفسه يشير إلى ما كان عليه الكتاب من جمال في الشكل ، وبهاء فـــي

---

٣٠) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق هارون الجزء الأول ، صفحة ٦١ و ٦٢

٣١) معجم الأدباء ، ياقوت ، الجزء ١٦ صفحة ٧٩ طبعة عام ١٩٣٧ .

المظهر فقد (جلس الجاحظ يوما فى بعض الدواوين فتأمل الكتاب فقال : خلق حلوة ، وشمائل معشوقة) [٣٢]. ويقول : (يتوهم الواحد منهم إذا عرض جبته ، وطول ذيله ، وعقص على خده صدغه ، وتحذف الشابورتين على وجهه أنه الشبوع ليس التابع) [٣٣]

فإذا كان الكتاب أشكالهم جميلة ، وملابسهم أنيقة ، ومظاهرهم على أتم ما يكون البهاء والزينة ، وقد حرم الجاحظ — وهو رئيسهم — كل ذلك فإن هذه الحالة ولا شك تبعث الكآبة فى نفس الجاحظ ، والاستهتار فى نفوس الكتاب ، والاستهانة فى قلوب زائرى الديوان ، ومن يترأسون الجاحظ ، ويأبى الجاحظ إلا أن يكون سيد الموقف ، منشرح الصدر ، فأسرع بالبعد عن هذا الجو الكئيب ، المثقل بالقيود ، الذى ما ألفه ، ولا ارتضاه .

---

٣٢) ثلاث رسائل : الجاحظ ، نشر يوشع فنكل صفحة ٤٥ .

٣٣) المصدر المذكور صفحة ٤٢ .

الفصل الرابع

جرأتــه في النقــد

جرى النقد فى دم الجاحظ منذ صباه ، وامتزج بثقافته وأدبه ، وعلمه وفنه ، فما وقعت عينه على منظر غريب إلا نقده ، ولا سمع قولا زائفا إلا سخر منه ، ولا علم رأيا شاذا ، أو مذهبا بعيدا عن العقل ، إلا سلط عليه من ضوء فكره ما يكشف به عواره ويهتك حجبه وأستاره ، وقد كان فى نقده — على الأعم الأغلب — صادقا منصفا ، لا يتحيز لرأى ، ولا ينساق وراء هوى ، ولا يتبع سرابا ، كما كان جريئا فى نقده ، لا يسكت عن عيوب غيره ، لا رغبة فى التشنيع عليه ، والإساءة إليه ، وإنما حبا له ، وطمعا فى استقامته ، ورجوعه عن غيه ، ولتتضح صفاته لغيره ، فلا يقع فيما فيه وقع. يقول مخاطبا من طلب منه الكتابة فى البخلاء (وقلت : ولا بد أن تعرفنى السيئات التى تمت على المكلفين ، ودلت على حقائق المتموهين ، وهتكت من أستار الأدعياء ، وفرقت بين الحقيقة والرياء ، وفصلت بين البهرج المتزخرف ، والمطبوع المهمل ، لتقف — زعمت — عندها ، ولتعرض نفسك عليها ، ولتتوهم مواقعها وعواقبها فإن نبهك التصفح لها ، على عيب قد أغفلته ، عرفت مكانه فاجتنبته)(1).

وهو لا ينقد نقدا إجماليا ، بل يعمد إلى التفصيل والوضوح ، ووضع اليد على مكمن الداء ، وإبرازه للعيان ، فى جرأة وشجاعة ، تمنع الشخصية التى ينقدها أن تقف أمامه شامخة ، معتمدة على شهرتها ومكانتها ، ومكونة سدا منيعا وحاجزا حصينا يمنع النقد ويرهبه ويذيب ما يوجهه إليها من لوم ، لأن نقده يتغلغل فيها ، وينفذ إلى باطنها ، حيث يفصح عن دخائلها ، وما حاولت تمويهه وتزييفه ، ويكشفها أمام نفسها فتصغر وتتضاءل .

---

(1) كتاب البخلاء : الجاحظ : شرح العوامرى والجارم : الجزء الأول صفحة ٢٢

ومع هذه الجراءة ، وتلك الشجاعة ، لم يكن عيابا فحاشا ، ولا متماقتا مسفا ، فحينما نقد الصفات المرذولة ، والخلال المستهجنة كنى عن أصحابها وورى ، ولم يفصح عنهم إلا إذا رأى ذلك لا يسقط كرامتهم ، ولا يحط من رتبهم ، أو أحياء تبجحهم ووقاحتهم ، ومجاهرتهم بالعيب على أن الألفاظ التي استعملها في نقده لم تكن فاحشة ماجنة ، وإنما كانت متخيرة منتقاة ، تدل على العيب في تلطف وترفق ، عن طريق السخر المقلف وبخاصة مع كبار العلماء ، كأرسطو والنظام وأبي عبيدة ، ممن تكفيهم اللمحة ، وتسد اللفظة عندهم مسد الخطب الطوال .

وقد كان نقد الجاحظ بناء ، يزيل باطلا ليحل محله حقا ، ويهدم إفكا وضلالا ليبني بدلهما علما ورشدا ، فأبو عثمان يتخذ منه أداة تقويم وتعليم ، فينشره في كتبه ورسائله ، ليفيد به كل قارئ وكل سامع ، وإذا تتبعنا ما كتبه فإننا لن نعثر له على كتاب أو رسالة تجردت من النقد ، ولن يرى عنه خبر دون أن يداخله نقده وتعليقه وإعرابه عما يستحسنه وما يستهجنه ، فهكذا خلق أبو عثمان ، وعلى ذلك طبع ، وكثرة النقد تولد فيه الشجاعة والدربة والجراءة والتمرس .

وقد أتته هذه الجراءة في النقد حتى صارت فيه طبعا وجبلة من عدة نواح ، فقد كان — كما علمنا — كثير القراءة والاطلاع ، والبحوث والتجارب والأسفار ومجالسة العلماء والمتكلمين ، والأدباء والفقهاء ، هذا إلى قريحة مواتية ، وعقلية رصينة ، وعمر مديد مكنه من أن يعرف الحياة والأحياء ، ويسبر أغوارهم ، فتكونت لديه حصيلة ضخمة من الآراء الصائبة ، والاتجاهات الرشيدة ، فأثبتت الأيام صلاحيتها وفاعليتها ، فتمسك بها وجعلها ميزانا حساسا لنقده ، وأداة صادقة للقياس والتقويم ، فلما لم يختل الميزان ، ولم تنحرف الأداة اكتسب الجاحظ الجرأة في نقده ، والشجاعة في رأيه ، وأصبح لا يبالي ولا يداهن ولا يكتم رأيه ومعتقده .

٢- كانت للجاحظ مكانته الاجتماعية المكينة ، التى تقوى قلبه ، وتجرئ لسانه ، فينقد من يشاء وهو مطمئن إلى أن مكانته فى مجتمعه ، ومنزلته فى قلوب الخلفاء والوزراء ستحميه ، وتمنع النيل منه ، كما يحميه لسانه ، ويذب عنه ، ويصمى خصمه ويمسخه .

٣- يستطيع الجاحظ أن يمسح ما فى صدر من نقده من غل وحقد وأن يقلب الموجدة التى فى قلبه حبا ، أو يخفف من حدتها حتى تتلاشى ، معتمدا على لباقته ودهائه وحسن تأتيه ولطف مداخلته القلوب ، يقول : (ومن المزاح — جعلت فداك — باب مكر ، وجنس خدع يتكل المرء فى إساءته إلى جليسه ، وإساءته لصديقه على أن يقول مزحت ، وعلى أن يقول عند المحاكمة لعبت ، وعلى أن يقول : من يغضب من المزاح إلا كز الخلق ، ومن يرغب عن المفاكهة إلا الضيق العطن)[٢] فليكن ناقدا ، جريئا فى نقده ، ساما فى سخره ، فإن معه الدواء ، وفى رقيته الترياق .

٤- كرس الجاحظ غالب كتبه للدفاع عن الإسلام ولغته ، ومناضلة غيره من الديانات والعقائد والعصبيات واللغات ، فنقد فى جرأة وشجاعة النصارى واليهود والمجوس ، وغيرهم من أرباب المذاهب المنحرفة ، والطوائف التى تناوئ الإسلام ، كما نقد الآداب الأجنبية وقصورها ، وعدم إيفاء لغاتها بمتطلبات الحياة والمواقف ، لا يهمه ما يلقى من انتقامات جزاء نقده ، وحطه أصحاب هذه النحل واللغات ، لأنه يحتسب ذلك عند الله ، ويعده دفاعا من دينه ومذهبه ولغته .

---

٢) مجموعة رسائل ، الجاحظ ، صفحة ١٠٧ .

٣) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق هارون الجزء السادس صفحة ١٧

هـ عرف الجاحظ الحياة وخبرها ، وفهم نفسه ومكانتها ، وأدرك أنه محسود محقود عليه ، وأن من كان في مركزه ومنزلته ، فلن يسلم من ألسنة السوء ، ولن يترك يؤدي وظيفته في الحياة دون تشغيب وإقلاق ، وما دام ذلك موقف الناس منه ، ولن يحيدوا عنه ، فلينقد ما يرى فيه اعوجاجا ، وليكن جريئا في نقده ، لا يخشى تنطس المتنطسين ، ولا تمحس المتمحسين فإن ألسنتهم لن تكف عنه ، ولو كف هو عن النقد الذي يعتبره جزءا من شخصيته لا يمكنه التنازل عنه ، حتى ولو كفت هذه الألسن لما جازلة أن يكف عن نقده وتوجيهه ، وإصلاحه العقيدة والخلق والأفكار ، وكيف يمتنع عن التوجيه والإرشاد وهو شيخ من شيوخ الكلام ، وزعيم الطائفة اعتزالية رسالتها التقويم والإصلاح .

انطلق الجاحظ في ميدان النقد الجريء ، لا يهمه ما يحدثه من أخطار ، ولا يرهبه ما يحيط به من صعاب ، ولا يخاف من ينقده ، مهما سمت منزلته ، وقويت شوكته ، ورفعه الناس إلى مكانة التقديس أو الإجلال ، أو جعلوه مخوفا مرهوبا ، وأحلوه محل السجان والجلاد فنقد أرسطوطاليس ، صاحب المنطق ، ومؤلف كتاب الحيوان ، وما كان أحد يجسر على نقده ، لأنه كان عندهم في منزلة العصمة ومرتبة القداسة ، فأنزله إلى مصاف من يجوز في كلامه الخطأ والزلل ، فبين أخطاءه ، وأوضح فلتات ذهنه ، وسخر من تهافته في بعض آرائه ، يقول ناقدا ما ذكره من دعاوى غريبة ، لا دليل على صحتها ، ولا سند لها من عقل أو منطق (وقد أكثر في هذا الباب أرسطوطاليس ، ولم أجد في كتابه على ذلك من الشاهد إلا دعواه)[٣] ويقول رادا على ما يقوله أرسطو ويعتقده ، دون أن يعمل فيه عقله ، أو يلجأ إلى إحدى حواسه في التثبيت مما يروى مع غرابته بل استحالته عادة وعلما : (وقد ذكر أرسطوطاليس في كتابه الحيوان : أنه قد ظهر ثور وثب بعد أن خصي فنزا على بقرة فأحبلها ، ولم يحك هذا عن معاينة ، والصدور تضيق بالرد على أصحاب النظر ، وتضيق بتصديق هذا الشكل)[٤]

---

٣) الحيوان : الجاحظ : تحقيق هارون الجزء السادس صفحة ١٧

٤) المصدر المذكور : الجزء الخامس صفحة ٥٠٣ تحقيق هارون ، صفحة ١٤٧ طبعة ساسي .

ويسخر منه الجاحظ ، ويهزأ به وهو شيخ المناطقة ، وصاحب العقل الحصيف المفكر ، الذى يعرض عليه كل ما يمر به — إذ روى خبرا بعيدا عن العرف والعادة ، منافيا لقواعد العلم مجافيا لأدلة العقل ، مما ندا لما تقع عليه العين ، ثم يعلمه — وهو صاحب المنطق — المنطق السليم ، ويعرفه — وهو رب نظرية المعرفة — الخبر العلمى المستقيم ، والدقة فى رواية الأخبار والبرهنة عليها — وهو مبتكر الأشكال والمقدمات والبراهين — ويرى الجاحظ أنه كان على أرسطو أن يروى خبره الغريب الذى لم يتثبت منه فى إطار الشك أو الظن أو الرواية عن غيره ، والسماع منه ، ويجعل العهدة عليه ، حتى لا يتهم بالكذب ، فتسقط كرامته ، وتضيع مروءته . قال أستاذنا الجاحظ راويا الخبر السابق فى موضع آخر من كتابه الحيوان ، ومعقبا عليه : (وزعم صاحب المنطق فى كتابه الحيوان : أن ثورا فيما سلف من الدهر سفد وألقح من ساعته بعد أن خصى .. فإذا أفرط البديع ، وخرج عن المقدار أو أفرط التعجب وخرج من المقدار ، احتاج صاحبه إلى أن يثبته بالعيان ، أو بالخبر الذى لا يكذب مثله ، وإلا فقد تعرض للتكذيب ، ولو جعلوا حركتهم خبرا وحكاية ، وتبرءوا من عيبه ، ما ضرهم ذلك ، وكان ذلك أصون لأقدارهم ، وأتم لمروءات كتبهم)[٥] ... ويقول أبو عثمان ينقد أرسطو ويسخر منه بعد روايته عنه خبرا غريبا لم يذكر الدليل عليه ، ولم يعرف العلماء صدقه : (وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق من قبل ، وما نظن بمثله أن يخلد على نفسه فى الكتب شهادات لا يحققها الامتحان ، ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء ، وما عندنا فى معرفة ما ادعى إلا هذا القول)[٦] ..

ونراه ينقد أرسطو فى جرأة ويدلل على فساد مقالته التى يذكر فيها أن الفيل : (أجرد الجلد ، فلذلك يشتد جزعه من البرد)[٧] . فيعقب على قوله ساخرا : (فإن كان أجرد الجلد فما قولهم فى أحاديثهم : طلبوا من الملك الفيل الأبيض ، والفيل الأبقع ، وجاءغلان على الفيل الأسود ؟)[٧] .

---

٥) الحيوان : الجاحظ : تحقيق عبد السلام محمد هارون الجزء الخامس صفحة ٢٢٠

٦) المصدر المذكور الجزء الأول صفحة ١٨٥

٧) المصدر السابق الجزء السابع صفحة ٢٢٨ ، وصفحة ٧٠ طبعة ساسى .

رجل ، لعله أن لو وجد هذا المترجم أن يقيم على المصطبة ، ويبرأ إلى الناس من كذبه عليه ، ومن إفساد معانيه بسوء ترجمته ؟ (٩)

لقد دفع الجاحظ علمه إلى النقد البريء الجريء ، ومنعه خلقه من المحاباة والمداهنة ، وامتلك عقله زمام لسانه ، فلا يخرج الكلام من فمه قبل أن يعرضه على عقله ، وينظر فيه ، ويفحصه ويمحصه ، ثم يوافق عليه ، وأهاب به الحق أن ينشده أينما كان ، لم يأخذ كلام رئيس المفكرين والمناطقة أرسطو قضايا مسلمة ، وحقا تق مؤكدة وبديهيات ساطعة ، بل ناقشها ، وأبطل مالم يوافقه منها ، مما لم يقبله عقله ، ولم يقم دليل على صحته ، وتوقف عند بعضها ، وشك في بعضها ، ونقد بعضا ، وبين رأيه فيه ، وذكر علة فساده .

هذا بعض ما قاله في أرسطو .. أنقول إنه تجرأ عليه في نقده لأنه مات فلا يملك الدفاع عن نفسه ؟ لا .. فأين أتباعه وأنصاره ، وأصحاب مبادئه ، وتلامذته والدنيا كلها تلامذته ! إن ما دفع الجاحظ إلى الجرأة على أرسطو هو ما رآه من مخالفاته له في بعض أبحاثه التي تأكد من صحتها ، وما رواه أرسطو من أخبار لم يقم عليها الدليل ، والعقل ينفيها أو يستبعدها ويستغربها ، ولما كان عقل الجاحظ ينكرها ، فقد بين فسادها وسخر منها ، لأنه لا يستطيع أن يجد خبرا لا يوافق معتقده وتجاربه دون أن يرده ويقف في وجهه .

وإذا كان النقد الجريء يوجهه الجاحظ لمن يأمن لسانه كأرسطو ، فلم نراه يوجهه إلى أستاذه النظام ، شيخ المعتزلة ، وصاحب المكانة بين الوزراء والعلماء ، ولم نراه ينقد أبا عبيدة والأصمعي والأخفش وغيرهم من العلماء الأجلاء والأساتذة العظام الذين مدحهم وعرف لهم رفيع مكانتهم ، وسني منزلتهم ، كما عرف لهم العالم العربي حتى اليوم فضلهم ، مما يجعله يحني هامته إجلالا لهم وإعجابا بما خلدوه للإسلام وللعرب من مجد ؟؟ أن ذلك لا يعني الا أن الجاحظ كان جريئا في نقده ، وأنه لا يلتفت لمنزلة من ينقده مادام

---

٩) المصدر المذكور الجزء السادس ، الصفحات ١٧ ، ١٨ و ١٩

يراه مسفا فى رأيه ، فالإنسان الكامل فى نظره لا وجود له فجميع الناس يخطئ ويسقط ، وهو بحكم طبعه ومكانته لا يملك السكوت عن الزيغ .

ومن نقده لأستاذه إبراهيم بن سيار النظام قوله عنه : (إنما كان عيبه الذى لا يفارقه سوء ظنه ، وجودة قياسه على العارض والخاطر والسابق الذى لا يوثق بمثله ، فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الأصل الذى كان قاس عليه أمره .. ولكنه كان يظن الظن ، ثم يقيس عليه وينسى أن بدء أمره كان ظنا ، فإن أتقن ذلك وأيقن جزم عليه ، وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر فى صحة معناه)(١٠)

وكان لا يوافق على بعض آراء النظام ، مع أنه أستاذه ، وموجهه ، ورئيسه الدينى وصاحب مذهبه الكلامى "الاعتزال" ، ما دامت هذه الآراء لا يقرها عقل الجاحظ ولا يثبتها بالدليل وإن وافق عليها جميع شيوخ المذهب ، يقول : (وقد كان إبراهيم بن سيار النظام يجيب بجواب ، وأنا ذاكره إن شاء الله ، وعليه كانت علماء المعتزلة ، ولا أراه مقنعا ولا شافيا)(١١)

كان الجاحظ يفرق بين النقد الجرىء البناء ، وبين الهدام المتعدى المساوىء ، وهتك عرض من ينقده ، فكان يرتضى اللون الأول ويعجب به ، ويمثله ، لأنه بعيد عن الفحش والهجر ، وتحطيم من يتناوله بقلمه ولسانه ، فإن رأى أن نقده سيهدم ويشهر ، ويذيب الكرامة ويزيل المروءة ، كف عنه ، ونفر منه تعففا وتكرما ، يقول : ولولا أن أكون عيابا ثم للعلماء خاصة لصورت لك فى هذا الكتاب بعض ما سمعت من أبى عبيدة ، ومن هو أبعد فى وهمك من أبى عبيدة)(١٢)

وقد نقد بشجاعة وجرأة ما للمفسرين والمحدثين من أخبار غريبة ، تعد من الخرافات التى لا تقرها إلا عقول قائليها ، ومن على شاكلتهم ، ممن ألغيت عقولهم ، وانحرفت قلوبهم .

---

١٠) المصدر المذكور ، الجزء الثانى ، صفحة ٢٢٩ - ٢٣٠

١١) ثلاث رسائل ، الجاحظ ، نشر يوشع فنكل صفحة ٢٩

١٢) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، الجزء الرابع صفحة ٢٤

فاتهمه أعداؤه بالمروق عن الدين ، والطعن على الإسلام والعيب في القرآن ، وهذا وهم منهم ، وقصور في نظرتهم إلى العقيدة ، وفهمهم لها ، فلم يفرقوا بين الدين والمتدين ، ولا بين العقيدة وأتباعها ، ولم يعلموا أن تعاليم الدين مقدسة لا تمس ، لأنها صادرة من الحكيم الخبير . ومن يمسها بسوء يكفره ولكن آراء رجال الدين يجوز عليها الخطأ والانحراف والخروج عن لب الدين وجوهره ، لأنها خاضعة للاجتهاد ، الذى يختلف باختلاف الفكر والثقافة والتدين ، على أن من اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد .

إن الجاحظ لم يعب الدين ، ولم يغض من عقيدة المسلمين ، وإنما نعى على المفسرين والمحدثين آراءهم الباطلة ، التى تأباها العقول الصحاح ، وهزىء بخرافات المفسرين وتأويلهم آى الكتاب تأويلا يرفضه العقل واللغة ، كما سخر من روايات المحدثين أحاديث هى فى معتقده ، موضوعة مصنوعة ، لخلل فكرى أو أسلوبى رآه فيها ، فلما رأوا جرأته فى نقدهم وسخره من آرائهم التى ظنوها الدين ، إتهموه فى عقيدته ، وجعلوه موضع شبهة وظنة ، بل نسبوه إلى الزندقة ، لرفضه بعض الأحاديث ، وعيبه بعض التفاسير ، مع أنه برهن على بطلان ما ذهبوا إليه . يقول :

(وقد زعم ابن حائط وناس من جهال الصوفية أن فى النحل أنبياء ، لقوله عز وجل وأوحى ربك إلى النحل ... قلنا وما خالف إلى أن يكون فى النحل أنبياء ؟! بل يجب أن تكون النحل كلها أنبياء ، لقوله عز وجل على المخرج العلم وأوحى ربك إلى النحل .. وبعد فإن كنتم مسلمين فليس هذا قول أحد المسلمين ، وإلا تكونوا مسلمين فلم تجعلون الحجة على نبوة النحل كلا ما هو عندكم باطل ؟!) (١٣) (وبعض أهل التفسير يزعم أن الله عز وجل عاقب الحية حين أدخلت إبليس فى جوفها حتى كلم آدم على لسانها بعشر خصال ، منها شق اللسان ، قالوا ، فلذلك ترى الحية أبدا إذا ضربت لتقتل كيف تخرج لسانها تلويه كما

---

١٣) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، الجزء الخامس صفحة ٤٢٤ ، ٤٢٥

يصنع المسترجم من الناس بأصبعه إذا ترحم أو دعا ، لترى الظالم عقوبة الله تعالى لها)(١٤) (وزعم بعض المفسرين أن السنور خلق من عطسة الأسد ، وأن الخنزير خلق من سلحة الفيل ... وهذا الحديث نافق عند العوام وعند بعض القصاص)(١٥) (وقد قال الناس في قوله تعالى : "إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين " فزعم الناس أن رؤوس الشياطين ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن لها منظر كريه ، والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير)(١٦) (وسئلوا عن قوله تعالى "قل أعوذ برب الفلق" قالوا : الفلق واد في جهنم ثم قصدوا يكفونه)(ص١٦)

لذلك قال أبو عثمان : (لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين ، وإن نصبوا أنفسهم للعامة وأجابوا في كل مسألة ، فإن كثيرا منهم يقول بغير رواية ، على غير أساس ، وكلما كان المفسر أغرب عندهم ، كان أحب إليهم)(١٧)

وقال : (وقد تعلم أن مفسرى كتابنا ، وأصحاب التأويل منا أحسن معرفة ، وأعلم بوجوه الكلام من اليهود ومتأولى الكتب ، ونحن قد نجد في تفسيرهم مالا يجوز على الله في صفته ، ولا عند المتكلمين في مقاييسهم ، ولا عند النحويين في عربيتهم)(١٨)

وقد سخر الجاحظ من الكتاب الديوانيين وغير الديوانيين مع مالهم من عزة وما يملكونه من لسن وبيان ، يمكنهم من الرد على الجاحظ وعيبه ، ولكنه لم يرهبهم لثقته بالفلج والاستطالة ولإيمانه أنه يقول الحق الذى يصرح به باطلهم ، وسوط الحق غلاب ، وصوته جهورى يكتم

---

١٤) المصدر المذكور ، الجزء السادس صفحة ٧٤ ، ٧٥ ومثله في ج ٤ص ١٦٤

١٥) المصدر المذكور ، الجزء الخامس ، صفحة ٣٤٧ ، ٣٤٨

١٦) المصدر المذكور ، الجزء السادس صفحة ١٦٤ (ص١٦ أ) المصدر المذكور ج ١ص ٣٤٤

١٧) المصدر المذكور ، الجزء الاول ، صفحة ٣٤٣

١٨) ثلاث رسائل ، الجاحظ ، نشر يوشع فنكل ، صفحة ٢٩ .

ملعداء يقول نقلا عن أبى معن : (ما رأيت قوما نفرت طباعهم من قبول العلم ، وصغرت هممهم من احتمال لطائف التمييز ، فصارا لعلم سبب جهلهم ، والبيان علم ضلالتهم ، والفحص والنظر حايد عنهم ، والحكمة معدن شبههم أكثر من الكتاب)[(١٩)]

وحدى من أبى بكر الأصم قوله : (ولقد رأيت عبد الله بن المقفع هذا فى غزارة علمه ، وكثرة روايته كما قال الله عز ذكره "كمثل الحمار يحمل أسفارا " قد أوهنه علمه ، وأذهله حلمه ، وأعمته حكمته ، وحيرته بصيرته)[(١٩)] وقد سبق ما رأينا من أبى عثمان فى مسخ ابن عبد الوهاب الكاتب فى رسالة التربيع والتدوير ، فما خاف ولا رهب ، لأنه جهل على النقد الجرئ .

ومن أوضح الدلالات على جرأة النقدية ، وشجاعته الأدبية ، نقده نفسه ، فقد تقدما فى كثير من كتبه من اضطراب فى التنسيق ، وقد ذكرت ذلك فى الفصل الثانى من هـــذا الباب — كما نقد بعض معتقداته فى صغره عن الخفافيش التى لا تترك من تقع على وجهـــه إلا إذا سمعت نهيق حمار وحش .

---

١٩) المصدر السابق صفحة ٤٣ ، ٤٤

الباب السابع

سخريات الجاحظ بين التأثر والتأثير

الفصـــل الأول

السخرية قبله ومدى إفادته منهـــا

رأينا السخر فى أدب الجاحظ قويا عملاقا ، سامقا شاهقا ، يمتلىء عوده الأخضر بالحيوية والماء ، والنضرة والرواء ، فقد افتتن فيه أبو عثمان ، وشقق منه ضروبا معجبة ، وولد ألوانا مطربة ، طال فيها نفسه ، وامتد إليها باعه ، ورفرفت عليها أعلام علمه وثقافته وفنه ، فكسا الجد ثوب الهزل ، والعلم والأدب رداء اللهو واللعب ، والتهذيب والإصلاح جُبة المرح والإضحاك فما يمل حديثه ، ولا ينتهى إيناسه ، ولا يزورعنه قارىء أو سامع ، لأنه إن أراد الجد وجده ، وإن أراد الهزل وجده ، فإن رغب فيهما معا وجدهما متشابكين ، وحسبه فخرا أن يكون له أسلوب فريد ، وطابع مميز ، ونكهة محببة ، ينفرد بها ، ويقصر سواه عن بلوغها ، وتنبهر أنفاسه وتتقطع نياط قلبه قبل إدراكها .

ولكن . . . أ كانت سخرية الجاحظ طفرة فى الأدب لم تسبق بتمهيد ؟ ووثبة فى الفن ليس قبلها حبو فمشى ثم جرى ؟؟

إن طبيعة الأشياء ، وقوانين النشوء والارتقاء تمنع ذلك ، وتنكر أن يكون ، وتتبعنا فن السخر منذ العصر الجاهلى يوقفنا على أن الأمة العربية صعدت بأدبها الساخر درجات سلمه واحدة إثر أخرى ، وارتقت بعصرا بعد عصر ، حتى وصل به الجاحظ فى العصر العباسى إلى أعلى الدرج .

ولنبدأ بالدرجات الأولى من هذا السلم ، نتأمل بناءها ، ونمعن فى خاماتها وندقق النظر فى صبها وصنعتها ، ثم ننظر الدرجات التى تليها ، حتى نصافح الجاحظ حيث وقف .

كانت السخرية فى العصر الجاهلى قليلة نادرة ، خالية من العمق ، بعيدة عن التلويح والرمز ، تتجه غالبا ناحية السباب الصريح ، والكشف عن المعنى المراد فى وضوح ، وكانت تنصب على سلب الصفات التى يمتدح بها العربى فى بيئته - من نجدة وشجاعة وكرم ووفاء .

وكانت منزلة الفرد من القبيلة منزلة الابن من أمه وأبيه ، يعرف فضلها ، ويخضع لقوانينها ويحميها إن تعرضت لما يشينها لأنه يشرف بشرفها ، ويتضع باتضاعها .. ومن هنا نشأ التعصب للقبيلة ، والاندماج التام فيها ، فإن دافع العربى ، فإنما يدافع من أجل قبيلته ، وإن ناله خير ، فإنه لا يفرح إلا بمقدار ما يصيب القبيلة منه ، فيتشبثون بروحه وماله لترتفع قبيلته ، وتسمو على سائر القبائل ، لاكيان له مستقلا ، ولا اعتبار له منفصلا ، فلئن هجى أو سخر منه فإن نقيصته ترجع على القبيلة كلها ، ولئن سخر بالقبيلة فقد سخر بكل فرد منها ، وحطت كرامته يقول ابن رشيق : (كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها ، وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر ، كما يصنعون فى الأعراس ، ويتباشر الرجال والولدان لأنه حماية لأعراضهم ، وذب عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، وإشادة بذكرهم)[1] لذلك ترى أهاجيهم ومدائحهم تبدأ بذكر القوم أو القبيلة ومن نماذج الحديث الساخر فى هذه الحقبة قول حسان بن ثابت فى بنى عبد المدان :

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ   جسم البغال وأحلام العصافير

وقول الأعشى فى علقمة بن علاثة

تبيتون فى المشتى ملاء بطونكم   وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا[2]

وقول الحطيئة فى أمه : تنحى فاجلسى منى بعيدا ؟ أراح الله منك العالمينا

أغربالا إذا استودعت سرا   وكانونا على المتحدثينا[3]

وقوله فى امرأته : أطوف ما أطوف ثم آوى   إلى بيت قعيدته لكاع)[3]

ومن سخريات الحطيئة ما (قالوا : كان الحطيئة يرعى غنماله ، وفى يده عصاه ، فمر به رجل فقال : يا راعى الغنم ما عندك ؟ قال عجراء من سلم — يعنى عصاه — قال : إننى

---

1) العمدة ابن رشيق : الجزء الأول صفحة ٦٠ الطبعة الثالثة عام ١٩٦٣ مطبعة السعادة

٢) تاريخ الأدب العربى : شوقى ضيف صفحة ٧٠

٣) جمع الجواهر : الحصرى : صفحة ٢٧٨

ضيف ، فقال : للضيفان أعددتها) (٤) .

ويقول قريط بن أنيف العنبري ساخرا من قومه حين خذلوه :

لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد ... ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
يجزون عن ظلم أهل الظلم مغفرة ... ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته ... سواهم من جميع الناس إنسانا
فليت لي بهم قوما إذا ركبوا ... شنوا الإغارة فرسانا وركبانا (٥)

فالكلام ظاهره المدح بأنهم متسامحون خيرون ، يقابلون الإساءة بالإحسان ، ويجازون الشر بالخير، وهم أتقياء يخشون الله ، حتى كأن الخشية من الله لم تخلق إلا لهم ، ولا توجد في سواهم .

لقد عدد لقومه هذه الصفات التي يمتدح بها الإنسان في أي جيل ، ومن أي جنس ولكن قصده السخرية المريرة ، والتهكم القاتل ، والاتهام بالضعف والخور ، وأنهم أنكاس ، لا يصدون المعتدي ، ولا يردعون الباغي ، وقد أوضح مراده في البيت الأخير حيث تمنى استبدال آخرين بقومه ليست فيهم صفاتهم ، وإنما فيهم القوة وعنف اللقاء ، وشدة الإغارة ، فأكد لنا البيت الأخير أن الصفات المذكورة في الأبيات قبله لا يقصد بها المدح ، وإن كان ظاهرها ذلك وهذه سخرية طريقها الذم بما يشبه المدح .

فإذا كان العصر الإسلامي بق الهجاء وقل استعماله تجاوبا مع أوامر الشرع الحنيف ، وخف ما فيه من فحش ومجون ، واقترب من الرمز والإيماء والتعويض وخطا خطوة نحو السخر والتهكم ، يقول الله تعالى ساخرا من الكافرين : (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم ، فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ، ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ، قل ادعوا

xxxx

٤) البيان والتبيين : للجاحظ ، الجزء الثاني ، صفحة ١٤٧ ، الجزء الثالث صفحة ٨٠

٥) ديوان الحماسة الجزء الأول صفحة ٣ ، ج ١ ص ١٩ تعليق د . خفاجي ط ١٩٥٥

شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون) (٦) ويقول على لسان إبراهيم عليه السلام ، يخاطبه الكفار ويرد عليهم : (قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قال : بل فعله كبيرهم هـذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون) (٧)

وشكا بنو العجلان النجاشي الشاعر إلى عمر بن الخطاب قائلين : لقد هجانا يا أمير المؤمنين قال : وما قال فيكم ؟ فأنشده قوله :

إذا الله عادى أهل لؤم ورقة — فعادى بني العجلان رهط ابن مقبل

فقال عمر : إن الله لا يعادى مسلما . قالوا : فقد قال :

قبيلة لا يغدرون بذمة — ولا يظلمون الناس حبة خردل

قال : وددت أن آل الخطاب كانوا كذلك . قالوا : فقد قال :

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم — وتأكل من عوف بن كعب ونهشل

فقال : كفى ضياعا من تأكل الكلاب لحمه . قالوا : فقد قال :

ولا يردون الماء إلا عشية — إذا صدر الوراد عن كل منهل

فقال : ذلك أصفى للماء ، وأقل للزحام . قالوا : فقد قال :

وما سمى العجلان إلا لقولهم — خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

فقال : سيد القوم خادمهم (٨)

إن النجاشي لم يرد المعنى الظاهر المتبادر إلى الأفهام عند أقل وهلة ، فلم يرد أن يصفهم بالعدل والوفاء ، ولا بالشجاعة وقوة البأس ، ولا بأنهم معترون لا يحجلهم الاحتياج فهم لذلك لا يزاحمون على الماء ، ولا بأن الكلاب الضاريات تعاف لحومهم خشية ورهبة ،

---

٦) سورة الأعراف الآية ١٩٤ ، ١٩٥ .

٧) سورة الأنبياء الآية ٦٢ ، ٦٣ .

٨) زهر الآداب : الحصرى : الجزء الاول صفحة ٢٤ ، ٢٥ .

ويأكل من لحم قومهم لضيافه وحوره ؟ إن هذه الصفات النبيلة والسجايا الحميدة ليست مناط النجاشي ، ولا قصد إليها ، وإنما أراد المعنى الخفي ، وقد لوّح إليه ، وأشار بسبب بعد ، في تخابث ومكر ، وسخرية وتهكم ، وجعل المدح ستارا ينفث من ورائه سمومه ، ولم يظهر مراده إلا في البيت الأخير كما تمل قريظ ولم يكن غرضا غافلا عن السخرية اللاذعة التي قصدها الشاعر ، ولكنه أراد إخماد الفتنة ، وتهدئة الثائرة ، وإذهاب غيظ النفوس الواجدة ، ودرء الحدود بالشبهات

وما حدث بين النجاشي وبني العجلان حدث نظيره بين الحطيئة والزبرقان بن بدر حيث قال له :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

ولكن الحطيئة لم يقصد المعنى الظاهري الذي قال عنه عمر " كلنا الطاعم الكاسي " وإنما أومأ ولمح إلى أن الزبرقان خلو من حميد الصفات ، وكريم السجايا ، وجميل الفعال ، وأنه لا يصلح لشيء أكثر من ابتلاع الطعام وكرع الماء ، بل إنه إنما خلق لذلك وحده ، وليس ما يشغله في الحياة سواه ، وهل بعد ذلك سخرية واستهزاء ورمي بكل نقيصة ، وإن كان قد صاغ بيته في ثوب نصيحة وإرشاد ، وهذا التعريض أشد وقعا في النفس من الهجاء ، يدل على ذلك قول حسان حين حكم في الخصومة ، (لم يهجه ولكنه سلح عليه) ومعنى هذا أن السخرية أنكى من الهجاء ، وأوجع منه لسب الصريح مهما فحش .

فإذا والينا صعود الدرج ووصلنا إلى العصر الأموي ورأينا الفرزدق وجريرا والأخطل ، رأينا السخرية تنمو بالحضارة الجديدة والأدب الذي ساد وإن كان هؤلاء الثلاثة قد أتوا من الهجاء الفحش ما تخجل منه العفة ، وينكره الحياء ، ومن تهكم جرير بالفرزدق قوله :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا   أبشر بطول سلامة يا مربع

ومن السخريات المتبادلة أن (قال خالد بن صفوان للفرزدق : يا أبا فراس ، لو رآك صويحبات يوسف لما أكبرنك ولا قطعن أيديهن ، فقال الفرزدق : ولحت يا خالد لو رآك صاحبة موسى لما

النحل . أى ليس فيها حلاوة) .(١٣)

ومن حيل أشعب الساخرة ما رواه بقوله : (جاءتنى جارية بدينار ، وقالت هذا وديعة عندك ، فجعلته بين ثنى الفراش ، فجاءت بعد أيام وقالت ، بأبى أنت ، الدينار فقلت ، ارفعى فراشى وخذى ولده ، فإنه قد ولد ، وكنت قد تركت إلى جنبه درهما ، فأخذت الدرهم وتركت الدينار ، وعادت بعد أيام فوجدت معه درهما آخر فأخذته ، وفى الثالثة كذلك وجاءت فى الرابعة ، فلما رأيتها بكيت ، فقالت : ما يبكيك ؟ قلت : مات الدينار فى النفاس ، فقالت : وكيف يكون للدينار نفاس ؟ قلت : يا فاسقة تصدقين بالولادة ولا تصدقين بالنفاس !)(١٤)

ولعبد الله بن المقفع سخريات على قدر كبير من الملاحة والظرف ، واللذع والإيلام ، منها ما ذكره الهيثم بن عدى من أن ابن المقفع كان يستخف بسفيان كثيرا ، وكان أنف سفيان كبيرا ، فكان إذا دخل عليه قال : السلام عليكما . يعنى هو وأنفه فقد قبحه ومسخه ، وجعل أنفه شخصا آخر يمتطى وجهه .. وقال له يوما : ما تقول فى شخص مات وخلف زوجا وزوجة ؟ ليسخر منه على ملأ الناس . وقال سفيان يوما : ما ندمت على سكوت قط . فقال له ابن المقفع الخرس زين لك ، فكيف تندم عليه ؟) .(١٥)

سخر ابن المقفع من سفيان لبشاعة خلقته وكبر أنفه ، كما سخر من تفاهة عقله وجهله وسخر أخيرا من عيه وحصره ، فى أسلوب رقيق ظاهره ، شائك باطنه فكأنه فى القصة الأولى يجله ويعظمه فيحييه مقام شخصين ، وفى الثانية يسأله مسألة فقهية يحله فيها محل الأستاذ الذى يلجأ إليه فى حل المعضلات ، والفتيا فى المسائل الغامضة ، أما الثالثة فهى من باب

---

١٣) جمع الجواهر ص٦٧ ، زهر الآداب ص١٧٢

١٤) نهاية الأرب ، النويرى ، السفر الرابع صفحة ٢٧ مطابع كوستاتسوماس وشركاه (تراثنا)
وفى جمع الجواهر للحصرى صفحة ١٩٩ .

١٥) وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، الجزء الأول ، صفحة ١٨٨

الهجاء لصراحتها ، ووضوح السب فيها ، وسرعتها ، وقربها من النفس ، الجواب غير المتوقع ، والتعليل بغير ما ينتظر .

وفي العصر الأموي شخصية لا تقل في فكاهتها ومرحها وسخرها من ابن المقفع وأشعب هي شخصية أبي دلامة "زند بن الجون" فقد كان أشعب وأبو دلامة علمين بارزين من أعلام الفكاهة والسخر وكثيرا ما صاحبا الوزراء وسامرا الخلفاء ، وقد كان أبو دلامة سميرا للمهدي والمنصور والسفاح ، وكانوا يعجبون بفكاهاته ، ويطربون بخمرياته ، ويغرونه بالسخر بل يهددونه ويتوعدونه إن لم يسخر وهم ذوو مقدرة على تنفيذ ما توعدوا وما هددوا ، وكما أنهم أصحاب أريحية في البذل والعطاء ، ومن كان منهم بخيلا مقترا كالمنصور فقد كانت رقة أبي دلامة وحسن تأتيه تسخي يده فيجود (ذكر أن أبا دلامة دخل على المهدي وعنده جماعة من أهل بيته من بني هاشم ، فقال له : أنا أعطي الله عهدا لئن لم تهج لي واحدا ممن في البيت لأقطعن لسانك ، فنظر إليه القوم ، وكلما نظر إلى واحد منهم غمزه بأن عليه رضاه ، قال أبو دلامة فعلمت أني قد وقعت ، وأنها عزمة من عزماته ، لابد منها ، فلم أر واحدا أحق بالهجاء مني ، ولا أدعى إلى السلامة من هجاء نفسي ، فقلت :

ألا أبلغ لديك أبا دلامة ... فليس من الكرام ولا كرامة

إذا لبس العمامة كان قردا ... وخنزيرا إذا نزع العمامة

جمعت دمامة وجمعت لؤما ... كذاك اللؤم تتبعه الدمامة

فإن تك قد أصبت نعيم دنيا ... فلا تفرح فقد دنت القيامة

فضحك القوم ، ولم يبق منهم أحد إلا أجازه) (١٦).

(وذكر أن المهدي خرج إلى الصيد ومعه علي بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس فسنح لهما قطيع من ظباء ، فأرسلت الكلاب ، وأجريت الخيل ، فرمى المهدي سهما

---

(١٦) الأغاني : الاصفهاني ج ٣ ص ١١٨٩ ، ١١٩٠ كتاب التجريد ، مهذب الأغاني ج ٩ ص ٣١ • ونهاية الأرب ج ٤ ص ٤٤ ، جمع الجواهر ص ١١٠ ، ١١٢

فصرع ظبيا ، ورمى على بن سليمان سهما فأصاب بعض الكلاب ، فقال أبو دلامة :

قد رمى المهدى ظبيـــا ... شك بالسهم فؤاده
وعلى بن سليمـــــا ... ن رمى كلبا فصاده
فهنيئا لهمـــا كـــــــ ... ـلّ امرئ يأكل زاده

فضحك المهدى حتى كاد يسقط عن سرجه) (١٧)

ودخل أبو دلامة يوما على المنصور ، وبين أصابعه خرقة ، فقال له : ما هذا يا أبا دلامة ؟
فقال : ولدت لى البارحة صبية ، وقد قلت فيها

فما ولدتك مريم أم عيسى ... ولم يكفلك لقمان الحكيم
ولكن قد ولدتك أم سوء ... يقوم بأمرها بعل لئيم

فضحك المنصور وقال : ما تريد ؟ قال : ملء هذه الخرقة أستعين بها على تربيتها ، فقال المنصور : املئوها دراهم ، ففتحوها فإذا هى رداء رقيق كبير فملئوه فأخذ عشرة آلاف درهم وكان المنصور بخيلا ، وإنما كان أبو دلامة يستنزله بالملح لشدة بخله ، فقد كان يتجاوز الغاية فى ذلك) (١٨)

قرأ الجاحظ – الشغوف بالقراءة والاطلاع – ما كتب أهل عصره ، وهضم ما قرأ ، ونقد ما لم يستسغه ذوقه ، وسخر مما خالف عقله ، وشذ عن مألوف مجتمعه ، واطلع على آداب سابقيه وسخرهم ، وفكاهاتهم وملحهم فكانت النواة الأولى ، والبذرة الجيدة التى غرست فى تربة الجاحظ الأدبية المعطاءة ، فنقل منها فى كتبه ما أعجبه ، وراق فى نظره ، ولاءم طبعه وفنه ، وأثبته منسوبا إلى أربابه ، كما نقل بعض السخر الذى لا يعجبه لإفراطه ومبالغته لينبه عليه ، ويشير إلى ما فيه من خروج وشذوذ ، وقد أفاد من هؤلاء الأسلاف تنمية ملكة

---

١٧) الأغانى للأصفهانى ج ٣ ص ١١٩ ، نهاية الارب ص ٤٤ ج ٤ ، مهذب الأغانى ج ٩ ص ٣١ ، جمع الجواهر للحصرى ص ١١١ ، ١١٢

١٨) جمع الجواهر ، الحصرى ، صفحة ١٠٢

السخر عنده ، ومعرفة الطرق التي انتهجوها ، فبنى عليها ، وأضاف إليها ، ونسب سخرياته إلى من شهروا بالسخر قبله ، وأضافوا لهم ، وولدها على ألسنتهم ، حتى ليعسر علينا التمييز بين ما أخذه ، وما ابتدعه ، مما جعل البذرة تنمو وتعمق ، وتزهر وتثمر لأنه أحاطها برعايته ، وتعهدها بالري والتغذية ، حتى تشبعت روحه بهذا الفن الضاحك ، وأضاف إليه من تجاربه وطبعه وافتنانه ، وما حفل به عصره ، أنغاما مطربة ، وألوانا مبهجة ، وظلالا سمت بفننا الساخر ، وجعلته على قدم المساواة مع سائر الفنون الأدبية الشهيرة إن لم نقل إنه علاها وبذها ؟

الفصل الثاني

الساخرون في مصر ومكانته بينهم

يعتبر العصر العباسي ، وخاصة في الفترة التي عاشها الجاحظ ـ عصر تقدم ومدنية ونعمة ورخاء ، فقد بلغت الحضارة أوجها ، وجاوز التقدم مداه ، وعم الترف والسرف أرجاءها ، الدولة ، وانصرف كثير من الناس إلى اللهو والمجون والخلاعة عيميون من كئوسها المترعة ويترشفون رحيقها قطرة قطرة ، في تلذذ وتنعم ، ويجتلبون من أفاويقها الحلوة ما يبهجهم ويغمرهم بالسعادة وانتشر ذلك وشاع حتى أصبح الخلفاء والوزراء وعلية القوم يتخذون لـه المجالس ويعقدون الندوات ، يسمرون فيها ويضحكون ويفحشون ، وانعكس ذلك على العامة التي من ديدنها تقليد الخاصة ومحاكاة الأغنياء وذوى السلطان والناس على دين ملوكهم ، وفي سمت أغنيائهم فسادت الدولة الموجة من الضحك والفكاهة ، والمزح والدعابة والتهكم والسخر ، وخلط الجد بالهزل ، والحزن بالضحك ، والصرامة والهيبة بالخلاعة والمجون وأصبح غاية الحياة عند خاصة هذا العصر ، المتعة والبهجة واللذة ، ولو كان ذلك في التحلل والابتعاد عن الخلق وتعاليم الدين .

وارتقت السخرية تبعا لرقي العصر ولانت ولطفت ، وتسترت ورقت ، مستمدة ذلك من لين الحياة ونعومتها و انفتاق الأذهان ، وذكائها ، فافتن فيها المفتنون وابتدعوا ، وشققوا وولدوا ، وأعدوا آلتها ، وأرهفوا ظلها ، وافتنوا في صناعتها ، فجاءت جيدة السبك محبوكة الأداء ، تجاري ما يجري في أيدي الخلفاء والأمراء من أموال يكافئون بها ، ويشجعون على إجادة صنعتها ، وتتناسب مع حصافة عقولهم ، وحضور بديهتهم ، وتمرسهم بالأدب والفن والملاحية ، فارتقت السخرية أملا في الحظوة ، وطمعا في النوال ، وأصبحت فنا خالصا يطلب ويرغب فيه .

واشتهر بها رجال أَدمجوها في الأدب ، وجعلوها فنا من فنونه ، وبابا من أبوابه قصدا إلى التسلية ورغبة في التنفيس وطمعا في الإصلاح ، منهم أساتذة الجاحظ ، وأصدقاؤه ، ومن أشهرهم :

أبو عبيدة : معمر بن المثنى الذى كان كل كلامه قولو من سخرية :

(خرج أبو عبيدة مرة إلى بلاد فارس قاصدا موسى بن عبد الرحمن الهلالى ، فلما قدم عليه قال موسى لغلمانه احترزوا من أبى عبيدة فإن كلامه كله دق ، ثم حضر الطعام فصب بعض الغلمان على ذيل ثوبه مرقا فقال له موسى : قد أصاب ثوبك مرق ، وأنا أعطيك عوضه عشرة ثياب ، فقال أبو عبيدة : لا عليك فإن مرقك لا يؤذى ، أى ما فيه دهن ، ففطن لها موسى وسكت)(1)

ومما يروى عنه من سخريات قوله : (أجريت الخيل فى الحلبة ، فجاء فرس من الخيل سابقا ، فجعل رجل من النظارة يكبر الشيخ ويكبر ويصفق ، فقال له رجل إلى جانبه : يا فتى ، ألفرس لك ؟ قال : لا ، ولكن اللجام لى)(2)

ومنهم إبراهيم بن سيار النظام ، من سخرياته :

(ذهب النظام مع أبى الهذيل العلاف لتعزية صالح بن عبد القدوس على ابن له ، فوجده حزينا كئيبا ، فقال له أبو الهذيل : يا صالح ، إنى لا أجد لقلقك سبيلا ، ولا لحزنك عذرا جميلا ، إذ الناس عندك كالنبات ، فأجاب صالح : يا أبا الهذيل ، إنما تحرقني لأنه مات ولم يقرأ كتاب الشكوك ، فقال أبو الهذيل : وما هذا الكتاب ؟ قال : كتاب وضعته من قرأه شك فيما كان كأن لم يكن ، وفيما لم يكن حتى كأنه كان ، فرد عليه إبراهيم النظام

---

1) الجاحظ : حياته وآثاره : شفيق جبرى صفحة

2) جمع الجواهر : الحصرى : صفحة ٢٢٧

وقال له : إذن فلبن أتعقلى إنه لم يمت وإن كان قد مات ، وعلى أنه قبل الكتاب وإن لم يقرأه[؟]

ومنهم ثمامة بن الأشرس ، احد شيوخ الجاحظ الذى أفاد منه كثيرا بالنقل من أدبـــه والانتفاع بأسلوبه ومعانيه كما كان أستاذه فى المجون والفكاهة والنادرة اللاذعة[٤] فقد روى أن الرشيد سأل (يوما جلساءه عن أسوأ الناس حالا ، فقال كل واحد شيئا حتى جاء دور ثمامة) فقال : أسوأ الناس حالا ، عاقل يجرى عليه حكم جاهل ، قال ثمامة : فتبينت الغضب فى وجه الرشيد ـ لأنه ظن أنه يعنيه وكان قد حبسه ـ فقلت : يا امير المؤمنين ، ما أحسبنى وقعت بحيث أردت وإنما عنيت حادثة وهى : أن سلاما الأبرش ـ وكان سجانا ـ وأنا فى السجن كان يقرأ فى المصحف "ويل يومئذ للمكذبين" ـ بفتح الذال ـ فقلت له المكذبون هم الرسل ! والمكذبون ـ بالكسر ـ هم الكفار ، فاقرأ "ويل يومئذ للمكذبين" بالكسر ، فقال سلام : قيل لى من قبل انك زنديق . ولم أقبل ، ثم ضيق على أشد الضيــق فجعل الرشيد يضحك)[٥]

ومنهم أبو الهذيل العلاف ومن سخره ما يروى أن المأمون انحرف عنه (فدخل عليه يوما وقال : يا أمير المؤمنين إنك ظلمتنى وظلمت فلانا الكاتب ، فقال له : ويلك ! وكيف ؟ ، قال رفعته فوق قدره ، ووضعتنى دون قدرى ، إلا أنك له فى ذلك أشد ظلما ، قال : وكيف ؟ قال : لأنك أقمته مقام هزء وأقمتنى مقام رحمه ، فضحك المأمون ، وقال له قاتلك الله)[٦] (وقيل عنه أنه خاطب بعض الأمراء فقال له : كذبت ، فقال : وأيما الأمير إن وجه الكذاب لايقابلك ـ يعنى الأمير بذلك ـ لأن وجه الإنسان لا يقابله)[٦]

---

٣) ابن زيدون ورسائله : كامل كيلانى ، صفحة ، ؟

٤) ضحى الاسلام ، أحمد أمين ، الجزء الثالث ، صفحة ١٥١

٥) المرجع المذكور صفحة ١٥٢

٦) سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون صفحة ١٢٤

ومن هؤلاء الأساتيذ : على بن سليمان الأخفش، ومن سخره :

(قال رجل اسمه عمر لعلى بن سليمان الأخفش: علمني مسألة من النحو؟ قال : تعلم أن اسمك لا ينصرف . فأتاه يوما وهو في شغل . فقال : من بالباب؟ قال : عمر . قال عمر اليوم ينصرف . قال : أوليس قد زعمت أنه لا ينصرف؟ قال : ذاك إذا كان معرفة ، وهو الآن نكرة)(٧)

هؤلاء أساتذة الجاحظ الذين جموا حياته ، وساروا به نحو البراعة في السخر والتفنن فيه حتى بذهم وارتقى بسخره سلم هذا الفن الضاحك وقد ذكرت الآن بعض سخرياتهم كما وعدت في الفصل الثاني من الباب الثاني وأرجو أن أكون قد بررت .

ومن أعلام السخر في عصر الجاحظ أبو العيناء .

(وهو أبو عبدالله محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر بن سليمان الهاشمي بالولاء ، مولى أبي جعفر المنصور المعروف بأبي العيناء ، صاحب النوادر والشعر والأدب . أصله من اليمامة ومولده بالأهواز ومنشؤه بالبصرة وبها طلب الحديث وكسب الأدب وسمع من أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد الأنصاري والعتبي)(٨) ومن سخرياته أن رجلا زحمه (بالجسر على حمار وضرب بيديه على أذني الحمار ، وقال : يا فتى قل للحمار الذي فوقك يقول : الطريق)(٩) والسخرية هنا ناشئة من الوضع المقلوب بجعل الحمار مؤدبا معلما للرجل ، والرجل تلميذا بليد الفكر .

ووقف به رجل من العامة (فأحس به فقال : من هذا؟ قال : رجل من بني آدم . قال مرحبا بك ، أطال الله بقاءك وبقيت في الدنيا ، ما ظننت هذا النسل إلا قد انقطع)(١٠)

(وقف أبو العيناء على باب صاعد بن مخلد فقيل له : إنه يصلى . فانصرف ، ثم عاوده

---

٧) جمع الجواهر : الحصرى : صفحة ١٨١ .

٨) دائرة معارف وجدى مجلد ٦ ص٧٩٧ .

٩) زهر الآداب : الحصرى : الجزء الأول : صفحة ٢٩٣ ، جمع الجواهر ص٢٨٥

١٠) زهر الآداب ج ١ ص٢٩٦ ، جمع الجواهر ص٢٨٤ ، ٢٨٥

فقيل له : (إنه يصلى ، فقال : ولكل جديد لذة)[11] (وبلغ أبا العيناء أن المتوكل قال : لولا أن أبا العيناء ضرير لنا دمناه ، فقال : إن أعفاني أمير المؤمنين من رؤية الأهلة وقراءة نقش الفصوص فأنا أصلح للمنادمة)[12] وهذا تولع منه بلسانه واقتدار على الكلام وإلا فقد تجافى من ذلك المقام . ولميله إلى السخر كان إخوانه يسخرون منه ويطنزون ، فقد (ولد لأبي العيناء مولود فأتاه ابن مكرم مهنئا ، فوضع بين يدي أبي العيناء حجرا وانصرف فجسه أبو العيناء فوجده حجرا ، فقال : من وضع هذا ؟ قالوا تركه ابن مكرم لما قدم ، فقال لعنه الله ، إنما عرض بقول النبي صلى الله عليه وسلم : الولد للفراش وللعاهر الحجر)[13]

ويقول أبو العيناء : (أخجلني ابن صغير لعبد الرحمن بن خاقان ، قلت له : وددت أن لى ابنا مثلك . فقال : هذا بيدك ، قلت : كيف ذلك ؟ قال : تحمل أبي على امرأتك فتلد لك ابنا مثلى)[13] . وليس بعجيب أن ينشأ بعض أبنائه على سخره والولد سر أبيه كما يقال فقد (قال أبو العيناء لابنه وهو مريض : أى شئ تشتهى ؟ قال : اليتم)[15] وقد كان أبو العيناء يعرف للجاحظ قدره وفوقه وأستاذيته أو ليس هو القائل حين سئل (ليت شعرى أى شئ كان الجاحظ يحسن ؟ فقال : ليت شعرى وأى شئ كان الجاحظ لا يحسن ؟)[16]

ومن هؤلاء الأعلام : الجماز (أبو عبد الله محمد بن عمرو بن حماد بن عطاء بن ياسر ...

---

١١) جمع الجواهر : الحصرى ، صفحة ١٥٧

١٢) المرجع السابق صفحة ١٥٩ ، وفيات الاعيان ج ٣ ص ٤٦٧ .

١٣) جمع الجواهر ـ الحصرى ، صفحة ٧٦ .

١٤) معجم الأدباء ج ١٨ ص ٢٨٧

١٥) جمع الجواهر صفحة ٢٨١

١٦) جمع الجواهر صفحة ٢٠٤

وسلم الخاسرعة ، وكان الجماز صاحبًا لأبي نواس حتى مات)[17] ومن لاذع سخره ما يروى عنه ، (قال بعض جلساء المتوكل : كنا نكثر عند المتوكل ذكر الجماز حتى اشتاقه ، فكتب في حمله إليه ، فلما دخل أفحم ، فقال له المتوكل تكلم فإني أريد أن ستبرئك فقال بحيضة أو بحيضتين، ياأمير المؤمنين فضحك المتوكل ، وأمر له بعشرة آلاف درهم)[18] فقد رد الجماز السخرية بسخرية أنكى منها إذ جعل الفتح من فصيلة القرود والكلاب الخارجين على الطاعة فهو قرد شرس ، وكلب عقور، (وكان لا يدخل بيته أكثر من ثلاثة لضيقة ، فدعا ثلاثة فجاء ستة ، وقرعوا الباب ، ووقفوا على رجل رجل ، فمد أرجلهم من خلف الباب ، فلما حصلوا عنده قال : اخرجوا عني ، فإنما دعوت ناسا ولم أدع كراكي)[19] سخروا منه فسخر منهم وهكذا سخرهم وأخرجهم من جنس الآدميين إلى سرب الكراكي . (قال الرشيد للجماز كيف مائدة محمد بن يحيى البرمكي ؟ فقال شبر في شبر وصحفه من قشر الخشخاش وبين الرغيف والرغيف مضرب كرة ، وبين اللون واللون فترة نبي . قال الرشيد : فمن يحضرها ؟ قال : الكرام الكاتبون ، فضحك المهدي وقال : لحاك الله من رجل)[20]

وشعر بشار بن برد ، روى أنه (كان ينشد المهدي ويزيد بن منصور عنده ، فلما فرغ من إنشاده أقبل عليه يزيد — وكانت فيه غفلة — وقال له : ياشيخ ، ما صناعتك ؟ فقال : أثقب اللؤلؤ ، فضحك المهدي ، وقال لبشار أتتنادر على خالي ؟ قال : وما أصنع به ، يرى شيخا أعمى ينشد الخليفة شعرا ويسأله عن صناعته)[21] فجاءت سخرية بشار قارعة فارعة حين اختار صناعة لا يقدر عليها العميان فقال : أثقب اللؤلؤ هزوا إبخال المهدي المغفل .

---

17) المرجع المذكور صفحة ١١٥

18) زهر الآداب ج ١ ص ١٧٢ ، جمع الجواهر ، الحصرى ص ١١٥

19) زهر الآداب ج ص ١٧٢ ، جمع الجواهر للحصرى ص ١١٥

20) الإمتاع والمؤانسة ج ٢ ص ٥٨ .

21) نكت الهميان في نكت العميان ، صلاح الدين الصفدى ، تحقيق أحمد زكي باشا ص

ومر على قوم يحملون جنازة وهم يسرعون المشي بها ، فقال : مالهم مسرعين ؟ أتراهم سرقوه فهم يخافون أن يلحقوا فيأخذ منهم (وقيل لبشار : إن فلانا يزعم أنه لا يبالي بلقاء واحد أو ألف . فقال : صدق ، لأنه يفر من الواحد كما يفر من الألف)(٢٢).

ومن الشعراء الساخرين في عصره غير بشار بن برد أبو العتاهية ، قال يسخر من عبد الله بن معن بن زائدة ، متلطفا في السخرية ، محتالا لها ، مدعيا أنه أنثى فيه الطراوة والليونة والقعود عن جلائل الأمور :

فصغ ما كنت حليت بـــه سيفك خلخالا

وما تصنع بالسيف إذا لم تــك قتـــالا

أما أبو نواس فله في السخر تفنن وإبداع ، وأنماط وألوان ، وغمز وهمز ، لا يراعي دينا ، ولا يلحظ حشمة حتى مع أشياخه وأساتذته الذين تلقى عنهم العلم ، وأخذ منهم الأدب ، فقد لحظ أبو عبيدة معمر بن المثنى وهو يقرأ درسه في المسجد كتابة على الأسطوانة ، فنظر إليها فإذا هي :

صلى الإله على لوط وشيعتـــه أبا عبيدة قل بالله آمينـــا

فأنت عندي بلا شك بقيتهــــم منذ احتلمت وقد جاوزت سبعينا

فقال أبو عبيدة : هذا عمل الخبيث يعني أبا نواس(٢٣)

ويقول ساخرا من بخل إسماعيل بن نيبخت :

خبز إسماعيل كالوشــــي إذا ما شق يرفـــا

وقال : وما خبزه إلا كليب بن وائل ليالي يحمي عزه منبت البقل (٢٤).

(ومر عثمان بن حفص الثقفي بأبي نواس وقد خرج من علة ، وهو مصفر الوجه ، وكان عثمان أقبح الناس وجها ، فقال له عثمان : مالي أراك مصفرا ؟ فقال أبو نواس : رأيتك فذكرت

---

٢٢) جمع الجواهر : الحصري : صفحة ٢٤١

٢٣) أبو نواس حياته وشعره : عبد الحميد المسلوت رسالة أستاذية ص ٣٨

٢٤) البخلاء : الجاحظ : ضبط العوامري والجارم الجزء الأول صفحة ١٢١، ١٢٢

ذنوبي . قال : وما ذكر ذنوبك عند رؤيتي ؟ فقال : خفت أن يحاقبني الله فيمسخني قردا مثلك) [٢٥] . (أراد أن يكتب أبو نواس إلى إخوان له دعاهم ، فلم يجد قرطاسا يكتب فيه فكتب في رأس غلام له أصلع ما أراده ثم قال فيه : فإذا قرأتم كتابي فأحرقوا القرطاس . فضحكوا منه ، وتركوا للغلام جلدة رأسه) [٢٦] .

وللبحتري سخر معجب ، ووصف ملجم ، وتصوير يمسخ ويشوه ، يقول ساخرا من أنف الخثعمي

رأيت الخثعمي يقل أنفا ... يضيق بعرضه البلد الفضاء

سما صعدا فقصر كل سام ... لهيبته وغص به الهواء

هو الجبل الذي لولا ذراه ... إذن وقعت على الأرض السماء (٢٧)

وقال ساخرا بمن يخضعون أشعارهم للمنطق فيجيء غليظا جافا :

كلفتمونا حدود منطقكم ... والشعر يغني عن صدقه كذبه

لم يكن ذو القروح يلهج بالمنطق ما نوعه وما سببه

والشعر لمح تكفي إشارته ... وليس بالهذر طولت خطبه (٢٨)

أما ابن الرومي فله في هذا الفن القدح المعلى ، والنصيب الأوفى ، والفن الأرقى وقد أفاض في ذلك وأجاد ، وأتى بالعجب العجاب وأكثر من الصور الهزلية الرائعة (الكاريكاتور)

قال يسخر بصلعة أبي حفص الوراق :

ياصلعة لأبي حفص مرددة ... كأن ساحتها مرآة فولاذ

ترن تحت الأكف الواقعات بها ... حتى ترن بها أكناف بغداد (٢٩)

---

٢٥) جمع الجواهر ، الحصري ، صفحة ١٦٥

٢٦) المرجع السابق صفحة ٢٤٩

٢٧) ديوان البحتري صفحة ٨ الجزء الأول

٢٨) المرجع المذكور صفحة ٢٨ الجزء الأول

٢٩) ديوان ابن الرومي ، الجزء الثالث ، صفحة ٤٣٨ .

ويسخر من كبر أنف أحدهم قائلا :

حملت أنفا يراه الناس كلهم ... من رأس ميل عيانا لا بمقياس

لو شئت كسبا به صادفت مكتسبا ... أو انتصارا مضى كالسيف والفاس (٣٠)

ويقول في بخيل اسمه عيسى :

يقتر عيسى على نفســـه ... وليس بباق ولا خالد

فلو يستطيع لتقتيره ... تنفس من منخر واحد (٣١)

ويسخر من لحية أحدهم قائلا :

علق الله في عذاريك مخلا ... ة ولكنها بغير شعير (٣٢)

ويقول متهكما بهيئة أحدب :

قصرت أخادعه وغاب قذاله ... فكأنه متربص أن يصفعا

وكأنما صفعت قفاه مـــرة ... وأحس ثانية لها فتجمعا (٣٣)

ويقول في لحية لم يعجب بها لفرط طولها ولم تستنزه نفسه لهيئة صاحبها :

لو قابل الريح بها مـــرة ... لم ينبعث من خطوه إصبعا

أو غاص في البحر بها غوصة ... صاد بها حيتانه أجمعا (٣٤)

ويقول في بعض من يسخر منهم :

بعض أضراسه يكاسر بعضـا ... فهي مسنونة بغير مسنون

لا دءوب إلا دءوب رحاهـا ... أو دءوب الرحى التي للسنون

ما ظننت الإنسان يجتر حتى ... كنت ذاك الإنسان عين اليقين (٣٥)

---

٣٠) ديوان ابن الرومي الجزء الثالث صفحة ٢٥٠

٣١) ديوان ابن الرومي الجزء الثالث صفحه ٢٧٥

٣٢) المرجع المذكور صفحة ٢٦٨

٣٣) ديوان ابن الرومي ج ١ ص ١٤٦ تحقيق كامل كيلاني

٣٤) الفن ومذاهبه في الشعر العربي صفحة ٢١٤ ، ديوان ابن الرومي ص ٤٥٦

٣٥) الفن ومذاهبه في الشعر العربي صفحة ٢١٤ ، ديوان ابن الرومي ص ٢٧٨

ويقول ساخرا من عمرو بن عيسى :

مشقنا قفا عمرو وإن كان وجهه ... يذكرنا قبح الخيانة والغدر

فتى وجهه كالبحر لا وصل بعده ... وأما قفاه فهو وصل بلا هجر (٣٦)

ويسخر ممن يدعى البطولة والجرأة فى القتال فيقول :

أطلق الجرذان بالليل وصح هل من مبارز (٣٧)

ويقول فى أبى حفص وعثنونه :

ان أبا حفص وعثنونه ... كلاهما أصبح لى ناصبا

قد أغريا بى بهجوانى معا ... وحدى وكان الأكثر القاليا

إن كان كفئوا لى فى زعمه ... فليعتزل لحيته جانبا (٣٨)

أولئك أعلام السخر فى عصر الجاحظ ممن كانت لهم فيه اليد الطولى بالتفنن والإبداع ، حتى رفعهم إبداعهم وإتقانهم إلى صحبة الخلفاء والوزراء ، وأوصلهم إلى اطراح الحشمة عندهم ، وغمزهم فى بعض الأحيان ، هذا إلى أعطيات جزيلة وخلع ثمينة ومشاهرات رتيبة ، وضياع واسعة ، مما جعلهم لايقلون فى ثرائهم وجاههم منزلتهم من الوزراء والأمراء ،

وكانت مؤلفاتهم تمج بالسخر ، وكتبهم تموج بألوان الفكاهة والطنز مما ابتكرته مخيلتهم وخونته ريشتهم ولكن أين كان الجاحظ من هؤلاء ؟ وما منزلته بينهم ، وأين كانت مكانة سخره من مكانة سخرهم ؟ ؟

وإذا كان هؤلاء قد تفكهوا وسخروا ، وكثر سخرهم وانتشر فى أحاديثهم ، فإن كتب الجاحظ ومصنفاته — وما أكثرها — لا تخلو صفحة منها من سخره وأحاديثه وكلماته ومجالسه تقطر هزلا وتهكما ، وتسيل فكاهة ومرحا ، حتى ليغرى غيره بالسخر منه ، ويبدأ هو بالسخر من غيره ، وإن لم تكن له به صلة ولا رابطة ، ويسخر من نفسه أحيانا إن لم يجد من يصب عليه سخره ، فالسخرية فى كل قطرة من دمه ، ومع كل لفظة من فمه ، وفى كل حركة من وجهه أويده ، يحمل كلامه السخر وإن لم يهدف إليه ، لأنه طبع عليه ، وتشربته نفسه ، وصار

---

٣٦) ديوان ابن الرومى صفحة ٥٤٠

٣٧) حصاد الهشيم : المازنى ص٢٦٨ ، ديوان ابن الرومى ج ص

٣٨) ديوان ابن الرومى الجزء الثانى صفحة ٣١١

فيها كالغريزة والملكة ، وشهر بذلك بين لداته وأقرانه ، مما يجعلهم يتأولون كلامه ، وينحون به ناحية السخر ، ويحملونه الجمة اللاذعة الضاحكة ، ويحملونه ما يرمز إليه من بعد بعيد وإن لم يتعمده .

أما عناصر فكاهاتهم ، وأدوات سخرهم ، وطريقة إعدادها وطهوها وإنضاجها ، فالجاحظ سيد الطهاة ، يختار العناصر المناسبة ، والأدوات الجيدة ، ويأخذ من كل عنصر ما يلائم الموقف ، ثم يلاحظ التناسب بين مقاديرها وأجزائها ، والدقة فى خلطها ومزجها ، ويضع عليها التوابل والأبازير التى تكسبها اللذع والحرارة ، ثم يطهوها وينضجها ، فإذا فيها النكهة الجاحظية العجيبة ، والروح العثمانية المعجبة ، التى لا يجيدها غيره ، ولا يتقنها سواه ، حتى لتنسبها إليه وإن لم تعرف أنها له ، لأن روحه تطل عليك منها ، ورائحته تضوع من تضاعيفها ، لامبالغة فى سخره ولا إسفاف ولا تعسف ، ألفاظ منتقاه وعبارات مختارة ، ومعان عميقة مبتكرة ، بعيدة عن السوقية والتكلف ، ومزج عجيب ، وسبك جيد وغوص فى أعماق النفوس ومعرفة طواياها وخبيئاتها ، وخبرة بتقدير كميات السخر ونوعياته حسب الداء وما يتطلبه العلاج ، ودقة عجيبة فى منح الألفاظ أنغاما راقصة ، ومعانى قارصة تعبث بالسخرة وتزدريه .

أما أنفاسهم فكانت قصيرة ، لا تتجاوز الحديث السريع ، والقصة المقتضبة ، التى عادها غالبا — الرواية والحكاية والسرد ، سرعان ما تنبهر تلك الأنفاس ، وتخمد فى الصدور .. لم يعرفوا الانفتاح الذى وجد فى كتاب البخلاء بعمقه وغوصه ، وتحليله النفوس والشخصيات والحركات والخلجات ، مع أنه مقصور على صفة واحدة من البخل .. ولم يعرفوا الانفساح فيمتد نفسهم ليصنعوا مثل رسالة التربيع والتدوير التى موضوع السخر فيها شخص واحد هو أحمد بن عبد الوهاب .. إنهم لا يطيقون هذا الاسترسال ، ولا يقدرون على تلك الإفاضة فى جودة وعذوبة كإمام هذا الفن ورائده ابن بحر إذ ليس عندهم من العلم ما عنده ، ولا من الثقافة ما يملك .

لم يقصد معاصروه بسخرهم غير المرح والفكاهة وتسلية الندماء والجلساء والضحك والإضحاك ... وذلك هدف واحد من عدة أهداف قصدها الجاحظ بسخره ، الذى جعله وسلة للتنبيه والتحذير ، وإقامة المعوج ، وتماسك الجماعة واتباع التقاليد ، والتأديب والإصلاح ، وشفاء ما فى الصدور من حقد وموجدة .. إلى غير هذه الأغراض التى أبنتها فى الباب الأول من الرسالة .

ويحق لى بعد ذلك أن أقول : إن الجاحظ فاق معاصريه فى السخر ، على كثرة عددهم وتعدد اتجاهاتهم ، فاقهم فى الكم والكيف والهدف ، وطول النفس ، وحلاوة المذاق ، وتقليب الصورة ، والعبث بها من كل جوانبها ، حتى يأتى على ما فيها ، فكانته منهم فى المنزلة العليا ، والسلم الأسنى ، وإذا قارناه بسابقيه أو بمعاصريه أو بمن أتى بعده ، نجده الأستاذ والقائد ، وحسبنا فى ذلك بقاء مجده ، وخلود ذكره ، وانتشار سخره ، وأنه لم يوجد على امتداد السنين ، وتوالى الحقب والقرون من جاءنا بمثل البخلاء ، أو بصنو رسالته التربيع والتدوير .

الفصل الثالث

إجمال لأثره في الأدب الساخر بعده

عرفنا كيف كانت السخرية قبل عصر الجاحظ ، وكيف صارت في عصره ، وكيف لقف هو هذا الفن ، فأبدع فيه وأجاد ، وساد وقاد ، وأقامه على قدمين ، ثابت الدعائم ، وطيد الأركان، فلونه بألوان بيئته ، وشكله بأشكال مجتمعه ، وسجل فيه من أسماء مشاهير الرجال ، وعظماء العلماء ما خلدهم ، وعلم عن طريق المزح بالشاذ ، والسخر من القبيح ، وأضحك قارئه لتنشط نفسه ، وينتعش ذهنه ، فمزج الجد بالهزل ، وثقل الدرس بخفة الدعابة ، وتلك كانت طريقة الرجل ، وهذه كانت خفة روحه ، يأبى إلا أن يحي مع قارئه ويمزح ، ولو كان في أشد حالات ألمه ، ومرضه بالنقرس والفالج ، فقد ألف كتابه البخلاء وهو على تلك الحالة وكتب رسالة التربيع والتدوير وهو يئن تحت وطأة المرض ، وثقل السنين ، وهي رسالة طويلة جامعة لفنون التهكم ، وضروب السخرية ، وذلك دليل خفة روحه ، ومرح طبعه .

وآن لنا أن نعرف حالة هذا اللون الأدبي بعد الجاحظ ، وكيف مضى فيه من أتوا بعده ، أجددوا وابتكروا ؟ أم احتذوا وقلدوا ؟ أم وقفوا وجمدوا ؟ أم نكصوا وانتكسوا ؟؟

إن رجالات الأدب قد استهوى كثيرا منهم هذا الفن ، فمضى فيه ، وعرف له قيمته وأثره فجعله من موضوعات أدبه ، ولا يعنيني – كباحث في فن السخرية – من أرسل النزعة العابرة ، والملحة السريعة النادرة والسخرية القليلة الطائشة ، وإنما يعنيني هؤلاء الذين جعلوا السخر فنهم ووكدهم ، وكتبوا فيه فأطالوا ، وضمنوه رسائلهم وكتبهم ، ويعنيني بخاصة من ألفوا فيه رسائل كان هو موضوعها ، وألفها وياؤها ، ومن أشهر هؤلاء ،

١– أبو حيان التوحيدي ، في رسالته التي يعرض فيها بالصاحب بن عباد ، كما أن له كتاب "مثالب الوزيرين" يسخر فيه من الصاحب وابن العميد .

٢– أبو بكر الخوارزمي ، في رسالته إلى أبي الحسن البديهي الشاعر .

٣ـ ابن زيدون : في الرسالة الهزلية التي كتبها على لسان ولادة بنت الخليفة المستكفي وسخر فيها من الوزير أبي عامر بن عبدوس.

٤ـ ابن العميد : في رسالته إلى أبي عبد الله الطبري ، وفي رسالته إلى أستاذه محمد بن علي بن سعيد المعروف بسكة أو ابن سكة .

٥ـ محمد بن أحمد "أبو المطهر الأزدي" في كتابه "حكاية أبي القاسم البغدادي".

وفي العصر الحديث برز كاتب مغلق ، برع في ذلك الفن الضاحك هو :

٦ـ الشيخ عبد العزيز البشري :

أليس هذا مساواة؟

وهؤلاء جميعا قد نهلوا من معين الجاحظ ، وارتووا من فيض أدبه وتشرف كثير منهم بأن ينسب إليه ويشتهر به ويسمى باسمه "الجاحظ" وكل منهم قد اعترف بأخذه منه والاعتراف من معينه وذكر أستاذيته له ، وتفوقه عليه وسأتناول في إيجاز سخريات الثلاثة الأول :

١ـ التوحيدي ٢ـ الخوارزمي ٣ـ ابن زيدون .

ثم أعرض لجاحظ العصر الحديث الشيخ عبد العزيز البشري . وسأعرض لبعض نصوص من أدبهم الساخر قاصدًا إلى تبيان :

١ـ أنهم ساخرون يجيدون فن السخر.

٢ـ أنهم أخذوا عن أستاذهم الجاحظ أخذا كثيرا بينا .

٣ـ أنهم لم يفوقوه ، ولم يصلوا إلى مستواه .

٤ـ أنهم وإن أتوا بعده ، ونهلوا من كتبه ، وتأثروا به ، وممن تأثر به ، أو سبقه أو لحقه فقد قصروا عنه ، ولم يبلغوا بسخريتهم لاذع سخرياته ، وتفننه فيها ، واستيفائه أبوابها بل إن سخرياتهم تتجه ناحية السب الصريح والهجاء والإقذاع ، في كثير من الحالات كما سنتبين الآن إن شاء الله .

أبو حيان التوحيدى

هو على بن محمد بن العباس التوحيدى[١] ولد فى سنة ٣٠٢ أو ٣١٠ وابتدأ عمله بحرفه الوراقة ، وقرأ كتب الجاحظ ، وأكثر من قراءتها والإعجاب بها ، واتبع طريقة الجاحظ ونهج نهجه حتى سمى (الجاحظ الثانى) وقد بلغ من إعجابه به أن ألف رسالة فى تقريظه سماها (تقريظ الجاحظ) يقول فيها : (والذى أقول وأعتقده وآخذ به ، وأستهم عليه ، أنى لم أجد فى جميع من تقدم وتأخر ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تقريظهم ومدحهم ونشر فضائلهم فى أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم ورسائلهم مدى الدنيا إلى أن يأذن الله بزوالها لما بلغوا آخر ما يستحق كل واحد منهم ، أحدهم هذا الشيخ الذى أنشأنا له هذه الرسالة وبسببه جشمنا كل هذه الكلفة ، أعنى ، أبا عثمان عمرو بن بحر)[٢].

وقد اتصل التوحيدى بالصاحب بن عباد حوالى سنة ٣٦٧ أملا أن يجد عنده من الإكرام والتبجيل مالم يجده عند ابن العميد من قبل ، فخاب فأله ، وطاش سهمه ولم يرزق منه ، فرجع عنه ذا تألم[٣] ... وقد أهمله ابن عباد غيرةً منه أو حسداً له أو لجرأة أبى حيان ، أو لغير ذلك من الأسباب[٤]. فكتب كتابه "مثالب الوزيرين" نكاية بهما ، وسخريا منهما .

وللتوحيدى سخريات نبعت من بؤسه وشقائه ، وتنكر الحياة له ، وقد تأثر فيها بأستاذه الجاحظ إلى حد كبير ، وله نوادر عن البخلاء والطفيليين مشبعة بالمزح والسخرية ، وقد ذكرنا أن الجاحظ أتى على الكثير من قصصهم ونوادرهم ضمن سخرياته .

(سئل أبو عمارة قاضى الكوفة عن بنيه ، أيهم أثقل ؟ قال : ما فيهم بعد الكبير أثقل

١) نسبة إلى نوع من التمر يقال له التوحيد كان أبوه يبيعه بالعراق ، أو نسبة إلى الاعتزال وقد كانوا يسمون المعتزلة : أهل العدل والتوحيد .

٢) الإمتاع والمؤانسة : التوحيدى : الجزء الأول صفحة ٥

٣) معجم الأدباء : ياقوت : الجزء الخامس عشر : صفحة ١٨٦ ، ١٨٧ .

٤) أبو حيان التوحيدى : د . الحوفى صفحة ٧٧ وما بعدها

من الصغير إلا الأوسط)(٥). ومن الردود المفحمة (زاحم شاب شيخا فى الطريق ثم سخر منه هاجنا قائلا : بكم هذا القوس؟ يحيبه بالانحناء فقال الشيخ : يا بنى إن طال عمرك فإنك مشتريه بلا ثمن)(٦) وقوله : (سأل شيخ أعرابى أحد الناس: ما اسمك ؟ قال : مانع وقال للآخر : ما اسمك ؟ قال محرز ، وقال لآخر : ما اسمك؟ قال : حافظ ، فقال الأعرابى قبحكم الله : ما أظن الأقفال إلا من أسمائكم)(٧) ومن سخرياته بالصاحب ابن عباد أنه لما وصل إليه (قال له : أبو من ؟ قال : أبو حيان ، فسأله : أبو حيان ينصرف أولا ينصرف ؟ فأجابه إن قبله مولانا لا ينصرف)(٨). فسخر منه على طريقة أسلوب الحكيم حيث أجاب بغير ما ينتظره السائل ويتوقعه، فيتغيظ ويحنق ، ولكنه يكبت شعوره ولا يستطيع إبرازه ، إذ ليس فى ظاهر كلام أبى حيان ما يؤاخذ عليه .

ومنها : (طلع ابن عباد على يوما فى داره ، وأنا قاعد فى كسر إيوان أكتب شيئا قد كان كادنى به ، فلما أبصرته قمت قائما ، فصاح بحلق مشقوق : اقعد ، فالوراقون أخس من أن يقوموا لنا ، فهممت بكلام ، فقال لى الزعفرانى الشاعر : اسكت ، فالرجل رقيع فغلب على الضحك ، واستحال الغيظ تعجبا من خفته وسخفه ، لأنه قد قال هذا ولوى شدقه ، وشنج أنفه ، وأمال عنقه ، واعترض فى انتصابه ، وانتصب فى اعتراضه ، وخرج فى تفكك مجنون قد أفلت من قد يرجنون)(٩).

فقد رسمه التوحيدى فى صورة رقيع متغطرس ، فمسخ وجهه ، وعبث بحركاته وتفاصيل جسمه ، ثم يقول بعد ذلك إمعانا فى السخرية ، وتقبيحا للصورة (والوصف لا يأتى على

---

٥) الإمتاع والمؤانسة : الجزء الثانى صفحة ٥٦

٦) البصائر والذخائر : صفحة ٥٦

٧) الإمتاع والمؤانسة : التوحيدى الجزء الثانى صفحة ٤٧

٨) معجم الأدباء : الجزء الخامس عشر صفحة ٢٧ .

٩) معجم الأدباء : ياقوت : الجزء الخامس عشر صفحة ٢٦ .

كه هذه الحال ، لأن حقائقهما لا تدرك إلا باللحظ ، ولا يؤتى عليهما باللفظ) (٩)

وهذه الأوصاف قريبة من أوصاف الجاحظ لابن عبد الوهاب ، وهذا التعقيب لا فرق بينه وبين تعقيب الجاحظ في كتابه البخلاء مستدلا على أن التصوير بالكلمة لا يكون له تأثير الحقيقة والمشاهدة والإدراك بأكثر من حساسة ولا شك أن أباحيان قد أخذ فكرته تلك من أستاذه الجاحظ حين قال : (وهذا وشبهه إنما يطيب جدا إذا رأيت الحكاية بعينك ، لأن الكتاب لا يصور لك كل شيء ولا يأتي لك على كنهه ، وعلى حدوده وحقائقه) (١٠).

ويصور أبو حيان الصاحب بن عباد تصويرا كاريكاتوريا ساخرا يمسخه فيه ، ويشوه جسمه وتفكيره ، ويرسمه في صورة هزلية تبعث على الضحك ، وتدعو إلى التهكم في رسالته التي عملها على غرار رسالة أستاذه الجاحظ (التربيع والتدوير) فيقول متهكما :

(كان الصاحب ينشد وهو يلوى رقبته ، وتجحظ حدقته ، ويتنزى أطراف منكبيه ، ويتسايل ويتمايل ، كأنه الذى يتخبطه الشيطان من المس) (١١).

ويتهكم بغفلته وانخداعه ، مع ادعائه الزكانة والفطنة ، واعتقاده في نفسه الألمعية ، سالكا طريقة الجاحظ في إضافة صفات النقص حينا ، ثم وصفه ببلوغ الكمال ، وتجاوز حدود المحال حينا آخر ، سخرية وهزءا فيقول : (وقد قتل خلقا ، وأهلك ناسا ، ونفى أمة نخوة وتمنتا ، وتكبرا وزهوا ، وهو مع هذا يخدعه الصبى ، ويخلبه الغبى ، لأن المدخل عليه واسع ، والمأتى إليه سهل ، وذلك بأن يقال : مولانا يتقدم بأن أعار شيئا من كلامه ، ورسائل منثوره ومنظومه ، فما جبت الأرض من فرغانة ومصر وتفليس إلا لأستفيد كلامه وأفصح به ، وأتعلم البلاغة منه ، لكأنما رسائل مولانا سور القرآن ، وفقرها آيات فرقان ، .

---

٩) معجم الأدباء ، ياقوت ، الجزء الخامس عشر صفحة ٢٦

١٠) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجرى صفحة ٥٨

١١) معجم الأدباء ، ياقوت ، الجزء السادس صفحة ١٩٧

فيلين عند ذلك ويذوب ويلهى عن كل مهم له ، ويتوكل فريضة عليه) (١٢)

ثم يفضح ادعاءه ، ويهتك ستره ، ويبين للناس مكره وخدعه فيقول : (ثم يعمل في أوقات العيد شعرا ، ويدفعه إلى أبى عيسى بن المنجم ، ويقول : قد نحلتك هذه القصيدة ، امدحني بها في جملة الشعراء ، وكن الثالث من المنشدين ، فيفعل أبو عيسى ، وهو بغدادى محكك ، قد شاخ على الخدائع وتحنك ، وينشد ، فيقول عند سماعه شعره فى نفسه ، ووصفه بلسانه ، ومدحه وتحبيره أعده يا أبا عيسى فإنك والله مجيد ، زه يا أبا عيسى فقد صفا والله ذهنك) (١٣)

وتبع التوحيدى طريقة الجاحظ فى مقايسته المسخرة بالعظماء ، وجعله يفوقهم علما وشعرا وفقها وحكما ، وفى سائر العلوم والفنون ، يقول :(قد استدرك مولانا على الخليل فى العروض ، وعلى أبى عمرو بن العلاء فى اللغة ، وعلى أبى يوسف فى القضاء ، وعلى الإسكافى فى الموازنة ، وعلى ابن نوبخت فى الآراء والديانات وعلى ابن مجاهد فى القراءات .... فتراه بعد هذا الهذر وأشباهه يتلوى ويتسم ، ويطير فرحا وينقسم ، ويقول : ولا كذى ثمرة السبق لهم ، وقصدنا أن نلحقهم ، وقفوا أثرهم ، وهو فى ذلك يتشاحن ويتحايك ، ويلوى شدقه ، ويبتلع ريقه ، ويرد كالآخذ ، ويأخذ كالممتنع ... ويتفاتك ويتمايل ، ويحاكى الموسات ، ويخرج فى أصحاب الحاجات ، وهو مع هذا يظن أنه خاف على نقاد الأخلاق وجهابذة الإخوان) (١٤).

ومن هذا يتضح إلى أى مدى كان تأثر التوحيدى فى هذه الرسالة بفكرة أستاذه الجاحظ ومنهجه وطرقه فى السخرية وأساليبه التى انتشرت فى رسائله ولا غرابة فى

---

١٢) الإمتاع والمؤانسة ، التوحيدى ، ج ١ ص ٥٤ ، معجم الأدباء ج ١٥ ص ١٧٦ ، ١٧٧

١٣) معجم الأدباء ج ٦ ص ١٧٧

١٤) المرجع المذكور ج ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢

ذلك فقد كان يجل الجاحظ ، ويعكف على قراءة كتبه ، ويكرر قراءتها ويحتذى أسلوبه وطريقته فأتى أسلوبه على غرار أسلوبه ، وتشابه بينهما التفكير والتعبير حتى لقب بالجاحظ الثانى .

وإذا كان قد ولد بعد موت الجاحظ بنصف قرن ، والدنيا كلها تشيد بالجاحظ ، وتتخذه نبراسا وإماما ، فلا بد أن يكون أدب التوحيدى قد لقح بأدب الجاحظ فأزهر وأثمر ومن أثمار رسالته هذى . والمقارنة بين الرسالتين تعطينا خير دليل على ما نقول .

وأحيانا يلجأ إلى السخرية من البديعى بوصفه بأشياء حقيرة أو منفرة أو مشهورة بالتفاهة من ذلك قوله :

(يابغلة أبو دلامة ، وحمار طياب ، وطيلسان بن حرب ، وضرطة وهب ياقدح اللبلاب فى كف المريض ، ويا نظرة الذل إلى عين البغيض ، ياكيف السجن فى الصيف ، ياشرب الخمر على الحشف) (٥)

ولكنه فى هذا اللون الأخير يتمادى ، ويتخذ الهجاء والذم الصريح أسلوبا والتشبيهات المتداولة بين العامة والرعاع طريقا وهذا ما يتحدث عنه الجاحظ ونأى .

فهو أبو الفن الساخر ، وباعثه من العدم ، وهذا تلميذ لم يبلغ شأوه .

يقول الحصرى فى رسالة الخوارزمى هذه (وهى طويلة جدا .. وإنما احتذى فى أثرها مثال رسالة أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ لأحمد بن عبد الوهاب المعروفة برسالة الطول والعرض وتعرف برسالة التوسع والتدوير ورسالة المفاكهات ، واتبع أيضا طريق أبى الفضل بن العميد فى رسالته لابن سمكة النحوى) (٦)

وبهذا تبين الفوارق ، وتتضح المقامات ، ويظهر فوق الأستاذ وسقط التلميذ .

---

٥) المصدر السابق ، صفحة ١٩٢ (قطة) ، ص ١١٨ المطبعة العثمانية

٦) جمع الجواهر الحصرى ، صفحة ٢٦٠

ابن زيدون

هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد المخزومي الشهير بابن زيدون ولد بقرطبة عام ٣٩٤ هجرية وتوفي في أشبيلية عام ٤٦٣ هجرية .

أحب ولادة بنت الخليفة المستكفي ، وبادلته حبا بحب ، وكثرت بينهما اللقاءات غير أنها صدت عنه (١) ، واتجهت بعاطفتها إلى الوزير أبي عامر بن عبدوس فاتخذته حبيبا ، ولم تجد توسلات ابن زيدون وضراعته لمعشوقته ، فحاول أن يسمو إليهما من قبل ابن عبدوس ، فكتب إليه منذرا مهددا ، ولكن إنذاره وتهديده ذهب أدراج الرياح .

وعرف ابن زيدون أن ابن عبدوس يستخدم في مراسلات عشقه سيدة تزينه في عيني ولادة وأنهما يتراسلان كثيرا عن طريقها ، فكتب الرسالة الهزلية سخر فيها من ابن عبدوس على لسان ولادة سخرا مريرا وأرسلها لها وتوسل إليها أن توصلها إليه .

هذه (الرسالة الهزلية) تشبه إلى حد كبير رسالة الجاحظ (التربيع والتدوير) فقد خصصت للسخرية والاستهزاء ، وبدا فيها التأثر الواضح بالجاحظ في فكرته وأسلوبه ، وفي تلون السخرية فيها بألوان أثبتها الجاحظ في رسالته كتصوير خصمه تافه العقل فاسد الفكر ، أو قياسه بالعظماء وجعله أستاذا لهم ، أو إسناد كل عرفان إليه وأن في اقتداره الاتيان بما لم يستطعه الأوائل ، وقد سخر كل منهما بأخلاق خصمه ومركزه وعقله وعلمه وتصرفه وهيئته ، كما يبدو في الرسالة الهزلية التشابه بينها وبين رسالة الخوارزمي وأبي حيان التوحيدي وهما بدورهما متأثران بالجاحظ كما بينت وأبين .

يقول ابن زيدون (خيلت أن يوسف عليه السلام حاسنك فغضضت منه ، وأن امرأة

---

١) قيل إنه طلب من مغنيتها عتبة أن تعيد صوتا غنته فظنت ولادة أنه يغازلها . وقيل إنه نقد بيتا لولادة فالتوت عليه .

العزيز رأتك فسلتفته ، وأن قارون أصاب بعض ما كنزت ، وكسرى حمل غاشيتك ، وقيصر رعى ماشيتك ، وإلا سكندر قتل دارا فى طاعتك ... وأظهرت جابر بن حيان على سر الكيمياء وأعطيت النظام أصلا أدرك به الحقائق)(٢)

ويقول الجاحظ ، (أشهد أنك ستخاشى عمرو بن بحر الجاحظ وتماقله ، ثم تظارفه وتطاوله ، وتغنى مع مخارق ، وتنكر فضل زلزل ، وتستجهل النظام ، وتستبرد الأصمعى ، وتستغبى قيس بن زهير ، وتستخف الأحنف بن قيس ، وتبارز على بن أبى طالب) (٣)

ويقول التوحيدى (قد استدرك مولانا على الخليل فى العروض ، وعلى أبى عمرو بن العلاء فى اللغة ، وعلى أبى يوسف فى القضاء ، وعلى الإسكافى فى الموازنة ، وعلى ابن نوبخت فى الآراء والديانات وعلى ابن مجاهد فى القراءات) (٤)

ويقول الخوارزمى ، (كأن كسرى أنوشروان حامل غاشيتك ، وكأن قارون وكيل نفقتك وكأن بلقيس ذات العرش إحدى لطيم رايتك وكأن مريم البتول أمتك ، وحتى كأن ريح عاد هبت من غضبتك) (٥)

فالفكرة بينهم جميعا واحدة والموضوع واحد ، والتشابه بين لائح ، حتى فى الألفاظ والأسماء التى تتحد فى كثير من الجمل .

ولننظر لمثل آخر يسخرون فيه من الجهل والأدعياء .

يقول ابن زيدون ، (أيها المصاب بعقله ، المورط بجهله ، البين سقطه ، الفاحش غلطه ، العاثر فى ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب ،

---

٢) سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون صفحة ٤٨ وما بعدها .

٣) ثلاث رسائل صفحة ٩٩

٤) معجم الادباء الجزء السادس صفحة ١٨١

٥) رسائل الخوارزمى ص ١١٧ المطبعة العثمانية

المتهافت تهافت الفراش في الشهاب)[6] (حتى كأن باقلا موصوف بالبلاغة إذا قرن بك ، وهبنقة مستوجب لاسم العقل إذا أضيف إليك) [7].

ويقول الجاحظ : (وكان ادعاؤه لأصناف العلم على قدر جهله بها ، وتكلفه للإبانة عنها على قدر غباوته فيها ، وكان كثير الاعتراض لهجا بالمراء ، شديد الخلاف ، كلفا بالمجاذبة ، متتا يعا في العنود ، مؤثرا للمغالبة ، مع إضلال الحجة ، والجهل بموضع الشبهة)[8].

ويقول التوحيدي :(والله لو أن عجوزا بلهاء ، أو أمة ذرهاء أقيمت مقامه لكانت الأمور على هذا السياج .. ربما شرع في أمر تحكم فيه بالخطأ فيقلبه صوابا ، حتى كأنه من وحي وأسرار الله في خلقه عند الارتفاع والانحطاط خفية) [9].

ويقول الخوارزمي :(جهل الناس عرض ، وجهلك جسم ، لا يزول إلا بالفصل ، ولا يقع دواؤه إلا من الكف والشمل ...) [10].

إن التأثر واضح بينهم جميعا فكل منهم يحتذي من سبقه ، ويسلك طريقته في التفكير والتصوير وسابقهم جميعا ، وإمامهم في هذا الفن دون منازع هو الجاحظ ، ومع أنه السابق والمقدم ، والمبتدع ذو الصيت والشأن ، والآثار التي تنقل إلى بلاد المغرب في الأندلس فيحتذيها ابن زيدون ، وأنهم جميعا مقلدون متحدون ، فقد فاقهم وفضلهم ، بغير السبق ، ذلك أن سخريته أقل افحاشا ، وأشد إيجاعا ، وأملأ بالفكاهة وأعمق في الإيلام والإيجاع ، وأكثر تلوينا ، وأعظم ابتكارا ، وأرجح أن من بعده قلده ، وقلد من قلده مع ذلك قصر عنه ووقف دونه ولم يصل غوره .

---

6) سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون صفحة ٢٥ وما بعدها .

7) المصدر المذكور صفحة ٣٢٧ وما بعدها .

8) ثلاث رسائل : الجاحظ : صفحة ٨٧.

9) معجم الأدباء : ياقوت : الجزء الخامس عشر صفحة ١٢٦

10) رسائل الخوارزمي صفحة ١٨٤ (قطة) ، ١١٣ المطبعة العثمانية

الشيخ عبد العزيز البشرى

ولد عام ١٨٨٦ فى بيت علم وأدب فأبوه الشيخ سليم البشرى الذى تولى منصب شيخ الأزهر مرتين والذى كان يعجب بشعر شوقى وأدبه مما جعله يشرح قصيدته نهج البردة فى كتاب سماه (وضح النهج).

التحق عبد العزيز بالكتاب ثم التحق بالأزهر حتى تخرج منه فعين سكرتيرا لوزارة الأوقاف فوزارة المعارف ثم نقل إلى القضاء الشرعى ثم عين وكيلا للمطبوعات ثم مراقبا عاما لمجمع اللغة العربية الى أن مات سنة ١٩٤٣ ميلادية .

والذى يعنينى من حياة البشرى أدبه الذى تأثر فيه بالجاحظ حتى لنعتبره امتدادا لفكاهاته وسخره ، وهو نفسه يقر بأستاذية الجاحظ له وبكثرة اطلاعه على كتبه وتأثره بها وفى هذا يقول : (أقدر الجاحظ وأستطيع أن أزكى لك بأنى أثاثره وأرتضى صحبته وأفاخر بها وأحرص عليها ... إن أسلوب الجاحظ قد أربى على الغاية .. وإن الجانب الفكاهى فيه ليصور لنا مبلغ قدرة الرجل الفائقة على التهكم كلما أراد أن يسخر ، وكلما شاء أن تحز نقداته فى القلوب . ولست أعلم أن هناك كاتبا قبله استطاع أن يبلغ هذه الجودة الفائقة على التهكم كلما أراد أن يسخر ، وكلما شاء أن تحز نقداته فى الرقاب ، ولست أعلم أن هناك كاتبا قبله استطاع ان يبلغ هذه الجودة فى كشف السوءات الاجتماعية هذا الكشف الرائع حتى يعلم الناس مقدار ما فيها من بشاعة وتشويه)[1]

كانت فى البشرى مشابه من الجاحظ منها قبح الخلقة ، وحب الفكاهة ، وعشق مجالس الأنس والسخر ، فقد كان (لا يرى إلا والابتسام مرتسم على ثغره ، والضحكة الحلوة لا تفارق شفتيه ... وكان مجلسه مجالا للدعابة الحلوة ، والسخرية الصادقة ، والنكتة الظريفة والملحة الجذابة)[2]

---

١) مجلة المعرفة العدد الثامن عشر (اكتوبر عام ١٩٣٢ ص ٦٥٤) .

٢) عبد العزيز البشرى : جمال الدين الرمادى ص ٦٠ (أعلام العرب ٢٤)

وقد سلك فى حديثه من البخل والتطفل مسلك الجاحظ ، فجعلهما من موضوعات فكاهاته وسخره ، ومن ذلك سخريته من بخيل غنى ممين يقول عنه : (أما الطعام وما أدراك ما الطعام ، فالخبز أولا يصنعه فى البيت كل أسبوع ، على ألا ينقى من الطحين إلا النخالة وسائره للعجين ، وأما الإدام فيها ــ اللهم أن يزودنا الماضة ، فلقد أخذ بنيه فى هذا الموضوع بالورع ، وجلا عليهم الحكمة فى الحديث الشريف "نعم الإدام الخل" فللغداء الكوامخ "السلطات" أشكالا وألوانا و"لام الفلافل" وأخواتها من الخوان العام الكريم ... أما العشاء فله فيه صنع بديع ، يدخل وقت العشاء ، فإذا صاحبنا قد سلف وأعد بعدد الأولاد ملاليم ، فإذا اجتمعوا إليه مستشرفين لعشائهم قال لهم "اللى يأخذ مليم يتعشا ش والله يتعشى ما ياخد ش مليم" ويدفع أحدهم فيقول "أنا" وعلى حكم غريزة التقليد فى الغلمان يسرعون فيتصايحون "أنا أنا أنا" فيدفع إلى كل واحد منهم مليمه وكفاه الله مئونة العشاء ، أعنى عشاء الأطفال ... أما فى الفطور فإنه يزعم للزيات القائم على رأس الشارع أن لديه حملا يربيه ، ويحب أن يسمنه ويجزل لحمه وشحمه ، وليس يعقد له ذلك ويسرع فيه أفضل من خلاصه "تصافى" قدر الفول يطعمها فى الصباح ، فيحتفظ له الرجل بخلاصة قدرا لعصره ويبعث إليه بها فى الصباح الباكر ، والأولاد بعد نيام فيفرغها فى صحفة كبيرة ، ويعالجها بقدر من الخل ، ويخفف حولها كسر الخبز التى أفضلها الأولاد فى غذاء أمسهم ، حتى إذا ما هبوا من النوم وأحشاؤهم تتنزى من شدة الجوع ، فتواثبوا على الطعام صاح فيهم "اللى عاوز يفطر يجيب المليم" فلا يسع كل منهم إلا أن يطرحه إليه ، مواتاة لالحاح البطن ، وإيثارا للعافية فسرعان ما تعود تلك الملاليم إلى عشها ، وتعتصم بوكرها)(٣).

هذا أشبه بقصة الجاحظ عن البخيل الذى اتخذ النخالة دواء له ثم جعلها طعاما له ولأولاده وزوجته ، فكانت طعاما ودواء .

---

٣) المرجع المذكور ص ٦١ ، ٦٢

أما التصوير الهزلي "الكاريكاتير" فقد برع فيه وتناول كتابه "في المرآة" كثيرا من مشاهير عصره فمسخهم وشوههم هزؤا وسخرا يقول في زيور: (أما شكله الخارجي، وأوضاعه الهندسية، ورسم قطاعاته ومساقطه الأفقية فذلك كله يحتاج في وصفه وضبط مساحاته إلى فن دقيق، وهندسة بارعة، وصاحبنا إذا اطلعت عليه أدركت لأول وهلة أنه مؤلف من عدة مخلوقات، لا تدري كيف اتصلت، ولا كيف تعلق بعضها ببعض وإنك لترى بينها الثابت وبينها المختلج، ومنها ما يدور حول نفسه، ومنها ما يدور حول غيره، وفيها المتيبس المتحجر، وفيها المسترخي المترهل) (٤).

ما أشد شبه هذا بما قاله الجاحظ في رسالة التربيع والتدوير سخرا بأحمد بن عبد الوهاب يقول: (ومن غريب ما أعطيت، وبديع ما أوتيت أنا لم نر مقدودا واسع الجفرة غيرك، ولا رشيقا مستفيض الخاصرة سواك فأنت المديد وأنت البسيط وأنت الطويل وأنت المتقارب فيا شعرا جمع الأعاريض، ويا شخصا جمع الاستدارة والطول) (٥).

إلا أننا نرى الجاحظ رحب الذراع طويل النفس، متسع الحلبة التي يجري فيها فرس سخره، فلم يتأت للبشري أن يصنع ككتاب البخلاء، ولا أن يبتدع رسائل في مدح الكبر وذم البخل، ثم في مدح البخل وذم الكرم. وليس في إمكانه أن يأتي بمثل رسالة التربيع والتدوير في طولها ودقة مسلكها وتنوع ألوان السخر فيها..

الجاحظ قمة عصره وما بعد عصره، الجالس على عرش السخرية عرش السخر حتى يومنا هذا وجميع الساخرين إما، ضيوف على مائدته أو متطفلون على طعامه، أو سائلون فضله أو سارقون من كنوزه، إلا أن كل ما له يدل عليه مهما أخفيت معالمه، وغيرت هيئته، وأضيفت إليه الألوان وألبسته القناع..

رحم الله أبا عثمان الجاحظ وجزاه عن الإسلام والعربية والمرح والفكاهة والتقويم والتهذيب، أكرم جزاء.

---

٤) في المرآة، عبد العزيز البشري صفحة ٧

٥) مجموعة رسائل الجاحظ، صفحة ٨٩

الفصل الرابع

سخرية الجاحظ فى ميزان النقد

فى هذا الفصل الأخير من رسالتى ، وبعد أن أوضحت سخرية الجاحظ ، وسخرية من سبقوه ومن عاصروه ومن أتوا بعده ، أحب أن أضع سخريته فى ميزان النقد ، لتتبين مكانة الرجل بين الرجال ، وقيمة سخريته بين السخريات ، ومنزلتها فى هذا الفن ، وخصائصها وميزاتها ، ليكون حكمنا على أبى عثمان ، خاليا من التحيز ، بعيدا عن الزيغ والزيف ، وعلينا الآن أن نعرض حبات الدر التى كونت عقد سخره ، وأضفت إليه التألق ، ومنحته البريق والضياء ، وأن ننظر كيف انتظمت وتراصت ، فى شكل فريد ، ووضع عجيب ، وتعاون وتعاضد ، حتى وصلت إلى القمة التى سجلت لأدبه الساخر المجد والخلود .

وأول ما نلحظه أننا لم نجد كاتبا بلغ من كثرة الإنتاج الأدبى الساخر مبلغ أبى عثمان ، ذلك أن مؤلفاته العديدة التى جاوزت الخمسين بعد المائة أو السبعين بعد المائة فى أغلب الأقوال ، والتى قاربت الأربعمائة فى بعض الأقوال ، لا يخلو مصنف منها من سخره الحى النابض ، الذى يبهج النفس ، ويطرب الروح ، بل إنه صنف فيما وصل إلينا من تراثه كتابا خاصا بالسخر هو "كتاب البخلاء" ورسالة عجيبة فى التهكم والتندر هى "رسالة التربيع والتدوير" كما كان يوشح كتبه بالسخر ، يدمجه فى الأحاديث الجادة ، أو يفرد له بينها أبوابا خاصة به ، حتى لنراه فى أدق المشاكل العقلية ، وأعمق المسائل العلمية ، وأرزن الأمور الدينية ، يلهو ويسخر ، ويهزأ بغريب الأفكار ، وشاذ المعتقدات ولم تكن سخرياته على كثرتها سخفا ، وتفاهة ، وإنما كانت حصيفة حصينة ، هادفة هادئة ، تحقق بهزلها وهزلها مالا تحققه الأحاديث الجادة والخطب المطولة .

وقد نوع الجاحظ فى سخرياته وابتكر أنماطا ، وولد ضروبا ، واشتق ألوانا ، بلغت من الكثرة حدا يحتاج معه الباحث الدارس إلى تقسيمها وتبويبها ، وتنظيمها وترتيبها

ولم يكن يلقيها جزافا ، بل كان ينتقى ويختار ، ويتأنى ويتأنق ، فيجمل لكل موقف ما يناسبه من السخر ، ويخرج من جعبته ، وما يقدحه ذهنه ، ما يتطلبه المقام ، مراعيا مقدار اللذع الملائم ، وكيفيته ، ونوعيته وطريقة صياغته ، وقواعد صناعته ، والاستعداد النفسى والذهنى والثقافى للمجتمع الذى يسخر فيه ، أومنه ، فيجعل السخريات الدقيقة العميقة للعلماء والمثقفين ، والقريبة المنال ، السهلة التناول للعامة وأشباه العامة .

يقول جورج جرداق (ونرى أن سخرية الجاحظ ذات لونين اثنين من حيث التصريح والتلميح ، فهو إما سخر بالمحدثين والمفسرين والمؤولين والعلماء وأهل السلطان ، ذلك هذه السخرية دسا بارعا ، لا تكاد تراها إلا إذا كنت مطبوعا على تملها ، جديرا بإدراك خفاياها ، فإن أنت أدركتها على هذه الصورة ألفيتها قارصة لاذعة ، فياضة بمعانى التهكم الخفى ، وهو إما سخر بالثقلاء والسخفاء والحمقى ، لايكتفى بالتعريض بل يعمل إلى إظهار الاستهزاء والتهكم ، على أنه يحصن نفسه بنطاق من الذوق السليم فى إخراج تهكمه الموجع ، ويزداد سخرا الجاحظ إيلاما إذا كان نشفيا من سخف ، أو انتقاما لقيمة مهدورة ، ويخف فى غير هذا المقام)(1).

هدف الجاحظ بسخريته إلى إصلاح العوج ، والضحك والمرح ، وتخفيف ما فى نفسه من آلام ، وجذب الكتاب من إطار الجماعة حتى يرجع إلى مكانه بمجتمعه ، والتأرجس شذ عن العرف والتقاليد ، إلى غير ذلك من أهداف شريفة ، وغايات نبيلة ، جعلت سخريته بعيدة عن اللهو واللعب ، والمهاترة والبذاء .

وهو فى سبيل تحقيق هذه الأهداف يتخذ الرمز المستتر ، والغمز الخفى ، والإيماء البعيد طريقا سالكا لها — ويبعد عن النصح المكشوف ، والتوجيه الصريح ، والتعليق على قصصه ، بما يبرز مراماها ، وإنما يترك لسامعه وقارئه استشفاف ما وراء سخره ، واكتشاف

---

(1) مجلة العربى ، السنة الأولى ، العدد الثانى عشر ص ١١٤ ، ١١٥ مقال لجورج جرداق .

المنهج القويم ، والسلوك المستقيم ، والمغزى الذى يرمى إليه ، ويستهدفه من سخره ، حتى يكون التقويم نابعا منه — فى نظره — صادرا من نفسه وقلبه ، وذلك أجود أنماط التعليم والتهذيب ، وأدومها أثرا .

وقد تناول بسخره من شذ فى مجتمعه ، ومن الذين تناولهم بسخره ، وخصص لهم كتابا قائما بذاته "البخلاء" فقد افتن فى السخر منهم ، وأبدع ما شاء له إبداعه ، وما امتد نفسه ، وطال باعه ، ولم يكن حديثه عنهم سردا تاريخيا ، وإنما غاص فى قرارات نفوسهم ونفذ إلى بواطن مكنوناتهم ، فسبر غورهم ، وكشف مخائلهم ، وتناولهم على مائدة التحليل النفسى ، فجعلنا نرى باطنهم كما نرى ظاهرهم ، ثم نطرب ونمرح ، حين نقارن بين الظاهر والباطن .

ارتقى ابن بحر بالسخرية ، ورفعها من وهدة السب والإفحاش ، والغلظة والخشونة — وتلك صفات السخرية الصادرة من مجتمع غير متحضر — إلى مرتبة الليونة والنعومة ، والرمز والإيماء ، والتلويح والتعريض — وهذه صفات السخرية الصادرة من مثقف متحضر مع الاحتفاظ بشخصيته ، والتمسك بكرامته ، وما قبل أن تكون شخصيته كشخصية أبى العبر الذى ضاعت كرامته ، وسقطت هيبته ، وسلب احترامه ، حتى ليقذف بالمنجنيق فى الماء ويترك حتى يقارب الغرق أو يدفع على زلاقة حتى يسقط فى الماء ثم ينتشل بالشباك رغبة فى إضحاك الخليفة إن مثل هذا الرجل يمكن أن نطلق عليه المهرج . ولكن شخصية الجاحظ لم تكن لتقبل مثل هذا وله من الاحترام والتقدير ما لا يقل عن ابن الزيات الوزير ، وابن أبى دؤاد القاضى .

كانت الأفكار الساخرة تلح على الجاحظ ، وتدعوه إلى الكتابة ، وتدعه إليها دعا ، فينثر محصوله اللغوى والأدبى والبلاغى — وما كان أكثره — على مائدة فنه ، ثم ينتقى منه الملائم لموضوعه وغرضه ، فالشريف للشريف ، والسخيف للسخيف ، والمعنى العميق

يليق بالعلماء ، والمعنى السطحى للتحدث به مع العامة ، وهو فى هذا وذاك يختار الأولى والأليق ، ويقتنص التعبيرات التى تولد فى الذهن صورا فنية ، وتثير خيالات بديعة يكون لها شأنها وتأثيرها ، ويحقق عن طريقها غايته من الإيلام والإيجاع أو المرح والإضحاك ، وتلك ميزة بينة فى أستاذنا الجاحظ ، الخبير بجوهر الكلام ، العليم بإشعاعاته ومعطياته ، فقد كان جهبذا نقادة ، يزن الألفاظ بميزانه الحساس ، فلا يخطىء ولا ينحرف ونظرة واحدة إلى أى من سخرياته ، تعرفنا قيمة الكلمة فى نفسها ، وفى مكانها بين لداتها وفى موقفها من القصة أو الباب .

اختار لسخريته الألفاظ الحية ، والأساليب المعبرة ، والتراكيب الموصلة إلى المعنى المراد ، والطريقة التى تحقق لسخريته الإقناع والإمتاع ، لم يتقيد بطرق من سبقوه ، ولا بقواعد اللغة ، بل حكى كلام الأعراب كما هو بغلظته وجفائه ما دامت الغلظة والجفاف منهل سخره ، وترك الإعراب فى بعض المواقف التى رأى فيها ترك الإعراب يحقق التأثير والإمتاع ، وروى سخرياته ملحونة إن كانت على لسان سندى أو زنجى ، لأن اللحن فيها ينبوع السخر وجرثومته ، وسداه ولحمته .

لم يلجأ إلى المحسنات البديعية يتعمدها لتحلية أسلوبه ، ولم يجهد نفســــه للحصول على التشبيه البكر ، والاستعارة الفذة ، إنما كان جل همه الإفهام ، وغايته وكده إيصال المعنى المستكن فى نفسه إلى نفوس قارئيه كما هو ، دون زيادة أو نقصان ، وتلك غاية الأديب ، ومنتهى ما يصل إليه الكاتب المفتن ، فإذا وصل الجاحظ إلى هــــذه الغاية دون هذه الألاعيب السحرية ، ودون استهواء القراء وخداعهم ، فقد فاق الكتاب وبذهم وقد وصل الجاحظ فعلا إلى هذه الغاية التى فاق بها بنى عصره ، وحمل الحقيقــــة معطيات ونبضات وإيحاءات تفوق ما حشده غيره فى أسلوبه من بيان وبديع ، قصدا إلـى الإفهام ، ورغبة فى الإمتاع .

الحواجز والقيود، والوصول إلى البذاء واحتقار الناس، وإهدار كرامتهم موقفهم على الملأ، فما صرح الجاحظ بأسماء من يسخر منهم إلا لأنهم كانوا يسلكون طريق التسخر، فيسخرون من غيرهم، ويسخر غيرهم منهم، وشهروا بذلك حتى صارت السخرية منهم لونا من ألوان الصحبة، وإدامة العشرة، وضربا من اطراح الحشمة، ونبذ الكلفة، بل ربما غضبوا من الصديق إن لم يجر السخر والمزاح على لسانه ومن هذا اللون سخر الجاحظ من البخلاء الذين وسموا بالشح، وشهروا بتلك الخصلة، وعرفوا بها بين الأقارب والأباعد، حتى صارت السخرية من بخلهم لونا محببا لديهم، معشوقا عندهم لما فيه من إبعاد الطمع فيهم، وأمنا من الناس مما في أيديهم، وليس ذلك بمعيب في الجاحظ، ولا موقعا إياه تحت اللوم والعتب، بل إنه مرغوب فيه، وبهذا يجمع الجاحظ الخلتين الكريمتين الجرأة، وحسن الصحبة .

وبعض قصص الجاحظ الساخرة تظهر فيها العناية الشديدة بالحوار، حتى لتكاد تكون حوارا خالصا ... وأسوق هنا رأي الدكتور عبد الكريم الأشتر في محاضرة له . قال عن الجاحظ (وهو يتخذ من الحوار أداته الأولى في الكشف عن نفوس أبطاله، وتحليل دوافعهم العميقة، وتصوير أخلاقهم وعواطفهم ومظاهر تفكيرهم وكثيراً ما تكون حرارة النادرة في البخلاء كامنة كلها في الحوار .. وأعتقد أن التجارب الفكرية التي عاناها الجاحظ في محيط المعتزلة المذهبي العريق الذي يعنى بالجدل ويدارس أقايسه والمناظرة كان له أثره الكبير في صقل مواهب الجاحظ الفنية في الحوار، ومعرفته الطرق الخفية المسحورة في سوقه وتوجيهه ورده) (٢).

---

٢) محاضرات الموسم الثقافي عام ٦٣/ ٦٤ الجزء الرابع مطبعة الوزارة - دمشق عام ١٩٦٤ فن القصة في كتاب البخلاء للجاحظ محاضرة الدكتور عبد الكريم الأشتر في ٤/ ١/ ١٩٦٣ صفحة ٢٥٣

والجاحظ – بحق – سيد القصة الساخرة ، يستوى على عرشها ، ويقتعد غاربها ، ويجعل كل ما يتناوله فيها حيا متحركا ، يساير جو السخر ، ويشارك فيه ، لم يفصل قصصه عن الحياة ، ولم يبعدها عن الواقع المشاهد ، بل اختار أبطالها من معاصريه ومن مشهورى زمنه ، وما قبل زمنه ، وجعل الحوادث مقبولة مستساغة ، يقع مثلها فى الحياة إن لم يكن قد وقع فعلا ، ثم يختار الألفاظ والجمل ، ويرتبها ترتيبا خاصا ، يراعى فيه عناصر القصة ومقوماتها ثم يحكم نسجها ، ويتم حبكتها ، ولا ينسى الألفاظ اللامعة ذات الرونق والماء التى تضفى على القصة جوا خاصا وتدل دلالة دقيقة على ما يحيط بالسخرة من أشياء تتعاون وتتساند لملء الجو بروح السخر حتى تأتى نهاية القصة وقد بلغ السخر مداه ، وجاوز منتهاه ،

جعل سخره حيا ناطقا بحديثه من الأحياء وبخاصة أساتذته ومعاصروه ، فقد ذكر أسماءهم صريحة ، وكنى عن بعضهم حتى لا يفضحهم ، وهو يحدد فى سخره الزمان والمكان العام والخاص ، ويصف بعضها فى المكان ، وما يدور فى أذهان الحضور ويعنى سخره بالتفاصيل متى رأى ذلك مهما فى السخرية ، ومتمما لها ، ومعوانا على شد أزرها وإحكام فتلها ،

أما تصويره الهزلى " الكاريكاتورى " فقد تحدثت فيه قبل أن يعرف الناس هذا اللون الفنى ، حتى ليعد رائده ومبتكره ، ومع ذلك فهو متقن ، يبهرنا ضياؤه ، وتجذبنا صنعته ، ونحسبه فضلا فى ذلك أنه السابق إلى هذا الميدان ، وأن أحدا لم يبلغ شأوه ممن أتوا بعده ، ولا قارب خطوه ، وأنه ليس فى قدرة الرسام " الكاريكاتورى " أن يؤدى بالريشة والألوان ما أداه الجاحظ بالكلمة والعبارة ، وإن بذل جهده ، وحشد فنه ولا عجب ، فصور الجاحظية متحركة ناطقة ، ممتدة إلى غير غاية ، وصور الرسام جامدة ساكنة ساكتة ، محصورة محدودة ، ولننظر إلى إبداع الجاحظ صورة الأسوارى

والذباب ، أو صورة أبي الأعز المرثدي والكلب ، أو صورة ابن عبد الوهاب الممسوخة المتموجة ، فإننا سنرى العجب ، وستهتز أوصالنا من البهج والطرب .

تبرز عقلية الجاحظ الناضجة ، وعلمه الغزير ، وأدبه المعطاء ، وبراعته في المنطق والنقاش والجدل أحياناً ، حين يحتج للشيء وضده ، فهو يذم البخل فيؤكد لك أنه صفة مرذولة ، وخلق ردئ ، ثم يمدحه ويذم الكرم ، فيستحرك أبو عثمان ويجذبك إلى الاقتناع برأيه والأخذ بجدله ، وقد كان يهدف بمدح الشيء وذمه إلى اظهار القدرة البيانية ، والبراعة المنطقية ، وهو في الوقت نفسه سخر بالعقول ، وتلاعب بها ، فقد مدح المعلمين وذمهم ومدح الكتاب وذمهم .

إن سخرية الجاحظ مرآة صقيلة أطلعتنا على عصره ومصره ، وتصرفات علماء زمنه ، وأدبائه وعامة الشعب في أيامه ، على اختلاف أصنافهم ، وتباين اتجاهاتهم ، وتنوع ثقافاتهم ، فهو بحق أديب المجتمع ، وابن البيئة التي عاش فيها ، والمرآة التي تنظر من خلالها مجتمع الجاحظ في شتى شئونه ، فنرى الصورة الواضحة ، واللوحة المجسمة ، بخيرها وشرها ، ولغتها وسلوكها ، حتى نستطيع من خلال سخره فهم مجتمعه ، وكشف طواياه ، والوقوف على دوافع سلوكه ، وقد قدمت بابين في هذا (٣) أحدهما في معرفة المجتمع من خلال سخره ، والثاني في كشف الجاحظ خلقا ، وعلما وأدبا ، وثقافة وتدينا ، من خلال ما كتبه في السخرية والإضحاك (٤) .

أنتجت سخريته مدرسة نبغ فيها كثير من تلاميذه الذين تخرجوا على كتبه ، وتخذوا من ساخر أدبه ، فنهجوا نهجه وتبعوا طريقته ، وافتنوا في السخرية ، إلا أنهم لم يبلغوا

---

٣) الباب الخامس من الرسالة

٤) الباب السادس من الرسالة

مكانته ، ولم يقتربوا من عظمته ، وعرفوا ذلك لفنه ، وفهموا الفرق الشاسع بين منزلتهم ومنزلته ، فجعلوه إماما لهم ، وقدوة لفنهم الساخر .

اعترف الناس فى عصر الجاحظ وما بعد عصر الجاحظ حتى يومنا هذا ببراعته فى السخرية وتبوت قدمه فيها ، وعلو كعبه ، وأكدوا أستاذيته لجيله ، وما تلاه من أجيال ، وقد قدمنا فى أبواب سابقة آراء زعماء السخرية فيه التى تشيد بحذقه وافتنانه ، وسبقه ، وتمنيهم أن ينتسبوا إلى مدرسته ، ويتسموا باسمه ، وينادبهم الناس بلقبه — ومن أقدر على فهم قدر السخرية والساخرين من الساخرين أنفسهم — فإذا وضعنا سخر الجاحظ فى كفة ميزان النقد رأينا ها تهبط، وتهبط لثقل ما فيها ، ورأينا الكفة الثانية ترتفع وترتفع لخفة ما فيها ، وبذلك نرى أن الرفعة وعلو المنزلة فى هبوط كفة ميزان السخر عند الجاحظ وأن التفاهة والضآلة فى ارتفاع كفة ميزان السخر عند غيره ، وكأن ليس فيها شئ .

رحمك الله أبا عثمان ، فقد كنت ريحانة الأدب ، التى لا يزال أريجها ينبعث ، فيصل إلى أنوفنا زكيا عطرا ، عبر اثنى عشر قرنا من الزمان ، فينعشنا ، وينشط نفوسنا وعقولنا وقلوبنا ، ويمدنا بضياء من الفكر والعلم والأدب والمرح .

خاتمـــة

يتناول البحث موضوع "فن السخرية في أدب الجاحظ"

وهو موضوع أدبي ، يرى المرء من خلاله العصر العباسي في اتجاهاته وأفكاره ، وعلومه وآدابه ، وعقائده ودياناته .

وجانب من جوانب النقد ، نقد طباع المجتمع وأخلاقه ، ونقد آدابه وعلومه عن توجيه الوجهة التي ترفعه ، وتعلي شأنه .

ولون من ألوان البحث النفسي في السخرية ، ببيان دوافعها وأهدافها ، ومقوماتها وعناصر نجاحها .

وقطاع عرضي لبحث الأدب الساخر في عصوره الأولى ، حتى نهاية عصر الجاحظ ثم تطرق في أعمال مدرسته الساخرة .

هو نوع من التنقيب في زوايا الأدب الضاحك ، والغوص في أغواره ، لاستخراج الأفكار الجادة ، والمعاني القوية الرصينة ، وإبراز أن ما في الأعماق يختلف عما علا السطح ، فما في الأعماق يمتاز بجديته ودسامته ، وما على السطح يمتاز بهزله ورياشه ، وقد جمعت السخرية الأدبية الفضيلتين ، وحازت ميزة الأدبين ، الجاد والهازل معا .

ثم إنه نمط في البحث يكشف ناحية من أدب الجاحظ الذي برع فيه ، وتميز به مؤلفاته ، ويهدف منه إلى تخفيف وطأة الدرس ، وثقل البحث ، ويطلعنا على تلك العبقرية الفذة ونحن نبتسم ونضحك .

وقد توصل البحث في هذا الموضوع إلى ما يأتي :

(١)

السخرية في المجال الأدبي واسعة المفهوم ، رحبة المضمون تشمل المعاني اللغوية الدالة على الهزء والزراية والعبث والاستخفاف والتهكم والاستهزاء والطعن والغمز .. والمعاني والمصطلحات البلاغية التي تحمل المعنى اللغوي للسخرية وتؤدي إليه كالتهكم والهزل المراد به الجد ، والهجو في معرض المدح ، والتوجيه ، وتجاهل العارف ، والتعريض

وقد حدد البحث مفهوم السخرية الذى أدار كلامه عليها كما حدد مراده من فنيتها ، وأبعد قصده من أدب الجاحظ الذى هو مجال البحث وميدانه .. وحصر الموضوعات التى يسخر منها الأديب فى قاعدة عامة هى : كل ما شذ عن الإلف ، وخالف العرف ، وإن دعا إلى صلاح ، ودرئ فساد .. ثم أقام صرح السخرية من أديب ساخر ، وموضوع جاوز المعتاد ، وحافز يحرك الأديب نحو السخر ، وأسلوب لاذع ، وهدف يبغيه ويرمى إليه قد يكون تخفيف الآلام النفس الحبيسة ، أو النكاية بالخصم ، أو التقويم والتهذيب ، أو الفكاهة والمرح ، أو المحافظة على كيان الجماعة ، أو كسب المال والجاه .. وقد عرض البحث آراء الفلاسفة وعلماء النفس فى أهداف الضحك والسخر ، وأدلى برأيه وأوضح برهانه ... ورأى البحث أن من الواجب عليه أن يغوص فى الناحية الفنية الأدبية للسخرية يستخرج منها العناصر التى تحقق لها النجاح والفوز ، وكانت حصيلة صيده : أن يكون الساخر متطلق النفس ، مولعا بالنقد ، شديد التفاعل مع مجتمعه ، والحساسية لما يدور حوله ، قوى الشعور بالواجب بارعا فى التصوير ، يجيد عقد الصلات بين الأشياء وإن بدت متنافرة ، فطنا ألمعيا ، عالما بأحوال الناس ونفوسهم وخبايا هم متفننا فى أسلوبه وطريقة تعبيره ، يعلو صوت عقله على صوت عاطفته ، يتخير لها أسلوبها ووقتها ومجتمعها ، يفتن فيها ويبتكر حتى يشتهر بذلك بين الناس .

وقد رفع البحث قيمة السخرية كفن أدبى نقدى راق ، حيث دلل على أنها جادة إن أريد بها الجد ، وهازلة إن قصد بها الهزل ، وجادة هازلة معا فى كثير من الأحيان ، وأنها ليست بتافهة ولا معيبة عند الفقهاء والمفسرين والمفكرين إن نبل هدفها وسمت غايتها ، وأنها بحاجة إلى معاناة وحذق وافتنان ، لأن الأدب الفكه يحتاج إلى بذل جهد حتى يحافظ على الاستواء الواجب ، ويعوض تفه موضوعه ، ويسد نقصيه ، بخلاف الأدب الجاد لسامة موضوعه وعمق فكرته .

(٢)

وبعد الكلام عن السخرية : معناها ، وموضوعاتها ، ومقوماتها ، وأهدافها ودوافعها وعناصر نجاحها ، ومنزلتها بين فنون الأدب ، أرسل البحث شعاعا يكشف لنا الجاحظ الأديب الساخر ويعرفنا بشخصيته قبل أن يطلعنا على سخره ، ويرسم لنا صورة مصغرة عن أدبه قبل أن يدخل حلبته ويصور فى دروبه ، فذكر لنا أنه عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى الليثى المكنى بأبى عثمان والملقب بالجاحظ والحدقى ، ولد بالبصرة من أبوين فقيرين ، ومات أبوه فى صغره ، فباع الخبز والسمك ليكتسب قوته وقوت أمه ، وتعلم بالكتاب ، وشغف بالقراءة ، حتى أنه كان يكترى دكاكين الوراقين يبيت فيها ليلا للقراءة ، ثم اتصل بموسى بن عمران ثم بالنظام شيخ الاعتزال واعتنق مذهبه ، وجلس إلى أفضل رجال زمنه فى شتى نواحى العلم والأدب ، فأخذ عنهم ، وتخرج على أيديهم ثم اتصل بالوزراء كابن الزيات وبالقضاة كابن أبى دؤاد ، وبالخلفاء كالمأمون والمتوكل ، وكتب لهم فأجزلوا له العطاء وتولى ديوان الإنشاء ثلاثة أيام ثم اعتزله ، وترك لنا عددا وفيرا من مؤلفاته فى شتى نواحى العلم والأدب والمعرفة ، وبعد مضى نحو قرن من الزمان وقعت عليه أجلاد الكتب فمات .

ويبين لنا البحث العوامل العديدة التى تعاونت فى صقل عقليته الساخرة وأسلوبه الهازئ ، فقد كانت لأمه سخرياته ، وكان جده فزارة جمالا يغلب على أبناء مهنته السخر والإضحاك ، فورث السخر عن جده ، وارتضعه من أمه ، كما كان لدمامته يتعرض لهزء الناس فيكيل لهم الصاع صاعين ، ويستميحون شوهته بخفة روحه وإسقاط عيوبه على الناس ، وضرب البحث الأمثلة العديدة لرجال نبغوا فى السخر قد نكبوا بقبح الطلعة ، ونقص التركيب الجسمى ، وكان لذلك النقص أثر فى إتقانهم السخرية والضحك ، وقد كانت طبيعة الجاحظ مولعة بالسخرية والمرح ، وزاد سخره عمقا وافتتانا غزارة علمه ، ووفرة أدبه ، وما شاع فى عصره من لهو وعبث ، وإقبال على متع الحياة ، وتحلل من القوانين ، وتخفف من زواجر

الدين ، ثم ما شاع في مجتمعه العلمي الأدبي الخاص حيث كان أساتذته وأصدقاؤه مغرمين بالسخر بارعين فيه ، وكانت علاقاته الاجتماعية وحياته في وسط يموج بالفكاهة ، ويزخر بالسخريين من أسباب ارتفاع كعبه في هذا الفن ، كما أن وضعه الثقافي والأدبي ، وكثرة مؤلفاته ، ورغبته في إرضاء قرائه ، وحسد الناس له ، وتعميم كتبه ، وشيوع الخرافات في عصره وفيما يقرأ من آراء علمية ونظرات أدبية جعل سخريته تكثر وتعمق .

(٣)

وعرفنا البحث بالموضوعات التي تناولها الجاحظ بسخره ، وجعلها محور هزله منها العيوب الجسمية كقصر القامة وكبر البطن وقد تناول الجاحظ أحمد بن عبد الوهاب لمسخ شكله ، وشوه خلقه ، على أن السخرية من التشويه الجسمي والنقص الخلقي شأن المجتمعات غير المتحضرة ، والآداب غير الناضجة لذلك لم يتجه الجاحظ هذه الوجهة إلا نادرا ، ولم يقصدها لذاتها ، وإنما جعلها وصلة لإبراز عيب نفسي أو خلقي كالادعاء أو المبالغة وغير ذلك مما شاع في عصره ، ومن العيوب النفسية والعقلية التي شاعت في زمنه وملأت مجتمعه فسلأ بما كتبه ، البلادة والإهمال وجمود الإحساس ، والكذب والمبالغة ، والخوف والجبن ، والتصرفات التي تدل على الجهل والغفلة ، والإيمان بالخرافات والأباطيل ، والأوضاع الشاذة في مجتمعه العلمي والثقافي والأدبي وقد كان للسخرية من البخل نصيب كبير في أدبه إذ تفشى في مجتمعه وذاع بين أبناء جيله فكان نصيبه في أدب الجاحظ الساخر أوفر حظ إذ أفرد له كتابا خاصا سماه " البخلاء " .

(٤)

ولم يلجأ البحث إلى تقسيم سخر الجاحظ من ناحية عيوب الذين يسخر منهم كالعميان والعور والعرجان مثلا ، أو من ناحية مهنهم كالأطباء والمعلمين والفقهاء ، أو يضع عنوانا لسخرياته ينحته من داخلها وفيه خلاصتها ، كما يفعل كثير ممن يتحدثون عن

الفكاهة ، ولكنه تخذ طريقا يتعلق بالناحية الفنية للسخر ، والذى من أجله كانت السخرية سخرية ، تضحك وتبكى ، وتميت وتحيى ، فكشف الجوانب الفنية فى سخريات الجاحظ ، وغاص فى أعماقها ، وأطلعنا على النواحى الكامنة فى السخرية التى تحقق اللذع ، وتثير الضحك والمرح ، مبدأ بالتصوير الهزلى "الكاريكاتور" فأوضح أنه قد يكون بالكلمة وقد يكون بالسكون والتصلب ، أو خفة الحركة وطيشانها وقد تكون المرآة النفسية المقعرة أو المحدبة" التى يعكس عليها الجاحظ نفسية السخرة هى الأداة التى تشوه المعالم وتجسم النقائص وقد يتخذ الصورة القصيرة أداة يحقق بها الكاريكاتور الساخر ، أو يلجأ إلى الصورة القبيحة يبرز بها جوانب السخرة ، ونواحى نقصه ... ثم أثبت البحث أن السخر المبثوث فى كتابات الجاحظ قد أخذ بعضه من غيره ، ونقله كما هو ، دون تغيير كرسالة سهل بن هارون ، وبعض الأشعار والأخبار المعروفة عن أربابها الذين حدد أسماءهم وقد اعترف فى كتابه البخلاء بنقله بعض أحاديث ساخرة من الأصمعى والمدائنى .. وقد أخذ بعض أحاديث غيره الساخرة ونقدها ، كما أخذ سخريات غيره وصاغها صوغا جديدا افتن فيه وأحاله عن وجهه فعادت شيئا جديدا أخلق به أن ينتسب إليه ، ولكن أكثر سخرياته كان من ابتداعه ونسجه وإن نسبها إلى غيره ، ومن أجل سخرياته التى ابتكرها يراعه "رسالة التربيع والتدوير" وقد تناولها البحث باستقصاء واستدلال ، باعتبارها عملا فنيا متكاملا ، لم يسبق بمثله ، ولم يلحق بما يوازيه ، فعرفنا من كتبت له الرسالة ، وأثبت بالأدلة أنه أحمد بن عبد الوهاب ، وأنه من بجيلة ، وأنه كاتب ، ومن أصحاب الزيات ، وأن له من يعاصره من ذوى الشأن فى الدولة ، كصالح بن على ، وعلى بن سليمان ، وجعفر الخياط .. ثم أوضح البحث أن الدافع إلى كتابة الرسالة قد يكون ارتفاع ابن عبد الوهاب فوق قدره وقد يكون لأنه كاتب والجاحظ معروفة كراهيته للكتاب ، وربما لأن فيه ما يدعو إلى السخر

كالتشويه الجسمى من قصر وغلظ وجحد أصابع ، والتشويه العقلى والأخلاقى من جهل وادعاء وتيه وصلف ، وقد يكون جميل الوجه مع تفاهة العقل فينقس الجاحظ عليه ذلك فيضخم عيبه ويجسد رذل أخلاقه ، وقد كان بينهما اختلاف فى المذهب الدينى ، إلى غير ذلك من أسباب جعلت الجاحظ ينبرأ لم نفسه سخرا وهزؤا فى رسالة طويلة .

تناول البحث رسالة ابن عبد الوهاب تناولا بارعا ، فقسمها بحسب ما فيها من كاريكاتور يعبث بتفاصيل جسمه ، يجعل الصورة تخالف ظلها ، وبانقلاب الصورة ظلا والظل صورة ، تقصر وتطول ، وتتكور وتتبعج حسب شعاع فكر الجاحظ الساقط عليها ، وأحيانا يحتج الجاحظ لفضيلة الطول ، وأحيانا لفضيلة العرض ، وتارات يحتج لهما معا ويجمعهما فى ابن عبد الوهاب فيرسمه طويلا قصيرا ، وعريضا مكورا فى وقت واحد .

ثم يتجاوز التصوير الكاريكاتورى جسمه ليبرز خبايا نفسه وطوايا خلقه فيتجاوز به حدود الكمال برفعه فوق قدره ، بل يجعله فوق المخلوقات ، يحرز علم الأولين والآخرين ، ويجمع محاسن الشمس والقمر وينأى عن نقائصهما ، ويخرجه عن المعايير والحدود علوا وأدبا وجمالا ثم يقارنه بمشاهير عصره وما قبل عصره فيجعله أستاذهم ومعلمهم ، وقد يفصح عن عيوبه من قبح خلقته وادعائه ومبالغته والتواء طبعه ، وعدم قابليته التعلم ، وهو فى هذا وذاك يتلاعب بعقله هازلا ويفحمه بالأسئلة الجادة الهازئة .

ثم يعرض البحث لسخريات الجاحظ فى مواقف اقتضتها واستدعتها ، وكانت الجانب الفنى فيها ، ويلونها بألوان الأجوبة المسكتة التى تلجم الخصم وتقهره ، فى منطقية وإفحام ، أو يجعل محور السخر وعماده كشف السخرة ، وإبراز ما فى عقله الباطن مما يستره ويكتمه ، أو يمزجها بحسن التعليل ولطف المدخل ، أو يوضح أن التخلص الفج كان مثيرا للضحك ، ومحقق السخر .

والتضاد من الألوان التى تحقق السخرية فى الكلام ، بل إنه يحدم فى كل سخرية بمقدار يختلف قلة وكثرة ، وسطحية وعمقا ، وبذلك يستتر لأن غيره طغى عليه ، أو يبرز ويشع ، لأنه طغى على غيره ، وعناية البحث بسخرية التضاد تختص بالتى يعمق فيها هذا المعنى

وتستحق من أجل هذا العمق أن تستقل بالاسم وقد قسمها البحث بحسب فنيتها إلى التناقض في المقالة، بحيث يناقض آخر الكلام أوله، والمفارقات التي تجمع الأضداد التي لا يتوقع الجمع بينها، كالجواب غير المتوقع، وكالدليل المضاد لما يراد، وكالنتيجة المعكوسة وكاجتماع الضدين معاً.

ومن السخريات الفنية في البحث سخرية الحركة والتصلب، وقد تكون حركة جسمية متقلبة متموجة، أو حركة نفسية هادرة ثائرة، كالصراع الذي يجول في نفس البخيل أو الطفيلي، وقد يكون التصلب جسمياً يبدو به الشخص كالتمثال، وقد يكون تحجراً عقلياً، وجموداً فكرياً، وتصرفاً رتيباً مملاً كتصرف الآلة المحدود المكرور، وكلها ألوان فنية من السخر والاستهزاء.

وللكلمة أهميتها في السخرية، وإشعاعاتها في الهزء، عن طريق التلاعب ببنيتها وشكلها الذي يترتب عليه التلاعب بمعانيها، وقد يكون بتوجيهها غير وجهتها، أو بسيرها في غير طريقها، أو في خلط الألفاظ ببعضها، حتى يضيع معناها، ويهرب المطلوب منها وقد يكون السخر آتياً من اشتقاق الكلمة اشتقاقاً يبعدها عن معناها، أو يستخرج منها معنى هازلاً حين يقارن بالمعنى الحقيقي لها... وللتقعر والتفصح وملء الفم بالألفاظ، واستعمال الخشن الوعر منها، المرتفع النبرة، العسير النطق، الغريب غير المأنوس فيما يؤدى بالسهل الميسور وبخاصة إذا خوطب به من لا يفهمه فإنه يحقق السخرية والطرب أي تحقيق...

ولأسلوب الحكيم الذي يلوي الكلام عن وجهته، والإجابة بغير ما ينتظره السائل، وما يقتضيه سؤاله، لذع معين، وسخر قاتل، كشفه البحث وأوضح وجهته.

ولما كان الجاحظ رب الفكر الناضج، والذهن الوقاد، والعلم الغزير، فإن الخطأ الذهني عنده أولى الأخطاء بالنقد، وأجدرها بالسخر والهزء، ومن أجل ذلك احتلت السخريات الذهنية من أدبه مساحات شاسعة، وقد قسمها البحث إلى الغفلة التي تظهر

فى أقوال الناس وتصرفاتهم ، والتغافل الذى يمد للغافل الحبل ، ويرخى له العنان ، ليستمر فى سقطاته ، ويحمق الساخر إن ظهر فى آخر المطاف انقلاب الوضع وأن الغافل كان متغافلا ، والمتغافل كان مغفلا ، ومن السخريات الفنية ، ادعاء الحذق والإتقان مع ظهور الجهل ، وبروز التفه والخطأ فى البديهى ، واقتراح حل غير صالح للتنفيذ والتطبيق والإتيان بالبراهين وتكلف العلل والحجج ، والإجهاد النفس فى ذلك ، والأمر بديهى مسلم به ، أو احتجاج المرء لمذهب فاسد بين البطلان بما يشبه الحجج من المغالطات والسفسطات وكل هذه ألوان فنية من التلاعب بعقل السامع تحقق السخرية ، وتولد الاستهزاء .

(٥)

وقد تمكن البحث من أن يكشف عصر الجاحظ ، ويقف على دخائل البيئة التى عاش فيها متخذا سخرياته الدليل ، ولاذع قرصاته السراج المنير فاطلع بواسطة ما تنطوى عليه هذه السخريات على ما كانت عليه الحياة الاجتماعية حيث تضخمت الثروات ، واجتمعت فى أيدى طوائف معينة من الأمة ملكوا ما لا يحصى من الأموال والضياع والجياد والقيان ، وبقى غيرهم فقيرا معدما يحترف الكدية والتسول والاحتيال طريقا لكسب قوته ، كما كان بعضهم كريما متلافا وبعضهم بخيلا لحزا يقدس المال ويجعله عدل نفسه وأهله ، ويحبسه فى خزائنه لا يخرج منه بدرهم على طعامه أو شرابه أو دوائه ، وانتشر شرب الخمور وتعاطى المسكرات ، وصار لها مجالس تنتشر فيها المنادمة والرقص والغناء والمجون ، وشاعت تجارة الرقيق وامتلاك الإماء والخصيان والغلمان .

وقد بين لنا البحث استنباطا مما انطوى عليه سخر الجاحظ — عادات العباسيين فى مشاربهم ومطاعمهم ومجالسهم ، وحدد آداب الموائد ، وما يرغبه الناس من ألوان الأطعمة وأجزاء الحيوان المرغوب فى أكلها ، كما أوقفنا على زيهم وملابسهم ، وأظهرنا على أحوالهم السياسية ، وما كان من تنكيل بالمارقين ، وحدد طوائف الجند التى تحمى الدولة ، والوظائف الحديدة التى شاعت فى هذا العصر كالوزارة والحجابة وقيادة الجند ...

أمّا العلوم والثقافات فقد حفل بها أ دعصره فالكتاب وسيلة التعليم الأولى ينتشر في القرى والمدن ، يشرف عليه معلم مثقف ، ثم المسجد المدرسة الثانية للتعليم والتثقيف يغشاه الجميع يستمعون إلى شيوخ الكلام ورواة الأخبار وإنشاد الأشعار، ثم البوادي حصن اللغة وثقاف اللسان ، ثم جماعات الأدباء والعلماء في مجالسهم التي يعقدونها للمناظرة والإنشاد، ثم ما يكون عند الخلفاء والوزراء من الضحك واللهو وما يروى فيها من سمر وقصص وأخبار .. وصل البحث من خلال السخر إلى كل هذا ، ووصل إلى أنه رغم هذه الثقافات المتعددة ، والنهضة الفكرية والأدبية التي تعتبر وثبة هائلة في خطوات الأمة العربيــــة نحو التقدم والحضارة والرقي العلمي والأدبي ، فقد وجدت مجموعات من المخرفين يدعون أنهم يرقون الضرس فيشفى ، ويكلمون العمار ويتخذون الجن خدما وأعوانا ، ويتلقــون شعرهم وإلهامهم من شياطينهم ، وظهرت طبقة من المتطببين الذين يصفون الأدوية الوهمية والمتعالمين الذين يفسرون آي القرآن تفسيرا يأباه الذوق والواقع واللغة .

أما أخلاقهم ومعتقداتهم فيظهر فيها التحلل من القيود ، والاستهانة بالقيم ، والحكم بالهوى ، وتنتشر الحرية في كل نواحي الحياة ، حرية وثيقة الصلة بالفوضى والإباحية فانتشر الكذب والسرقة ، والغش والاحتيال والآراء الفاسدة التي تحسن الكذب على الصدق ، وترفع قيمة النسيان على التذكر ، وتحسن عيش البهائم عن عيش الإنسان ، وانتشر الزنا وتعشق الغلمان ، وظهر القوادون . والعلماء أنفسهم كان بعضهم ماجنا مستهترا ، أما العقائد الدينية فقد انقسم المسلمون شيعا ، فمنهم المعتزلة والرافضة والشيعة والخوارج وظهرت ديانات ومذاهب كثيرة غير إسلامية غمرت المجتمع الإسلامي ودخل في معتقد المسلمين منها الكثير فظهرت الزندقة وكثر الإلحاد ولكن بعضا من الناس تمسكوا بدينهم ، ودافعوا عنه وأبعدوا الشوائب منه فخدموا الإسلام ، ورفعوا منارته ، وبذلك أعطانا البحث صورة واضحة لعصر الجاحظ استنبطها من سخرياته ، واستنبطناها من ثنايا كلماته .

وكما كشف البحث عصر الجاحظ من جميع نواحيه ، فقد كشف الجاحظ نفسه من خلال سخره مما استدل به عليه ، فعرفنا قبح خلقته ، واستبشاع منظره ، ونتوء عينيه ، وقصر قامته . ووقف البحث متأملا الأسباب التى تدفع الإنسان إلى السخر من نفسه فرآها خفة الروح ، والهزء بالأحداث ، وصرف الناس عن عيوبه إلى التفكه بقصصه وكلامه ، وقطع الطريق على خصمه حتى لا يجد مجالا للسخر منه وقد يتخذ ذلك للهروب من ضائقة .

أما أخلاق الجاحظ فكانت السماحة والمرح ورحابة الصدر وقوة الملاحظة والفروسة ، وشدة الفراسة ، وحب الحياة وحب أصدقائه وأساتذته ، والبعد عن الرشوة وشهادة الزور وكان مولعا بالنقد البناء ، محبا للعرب والإسلام ألف الكتب العديدة خدمة للدين ودفاعا عنه وسخرا من الشعوبيين ورأى اللغة العربية أرقى اللغات وأقدرها على القيام بمتطلبات الحياة المتحضرة ، وقد كان الجاحظ بعيدا عن التقليد والاحتذاء ، وكان يفكر ويشك حتى يصل إلى اليقين وهو فى ذلك يسبق ديكارت فى نظرية الشك الموصل إلى اليقين ، كما كان عالما محققا مجربا مستدلا وضع منهج البحث والاستقراء والاستدلال قبل فرنسيس بيكون .

ويعرض البحث لصفة البخل فى الجاحظ فينا قشها مع أدباء عصرنا فلا يرتضى رأى الأستاذين الحاجرى والعوامرى فى وصف الجاحظ بالبخل ولا يرتضى رأى الدكتور طه الحاجرى لأنه نقض بخله ولم يثبت بدله صفة أخرى ودلل البحث على أن الجاحظ كان معتدلا فى إنفاقه فلا هو بالبخيل اللحز ، ولا بالكريم المتلاف .

أما علمه وأدبه فقد سار البحث معه مرحلة حياته العلمية من الكتاب إلى المسجد إلى المربد إلى دكاكين الوراقين إلى مجالس الخلفاء والوزراء إلى الكتابة والتأليف ورأى الجاحظ قد ثقف نفسه فى كل نواحى المعرفة وحذق الفارسية وعرف آدابها وذكر البحث الأدلة على ذلك حيث وجدت جمل فارسية فى كلامه ، وبحوث فى اشتقاقات الكلمات الفارسية ، وأحاديث عن فصاحة من تكلموا بالفارسية والعربية كموسى بن سيار الأسوارى ورواية الجاحظ الشعر .

الفارسي والشعر العربي المخلوط باللغة الفارسية .

كان يميل في كتابته إلى الوضوح وينعى على علماء زمنه التعمية والإلغاز وكان يصرح بذكر السوءات والعورات وأعضائها وأفعالها وأفعالها ، ويمتاز أدبه بالواقعية ، ويخلط الجد بالهزل ، ويمزج الموضوعات ببعضها ، ويمزج العلم بالأدب .

ومن خلال سخر الجاحظ عرفنا مكانته الاجتماعية الراقية فهو جليس الوزراء والخلفاء والقضاة وهو الساخر الذي يتحاشى الناس لسانه ونقده ، وهو الغني الذي يمتلك الأموال والضياع التي لا تحتاج إلى تجديد أو تسميد ، وهو المحسود على كتبه ومنزلتها بين الناس ، وهو رئيس الطائفة الجاحظية الاعتزالية ، وقد تصدر ديوان الرسائل ثلاثة أيام ثم اعتزله لعدم موافقته طبعه المرح ، ومن كان كذلك فهو في أرفع المنازل وأسناها .

أثبت البحث جرأة الجاحظ في النقد من خلال سخرياته ، وذكر الأسباب التي ولدت فيه الجرأة ومكنتها منه فقد كان عالما ثقة ، ذا مكانة اجتماعية مرموقة ، وقدرة لغوية أدبية تمسح ما في صدر من ينقدهم من غل وموجدة ، محبا للإسلام والعرب يدافع عنهم وينقد خصومهم لا يبالي بالأذى في سبيل ذلك لأنه يحتسب جزاءه عند الله ، وقد خبر الدنيا وحركتها ، فما يبالي بما يكون منها ، لذلك لم يرهب في نقده قاضيا أو وزيرا أو خليفة أو أستاذا أو عالما حتى أستاذه النظام والأصمعي بل لقد بلغت جرأته الحد الذي هدم به كثيرا من آراء أرسطو وأبطلها بالدليل ونقد كثيرا من آراء المفسرين مما جعلهم يكيدون له ويستغلون سذاجة الناس فيتهمونه بالزندقة .

(٧)

وأراد البحث بعد أن أوضح سخريات الجاحظ وفنيتها أن ينقب عن جذورها ويبحث عمن أثروا في الجاحظ ، ومن تأثروا به ، وكيف كانت سخريته بين سخريات عصره ، ثم وازن وقارن بين كل هذه السخريات فكان الجاحظ القمة والسنام .

كانت السخرية قبله سطحية خشنة ، تقرب من الهجاء لم تلطفها الحضارة ، ولم تهذبها المدنية تكتفي بنفي الصفات المعدوحة عن من يسخر منه وتلحق به صفات العار .

فلما كان العصر الإسلامي قلت السخرية ولانت ، وفي العصر الأموي اشتهر بها رجال أوجوها في الأدب ، وكانت فيهم طبعا وسليقة ، كأشعب بن جبير أمير الطفيليين . وفي العصر العباسي ارتقى السخر وبلغ أوجه حتى اتسم العصر كله بالفكاهة والمرح ، والضحك والسخرية وكان أساتذة الجاحظ ساخرين منهم أبو عبيدة ، والنظام ، وثمامة بن الأشرس ، وأبو الهذيل العلاف ، ومن الساخرين الذين شاع السخر في لسانهم ، وذاع في أحاديثهم أبو العيناء والجماز ، وبشار بن برد ، وأبو نواس ، وابن الرومي ، وعلى رأسهم أستاذهم الفذ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، الذي أنتج مدرسة ، وخرج تلاميذ ، كانوا بهجة الحياة من بعده ، وظلها الظليل ، منهم ، أبو حيان التوحيدي ، وأبو بكر الخوارزمي ، وابن زيدون ، وقد أنشأ كل منهم رسالة على غرار رسالة التربيع والتدوير وإن لم يبلغوا شأوه ، ولا قاربوا خطوه ، فقد بذهم بفضيلتي الابتكار والإجادة .

وأخيرا يضع البحث سخرية الجاحظ في ميزان النقد فترجح كفته ، وتشيل كفة سابقيه ولا حقيه ، ويظهر فوق أبي عثمان وتبريزه ، وامتداد أثره في الأجيال التي تلته ، وفي الأمصار النائية عنه ، ويصل إلى الأندلس فيظهر على لسان ابن زيدون ، ويمتد عبر الأجيال فيلقفه الشيخ عبد العزيز البشرى .

المصادر والمراجـــع

الرقم	اسم الكتـــــــــاب	اسم المؤلـــــف	معلومات عن الكتاب
١	اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى	محمد مصطفى هدارة	طبعة دار المعـارف
٢	إحياء علوم الديـــــن	أبو حامد الغزالـى	المطبعة الميمونيـــة
٣	أخبار الحمقى والمغفلين	عبد الرحمن بن الجوزى	المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع بيروت
٤	أخبار الظراف والمتماجنين	عبد الرحمن بن الجوزى	مطبعة التوفيق بدمشق سنة ١٩٣٠م
٥	أدب الجاحـــظ	حسن السندوبى	المطبعة الرحمانية ١٣٥٠هـ
٦	أدب العـــرب	مارون عبود	دار الثقافة ببيروت ١٩٦٠م
٧	أدباء العرب	بطرس البستانى	مكتبة صادر ببيروت ١٩٣٤م
٨	الأذكيـــاء	عبد الرحمن بن الجوزى	تحقيق أسامة عبد الكريـم الرفاعى طبعة دمشق مكتبة الغزالى
٩	أساس البلاغــة	جار الله الزمخشرى	تحقيق عبد الرحيم محمود سنة ١٩٥٣م مطبعة أولاد أورفاند
١٠	أشعب أمير الطفيليين	توفيق الحكيم	كتاب الهلال إبريل ١٩٥٢م
١١	الأعلام	خير الدين الزركلى	الطبعة الثانية الجزء الخامس
١٢	الأغانى	أبو الفرج الأصفهانى	كتاب التحرير
١٣	الإمتاع والمؤانسة	أبو حيان التوحيدى	تحقيق أحمد أمين لجنـة التأليف ١٩٤٢م
١٤	أمراء البيان	محمد كرد علـى	لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٧م الجزء الثانى
١٥	البداية والنهاية	عماد الدين أبا الفداء	مطبعة السعادة ج ١ ص ٧
١٦	البصائر والذخائر	أبو حيان التوحيدى	تحقيق أحمد أمين

المصادر والمراجع

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	معلومات عن الكتاب
٣٠	الجاحظ	جورج غريب	الموسوعة في الأدب العربي ١ دار الثقافة بيروت ١٩٧١.
٣١	الجاحظ	د. أحمد الحوفي	دراسات في الإسلام ٣٨
٣٢	الجاحظ	د. أحمد كمال زكي	أعلام العرب ٦٢ سنة ١٩٦٧
٣٣	الجاحظ	محمد عطيه الإبراشي	مطبعة نهضة مصر
٣٤	الجاحظ حياته وآثاره	د. طه الحاجري	طبعة دار المعارف ١٩٦٢
٣٥	الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء	شارل بلات	تعريب إبراهيم كيلاني طبعة دار اليقظة
٣٦	الجاحظ معلم العقل والأدب	شفيق جبري	طبعة دار المعارف ١٩٤٨
٣٧	الجاحظ ومجتمع عصره	جميل جبر	المطبعة الكاثوليكية بيروت.
٣٨	الجامع لأحكام القرآن	القرطبي	دار القلم الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٨.
٣٩	جحا الضاحك المضحك	عباس محمود العقاد	طبعة دار الهلال.
٤٠	جمع الجواهر في الملح والنوادر	الحصري	تحقيق علي البجاوي دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٢ هـ
٤١	حديث الأربعاء	د. طه حسين	الطبعة التاسعة
٤٢	حصاد الهشيم	إبراهيم عبد القادر المازني	طبعة دار الشعب ط٣ سنة ١٩٦٩.
٤٣	حكاية أبي القاسم البغدادي	أبو المطهر الأزدي	مكتبة المثنى ببغداد
٤٤	أبو حيان التوحيدي	إبراهيم كيلاني	تراث الفكر العربي ٢١
٤٥	أبو حيان التوحيدي	د. أحمد محمد الحوفي	مطبعة نهضة مصر
٤٦	أبو حيان التوحيدي	د. زكريا إبراهيم	أعلام العرب ٣٥

المصادر والمراجع

الرقم	اسم الكتـــــاب	اسم المؤلف	معلومات عن الكتاب
٤٧	الحيوان	الجاحظ	تحقيق عبد السلام هارون ط ١٩٤٣ • مطبعة محمد مصطفى البابي الحلبي •
٤٨	خزانة الأدب وغاية الأرب	ابن حجة الحموي	بدون تاريخ أو اسم الناشر أو اسم المطبعة
٤٩	ديوان البحتري	البحتـــري	مطبعة هندية عام ١٩١١ الجزء الأول
٥٠	ديوان ابن الرومي	ابن الرومـــي	تحقيق كامل كيلاني - التجارية عام ١٩٢٤
٥١	ديوان أبي العتاهية	أبو العتاهية	؟
٥٢	رسائل الجاحظ	عمرو بن بحر الجاحظ	تحقيق عبد السلام هارون سنة ١٩٦٥م مكتبة الخانجي
٥٣	رسائل الجاحظ	عمرو بن بحر الجاحظ	جمع حسن السندوبي سنة ١٣٥٢ هـ المطبعة الرحمانية
٥٤	رسائل الجاحظ	عمرو بن بحر الجاحظ	دار النهضة الحديثة • بيروت
٥٥	رسائل الخوارزمي	أبو بكر الخوارزمي	تصحيح محمد قطه العدوي مطبعة رشدي
٥٦	رسائل الخوارزمي	أبو بكر الخوارزمي	المطبعة العثمانية ١٩١٢م
٥٧	روح المعاني	الالوسي	الطباعة المنيرية ج ١ج ١٢
٥٨	ابن الرومي حياته من شعره	عباس محمود العقاد	هلال يناير ١٩٦٩م
٥٩	زهر الآداب وثمر الألباب	الحصـــري	شرح زكي مبارك تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد مطبعة السعادة عام ١٩٥٣م
٦٠	ابن زيدون	د • حسن جاد حسن	المطبعة المنيرية ١٩٥٥
٦١	ابن زيدون	ولهم الخازن	مكتبة الحياة بيروت
٦٢	ساعات بين الكتب	عباس محمود العقاد	مكتبة النهضة ط٤ ١٩٦٨
٦٣	سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون	جمال الدين بن نباته المصري	تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم طبعة دار الفكر

المصادر والمراجع

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	معلومات عن الكتاب
٦٤	سيكلوجية الضحك	د. أحمد عطية الله	دار النهضة المطبعة العالمية ط٢ سنة ١٩٦٥.
٦٥	سيكلوجية الفكاهة والضحك	د. زكريا ابراهيم	دار مصر للطباعة.
٦٦	شرح المختصر	سعد الدين التفتازاني	تعليق الأستاذ عبد المتعال الصعيدي طبعة المكتبة المحمودية التجارية ١٩٥٦.
٦٧	شرح مقامات الحريري	الشريشي	طبع بولاق
٦٨	الصحة النفسية	د. مصطفى فهمي	مطبعة التقدم.
٦٩	الضحـــك	هنري برجسون	ترجمة سامي الدروبي وعبد الله عبد الدائم مطبعة دمشق ١٩٦٤
٧٠	الضحك وفن الإضحاك	الحسيني علي فرعون	مطبعة الدار المصرية للطباعة والنشر والتوزيع.
٧١	ضحى الإسلام	أحمد أمين	طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٩ مطبعة الاعتماد
٧٢	الطرائف الأدبية	الشيخ عبد العزيز الميمني	طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٧.
٧٤	أبو عثمان الجاحظ	د. محمد عبد المنعم خفاجة	دار الطباعة المحمدية
٧٥	عصر المأمون	د. أحمد فريد رفاعي	مطبعة دار الكتب ١٩٢٧
٧٦	العقد الفريد	أحمد بن عبد ربه	ج ٤ مطبعة مصطفى محمد ١٩٥٤ ج ٦ مطبعة لجنة التأليف ١٩٤٩
٧٧	العمـــدة	ابن رشيـــق	مطبعة السعادة ط٣ سنة ١٩٦٣
٧٨	عيون الأخبار	ابن قتيبـــة	المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

المصادر والمراجع

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	معلومات عن الكتاب
٧٩	غرر الخصائص الواضحه وعرر النقائص الفاضحة	جمال الدين الوطواط	المطبعة المصريه بولاق ١٢٨٤هـ
٨٠	الفكاهة فى الأدب	د. أحمد الحوفى	طبعه دار نهضة مصر ١٩٦٦م
٨١	الفكاهة فى مصر	د. شوقى ضيف	كتاب الهلال فبراير ١٩٥٨ مطبعة دار الهلال .
٨٢	فن الشعر	أرسطو طاليس	ترجمة عبد الرحمن بدوى
٨٣	فن القصص فى كتاب البخلاء .	محمد المبارك	طبعة دار الفكر بدمشق ط ٢ سنة ١٩٦٥م
٨٤	الفن ومذاهبه فى الشعر العربى	د. شوقى ضيف	الطبعه ٣ دار المعارف
٨٥	الفن ومذاهبه فى النثر العربى .	د. شوقى ضيف	الطبعة ٦ طبعة دار المعارف
٨٦	فيض الخاطر	أحمد أمين	طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٧م ج ٢، ٧
٨٧	فى علم النفس	محمد عطية الإبراشى وآخرين .	الطبعة المصرية ١٩٣٤م
٨٨	القاموس المحيط	الفيروزابادى	الطبعة الرابعة ١٩٣٨ .
٨٩	قصة الفلسفة اليونانية	أحمد أمين وزميله	طبعة لجنة التأليف ١٩٤٩
٩٠	قطب سرور	الشيخ عبد العزيز البشرى .	طبعة دار الكتب ١٩٢٧م
٩١	الكامل	ابن الأثير	إدارة الطباعة المنيرية . سنة ١٣٥٧هـ ج ٥
٩٢	كتاب البخلاء	الجاحظ	تحقيق طه الحاجرى
٩٣	كتاب البخلاء	الجاحظ	ضبط العوامرى والجارم ج ١ ١٩٣٨ ج ٢ عام ١٩٤٠ .

المصادر والمراجع

الرقم	الاســــم	اسم المؤلــــف	معلومات عن الكتــاب
٩٤	اللآلى فى شرح أمالى	أبو عبيد البكرى	نشر عبد العزيز الميمنى ١٩٣٦
٩٥	القالى		
٩٦	لسان العرب	ابن منظور	الجزء السادس عشر
٩٧	مجلة الموسى	مقال (الجوج جزواق)	السنة ١ العدد ١٢
٩٨	مجلة المعرفة		العدد ١٨ أكتوبر ١٩٣٢
٩٩	مجموعة رسائل الجاحظ	الجاحظ	محمد الساسى مطبعة التقدم
١٠٠	مجموعة رسائل الجاحظ	الجاحظ	طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٠١	مجموعة رسائل الجاحظ	الجاحظ	طبعة بيروت دار النهضة ١٩٧٢
١٠٢	محاضرات الموسم الثقافى ٦٤/٦٣	د. عبد الكريم الأشتر	ج ٧ طبعة الوزارة دمشق ١٩٦٤ محاضرة فى ١٩٦٣/١/٢٤
١٠٣	المختار	الشيخ عبد العزيز البشرى	مطبعة دار المعارف ج ٢
١٠٤	مختار الصحاح	الرازى	ط ٧ المطبعة الأميرية
١٠٥	مروج الذهب ومعادن الجوهر	المسعودى	تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، كتاب التحرير مؤسسة الطباعة لدار التحرير
١٠٦	المزهر فى علوم اللغة	جلال الدين السيوطى	مطبعة محمد على صبيح ج ٢
١٠٧	المستطرف فى كل فن مستظرف	الأبشيهى	الطبعة الأخيرة ١٩٥٢ مطبعة مصطفى البابى الحلبى
١٠٨	مطالعات فى الكتب والحياة	عباس محمود العقاد	مطبعة الاستقامة ط ٢
١٠٩	معجم الأدباء ج ١٦	ياقوت	تحقيق أحمد رفاعى بك مطبعة دار المأمون

المصادر والمراجع

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	معلومات عن الكتاب
١١٠	معجم مصطلحات علم النفس	منصور وهيبة الخازن	دار النشر للجامعيين مطابع سميا بيروت .
١١١	المنتخب من أدب العرب	جمع طه حسين وآخرين	طبعة دار الكتب ١٩٣١ ج ٢
١١٢	المنجد		ط ١٨ المطبعة الكاثوليكية
١١٣	من حديث الشعر والنثر	د . طه حسين	طبعة عام ١٩٦٥
١١٤	مهذب الاغاني	تصنيف محمد الخضرى	مطبعة مصر ج ٩
١١٥	النثر الفنى وأثر الجاحظ فيه	عبد الحكيم بلبع	طبعة مكتبة الإنجلو سنة ١٩٥٤ مطبعة الرسالة .
١١٦	نشوار المحاضرة	القاضى التنوخى	مطبعة المفيد بدمشق ١٩٣٠
١١٧	نكت الهميان فى نكت العميان	صلاح الدين الصفدى	تحقيق أحمد زكى باشا
١١٨	نهاية الأرب فى فنون الأدب	شهاب الدين النويرى	مطابع كوستاتوماس وشركاه السفر الرابع (تراثنا)
١١٩	أبو نواس	عبد الرحمن صدقى	هلال أغسطس سنة ١٩٥٣
١٢٠	وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان	ابن خلكان	تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد نشر مكتبة النهضة ١٩٤٨

فهـــــــرس

فهرست

فهرست

فهرست